دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكّمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

السنة الخامسة عشرة ، العددان ٤٩ و ٥٠ ، آذار – حزيران ١٩٩٤

المدير المسؤول : د. شاكر الفحام	رئيس التحرير : ناظم كلاس

الاشتراكات	**للأفراد**	**للمؤسسات**	**للطلاب**
في القطر السوري	(١٠٠) ل.س	(٢٠٠) ل.س	(٥٠) ل.س
في الأقطار العربية	(١٠) دولارات امريكية	(٢٠) دولارا	
في البلاد الأجنبية	(١٥) دولارا	(٣٠) دولارا	

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام ، ويتم تسديد بدل الاشتراك بنسيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب ، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣ .

المراسلات : لجنة كتابة تاريخ العرب ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق

المكاتب : جامعة دمشق ، هاتف / ٢٢٢٢٤٦١ /

شروط النشر في المجلة

ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من **مشروع كتابة تاريخ العرب** ، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الفرض الاساسي ، وهو كتابة تاريخ وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الفرض الاساسي ، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ،والتقيد بأسلوب البحث العلمي ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي ، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مساره الخاص ، وايضاح ما لفه الغموض ، وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع ، وكل ما يمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترح وراي يساعد في مسيرتها ، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به ، على أن يراعى فيها ما يلي :

آ ـ ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب ـ ان لا يكون البحث منشورا من قبل .

ج ـ ان يكون مطبوعا على الآلة الكاتبة ، خاليا من الاخطاء الطباعية .

د ـ تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر ، وفق المعايير المذكورة اعلاه ، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال ، بما يتوافق مع اغراض الصياغة.

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع ، ولذلك يحسن ان يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها ، على النحو التالي :

آ ـ في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى) :

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين (   ) ان كان متوفى ، اسم المصدر او المرجع وتحته خط ، عدد المجلدات أو الاجزاء ، اسم المحقق ان وجد ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

ب ـ في محاضر المؤتمرات :

ذكر اسم الباحث كاملا ، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين «   » ، عنوان الكتاب كاملا ، اسم المحرر أو المحررين ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

جـ ـ في المجلات :

اسم الباحث كاملا ، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين «   » اسم المجلة كاملا وتحته خط ، رقم المجلد او السنة ، رقم العدد وتاريخه ، الصفحة .

ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية :

د ـ في المخطوطات (للمرة الاولى) :

اسم المؤلف كاملا ، عنوان المخطوط كاملا ، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد أوراقها ، رقم الورقة من الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب) . ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية .

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين (   ) ، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة * . **وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من اول البحث الى آخره ، دون التوقف عند نهاية الصفحات .**

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والاعداد الصادرة خلال ذلك العام ، مع عشرين (مستلة) من البحث .

دراسات تاريخية

السنة الخامسة عشرة ، العددان ٤٩ و ٥٠ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٤

تنويــه :

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظــر صاحبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنيــة

تصدرها وتشرف على تحريرها

لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

د. محمد زياد الشويكي رئيس جامعة دمشق ، د. شاكر الفحام ،
د. عادل العوا ، د. نبيه عاقل ، د. عبد الكريم رافق ، محمد محفل ،
د. خيرية قاسمية ، د. محمد حرب فرزات ، د. عادل زيتون ،
ناظم كلاس ، د. مفيد رائف العابد رئيس قسم التاريخ

من تاريخ اللغة العربيـــة (٤)

لهجتا قريشــ وتميــم والاختيــار اللغــوي

د. مسعود بوبو
جامعــة دمشــق

الملاحظ بوجه عام أن علماء العربية القدماء لم يولوا المظاهر اللهجية في زمنهـم من العناية والاهتمام ما أولوه للهجتي قريش وتميم اللتين خصوا السمات اللهجيـة المروية عنهما بفضل تأمل وتدبر ، لان مظاهر الاختلاف بينهما اكثر تعددا وتنوعا ، وصلة باللغة الادبية العالية . ولان القبيلتين تبوأتا منزلة بارزة بين قبائل العرب : دينيا ، وادبيا ، وجغرافيا ، اذ احتلت تميم مكان الصدارة في نجد ، واحتلت قريش مكان الصدارة في الحجاز ، وبلهجتيهما كثـر الاحتجاج والاقتـداء ، وعليهمـا قاس اللغويون فيما بعد ، الا أن نزول القرآن بلهجة قريش رجح كفتها في الفصاحة ، ورفع مكانتها في الدين والحسب والنسب والمجد .

ولقد كان من مظاهر الاختلاف بين اللهجتـين ـ على ما تـروي كتب اللغــة ـ الصور التاليــة :

ـ تحقيق الهمز عند التميميين وتسهيله أو تخفيفه عند الحجازيين ، فالحجازيون كانوا يقولون مثلا : بير ، فواد ، بيس .. في « بئر » ، « فـؤاد » ، «بئـس» . وعلى ذلك قراءة نافع وابي جعفر (من اشهر قراء المدينة) : (وبيس المهـاد) و (أصبح فواد أم‌موسى‌فارغاً) و (خاسياً وهو حسير) بدلا من «بئس» و «فؤاد» و «خاسئاً» . والتميميون يحققون الهمز في هذا كله ، بل ربما بالغوا فهمزوا ما ليـس بمهموز أو نبروه . وتلك ظاهرة فاشية بين العرب غالبة على التسهيل . قـال ابن الجـزري : « ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقاً ، وأبعدها مخرجاً ، تنـوع العـرب في تخفيفه بأنواع التخفيف ، كالنقل ، والبدل ، وبين بين ، والإدغام وغير ذلك .. وحكى المبرد بسنده عن ابي زيد الأنصاري أنه سمع عمرو بن عبيد يقرأ : (فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جأن) بهمز « جأن ». قال أبو زيد : فظننت قـد لحن ، الـى أن سمعت العرب تقول : شأبة ، مأدة ، دابة ، وعليه قول كثير :

نشرت الحلقة الاولى من هذه الدراسات في العدد ٣٣/٣٤ (١٩٨٩) ، والثانية في العدد ٣٧/٣٨ (١٩٩٠) والثالثة في العدد ٤٧/٤٨ (١٩٩٣) .

إذا ما العوالي بالعبيط احمارّت(١)

ومن ذلك قول بعضهم : لبأ بالحج تلبئة ، واصله [لبى] غير مهموز . قال الفراء : ربما خرجت بهم فصاحتهم الى همز ما ليس بمهموز ، قالوا : لبأ بالحج ، وحلأ السويق . ورثأ الميت . . والمشهور ان العرب تركت الهمز في كلمات معدودات لكثرة الاستعمال نحو : الخابية من خبأ . والبرية من برأ الله الخلق ، والذرية من ذرأ الله الخلق . . وعلى العموم فان الأكثر عند العرب الهمز ، وعلى ذلك نزول القرآن واختياره نبر الهمز لغة فصيحة ، وإن لم يلزم الحجازيين بتحقيقه ، لذا كان اهل مكه والمدينة لا ينبرون الا اذا اضطروا وأرادوا محاكاة التميميين استلطافاً لهذه الصفة الحلوة من صفات لهجتهم . أو خروجا على سليقتهم في تسهيل الهمزة في غير لهجات خطابهم العادية . لشعورهم بان تحقيق الهمزة في الاساليب الادبية من شعر وخطابة اقرب الى الفصاحة من تسهيلها ، يقول سيبوية : « ليس أحد من العرب الا ويقول تنبأ مسيلمة ، بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز في النبي كما تركوه في الذرية والبرية والخابية ، الا أهل مكة ، فانهم يهمزون هذه الاحرف (يعني الكلمات) ولا يهمزون غيرها ، ويخالفون العرب في ذلك »(٢) . وجاء في « لسان العرب » ان قريشاً واهل الحجاز لا ينبرون سوى الهمزات التي يبتدأ بها(٣) .

ومعيار الترجيح العام لتخفيف الهمز او تحقيقه عند العرب يتوقف على المعنى . فهو العمدة او ما يحتكم إليه في التفريق بين معاني ما يهمز وما لا يهمز من الكلام ، وعليه تنبني نتائج خطيرة . من مثل ذلك ما جاء في معجم « مختار الصحاح » لابي بكر الرازي ، قال: أدفيت الجريح : أجهزت عليه . وفي الحديث « أنه صلى الله عليه وسلم أتي بأسير يوعك . فقال لقوم : اذهبوا فادفوه » ، وأراد الدفء من البرد ، فذهبوا به فقتلوه . فوداه صلى الله عليه وسلم(٤) . اي : دفع ديته .

ـ ومن وجوه الاختلاف بين اللهجتين إدغام المثلين عند التميميين وفك هذا الادغام عند الحجازيين ، ويمثلون للهجة تميم بقول شاعرها جرير بن عطية الخطفي :

فغضّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

(غضّ) فعل امر يقال بلهجة قريش : اغضض ، وعلى ذلك قوله تعالى : (واغضض من صوتك) . وعلى غرارها جاءت امثلة متعددة في آيات أخر ، ولكنها قرئت بالادغام عند تميم . كمألوف نطقنا اليوم في اقطار العربية .

ـ ومنها : إبدال المد في القافية نوناً عند التميميين تسمى نون الترنم ، وحذف هذه النون عند الحجازيين ، نحو قول جرير في رواية لبيته المشهور :

أقلي اللوم عـازل والعتابـن   وقولي ان اصبت لقـد اصابن

اما الحجازيون فيقولون ذلك :

أقلي اللوم عـازل والعتابـا   وقولي ان اصبـت لقـد اصابا

ـ ولعل من اوسع أمثلة الاختلاف بين اللهجتين ما يتصل بالحركات ، أو بالعلل القصيرة Short Vowele (الضمة والفتحة والكسرة) سواء في الاسـماء أم في الافعال نحو :

ـ حصاد ، قطاف ، حج .. هي عند تميم بفتح أوائلها ، وعند قريش بالكسر .

ـ اسوة ، قدوة ، مرية(٥) ، مدية ، رضوان ، غلظة .. هي عند تميم بضـم أوائلها ، وعند قريش بالكسر .

ـ ومنها : اختلاف القبيلتين في التسكين والتحريك ، فمن القرآن الكريـم نذكر الامثلة التالية : (قدرة ، جزءاً ، أكلها ، القدس ، رسلنا ، السحت ، عسراً ، نكراً ، خطوات ..)، قرئت كلها بالتسكين (على الحرف الثاني منها) في لغة تميـم وأسد ، وبالتحريك (بالضم) عند أهل الحجاز .

ـ واختلفت القبيلتان في عين الفعـل ، في المضارع ، بين الفتح والكسر ، فكانت أمثلة كثيرة ، كالأفعال : (زهد ، حقد ، نزع ، حسب ، بطـح ، نحـت ، قحل..) مكسورة عين الفعل عند تميم ، وعند قريش مفتوحة العين . ولعلها المرة الاولى التي نرى الحجازيين فيها يميلون الى الفتح في النطق ، ويفضل التميميون الكسر !. ومن شواهد ذلك في الاسماء قول قريش : الشفع والوتر (بفتح الواو) ، وتميـم تقـول بكسرها .

ـ ومما يتصل بالحروف والاصوات نجد أمثلة متعددة تتناقلها كتب اللغـة دونما تعليق أو تحليل ، مكتفية بعزوها الى القبيلتـين ، كلٌ بحسـب نطقها ، فاذا ما تأملتها في إمعان ومقارنة وجدت أنها لا تنقاد لحكم عـام يمكنـك مـن استخلاص خصائص كل من اللهجتين ، وإليك بعض ما قيدوه من ذلك :

تميم تقول : ثومها ، الثام ، وقريش تقول : فومها ، اللفام (تبادل الحرفين : ث ، ف) .

تميم تقول : شمر عن صاقه ، الصماخ وقريش تقول: شمر عن ساقه ، السماخ (تبادل الحرفين : ص ، س).

تميم تقول : افلطني الرجل افلاطا ، فحصط برجلك ، وقريش تقول : أفلتني إفلاتاً ، فحصت (تبادل الحرفين : ط ، ت) .

تميم تقول : قشطت الجل عن الفرس، وقريش تقول : كشطت الجل عن الفرس (تبادل الحرفين : ك، ق).

تميم تقول : فاضت نفسه (خرجت) ، وقريش تقول : فاظت نفسه (تبادل الحرفين : ض ، ظ) .

تميم تقول : قلنسوة ، مبيوع ، مديون ، وقريش تقول : قلنسية ، مبيع،مدين (تبادل الحرفين : و ، ي).

تميم تقول :صوام، نوام ، صواغ ، مواثيق ، وقريش تقول : صيام ، نيام، صياغ ، مياثيق (تبادل الحرفين : و ، ي)(٦) .

والذي يمكن ان نلحظه على هذه الامثلة بوجه عام هو أن نطق قبيلة تميم يميل الى تفضيل الاصوات المفخمة ، المجهورة (الشديدة) والمستعلية غالبا عوضا من الاصوات المهموسة ، الرخوة ، الرقيقة ، كما يمكن أن نستنتج من تأمل صفات هذه الحروف ومقارنة بعضها ببعض . ولكن هذا الحكم ليس مطردا ، لان امثلة اخرى تروى نقيض هذه ، أو على الاقل : لا تتفق معها نحو قولهم :

تميم تقول : قليت البر قلياً وقريش تقول : قلوت البر قلواً . فها هنا نجد أن قريشاً هي التي مالت الى الواو بخلاف الامثلة السابقة . وقل مثل ذلك في : فرغ يفرغ فراغاً (بلغة تميم) ، وهي بلغة قريش : فرق يفرغ فروغاً .

ورب باحث يقول:قريش تميل الى المد(٧)، أو الحجازيون يفضلون الكسر(٨) ، وشاهد المد عند قريش قولهم : أولاء (في اسم الاشارة للجمع) ، على حين تقول تميم فيه : أولي . ولكن هذا وحده لايكفي ، لان قريشاً تقول مثلاً : اوصدت ، فلا تمد ،في

حين تقول تميم : آصدت ، فتمد . ولقد سلف تقييد امثلة تشير ايضاً الى ان قريشاً لا تفضل الكسر وحده ، بل هي تفتح عين الفعل المضارع في مثل : زهد ، حقد ، والاسم في الوتر . وقريش تقول : برات ، وانا منك براء ، (فتفتح) ، وتميم تقول ، برئت، وانا منك بريء (فتكسر) . و (نستعين) من سورة الفاتحة مفتوحة النون في لغة قريش ، وقراءتها بالكسر لغة تميم وأسد وربيعة (٩) .

وقد يقال مثلا: ان لهجة تميم تميل الى الهمز(١٠) بدلا من الواو ، يقولون : اكدت، وقريش تقول : وكدت . ويقولون : إكاف ، وقريش تقول وكاف . ولكن هذا الحكم يتعارض ايضا بقول قريش : ذأى البقل يذأى ، ويقول تميم : ذوي يذوي ، فتميل هنا الى الواو عوضا من الهمز . وكذلك تقول قريش : أيهات فتميل الى الهمز ، وتقول تميم : هيهات .

وفي الاعراب قد تتفق القبيلتان ، ولكنهما مع ذلك تختلفان في الاسم او الاداة، وقد يكون العكس ، فقريش مثلا يقولون : ما رأيته منذ يومين ، أو يومان . في حين تقول تميم: ما رأيته (مذ) يومين ، أو يومان . الاعراب متفق ، ولكنهم اختلفوا في منذ ، ومذ .وعلى النقيض من ذلك تنصب قريش خبر (ما) النافية ، وليس في الارض حجازي إلا وينصب – كما يقول ابو عمرو بن العلاء(١١) . ولا في الارض تميمي الا وهو يرفع . وعلى لهجة الحجاز قرئت الآية الكريمة : (ما هذا الا بشراً) . أي انهما تختلفان في الاعراب . وكذا الامر في نصب الخبر المستثنى ورفعه في النفي بليس في مثل قولهم : ليس الطيب الا المسكَ أو إلا المسكُ . الحجازيون ينصبون وتميم يرفعون .

وتميم تقول : الاته يليته (حبسه او انقصه من حقه) ، تعدّيه بهمزة ، وقريش تقول: لاته يليته (بالثلاثي) . ولكن تميماً تقول أيضا : هلكه ،بمعنى : أهلكه، فتخالف بذلك الشاهد السابق نفسه .

وفي الاصوات والصرف ثمة ألفاظ تجيء ساكنة في لهجة تميم نحو : جُمْعة ، حُمْر ، كبْد ، فخْذ .. وتجيء محركة الموضع في لهجة قريش .

وأهل الحجاز يقولون : خمس عشرة (خفيفة) لا يحركون الشين ، وتميم تثقّل وتكسر الشين ، ومنهم من يفتحها . واهل الحجاز يقولون : جونة (بغير همز) ، وتميم تقول : جؤنة (بالهمز) . وفي القلب أهل الحجاز يقولون : لعمري ، وتميم تقول : رعملي .

ــ ولعل من ابرز وجوه الاختلاف بين لهجتي القبيلتين ميــل الحجازيين الى تأنيث كثير من الاسماء التي هي موضع نظر ، أو تقال بالتذكير مرة وبالتأنيث مرّة في كتب اللغة والمعاجم ، نحو : العنق ، العضد ، الطريق ، السبيل ، السوق ، التمر ، البُسْر ، الشعير ، البُرّ ، الذهب . .على حين يميل التميميون الى التذكير فيها(١٢). وقد يبدو هذا موضع استغراب ، حتى لقد رأى المرحوم الدكتور صبحي الصالــح انه « لا يمت الى المنطق العقلي بصلة »(١٣) . وفيه بعض تسرع ، ذلك أن الظواهــر اللغوية ليست منطقية اصلا ، ولا اللغة نفسها منطقية دائماً . ولعل ما يفسر هذا الميل عند الحجازيين وفي شمالالجزيرة العربية الى التأنيث شيوع الآلهة المؤنثة هنالكقديماً أكثر من جنوبها ، ويبرز هذا خاصة في لهجة كنانة ، وكأنهــم كانوا يتفاءلــون بتلك التسميات أو يتلذذون ويتحببون .

نخلص من هذا الى أن قريشا غالبا ما كانت أقرب الى أساليب القول والنطــق السليم عند العرب وأكثر توافقا مع لغة القرآن والموروث الادبي ، وان تميماً لا تخلو في نطقها من كلفة وكزازة قد ترجمان الى طبيعتها البدوية . وتلك فكــرة يميل اليهــا الدارسون ، ويقويها التحليل الصوتي في الامثلــة التــي استعرضناها مقارنــين بين صفات الحروف . أي أن سمات الخشونة والبداوة تلمح غالبا في أساليب تميــم اللهجية ، يقابلها في لهجة الحجاز رقة لا تخفى في الذوق والالسنة ، وقد يفاضل الذوق السمعي من ذلك بين نطقي القاف المعروف في القراءات القرآنية اخذا بلهجــة الحجاز ، وبين القاف التميمية التي تلحق باللهاة فتكون بين القاف والكاف . أو بين القاف والكاف والجيم (القاهرية) غير المعطشة ، كما في قول شاعر تميمي :

ولا اكول لكدر الكوم : كد نضجت   ولا أكول لباب الــدار مكفول(١٤)

ولولا أن بقايا هذه اللهجة ما تزال مسموعة في كثير من المناطق العربية الىاليوم لظن ان هذا البيت متكلف مصنوع رصفت فيه (القافات) عمدا بهذا النطق لبيــان مصداق حكمهم على لهجة تميم بالخشونة والمخالفة .

لقد توقفنا عند لهجتي تميم وقريش قليلا لان المظاهر اللغوية فيهما ادعى الى التامل والمدارسة مما سبق وعرضنا له من ألقاب اللهجات الاخرى التي تطغى عليهــا الخصائص الصوتية النطقية . ففي اختلاف لهجتي تميم وقريش رأينا أن الهمز قد يؤدي ــ بين تسهيله وتحقيقه ــ الى تغيير المعنى كما في لفظة (أدفوه) التي ســلف ذكرها ، أي أن في اللهجتين ما يتصل بالجانب الدلالي ، كما فيهما ما يتصل بالصرف والتجويد (في ادغام المثلين نحو : اغضض وغض) ، وفيهما ما يتصل بالجانب الاعرابي.

ومثل هذه الخصائص لا بد ان يكون لها أثر ملحوظ في العربية الفصحى ، ولعل أسلم الطرق الى التماس هذا الاثر أن نحتكم الى لغة القرآن ، والى احتجاج النحاة واللغويين ، عند ذاك سنجد القرآن يتضمن شواهد من اللهجتين ، وخاصة في تذكير الاسماء وتأنيثها ، كما نجد ان اللغويين يستشهدون باللهجتين وبشعرهما ونثرهما عامة على صحة اللغة . وفي النهاية يتبين لنا ان ظواهر اللهجتين ليست مطردة ـ كلاً على حدة ـ ولا ملتزمة ، أو تمثل قواعد صارمة نص النحاة على الاخذ بها وحدها في الاساليب، أو جعلوا القياس وقفا على احداهما . انما الذي يستخلص من كتب التراث يفيد ان كلاً من القبيلتين التزمت بخصائصها اللهجية المحلية التي سلف ذكرها . وكان لكل قبيلة (لحنها) الخاص الذي تلهج به وعاداتها الصوتية التي تتمسك بها وتبقي عليها فلا تلقن غيرها الا على قلة وبطء . لكن العامل المؤثر في حركة العربية الفصحى ، في هذه المرحلة كان الدين الاسلامي ، والدين على مر العصور من أبرز العوامل المؤثرة في تاريخ اللغات . فالقرآن الكريم . كتاب المسلمين المقدس نزل بلهجة قريش بصفة غالبة ، مما أعلى من شأنها وأحلها مكان الصدارة بين لهجات القبائل العربية كلها . وقد زاد من مكانتها ـ فيما بعد ـ ما روي ونص عن الاخذ بها . من ذلك ما رواه البخاري في « صحيحه » عن أنس بن مالك من أن الخليفة عثمان بن عفان لما أمر بجمع القرآن عهد بذلك الى (لجنة) رباعية مؤلفة من زيد بن ثابت من المدينة . ومن عبد الله بن الزبير ، وسعد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ،وكلهم قرشيون . ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : « اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه انما نزل بلسانهم »(١٥) .

وروي ان عمر بن الخطاب كتب الى ابن مسعود : « ان الله عز وجل انزل هذا القرآن فجعله عربيا ، وأنزله بلغة قريش . فقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام »(١٦) .

وروي عن زيد بن ثابت حين أراد ان يكتب (التابوت) بالهاء على لغة الانصار ، انهم منعوه من ذلك ، ورفعوه الى عثمان فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش(١٧) . وهذا ما ارتقى بلهجة قريش الى مرتبة التقديس وجعل منها مقياسا أساسيا لسلامة العربية الفصحى وصحة الاحتجاج .

أما العامل الثاني الذي رجح كفة قريش على غيرها شيئا فشيئا فهو « الاختيار » اللغوي الذي أثر عنها ، ولكن عملية الاختيار التي انتهجتها قريش من الفاظ القبائل الاخرى واساليبها لم تكن تستند الى شرائط معينة . ولم تكن خاضعة لقوانين معلومة تلتزم بها ، انما نستخلص من الاخبار اللغوية والتاريخية الكثيرة انها كانت تتجنب أخذ

الغريب المتقعر ، وترد الشعر أو تقبله عندما يعرضه عليها الشعراء كاستحسانها لقصيدة علقمة بن عَبَدَة التميمي التي مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم   أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

والتي قالوا عليها : هذا سمط الدهر . ثم عاد اليهم في العام التالي فأنشدهم قوله :

طحا بك قلب في الحسان طروبُ   بُعَيْدَ الشباب عصرَ حانَ مشيبُ

فقالوا : هذان سمطا الدهر ، أو هاتان سمطا الدهر(١٨) .

وبسبب هذه المركزية الدينية والادبية والاستقرار والتكامل انتشرت لهجة قريش وسادت في الحجاز ونجد واليمامة والبحرين ، وزاحمت اللغة الحميرية في الجنوب حتى باتت أداة التفاهم بين الوفود اليمنية وحمَلة الشريعة الاسلامية اليهم من مبشرين بها وداعين لها بين العرب الجنوبيين ، في مستهل الدعوة الاسلامية .

ومع هذا كله يبقى من العسير القول ان لهجة قريش كانت تتصف بخصائص مميزة هي كذا وكذا .. لانها لم تصل الينا خالصة وبخصائصها الدقيقة كما كانت عليه في الاصل ، انما وصلتنا حاملة خصائصها وقدرا من خصائص اللهجات الاخرى التي احتكت بها واقتبست منها أيضا ، واللغويون أو المؤرخون لم يعينوا تلك المقتبسات على وجه الدقة والتحري ، بل ان ما وصل الينا من ذلك التراث اللغوي هو ما صيغ أو كتب بعد تكون هذه العربية الفصحى في آخر مراحلها قبل الاسلام ، أو بعد تغلب لهجة قريش ، وان ما سنه اللغويون والنحاة من احكام اخذ اللغة والاحتجاج بها لم يقتصر على قريش أو يقف عندها على وجه التخصيص أو التمييز ، بل هناك من كان يذهب الى أن سلامة اللغة في بني سعد أفضل وأصح مما في قريش ، لان بني سعد اهل وَبَر وأبعد عن التجارة وعن الاختلاط بالاعاجم على الرغم من عدّهم قريشا أفصح العرب مع ما كان منهم من اختلاطهم بغيرهم في المواسم والتجارات والرحلات .

وأمام هذه الظواهر اللهجية التي بدت مقلقة أحيانا لم يجد اللغويون القدماء مفرا من التحوط والتشدد في شرائط اخذ اللغة واضعين في الحسبان استقراءهم العام لمجمل مادتها ، ولواقعهم العربي ، وموفقين بين الجانب الديني والقومي (من جهة اختلاط العرب بغيرهم)، مع مراعاة اهمية الجانب المكاني (الجغرافي)، والجانب الادبي المتمثل بلغة الشعر خاصة، فكانوا بهذا واضعي اهم شروط أخذها واستنباط قواعدها والاحتجاج بها مستقاة ممن لا تشوب عربيتهم شوائب اللكنة الاعجمية أو الرطانة الدخيلة ، أو مستبشع اللهجات العربية المذمومة ، فقالوا :

« وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة السنتها اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب ، الا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجر فيه قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة »(١٩) .

وقالوا : « والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم ، وأسد ، فان هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم . فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط. ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، واكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر(٢٠) فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأسد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفه وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف واهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم(٢١) .

ومن خلال القولين يتجلى واقع جمع العربية في تخير احسن لهجات العرب واملحها وأصفى الكلام وافصحه ، ومعيار الفصاحة عند علماء اللغة هنا ــ كما هو ظاهر ــ يتوقف على مدى صلة العرب بالأعاجم . وأبواب هذه الصلة : اما الحواضر التي كانت مسرحا للتجارات ، أو عقدة للمواصلات ، وإما أطراف بلاد العرب حيث يسمح الاختلاط بالاقوام غير العربية بقدر من التأثر اللغوي يؤدي الى افساد الالسنة. وهذا كله جعل للهجة قريش وللقبائل الفصيحة القريبة منها اعتبارا خاصا ، وكوّن من ذلك نواة لغوية صارت هي المناط والمحتكم للاخذ والاحتجاج . ويمكن أن نستشرف في هذا المسلك لوناً من التخطيط ، أو التصميم على صيانة هذه اللغة من افسادها بالالسنة الاعجمية ، أو بالظواهر اللهجية غير المستحبة ، أو غير المطردة عند مجمل القبائل العربية نفسها .

ولكن هذا التأسيس لأصالة العربية لم يلغ اسهام القبائل القاصية والدانية بنتاجها الادبي في تغذية تلك النواة اللغوية التي كانت بمنزلة القلب من العرب وجزيرتهم ،

كما لم يفترض وضعا متشددا يحول دون أخذ القرآن منهـا ، أو دون التيسير لهـا بالقراءة على مقتضى لحنها ولهجاتها ، أو الاستشهاد بلهجاتهـا في النحو والتقعيد . وهذا ما يفسر نزول القرآن الكريم منجّماً وعلى سبعة أحرف وتضمنه كثيرا من لهجات (أو لغـات) القبائل الاخـرى ، وكتاب عبـد اللـه بن عباس (ت ٦٨ هـ) المسمى « اللغات في القرآن » خير شاهد على ذلك .

وعلى هذه الصورة يمكننا أن نحيط نشأة العربيـة الفصحى بحلقات أو دوائـر مركزها لهجة قريش وما جاورها من القبائل التي لم تختلط بالاعاجم فتفسد السنتها (كما عبروا) ؛ ثم الدائرة التي تحيط بهذا المركز متمثلـة بلهجات القبائل العربيـة الاخرى ، تليها دائرة اللغات المسماة بالسامية والتي كانت تحيط بقلب الجزيرة العربية او تتغلغل فيها كالعبرانية والسريانية والنبطية .. وما تذكره كتب اللغة عن (الالفاظ النصرانية) التي وردت في اشعار عدي بن زيد العبادي ، وابي د واد الايادي ، وامرىء القيس ، والنابغة الذبياني، والمرقش الاكبر ، وأوس بن حجر ، والقحيف العقيلي(٢٢). فضلا عن اشارات موزعة هنا وهناك تذكر الحواضر وفساد لغـة مرتاديها ، وتذكـر الحبشية والسريانية والحميرية وغيرها . يضاف الى ذلك ما أحاط بالعربية من لغـات اعجمية كالفارسية والرومية والهندية .

ولكن أمرا اساسيا يعرض هنا ، وهو حري بألا يغفل ، واعني به أن لغات القبائل التي احتكت بها لغة قلب الجزيرة العربية (قريش وما جاورها) وتأثرت بها لم تسجّل. وبالاقتصار على استقرائنا لما وصلنا من معلومات عن هذه اللهجات العربية تكون جوانب لا يستهان بها من طفولة العربية قد بقيت غامضة ، ولعـل الكشوف الاثرية تسـهم ــ مستقبلا ــ في القاء الضـوء على تلك المرحلة المبكرة التي لم نحط بجوانبها كاملـة ونستقص اخبارها بالتفصيل .

بهذه الصورة ورث الاسلام اللغة العربية الفصيحة التي نزل بها كتابه العظيـم ، وفي ضوء هذه الاعتبارات كلها يمكن تفسير وجود ألفاظ يسيرة من القرآن جاءت بلهجة قبيلة نائية ، او بلغة اعجمية .. ولكن هذا كله لا يغير وجه الحقيقة الكبرى الثابتـة ، وهي أن الاسلام عند ظهوره وجد العرب قـد هيئوا له لغة ادبية موحدة ، تملك مـن وسائل الغنى والصلاح ما يجعلها جديرة باستيعاب رسـالته العظيمة وحملها الـى البشـرية .

الحواشي :

(١) المحتسب في شواذ القراءات : ٤٧/١ ، تح : علي النجدي ناصف وآخرين (القاهرة ١٣٨٦هـ) ، واللسان / جنن ، خبأ . والمبيط من الدم : الخالص الطري . واحمارت أصلها : احمارت (بتشديد الراء ومن غير همز) .

(٢) اللسان / نبأ ، ودراسات في فقه اللغة ، الصفحات : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، المتن والهامش .

(٣) مختار الصحاح / د ف ١ ، وتاج العروس ١٢٨/١ ، والمخصص لابن سيده /٢/١٤-٦ (ط بولاق ١٣١٦) فثمة شواهد اخرى ، منها على سبيل المثال : كلاته اذا حرسته ، وقد كليته اذا أصبت كليته ..

(٤) سورة لقمان : ١٥ .

(٥) المرية : الشك . ومثلها : القنوة ، أي : الكسبة (بالضم عند تميم وبالكسر عند قريش) وكذلك صنوان .

(٦) يسمى هذا في اللهجات : المعاقبة أيضا ، تعاقب الواو مع الياء . فقد روي عن الاصمعي قوله : سألت المفضل عن قول الاعشى :

لعمري لمن امسى من القوم شاخصا
لقد نال خيصا من عفيرة خائصا

فقلت : ما معنى : خيصا خائصا ؟ فقال : أراه من قولهم : فلان يخوص العطاء من بني فلان ، أي يقلله ، فكأن خيصا شيء يسير ، ثم بالغ بقوله : خائصا . قلت له : فكان يجب أن يقول : لقد نال خوصا ، اذ هو من قولهم : هو يخوص العطاء . فقال : هو على المعاقبة ، وهي لغة لاهل الحجاز (المخصص ١٩/١٤ ، ط أولى - بولاق ١٣١٦ هـ - ١٣٢١ هـ) .

(٧) كما جاء في « دراسات في فقه اللغة » ص ٨١، نقلا عن « شرح شذور الذهب » ص ١٦٤ .

(٨) نفسه ص ٩٦ ، وص ١٠١ .

(٩) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤٦/١ ، والصاحبي : ٤٨ ، والمزهر ٢٥٥/١

(١٠) من ذلك ايضا عزو لهجة العنعنة اليهم ، (كما مر) .

(١١) انظر النص في « المزهر » ج٢/٢٧٧ (ط. الهلال ١٣٣١ هـ) .. وفي غيره ..

(١٢) المزهر ٢٧٧/٢ .

(١٣) دراسات في فقه اللغة : ٨٢ .

(١٤) الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس : ٥٤ ، والبيت هو :

ولا أقول لقدر القوم قد نضجت
ولا اقول لباب الدار مقفول

وفي « بحر العوام » :

ولا أقول لقدر القوم : قد غليت
ولا اقول لباب الدار مغلوق

أضاف المحقق بعده :

لكن اقول لبابي مغلق وغلت
قدري وقابلها دن وابريق

انظر : « بحر العوام فيما أصاب فيه العوام» للحنبلي الحلبي : ١٩ ، تح : عز الدين التنوخي ، مجمع دمشق ١٩٣٧ .

(١٥) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ٥٩/١ (ط . القاهرة ١٩٣٥).

(١٦) المحتسب لابن جني ٣٤٣/١ .

(١٧) كتاب المصاحف لأبي بكر السجستاني . صححه الدكتور آرثر جفري (ط. الرحمانية - القاهرة ١٩٣٦) .

(١٨) انظر « معاهد التنصيص » : ٨٥ ، والاغاني ١١٢/٢١ (ط . الساسي) والقاموس المحيط / عبد .

(١٩) الصاحبي في فقه اللغة ص ٥٣ .

(٢٠) نقلها السيوطي ، أو نقلت عنه مصحفة عند بعض الباحثين (اليمن) ، ولعل ما أثبتناه هو الوجه ، مع الاشارة الى أن هناك من تنبه لهذا السهو قبلنا . وانظر المزهر ٢١١/١

(٢١) المزهر ٢١١/١ . وكان يمثل هذا الاتجاه خاصة علماء البصرة .

(٢٢) ينظر في ذلك : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٢٨/١ ، والموشح للمرزباني ٧٣ .

من معارك الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧
معركـة الكفـــر

د. ذوقان قرقوط

تشكل « الثورة » السورية الكبرى ، التي انفجرت عام ١٩٢٥ ، « فجأة »(١) في جبل الدروز بقيادة سطان الاطرش ، أعنف واطول فاصل زمني (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧). في الكفاح من اجل الاستقلال قـام به الشعب العربي السـوري ، في وجـه الانتداب الفرنسي . في أعقاب معركة ميسلون التي جرت غـدرا ، مبتسرة ، بلا تكافؤ ، عـلى ابواب دمشـق ، في الرابع والعشرين من تموز / يوليو ١٩٢٠ ، والتي قادها البطـل بحق يوسف العظمة وهـو يعلم نتيجتها(٢) ، حتـى لا يقـال . ان فرنســا ، دخلت سوريا ، قلب العروبة آنذاك ، دون قتال . لتنفيذ سايكس ـ بيكو .

وبثمن محن وتضحيات لا حصـر لها ، انتهى الامر بسوريا الى الحصـول عـام ١٩٤٣ على الاستقلال ومن ثم بعد ثلاث سنوات ، الى تحرير كافـة اراضيها مـن الاحتلال الاجنبي . من هنا اعتبار تلك « الثورة » خاتمة للمحن والتضحيات وان كل ما جاء بعدها وما تلاها حتى توقيع المعاهدة مع الافرنسيين بالحروف الاولى ، انما كان يجري في ظل سيوف « المجاهدين » الذين نزحوا من سوريا الى الاردن وتجمع بعضهم في « النبك » بانتظار ما يتوصل اليه رجال السياسة . ولادراك أهمية الثورة كعدوة على طريق تقدم سوريا الى أهدافها الوطنية لا بد من استعراض قوى مراحلها .

في السنوات التي سبقت الثورة عمل الفرنسـيون على توطيـد « الانتداب » بالوصول الى سن الدستور ، أو النظام الاساسي ، كما قضت بذلك عصبة الامم ، ان يوضع في مدة سنتين ، وعمل الشعب من جهته ، تلقائيا ، على ان لا يمكنهم مـن ذلك . فانقضت سنوات ما قبل الثورة في تخبط ، وعدم استقرار دل على خطأ عصبة الامم وخلل في اهلية الدولة المنتدبة وصوابية الانتداب ، تطـورت في اثنائها الحيـاة السياسية وشكل الحكم الذي فرضته فرنسا : من تقسيم سوريا الى دويلات متعددة، أملا بتسهيل حكمها ، مستقل بعضها عن بعض ، مرتبطة مباشرة بمندوبي المفوضيـة الفرنسية العليا في بيروت ، الى اتحاد ذي مجالس استشارية ، ثم الى اتحاد يتمتـع بمجالس تمثيلية منتخبة ، ذات اختصاصات محدودة ، وبعد ذلك الى وحـدة بـين حلب ودمشق مع الاحتفاظ بعلاقات شبه اتحادية مع سنجق الاسكندرون و « بـلاد

العلويين »(٣) .. ظل وضع « دولة جبل الدروز المستقلة »، كما انتهى اليه منذ قدوم الفرنسيين واتفق عليه روبير دي كيه وشيخ « العقل » محمود ابو فخر ... وبدت تكتنفه حفلات « عيد الاستقلال » سنويا ، بمظاهرها المصطنعة ، كأنما لا علاقة تربط أهالي هذا الجبل بسوريا ولا شأن لهم بما يجري ويختمر فيها ، المحسوس ببصيرة بنيها .

وهكذا ، من حيث لم تتوقع سلطات الانتداب ، وهي سادرة في غيها وفي رعونتها، وفي وقت تراخت فيه قبضتها وانخفض عدد قواتها ، انطلقت الثورة ، فكانت مفاجأة لها وللجنة الانتداب على السواء(٤) . وذلك لانها أقامت حكمها على أساس طائفي ، بل على أن « طوائف » سورية تشكل شعوبا منفصلة بعضها عن بعض ، حتى بلغ الامر أن حسبت تعدد الطوائف هذه هي نتيجة فوارق عرقية ، ولم تفطن ، أو تعمدت أن لا تفطن ، الى ما بينها من ثوابت : هي روابطها القومية الاعمق من خلافاتها الدينية والاكثر أصالة ، والى أن مصالحها المتشابكة أقوى وأغلب من تلك الاحقاد والضغائن والعداوات التي ورثتها الحكم العثماني وعصور الانحطاط . ومن ذرى « جبل الدروز » التي أقام الفرنسيون دولته « لتكون حصنا لهم » يفصل دمشق عن عمان وبغداد ، استجمعت البلاد كلها تقريبا ، أمانيها الوطنية والقومية ، هذه المرة ، بمنطق الثورة ، تطرحها وتطالب بتحقيقها .

تصور صحافة تلك الايام ومصادر الانباء والتقارير الى وزارة الخارجية الفرنسية، انقسام أهل الجبل — على أثر وفاة حاكمه الامير سليم الاطرش الى فئتين أو حزبين : أحدهما يطالب بحاكم وطني ويرى شغور المنصب فرصة له ، وآخر يؤيد وكيله ، الفرنسي ليسد الفراغ ، وأن المطالبين بحاكم وطني ، استغلوا فرصة قيام الحاكم الفرنسي بالوكالة في اجازته فتعالت شكاواهم منه فذهبوا لمقابلة المندوب السامي في بيروت الجنرال ساراي . فرفض « مقابلتهم » ، وقيل انه أساء استقبالهم ولم يقبل شكواهم على موظف فرنسي ، في اجازة ، لانه عضو في حزبه (في فرنسا) ومن محفله الماسوني .. وان السلطات الفرنسية في دمشق اعتقلت بعضهم وهم في طريق العودة الى الجبل ونفتهم ... فكان هذا سببا في قيام « سلطان الاطرش زعيم هذا الحزب » ، الذي تخلف عن الاشتراك بـ « وفد الاحتجاج » ، بثورته على الفرنسيين ... الخ(٥) كما صور بعضها المسألة انتصارا لنفوذ « عائلة » — عائلة الاطرش — كاد يعصف به وجود كاربييه Carbillet في الحكم ، الذي كانت سياسته تقوم على تقوية التيار الشعبي ضد الاقطاع .

والحقيقة مختلفة تماما . فحركة « الاحتجاجات » على تصرفات الحاكمين

الفرنسيين في السويداء وعلى هذا الحاكم الفرنسي بالذات وبعض معاونيه و«العرائض» التي رفعت للمسؤولين بمناسبة ازمة الحاكمية ، لم تكن بنت ساعتها ، وانما كانت وسيلة القوى الوطنية الى أهدافها في مكافحة الانتداب الفرنسي ولم تكن هدفا(٦) فالحزبان المعنيان هما أصلا من مؤيدي الانتداب ومن قبل كانا من مؤيدي الحكم العثماني واقطابهما هم من المنتفعين بالسلطة في كل عهد . ومن قرأ « حوران الدامية » لحنا أبي راشد الدقيق في التأريخ لتلك الفترة لا يحتاج الى مزيد .. في حين أن الجانب الاقوى والاكثر عدداً وتعبيراً عن مكنون « الجماهير »، كان يتمثل في تلك الجماعات ، وعلى رأسها سلطان الاطرش ، التي سبق لها أن لعبت دوراً كبيراً في «الثورة العربية الكبرى» ضد الاتراك العثمانيين ،الى جانب الحلفاء ورفضت الانتداب الفرنسي في استثناء لجنة كينغ ــ كراين ، مطالبة بالوحدة . ثم قاطعت « مهزلة دولة جبل الدروز المستقل » ، ولم تكن تشترك في « أعياد الاستقلال » واذا اشتركت فبالرغم عنها ، تمويها . ولم يكن من شأن وجود هذا الحاكم الفرنسي الظالم الارعن، الشاذ في أخلاقه ، الذي عم أذاه ، الا انه فاقم الاستياء الشعبي . وقلما انقضى عام واحد دون ان نجد من يشارك منها ــ من تلك الجماعات ــ في اثارة الاضطراب في وجه الحكم الفرنسي أو يخرج عليه(٧) . اذ لم يكن أهالي الجبل قد نسوا بعد ذلك « العز » الذي انتشوا به جراء دورهم في الثورة العربية مع فيصل .

ذلك ان جبل حوران ، الذي أصر الفرنسيون على تسميته بـ « جبل الدروز » لتعزيز الصفة الطائفية ــ وجاء الحكم الوطني فسماه « جبل العرب » ــ كان من أشد مناطق سوريا ارتباطا بفكرة الثورة العربية على العثمانيين التي ركب تيارها الهاشميون وحنينا الى أيامها .

اذ ، على الرغم من توالي تجريدات الدولة « العلية » عليه ، لاخضاعه ، فان أخبار ثوراتهم طغت على تاريخ المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وظل الجبل من بين المناطق العربية القليلة ، المنطقة التي لم يستطع العلم العثماني ، رغم جميع مآسيه ، أن يستقر فيه(٨) ومن هنا كان أهاليه من أوائل المبادرين لتلبية نداء الشريف حسين بالثورة والالتحاق بفيصل وهو ما يزال في العقبة خاصة منهم أهالي القضاء الجنوبي ، كما كان الجبل هو المعبر المأمون اليها . يذكر الدكتور احمد قدري، في مذكراته عن الثورة العربية ، كيف كان بواسطة الدكتور عبد العزيز الكنعاني واقاربه في جرمانا يخفي أعضاء جمعية الفتاة ثم ينقلهم الى قرية « خلخلة » ، احدى القرى الامامية في الجبل ومنها الى القريا ، بلد سلطان الاطرش قاصدين بعدها الى العقبة . ويستدل مما كتبه أن المرء منهم ، ما أن تطأ قدمـاه ارض الجبل ، حتى كان يشعر بالامان والاطمئنان ، يمر بـ « المخفر » ، بغير اكتراث ، وتولم له الولائم ، ويلتفحوله

السامرون ينشدهم شاعر القرية على الربابة حتى الفجر(٩) . ويمكث أياما فيه ويتنقل بلا وجل . وكانت القريا مقرا يأوي اليه اللاحقون والمتوارون عن عيون الاتراك او محطة على طريق الحجاز ، وقد أفرد لهم مكان ينزلون فيه بدار محمد شلهوب : كل منهم جورج صيدح وخليل سكاكيني . .ولا يزال سكان القرية المعمرون يذكرون بعضا من نوادرهما وطرائفهما(١٠) وقد انشدا في جمع من الاهالي نشيد الوطن العربي ورفع سلطان الاطرش بحضور تحسين قدري ونزيه المؤيد العلم العربي قبل دخول الحلفاء وفيصل الى سوريا ، وقبل رفعه في اي مكان آخر من سوريا .

ومنذ بداية الحرب ، قبل الاتصال الرسمي بالشريف حسين ، ابدى سلطان الاطرش استعداده للثورة والانتقاض على العثمانيين ، فأرسل كتابا الى المعتمد الانكليزي في القدس الا ان الجواب جاءه من المعتمد الفرنسي حداد باشا (١١) وكرر الكتابة الى المعتمد البريطاني فاجابة حداد باشا مرة اخرى(١٢) كما اوفد حسين الاطرش ، شيخ قرية عنز ، للالتقاء برسول الامير فيصل في « كاف » لطلب مدد من الاسلحة للقيام بثورة ضد الاتراك ، وحضر اللقاء : نسيب البكري ، وزكي الدروبي .

والى هذا الاجتماع تعزى ، افتراء ، فكرة ، اعطاء الجبل كيانا خاصا ، داخل كيان الحكومة السورية(١٣) ، وراحت قيادة الثورة توالي موافاته الانباء الهامة وهو بدوره يراسل بها عيون القرى والمتنفذين فيها عاملا بذلك على بثها بين الناس(١٤) . وقد اشار الى ذلك خصمه ، زعيم الاتجاه الاخر الموالي للعثمانيين ، بل وللحكم القائم في كل عهد . وفي صيف ١٩١٨ عاد نسيب البكري الى الجبل يحمل منشور فيصل الى اهاليه ، على ما يذكر حنا ابو راشد ، فاذاع سلطان الاطرش على أثره منشورا على الجبل يدعو الى الثورة ، ضاربا موعدا للحاق به في بصرى الشام لملاقاة الشريف في درعا .

بعد أن تحرير دمشق انسحب سلطان باشا ومن معه من الدروز الى الجبل وظلوا محافظين على عهدهم للحكم الجديد وعلى احترامهم لفيصل وأملهم فيه . وداوم من جهته ، على الاتصال بهم كعادته كلما كانت تتأزم الامور في استطلاع آراء مؤيديه فكان يجدهم دائما على عهده بهم مخلصين ثابتين على المبدأ . وبعد ميسلون وانسحاب فيصل الى الكسوة هب الدروز لنجدة الجيش العربي فتقدمت بيارقهم (أعلام القرى) حتى وصلت بصر الحرير في سهل حوران ، الا أن فيصلا كان قد مر بدرعا ، مغادرا الى فلسطين ثم الى أوروبا ناجيا عن عرش ، ولم يأخذ بنصيحة حمد البربور ، من « أم الرمان » ، بنقل الحكومة الى السويداء ، عاصمة الجبل ، والاستمرار في محاربة الافرنسيين ، كما اشار عليه كثيرون من وطني البلاد.(١٥) .

وبقيت ذكريات هـذا العهد ، مشرقة في ذهن أهالي الجبـل وخاصة في قضاء صلخد ، فلم يكن من السهل نسيان « أيام الشريف » الحلوة و « عزها » . لا سيما لما رافقها ، لمدة سنتين ، من فيض في المحصول وارتفاع اسعار الغلال . فكان ذلك باعثا على صمود أكثرهم في وجه الاغراءات الفرنسية : كانوا يقولون ان فلاحة الارض ادر مالا من عطايا غورو Gouraud وذهبه الاحمر الرنان ، حتى أن احدهم استصلح قطعة من الارض البور على اطراف المعمور بين الجبـل والاردن واطلـق عليها اسـم غورو وصارت مضربا للتندر على المتعاونين مع الفرنسيين ، وما زالت بهذا الاسم حتى الان.

بداية سعى الفرنسيون الى اعطاء الجبل كيانا مستقلا واقاموا انشاءات الحدود بينه وبين حوران ، حتى انهـم أثاروا الاحـن القديمة ، المنسية ، وجعلوا لـه عيـد اسـتقلال ، تقيم القرى ، كل القرى ، بيتا من الشعر او اكثر يضم فئـة من شبابها وبناتها ، يولمون ويتنافسون في الولائم والعاب الفروسية والاهازيج وسهرات الربابة . لا تتخلف عن الاشتراك ، « عائلة » خشية عيون الحكم والوشاة .

وبدا كأن الدولة المنتدبة تطبق اتفاقية « روبيردى كيه ــ ابو فخر » التي اكتسبت رضى « عائلات » الجبل في اجتماعات عامة دعيت اليها ــ وان كانت اثناء أزمة «حاكمية كاربييه » والمطالبة باستبداله او بعزله وتنصيب حاكم درزي مكانـه بموجب هـذه الاتفاقية قد اثيرت ــ ورفض الجنرال سراي الاعتراف بها(١٦) . كانت حكومة الانتداب تدير حكمها بتقسيم الجبل الى اقضية ثلاثة : السويداء ، صلخد ، شهبا ، وعلى راسها حاكم اختارته في البداية ، من آل الاطرش ، كبرى عائلات الجبل ، هو الامير سليم ، خليفة يحيى بك الاطرش، زعيم «عرى» ، المعترف لها ، بين اهالي الجبل بال «زعامة»، والذي اختصم مع سلطان باشا الاطرش ، في أواخر الحكم العثماني على الموقف(١٧) في رسائل متبادلة بينهما نشرها حنا أبو راشد ، واقامت ، من اعوانها ، مجلسا استشاريا يجري انتخابه على درجتين ، راعت فيه التمثيل العائلـي . ونصبت في كـل قضـاء مستشارا . فلما توفي الحاكم الاهلي الامير سليم ، سولت لنائبه الكابتن كاربييه نفسه، أو أن حكومة الانتداب اوعزت له أن يطرح نفسه على المجلس الاستشاري لانتخابـه حاكما أصيلا . ففعل بأن جمع أعضاء المجلس الاستشاري وطاف بينهم مادا برنيطته ليضعوا أصواتهم فيها على ورقة أمام عينيه فلم يجرؤ أحد على المخالفة . وشفع هذا الانتخاب بحركة تأييد عامة من الاهالي . فطاف قرى الجبل وكان على اهالي كل قرية أن يهرع أهاليها لاستقباله الى حدود القرية القادم منها حيث يخرج لوداعه اهالي القرية القادم منها.. وويل للوجيه أو الشخص البـارز في القريـة الذي لم يخـرج لاستقباله أو لوداعه . فأقل ما كان ينتظره ان يسجن في « الباكية » بين البقر والحمير ليلا ، ويمضي نهاره في رصف الطرق ، لا فرق في ذلك بين عائلة واخرى . ظاهـرا

كان يزف من قرية الى قرية بين الاهازيج والدبكة والدفوف . ولكنها زفة تبعث المرارة والشعور بالاكراه والظلم . لم يشعر الاهالي بمثله من قبل ولا في كنف الدولة العثمانية . لان « الدنيا » حينذاك لم تكن تضيق بهم فأرض الله واسعة ، وما كان على المرء فيها الا انيتنقل من ضيعة الى ضيعة يتوارى فيها او عشيرة بدوية رحالة .

وقد عزا الحكم الفرنسي ذلك وما كان الاهالي يحسونه من دكتاتورية حاكم الجبل الكابتن كاربييه الى اضطراره اليه لفرض « السخرة » لتعبيد الطرق وشق الاقنية وبناء المدارس . . . اذ كيف بدونه وبدون فرض ضرائب يستطيع القيام بما قام به لان ميزانية « جبل الدروز » لم تكن تتعدى (٨) ملايين فرنك ، على حد قولها في تقريرها الى عصبة الامم لعام ١٩٢٥ ، ولم يكن الوفد السوري الفلسطيني بجانب عصبة الامم في جنيف قصير اللسان للرد ، وان بدا أن التقصيات التي كانت ترد اليه من سورية ضعيفة لا تفي بالغرض . . . ولكن متى كان ثمن « القطة الفرنسية » يساوي عشرين ليرة ذهبية تفرض غرامة على أهالي السويداء ، (وربما كان أحدهم سرقها أو رماها في الحرش طعاما للوحوش . . .) . ولعل الشعور بالظلم والاهانة هو الذي دفع بطلا من الشعب هو حسين مرشد من السويداء للتصدي للملازم موريل احد أعوان الحاكم المباشرين فيطلق عليه النار من مسدسه في وضح النهار في ٣ تموز / يوليو ١٩٢٥ فكان ذلك انذارا لسلطات الانتداب بقرب الانفجار .

ولم تخف سلطات الانتداب بل لم تستطع اخفاء ما كان يثير استياء الناس من الحكم وتصرفات الفرنسيين المباشرة واعوانهم ورجال الشرطة في كثير من الاحوال التي يصعب سردها وتفصيلها ، حتى تقاريرها التبريرية التي تأخذ صفة الدفاع امام المركز أو تقارير المفوض السامي الى وزارة الخارجية فانها كانت تنم عن الاخطاء وسوء الاستعمال ، مما يؤكد ، كما يقول الدكتور ادمون رباط ان الكابتن كاربييه مارس دكتاتورية فعلية سمحت بها وساندتها السلطات الفرنسية . وما ان وسع صدر تومي مارتن الذي أرسل ليحل محل الكابتن رينو ، الحاكم بالوكالة مكان الكابتن كاربييه الذي أعطي اجازة اضطرارية ، وفتح الباب للشكاوى حتى انهالت عليه «العرائض» من كل جانب تكشف الارتكابات وتحددها ، نوه بعضها أنها تقدم للمرة الثانية ، الاولى قدمت للكابتن رينو الذي خلف الكابتن كاربييه . وقيل انها وراء تقرير الكابتن رينو الذي رواه مسيو فيري Ferry في مجلس النواب الفرنسي وقال فيه : « ان المقصود بذلك شن حملة ضد الكابتن كاربييه انجرت عليها عائلة الاطرش التي اقتضتها الظروف الى صفوف المعارضة مع معظم العائلات الدرزية . . . الا أن أفراد هذه العائلة الذين جاؤوا الي يؤكدون شخصيا اخلاصهم للسلطة المنتدبة ، طلبوا مني ان يستمع اليهم مندوب المفوض السامي في دمشق لتبديد سوء التفاهم »(١٨) . ثم أردف قائلا : وأعلنوا

« . . . انهم اظهارا لاخلاصنا وولائنا نصرح أننا لم نعد نطالب بحاكم وطني . . . وانما نريد حاكما فرنسيا شرط الا يكون هو الكابتن كاربييه » .

ويستشف من مداخلة النائب فيري ، في البرلمان الفرنسي ، أن السلطات الفرنسية في الجبل كشفت عن تناقض في صفوفها وتنافس (لم يكن ليخفى على بصيرة الاهالي . .) . فقد تلقى المفوض السامي في ٢ مايو / أيار برقية موقعة من أربعة وعشرين من اعيان الجبل يدعمون الكابتن رينو قائلين « . . انه أحيا فيهم تعلقهم بفرنسا وبدد سوء التفاهم ». ويمضي النائب في مداخلته ، فيقول ان اوغست برونيت النائب الفرنسي الذي يمر بدمشق استقبل في اليوم الثاني وفدا درزيا يضم ثمانية وثلاثين شخصية يمثلون كبريات عائلات الجبل ، منهم سبعة أعضاء في المجلس الاستشاري ، وواحد من شيوخ « العقل » الاربعة ، فاستمع لشكاويهم ووعد أن ينقلها الى المفوض السامي . وفي ١٥ من الشهر نفسه توجه هذا الجمع المهيب الى بيروت لتقديم شكاويه بنفسه ولكن المفوض السامي الجنرال سراي رفض استقباله . وبعد ثلاثة ايام وجه الكابتن رينو تقريرا اخر الى رؤسائه في دمشق يدعم مطالب الوفد يذكر فيه: ان هناك حركة عامة تدعونا أن نعير حوادثها أعظم الانتباه . واخيرا قدمت رسالة جماعية ، شارك فيها من كان لا يزال متفرجا بعد من أعيان الجبل في المطالبة بتنحية الكابتن كاربييه ، وبعض أعيان دروز لبنان وعلى رأسهم الامير فؤاد ارسلان . ولكن ذلك لم يزعزع صمت الجنرال سراي .

وكانت الجهود جميعها حتى ذلك الحين متجهة الى استبدال الكابتن كاربييه وعدم عودته الى الجبل . ولكن تيارا جديدا ، أكثر عمقا راح يأخذ مجراه في الصفوف هو تيار المطالبة باتفاق ١٩٢١ الذي يشرط وجوب تسمية حاكم درزي في حكم الجبل. الا أن الجنرال سراي ، المفوض السامي ، أعلن أنه لا يعترف بصلاحية الاتفاق في حين كان الدروز « يطالبون بالحقوق التي تمنحنا المعاهدة وتفرضها الظروف الان » وكانت حجة الجنرال أن هذه المعاهدة لم يوقعها من أهالي الجبل الا شخص واحد فيجيب الموفدون الدروز بقولهم : « بالطبع كان هذا الزعيم الواحد منتدبا من الاخرين ، كما كان روبير دي كيه مفوضا منتدبا من الزعماء الفرنسيين الاخرين . ومع ذلك ما كان لهذا المندوب الفرنسي ان يضع توقيعه عليها لولا أنه محص السلطات التي تخول مندوبنا ذلك » .

صحيح أن هذا التيار لم يكن بقوة تيار المطالبة بعزل واستبدال الكابتن كاربييه من الحاكمية ، وربما كان الجنرال سراي يستطيع تهدئة الحركة موقتا التي تنبىء بالانفجار لو إنه اعلن موافقته على تغيير كاربييه على الاقل . ولكنه لم ينثن وظل سادرا

في عناده بدفع التيارين معا ، فقد أعقب الوفد الذي أثار اتفاقية ابو فخر ـ روبير دى كيه الموقعة في الرابع من اذار/مارس ١٩٢١ برسالة الى مندوبه في دمشق قائلا: « ختمت قولي بان هذا الامر لم يبق له الا قيمة تاريخية واضفت الى ذلك انهم اذا لم يعتبروه كأنه لم يكن فسوف يخلقون منه مدعاة للفتنة ويعرضون انفسهم لاعتبارهم مثيرين للشغب » .

وفي هذه الاثناء استبدل بالكابتن رينو الذي تعرض لاطلاق النـار ، الكومندان تومي ـ مارتن رئيس استخبارات الدولة السورية . فوصل السويداء في ٦ ١تموز/يوليو ١٩٢٥ واستقبله الناس بالترحاب ظنا منهم بأن مجيئه علامـة على تبدل موقف الحكومة المنتدبة . وكانت مهمته في حقيقة الامر قمع حركة الاحتجاجات وتوقيـع العرائض ، والتهيئة لعودة كاربييه بدون أي تحر للوقائع ، في حين ان الناس حسبوه من طينة اخرى فانهالوا عليه بالعرائض التي تحمل مئات التواقيع . مما دعاه الـى القول في تقريره للمفوض السامي الى القول انه : « لا شك في ان عودة الكابتن كاربييه الى السويداء ستعرضنا :

١ ـ الى مهاجمة سيارته على طريق السويداء ـ درعا .

٢ ـ عصيان في مدينة السويداء نفسها .

٣ ـ انتفاضة في جبل الدروز . . »(١٩) .

وفي كل ذلك لم يكن المسؤولون الفرنسيون يلتمسون عذرا لعناد الجنرال سراي الا في اتباعه لأثر من سبقوه في تطبيق الانتداب باتوقراطية صارمة . فقد صرح النائب دوريو Doriot في مداخلته بجلسـة ٢٠ كانون أول/ديسمبر ١٩٢٥ بقوله : « فوجئت برغبته التي أظهرها باتباعما أسسه سابقوه. كان يردد دائما هذا ما فعله من سبقني . . ماذا أفعل لم اشأ تغيير ما وضعوه ، نعم لم أستقبل أعيـان الدروز . . ولكن هـذا ما فعله غيري . . » . ولم يستبدل بكاربييه لان الجنرال ويغاند المفوض السامي هو الذي عينه حاكما .

وخطا الجنرال سراي خطوة الى الامام متوهما ان الازمة ازمة « عائلة » . فبحجة ان يتيح لهـا تحديد مطالبهـا بدقـة أرسل يستدعي خمسة من زعمائها الى دمشق، حضر منهم ثلاثة هم : نسيب ، شيخ صلخد، وحمد ، عرى، وعبد الغفار ، السويداء، فأرسلوا معتقلين الى تدمر ، حيث كان قد سبقهم اليها عقله القطامي ، زعيم القريا .

في اليوم التالي ، التقى احد الاهالي بالكابتن نورمان ، في احد شوارع السويداء، فقال له الاهالي : « الا تعلم ماذا جرى بالامس ، لقد اعتقل شيوخنا . فاجابه الكابتن نورمان : هذا غير معقول . المفوض السامي جنرال في الجيش الفرنسي . انه غير قادر على الاقدام على امر كهذا »(٢٠) . وادانت لجنة الانتدابات في عصبة الامم في اعقاب جلسة روما (شباط / فبراير ١٩٢٦) المسؤولين الفرنسيين ولم تجد في جميع مبرراتهم ما يمنعهم من استقبال وفود أهالي الجبل والاستماع الى شكاويهم .

حتى هذا الحين لم يعد ما يجري المطالبة باستبدال حاكم فرنسي بحاكم فرنسي آخر كثرت أخطاؤه وسوء تصرفه ، وانصرف النظر عن المطالبة بأن يكون هذا الحاكم من الاهالي ربما لان الخلاف يحسم ، بين ان يكون هذا الحاكم من « أطارشة » عرى اصحاب الزعامة العشائرية المتعارف عليها أم من « أطارشة » السويداء عاصمة الجبل ، التي منحها الواقع أهميتها . والى جانب هذا أو منفصلا عنه الى حد ما فطن المعارضون وتجرأوا على المطالبة بتطبيق أو مراعاة اتفاقية « أبو فخر – روبيرديكيه» الموقعة في بيروت سنة ١٩٢١ التي تمنع الجبل حكما ذاتيا . ولم يدر في خلد هؤلاء وأولئك ولم يصرحوا برفض الانتداب الفرنسي ، ومعظمهم كان على صلة بالفرنسيين من وراء فيصل ، لم يقطع الصلة في عهده وظل محافظا عليها ، وساهم في تأليف « الخيالة » المرافقين لغورو وقتل أحدهم وهو يتسلل من وراء حكم فيصل لمقابلة الفرنسيين في بيروت .

عندما اجتمع أعيان آل الاطرش في صلخد لتلبية طلب مندوب المفوض السامي بدمشق بنزول خمسة منهم الى دمشق بحجة تقديم شكاويهم كان راي سلطان الاطرش صراحة الى جانب عدم الذهاب واعتبر المسألة فخا . لذلك لم يغادر « القريا » بلده، واعتذر متعب شيخ رساس بمرضه ، وامتثل الثلاثة الاخرون . ومن الواضح أن ورود اسم سلطان في عداد الخمسة المطلوبين هو من قبيل « خلط الحابل بالنابل »ومن هنا كانت زيارة تومي مارتان لسلطان في بيته في القريا لاقناعه بالذهاب الى دمشق مع الذين ذهبوا . فلما واجهه سلطان برأيه في الحكم وغيه ، وصل الامر في نقاشهما الى ان قال له سلطان قولته المشهورة التي انتشرت كالنار في الهشيم « لولا انك ضيفي لأمرت بزربك في الباكية » مدير استعلامات حكومة سوريا ، المنتدب الى السويداء يزرب بين الطرش !! عندئذ غادر متوعدا . ومن هنا بدأت الثورة . عاد تومي مارتان الى السويداء ، ولم أعثر في الوثائق الفرنسية على رد فعله ، وركب سلطان بصحبه أخيه زيد للقيام بجولة في الجنوب . فخرج من بكا ، خيال واحد فقط هو شيخها صياح حمود الاطرش ولم يمروا بالقرية التي تليها جنوبا. ذيبين ، لان شيخها هو رئيس المجلس الاستشاري ، وخرج اليهم لمرافقتهم حمد البربور من إم الرمان .

وعندما اقبلوا على قرية عنز طالعهم بعض من كان في مضافة حسين الاطرش فاوفدوا من يلقاهم بالرجاء أن لا يدخلوا قريتهم فاستمروا في طريقهم متجنبين قريتي شنيرة والمشقوق ثم صما البردان ، الى امتان . وفي امتان تعلق الشاب علي مصطفى الاطرش بركاب سلطان الاطرش يرجوه أن لا ينزل في القرية . فأكمل طريقه الى قرية ملح وهي مقر ناحية تابعة لصلخد ولم يخرج من امتان في صحبته الا خيال واحد هو يوسف العيسى .

وهكذا اقبل ستة خيالة الى ملح يأملون ان يلقوا فيها العون . كانت قرية ملح « ناحية » من نواحي قضاء صلخد ، واقعة على حدود البادية المتصلة من جهة بالعراق ومن جهة بالاردن في منتصف المسافة تقريبا بين أقصى الجنوب واقصى الشمال من حدود جبل الدروز الشرقية .وكونها مركز الناحية يعني أن بها مخفرا للدرك وموظفي حكومة . وفي هذه المسافة الواقعة في نصف دائرة تقريبا من القريا بلد سلطان الى ملح يكون قد مر بائنتي عشرة قرية منها . ولم يجتمع حوله اكثر من ستة خيالة . لحق بهم على ما يقال ستة أو سبعة اخرون . مما يقطع بأن الخوف من السلطة ما يزال يتملك النفوس . وما أن أقبل جمعهم وطالعهم الناس بالمناظير حتى بادروا بايفاد من يلاقيهم لانذارهم بوجود « المخفر » بكامل هيئته وعدته، وينصحهم بالنكوص اذ ليس في القرية والحالة هذه من يجرؤ على استضافتهم أو الاستجابة للعمل معهم . فاداروا رؤوس خيولهم وقفلوا راجعين . وعلى بعد كيلو متر واحد او اثنين مروا بفسحة شاسعة ، هي أرض لعائلة الباسط ، تصلح ميدانا للطراد فنصب أحدهم « الميدان » ، رفعا للمعنويات المنكسرة واثارة للنخوة في رؤوس الرجال وراح يتحدى للنزال* . فانقسم الجمع فريقين وبدأ الطراد . ولم يلبث خيالة القرية أن شاهدوهم فانطلقوا كل من جهة ينهالون للمشاركة وانصرف أفراد المخفر ومن يمت للحكومة فغادروا القرية بهدوء من تلقاء أنفسهم . وقبيل غروب الشمس توقف النزال في الميدان فأخذ خيالة القرية والذين احتشدوا للمشاهدة يتنازعون على استضافة سلطان وربعه . فاذا بالقرية وضيوفها يبيتون ليلتهم في « عز أيام زمان » بين الاهازيج . وانتشرت الاخبار وانحلت عقدة الخوف في البلاد . ولم يعد يخشى من دفن بندقيته ان يخرجها ويجلوها . في اليوم التالي، ١٦ أو في ١٧ تموز/يوليو، انطلق من قرية عرمان ثلاثمائة خيال ــ ربما كان بينهم بعض أهالي القرى المجاورة : قيصما و الهويا والحريسة ــ الى لقاء سلطان في ملح، وبدلا من أن يستمر هذا الجمع الغفير في سيره الى الامام ، ملتفا

* سعيت الى تقصي اسم هذا الشخص دون جدوى . واستنطقت سلطان باشا مرارا فلم يذكره ... واغلب الظن انه كان هو البادئ الا انه لم يشأ ان يتحدث عن نفسه كعادته ...

حول الجبل عـاد منحرفا الى عرمان المواجهة لصلخد ، مركز القضاء ومقر المستشار الفرنسي . ودفعت هـذه التجمعات المقلقة ، المثيرة ، الفرنسيين الى ارسال طائرات استكشاف (١٧ تموز) فأجبرت نيران البنادق احداها على الهبوط في قرية امتان . فبسط الشاب علي مصطفى الاطرش زعيم القرية حمايته على الطيارين وانقذهم من فتك الاهالي بهم . فكان ذلك بداية شهرة سياسية . وبعد يومين اثنين ، لم يبق هناك من يستطع كبح جماح هذا الجمع الهائج عن الزحف الى صلخد ، ثانية مدن الجبل الكبرى ، فاندفعوا يحرقون سراي الحكومة فيها وبيت المستشار يشاركهم اهاليها ومن صلخد انطلق هذا الجمع ومن خرج معه من اهالي صلخد ، الى سهل اسمه العين ، الى الغرب ـ الجنوبي . وهو مرج صالح للمرعى ، حيث اقترح سلطان المكوث قليلا والتقاط الانفاس . فنصبت بيوت « الشعر » وصنعت القهوة « المرة » وتحلق الجمع حول شاعر الربابة كأنهم قبيلة جمعها « مرباع خيولها ».

ورأى المسؤولون الفرنسيون في السويداء ورؤساؤهم في دمشق ، عندما لم يستجب سلطان لطلبهم باللحاق بالثلاثة من آل الاطرش الى دمشق ، وبعدما وصلتهم أخبار التجمعات في القضاء الجنوبي أن يقطعوا عليها الطريق ، بملاقاتها في قرية الكفر شرق جنوب السويداء ، بكتيبة يقودها الكابتن نورمان .

كان قصد سلطان من مقامه في مرج العين وتريثه اتاحة الفرصة لمخابرة قرى الجبل بالحال وضرب موعد للقاء في قرية قنوات ، مقر المشيخة الروحية ، للتداول فيما يجب اتخاذه . وعندما علم بقوة الفرنسيين التي تترصده وتقطع عليه الطريق في الكفر ، ندب خيالين من المقربين للانتقال الى الكفر والسعي لمقابلة نورمان ، بصحبة شيخ الكفر أسعد مرشد ، والطلب من قائد السرية الابتعاد عن الطريق وعدم التعرض للجمع القادم مع سلطان لان بغيته المرور الى قنوات فقط ، وهو لا يبتغي القتال ومراده السلم والتفاهم . ولكن رعونة رجال الانتداب أبت الا ان تظهر صلفها. ففي اثناء محادثة الشيخ أسعد مرشد لنورمان امام موفدي سلطان، قال نورمان وهو مستلق على سريره في خيمته بلباس الميدان وقد أدخل سوطه في جزمته :

ـ أسعد بك الا تعيرنا انتباهك لحراسة خيامنا ريثما نعود اليها جارّين وراءنا سلطان من شاربيه . ووراءه من ينتصر له ؟

عندئذ هب الحضور وقوفا ، وانتهى الكلام . وعاد الموفدان يخبران سلطان بما جرى فطلب اليهما ان يتكتما الخبر ويعتبراه سرا لا يفشى لاحد .

يقول اللواء زيد ، ــ اخو سلطان الذي كان عندئذ في عداد الجمع ــ لـم تعرف كيف تسرب الخبر وسرى كالبرق . وانطلق الخيالة والمشاة وبينهم اخـي مصطفى ، حتى انني ، ولم تكن فرسي مسرجة ، لم اتمكن من اللحاق بهم الا وكانت المعركة قـد انتهت وأبيد الفرنسيون وعلى راسهم نورمان نفسه .

كتب سلامة علي عبيد كتابه الثورة السورية الكبرى على ضـوء وثائق لم تنشر عن لسان شهود عيان يصف المعركة :

« ... انطلقوا جميعهم بخيلهم ورجلهم وفي وضح النهار انطلاقا جنونيا باتجـاه موقع الحملة ــ المخيمة حول نبع الماء شمالي القرية ــ فسلك الخيالة الطريق الاقـل وعورة ، بارشاد بعض اهالي الكفر ، في حين انطلق المشاة بطريق مختصر ولكنه اشـد وعورة . وبذلك أصبحوا يشكلون فكي كماشة انقضت في لحظة واحدة ودون أن تتوقف دقيقة واحدة على المحاصرين حتى أنها لم تسمح لهم باستعمال اسلحتهم بل أعجلتهـم عن ذلك بانقضاض هائل خاطف بالسلاح الابيض . وهكذا فقدت الرشاشات كل ميزة وتحولت البنادق الى عصي خشبية حتى أنه لم يتح لاكثر من مئتي مجاهد ان يشتركوا في هذه المجزرة الرهيبة التي لم تدم أكثر من أربعين دقيقة ... » .

حتى لقد روي أن احد الانفار الناجين من المعركـة العائدين الى المقـر في قلعة السويداء ، شاهد في طريقه « زوالة » ظنها رجلا يتربص به فهرب عنه شاردا ، تاركا بغله وما عليه من مؤونة فاذا بالـ « زوالة » امرأة تتكىء على عصا .

بعد الكفر ، لم تعد فكرة الاجتماع في قنوات واردة في اطار القصد الذي رمى اليه سلطان من قبل . بعدما استجد من معطيات . فالثورة انطلقت . لم يعد في قدرة احد ايقافها . لقد هب الاهالي هبة واحدة . يحدوهم الانعتاق والتحرر من القهر المكبوت منذ اربع سنين ، وكسب البندقية من أيدي الفرنسيين . ففي الدراسة التي اجريت لحصر وتحديد عدد « المجاهدين » الذين يستحقون تخصيص راتب ،كان الشرط الاول أن يكون المجاهد قد بقي في الثورة أكثر من ستة شهور والا لامكن القـول بأن جميع القادرين على حمل البندقية من سكان الجبل اشترك في الثورة ، بلا تفريق بين المعارضين والمؤيدين للوجود الفرنسي .

وهكذا أمكن لقائد الثورة ان يذيع منشورا يطرح فيه اما ني البلاد : لان الحق يؤخذ ولا يعطى وبالدعوة الى السلاح .

الحواشـــي :

(١) انظر : ذوقان قرقوط ، تطـور الحركـة الوطنيـة في سوريا ، ط٢ ، منشـورات دار طلاس بدمشق ، فصل الثورة .

(٢) ساطع الحصري ، يوم ميسلون .

(٣) E. RABBATH : L'Insurreetion Syrienne de 1925 - 1927 - Revue Historique, 542 - Avril - Juin 1982 .

(٤) جاء في تقرير لجنة الانتدابات لعام ١٩٢٦ : « لم يرد في تقرير الدولـة المنتدبة الـذي فحصته اللجنة خـلال اجتماعها الخامس أي باعث على توقع الثورة التي شبت في جبل الدروز .. فاللجنة مضطرة والحالة هذه الى عدها حادثا يعود الى أسباب مباشـرة ذات أصل حديث ... » كذا .

(٥) المقطم (القاهرية) ٨ نيسان / ابريل ١٩٣٠: أسباب الثورة ، في آراء الكتاب الفرنسيين، وفي ١٢ ، ١٨ ، ٢٥ ، تموز / يوليو ١٩٢٥، الاحرار البيروتية ١١ تموز / يوليو ١٩٢٥ .

(٦) B. N. Paris : L'Illustration, 15 Oût 1925 : (Les èvennements en Syrie) .

(٧) Porter , J. L. Five years in Damaseus , Vol. I P 135;

ميخائيل مشاقة ، مشهد العيان في تاريخ سورية ولبنـان ص ١٥٢ ، الامير سـعيد الجزائري : جهاد نصف قرن ص ٤٨–٤٩ .

(٨و٩) الدكتور أحمد قدري : مذكرات ص٤١ ، ٦٤، ٦٥ وقد سلك هـذا الطريق كل مـن توفيق البساط وابراهيـم هاشـم مـن الضبـاط الاحتياط في الجيش العثماني ، وعمر حمـد عضو الجمعية اللا مركزية الشهير وتحسين قدري رئيس الديوان الملكي العراقي فيمـا بعد ، ورفيق التميمي وسليم عبـد الرحمن ورستم حيدر والملازم محمود المغربي وخليل السكاكيني وسعيد الباني وعبد اللطيف لطفي وحكمت العسلي والدكتـور احمـد قدري ونسيب البكري وزكي الدروبي ... الخ .

(١٠) من حديث لسلطان باشا .

(١١) حنا أبي راشد ، جبل الدروز ، المطبعـة التجارية الكبرى ، مصر ، حوران الدامية ، ١٩٢٦ .

(١٢) أكد سلطان باشا للباحث نتيجة للتداول مع جورج صيدح وخليل سكاكيني وبعض رجالات الجبل أدرك أن الدولتين فرنسا وبريطانيـا متفقتان على اقتسـام النفوذ في البـلاد وأن سورية من نصيب الفرنسيين ولم تكن سايكس – بيكو قد كشفت بعد .

(١٣) نفى سلطان باشـا ، لي ، التعرض لهـذه الفكرة ، نفيا قاطعـا ، في حدود علمـه . والارجح ان يكون ذلك مدسوسا من الاتجاه الفرنسي لتأييد خطه فصل الجبل عن سوريا .

(١٤) مثلا : بين أوراق نسيب البكري صورة من احدى رسائله اليه يقول فيها : « الجيش الحجازي طهر مكة المكرمـة من الاتـراك وجيش الحلفاء المنضم اليه الجيش السوري قد افتتح بئر سبع عن طريق غـزة في ٢١ اكتوبر – تشرين الاول ١٩١٧ ويافا في ١٦ نوفمبر والقدس في ٩ ديسمبر وعليه كـن على استعداد مع رجال حزبك وقريبا سندخل جبلكم المنيع بواسطتكم . والله ينصر العرب .

(١٥) حنا خباز ودكتور جورج حداد ، فارس الخوري ، حياته وعصره – مطابع صادر ريحاني بيروت ١٩٥٢ ، ص ٥٣ « واختلف الرأي على اثر انذار غورو . قال فارس الخوري : لا شك في اننا قمنا بما يقتضيه الواجب ومصلحة البلاد . ولكن الشعب لن

يقدر ذلك وسيزعم بأننا اضعنا عليه فرصة الانتصار وسيكون هناك من يقول دائما ليتهم رفضوا الانذار واختاروا الحرب والنضال » ، ساطع الحصري ، يوم ميسلون – بيروت ١٩٤٨ ص ١١٢ .

(١٦) المقصود : اتفاقية ابو فخر – روبيرديكيه. وابو فخر هذا هو شيخ العقل محمود ابو فخر الذي عزل من المشيخة نتيجة مؤامرة اخلاقية دنيئة . اهلية – فرنسية ، لا شك ان هذه المعاهدة ليست بعيدة عنها .

(١٧) حنا أبو راشد

(١٨) L' Echo de Paris,29 September 1925

ايد الجنرال سراي نفسه هذا الكلام في كتابه الى مندوبه في دمشق ، الذي ذكره الدكتور ادمون رباط في المصدر المذكور سابقا وأيده م. كوبلنتز في كتابه « صمت سراي » ص ٢٣٤ .

(١٩) مداخلة النائب Ferry من مجلس النواب الفرنسي المشار اليها سابقا .

(٢٠) L' Echo de Paris , 29 September 1925 .



راي للمناقشــة :

الجدل حــول تفسير التاريخ في ســورية وقت الانتداب الفرنسي

اولريكة فرايتاغ *
باحثــة من المانيــا

يعد البحث التاريخي فرعا من العلوم الانسانيــة . والمعروف ان هــذه العلوم مرتبطة بالتطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أكثر من العلوم الطبيعية . ومع التطورات الدائبة في هذه الحقول في المشرق العربي خلال القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بالتاريخ يتجدد أيضا ولاسيما في سوريــة . ويمكننا اعتبــار الفترة ما بين منتصف القرن التاسع عشر وانهيار الدولة العثمانية ، هي مرحلة النهضة العربيــة التي بدأ فيها تكوين الفكر الوطني والقومي في المنطقة .

أما بعد الانتدابات الاوربية على المشرق فقد وجد المثقفون خصما جديدا(١) . لقد استندت فرنسة فيسياستها الاستعمارية الى ايدلوجية أساسها «الرسالةالتحضيرية» . وحاول (أصحاب الحكم الانتدابي) أن يزودوا هذه الايديولوجية بنوعمن العمقالتاريخي كما فعلوا في الجزائر(٢) . وقد اثار ذلك ردود الفعل عند المثقفين العرب . وهذا الجدل حول الثقافة هو موضوع هذه المقالة .

يروي خالد العظم في مذكراته عن أيام دخول الجيش الفرنسي الى دمشــق بعد معركة ميســلون ١٩٢٠ فيقول : « مرت بالتسلسل ذكــرى دخول .... ثم قــدوم الجنــرال غورو ووقفتــه أمــام ضريح السـلطان صـلاح الديـن الايوبـي وقولـه (ها نحن نعود) ملمحا الى عودة الصليبيين على يده (...) »(٣) .

والجدير بالذكر ان ذلك الحادث الذي يذكر أكثر مــن مــرة يعبر عن رؤيــة الفرنسيين لنفسهم « كتقليد صليبي »(٤) . وقد تأثر السوريون بذلك . وتعود هذه النظره الى اقتناع الفرنسيين برسالتهم « التحضــيرية » التي كانت ترافــق وتبــرر التوسع الاستعماري(٥) .

---

* زارت الباحثة الالمانية اولريكة فرايتاغ دمشق أكثر من مرة لاعداد دراسة عن تطور كتابة التاريخ في سورية بعــد الاستقلال ، نالت عليها شــهادة الدكتوراه . وقد وافتنا بهذا البحث بعد عودتها الى بلادها ، ننشره كوجهة نظر اوربية .

دراســات تاريخيــة ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار ــ حزيران ١٩٩٤

وبعد احتلال سورية بدات فرنسة تنشيء ادارة الانتداب ، وخططت لاحداث مدرسة خاصة لتعليم الموظفين الجدد . وطلب الجنرال غورو من هنري لامنس تحضير دروس عن تاريخ سورية لهذه المدرسة (٦) . وهنري لامنس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) اب يسوعي بلجيكي الاصل فرنسي الجنسية ، عاش في بيروت حيث درس في الكلية اليسوعية . وهو مستشرق ومؤلف لعدة كتب عن الاسلام والعرب(٧) . وبالرغم من عدم تحقيق مشروع المدرسة الادارية ، فقد الف لامنس كتابا عن تاريخ سورية (بيروت ١٩٢١) بناء على طلب زملائه الذين ارادوا استعماله للتدريس في المدارس العامة(٨) . ويدعى محمد كرد علي انه عاق الفرنسيين عن هذا الاستعمال الرسمي للكتاب [باحتياجاته(٩)] وعلى كل حال يمكننا اعتبار كتاب لامنس نوعا من « تفسير شبه رسمي » للتاريخ السوري من قبل الفرنسيين . والدليل على ذلك ليست قصة انجازه وحسب ، بل أثره على المناهج المدرسية العامة التي صدرت عام ١٩٣٢ أيضا (١٠) .

اما بالنسبة لمن يقول ان كتاب « تاريخ سورية » يشكل جزءا من الكتابة اللبنانية المسيحية للتاريخ ، لتشابه افكار لامنس وكتابات جرجي يني(ت ١٩٤١) ويوسف الدبس (١٨٣٣ ــ ١٩٠٧)(١١) فهذا لا يستبعد ، للقرابة السياسية والفكرية السابقة بين بعض الاوساط اللبنانية المسيحية وفرنسا ، خلال أواخر القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين .

يعبر لامنس عن برنامجه التاريخي السياسي بعنوان الفصل الاول من كتابه « الجنسية السورية قبل الفتح العربي »(١٢) وبذلك يلمح الى ما يراه الفرق الواضح بين السوريين والعرب . ويطور هذا الموضوع مستندا على ما يفسره بالوحدة السورية التاريخية للارض واللغة والاصل والتقاليد . وكل هذا ، يقول لامنس ، أدى الى تكوين « شكل خاص » يميز السوريين عن سكان مصر وبلاد ما بين النهرين ، والعرب عامة(١٣) . وبالرغم من كل موجات الفاتحين فقد احتفظ السوريون بخصوصيتهم بسبب حيويتهم الخاصة .

اما لغويا ، فيفسر لامنس تعريب سورية بضغط ما سماه « الخطر العربي»(١٤). وهو ينظر الى العرب كأهل بادية هم برأيه « متوحشون [نبيليون] غير قادرين على التمدن » . أما سكان القرى والمدن الذين كان عددهم يتجاوز عدد البدو في تلك الايام فيصفهم بانهم مزيج من العرب مع تأثيرات اجنبية ، وهم لذلك متفسخون(١٥) . ويفسر بالتالي ازدهار الدولة الاموية بنقل عاصمة العرب من الحجاز الى سورية ، وبتأثير السوريين على العرب الذين استفادوا منهم(١٦) . ويضيف لامنس الى نظرته السلبية

للعرب هجوما على الاسلام . لذلك لا غرابة في اعجابه بالجامع الاموي ، على الرغم من كونه رمز الحكم الاسلامي ، اذ انه يعتبره نتيجة الفـن المحلي ، ويعني بذلك الفـن السوري المسيحي ، وبذلك فهو ليس اسلاميا(١٧) .. أما الحكم العباسـي فبدأ بـه ما يسميه لامنس بـ « الالف سنة عبودية » (١٨) ، لذلك يركز على معارضة السوريين للعباسيين ..الخ .

تختلف الصورة التي يرسمها لامنس عن فترة الصليبيين اختلافا تاما عما سبق. فقد وصل الصليبيون حسب رايه ، الى بلاد منهارة وفقيرة(١٩) أمـا عند خروجهم فكانت سورية قد ازدهرت واغتنى سكانها . وتعاكس صورته من هذه الفترة صورة المؤرخين العرب حتى في التفاصيل . يقول ان المسلمين فضلوا حكم الصليبيين على حكم امراء المسلمين لوجـود التسامح ، وانسـجام سكان البلاد ، الذي كـان على عكس الظروف في البلاد تحت السـيطرة الاسلامية في الوقت نفسه(٢٠) . وبذلك يرى لامنس فترة الحروب الصليبية نموذجا للانتداب الفرنسي ، ويوضح هذه الرؤية حتى لغويا عندما يكتب عن سورية في القرن الحادي عشر كمنطقة «منتدبة لدفاعها وتطورها»(٢١).

اما الفترة التالية فلا يرى لامنس فيها الا ما راى عند بحثه عن العصر العباسي : فساد وفوضى واضطهاد ..الخ. وكان الاستثناء الوحيد (برأيه) جبل لبنان الذي اصبح نوعا من ملجأ للاقليات(٢٢) . ويشيد لامنس بالعلاقات الجيدة التي أقامها الامير فخر الدين المعني بين الطوائف . وأهم من ذلك ، انه يرى أن جبل لبنان وحده مـن كل المناطق السورية استطاع أن يحتفظ بهويته الخاصـة وتاريخه ، وبذلك أصـبح يتجسد به تاريخ سـورية الحقيقي . وحسب لامنس يعود هذا الى طبيعة الجبـل الجغرافية التي منعت الفاتحين من الدخول اليه، فمنذ الايام الاولى لسورية استطاعت الفئات المعارضة للحكم الالتجاء اليه .

يعتبر لامنس انتهاء الحكم العثماني في سـورية تحريرا ، غير انـه يلح على ان الجيوش العربية لم تلعب دورا ملحوظا في الحملة العسكرية التي ادت الى خروج الترك من البلاد ولذلك لا يستحق العرب أي دور في الحكم(٢٣) . وبذلك هـو يبرر الحكـم الانتداب الفرنسي الذي يراه متناسبا مع آمال سكان سورية ، مهملا ومزيفا نتائـج لجنة كنج ــ كراين(٢٤) . ويدافع عن الانتداب الفرنسي ايضا وحجته أن سورية كانت تاريخيا دائما ممزقة بالرغم من وحدتها القومية . ويعـود السبب في ذلك ــ حسـب لامنس ــ الى جغرافيتها التي تتميز بكثرة الجبال والانهـار والوديـان التي منعت السكان من الاتصال ببعضهم وبالتالي من الاتفاق السياسي(٢٥) . أما جدلية تاريخ سورية فيراها في التناقض والصراع الدائم بين الاحساس بالوحدة القومية السورية

وهذا التمزق السياسي . ومن هنا تأتي « الرسالة » الفرنسية في « مساعدة » سورية على تحقيق طبيعتها من خلال الانتداب ، ويبرر لامنس تجزئة سورية في أوائل الانتداب بهذا التاريخ ، مثلما يشرح تأسيس دولة لبنان بالدور التاريخي لهذه المنطقة(٢٦) .

ان لامنس المؤرخ ، حتى لو كان مقتنعا بهذه الصورة اقتناعا شخصيا صادقا ، فيبقى ان كتابه يبرر السياسة التي اتبعت مصلحة الدولة الاستعمارية ، واستخدام الكتاب لهذا الغرض ، كما تظهر انعكاساته في كتابات رجال الانتداب أنفسهم(٢٧) .

ويمكننا تصنيف الردود العربية على كتاب لامنس الى نوعين، (الاعجاب) جزئيا كان أو كليا بما قال ، والرفض .والجدير بالذكر ان أعماله كانت موضوع الخلاف في أوساط زملائه من المستشرقين أيضا(٢٨) .

ويبدو أن بعض الاوساط اللبنانية أعجبت بما كتب لامنس عن دور سورية في التاريخ عامة وعن شخصية لبنان البارزة خاصة ، مدافعا بذلك عن تأسيس دولة مستقلة في لبنان . ويرجع المؤرخ فيليب حتي في عدة مقالات صدرت في العشرينات وفي كتابه « تاريخ سورية » الذي صدر عام ١٩٣٧ ، الى فكرة الخصوصية التاريخية لسورية (٢٩) . ويشيد فيليب حتي بالعبقرية السورية التي تجسدت في عصور مختلفة منذ العصر الفرعوني حتى العصر الحاضر ، ويتبع على سبيل المثال لامنس في رأيه بأن العصر الاموي ازدهر بسبب مساهمة السوريين فيه أكثر مما اسهم العرب ،الذين لم يكن السوريون من جنسهم . ويبدو ان هذه الافكار أثرت فيما بعد على تطور (القومية السورية) التي بدأت تتشكل في بيروت في الثلاثينات(٣٠) .

اما فكرة اطراء الدولة الاموية فقابلها ايضا محمد كرد علي الذي كان من اقسى ناقدي لامنس . فكانت الدولة الامويةمن قبل تعتبر غير اسلامية بالجوهر . اما مع انتشار التفسير العلماني للتاريخ والقبول الواسع للافكار الوطنية والقومية فتغير هذا الحكم .غير ان التشابه بين لامنس وكرد علي لا يعني اتفاقهم في خط التفسير العام، بل الامر على العكس تماما . .

يلوم كرد علي لامنس أنه يكتب من باب الانحياز وليس من باب الموضوعية : « نحن لا (نتطاول) الى أن يكتب المؤلف (ويعني بذلك لامنس) عن رجال الاسلام بدون نقد ولا تمحيص ولا ان يقيد حريته في الحكم عليهم . ولا نطلب منه ان يعتقد في دينهم اعتقاد اهله . بل نطلب منه ان ينصف التاريخ ويتجرد عن العواطف التي تذهب بهجة العلم حتى لا يعد من المغاليق في مذهبهم ، فقد قال في القرآن(١٦٢) وايجازه وتفسيره

وبلاغته اشياء كان يقول بها متعصبة الاديار في القرون الوسطى وكنا نود ان لا يقلدهم في آراء قال المعاصرون من غير المسلمين خلافها . وفي كلامه حط من دين يؤمن به نحو ثلاثمائة مليون من البشر وتاريخه يظهر بينهم وفي بلادهم »(٢١) .

وبالرغم من ان كرد علي يختار الكتابة عن بلاد الشام الامر الذي يجعل اطاره الجغرافي يشبه الاطار الذي اختاره لامنس لكتابه ، فالنتيجة تختلف اختلافا كاملا. فمن ناحية يتبع كرد علي أسلوب الكتابة المحلية للتاريخ التي بدأت تتطور في القرن الثالث الهجري وازدهرت في سورية بالذات كذلك(٢٢) ، وذلك بالاهتمام الواسع في مواضيع مثل الجغرافية والعمارة وجوانب الحياة الاجتماعية . اما اختيار منطقة واسعة مثل سورية الجغرافية (بلاد الشام) وليس مدينة أو ولاية فقط ، وايضا وقبل كل شيء طريقة معالجة موضوعه ولغته ، فيفرق في ذلك بين كتابه وكتب معاصريه من المؤرخين المحليين التقليديين ، مثل محمد اديب ال تقي الدين الحصني الذي الف « كتاب منتخبات التواريخ لدمشق » وكامل بن حسين بن مصطفى الحلبي الشهير بالغزي الذي كتب« نهر الذهب في تاريخ حلب »(٢٤) .

يمكن اعتبار « خطط الشام » نوعا من رد على هنري لامنس من حيث النية والمضمون معا . اراد كرد علي أن يخدم « روح الوطنية »(٣٥) وبالرغم من انه وصف سكان بلاد الشام بانهم أمة من ناحية(٢٦) فهو لا ينكر الصلات بينهم وبين العرب من ناحية اخرى مثلما يفعل لامنس بل بالعكس ، يعترف كرد علي بالدور العربي الخاص في تاريخ هذه المنطقة ، وبعد وصف الهجرات المختلفة التي مرت بسورية يقول : « ولم تطل حياة عنصر في صحة بالشام كما طالت حياة العرب فانهم فيها على أصح الاقوال منذ زهاء الفين وخمسمائة سنة واصل بعضهم الى نحو اربعة آلاف سنة ، وهم الذين اندمج فيهم عامة الشعوب القديمة واستعربت فلم تعد تعرف غير العربية لسانا ومنزعا . ولذلك كان من المعقول أن يدل الشامي بعربيته أكثر من ادلاله بفنيقيته وروميته وسريانيته وعبرانيته »(٢٧) .

وفي مجلة « المقتبس » يتعمق محمد كرد علي في هذا الموضوع ، ويشرح أن هناك أمة عربية من المحيط الاطلسي الى بحر الهند . اما داخل هذه الامة فتوجد بلاد أو مناطق مختلفة مثل السودان والعراق واليمن وسورية(٢٨) . وبذلك تصبح سورية جزءا من الامة العربية وليست وحدة منعزلة مثلما رآها لامنس .

يتبين مما سبق ان كرد علي ليس من رواد (القومية السورية) . اما مفهومه لوجود (امة سورية) ضمن الامة العربية فيتساوى مع تطور الاوضاع السياسية

والفكر السياسي انذاك . والجدير بالذكر ان القوميين العرب من سورية كانوا متأثرين في العشرينات بتاريخهم الحديث أي : « الدولة السورية ١٩١٨ — ١٩٢٠ » والمناقشات التي دارت حول تأسيسها ، واعلان دولة العراق المستقلة في ذلك الحين(٣٩) . ويظهر من هذا ان وجود عدة دول عربية كان معترفا به في هذه الفترة بدون ان يؤخذ بمعنى « القومية القطرية » مثلما حدث فيما بعد عندما نشر انطون سعادة كتابه « نشوء الامم » عام ١٩٣٨ ، أي بعد نشر « خطط الشام » بفترة(٤٠) . والدليل على ذلك انه حتى ادمون رباط الذي اجاب في كتابه « الوحدة السورية والمستقبل العربي » على لامنس والذي حاول أن يؤثر على الرأي العام الفرنسي أثناء مناقشة معاهدة ١٩٣٦ ، يحكي عن وحدة مناطق عربية مختلفة ويفسرها كالخطوة الاولى نحو الوحدة العربية الكبرى(٤١) .

ويفسر كرد علي ان أهمية الدولة الاموية ـ التي يؤكدها مثلما اكدها لامنس ـ تعود الى وضعها الاسس الثابتة للحضارة العربية الاسلامية والى تأسيسها دولة عربية صرفا(٤٢) ، مناقضا بذلك رأي لامنس من أن العرب استفادوا من نشاط السوريين فحسب . اما الحكم العباسي فينتقده كرد علي ـ باستثناء بعض الخلفاء مثل هارون الرشيد ـ على أساس سياسة الحكم تجاه الفرس والاتراك . ويرى كرد علي في محاولة اندماج القوميات بداية النهاية لان هذه القوميات بدأت برايه تفسد الدولة وتحصل على زمام الحكم(٤٣) . ومرة اخرى نستطيع أن نلاحظ انه على الرغم من التوافق في التقدير السلبي للدولة العباسية يختلف التفسير التاريخي جذريا بين كرد علي ولامنس . فهذا يأسف على فقدان العرب للسلطة ، بينما يأخذ الثاني سوء السلطة العربية اساسا لحكمه .

اما بالنسبة للحروب الصليبية فيختلف الامر ، بحيث ان تحليل وحكم المؤرخين يتناقض تماما . فبينما يشيد لامنس بهذه الفترة وبأن أوربا ساعدت الشرق الاوسط على التطور ، يؤكد كرد علي النقل الحضاري من العرب الى « شعوب شمالي أوروبا المتوحشة »(٤٤) .

اما الفترات التالية أيام دول المماليك والمغول والعثمانيين ، فيراها كانهيار مستمر(٤٥) غير انه في القرن التاسع عشر بدأ الامل بتحسين الاوضاع يعود مع رجال مثل محمد علي باشا وابراهيم باشا ومدحت باشا . اما بالنسبة لطموحات السوريين فيعود محمد كرد الى تقرير لجنة كنج كراين ويلخص نتائجه بشكل افضل واصح مما فعله لامنس(٤٦) .

بعد نشر كرد علي « خطط الشام » بدأ هنري لامنس ينتقده لاستخدامه مراجع قديمة ، ولعدم علمية الكتاب وصدقه في مصادر غير موثوقة(٤٧) . وفي الاطار نفسه ناقش بعض نقاط مثل حكم كرد علي السلبي على العصر الروماني في الشام الذي كان براي لامنس عصرا ذهبيا . وبذلك النقد انتهى الجدل بين الاب اليسوعي هنري لامنس والمثقف العربي محمد كرد علي حول التفسير « الصحيح » للتاريخ السوري العربي .

توضح هذه المناقشة الدور الذي لعبه بعض المستشرقين في تبني ايديولوجية الدول الاستعمارية . ولكنها تدل ايضا على مشكلة اخرى : لقد اهتم محمد كرد علي الاديب الصحفي المؤرخ بتطور العلم واللغة متابعا بذلك جهود رواد النهضة العربية . ويتضح ذلك في نشاطاته العديدة ، وكان بذلك يقترح انفتاح الحضارة العربية الاسلامية على التطورات الغربية ، مدافعا عن ذلك بالحاجة على ان الغرب استفاد من التقدم العربي خلال وعقب الحروب الصليبية(٤٨) . ولم تكن هذه الفكرة مقبولة عند كل معاصريه نظريا وعمليا . وعلى سبيل المثال يقال في حقل الكتابة التاريخية أن محمد اديب آل تقي الدين الحصني الف « كتاب منتخبات التواريخ لدمشق » قاصدا بذلك الدفاع عن النمط التقليدي لتدوين التاريخ ضد الاسلوب الحديث . ومهما كانت صحة هذا القول فيبقى ان المجتمع التقليدي عارض التغيرات العديدة وسبق في ذلك التطور مجال الادب والتاريخ . ومن الارجح ان اعمال بعض المستشرقين وما عرف عنها زاد من رفض المحافظين لما اعتبروه بدعا ، لذلك وجد محمد كرد علي نفسه في مأزق حيث قبل بعض الافكار والاساليب الجديدة منهم من ناحية ورفض قذفهم للعرب والاسلام من ناحية أخرى . ولكنه أجاب عن هذه المشكلة بنوع من الاستقلالية الفكرية حيث فرق بين المستشرقين الذين كتبوا لاغراض سياسية او نفعية ، وآخرين كتبوا بنزاهة (٤٩) .

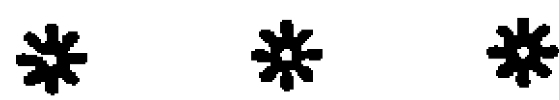
لم ينته الجدل الثقافي بين الفرنسيين والسوريين مع النزاع المذكور بل اخذ اشكالا عديدة خلال فترة الانتداب ، وهذا على مستويات مختلفة منها حقل التربية . وتوجد عدة روايات تدل على دور دراسة التاريخ في ايقاظ الشعور بالقومية عند طلاب المدارس ومكتب عنبر بالذات(٥٠) . وبعدما اتفقت فرنسة مع سورية على معاهدة ١٩٣٦ التي رفض البرلمان الفرنسي ان يصدقها بدأ الموظفون السوريون في وزارة التربية بتغيير مناهج التعليم التي كانت في مجال التاريخ متأثرة بالبرامج الفرنسية وبأفكار هنري لامنس مثلما سبق ذكره ، وأخذوا برامج الدول العربية الاخرى مثل مصر والعراق ودول أوربية مثل اليونان وبلغاريا(٥١) . وكان المقصود بذلك الابتعاد عن البرامج الفرنسية والاقتراب من الدول العربية الاخرى دون الانعزال عن التطورات التربوية الحديثة . ولكن الانتداب لم يكن قد انتهى بعد ، وموظفيه مازالوا يراقبون

التطورات . ويبدو ، على سبيل المثال ، انهم منعوا كتبا مدرسية للتاريخ عام ١٩٣٦ـ ١٩٣٧ لميولها للقومية(٥٢) . اما القوميون من الاساتذة فلم يكونوا مرتاحين لهذا الوضع: كتب صالح زاهد باشا الهبل رسالة الى وزارة التربية عام ١٩٤٤ شاكيا بأن الطالب العربي ما زال يتعلم عن تاريخ فرنسا أكثر مما يتعلم من التاريخ العربي الاسلامي(٥٣).

كان هذا الشعور منتشرا في أوساط القوميين ودعت الحكومة السورية ساطع الحصري الى دمشق عام ١٩٤٤ لدراسة أوضاع التعليم وذلك توقعا للاستقلال القريب . وكان الحصري في ذلك الحين معروفا ليس لنشاطه في سورية وقت الحكم الفيصلي فحسب بل لقيامه بتطوير النظام التربوي في العراق على خطوط القومية العربية(٥٤) . حلل ساطع الحصري الاوضاع في ٢٤ تقريرا واقترح عدة اصلاحات(٥٥)، ونتج عن ذلك ما سماه الحصري بوثيقة « الاستقلال الثقافي »(٥٦) وهو قانون ٢١/١٢/ ١٩٤٤ . حدد هذا القانون في مادته الاولى مهمة التعليم كما يلي :

« ان مهمة وزارة المعارف الاساسية هي تربية الجيل الجديد تربية صالحة ـ من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية ـ لينشأ كل فرد من الافراد قوي البدن حسن الخلق وصحيح التفكير محبا لوطنه معتزا بقوميته مدركا لواجباته ومزودا بالمعلومات التي يحتاج اليها في حياته قادرا على خدمة بلاده بقواه العقلية والبدنية وبجهوده الانتاجية »(٥٧) .

من بين تعليمات هذا القانون كان فرض المناهج الرسمية على المدارس الخاصة في المواد التي اعتبرت مهمة من الناحية القومية مثل اللغة العربية والجغرافية والتاريخ، ووقفت الحكومة السورية بهذا القانون في وجه فرنسا التي حاولت المحافظة على تأثيرها الثقافي الى النهاية . ويعتبر هذا القانون سببا من أسباب رفض فرنسا الموافقة على الاستقلال السوري وبالتالي للاصطدامات العسكرية في أيار ١٩٤٥(٥٨). تدل هذه التطورات الاخيرة مرة أخرى على الاهمية التي أعطاها الجانبان الفرنسي والسوري للمسائل الثقافية والتربوية ، ومنها التاريخ ، في الاطار السياسي العام ، كما تؤكدها التعديلات التي ادخلت على مناهج التاريخ بعد الاستقلال(٥٩) .



الحواشـي :

(١) قارن : عبد الله حنا : من الاتجاهات الفكرية في سـورية ولبنان . « النصف الاول من القرن العشرين » بيروت ١٩٨٧ ، ص١٦–١٧.

(٢) قارن :
Mohammed Chérif Sahli, **Décoloniser l,Histoire** , Paris 1965.

(٣) خالد العظم : مذكرات ، ٣ مجلدات ، بيروت ١٩٧٣ (الطبعة الثانية) ، م١ ،ص ٣٠ .

(٤) من أمثالهذه الرؤية الفرنسـية الكتابالتالي:
Gabriel Puau, **Deux années au Levant (1939 - 1940)** , Paris . p. 79 .

(٥) انظر :
Henri Brunschwig , **French Colonialism 1871 -1919,** Myths and Realities , London 1966 .

(٦) Henri Lammens , **La Syrie , Précis historique,** 2vol ., Beirut 1921 . compare vol. I, p; 1 .

(٧) انظر : خير الدين الزركلي : الاعـلام . ٨ مجلدات . بـيروت ١٩٨٤ (الطبعـة السادسة) م٨ ، ص ٩٩–١٠٠ و
Kamal Salibi ,«**Islam and Syria in the Writing of Henri Lammens**» , in : Bernard Lewis (ed) : **Historians of the Middle East** , London , New York , Toranto 1962 , p. 330 - 334 .

(٨) Lammens , Op. Cit. V. I, p. II . p. II .

(٩) انظر :
Rainer Hermann, **Kulturkrise und konservative erneuerung . muhammad Kurd Ali (1876 - 1935) und das geistige leben in Damascus zu Beginn des 20.** Jahrhundert. Frankfurt et. al . 1990, P.276; and, Werner Ende, **Arabische Notion und islami - sche gesehiche , Die Umayt - yaden im Urteil arabischer Autoren 20.** Jahrhundert. Wies -baden, Beirut 1977, p. 83-84.

(١٠) قارن : برنامج التعليم الثانوي في دولـة سورية . دمشق ١٩٣٢ .

(١١) قارن
Albert Hourani, « Historians of Lebanon, » in : Lewis/Holt Op. Cit, p. 226 - 249 , here p. 237 - 239 .

(١٢) Lammens, Op. Cit, V. I. p. 1 .

(١٣) Lammens, V, I, p. 5 .

(١٤) Lammens, V, I, p. 23 .

(١٥) Lammens, V, I, p. 33 .

(١٦) Lammens, V, I, p. 69 - 122 .

(١٧) Lammens, V, I, p. 88 .

(١٨) Lammens, V, I, p. 125 .

(١٩) Lammens, V, I, p. 194 - 236

(٢٠) Lammens, V, I, p. 243 .

(٢١) Lammens, V, I, p. 235 .

(٢٢) Lammens, V. 2, p. 13 - 15 , 34-40, 63 .
ولمناقشة نقدية هذه الفكرة انظر :
Kamal Salibi, **A House of Many Mansions , The History of Lebanon Reconsidered** London 1988, p. 130 - 150 .

(٢٣) Lammens, Op. Cit. V. 2, p. 238 - 244 .

(٢٤) Lammens, V. 2, p; 255 .
قارن للاحداث ونتائج لجنـة كنج ـ كرين ، خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق

بين ١٩١٨ – ١٩٢٠ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١١٤ – ١٢٣ .

(٢٥) Lammens, V. I, p. 2,4,9 - 11,13, 132f ; and V. 2, p. 12ff .

(٢٦) Lammens, V. 2, p. 262 - 268 .

(٢٧) قارن :

Puau, Op. Cit. or Georges Catroux, Dans : **la bataille de Mediterranée 1940 - 1944,** Paris 1949, p. 208 .

(٢٨) من نقاد لامنس الغربيين المستشرقون :

C. H. Beker, W. M. Watt and Jean sauvaget , C. F. Ende Op. Cit. p. 188 .

(٢٩) للتالي قارن : Ende, p. 176 - 178

(٣٠) أنطون سعادة ، نشوء الامـم ، الاثـار الكاملة ، م ٥ (بدون مكان طبع او تاريخ)، ص ٨٠–١٢٨ .

(٣١) محمد كرد علي ، بحث انتقادي في مختصر في تاريخ سورية ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشـق ، (١٩٢٢) ص ٢٧١–٢٨١ . هنـا ص ٢٧٥ .

(٣٢) قارن :

Sami Dahhan, «The Origin and development of the local his - tory of Syria » in : lewis/Holt, Op. Cit, p. 108 - 117 .

(٣٣) دمشق ١٩٢٧ – ١٩٣٤ ، ٣ مجلدات .

(٣٤) حلب ١٩٢١ – ١٩٢٣ ، ٣ مجلدات .

(٣٥) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ٦ مجلدات. دمشق ١٩٨٣ (الطبعة الثالثة) . م١، ص٣.

(٣٦) كرد علي م.ن ، م١ ، ص ٤٨ .

(٣٧) كرد علي م.ن ، م١ ، ص ٢٠ .

(٣٨) انظر : سمير صيقلي ، « الحياة الفكريـة الدمشقية في مسـتهل القرن العشرين » : « محمد كرد علي ومجلة المقتبـس » في : مروان بحيري : الحياة الفكريـة في المشرق العربي ١٨٩٠ – ١٩٣٩ ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٤٥ – ١٧١ .

(٣٩) قارن : قاسمية : الحكومة العربية (هـ٢٤) ص ١٦٥ – ١٦٦ .

(٤٠) نشر « خطط الشـــام » لاول مـرة سـنة ١٩٢٥ – ١٩٢٨ ، أما مشروع الكتاب فيعود الى قبل الحرب العالمية الاولى . قـارن: Hermann, Op. Cit, p. 193 - 194

(٤١) Edmond Rabbath, **Units Syri - enne et devenir arabe** , Paris 1937, p. 346 .

(٤٢) كرد علي ، خطط الشام ، م١ ، ص ٣١ .

(٤٣) كرد علي ، حطط الشام ، م٢١ ص ١٦٨ – ١٧٠.

(٤٤) كرد علي ، خطط الشام م٢ ، ص١٢٨.

(٤٥) قارن لدراسة معمقة .

Hermann, Op. Cit., p. 224-240.

(٤٦) كرد علي ، خطط الشام ، م٣ ، ص ١٧٣– ١٧٤.

(٤٧) هنري لامنس ، « خطط الشام »، المشرق ٢٣ (١٩٢٥) ص ٥٦١ – ٥٦٧ و ص ٨١٤ .

(٤٨) قارن : Hermann, p. 259 - 277

(٤٩) قارن Hermann, p. 83 - 94

(٥٠) قارن ظافر القاسمي ، مكتب عنبر – صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسيـة والاجتماعية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٤– ١٠٧ .

(٥١) عبد الله حنا ، العمل لخلق مدرسة وطنية أيام النضال ضد الانتداب الفرنسي ، المعلم العربي ، (١٩٦٩) ، ص ٢٢–٤١ ، هنـا ص ٣٢ – ٣٣ .

٥٢ قارن :

Abdullatif Tibawi , **Islamic Education,** London 1972, p. 144

لا يقول الطيباوي ، للاسف الشديد ، ماهي الكتب التي منعتها فرنسة ، ولا يعطي اي دليل او مرجع لمعلوماته .

(٥٣) وزارة التربية ، مركز التوثيق التربوي ، دمشق . ملف اعادة النظر في برامج المدارس الثانوية والاكمالية العامة ، وثيقة رقم ٣٧٣٠٥ : (٥٦٩٠١) ٣٧١٠ . انظر ايضا مذكرة من رئاسة الجمهورية السورية الى وزارة المعارف . وثيقة رقم أنب ٣٧٣٠٥ (٥٦٩٠١) ٣٧١٠ .

(٥٤) لحياة ونشاط الحصري قارن : William L. Cleveland , **The Making of an Arab Nationa - list, Ottomanism and Arabism in the life and thought or Sati al - Husri** , Princeton 1971 .

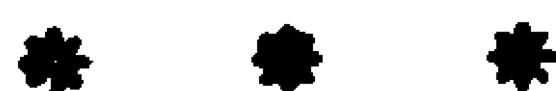
(٥٥) ساطع الحصري : تقارير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لاصلاحها . دمشق ١٩٤٤ وتقارير عن احوال المعارف ' سورية خلال سنة ١٩٤٥ . دمشق ١٩٤٦ .

(٥٦) Cleveland , Op. Cit. p. 79 .

(٥٧) قانون رقم ١٢١ من ١٩٤٤/١٢/٢١ . الجريدة الرسمية (٨)/١٢/١٩٤٤ ص ١٣٢٩ – ١٣٣٢ هنا ص ١٣٢٩ .

(٥٨) Tibawi , Op. Cit. p. 144 ; and Roderic D. Matthews / Matta Akrawi , **Education in Arab Countries of the Near East**, Washington D. C. 1952, p. 326.

(٥٩) لهذا التطور قارن الدراسة المعمقة لزهير ناجي : تعليم التاريخ ، دمشق ١٩٧٧ رسالة ماجستير غير مطبوعة) .



جوانب من صورة الاخر (الغرب)
في التاريـخ الاسلامي

د. نعمان محمود جبران
جامعة اليرموك

هذه دراسة في اطار رسم جوانب من صورة الاخر (الغرب) في التاريخ الاسلامي من خلال محاولة لرصد بعض معالم هذه الصورة في الكتابات الاسلامية (الجغرافية ، التاريخية ، الرحلات) . وقد ركزت على آراء الجغرافيـين والمؤرخـين والرحالة المشارقة في فترة قوة الدولة الاسلامية وفترة ضعفها . وقارنت الدراسة بين ما ورد من صورة للاخر (الغرب) في الفترة السابقة للحروب الصليبية وخلالها . وخلصت الدراسة الى بيان اهم المراحل التي تم من خلالها رسم صورة الاخر (الغرب) ومدى انطباقها على الصورة الحالية للاخر في ذهن الانسان العربي .

تمهيـــد :

ان الموقع الجغرافي للامة العربية واسلوب حياتها قد اهلاها منذ القدم للتعامل مع القارات في العالم القديم ، فكان للعرب صلاتهم باوروبا وافريقيا وشرق اسيا عن طريق التجارة البرية والبحرية ، وكان لهذا التبادل التجاري اثره في تكوين طبيعة العلاقات السياسية تعاونا وتحالفا ، او صراعا وتنافسا . وعلى هذا ، فان معرفـة الاخر وتبادل الخبرات والخيرات معه ظاهرة نابعة من ضرورات جغرافية واجتماعية حياتيـة .

واتسع هذا المجال بعد ظهور الاسلام وتكوينه دولته واتساعها الجغرافي الـذي زاد من مدى الاتصال بالخارج من الاندلس غربا الى حدود الصين شرقا ومن جبـال طوروس شمالا الى بحر العرب واواسط افريقيا جنوبا . وجاء هذا التوسع مقرونا بالرغبة في اكتشاف الاخر او تكوين صورة له ، سواء كان هذا الاخر ضمن اراضـي الدولة الاسلامية (من مسلمين جدد غير عرب أو من اتباع ديانات اخرى)، أو خارجها (ومن ضمنهم الغرب) ، وتعمقت المعرفة بالاخريـن عندما نشطت حركة الترجمة

في الدولة الاسلامية في القرن الثالث الهجري ، فبدات تتضح بشكل تدريجي معالم صورة العالم بالنسبة للمسلمين والتعرف على الاخر (الغرب) من خلال ترجمات من اليونانية والسريانية ، اضافة للمعلومات التي جمعها التجار والرحالة والاسرى ، وبذلك يمكن القول ان العرب المسلمين قد تعارفوا مع الاخر (الغرب) في فترات زمنية متباعدة بحكم التماس الجغرافي حين كانت اوروبا (الغرب) واحدة من ثلاث قوى حول البحر المتوسط (اضافة الى المسلمين والبيزنطيين) . وقد مرت العلاقات بين هذه القوى بأشكال مختلفة ، فأبناء الحضارة الاسلامية كانوا في اغلب المراحل اكثر عطاء واسهاما في الحضارة الانسانية بشقيها المادي والروحي، في حين كان الاخر تحت سيطرة قبائل بربرية لم يساهم في المسيرة الانسانية بالقدر نفسه ، لكن هذه الصورة لم تكن ثابتة على ارض الواقع ، بل مرت بحالات من المد والجزر ، فالقوة الاسلامية والتي بدت لقرون متماسكة فاعلة ، بدأ يعتريها نوع من الضعف لاسباب داخلية وخارجية ، وكذلك حال الغرب الذي بدأ يتلمس طريقا تقوده الى بداية التفاعل والمنافسة . يظهر ذلك من خلال شكوى بعض المؤرخين المسلمين في القرن الرابع الهجري من مضايقة الروم(١) والغرب للمصالح الاسلامية في البحر المتوسط(٢). ويفهم من ذلك ان المقصود بالروم والغرب يعني أوروبا بمفهومها العام الواسع الذي كانت تبرز فيه ثلاث مناطق رئيسية هي : منطقة رومية ، منطقة السلاف (الصقالبة)، ومنطقة الفرنجة او ما يشمل الامبراطورية البيزنطية واوربا الشرقية (٣) ، واذا كانت بيزنطة هي الاكثر تماسا مع الشرق الاسلامي فان بلاد الفرنجة كانت الاقل تماسا وعلى ذلك فان التصور الاسلامي للاولى كان أكثر وضوحا منه لصورة للفرنجة مكانا وسكانا والتي كانت المعلومات عنها تصل الى العالم الاسلامي ، وعلى حسب تعبير اندره ميكل André Miquel ، اربأ اربا (٤) ، وهذا عكس ما كان لدى المسلمين من معلومات وتصور واضح عن بلاد الهند والصين ، او افريقيا السوداء ، او بلدان آسيا الوسطى التركية .

وحين بدات الدولة الاسلامية بالضعف والتجزئة السياسية والمذهبية سنحت الفرصة للغرب، قبل أن يتوحد سياسيا أو دينيا، لمد بعض النفوذ على مناطق من حوض البحر الابيض واجزاء من الدولة الاسلامية ، بالغزو العسكري لاسباب واهداف متعددة (ليس الدين أقواها) فيما عرف بموجات الغزوات الصليبية . وهذا ما فرض تعارفا عنيفا بين ابناء الشرق الاسلامي والغرب الاوروبي ، وعلاقات ما بين محتل صليبي ومقاوم اسلامي لهذا الاحتلال . وكان يفترض ان يكون لهذه الحروب التي استمرت قرنين من الزمان أثر في تعديل معلومات كل طرف عن الطرف الاخر ، لكن الطرف المسلم رغم ضعفه العسكري في المراحل الاولى للغزو الصليبي بقي يشعر بتفوقه حضاريا على هذا الغازي ، وعلى الرغم مما ترتب على هذه العلاقة العنيفة

الا ان القطيعة بين الطرفين لم تحصل الا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حين تقدمت اوروبا بسيطرتها على الطرق التجارية العالمية مما جعل منطقة الشرق الاسلامي خارج اهتمامها ، ليعود هذا الاهتمام بشكل عنيف مرة اخرى مع موجات الاستعمار الحديث فيالقرن التاسع عشر . ومن هنا فان العلاقة بين المسلمين والآخر (الغرب) لم تكن علاقة نمطية تسير في اطار واحد ، بل تمثلت بعلاقات تعاون وتنافس وسلم وحرب ، مما كان له انعكاس على تطور كل طرف للاخر بحسب قوته وضعفه، ولكنها من الطرف الاسلامي كانت تمثل تصور المسلم ابن الحضارة العريقة للاخر (الغرب) الاقل تحضرا ، او نظرة ابن دار الاسلام او السلام الى دار الحربوسكانها دون ان يعني ذلك مفهوما عنصريا من حيثالتفوق العرقي(٥) ، وهذا عكس التصور الاوروبي للاسلام ومعتنقيه او للحضارات الاخرى .

ومما هو جدير بالذكر أن النظرة الاسلامية للآخر او تصويرها له لم تكن واحدة ، فنجد تميزا في الاهتمام ما بين البيزنطيين والصقالبة والفرنجة والجلالقة ، حيث احتلت رومية والقسطنطينية المكان الابرز والاكثر أهمية في الذهنية الاسلامية ، على عكس مركز الغرب في هذه الذهنية ، على ان هذا الامر قد انعكس في مرحلة لاحقة من التاريخ(٦) ، بتغير حال كل طرف . وحين نبحث عن صورة الاخر (الغرب) في الذهنية الاسلامية خلال فترات متباعدة ومن مصادر متعددة ـ سنقصرها تمثيلا على بعض المؤلفات الجغرافية وكتب الرحلات والسفارات وبعض كتب التاريخ الاسلامي من فترة الحروب الصليبية ـ لابد من التأكيد على ان جزءا من هذا التصور كان فيه تأثير اوروبي جاء عن طريق الترجمات الاسلامية للعلوم اليونانية ومن بينها الجغرافيا، أو بتأثير تصرفات الاخر (الغرب) تجاه الدولة الاسلامية .

آ ـ صورة الآخر (الغرب) لدى الجغرافيين المسلمين :

ان صورة الغرب لدى الجغرافيين المسلمين كانت محكومة بعدة عوامل ، منها الاثر اليوناني في الجغرافيا الاسلامية ، فقد أخذ المسلمون عن اليونان تقسيم العالم الى أقاليم ، وكان الاقليم الذي يقع فيه العالم الاسلامي اكثر تطورا واعتدالا . كما كان للتوسع الجغرافي في حدود الدولة الاسلامية اثر في ذلك . فمنذ القرن الثالث الهجري تأثر علم الجعرافيا الاسلامي بجغرافية بطليموس ، فاخذ عنه المسلمون تقسيم العالم الى سبعة اقاليم وركزوا في كتاباتهم على الاقليم الرابع الذي فضل على الاقاليم الاخرى ، وبخاصة على الاقاليم التي تقع أوروبا أو (الآخر) فيها ، ومن هنا نجدها عملية التفاضل واضحة بين الذات (المسلم) وبين الآخر (الغرب) ، من حيث الاقاليم الذي يعيش فيه . فابن خرداذبة (٢٧٠ هـ) وضمن تقسيم العالم الىأربعة

اقسام يقول : « ان المعمورة اربعة اقسام منها اروفي وفيها الاندلس والصقالب والروم وفرنجة وطنجة .. واسقونيا وفيها امينيا وخراسان والترك والخزر »(٧) ، وهنا يبدو ان مفهوم الغرب فيه عمومية وعدم وضوح يقابله زخم في المعلومات وتوسع في شرح حال الاقليم الرابع اقليم الدولة الاسلامية . ويتضح التفضيل بين الاقاليم عند ابن الفقيه (٢٩٠ هـ) ضمن تقسيمه المعمورة الى خمسة أقسام تماشيا مع أجزاء الطير (رأس وجناحان وصدر وذنب) ، فابن الفقيه ـ في كتابه البلدان الذي وصلنا مختصرا ـ يرى أن العالم الاسلامي بمراكز اشعاعه مكة والحجاز والشام والعراق ومصر تمثل صدر الدنيا (صدر الطير) في حين ان الغرب يمثل الجزء الاقل اهمية والاكثر سوءا في الطير وهو الذنب(٨) ، وهو بذلك يفاضل بين الذات الاسلامية من خلال اقليمها الرابع وبين الآخر (الغرب) في اقليمه السادس الذي يضم الفرنجة وامما اخرى ، كما انه يدرج ذلك ضمن النظرة للذات وللاخر في اطار عملية التزيين والتقبيح حسب راي الدكتور حسين محمد فهيم(٩) .

ويبدو الغرب او الاخر اكثر تحديدا ووضوحا عند ابن رسته (حوالي ٢٩٠هـ)، في كتابه الاعلاق النفيسة ، فهو يشير بتميز القسطنطينية ويشير الى بلاد ملك برجان التي تبعد مسافة رحلة بحرية تستغرق ثلاثة أشهر عن بلاد فرنجة ، ثم يتحدث عن مدينة برطينية على ساحل بحر الغرب(١٠) . الا ان اوسع تعريف باوروبا والغرب نجده لدى المسعودي (٣٤٦ هـ) بالرغم من انه لم يؤلف كتابا جغرافيا خالصا ، الا ان كتابيه مروج الذهب،والتنبيه والاشراف ، يرد فيها معلومات واسعة ـبرغم ما فيهامن اساطير اقتبسها ممن سبقوه واضاف اليها معلومات شخصية حصل عليها من تجار ورحالة أو من مشاهدات ذاتية من رحلاته التي شملت الهند وسيلان وشواطىء زنجبار وأرمينيا وشواطىء بحر قزوين(١١) . ففي كتابه مروج الذهب يتحدث عن الروم (الرومان) ويشير الى الصقالبة وأجناسهم المختلفة ويستعرض دياناتهم ويذكر من اجناس الصقالبة اصطترانة ونامجين وسربين ومرادة وصاصين وخشانين وابرانجابين، ويفرق بين هذه الشعوب من حيث حكامها وقوتها(١٢) . وفي كتابه التنبيه والاشراف يذكر عند حديثه عن الاقاليم ، ضمن عملية المفاضلة بين الذات (المسلمة) والآخر (الغرب) الذين يصفهم بأنهم أهل الربع الشمالي ، ويقول : « ... وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم الواغلين في الشمال كالصقالبة والفرنجة ومن جاورهم من الامم، فان سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البرد وتبلدت افهامهم وثقلت السنتهم وابيضت الوانهم ومن كان أوغل في الشمال فالغالب عليهم الغباوة والجفاء والبهائمية وتزايد ذلك في الابعد والابعد الى الشمال »(١٣) ، ويذكر من اجناس الفرنجة الجلالقة والجاسقس والوشكنس والصقالبة والبرغز(١٤)،بالرغم من أن جزءا من هذه المعلومات قد ورد عند من سبقه ، الا انها هنا أكثر تفصيلا مما قد

يعني زيادة المعرفة بهذا الآخر (الغرب) ، على أن لا يعني ذلك انـه كلما ابتعدنـا في التاريخ عن الجغرافيين الاوائل كلما زادت معرفتنا بالآخر . يتضح ذلك مع نهاية القرن الرابع الهجري حيث ظهـر أعظم كتاب في تاريـخ الجغرافيا ـ حتـى ذلك الوقت ـ للمقدسي (٣٩٥ هـ) ، وهو كتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، فهذا المؤلف يعطي اهتماما وتفضيلا للعالم الاسـلامي الذي يقسمه الى اربعة عشـر اقليما او بلدا يتحدث عنها باسهاب . وبالمقابل نجـد اهمالا للآخر ، أو ما هو خارج دار الاسـلام : « .. لم نتكلف ممالك الكفار لاننا لم ندخلها ولم نر فائدة في ذكرها .. »(١٥) . وبعـد عصر المقدسي نجد معلومات تختص بأوروبا الشمالية عند البيروني (٤٤٠ هـ) الذي حصل على معلوماته من سابقيه ، اضافة الى معلومات من التجار والرحالة ، ونلمح لديه معلومات عن بحر البلطيق والبحر الابيض الشمالي ، ومعلومات عن سكان شمال وشرق اوروبا وبخاصة عن النورمان والاسكندنافيين(١٦) .

ويمكن أن نجد عملية التفاضل بين الاقاليم عند جغرافيي المغرب الاسلامي كمـا هو الحال عند صاعد بن أحمد الاندلسي قاضي طليطلة (٤٦٢ هـ) ، فهو يرى أن موقع الاوروبيين من الارض جعلهم ضمن الامم التي لا تعتني بالعلوم ويرى « ... انهم اشبه بالبهائم منهم بالناس .. وفشى فيهم العمى والغباوة كالصقالبة والبلغر ومن اتصـل بهم »(١٧) ، ونجد معلومات مشابهة وان كانت أوسع عند أبي عبيد البكري (٤٨٧ هـ)، وهذه المعلومات جاءت على لسان الرحالـة التاجر ابراهيم بن يعقوب الذي زار بلدان اوروبية فوصل الى المانيا وانكلترا والبلغار وبولندا وتشيك وفرنسا وهولندا ، وقدم معلومات عن اللومبارديين وعن التجارة في بـراغ واوغسبورج(١٨) . يتحدث ابو عبيد البكري عن الجلالقـة ويصفهم بالقوة والبأس بين أمم الفرنجة ، ويشـير البرتونيين (شمال غرب فرنسا) ، ويشير الى لغتهم وسوء أخلاقهم . ويشـير بالاجمال الى ان الفرنجة هم الجلالقة والصقالبة والنوكبرد (اللومبارديون) والاشبان والترك والخزر واللان وياجوج وماجوج ، ويقول ان بلاد الفرنجة تقع في وسط الاقليم الخامس حيث الهواء الغليظ والبرودة الشديدة(١٩) .

وتزداد صورة الآخر (الغرب) تفصيلا لدى الادريسي (٥٦٠ هـ)، في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، وجاءت معلوماته عن أوروبـا مشتملة على معلومات مـن سبقه ، اضافة الى معلومات رحالة وتجار عرب ويهود وفرنجة ومصادر اوروبية مثل بطليموس واوروسيوس ، اضافة الى معلومات جمعها من خـلال رحلاته وزياراتـه واتصالاته . فقد زار الاندلس ووصل الى شواطىء بريطانيا وزار اسيا الصغرى قبل ان يؤلف كتابه ، وقبل ان يقبل الدعوة للاقامة في بلاط روجر الثاني ملك صقليـة . ولاول مرة نجد ان اوربا والجزر البريطانية تحتل مثل هذا المكان البارز في مؤلـف جغرافي اسلامي . ويعطينا الادريسي تصورا واضحا عن فرنسا والمانيا واسكتلندا(٢٠).

ويقدم جغرافي آخر هو ابو حامد الغرناطي (٥٦٥ هـ) معلومات عـن الالمـان والهنغار ، ولكن معلوماته مشوشـة بما يتعلق برومية وبيزنطة ويزودنا أبـو سـعيد الغرناطي بمعلومات عن اوروبا الغربية وبالاخص فرنسا وايطاليا ، ومعلوماته عن اوروبا الشرقية اكثر تفصيلا . ونجد شبيها لهذه المعلومات السابقة لدى القزويني (٦٨٢هـ) في كتابيه عجائب المخلوقات واثار البلاد ، فيشير الى موقع اوروبا في الاقاليم الخامس والسادس والسابع ، ويعطي معلومات بما يتعلق بامم الفرنجـة وبعض صناعاتهـا ، ويتحدث عن سكان تلك المناطق ويصفهم بأنهم اهل غدر وقذارة(٢٢) . وما يثير الاهتمام في معلومات القزويني انها في غالبها ليست جديدة ، فقد وردت عنـد سابقيه ، كمـا انه لم يتطرق الى محاولة الربط بين الفرنجة والحروب الصليبية برغم معاصرته لهذه الحروب(٢٣) . ونلاحظ ان هذه المعلومات تتكرر عند شمس الدين الانصاري الدمشقي (٧٢٧هـ) في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، حيث يشير الى بحر الورنك ويتحدث عن جزائر البحر المحيط وما بها من غرائب نجدها مشابهة لما ورد عند ابـو حامد الاندلسي(٢٤) ، ونجد الدمشقي يتبنى النظرية التقليدية في تقسيم العالم ، حيث الاقليم الرابع أفضل الاقاليم في حين أن الاقليم الخامس فيه افراط في البرودة مما اثر على أخلاق سكانه من الارمن والروس واللان ، والاقليم السادس فيه ترك وخزر وفرنج وكاشغرد وسكانه كالوحوش ، والاقليم السابع فيه الالمان والصقالبة والهنكر(٢٥) .

ونجد تطورا في المعرفة الجغرافية فيما يتعلق بأوربا في الفترة التي تلت الحروب الصليبية ويتضح ذلك في مؤلفات أبي الفداء (٧٣٢هـ) ، حيث يورد معلومات في كتابيه المختصر في أخبار البشر وتقويم البلدان عن بريطانيا وعلاقاتها مع فرنسا ويتحدث عـن باريس ويشير الى نهر الدانوب وألمانيا كما يشير الى ايرلندا(٢٦) ، وربما عكس هـذا التوسع في المعلومات التفصيلية عن أوروبا طبيعة التطور في العلاقات وازدياد حركـة التبادل بين الشـرق والغرب . وهـذا ما يلمح في مؤلفات لاحقة مثـل كتاب العمري (٧٤٩هـ)، مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الذي يورد معلومات عن طبيعة العلاقات داخل القارة الاوروبية ، ويشير الى أهمية فرنسا من بين هـذه القوى ، كما يذكـر معلومات عن اسبانيا وبروفنس وصقلية والبندقية بيزا وفلورنسا(٢٧) . وتتكرر هذه المعلومات ومعلومات أخرى منقولة عن مؤلفين سابقين عند القلقشـندي (٨٢١هـ) في موسوعته صبح الاعشى في صناعة الانشا(٢٨) .

نلاحظ ان تصور الجغرافيين المسلمين للاخر (الغرب) بدأ منـذ القرن الثالث الهجري ، وكان يزداد وضوحا حسب تطور العلاقات بين الشرق والغرب . كما يلاحظ ان المعلومات التي وردت عن الغرب كانت مشوشة وغير واضحة في الفترة الاولى ، في حين انها بدت تفصيلية ومحددة بين ما يخصاوروبا الشرقية والغربية في فترات لاحقة،

كما نلمح ايضا أن الاوصاف التي اطلقت على الآخر (الغرب) لم تكن كلها صفات سلبية، ولكنها في الغالب الاعم أقل مرتبة من الصفات الواردة للمسلمين في اقليمهم . على أن المهم أن هذه الصور والافكار عن الغرب لم تكن خيالية بمجملها كما انها لم تكن من ابتداع المسلمين ، بل ان فيها موروث يوناني ، واذا كانت المعلومات الواردة عن الغرب وقارتهم مجزاة ومشتتة ، فذلك لان الاوروبيين لم تظهر لهم خصائص واضحة في ذلك الوقت الذي كتب فيه المسلمون معلوماتهم الجغرافية .

ب ـ صورة الغرب كما رآها بعض الرحالة والرسل المسلمين :

في الوقت الذي كانت فيه الدولة الاسلامية تمثل القوة الاولى في عالم العصور الوسطى ، كانت الوفود تأتي الى عواصمها طلبا للعون أو طمعا في مهادنة او صلح . وفي المقابل كانت الرسل والوفود تذهب من عواصم العالم الاسلامي الى اقصى اطراف الارض ، والى العديد من الامم ، مبشرين بمبادئهم او مقدمين دعمهم او باحثين عن تسهيلات تجارية . وكانت هذه الوفود الرسمية تعود بأوصاف عما شاهدته في طريقها او في بلد المقصد . هذه المعلومات الوصفية كان فيها الكثير من معالم تصور المسلم للآخرين . ومن هذه السفارات تلك البعثة البرية التي أرسلها الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) الى بلاد الخزر حيث سد يأجوج ومأجوج . وقد احتفظ لنا الجزري (ت ٧٣٩هـ /١٣٣٨م) في كتابه حوادث الزمان (٢٩) ، بفقرات من الاوصاف والمعلومات عن سكان المناطق التي زارتها البعثة . وعلى الرغم من ان هذه البعثة لا تقدم وصفا خاصا بالغرب ، الا انها تقدم نمطا لنظرة ابن الحضارة الاسلامية لغيره ، هي نظرة وتصور القادم من الاقليم المعتدل والعاصمة المزدهرة والبلد المسلم الى بلد البرد والمدن المتباعدة المتناثرة والسكان الذين يبدون غريبين في عاداتهم وطقوسهم ، بل وحتى في اشكالهم . ونجد ان معالم هذه الصورة تتضح أكثر في رحلة اخرى تمت بعد حوالي قرن(٣٠) من الرحلة الاولى ، وتلك هي رحلة احمد بن فضلان رسول الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ـ٣٢٠هـ) الى بلاط الترك والخزر والروس والصقالبة والمعلومات التي وردت في رسالة ابن فضلان تبين المستوى الحضاري الذي كان عليه الروس والصقالبة وهو مستوى متدن بمقياس ابن فضلان القادم من عاصمة الخلافة العباسية ، حتى انه ليشير الى ان هذه البعثة كانت لتقديم العون المادي والثقافي التعليمي لاقوام اضعف واقل ثقافة ومعرفة (٣١) ، وفيها اشارات الى أن ابناء الحضارة الاسلامية كانوا روادا في معرفة العالم حتى قبل هذه الرحلة(٣٢)، كما ان الرسالة فيها اشارات واضحة الى اخلاق هذه الشعوب وعاداتها ، فترد اوصاف الصقالبة وطريقة حياتهم وملابسهم ومآكلهم (٣٣) ، ومعلومات عن الروس

وقذارتهم .. وانحلالهم الخلقي . وقد ورد الكثير من معلومات ابن فضلان مصححة عند ياقوت الحموي (٦٢٥ هـ) في كتابه معجم البلدان(٢٤) .

ومع أن ما ورد من وصف الرحلتين السابقتين ينطبق بشكل خاص على ما يعرف اليوم باوروبا الشرقية ، الا اننا نجده ايضا متقاربا مع وصف اخر ، ولكن لمناطق تعتبر ضمن اوروبا الغربية . هذا الوصف الاخر على لسان مسلم من المغرب العربي هو يحيى الغزال (ت ٢٥٠ هـ) وذلك من خلال السفارة ــ الرحلة التي قام بها بأمر من سلطان الاندلس عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ــ٢٣٨ هـ) الى بلاد النورمان في سنة ٢٣١هـ ، ومن الجدير بالذكر ان خلافا قد وقع في وجهة هذه الرحلة(٢٥) ، فالبنداق ــ على سبيل المثال ــ يرجح انها كانت الى بلاد الدنمرك (٢٦) ، وقد وردت معلومات مفصلة عن هذه الرحلة في كتاب المطرب لابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣ هـ)(٢٧).

ويقدم لنا الغزال معلومات ذات دلالة كبيرة في كيفية التعامل مع الاوروبيين لا تقل أهمية عن المعلومات التي اوردها عن عاداتهم واخلاقهم ، ويورد قصة توضح ذلك ويقول انهم على ضعفهم يحاولون اذلال السفير (العربي المسلم) وبخاصة حين أعرب (الغزال) عن رفضه السجود لملكهم حسب عاداتهم لمنافاة ذلك للعادات الاسلامية، ، ويقول ان الملك حاول التحايل على اصرار السفير واجباره على السجود ، « ... فلما مشى اليه قعد (الملك) لهما في أحسن هيئة وأمر بالمدخل الذي يفضي اليه ، فضيقه حتى لا يدخل عليه أحد الا راكعا ، فلما وصل اليه (الغزال) جلس على الارض وقدم رجليه وزحف على إليته زحفة فلما جاوز الباب استوى واقفا ... وعجب (الملك) من جلوسه على الارض وتقديمه رجليه في الدخول وقال : اردنا ان نذله فقابل وجوهنا بنعليه »(٢٨) .

وهذه الصورة التي يقدمها الغزال ، وان كانت تصويرا لذكاء ومكر الاخر الا انها تمثل في الوقت نفسه صورة الذات الاكثر ذكاء ومكرا . كما يورد الغزال معلومات نجدها مطابقة لما سيرد عند غيره من المؤرخين المسلمين في فترات لاحقة ، كما عرف عن الاوروبيين من تحرر واباحية وانعدام للغيرة ، ويشير ايضا الى التمايز الطبقي الذي يظهر من خلال طبيعة العلاقة بين الجنسين(٢٩) .

كما نجد معلومات عن الاوروبيين وانماط حياتهم وطبيعة بلادهم ومعاملاتهم التجارية من خلال المعلومات التي وردت عن رحلة يعقوب بن ابراهيم سنة ٣٥٥ هـ ، ويصف بلادهم وبردها وما بها من غابات وعلاقات بدت له غريبة عما هو مألوف في بلده الاندلس(٤٠) .

....

جـ ـ صورة الاخر (الغرب) في بعض كتابات المؤرخين المسلمين :

مما لا شك فيه ان صورة الغرب لدى المؤرخين المسلمين تأثرت بما تكون لدى ابناء الشرق الاسلامي من معلومات عن الغرب ، سواء كانت عن طريق التجارة والرحلات والسفارات ، او بما ورد من معلومات في المصادر الجغرافية الاسلامية ، الا أن المعلومات الاوفى لدى المؤرخين عن الغرب ، والتي يجب أن تؤخذ بمزيد من الحذر قد تشكلت خلال فترة الحروب الصليبية . وتبدو هذه الاهمية من الحقيقة بأن جزءا من هؤلاء المؤرخين كانوا شهود عيان ، عاصروا الاحداث ولمسوا الموقف عن قرب ، كما كان بينهم من شغل مناصب رسمية اتاحت لهم الاطلاع على الوثائق الرسمية والمعاهدات والمفاوضات مع الطرف الآخر (الغرب) المتمثل بالفرنج ، ومنهم من عايش فترة الصدمة التي تمثلت بنجاح الغزو الصليبي في ظل الفرقة الاسلامية . او عايش حركة احياء الجهاد والوحدة الاسلامية التي حققت النصر . وفي ظل ذلك كانت كتابات البعض منهم تصور حالتين : حالة القوة الصليبية ويبرز من خلالها تصوير المقهور المغلوب على امره (المسلم) للقوى الظالم الهمجي (الفرنجي) . واذا نظرنا بعين الاعتبار الى ان بعض المؤرخين المسلمين كون علاقات خاصة مع الفرنج في اوقات السلم والحرب ، كما هو الحال مع اسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) تبدى لنا ان ما ورد من تصوير للغرب (الفرنجة) لدى المؤرخين المسلمين فيه شيء من صدق التجربة ومعرفة الاخر عن طريق المعاشرة ايا كان نوعها ، سلمية ام حربية .

كما اننا نلمح في كتابات المؤرخين وبخاصة لفترة الحروب الصليبية تشابها مع ما ورد عند الجغرافيين ، من حيث التعميم في اطلاق اوصاف الفرنجة على امم وشعوب مختلفة . الا ان هذا التعميم لم يمنع من ورود صور خاصة وصفات خاصة لشعوب معينة من الفرنج (الاوروبيين) كالايطاليين ، الالمان ، الفرنسيين . ويمكننا ان نتتبع ما ورد من صفات واوصاف للغرب باستعراض ما اورده بعض المؤرخين امثال ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ) ، الذي يورد المعلومات التي كانت تصل للعالم الاسلامي عن تقدم الفرنج وكثرة اعدادهم وما رافق ذلك من خوف وهلع في الجبهة الاسلامية ، ويشير الى نجاحهم وسيطرتهم على العديد من المناطق(٤١) . ويورد خلال مؤلفه ، الذي ينتهي بحوادث سنة ٥٥٥ هـ ، اشارات يمكن من خلالها تلمس معالم صورة ترسم لهذا الغازي (الفرنج) ، فهم يسالمون في حالة الضعف ، ولكنهم اهل غدر ، وخاصة اذا حصلوا على امدادات تعزيزا لموقفهم العسكري ، كالمساعدات التي كانت تصلهم عن طريق المدن الايطالية(٤٢) . ويرسم صورة للفرنج وكأنه يعرض للحالة المفقودة عند المسلمين آنذاك ، تتمثل في ان هؤلاء الفرنج وبعد ان يتعرضوا لهزيمة عسكرية يتدارسون اسباب ذلك ، ويصل بهم الامر الى حد معارضة آراء قادتهم بعد

تحليلها(٤٣) . ويشير الى ان الفرنج يمكن ان يتأثروا بحضارة الشـرق ، ويـرى ان القادمين منهم حديثا اقل تفهما واكثر تعصبا ممن سبقهم وعاش في الشرق وخالط سكانه(٤٤) . ويشير ابن القلانسي تفصيلا الى اسماء شعوب اوروبية فيذكر الجنوية والبنادقة والالمان والفرنسيين(٤٥) . وفي تصوير للذات الاسلامية بشكل غير مباشر يشير الى صورة الاخر (الغرب) المتحد ، مستغربا وقوع الخلاف في صفوفه ،فيورد في حوادث سنة ٥٢٧ هـ « في المحرم وردت الاخبار من ناحية الفرنج بوقوع الخلف بينهم من غير عادة جارية لهم بذلك ونشبت المحاربة بينهم وقبل منهم جماعة »(٤٦) .

ونجد صورة الغرب أكثر تفصيلا عند أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) الذي ارتبط بعلاقات مع مجموعات منهم ، فهو يصورهم كما صورهم ابن القلانسي أهل غـدر ، لا يلتزمون بالوفاء بالعهود ، وانهم يفسرون نصوص الامـان المعقودة معهم بما يخـدم مصالحهم(٤٧) . ويضيف : ولذلك فهم أصحاب مكيدة وحيل في الحروب(٤٨) ، ويقدر عاليا اهتمامهم بالفروسية والفرسان واشتراط مواصـفات معينة في الفارس (٤٩) ، ويصورهم بمنظار المسلم الفارس ، فيقدر فيهم عنصر الشجاعة ، لكنه يعيب عليهـم امورا اخرى ، « سبحان الخالق الباري اذا خبر الانسان امور الفرنج سبح الله تعالى وقدسه وراى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير كما في البهائم فضيلة القوة والحمل »(٥٠) ، وهو يرى انهم متخلفون عن الشـرق حضاريا ولذا تراهم لا يألفـون الا لجنسهم ولا يثقون بالغير(٥١) . وبمنظور ابن الشرق المحافظ والمتقدم علميا مقارنـة بالغرب ، يرى انهم متخلفون في المعارف العلميـة كالطب(٥٢) ، كما أن لديهم اباحيـة وانعدام للغيرة(٥٣) . ويرى أن هـؤلاء الفرنجـة قسمين : قسم أثرت فيـه الحضارة الاسلامية ممن أقام فترة طويلة فصلح حاله ، مقارنة بالقسم الآخر القادم من الغرب الهمجي ، الا انه يرى أن ذلك شاذ ولا يقاس عليه ، فالغالب عليهم طبع الهمجية وجفاء الخلـق(٥٤) .

ويصورهم البنداري (ت ٦٤٢هـ) ، بشـكل الفترة التـي كتب فيها والتـي بدات تشهد تغيرا في ميزان القوى لصالح الجبهة الاسلامية في أواخر عهد نـور الدين زنكي (ت ٥٦٩هـ) وبدايات عهد صلاح الدين . فهؤلاء الفرنج برغم تعاظم خطرهم ، الا انهم أقل ذكاء في الحرب ، ويشير بذلك الى أهالي صقلية في غزوهم لدمياط سنة ٥٦٩ هـ (٥٥) . ونجد ايضا ان الصورة التي رسمها سابقوه عن تخلف الغرب وايمانهم بالخرافات تتكرر هنـا مرة أخرى ، حيث يـرى ايمانهم بأقوال المنجمين عن مصائب تصيب العالم نتيجة اجتمـاع الكواكب في برج معين ، فيقول : « ... وكلمـا سمعنا اخبارهم ضحكنا من عقولهم الواهية »(٥٦) .

ونجد ان صورة الغرب (الآخر) لدى المسلم تساير طبيعة العلاقة معه ، بنفس القدر الذي تساير فيه رسم صورة الذات،وهذا ما نلمحه عند أبي شامة (ت٦٦٥هـ)، فهو اذ يكتب عن الدولتين النورية والصلاحية ، أي في فترة رجحان الكفة الاسلامية وبروز القوة القادرة على كبح الفرنج ، يبرز ذلك من خلال تصويره للفرنج وللمسلم ، وهو لا ينسى أن يشير الى أن هذه الصورة والنظرة للفرنج تأتي مختلفة عند طرف آخر ، كبعض وزراء الفاطميين الذين تحالفوا معهم ، فهو يورد رد الوزير الفاطمي(٥٧)، على أحد قادة نور الدين(٥٨) ، الذي حاول ثني الوزير عن التعاون مع الفرنج ، لتكون اجابته « ... ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرج »(٥٩) ، في حين أن صورتهم لدى عامة المسلمين، أنهم قليلوا الوفاء بالعهود، الا أن قادتهم يتمتعون بشجاعة ورأي صائب(٦٠). لكنه يشير الى صور هامة ، وهي أن الفرنج (الغرب) لا يحترمون الا القوي ولا يقرون بالحقوق لاصحابها الا اذا رافق هذا الحق قوة مادية تدعمه فيشير ضمن حوادث سنة ٥٦٧هـ عن الفرنج قائلا : « ... وكانوا في ذلك كما يقال : اليهودي لا يعطي الجزية حتى يلطم ، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي احسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها »(٦١) ، وضمن تصويره للذات المسلمة وللآخر (الفرنج) ، نظرا لتبدل حال الطرفين من القوة الى الضعف او العكس ، يشير الى شجاعتهم (الفرنج) ، ولكن هذه الشجاعة ووجهت بما هو أقوى منها ، فيقول على لسان نور الدين « قد بليت أنا وحدي بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم واسرت ملوكهم »(٦٢) ، وضمن نفس السياق بتصوير حال العالم الاسلامي الذي أصبح قويا حيث أصبح العدد القليل من المسلمين قادرا على مواجهة عدد اكبر من الفرنج في حين أن المعادلة قبل ذلك كانت معكوسة ، فيقول « ... وصبر المسلمون للقاء الفرنج وكان المسلمون مئتي فارس وصبر الفريقان لا سيما المسلمون لان الف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج»(٦٣) ، الا أن الصورة التي بقيت ملازمة للفرنج عنده هي عدم الوفاء ، حتى انه ليستغرب ان يكون بينهم من يفي بالعهد كما هو استغرابه أن يوجد من لا يفي بالعهد بين المسلمين(٦٤) .

ونلمح نموذجا آخرا لرسم صورة الغربي لدى المؤرخين المسلمين كتلك التي نلمحها عند سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) وابن واصل (ت ٦٩٧هـ) حيث يجعلان وصف صورة الغربي من الغرب أنفسهم . فها هو ابن واصل يورد محاورة بين رسول امبراطور المانيا فردريك الثاني (١٢١٥ ـ ١٢٥٠م) والملك الكامل الايوبي (ت ٦٣٥هـ) حول طبيعة النظام الاسلامي في الحكم والسؤال عن الخليفة وأصله ، فيقول مندوب الملك الكامل « ...هو ابن عم نبينا محمد أخذ الخلافة عن أبيه وأخذها أبوه عن أبيه فالخلافة مستمرة في بيت النبوة لا تخرج منهم ، فقال الامبراطور ما احسن هذا لكن هؤلاء القليلو العقول ـ الفرنج ـ يأخذون رجلا من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسب

ولا سبب جاهلا مذما ويجعلونه خليفة عليهم، قائمقام المسيح فيهم ، وانتم خليفتكم ابن عم نبيكم فهو أحق الناس بمرتبته »(٦٥) ، وزيادة على ذلك نجد أن الامبراطور فردريك يصف الفرنج بالخنازير . ففي أثناء زيارته للقدس سأل عن سر صنعة شبابيك قبة الصخرة بشكل اسياخ فقال له المسلمون : « حتى لا تدخل العصافير الى القبة ، فابتسم الامبراطور وقال : والآن أحضر الله لكم الخنازير »(٦٦) ، ومن خلال هذين المثالين يبرز لنا وكأنهما محاولة من الجانب الاسلامي للتأكيد على صحة تصويرهم للغرب سابقا والدليل أن هذه الصورة جاءت مطابقة لوصف بعض الغرب لابناء جلدتهم .

ويتابع المؤرخان ايراد امثلة من أقوال الامبراطور في زياراته(٦٧) للقدس كاستغرابه من منع آذان الفجر حسب اوامر الملك الكامل خوفا من انزعاج الامبراطور (الصديق)(٦٨) حتى أنه قال « . . . اخطأتم يا قاضي تغيرون أنتم شعائركم وشرعكم ودينكم لأجلي فلو كنتم عندي في بلادي هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم ، الله الله لا تفعلوا أول ما تنقصون عندنا »(٦٩) ، وبغض النظر عن صدور هذه الاقوال أو عدمه عن الامبراطور، فهي تصوير للذات الاسلامية في حالة معينة بلغ بها التهاون والهوان في سبيل ارضاء الآخر (الفرنجي) امرا أثار استغراب واستهجان الفرنجي ، وكأن المؤرخون هنا يحتجون على ما وصلت اليه أمور الدولة حيال من هم في نظرهم خنازير وقليلي عقول ولا تربطهم بالمسيح صلة كالتي تربط المسلمين بالرسول عليه السلام .

ومن الصور التي لازمت ذكر الفرنج حتى في فترات متأخرة هي صورة عدم الصدق والمكر ، مما يولد شعورا بعدم الثقة بهم ويزيد من دائرة الشك حولهم ، فابن الدواداري (ت ٧٣٤هـ) يورد قصة عن أحد رسلهم للدولة الاسلامية ، حيث أن هذا الرسول كان يتكلم عن طريق ترجمان مع الطرف المسلم، ولكنه ولسبب ما تكلم العربية، حتى أن الدواداري يقول : « انه قبل ذلك لا يتكلم الا بترجمان ويدعي انه لا يعرف اللسان العربي »(٧٠) ، وهذا الشك بنوايا الفرنج نجده في فترة متأخرة حتى بعد انتهاء فترة الحروب الصليبية ، ففي سنة ٨٢٤هـ أصدرت الدولة المملوكية مرسوما حددت فيه مدة اقامة جميع طوائف الفرنج في أراضي الدولة باربعة اشهر على أكثر تقدير ، وهي المدة التي كانت في نظر الدولة كافية لانهاء عملياتهم التجارية ، بعد أن ثبت تآمرهم مع القراصنة(٧١) .

كما نجد أيضا صورة الغرب في نظر بعض المؤرخين المسلمين تأخذ منحى آخرا حيث تظهر اشارات لاوصافهم الجسمية ومدى تأثير ذلك على قيمتهم الحقيقية ، فها هو ابن الدواداري يقول عن الامبراطور الالماني : « من صفته انه اشقر امعط اعمش

لو كان عبدا ما ساوى سبعين درهما »(٧٢) ، ثم يقارنهم بغيرهم من العناصر الاسلامية وبخاصة العنصر التركي السائد آنذاك ، فيقول : « الترك اسود والفرنج كلاب »(٧٣). كما تأخذ الصورة بعدا يرتبط بالدين حيث يرد وصفا لملك الاسبتار بانه « جهول عجول ما ادبه الوالدان ولا اختلقه الجديدان . . . مقسم الرأي وكيف لا يكون مقسمه وهو عابد الثلاثة »(٧٤) .

كما نلمح من خلال بعض الكتابات التاريخية الاسلامية اشارات لرسم صورة خاصة بفئات معينة من الفرنج، فالالمان أكثر الفرنج عددا واشدهم باسا(٧٥) ،على عكس الايطاليين الاقل خبرة في الحروب والذين يتميزون بعدم ثبات موقفهم من العالم الاسلامي ، فهم احيانا من اشد أجناس الفرنج عداوة ، وفي احيان اخرى أكثرهم قربا وتعاونا مع المسلمين(٧٦) ، ويبدو أن ذلك كان متمشيا مع طبيعة حياتهم كتجار فيحددون مواقفهم بناء على مصالحهم الخاصة بغض النظر عن العوامل الاخرى ، كالدين والعرق .

الخاتمة :

لقد تشكلت صورة الآخر (الغرب) في الكتابات الجغرافية والتاريخية الاسلامية من خلال الاتصال الذي تم بين الشرق والغرب سواء أكان في فترة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية التي سبقت ازدهار الحضارة الاوروبية الحديثة او في فترة انعكاس ميزان القوى لصالح الغرب بعد أن استطاع في فترة فاصل زمني من السيطرة على أجزاء من الشرق الاسلامي ، مما ولد شعورا من العداء على خلفية أن السيطرة الغربية كانت عنيفة وأعاقت التقدم الاسلامي ، وبهذا فان صورة الغرب او الآخر قد جاءت متسقة مع معرفة هذا الآخر ، فمن معرفة جزئية فردية الى معرفة شاملة جماعية ، في فترتي سلم وحرب ، على أن هذه الصورة لم تتح لها مرحلة ناقدة كفيلة بتخليصها مما فيها من شوائب ، ويعود السبب في ذلك الى أن سلوك الآخر (الغرب) تجاه العرب والمسلمين لم يتغير ايجابيا ، مما ولد لدى بعض أبناء الشرق ظاهرة الرفض لكثير مما هو غربي، على افتراض نية التآمر والتي جاءت من خلال التجربة الاسلامية مع الغرب، مما جعل الكثير من الكتابات العربية الاسلامية تركز على ظواهر سلبية عند الآخر ضمن اطار الدعوة لحماية الذات .

وبالاجمال ، فان صورة الاخر (الغرب) ، لدى ابناء الحضارة الاسلامية لم تكن ايجابية في كل جوانبها ، ولكن ذلك ليس من صنع العربي والمسلم بقدر ما هو نابع من تصرف هذا الاخر ، وبذا لا نجد اختلافا كبيرا بين معالم الصورة التي رسمت

للاخر في كتب التراث الاسلامي عما هو في ذهنية الانسان العربي المسلم المعاصر ، وذلك لان هذا الغرب لم يعير سلوكه وتطرفه تجاه العالم الاسلامي وان غير تكتيكاته .

وعلى الرغم من ان كل طرف (المسلم والغربي) قد احتفظ للاخر بصورة مكتسبة من خبراته السابقة ، وعلى الرغم من مقولة الشاعر الانجليزي رديار كبلنغ (١٨٦٥ ـ ١٩٣٦) « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا »، الا اننا نرى ان امكانية اللقاء الحضاري واردة ولا بد من تواصلها ، ولكن بمنظور مختلف متخل عن نزعة السيطرة وفرض الذات ، وان الصورة التي رسمت للاخر في التاريخ الاسلامي ـ وكان الغرب مسؤولا عنها ـ هي بلا شك قابلة للتغيير اذا ما غير الغرب من سلوكياته وتخلى عن نظرية الاستعلاء الحضاري والعنصرية والابتزاز الاقتصادي ، وحين يؤمن ان الحضارة ليست من صنع جنس بعينه ، بل هي مساهمات انسانية متراكمة .

الهوامش :

(١) المقصود هنا ، البيزنطيون والمدن الايطالية.

(٢) ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي (ت.ق ٤ هـ/١٠ م) ، صورة الارض ، ليدن ١٩٣٨، ص ٢٠٥ ، المقدسي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد (ت٣٧٥ هـ/١٩٨٥م)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن، ١٨٧٧ ، جـ١ ، ص ١٤٨ .

(٣) اندرة ميكل ، « اوروبا في نظر العرب حتى عام الف »في : اضواء عربية على اوروبا في القرون الوسطى ، ترجمة د. عادل العوا ، منشورات عويدات ، بيروت ـ باريس ، ١٩٨٣ ، ص ٩٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٩١ .

(٥) خالد زيادة ، تطور النظرة الاسلامية الى اوروبا ، معهد الانماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٢٨ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٧) ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، المسالك والممالك ، نشرة دي جويه ، ١٨٨٩ ، ص ١٥٥ .

(٨) ابن الفقيه الهمداني ، ابو بكر احمد بن محمد ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق ونشر دي جويه ، بريل ، ١٨٨٥ ، ص٣ـ٤.

(٩) حسين محمد فهيم ، ادب الرحلات ـ سلسلة عالم المعرفة ، ع ١٣٨ ، ١٩٨٩م ، ص ١٩٢ـ ١٩٣ .

(١٠) ابن رسته ، احمد بن عمر ، الاعلاق النفيسة نشر دي جويه ، ١٨٩٢ ، ص ١١٩ ـ ١٣٠. خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

(١١) ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن علي بن موسى ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣٦ .

(١٢) المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، نشر شارل بلا ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦١ ، جـ٢، ص ١٤١ ـ ١٤٧ .

(١٣) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٣٨ـ٣٩ . كراتشكوفسكي ، اغناطيوس يوليانوفتش ، تاريخ الادب الجغرافي ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، مراجعة ايغور بلهايف ، مطبعة لجنة

التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،١٩٦٣، جـ١ ، ص ١٨٢ .

(١٤) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٩ .

(١٥) المقدسي ، المصدر السابق ، ص١٥ . حسين محمد فهيم ، المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(١٦) ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص ٤٢، خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص١٩، سري محمود ، «الفكر الجغرافي عند البيروني» مجلة المؤرخ العربي ، ع. ٣ ، بغداد ١٩٨٦ ص ٢٦٣ — ٢٧١ .

(١٧) صاعد الاندلسي ، القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الاندلسي ، طبقات الامم ، وضع مقدمته السيد محمد بحر العلوم ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٧ ص ٦ — ٨ .

(١٨) أندره ميكل ، المصدر السابق ، ص ٨٨ — ١٠٤ . خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ١٩ — ٢٠ .

(١٩) أبو عبيد البكري ، جغرافية الاندلس وأوروبا — من كتاب المسالك والممالك — تحقيق عبد الرحمن الحجي ، دار الارشاد ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٧٤ — ٧٥ ، ٨٢ ، ١٣٧ .

(٢٠) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٠ ، كراتشكوفسكي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧٩—٢٨٥ ، ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص ٤٤ — ٤٥ .

(٢١) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٠ ، كراتشكوفسكي ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٠٠ .

(٢٢) ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص ٤٨ — ٥٠ .

(٢٣) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٢٤) الجزري ، شمس الدين محمد بن ابراهيم ، حوادث الزمان ، السنوات ٦٩٤ — ٦٩٦ هـ، تحقيق نعمان جبران ، فرايبورغ / المانيا، ١٩٨٨ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

(٢٥) شيخ الربوة ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، طبعة لايبتزغ ، ١٩٢٣ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٥ . خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٢٦) ابو الفداء المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الافضل ، تقويم البلدان ، حققه م. رينود وماك كوكين دي سلان ، باريس ، ١٨٤٠، ص ١٨٨ ، ٢٠١ ، ٢٦٩ .

(٢٧) كراتشكوفسكي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص٤١٢ .

(٢٨) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢٩) الجزري ، شمس الدين محمد ، حوادث الزمان ، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة غوتا الالمانية ، رقم ١٥٥٩ — ١٥٦٠

(٣٠) بدات رحلة احمد بن فضلان انطلاقا من بغداد في ١١ صفر ٣٠٩ هـ ، ووصل الى ملك الصقالبة في ١٢ محرم ٣١٠ هـ .

(٣١) ابن فضلان ، أحمد ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، مديرية احياء التراث العربي ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٧٧ ، ص ٩٨، ١٤٨ .

(٣٢) نفس المصدر ، ص ١٥٣ .

(٣٣) نفس المصدر ، ص ١٥٨ — ١٦٠ .

(٣٤) نفس المصدر ، ص ٥٨ — ٦٠ ، ١٧٧ —١٧٨.

(٣٥) حول ما أثير من تساؤلات حول الرحلة وزمانها ووجهتها انظر ، محمد صالح البنداق يحيى ابن الحكم الغزال ، تقديم احسان عباس ، منشورات دار الافاق الجديدة ، بيروت ،ط١ ١٩٧٩ ، ص ٩٣ — ١٠٠ .

(٣٦) نفس المصدر ، ص ١٦١ .

(٣٧) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

(٣٨) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

(٣٩) نفس المصدر ، ص ١٣٢ .

(٤٠) اندره ميكل ، المصدر السابق ، ص ٩٦ ــ٩٩ ، ١٠٤ ــ ١٠٥ .

(٤١) ابن القلانسي ، ابو يعلى حمزة بن اسد بن علي بن محمد التميمي ، تاريخ دمشق ، تحقيق سهيل زكار ، دار حسان للطباعة والنشر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٣ ، ص ٢١٨ وما بعدها .

(٤٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٤٦٣ .

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٣٣٣ .

(٤٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٩ ــ ٣٧٠ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص ٢٣٢ ، ٢٦٠ ، ٣٣٣ ، ٤٦٣ .

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٣٧٤ .

(٤٧) ابن منقذ ، مؤيد الدولة ابو مظفر اسامة بن مرشد الكناني الشيزري ، كتاب الاعتبار ، تحرير فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ ، اعيد طبعه في الدار المتحدة للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٢٤ .

(٤٨) نفس المصدر ، ص ٧٣ .

(٤٩) نفس المصدر ، ص ٨٣ ــ ٨٤ .

(٥٠) نفس المصدر ، ص ١٦٩ .

(٥١) نفس المصدر ، ص ١٦٦ .

(٥٢) نفس المصدر ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٨ .

(٥٣) نفس المصدر ، ١٧٤ .

(٥٤) نفس المصدر ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٠ .

(٥٥) البنداري ، قوام الدين الفتح بن علي ، سنا البرق الشامي ، تحقيق فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٧٩ ، ص ٧٧، ٢٨٣ .

(٥٦) نفس المصدر ، ص ٢٨٣ .

(٥٧) الوزير الفاطمي هو ابو شجاع شاور بن بحيسر بن نزار بن عشائر ، تولى وزارة مصر سنة ٥٥٨هـ ، ذهب للشام لطلب النجدة من نور الدين زنكي ، قتل سنة ٥٦٤ هـ

(٥٨) القائد هو اسد الدين شيركوة الذي توجه الى مصر بأمر من نور الدين زنكي فيسنوات ٥٥٩هـ ، ٥٦٢ هـ ، ٥٦٤ هـ ، تولىالوزارة في مصر سنة ٥٦٤ هـ وتوفي في السنة نفسها.

(٥٩) ابو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، الروضتين في اخبار الدولتين ، جـ١ ، ق١ ، تحقيق محمد حلمي محمد احمد ،مطبعة لجنة التأليفوالترجمة، القاهرة ، ١٩٥٦ ، جـ١ ، ق٢، تحقيق محمد حلمي محمد احمد ومراجعة محمد مصطفى زيادة ، وزارة الثقافية والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، انظر ، جـ١، ق٢ ، ص ٤٢٥ .

(٦٠) نفس المصدر ، جـ١ ، ق١ ، ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .

(٦١) نفس المصدر ، جـ١ ق٢ ، ص ٥١٧ .

(٦٢) نفس المصدر ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٧٦ .

(٦٣) نفس المصدر ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٧١ .

(٦٤) نفس المصدر ، جـ١ ، ق٢ ، ص٤١٦ .

(٦٥) ابن واصل ، جمال الدين الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، جـ٤ تحقيق حسنين ربيع ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٥١ .

(٦٦) سبط بن الجوزي ، شمس الدين بنالمظفر يوسف بن قزاوغلي التركي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، جـ٨ ، ق٢ ، الهند ، ١٩٥١ ، ٦٥٦. ابن ايبك الدواداري ، ابو بكر عبد الله ، كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٦٧) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٤ ،ص ٢٤٥ .

ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ ٨ ، ق٢ ، ص ٦٥٦ـ٦٥٧ .

نفس المصدر ، جـ٨ ، ق٢ ، ص٦٥٧ .

ابن ايبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ٧، ص ١١٩ .

ابن تغري بردي ، ابو المحاسن جمال‌الدين يوسف ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ٦ ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٥٠٨ .

ابن ايبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ٧، ص ٢٩٤ ، ٣٧٧، ١٤٣ .

نفس المصدر ، جـ٧ ، ص ٣٧٧ .

نفس المصدر ، جـ٧ ، ص ١٤٣ .

ابن الاثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ ، ١٢ جزء ، دار صادر – دار بيروت ١٩٦٦، ، جـ٩ ، ص ٢٠٧. ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، ٨ اجزاء ، دار الفكر – بيروت ، ١٩٨١ ، جـ٥، ص ٣٧٣ .

(٧٦) القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ١٥ جزء ،نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ جـ١٣ ، ص ٨١ . ابو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل‌بن عثمان المقدسي، الروضتين في اخبار الدولتين جزءان ، دار الجيل ، اوفست ، عن مطبعة وادي النيل ، ١٩٥٦ – ١٩٦٢ ، جـ١ ، ق٢ ، ص٦٢١.



القاهرة كما رآها الرحالة الغربيون في العصر الوسيط (١)

بقلم : ب. هـ. دوب P. H. Dopp

الاستاذ المساعد في كلية الاداب بجامعة فؤاد الاول

(جامعة القاهرة حاليا)

اختارها وترجمها : عبد الرحمن حميدة

عن مجلة الجمعية الملكية الجغرافيةالمصرية: ٢٥(١٩٥٢)

على قدر ما تكون النصوص نادرة ، يكون الامل في العثور على فائدة من أوائل النصوص التي تصف القاهرة ، التي تركها لنا الرحالة والحجاج من العصرالوسيط. غير أن خيبة الامل سرعان ما تقفز للعيان : ذلك ان طلائع زوار القاهرة لم يجيدوا الكلام عنها ، ولم يعرفوا الرؤية الحسنة ولا الوحدة . فقد اكتفوا ، من خلال قلم أرعن ، او ساذج ، بأن‌دونوا انطباعاتهم عن اتساع المدينة ، وعن عدد سكانها الذين لا يحيط بهم احصاء ، وعن غنى تجارتها ، وعن بهجة البساتين التي تحيط بها . أما فيما يتعلق بترتيب الامكنة حسب مواقعها ، وعن مشهد الاوابد ، فلا شيء الا النزر اليسير . وفضلا عن ذلك قدموا نبذة عن نهر النيل « القادم من الجنة الارضية »، وعن السور الذي يطوق المدينة ،وعن القلعة ، و« قصر السلطان ». هـذا كما أن الحجاج لم يتوانوا عن تعداد كنائس بابيلون ، أي القاهرة القديمة(٢)، التي زارها . غير أن وصفهم يقتصر على التنويه بجمال كنائسها وجلالها ، وانها تحتفظ بجسـد ذلك القديس أو ذاك . وفي خلال كل القرن الثالث عشر لم يضف شيء يذكر الى تلك الملاحظات التي نراها متكررة من رواية لاخرى . وعلينا الانتظار حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر كي نعثر على‌تفا صيل مرئية حقا وأوصاف ذات فائدة حقيقية .

ومنذ القرن ١١ ، أشار الشعراء الجوالة الى القاهرة باسم بابيلون Babilone اقتـداء بالاغريق ، مـع التباس ظاهر مـع « بابيلون » Babylone الاشـورية (كذا) . وقد انتقلت هذه التسمية للاستعمال العـام في أوربـا ، ونصادفها حتى في المعاهدات التجارية المدبجة باللغة اللاتينية . وعلى كل فان المؤلفين الاكثر اطلاعا ، والذين جاؤا من بعد غليوم الصوري(٣) ، انتبهوا الى ضرورة التمييز بين بابيلون التوراتية وبين عاصمة مصر، التي ميزوا فيها بين مدينتين هما بابيلون، التي هي الجزء الذي يحمل اليوم اسم مصر العتيقة(٤) وبين القاهرة الحقيقية (مصر القاهرة) التـي اسـسها الفاطميون في القرن العاشر الميلادي .

ومن المعروف ان مدينه بابليون القديمة نمت في العصور القديمة بجوار الحصن الروماني الذي دعي « قصر الشام » وفي زمن الفتح العربي توسعت بمعسكر الفسطاط الذي أقامه الفاتح عمرو بن العاص شمال شرق الحصن ، وهكذا توسع المعسكر بعد قليل تحت اسم مصر أو مصر الفسطاط . وبعد قليل نمت العاصمة القديمة أيضا في اتجاه الشمال اثر ظهور « حي العسكر » على أيدي العباسيين في القرن الثامن ، وحي القطائع في القرن التاسع بجهود الفاطميين . وفي ٩٦٩م تأسست بأمر من قبل أول حاكم فاطمي « المعز » نواة القاهرة الحديثة ، الى الشمال ايضا ، وتوسعت وتحصنت على يد صلاح الدين الايوبي الذي شيد القلعة في ١١٧٩ .

وقد اطلق العرب على هذه المدينة الجديدة اسم مصر القاهرة ، على اسم الكوكب المريخ (القاهر) الذي كان في حالة اقتران موائمة في وقت بناء الاسوار . وذلك هو اول ظهور لاسم القاهرة . غير ان الاقباط ، ومعهم الغربيون ، حافظوا على تسمية كل هذه المدن المتقاربة اسم بابليون .

غير ان القاهرة ، والقاهرة القديمة اللتين كانتا متلامستين تم فصلهما بشكل صريح في ١١٦٨ عندما قام آخر خليفة فاطمي ، وهو العاضد ، بحرق الحي المتوسط ، اي الفسطاط ، الذي تجاوز أسواره ، واصبح من العسير الدفاع عنه ، معرضا للسقوط بسهولة كبيرة في ايدي الغزاة . ولم يحدث ان أعيد بناء الفسطاط ، بيد انه يمكن التعرف على موقعه بمساحة كبيرة من الانقاض التي كانت لا تزال ، في منتصف القرن العشرين ، تفصل القاهرة الحديثة عن القاهرة القديمة .

منذ ذلك الحين فقدت القاهرة القديمة من اهميتها لحساب المدينة الفاطمية الجديدة ، التي غدت مركز الحياة الاقتصادية والسياسية . غير أن الحجاج الاجانب لم يترددوا في زيارة بابليون الرومانية لاهمية الكنائس والتي تحويها ، ولانها كانت، كما هي الحال اليوم ، مأهولة حصرا تقريبا بالمسيحيين واليهود .

هذا وان أوائل أوصاف القاهرة القديمة تعود على وجه الدقة لرحالة يهودي هو بنيامين الطليطلي . وهو رحالة شهير من اقليم نافار في شمالي اسبانيا ، ارتاد بين عام ١١٦٥ و ١١٧٣ كل البلاد المتمدنة في عصره ، وكتب باللغة العبرية « المسالك » الذي ترجم ونشر عدة مرات. ولكنه لما كان مهتما ، حصرا تقريبا ، بوضع أبناء ملته في العالم، فانه لم يترك لنا اشياء تستحق الذكر عن القاهرة العربية ، التي دعاها « زوان Zoan » ، بل تكلم ، عن القاهرة القديمة التي كتاها باسم عبري هو « مصرائيم » ، ويقول « ان مصرائيم(٥) مدينة كبيرة واقعة على ضفة النيل ، وهو نهر فيزون(٦) ،

وعدد اليهود فيها سبعة آلاف(٧) ولهم كنيسان كبيران ، أحدهما يخص ابناء بلاد اسرائيل(٨) ، والاخر يخص اهل بابليون ويدعى كنيس الشاميين(٩) ، والثاني كنيس العراقيين(١٠) وعلى راسهم نيتانل Nethenel وهو امير الامراء ورئيس السانهيدرين Sanhédrin وكل الطوائف المصرية . فهو يعين الحاخامين والموظفين(١١) في عداد حاشية السلطان الكبير ، الذي يقع قصره في مدينة العرب الملكية، أي زوان المدينة(١٢). اما رعايا السلطان فيطلق عليهم اسم العلويين(١٣) ، الذين نبذوا سلطة أمير المؤمنين المقيم في بغداد . وهذان الفريقان في حالة عداء دائم ، لان الاول أسس في بلاد « زوان » عرشا منافسا لعرش بغداد(١٤) .

ويخرج الملك مرتين في العام : بمناسبة العيد الكبير(١٥) ، وعلى اثر فيضان النيل . ويحيط بمدينة زوان أسوار ولكن دون مصرائيم التي يحدها النيل من احد جوانبها . وهي مدينة كبيرة ذات أسواق وفنادق بأعداد كبيرة ، وسكانها من اليهود اغنياء جدا .

ولا ينزل المطر في مصر ابدا ، كما ان الثلج والجليد غير معروفين ، والمناخ شديد الحرارة . ويزيد ماء النيل مرة في العام خلال شهر أيلول ، وعندئذ يغطي كل البلاد بمدة خمسة عشر يوما ، وبركود الماء فوق الاراضي خلال شهري ايلول وتشرين الاول فانه يعمل على اخصابها . وهناك عمود من المرمر علوه اثنا عشر ذراعا ، مقام فوق الماء بحذق شديد على حافة جزيرة نيلية ، يدل السكان على الارتفاع الذي بلغه الفيضان(١٦). وعندما يغمر الماء العمود المذكور ، يصبح من المعلوم ان المياه أصبحت تغطي كل البلاد على مسافة خمسة عشر يوما ، أي على عرضها(١٧) أما اذا لم يبلغ الماء منتصف العمود، فمعنى ذلك أنه لا يغطي سوى نصف البلاد . وهناك مأمور يقوم في كل يوم بقياس ارتفاع الفيضان على العمود ويذيع الخبر في كل بلاد زوان وفي مدينة مصرائيم .

وهنا تضيف ترجمة برجرون النص التالي : « ان كل الذين يملكون حقولا في هذه البلاد يحفرون خنادق كبيرة تظل مليئة بالاسماك ، بعد أن ينحسر ماء النيل ، يتغذى عليها السكان ، أو يملحونها لبيعها من التجار الذين يحملونها لامكنة اخرى . وتكون أسماك هذا النهر على درجة كبيرة من السمنة بحيث يصنعون منها زيتا ضروريا لايقاد المصابيح . وكل من يأكل من هذه الاسماك أو يشرب من ماء النيل لا يشعر ابدا بألم ، مهما افرط في تناولهما ، لان هذه المياه لا تستخدم فقط للشرب بل وايضا في الطب للحصول على بدانة مفرطة جدا(١٨) .

« وتبتعد مصرائيم الجديدة بمسافة فرسخين(١٩) عن مصرائيم القديمة التي لم تعد اكثر من أرض قفراء ، غير انه لا تزال مائلة عدة بقايا من الاسوار القديمة ، وكذلك

من البيوت مع الكثير من الاوابد . والانبار التي بناها يوسف والتي لا تزال قائمة[٢٠] وفي خارج أسوار المدينة يقع كنيس يحمل اسم نبينا الطوباوي موسى (عليه السلام) ، والذي لا يزال يتعهد خدمته الى اليوم احد كهول تلامذة الحكمة ، الذي يقوم بدور كاهن ، ويدعى آلزيخ آبونستر ، ومعناه الاب الحارس القديم ، ويبلغ قطر هذه المدينة المتهدمة ثلاثة أميال ، وهي على ثمانية فراسخ من منطقة غوسن Gossen » .

بيد ان الاهتمام بما تحويه مصر انتعش طبعا في أعقاب أوائل التدخلات الفرنجية في البلاد . فعندما التمس الوزير «شاور» ، والذي كان يحكم بالفعل نائبا عن الخليفة، في القاهرة ، التحالف مع آموري الاول Amaury ، ملك بيت المقدس ضد الاتراك الذين اجتاحوا مصر ، ارسل الملك هذا سفارة جرى لها استقبال في القاهرة ، وتقدمها الوزير بنفسه لتحظى باستقبال الخليفة الفاطمي[٢١] .

غير ان المقابلة الاكثر غرابة هي التي يرويها غليوم الصوري في كتابه[٢٢] ، ولما كان غير شاهد عليها فهو ينقل عن روايات سفراء فرنجة مثل هوغ من قيصرية ، والهيكلي جوفروا فولشر ، اللذين تكلما عن عجائب قصور الخلفاء ، التي كانت عبارة عن اسوار محصنة ،يحرسها احباش ، وساحات فسيحة مبلطة بالمرمر المتعدد الالوان. وحدائق فتانة ، ونافورات متدفقة ، واحواض ظليلة ، وحدائق حيوانات غريبة ، وقاعات مفروشة بزرابي من حرير موشاة بالذهب والياقوت والزمرد ...... » .

هذا كما يقدم غليوم الصوري صورة شاعرية أكثر منها ، موثقة ودقيقة، منقولة، دوما ، عن انطباعات قادة صليبيين، وهذا عندما قامت مفرزة أفرنجية باحتلال القاهرة بقيادة مشتركة تتألف من هوغ ديبلان H. de Ibelin والامير الكامل ، ابن شاور ، في حين كانت القوات التركية الغازية ، التي كان بين صفوفها الشاب صلاح الدين الايوبي ، تعسكر في الجيزة ، على الضفة الغربية للنيل .

جاك دوفيتري (١٢١٨ م) J. de VITRY

وقد قام جاك دوفيتري ، بدوره ، وهو مطران عكا ايام الصليبيين ، وهو الذي شهد حصار دمياط مع جيش الامير الفرنجي جان دوبريين J. de Brienne بتدوين هذه المعلومات الهزيلة ، نوعا ما ، في المجلد الثالث من كتابه « التاريخ المشرقي »[٢٣] .

« على مسافة ثلاثة ايام من دمياط تقع مدينة كبيرة على حافة النيل تدعى بابيلون الجديدة . ويجب أن ننوه انه كانت في الماضي مدينة نبيلة وقوية جدا تدعى

القاهرة ، ولا يزال فيها المقر الملكي وقصور الامراء . وتقع على مسافة ثلث ميل من تلك المدينة . وبناء على أوامر السلطان أحيطت هذه المدينة وبابيلون الجديدة بسور واحد (٢٤) وبذلك تشكلت مدينة واحدة . وهنا يسكن مسلمون ويهود ونصارى ويتبع كل من هذه الاقوام شريعته الخاصة(٢٥) وتوجد حول هذه المدينة مزارع شجرية بهيجة والعديد من البساتين » .

وحوالي العام ١٣٠٠ اعتزل الامير الارمني هايتون في دير بواتييه ، في فرنسا، واملى كتابه « تاريخ الشرق أو تاريخ بلاد التتر »(٢٦) ، ويخصص فصلا من هذا الكتاب لحالة ووضع المملكة المصرية ، ولكن لا يذكر شيئا يثير الاهتمام عن القاهرة: « ان أكبر مدينة في المملكة المصرية تدعى القاهرة ، وهي كبيرة جدا وبالغة الثراء . وعلى مقربة من هذه المدينة تقعمدينةاخرى ، موغلة فيالقدم تدعى مصر . وتقع هاتان المدينتان على حافة نهر يروي مصر يسمى النيل والذي يدعى في الكتاب المقدس جيئون Géon وهذا النهر هو أكثر نهر في الدنيا فائدة ، فهو يروي كل الاراضي حيثما يمر، ويجعلها خصيبة ونضرة . وهذا النهر شديد العمق ، وقادر على ان يحمل كل أنواع السفن . وتكثر فيه كل أنواع الاسماك ، وهو جزيل الفوائد لولا انه تعيش فيه حيوانات تشبه التنين dragon تفترس الناس والخيل وكل الحيوانات الاخرى ، عندما تقع في متناولها ، وحتى على الشط . وتدعى هذه الحيوانات عادة التمساح Coquillaires ويفيض هذا النهر مرة في العام ، وتبدأ زيادته في منتصف اب ، ثم يأخذ بالتناقص ، وعندها يعمد الناس الى دفع مياهه نحو قنوات وسواق مقامة لهذا الغرض في الحقول ، كي تروى وتدمل(٢٧) . ويمكث الماء فوق الارض نحوا من أربعين يوما ، ثم تبدأ الارض بالجفاف ،ويلقى بعد ذلك البذار في هذه الارض(٢٨) وينمو بشكل مدهش بفضل ارتوائها بهذه المياه ، ذلك لانه لاتسقط الامطار ابدا في هذا البلد المذكور ، فلا نجد اختلافا ابدا بين الشتاء والصيف .

وقد وضع الاهالي عمودا من الرخام في وسط النهر وأمام مدينة مصر ، وقد صنعوا فوق هذا العمود بعض الاشارات : وعندما يكون النهر في فيضانه ، ينظرون الى هذه العلامات ، وعندما يصعد الماء حتى اعلا هذه العلامات ، فانهم يستبشرون بمحصول طيب ، وعندما لا يكون هناك ، خلاف ذلك ، فيضان قوي ، فهم يستخلصون عكس ذلك ، ويحددون اسعار البضائع استنادا الى هذه التوقعات وماء هذا النهر صحي جدا من أجل الشرب .

وتحوي مملكة مصر مينائين هما الاسكندرية ودمياط . .

« ولا يوجد في كل مصر مدينة ولا قلعة ولا قصر مزود بتحصينات او محاط بأسوار ، باستثناء مدينة الاسكندرية وقصر القاهرة . . وذلك مكان سكن السلطان ».

الاخ يعقوب الفيروني (١٣٣٥) Frére J. de Vérone

وهو حاج يدعو نفسه الاخ يعقوب الفيروني ، وربما كان هو الاخ الذي كان رئيس الدير الاوغسطيني المنذور للقديسة أوفيميا ، في فيرونا في ١٣٢٩ والذي قام بزيارة الاراضي المقدسة في سن الخامسة والعشرين . ولما غادر فيرونا في ١٧ أيار بصحبة عدد قليل من الاصحاب الذين اغفل ذكر اسمائهم ، ركب البحر في ٢٩ من الشهر المذكور من البندقية ، وبعد توقف في كريت وفي قبرص نزل في حيفا ، ومنها توجه الى بيت المقدس ، وبعده قصد سيناء مرورا بغزة . وعلى اثر عودته من زيارة دير القديسة كاترينا اجتاز البحر الاحمر ليبلغ القاهرة بالطريق الصحراوي في ٣٠ ايلول ١٣٣٥ . ولكن لم يمكث فيها أكثر من يومين لانه يروى لنا أن هنالك حملة صليبية وشيكة عكرت مزاج السكان ضد الاجانب . فانكفأ يعقوب (جاك) الفيروني على عجل، وتحاشى الاسكندرية ، ليبحر من دمياط قاصدا يافا وفلسطين . وقال انه رأى في دمياط ، وبأمر من السلطان حجارة ضخمة ترمى في الميناء لجعله غير صالح لنزول الصليبيين . وشاهد الامر ذاته يحدث في حيفا وصور وعكا وهي الامكنة التي سافر اليها قبل ان يركب متن البحر قاصدا ايطاليا من بيروت .

ومما لفت نظر هذا الحاج ، على الخصوص ، في القاهرة هي رؤية فرق المماليك العسكرية ، وازدهار التجارة بشكل مذهل ، واليكم فقرات وصفه والتي نترجمها من النص اللاتيني الذي نشره رينهولد رويخرنشيت(٢٩) :

« بعد أن مضيت ستة ايام في اجتياز الصحراء ، وصلت في اليوم السابع الى مدينة القاهرة الجبارة الواقعة على النيل ، وهو نهر كبير ومدهش والذي هو أحد انهار الجنة الاربعة . ويدعى نهر جيون في سفر التكوين ، ولكن المسلمين يطلقون عليه في لسانهم اسم كاليسمو(٣٠) . وفي اخر يوم من ايلول ، وهو عيد القديس جيروم ، وصلت الى القاهرة ، المدينة التي تحوي على الكثير من العجائب التي تستحق الذكر، لانها زعيمة كل مصر وفلسطين والارض المقدسة، وكل بلاد الاشور حتى ارمينية. حتى أن ملك ارمينية ، وهو نصراني ، يدفع للقاهرة في كل السنين جزية تبلغ مئتي الف فلورين ومائة الف حذوة حديد لبيطرة الخيول . وللسلطان مسكنه فيها، والذي يقع في المدينة ؛ وهو قصر رائع منيع ، مع أسوار وابراج ، وعمارات ضخمة . وفي هذا القصر حرس عديد مؤلف من مسلمين ، وأتراك ، وآخرين ، ومن نصارى (مرتدين) ، وكذلك العديد من الرقيق النصارى الوافدين من سائر انحاء النصرانية وقد فرحوا كثيرا برؤيتي . وهم يقيمون في قصر السلطان الذي يوجد فيه الطعام والكساء . هم عمال يبنون له صروحه .

وقد رايت في القاهرة ، امام باب القصر ، جند السلطان ، حيث يجتمعون هناك في كل صباح جيشا لجبا من ٢٠٠٠٠ فارس حسب تقدير تجارنا النصارى ،مسلحين بالقسي ، يمتطون خيولا صغيرة الحجم تماثل المهور او افراس الامراء الصغـار . وكانت وقايتهم رديئة ، فليس على رؤوسهم سوى خوذة صغيرة من حديد ولا يكتسي بالدروع سوى عدد صغير منهم ، في حين كانت دروع الاخرين من الجلد ، كما لم يكن اي واحد منهم مزودا بما يقي ذراعه الذي يمسك بالقوس ، ولا بما يحمي افخاذهم وسيقانهم .

ولهم ركابات قصيرة ، وعندما يرمون بأقواسهم ، يقفون على ركابهم كي يطلقوا سهامهم . ورأيت خيل السلطان مغطاة بسروج مطرزة بالذهب والحرير مما يؤلـف مشهدا بديعا ، طبعا ، ولكنها ذات حجوم صغيرة .

هذا كما رايت في مدينة القاهرة هذه ، خمسة فيلة قرب قصر السلطان ، وهي حيوانات ذات قوام مدهش ، وللواحد منها زوج من الانياب الطويلـة ، يبلـغ طولها ذراعين تقريبا ، وآذان طويلة جدا . ويبلغ علو جسمها الضخم ثمانية اقدام ، مـع سيقان ضخمة جدا ولها في أعلى الفم خرطوم طويل ، بحـدود ذراعـين ، وتضرب بـه بقـوة .

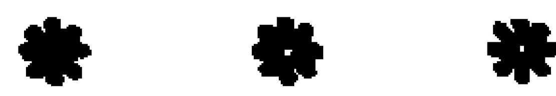
وقد بلغ مسامعي من نصارى يسكنون البلاد انه في القاهرة أكثر من ٢٠٠٠٠٠ رجل قادرين على حمل السلاح . وتقع المدينة على ضفة النيل الذي يدعى كاليسمو . وتمتد طولا على أكثر من خمسة أميال بعرض يتجاوز الميلين في سهل رملي . وتحوي العديد من المنازل العالية ، مشيدة باللبن مبيضة بالكلس من الخارج(٢١) ، وتحوي مساجد جميلة يؤدي المسلمون فيها صلواتهم .

ويوجد في مدينة القاهرة ذاتها وفي بابليون فرافات كبيرة حيث تقـع اضرحـة المسلمين ، وحيث شيدت قبور بديعة من الرخام ومن الحجر السماقي ومن حجر الهيصم ومن حجارة ثمينة اخرى ، مبنية ومذهبة بشكل رائع . ولم يسبق لي أن رأيت مثيلا لها في كل بلاد النصرانية ، وتتجه جميعا نحو الجنوب ، مثلما يوجـه النصارى كنائسهم نحو الشرق .

وعلى مقربة من القاهرة ، على مسافة ميل واحد وبمحاذاة النيل والخليـج ، تقع مدينة بابليون الكبيرة والمدهشة . وتكاد تكون ملاصقة للقاهرة ، ويخضع سكانها ، شأن سكان القاهرة ، للسلطان الذي يسكن في هذه المدينة المذكورة مع قواته وضباطـه الذين يحملون لقب « الامراء » . والله يعلم ان هناك الكثير مما يمكن قوله عن هاتين

المدينتين ، اللتين تقعان في موقع ممتاز على نهر جيئون Géon أو النيل ، الذي هو احد انهار الجنة الاربعة . والهواء فيها عذب وخال من اي شكل من اشكال الوخامة، والسكان اغنياء جدا بفضل تجارة الهند لان السفن تجلب عن طريق البحر الاحمر التوابل بمقادير لا تحصى ، وحجارة كريمة ، من مسافة تبلغ اربعة ايام عن القاهرة . وعندئذ تنقل قوافل الجمال التي لا يحصيها العد هذه البضائع حتى بابليون والقاهرة، وكذلك حتى الاسكندرية ، والتي هي بدورها مدينة هامة وكبيرة ، على البحر المتوسط ، واقعة بين فلسطين وسوريا شرقا ، وبين ممالك بلاد البربر Barbarie والمغرب وتونس من الغرب . وعن طريق البحر المتوسط الذي يحاذيها من الشمال تجلب اليها السفن من سائر بلاد العالم كل ما يمكن او يكون نافعا للانسان وعلى مسافة مائتي ميل الى الجنوب منها تقع القاهرة التي يهبط منها فرع من النيل حتى الاسكندرية مما يسمح بنقل كل الاشياء من بلد لاخر ، وهكذا تكون القاهرة وبابليون مزودتين بكل شيء . .

وفي القاهرة وبابليون العديد من النصارى ، يدعون نصارى الزنار لانهم يتمنطقون بالزنار ، على خلاف المسلمين الذين لا يضعونه على خصورهم . مثلما يضع النصارى على رؤوسهم فعلا ، قبعات سوداء ، في حين تكون بيضاء اللون لدى المسلمين . وقد سمعت من يقول ان عدد النصارى كان ٣٠٠٠٠ في كل مصر(٢٢) ،وان كل واحد يدفع للسلطان جزية سنوية تبلغ دينارا ذهبيا ، مما يعادل فلورين ونصف. وفي مصر عدة كنائس وعدة اديرة للرهبان الروم والارمن . ورايت في القاهرة عدة كنائس ، وقد وددت البقاء في مصر لبضعة ايام لولا الاشاعات عن الحرب ـ اذ انتشرت بين العوام اشاعة بأن حملة صليبية وشيكة الوقوع ـ مما جعل نصارى ايطاليا من الناطقين باللاتينية ، مشبوهين على أنهم جواسيس . وقد انتابني الهلع فلم ابق بالقاهرة اكثر من يومين . وبعون الله والارقاء النصارى الذين كانوا هنا فقد استطعت العثور على مركب من النوع الذي يسمونه « الجرمة » الذي أوصلني الى دمياط . وكان علي ترك الاسكندرية على يسار والعزوف عن زيارتها ، للسبب الذي ذكرت .



ولنترك جانبا ، الرحلة المزعومة التي كتبها الفارس الانكليزي ـ النورماندي جان مانديفيل في ١٣٥٦ والتي لم تكن سوى تركيم لروايات اختلافية وملامح اسطورية من كل الجهات ، ولكن ابتداء من النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، اخذت روايات الرحالة الى القاهرة تقدم فائدة أكثر . ذلك هو العصر الذي اخذت فيه العلاقات الدبلوماسية تأخذ استمرارية .اكثر مما ساعد على رحلات افراد عاديين . فالسفن

الجنوية والبندقية التي حملت في القرون الفائتة الجيوش الى الشرق ، اخذت تنقل اليه الان التجار وشحنات السلع . وراح السفراء والقناصل يتجهون نحو الدول الاسلامية لاقامة علاقات سلمية وتمتينها . واصبحت سبل الحج الى الاماكن المقدسة اكثر سهولة واكثر عددا . وقصد رجال الدين من كل الامم مدينة القدس وسيناء مرورا بالقاهرة : من فرنسيين ، وفلمنك ، وانكليز ، والمان ، واسبان ، وطليان ، وروس .. فلم يعد كافيا تكرار معلومات مبتسرة وغامضة عن عاصمة السلطان متوفرة لدى مؤرخي الحروب الصليبية ، بل كتب الكثير من الرحالة رواية شخصية عن رحلهم ، ورووا لنا ما رأوه .

وقد جلب لنا عام ١٣٨٤ ثلاث روايات لثلاثة نبلاء من فلورنسة قاموا ، سوية ، برحلة الى الشرق في ذلك العام وهم : ليوناردو فريسكوبا لدى ، سيمون سيغولي، وغوكشي دي دينو ، يرافقهم فلورنسيون اخرون هم سانتي دل رنكو ، انطونيو دي، باولو ، والاخوان ماي واندريا رينوكشيني . وقد مات الاخير خلال الرحلة فيدمشق.

وكان هؤلاء قد غادروا فلورنسة في العاشر من اب ١٣٨٤ كي يبحروا منالبندقية بتاريخ ٤ ايلول على السفينة بولا Pola التي يقودها القبطان لونزو موروسيني الذي كان ينقل شحنة من الاقمشة اللومباردية وصفائح الفضة والزيت والزعفران ، وبلغوا الاسكندرية في ٢٧ ايلول حيث استقبلهم القناصل الاوروبيون وقصدوا القاهرة التي امضوا فيها ثمانية ايام من ١١ الى ١٩ تشرين الاول ، قبل ان يقصدوا سيناء التي عبروها الى فلسطين وسورية ، وعادوامن بيروت بحرا في شهر كانون الاول ١٣٨٤.

وقد أصبح أولهم فيما بعد ، وهو ليوناردو ، ابن نيكولو فريسكو بالدى ،سفيرا لدى البابا بونيفاس التاسع في ١٣٩٨ ، واليكم وصفا للقاهرة مترجما عن النص الايطالي الذي نشره غوغليلمو مانزي(٢٢) .

وصلنا الى القاهرة وبابليون في ١١ تشرين الاول ، واللتين هما الشيء نفسه . وهنا قادنا الترجمان الذي قصدناه في الاسكندرية ، الى الترجمان الاكبر ، وهو رئيس سائر تراجمة السلطان وقد انزلنا هذا الموظف الكبير في منزل مع امتعتنا ، قصدناه في قناة تتصل بالنيل . ويقع هذا المسكن على مسافة تقارب ثلاثمائة ميل في داخل البلاد .

وخلال المشوار بين الاسكندرية والقاهرة صادفنا الكثير من مراكب المسلمين موسوقة بالبضائع وتنقل كلها عددا كبيرا من نساء الشعب ويعملن فعلا بالكثير من

صنوف التجارة وكن يسافرن الى الاسكندرية والى جزيرة الروضة(٢٤) وبقصد البيع والشراء .

ويقيم السلطان في مدينة القاهرة وبابليون . ويقع قصره في المكان ذاته الذي كان يقيم فيه فرعون مصر ، حيث جرى ارضاع موسى . وفي يوم وصولنا الى القاهرة كان السلطان عائدا من القنص بعد غياب استغرق بضعة ايام . وكان هناك خمسة آلاف خيمه ، ولم نر اطلاقا مثل ذلك الغنى الباذخ . وقد كان هذا السلطان نصرانيا من اليونان(٢٥) ، اشتراه أحد الامراء طفلا صغيرا اي انه أصبح مملوك قائد حربي . وعندما تقدم في العمر احتفظ به الامير ضمن حاشيته ومنحه أفراسا وزادت مكانة هذا الشاب الى ان غدا حاكم القاهرة .

ويجب ان نعرف ان في القاهرة اثني عشر اميرا ، منهما اثنان رئيسيان .وتقسم المدينة الى اثني عشر حيا كما تقسم فلورنسة الى اربعة احياء ، وكل أمير يحكم حيه ويقود عددا كبيرا من المحاربين . .

وتشكل بابليون مع القاهرة مدينة كبيرة جدا تمتد اكثر من ثمانية عشر ميلا طولا وثمانية أميال عرضا . ويحد النيل أحد أحيائها حيث يقوم ميناء جيد ، كان يرسو آنذاك عدد كبير من السفن مما لم نشهد اه مثيلا في موانيء جنوا أو البندقية وآنكونة(٢٦) مجتمعة سوية . هذا عن السفن من ذوات الجسرين ، والتي لا تؤلف ثلث عدد السفن الراسية هنا والتي تكون كلها ذات حمولة تعادل ، اربعمائة بالة او أكثر. وفي عالية القاهرة(٢٧) ، وعلى مسافة ثلاثة أميال بمحاذاة الضفة ، يقع المكان الذي ولد فيه موسى (عليه السلام) وحيث القي في النهر في مهد مجلفط بالقار . وفي ساحة السلطان ، وعلى مقربة من القصر الذي يسكن فيه ،ينتشر العديد من دكاكين باعة المجوهرات الذين يتصرفون بكميات من الحجارة الثمينة ، والزمرد ، والياقوت والياقوت الاحمر Balais (٢٨) والفيروز ، واللاليء وانواع اخرى من الحجارة الكريمة من سائر الاصناف . وقد اشترى رفيقنا اندريا دي ميسر فرانسيسكو لزوجته بضع لاليء حملناها معنا ، فضلا عن اشياء اخرى استودعنا اياها عندما حضرته الوفاة بدمشق .

وعلى مسافة أربعة عشر ميلا من القاهرة ، فيما وراء النهر ، من جانب بابليون يقوم اثنا عشر من الانبار (عنابر القمح) ، من تلك التي امر يوسف ببنائها في عهد فرعون في أيام المجاعة. ولا تزال قائمة : وهي أبنية مربعة الزوايا مقصوصة على هيئة الالماسات وعرض كل منها عند القاعدة يعادل ارتفاعة ، ويبلغ محيطها نصف ميل وتستر الرمال قواعدها ، ولكن كان يوجد اكثر بكثير من هذه الانبار(٢٩) .

وقد سبق أن قلت ان القاهرة مدينة كبيرة للغاية ، وفيها يوجد الكثير من النسوة اللواتي يمارسن التجارة بنشاط ، فيقصدن الاسكندرية ، ورشيد ودمياط ، وسائر انحاء مصر ، تماما مثلما يفعل تاجر كبير . أما في المدينة فيمتطين رواحل بديعة قادرة على حمل حمولات خيول قوية . وهذه الحيوانات معروضة للاجار على الساحات العامة وعلى الطرق ، وكل واحد مع سائقه ، ولا يعمل هؤلاء شيئا أكثر من تأجير رواحلهم للتنقليات . وهم بالفعل عاجزون عن ممارسة أية مهنة اخرى . وكان يوجد في القاهرة عند وجودنا فيها ما لايقل عن ستين الفا من هؤلاء الحمالين.

وعملتهم من الذهب أو من سبائك الفضة غير المسكوكة . ويدعى الذهب بيزان besan ، وتبلغ قيمة السبيكة دينارا وربع من العملة المسكوكة . ولكن دنانير البندقية ducats من الذهب المسكوك دارجة هنا(٤٠) . وتدعى العملة الفضية الدرهم وتعادل بندقي كبير . وليس هناك سعر لاية عملة فضية مسكوكة اخرى سوى تلك البندقيات الكبيرة . ولديهم عملة نحاسية غير مسكوكة يدعونها فلوس وكان كل تسعين فلسا يعادل في القاهرة درهما واحدا . ولكن يعادل الدرهم في امكنة اخرى من البلاد الاسلامية ثلاثين درهما ، وتارة اربعين ، واحيانا اقل من ذلك حسب الامكنة . وكل بضائعهم ، تباع بالوزن ، حتى البطيخ الاحمر .

ويوجد في القاهرة حوالي ٢٥٠٠٠ من النصارى المرتدين ، ولكن القليل منهم من قومنا ، ومعظمهم ينتسب الى أمم اخرى. ونصادف عددا كبيرا جدا من الابل المبرذعة، جميلة وقوية ، وتستعمل حصرا لنقل مياه النيل الذي يجري بيعه في المدينة . ويقدر عدد الابل هذه بحوالي ١٣٠،٠٠٠ ، ويقال ان في القاقرة ٦٠٠٠ من السقائين . اما النصارى فمن عدة اقوام، اللاتين،وهم قلائل، والروم والنوبيون ،والكرج ،والاحباش، والارمن ، ونصارى الزنار ، الذين يعمدون بالنار على الراس وعلى الصدغ وآخرون على الصدغ والراس ، أو احيانا على الراس فقط ، وذلك حسب مذهبهم . . .

وتكون كسوة النساء عموما من قماش حسن النسج ، وثيابهم الداخلية من قماش شيت Toile ، أو من كتان الاسكندرية الناعم لدى الاكثر غنى ، ويلبس بعضهم ثيابا قصيرة حتى الركبة ، ولكن في هذه الحالة يضعن فوق ذلك نوعا من معطف (مانطو) على الطريقة الرومانية . وهن محجبات ومخفيات بحيث لا تظهر سوى عيونهن ، وأكثرهن أناقة يضعن أمام أعينهن قماشا رقيقا أسود اللون (برقع) يحول دون رؤيتهن ، مع أنهن يرين الناس تماما . ويحتذين جزمات بيضاء ويغطين سيقانهن بجوارب وبواقيات للساق تهبط حتى الكعب ، وتكون نهاياتها مطرزة ـ حسب حال السيدة ـ بالحرير ، أو بالذهب ، أو بالفضة ، أو بالحجارة الكريمة ، أو بلآلىء مطرزة فوق القماش .

ويكتسي الرجال بثياب مسدلة ، ودائما فوق سراويل أو جزمات ، بل يكتفون بأحذية من طراز البلاد على شكل خف مغلق ، وعلى رأسهم قبعة من قماش ابيض أو قماش ناعم . وثيابهم البيضاء من حرير ، أو من قطن أو من كتان فائق النعومة . ولا يميل أهل مصر كثيرا للحروب ولا يحملون اي سلاح كان ، وقد يحدث ان يتشاجروا لدرجة تجعل المشاهد يتصور انهم سيقطعون بعضهم اربا اربا ، ولكن ما أن يصيح احدهم قائلا : « أستغفر الله » حتى تسود السكينة عليهم .

أما أمراء القاهرة فيمكن تسميتهم القادة العسكريين الاثني عشر : فكل منهم يحكم حيه وله فرقة وميليشيا ، ولا يهتم بالحي الاخر أو بالسكان المجاورين . ويتألف جنودهم من اتراك وعرب وتتر مع بعض مسلمي سورية وبعض المرتدين ، من نصارى ويهود من مختلف الامم .... » .

ويقوم فريسكو بالدي بعدئذ بوصف الفيلة والزرافات التي رآها في القاهرة ثم يتابع كلامه :

وتكون مدينة القاهرة ، العاصمة الامبراطورية ، غنية بالسلع من كل نوع ولاسيما بالسكر ، وبالتوابل ، وبالمأكولات من كل صنف ، وفيها ١٠٠٠٠٠ نسمة لا يملكون بيوتا ، وينامون ليلا في العراء ، كما أن هناك عددا كبيرا من الناس ينهمكون في اداء خدمات من كل نوع مقابل أجر قرابة درهم يوميا ، مما يعادل تقريبا اربعة قروش وربع من عملتنا . وفي القاهرة هذه سكان يزيد عددهم على سكان اقليم توسكانيا كله، وفيها شارع واحد أكثر سكانا ، من كل مدينة فلورنسة . ونصادف بالمدينة عددا كبيرا من الطهاة الذين يعملون ليلا ونهارا في الطبخ بالعراء ، في الشارع في قدور جميلة كبيرة من نحاس مطلي . ويجهزون أنواعا ممتازة من اللحوم . ولا يقوم أي حضري ــ مهما بلغ من الغنى بالطبخ في بيته، وهذا هو الوضع الفعلي لكل المسلمين ، فيرسلون من يشتري لهم أقواتهم من « البازارات » وهو الاسم الذي يطلق على هذه المطابخ . وكثيرا ما يجلسون في الشارع على الارض لتناول طعامهم بعد ان ينشروا بساطا يضعون في وسطه طست الطعام ويتحلقون من حوله على الارض ، بعد طي سيقانهم على شكل متصالب ، أو على كعوبهم ..

ويدفع مسلمو البلاد بعض الضرائب النظامية لا يخضعون بعدها لاي رسم . بيد أن على اليهود والنصارى من كل طائفة أن يدفعوا ، فضلا عن المألوف ، دينارا عن كل رأس كل ثلاثة عشر شهرا قمريا . ويبدأ نظام التاريخ من محمد (عليه السلام)(٤١) ، ويلتزم الناس في كل عام بصيام شهر قمري ولكن هذا التوقيت لا يعود دوما للفترة نفسها ..

ومساجدهم بيضاء كليا من الداخل ، وفيها عدد كبير من المصابيح المتقدة ، ومناراتها عالية دون اجراس ، ومحاطة بشرفة ، يقوم مشائخهم في كل ساعة من النهار والليل ، بثلاث دورات حولها وهم يدعون للصلوات (٤٢) ..

وفي ١٨ من الشهر ذهبنا لزيارة الامكنة المقدسة وكنائس القاهرة وبابليون . وكانت اول كنيسة رايناها هي كنيسة القديس توما الرسول التي تخص نصارى الزنار ، وهي كنيسة جميلة جدا ومقدسة والثانية هي كنيسة القديسة بارب Barbe ، وهي بدورها ، جليلة وبديعة ، حيث راينا جسد القديسة وهي رفات مؤثرة جدا . وكانت الثالثة كنيسة القديسة مريم الدرج eescalier والعمود، وهي كنيسة مقدسة جدا ومزدانة ويسرد الاهلون عنها عجائب كثيرة .. وفي هذه الكنيسة يتسلم نصارى البلاد ، مراتبهم من يد البطريرك ، وهو الرئيس الاعلى لكل نصارى هذه الاصقاع ، ويقصدها الناس حتى من اليونان . ونصارى الزنار همالذين يخدمون بالقداس فيها . والكنيسة الرابعة هي كنيسة مريم الكهف حيث مكثت العذراء مختفية فيها مدة سبعة اعوام خوفا من هيرود . وهذه الكنيسة هي اكثر الكنائس توقيرا في العالم . فقد شيدتها القديسة هيلانة ، والدة الامبراطور قسطنطين ... وفي المكان الذي سكنت فيه سيدتنا نجد مصلى تحت الارض يهبط اليه بتسع درجات ، يماثل كهفا حجريا .. وقد كان محراب سيدتنا ، واليوم يقوم مذبح مكانه وطلبنا من حارس جبل صهيون في القداس اقامة قداس امامه ، وهو راهب فرنسيسي صغير Mineur ، وشريف من البندقية ، اسمه نيكولا(٤٣) وهو رجل يتمتع بشجاعة كبيرة وبحياة قدسية .. وقد جاء ليطلب السماح بتأسيس دير للاخوة الفرنسيين في وادي جوزافات Josaphat حيث يقع ضريح مريم العذراء ، ولكنه لم يغز بهذا الترخيص مطلقا . ويقوم نصارى الزنار ، من أهل بابيلون ،بخدمة هذه الكنيسة وبين القاهرة وبابليون اللتين تبعدان عن بعضهما أكثر من رمية سهم، تقع كنيسة القديس مارتن ، مطران الاسكندرية ، حيث يحتفظ بجثمانه ، أو بالاحرى برفاته ، مغلفة بكفن من حرير ، وقد احتضناه بأذرعنا . وقد دفنت في هذه الكنيسة ملكة ارمينية التي ماتت في الاسكندرية ، عندما كان زوجها أسير السلطان(٤٤) ويقوم النصارى الارمن على خدمة الكنيسة .

وقد أقمنا بضعة أيام في المدينة لتادية عباداتنا ، ولزيارة طرائف المناطق المجاورة مثل انبار فرعون وبيت موسى (عليه السلام) وللتموية بقصد رحلتنا عبر الصحراء نحو أرض الميعاد . وكثيرا ما كان يزورنا الترجمان الاكبر بالبيت الذي نقطنه ويتناول الشراب معنا .. وكان فيه العديد من طير اليمام ، حتى في غرفتي ذاتها حيث كان لها فيه ثلاثة اعشاش ، وكانت هذه اليمامات المستانسة ذات حجم يعادل حمام بلادنا ،

وكانت كلها أهلية شأن طير الحمام لدينا . وللسلطان العديد من الموظفين ، ولما كان يود سماع الاخبار فقد كان يتسلم ، في كل نصف ساعة ، في القاهرة ، رسائل ترده من الاسكندرية بوساطة الحمام . . . .

« وفي البلاد عوز شديد لخشب البناء . وللوقود تستعمل اوراق النخيل ، اي السعف ، وقفف الحبوب، وكذلك روث الابل الممزوجة بالغبار وبفضلات أخرى. ويكون الخبز رديء الشواء ، ولكنه ابيض كالحليب ، لان لديهم قمحا رائعا . . . » .

أما سيمون سيغولي، صاحب فريسكو بالدي، فقد دبج ، بدوره رواية ايطالية عن رحلته . وقد نشرت مع روايتي فريسكو بالدي ورواية غوبكشي دي رينو بجهود كارلو كار غيولي(٤٥) وفيما يلي بعض فقرات منها :

« . . . وتكون ثياب المسلمين دائما من القطن الشديد النعومة حتى ليتصور اليه انه من حرير . وهناك من تسعفهم امكاناتهم فيكتسون بقماش من حرير ابيض . ويلبسون ثيابا طويلة وعريضة تغطي الظهر وتنسدل حتى الاقدام ، وذات أكمام طويلة جدا وعريضة جداً شبيهة بكتونات الرهبان . ويعتمرون فوق الرأس بقلنسوة ذات قمة حادة ويلفون الرأس والقلنسوة بقماش من كتان ناعم للغاية طوله خمسة وعشرون أو ثلاثون ذراعا . كما يحملون ايضا قطعة أخرى من الكساء وهي نوع من وشاح يتدلى من الخلف ، يماثل الوشاح الذي يضعه الشماس عندما يساعد الكاهن في القداس الكبير ويحمل كلهم تقريبا ، وعموما فوق اليد ، أو فوق الكتف ، منديلا مقلما من قطن مصبوغ .

ويلتزم المسلمون في كل السنوات بصوم يبدأ في اول شهر قمري من العام ، ويقع في شهر أيلول (كذا) ، والذي يدوم ثلاثين يوما . ويظلون طول النهار دون طعام او شراب ، وثم في المساء ، عندما تظهر النجوم في السماء ، يأخذ كل واحد منهم بأكل اللحم وكل ما يروق له ، يأكلون طيلة الليل . . . (؟) وفي نهاية الايام الثلاثين ، وعندما يرون الهلال الجديد ، ويحتفلون بعيد كبير جدا . ويجتمعون في اكبر ساحة في المدينة ، وعندها يأخذ بعضهم بقرع الطبول ، والنقر على الدفوف وآخرون ينشدون ايضا ، ويرقصون ويأكلون ويلعبون بالصنج ، في حين يرفع البعض أوزانا ضخمة بقوة أذرعتهم ، وتستمر هذه الافراح مدة ثمانية أيام وتمتد شطرا كبيرا من الليل . ويظل كل طهاة المدينة ، خلال شهر الصوم ، في دكاكينهم طيلة الليل منهمكين في بيع اللحم والاطعمة الاخرى لأن المسلمين لا يطهون الطعام في منازلهم ابدا .

وفي خارج القاهرة أو على مسافة عشرة أميال تقع أنبار فرعون ...

ولنتكلم الان عن جمال ونبل القاهرة ، وعن عظمتها وعن كثرة السكان الذين يسكنون فيها ، وعن عاداتهم وعن جلال السلطان :

يتجاوز طول القاهرة اثني عشر ميلا ، ومحيطها نحو ثلاثين ميلا . وهي ليست محاطة بسور ، بيد ان النيل يجري على طرفيها ، ويكون الطرف الثالث محفوفا بخندق . وتلعب بيوت السكن العالية جدا دور الاسوار . وقد روى لي نصراني اسمه سيمون من كانديا(٤١) والذي كان وجوده هنا لعقد صفقات تجارية ، ان المدينة تحوي اكثر من ثلاثمائة ألف نسمة ، يكون أكثر من خمسين ألف منهم دون بيت ولا يسترهم سقف يتظللون فيأه وينامون فيالليل فوق دكات لان المطر لا يهطل ابدا في القاهرة ويكون الطقس فيها شديد الحرارة جدا(٤٧) . وهناك من ناحية اخرى أكثر من عشر آلاف رجل من العراة باستثناء فوطة حول خصرهم . وقد روى لي هذا التاجر نفسه انه خلال طاعون ١٤٧٢ هلك بالقاهرة العديد من الناس أو ١٠٥٠٠٠ شخص في ثلاثة ايام. وتصور الوضع في مثل هذه الحال ، حيث كان يموت فيها عشرة آلاف او اثنا عشر ألف أو ستة عشرة ألف واكثر ، تارة أكثر ، وتارة أقل ، الذين أهلكهم هذا الطاعون الذي استمر قرابة ثمانية أشهر .

وفي المدينة غزارة كبيرة في البضائع من كل الانواع ، ولا سيما التوابل من كل صنف ، تأتي في المحيط الى البحر الاحمر من قطري الهند(٤٨) لتفرغ في مرسى القديسة كاترينا(٤٩)الذي يقع على مسافة خمسة عشر ميلا تقريبا عند حضيض جبل سيناء. وهناك الكثير الوافر من السكر ، الابيض كالثلج ، والقاسي كالحجر ، وهو افضل سكر بالدنيا . وبعد ان تفرغ البضائع في الميناء المذكور ، تحمل على ظهور الابل على الطريق الصحراوي حتى القاهرة ، مما يؤلف رحلة تمتد على ثلاثة عشر يوما لا يرى خلالها اي بيت او سقف ، ولا يظهر سوى الجبل وسهل الرمل المغطى بالحجارة وبالحصباء .

« في مساء الأربعاء ١٩ منه وصباح الخميس ، خرجنا من القاهرة مع كل متاعنا ، وحميرنا وجمالنا ، لمتابعة رحلتنا نحو القديسة كاترينا » .

« وعلى مقربة من القاهرة ، وعلى مسافة ميلين ، على الطريق المباشر نحو دير القديسة كاترينا ، شاهدنا الكثير من الاشياء المدهشة ، واولها نبع من ماء غزير . وهو

عين جميلة جدا ذات مياه رائقة وطيبة ، مقسومة بجدار حيث تشكل ساقيتين احداهما بجانب الاخرى . وقد شيد السلطان فوق النبع بناء جميلا وكبيرا على عادتهم هناك . وهنا يقع بستان السلطان وهو واسع جدا وغاية في الجمال ، مليء بالنخيل والاشجار المثمرة ، وفيه ينتج البلسان الذي لا ينمو في أي مكان آخر . ويعتني بالبستان ويحرسه عدد من الموظفين والمستخدمين يعينهم السلطان، ويقومون بتسجيل محصول البلسان . ويحرص السلطان على ذلك ويتخذ التدابير كيلا يفقد شيء من المحصول . ويقال أن سيدنا المسيح هو الذي فجر هذا النبع بقدمه بناء على توسل أمه(٥٠) عندما هربا من سورية الى مصر مجتازين صحراء بلاء ماء . وكانت سيدتنا عطشى فطلبت من وليدها أن تشرب ، وعندها ضرب المسيح الارض بقدمه وفي هذا النبع قامت سيدتنا مريم بغسل أقمشة وليدها ونشرتها لتجف فوق شجيرات البستان ، التي غدت بعدئذ تنتج البلسان الشافي ..».

الحواشي :

(١) لقد جرى جمع هذه النصوص قبل نشوب الحرب العالمية الثانية كي تكون مساهمة في كتاب كانت« الجمعية الجغرافية الملكية » في مصر تزمع اصداره في ١٩٤١ بمناسبةالعيد الالفي لتأسيس القاهرة . ولكن الظروف حالت للاسف دون نشر الكتاب المذكور ، الذي اخذ المسيو هنري مونييه ، والمسيو غاستون فييت ، من علماء الاثار المصرية ، علىعاتقهما مبادرة الاشراف عليه .

(٢) من المعروف أنه كانت هناك عواصم اسلامية متعاقبة قبل القاهرة . ففي سنة٦٤٠مدخل العرب الفاتحون مصر بقيادة عمرو بن العاص الذي اقتحم بقواته « حصن بابليون » حيث كانت ترابط القوات البيزنطية . وعلى مقربة من هذا الحصن المنيع الذي يقع حالياً في حي « مصر القديمة » أنشأ عمرو مدينة « الفسطاط » لتصبح اول عاصمة لمصر العربية. وفي سنة ٧٥٠م استولى العباسيون على مصر وانشأوا عاصمة جديدة سموها « مدينة العسكر ». وكانت هذه العواصم الثلاث متقاربة ، تكاد حدودها تتداخل وتتلامس وان كانت جميعها دون اسوار ولا تحصينات دفاعية ، الى أن قدمت جيوش المغاربة الفاطميين الى مدينة «الجيزة» الواقعة على ضفة النيل الغربية، في مواجهة تلك العواصم الاسلامية الثلاث التي تقع جميعها على الضفة الشرقية القديمة . وفي ٦/٦/٩٦٩م استولى جوهر الصقلي على العواصم الثلاث . ورابطت القوات المغربية في الارض الخلاء الواسعة التي يشرف عليها جبل المقطم في الشرق ، ويحدها من الغرب قناة متفرعة من النيل تحمل اسم « الخليج المصري » كانت تصل بين العواصم المصرية الاسلامية وبين مدينة القلزم (السويس حاليا) على البحرالاحمر. وهذه القاهرة دعيت «قاهرة المعز لدين الله».

(٣) مؤرخ الحروب الصليبية . ولد في سوريا حوالي ١١٣٠م ومات في ١١٨٦ وكان بطريرك صور وقد ترك حوليات عن الشرق اللاتيني في القرن ١٢م .

(٤) والتي سموها فعلا « بابيلون الجديدة » لتمييزها بوجه الدقة عن بابل الاشوريين الشهيرة برج بابل .

(٥) لقد تمت ترجمة هذاا لنص عن الانكليزية بقلم الكان فالان أدلر «الرحلة اليهودية» . لندن ١٩٣٠، ونقابله نحن مع ترجمة أقدم للحصول على بعض التفاصيل ، وهي ترجمة بيير برجرون. عنوانها « رحلة بنيامين الطليطلي » في رحلات تمت في اسيا بشكل خاص خلال القرن١٢، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، مع مقدمة بقلم بيير برجرون ذاته . لاهاي ١٧٨٥ .

(٦) احد انهار الجنة الارضية الاربعة ، كما جاء في سفر التكوين وهي : النيل والفرات وسيحون وجيحون .

(٧) يبدو هذا الرقم مبالغا فيه ، لان برجرون يقول : ٢٠٠٠ نسمة لا غير .

(٨) اي يعقوب عليه السلام ونسله .

(٩) اي هيكل السوريين أو الفلسطينيين .

(١٠) ويقول برجرون أن الكنيس الثاني يدعى فيرهاكوم .

(١١) حسب ترجمة برجرون : « ناثانائل ، هو رئيس المجمع ، ويراس كل جامعات مصر ، وهو الذي يعين الاساتذة وكذلك مديري أملاك الكنس ».

(١٢) زوان اسم عبري لمدينة تانيس Tanis القديمة وتدعى اليوم صان الحجر في مصر السفلى .

(١٣) نسبة الى الامام علي ابن عم الرسول (صلعم) وصهره ، والذين ينتسبون للشيعة. أما برجرون فيقول : يطلق على السكان اسم « موريديم » أي المتمردين .

(١٤) يقول برجرون : لقد أقام الاول بلاطة في قصر زوان الذي يستحقه اكثر بسبب موقع المكان، أي قلعة صلاح الدين .

(١٥) أي عيد الفطر ..

(١٦) ذاك هو مقياس النيل nilomètre في جزيرة الروضة . ويقول برجرون :«لقد حرص القدامى على اقامة عمود ، في الجزيرة التي يشكلها النيل ، يزيد ارتفاعه عن اثني عشرة ذراعا والذي يكون من المعتاد ان يرتفع الماء حتى سويته .

(١٧) أي كل الدلتا .

(١٨) كانت السمنة من مظاهر الصحة الجيدة، وحتى عهد قريب منا كان يقال : « كرش الوجاهة » .

(١٩) الفرسخ ٤ كم .

(٢٠) أي الاهرام . وكان يعتقد أنها عنابر لتخزين الحبوب تحسبا للمجاعات الدورية .

(٢١) يحفل التاريخ بالحكام الذين استنجدوا بالعدو للتشبث بكراسيهم ، أليس امرؤ القيس من أوائلهم عندما قصد قيصر بيزنطة للاستعانة به على مغتصبي كرسيه في قلب الجزيرة العربية ، ويغص تاريخ الاندلس بمثل هذه التحالفات المشينة التي قادت لخروج العرب من شبه الجزيرة او صهرهم بمحاكم التفتيش .

(٢٢) ترجم للفرنسية في القرن ١٣ تحت عنوان « كتاب فتح الارض المقدسة » أو « تاريخ هرقل ». نشر دار بولاق . باريس ، لدى دار فيرمان ديدو ١٨٧٩ . وعمل غليوم الصوري في فترة ١٠٩٥ ـ ١١٤٣ اعتمادا على مؤرخين سابقين ، ولكن للفترة ١١٤٣ حتى ١١٨٤ وهي سنة وفاته ، فقد كان عمله ذا أصالة .

(٢٣) نشره بونغراس . هانوفر ، سنة ١٦١١م.

(٢٤) وهذا خطأ من جانب الكاتب .

(٢٥) هذه الشهادة مدعاة للفخر عن التسامح العربي بالموازنة مع مذابح القدس عند دخول الفرنجة وما كان يفعله متعصبوا الاسبان بالاندلس من تذبيح وتهجير ومحاكم تفتيش تقشعر لفظاعتها الابدان .

(٢٦) جرى املاء هذا الكتاب بالفرنسية ، ولكنه ترجم الى اللاتينية في ١٣٠٧ ، واعيدت ترجمته الى الفرنسية ، ونشره بيير برجرون في كتابه « رحلات تمت خاصة في الشرق»

وتحت عنوان « التاريخ الشرقي » أو تاريخ للرهايتون . نسيب ملك ارمينية والذي يضم أولا : وصف موجز ولطيف لبضعة ممالك وبلاد شرقية ، حسب الوضع الذي كانت عليه حوالي العام ١٣٠٠ ، ثانيا : رواية الكثير من الامور الهامة التي انتابت شعوب هذه البلاد واممها وقد تمت كتابة المجموع بيد نيكولا فالكون ، وترجم حسب النص اللاتيني من قبل آندرية موللر غريفنهاغ .

(٢٧) تسمد بالطمي .

(٢٨) كتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب يصف مصر : « حتى اذا بنتسقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى وبعد أن كانت الارض غبرة سوداء تصبح وبر جدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء » .

(٢٩) « حج الراهب الاوفسطيني جاك دوفيرونا » نشر رينهولد رويخرنشيت في مجلة « الشرق اللاتيني » عام ١٨٩٥ . وفيرونا مدينة قرب البندقية على نهر الاديج (٢٧٥٠٠٠نسمة).

(٣٠) وهنا يخلط المؤلف بين النيل و «الخليج » وهي ترعة تجتاز القاهرة .

(٣١) وهو الجير في مصر والشيد في فلسطين .

(٣٢) أي في القاهرة وحاليا اكثر من ٢ مليون .

(٣٣) نشر كارلو مورد كشيني . روما ١٩١٨ .

(٣٤) Resette ? أورشيد .

(٣٥) وهو برقون الذي حكم من ١٣٨٢ و ١٣٩٩م وكان شركسيا ، اذ كانت تطلق عبارة بلاد اليونان على كل الاقطار التي تدين بالارثوذكسية .

(٣٦) ميناء على الادرياتيكي ، عاصمة اقليم ماورش ١١٠٠٠٠ نسمة .

(٣٧) أي باتجاه الصعيد ، أو باتجاه المنبع أو amont بالفرنسية upstream بالانكليزية .

(٣٨) وجاء اسمه من اسم بلاد بلخشان ، قرب سمرقند ، حيث كان يستخرج هذا الصنف من الياقوت .

(٣٩) يقصد الاهرام .

(٤٠) كان السلاطين من بعد برقون يسكون دنانير ذهبية . فقد أصدر السلطان فرج الدينار الناصري والمؤيد المؤيدي ، وبرسباي الدينار الاشرفي . وتلك الدنانير طليعة القطع الذهبية المصرية .

(٤١) ربما يريد ان يقول من هجرة الرسول (المترجم) .

(٤٢) ويظهر هنا جهل فاضح لان الاذان خمس مرات وليس أربع وعشرين مرة .

(٤٣) ويذكر غوكشي دي دينو أن رجل الدين هذا يدعى نيكولا داكورينو ، وانه كان بندقيا . ولد في كاندي في كريت التي كانت من ممتلكات البندقية ، وهو حارس القدس .

(٤٤) وهي زوجة ليون السادس دو لوزينيان ، اخر ملك في منطقة كليكيا الارمنية ، وقد اقتيدت مع زوجها بعد سقوط سيس عاصمة مملكته في ايدي قوات السلطان في عام ١٣٧٥ .

(٤٥) دار فيرنزة سنة ١٨٦٢ .

(٤٦) عاصمة كريت واسمها الحالي هيراكليون على الساحل الشمالي وسكانها ٧٨٠٠٠ نسمة

(٤٧) ليس من المستغرب ان ينفي الاجانب عن القاهرة ظاهرة المطر لانهم لم يصدف كما يبدو ان زاروها في الشتاء لان معدل مطرها السنوي يعادل ٢٥ مم .

(٤٨) أي الهند والهند الشرقية (اندونيسا).

(٤٩) ميناء الطور .

(٥٠) وهنا مقاربة مع قصة انبجاس مياه زمزم تحت قدمي اسماعيل عليه السلام على اثر شدة الظمأ الذي اشتكى منه وامه هاجر زوجة ابراهيم عليه السلام.

نظــرة في بعض وثائــق عقــود الزواج مــن القــرن الثــالث الهجــري

د. فالــح حســين
الجامعــة الاردنيــة

تعتمد هذه الدراسة على بعض وثائق عقود الزواج التي عثر عليها في مصر ، والتي تعود الى فترة مبكرة نسبيا هي القرن الثالث الهجري،واحداها تعود الى القرن الثاني، وقد عثر على أغلبها بصورة جيدة وبعضها شبه كامل . وفي دراستها محاولة لتوضيح فكرة بعض شروط الزواج من خلال ما أوردته وثائق هذه العقود . ولن يتركز الاهتمام في بحث ما هو صحيح أو خطأ ، بل تصوير حالة اجتماعية من خلال الشروط الواردة . بغض النظر عن الآراء الفقهية سواء توافقت مع الشروط أو تعارضت معهــا . أي ان البحث غير معني بفكرة الافتاء أو البحث عن المسوغ للشروط فهذا أمر متروك للفقهاء ، ولكن الشروط تعني بنفس الوقت حقيقة مرونة التطبيق بغض النظر عن صحة او عدم صحة الشرط ، فالاصل في النظم الاجتماعية هو الواقع العملي .

هنا نجد الحديث عن المهر المؤجل والمهــر المعجل ، كما نجد تحديد قيمة المهــر وكيفيه دفع المؤجل منه . فالمهر المؤجل يعني هنا ما نفهمه اليوم بمبدأ تقسيط المهــر وهو أمر غير معروف عند المسلمين اليوم في التطبيق اذ أننا نستطيع ان نقول وبوضوح أن الغاية من المهر المؤجل كما تدل نصوص الوثائق التي بين أيدينا هي تسهيل عمليــة الدفع على الزوج حفظا لحق محدد للزوجة في مهرها ، اي كأنــه تأجيل لدفع ديــن استحق للزوجة على الزوج بشكل لا يقبل أي تفسير آخر ، اذ تحدد الوثائق الاقساط كما تحدد مواعيد الدفع ، وبالتالي يتوضح الهدف أو القصــد الذي من أجله أجّل قسم من المهر ــ المهر المؤجل ــ والذي يختلف عما يفهمه أهل عصرنا اليوم من ان المهر المؤجل كما يقال لتقييد الزوج أو لضمان حق الزوجة في حالة طلاقها منزوجها ، بينما هو في الوثائق لتحديد حق وواجب الدفع مع استمــرار رابطة الــزواج ولا علاقــة له (بالعقاب) الذي يفهم من المهر المؤجل هذه الايام ، اذ يبدو انه حق للزوجة تطالب بــه حالة الطلاق ، وكأنه عقاب للزوج عند طلاقه زوجته .

دراســات تاريخيــة ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، اذار ــ حزيران ١٩٩٤

ومن اللافت للنظر اغفال كثير من كتب الفقه الحديث عن المهر المؤجل وحكم التأجيل وسببه اللهم الا الاشارات التي وردت لدى مالك بن أنس — امام أهل المدينة — في المدونة الكبرى(١) .

ونجد أيضا في وثائق العقود بعض الشروط التي تحدد العلاقة بين الزوج وزوجته في حالة زواجه من زوجة اخرى ، وشروطا حول العلاقة بين الزوجة وأهلها على سبيل المثال ، كما نلاحظ كثرة عدد الشهود احيانا .

ولا شك ان الاسلام نظر الى الزواج والعلاقة الزوجية نظرة احترام وتقدير وشجع على اقامة هذه العلاقة على اساس المودة والرحمة المتبادلة قال تعالى ((**ومن اياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة**))(٢). وحث على أن تكون العلاقة علاقة معروف وفي حالة تعذر ذلك اباح التفريق بين الزوجين ((**فامساك بمعروف او تسريح باحسان**))(٣) .

ومن شروط عقد الزواج المهر او الصداق الذي جعل حقا مخصصا للزوجة ، زاد أو نقص ، قال تعالى ((**واتوا النساء صدقاتهن نحلة**))(٤) وبين لسان العرب معنى كلمة نحلة انها فريضة أو ديانة أو عطية أو هبة ونحل المراة مهرها تقول أعطيتها مهرها نحلة اذا لم ترد منها عوضا ، أما كونها فريضة أو ديانة كقولنا ينتحل كذا وكذا اي يدين . وقيل نحلة أي دينا أو ديانة (وقال بعضهم هي نحلة من الله لهن ان جعل على الرجل الصداق ولم يجعل على المراة شيئا من الغرم فتلك نحلة من الله للنساء أي فريضة أو هبة) فهي هبة من الله للنساء وفريضة لهن على الازواج(٥) .

كما اشترط الاسلام نكاح النساء باذن اهلهن ، قال تعالى ((**فانكحوهن باذن اهلهن واتوهن أجورهن بالمعروف**))(٦) ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نكاح الا بولي »(٧) ورأى كثير من العلماء ان في الاية الكريمة ((**وانكحوا الايامى منكم**))(٨) شرطا من شروط الولاية لان الخطاب كان للرجال دون النساء بتولي النكاح(٩) .

وللاطلاع على بعض ما ورد من شروط في وثائق عقود الزواج نثبت الوثيقة التالية بنصها الكامل وهي تعود الى ربيع الاول سنة ٢٥٩هـ .

١ — بسم الله [الرحمن الرحيم]

٢ — [هـ] ـذا ما اصدق اسـ [معيل مولى احمد] بن مروان القرشي بمدينة اشمون عايشه

٣ ـ [ابـ] ـنت يوسـف التـا [كنة بمدينـة اشمون عندما خطبهـ] ـا الى نفسـه
وهـ [ي ا] مراة ايم بالغ بعد ان فو [ضت].

٤ ـ [امـ] ـرها الى جده [ـا يعقوب] بن اسحق ال [و] واشهدت له شهود ؟

٥ ـ بتوكيلها اياه فقبل وكـ [الته] ا وانفذ [نكاحها واصدقه] ـا اسـمعيل مولى

٦ ـ [ا] حمـد بن مروان القرشي اربعـة دنانير مثاقيل طرا(١٠) جيـاد وازنـة
يعجل بها

٧ ـ [ا] سمعيل دينرين مثقالين نقدا حالا معجـلا ويبقى لعا [يشة] ابنت يوسف

٨ ـ على زوجها اسمعيل مولى احمد بن مروان دينرين مؤخريـن الى [خمسـة] ؟
سنين

٩ ـ أولهم ؟ شهر ربيع الاول سنة تسع وخمسين وما يتين وشرط اسمعيل مولى

١٠ـ احمد بن مروان لامرته عايشة تقوى الله العظيم بحسن الصحبة والمعاشرة .

١١ـ كما امر الله عز وجل وسنة محمد صلى الله عليه وسلم على

١٢ـ الامساك بالمعروف أو التسريح بالاحسان وشرط اسمعيل .

١٣ـ مولى احمد ان كل امراة يتزوجها على امراته عايشة ابنت يوسف .

١٤ـ [ثقام] تلك المرأة بيد عايشة تطلق كيف شـ [ـات] من الطلاق .

١٥ـ وولي عقدة هذاالنكاح يعقوب بن اسحق فقبل الوكالة وانفذ

١٦ـ النكاح ورضي اسمعيل بالمهر المعجل والمؤخر والشروط المسمات ؟

١٧ـ في هذا الكتاب والزم نفسه في صحة عقله وبدنه وجواز

١٨ـ امره لا علة به من مرض او عرة في شهر ربيع الاول سنة تسع

١٩ـ وخمسين ومايتين وشـ [ـهد على] ذلك (١١) .
ومن النص السابق يبدو جليا :

١ ـ ان الرجل خطب المرأة الى نفسه وهي (امراة ايم بالغ) ثم فوضت امـر زواجها الى جدها وهـو وليها ، (والايم من النسـاء التي لا زوج لها بكـرا كانت أو ثيبا)(١٢) مع ان مالكبنا نس اورد في الموطأ حديثا عن رسول الله صلى الله عليهوسلم قال (الايم احق بنفسها من وليها والبكر تستأذن في نفسها واذنها صمتها)(١٣) ممـا

يشعر ان الايم تعني الثيب وهي التي احق بنفسها في حين ان البكر تستأذن قبل موافقة وليها . وفي الوثائق وردت عبارة (ايم بالغ تلي نفسها)(١٤) ، (ايم بالغ بكر)(١٥).

مما قد يشعر أن عبارة ايم كانت تستخدم للثيبات ، خاصة مع ورود عبارة (تلي نفسها) في وثيقة رقم (٤٠) السابقة ، ويرى الطحاوي ان من شروط العقود مع النساء ان يكتب عند ذكرها في الشهادة (وهي امرأة بالغ) لان البلوغ مما يخطيء عند النساء (لخفاء أمور النساء فيه)(١٦) فهو اذن لم يتطرق لكلمة ايم ، بكر ، ويبدو لنا أن ورود كلمة ايم هنالايقصدبها تحديد البكارة أو الثيوبة بل لتقرير ان المرأة لا زوج لها لان التأيم ، (المكوث من دون زواج للرجل أو المرأة والايم من النساء البكر والثيب اذا لم يكن لها زوج)(١٧) في حين أن الثيب هي التي تزوجت وفارقت زوجها لاي سبب وهي بهذه الحالة عكس البكر وهي التي لم يسبق لها الزواج(١٨) وفي كلتا الحالتين البكر والثيب فانها لا تزوج نفسها بل يزوجها وليها . وذكر مالك بن عمر بن الخطاب(لا تنكح المرأة الا باذن وليها أو ذي الراي من أهلها أو السلطان)(١٩) .

وبينا فيما سبق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا نكاح الا بولي) أي أن المرأة لا تزوج نفسها على كل حال ، وهذا ما نجده فعلا في الوثائق التي بين أيدينا(٢٠) وفي حالة عدم وجود الولي من أب أو اخ أو جد أو من يتولى من عصبة المرأة تزويجها فان القاضي نفسه كان يعلن ولياً للزوجة . وهذا يذكر بما رواه مالك عن عمر بن الخطاب آنفا (٢١) لكننا اضافة لذلك لدينا ما يثبت ذلك وثائقيا فقد جاء في عقد زواج يعود لفترة متأخرة نسبيا سنة (٤٦١) هـ ما يلي : ـ

(وولي تزويجها اياه بذلك الشيخ ابو الفضل العباسي بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضي أبو القاسم عبد الله بن علي بن عبد الرحمن خليفة القاضي أبي الحسن مسرة بن عبد الله على الحكم والصلاة والخطابة والقضاء والمظالم بمدينة اشمون واعمالها . .)(٢٢) . ونجد في احدى الوثائق(٢٣) ما يشعر لاول وهلة وكأن الزوجة كانت تلي نفسها أي أنها زوجت نفسها بنفسها دون ولي . ويظهر ذلك من وصفها سطر ٣ـ٤ (وهي اذ ذاك امرأة بكر بالغ تلي نفسها ومالها) ولكن متابعة النص تبين بوضوح أن والدها هو الذي تولى تزويجها وورد ذكره (القاسم بن عبيد الله الولي) سطر ١٠ ووردت وكالتها بشكل أوضح سطر ١٣ (على اقرار رحمه ابنه قاسم ورضاها بوكالة قاسم بن عبيد الله يزوجها من عبد الله بن محمد الزوج ورضاه بالو[كا]لة بها) ولذلك يفترض فهم العبارة الاولى بمعنى ان لها حرية التصرف بمالها وشخصها أي ان لها استقلاليتها الشخصية والمالية تتصرف دون قيد من احد ، لان الفهم انها ولية نفسها بشأن الزواج مناقض لما هو معروف في عقود الزواج الاخرى .

٢ ــ حدد المهر بأربعة دنانير المعجل منه والمؤجل وكان المؤجل نصف المهر ، وقد حددت المدة المؤجلة هنا بخمس سنين (سطر ٧ــ٩) . ونجد مثل هذا التحديد في بقية الوثائق دون التقيد بالمدة نفسها اذ الاجل يتفق عليه ، اما عن فترة التأجيل فقد تصل الى عدة سنوات ولكنها قد تقتصر لبضع ليال . فقد ورد في احدى الوثائق ان دفع المؤجل عن المهر وهو ثلاثة دنانير يجب ان يتم دفعه في خمس ليال متعاقبة ابتداء من تاريخ عقد الزواج في حين ان المعجل من المهر دينار واحد من أصل مجموع الصداق وهو أربعة دنانير (وأخرت الثلاثة دنانير الباقي مهرها عليه الى انقضى (خمسة) ليلى/ متواليات أولهن تاريخ هذا الكتاب)(٢٤) .

ويبدو ان هذه الحالة استثنائية ، خاصة وان الرجل كان قد استرجع زوجته بهذا المهر بعد ان كان قد طلقها طلقة واحدة (سطر ٥ــ٦) . وفيما يتعلق بقيمة المهر الصداق ، فنجده مختلفا اختلافا بينا في وثائق عقود الزواج ، وقد ذكر مالك بن انس اقل المهور هو ربع دينار (٢٥). وذكر السرخسي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا مهر في أقل من عشرة دراهم (٢٦) أي ان الحد الادنى للمهر هو عشرة دراهم ويساويه دينار واحد فيذلكالوقت. وبالفعل فان قيمة المهر مختلفة بشكل واضح لان ذلك يرجع الى وضع الافراد ، واقل ما عثر عليه في الوثائق البردية كان دينارا واحدا في الوثيقة (رقم (P. Berol. 8217) ، ويبين جروهمان ، وهو اشهر من عمل في نشر الوثائق البردية العربية ، ان اقصى ما وقفت عليه من قيمة الصداق ما ورد في عقدي الزواج المحفوظين في دار الكتب المصرية تحت رقم تاريخ ١٧٣٥/٣ ، ١٧٣٥/٤ هو ٨٠ دينارا(٢٧) وفي اغلب الاحيان يدفع نصف المهر معجلا كما هو حال العقد الذي بين ايدينا(٢٨) .

٣ ــ اشترط الرجل على نفسه حسن الصحبة والمعاشرة على الامساك بالمعروف أو التسريح بالاحسان كما يطلب الكتاب والسنة وهذا مقتبسعن الاية الكريمة(فامساك بمعروف او تسريح باحسان)(٢٩) .

٤ ــ أعطى الرجل ، الزوج ، شرطا على نفسه لزوجته أن يكون امر كل امرأة يتزوجها بعد زواجه منها بيد زوجته هذه ولها ان تطلقها اذا شاءت ، وهذا الشرط يتكرر في وثائق اخرى وبلهجة اكثر تحديدا ووضوحا ، اذ يشترط الزوج في وثيقة تعود لسنة ٢٧٩هـ على نفسه ان اية زوجة يتزوجها مسلمة كانت [او] ذمية فامرها بيد امرأته هنيدة ابنت اسحق تطلقها عليه ما شاءت من الطلاق [جايز] عليه ولازم له وكل جارية يتخذها عليها . يكون بيعها بيد امرأته هنيدة ان شاءت عتقت وانشاءت باعت فعتقها وبيعها جايز عليه ولازم له (٣٠) .

ونجد مثل هذا الشرط ايضا في وثيقة تعود للقرن الثاني الهجري اي سابقة لهذه الوثيقة بحوالي القرن بشكل واضح مما يشعر ان مثل هذا الشرط كان متعارفا عليه من قبل اذ يرد في نص العقد ان الزوجة مريم بنت اسماعيل لها مثل هذا الحق (فان تزوج عليها .. تزوجها عليها بيد امرأته مريم ابنت اسمعيل ان شات طلقت ولن شات امسكت .. السرية بيد امرأته مريم بنت اسمعيل .. شات باعت وان شات وهبت وان شات صدقت)(٣١) .

وهذا الشرط يبدو متناقضا مع ما يذكره مالك بن انس في الموطأ عند حديثه عن شروط الزواج اذ يقول (فالامر عندنا انه اذا شرط الرجل للمرأة وان كان ذلك عند عقدة النكاح ان لا أنكح عليك ولا اتسرر ان ذلك ليس بشيء الا ان يكون في ذلك يمين بطلاق أو عتاقة فيجب ذلك عليه ويلزمه)(٣٢) . ولكن اشارة مالك هذه تدل على رفضه لمثل هذا الشرط الذي يبدو أنه كان معروفا في ايامه . ولكن وثائقنا لا تذكر اشتراط الرجل على نفسه وحسب بل تجعل امر النساء او السراري الاخريات بيد المرأة التي يذكرها العقد ، أي انه يذهب ابعد مما قصد مالك ويثبته في العقد .

٥ ــ يبدو ان المرأة هي التي تتولى القبض والابراء منه فيما يتعلق بتسليم المعجل او حفظ حقها من باقي المهر المؤجل وهذا يتضح من النصوص التي تبين اقرار الزوجة نفسها بالقبض (اقرار أم علي زوجة جبريل بن جعفر أنها قبضت من زوجها جبريل ... عن معجل صداقها وحازت وأبرءت زوجها ... من هاذين ؟ الدينرين)(٣٣) . (شهد الشهود على اقرار قطامة ابنت نصر .. انها قبضت من زوجها .. معجل صداقها(٣٤) . وهذا يوضح أن المرأة شخصيا معنية بالقبض ولها يحفظ الحق المؤجل ويشعر ذلك بشخصية المرأة واستقلاليتها المالية .

٦ ــ يبين نص العقد مسؤولية الرجل ، الزوج ، عما في العقد وانه كان عندما ألزم نفسه بالشروط كامل الاهلية القانونية في الصحة والعقل والبدن (في صحة عقله وجواز امره لا علة به من مرض أو عره) سطر (١٧ــ١٨) .

٧ ــ ثم يحمل العقد التاريخ الذي كتب به وهذا نجده في جميع العقود دون استثناء .

٨ ــ خلو النص الذي بين أيدينا من الشهود لا يعني عدم وجودهم بل يفترض ذكرهم في ورقة منفصلة(٣٥) بل اننا نلاحظ المبالغة في ذكر اسماء الشهود أحيانا كما هو الحال في وثيقة عقد الزواج رقم ٣٩ لسنة ٢٦٤ هـ الذي يعدد أسماء وشهادات ستة

عشر شاهدا(٣٦) ، وفي وثيقة الزواج رقم ٤١ سنة ٢٧٩ وهو على الرق كان عدد الشهود خمسة وكتبت شهاداتهم بأيد مختلفة مما يشير الى أن كلاً منهم كتب شهادته بخط يده ، وهنا نود أن نذكر ان عبارة (كتب شهادته) أو (كتب بخطه) امر كثير الوجود في مثل هذه الوثائق(٣٧) .

٩ ـ وقد ترد في عقود الزواج شروط اخرى متعلقة بالعلاقة بين الزوجة واهلها بعد الزواج مثل (ولا يمنعها من أهلها ولا يمنع أهلها منها) وان لم يرد هذا الشرط في الوثيقة التي ذكرنا نصها هنا ، الا أننا نجده يتكرر في وثائق اخرى وفي وقت مبكر يسبق هذه الوثيقة ، ومثل هذا الشرط يحفظ حق الزوجة في استمرار علاقتها بأهلها في عقد الزواج ، وهي ليست حالة فردية لأنا نجد مثل هـذه العبارة متكررة وبنفس النص غالبا مما يشعر بتداول هذا الشرط غالبا(٣٨) .

وقد تحرر وثيقة منفصلة عن عقد الزواج (براءة) تعترف بها المراة بما وصلها من زوجها من مهر معجل أو بما قبضت من المؤجل لاحقا . وفي هذه الحالية يتبين لنا ان مثل هذا الاقرار كان يكتب على نسختين كما يبدو من المثال التالي : ـ

١ ـ نسـ[خـ]ت .

٢ ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

٣ ـ شهد من اثبت شهادته في آخر هذه البراءة على قرار ام ع [ـ] زوجة جبريل بن جعفر الجدي انها

٤ ـ قبضت من زوجها جبريل بن جعفر دينارين مثاقيل (طري [جيا]د عن معجل صداقها وحازت ـ وابر[ء]ت ؟ زوجها جبريل بن جعفر

٥ ـ من هذين الدينارين براة قبض واستيفا وذلك في رجب من سنة سبع وتسعين ومايتين شهد على ذلك .... (٣٩) .

وتمثل مثل هذه الوثيقة مدى استقلالية شخصية المراة الاجتماعية والمالية حيث كتبت البراءة باسم المراة واقرارها لاثبات حق الزوج بالدفع واقرار زوجته بالقبض بشهادة الشهود ، كما تبين بشكل واضح أن البراءات (الصكوك) الخاصة كانت تكتب على نسختين يحتفظ كل من طرفي العقد بنسخته الخاصة(٤٠) ويبين الطحاوي في كتاب الشروط الصغير الذي يمثل اقدم ما وصلنا في فقه الشروط اي توثيق المعاملات والعقود ان مثل هذه الكتب تبدأ ب (هذا ما شهد عليه الشهود المسمون في هـذا الكتاب)(٤١) .

ثم ينسق الكتاب حتى يؤتى على تاريخه . أي ان هذه العبارة ترد في صدر الكتاب قبل النص ، والطحاوي قريب جدا بل هو معاصر لتاريخ كتابة هذهالنصوص التي بين ايدينا كما انه مصري ايضا .

وقد يكتب بالمبلغ المؤجل من صداق المرأة صك (ذكر حق) على زوجها وبذا فانه يكسب شرعية الدين للمرأة على زوجها ، ويكتب منفصلا عن عقد الزواج كما في الوثيقة التالية :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

٢ ـ ذكر حق يونة ابنت حليصي على زوجها يزيد بن قاسم

٣ ـ الجرار عليه عشرة الدنانير ؟وزن المثاقيل الجديد عينا

٤ ـ ذهبا نقد جيد وهذا ؟ العشرة الدنانير ؟ حالة

٥ ـ ليونة ابنت حليصي على زوجها يزيد بن قاسم الجرار

٦ ـ والعشرة الدنانير ؟ بقية صداقها ومن قام بالذكر الحق

٧ ـ اقتضاه ومن احالت عليه اقر لها بحقها شهد على ذلك

٨ ـ اليسع بن عيسى وهو كاتب الصك وشهادته في انسلاخ

٩ ـ صفر سنة ثلث وثلثين ومايتين ..(٤٢) .

ثم تستمر الوثيقة بذكر الشهود وهم سبعة وعشرون شاهدا وقد كتبت بعض الشهادات في وقت لاحق سنة ٢٤٥ في شوال وذي الحجة (سطر ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤) وبعضها كتب في نفس العام ولكن بتاريخ لاحق لتاريخ الصك (سطر ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٤ شهر ربيع الاول) ويبين الطحاوي صيغة كتابة وثيقة ذكر الحق عموما كمايلي:

(ذكر حق فلان بن فلان الفلاني على فلان .. شهد على اقرار فلان .. يعني المطلوب وفلان .. يعني الطالب بجميع ما سمي ووصف في هذا الكتاب ثم تنسيق الشهادة عليهما)(٤٣) .

وذكر الحق هو الصك والجمع ذكور حقوق ويقال ذكور حق أي صكوك(٤٤) . واورد الطحاوي ضمن صيغ كتابة مثل هذه الذكور حق (من قام بهذا الذكر حق فهو ولي ما فيه)(٤٥) .

ومما يلفت الانتباه ان احدى وثائق عقود الزواج تحمل اسـماء نصرانية (قبطية) لكلا الزوجين مما يحمل على الظن انه عقد زواج بين نصارى واذا كان كذلك فان النص يشبه الى حد كبير عقود الزواج الاخرى التي كانت عقود زواج اسلامية مـن حيث الشروط العامة للعقد كالمهر المعجل والمؤجل ووجود الولي كما نجد اشارة الى تقوى الله واحسان صحبة الزوجة ، ولكن ليس هناك اشارة (لامر الله ورسوله او الى فكرة الامساك بالمعروف او التسريح باحسان مثلا وربما لان فكرة الطلاق عند النصارى غير وارده في ذلك الوقت ونرى من المفيد اثبات نص وثيقة العقـد التي تعـود لشعبان سنة ٢٧١ هـ .

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم

٢ ـ هذا ما اصدق يحنس بن شنودة الساكن بمدينة اشمون دروا ابنت

٣ ـ شنودة الساكنة مدينة كذا عندما خطبها الى نفسها وهي امراة ايم بالغ تلي

٤ ـ نفسها ..(.. فلان بن فلان البقال واشهدت له شهودا

٥ ـ بتوكيلها اياه في انكاحها) ب فاصدقها اربعة دنانير

٦ ـ عينا ذهبا لمراته قبل اصابته بها ودخوله عليها دينرين نقدا جياد

٨ ـ خمس سنين متواليات اولهن شعبان من سنة احدى وسبعين ومايتين وعليه تقوا

٩ ـ الله وحده لا شريك له واحسان صحبتها وقد اوصل يحنس بن شنودة الدينرين

١٠ـ المعجلين الى امراته دورا (ابنت شنودة ..).. واقرت بوصولهما اليهاوذلك

١١ـ في العشر الاواخر من شعبان سنة احدى وسبعين ومايتين شهد على ذلك

١٢ـ ....(٤٦) .

ونستطيع ان نستخلص من الاستعراض السابق مايلي:

١ ـ ان المهر المؤجل كان في هذه الفترة بمثابة دين مؤجل للزوجة على زوجها ويفترض انه شكل نوعا من التسـهيل على الزوج بالدفـع خاصة واننا نجده مقسـطا دائما بشكل واضح .

٢ ـ ان المراة كانت هي نفسها صاحبة الحق في المعجل والمؤجل من المهر وليس وليها فيصدر القبض والاستبراء منه عنها شخصيا وهـذا يعني الاعتراف العمـلي باستقلال شخصيتها ماليا واجتماعيا .

٣ ـ يبدو ان الزوج كان يخطب المراة الى نفسها اولا ثم يتم توكيل الولي بعد موافقتها لاتمام الزواج تمشيا مع المبادىء الاسلامية.

٤ ـ ركزت بعض الشروط على عدم امكانية تحكم الزوج بعلاقة الزوجة مع اهلها بعد الزواج .

٥ ـ نجد من بين الشروط شرطا يعطي المراة الحق في التدخل في حالة تعدد الزوجات أو اتخاذ السراري وكأنه نوع من الحد من تعدد الزوجات .

٦ ـ هناك تشابه كبير بين نصوص عقد الزواج للمسلمين والنصارى في هذه الفترة.

ولا بد من التنويه في نهاية هذا البحث بان الدراسة التحليلية لهذهالوثائق لايمكن أن تعطي الحكم النهائي في موضوع عقود الزواج وحقوق المرأة ودورها في حياة الاسرة بعامة ، لان النصوص قليلة جدا وتتناول جانبا واحدا من الموضوع وقد يكون هناك سواها وفيه من المعلوماتما يوضح ما ورد فيها، او يخالفه أو يعدله . كما أن في كتب الفقه الكثير ممالابد من الرجوع اليه في هذا المجال بشكل عام . ولكنا حرصنا على عرضها وتحليل ما ورد فيها وما يعطيهمن دلالات واشارات لايماننا بأهمية اعتماد النص المكتوب ، لا سيما اذا كان وثيقة اصلية في كتابة تاريخ امتنا السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري بعامة .

الحواشي :

(١) انظر : مالك بن أنس ، المدونة جـ٢ ص ١٦٠ ـ ١٨٩ طبعة دار الفكر للطباعة والنشر، دون تاريخ ولم يتطرق له فيالموطأ ، انظر : الموطأ، كتاب النكاح جـ٢ ص ٥٢٣ ـ ٥٣٠ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء التراث العربي بيروت ١٩٨٥ . وكذلك الشافعي في الام جـ ٥ كتاب النكاح ص ٣ وما بعدها ، تحقيق محمد زهدي النجار ، مكتبة الكليات الازهرية طبعة أولى ، القاهرة ١٩٦١ ، السرخسي ، المبسوط جـ٥ باب المهور ص٦٢ وما بعدها طبعة دار المعرفة (أوفست) ، ابن قدامة ، المغني جـ ٧ ص ٣٣٧ وما بعدها . دار الكاتب العربي (أوفست) بيروت، ١٩٧٢ ابن عابدين ، حاشية ابن عابدين جـ٣ باب المهر ص ١٠٧ وما بعدها ، طبعة ثالثة ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٨٤ .

(٢) سورة الروم (٢١) .

(٣) البقرة (٢٢٩) انظر (٢٣١) .

(٤) النساء (٤) انظر آية (٢٠) .

(٥) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نحل ج١١ ص ٦٥٠ (طبعة دار صادر ـ بيروت) .

(٦) النساء (٢٥) .

(٧) سيد سابق، فقه السنة، دار الكتاب العربي بيروت ، طبعة ثالثة ١٩٧٧ ج٢ ص ١٢٦ . وقال رواه احمد وابو داوود والترمذي .

(٨) سورة النور (٣٢) .

(٩) سيد سابق ، فقه السنة ج٢ ص ١٢٥ـ١٢٦.

(١٠) اي جديدة الغرب انظر جروهمان في أوراق البردي العربية جـ١ ص ٧٥ .

(١١) انظر جروهمان ، أوراق البردي العربية ج١ ص٧٣ـ-٧٤ عقد زواج رقم (٣٨) يعود لسنة ٢٥٩هـ وكتب العقد على ورقة بردي صفراء وهذا النص لا يحمل أسماء الشهود ويفترض ان شهادة الشهود دونت في صك منفصل وهذا أمر معروف في بعض الوثائق البردية ، انظر جروهمان ، ج١ ص ٧٧ـ٧٨ ولذا فهذا النص لا نقص فيه من نهايته ، وهو كما يبدو شبه كامل لم يفقد منه شيء .

(١٢) ابن منظور — لسان العرب ، مادة ايم ج١٢ ص ٣٩ .

(١٣) مالك بن انس ، الموطأ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر دار احياء التراث العربي بيروت ١٩٨٦ ج٢ ص ٥٢٤ — ٥٢٥ .

(١٤) جروهمان ، ج١ ، ص ٨٥ عقد زواج سنة ٢٧١ .

(١٥) جروهمان ، ج١ ص ٨٨ عقد زواج رقم (٤١) سنة ٢٧٩ .

(١٦) الطحاوي ، ابو جعفر احمد بن محمد ت ٣٢١ هـ .
كتاب الشروط الصغير ، جزءان تحقيق روحي اوزجان مراجعة عبد الله محمد الجبوري ، نشر رئاسة ديوان الاوقاف ، سلسلة أحياء التراث الاسلامي (١١) ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧٤ ج١ ص ١١ وجاء في احدى الوثائق وصف الزوجة انها (ايم بكسر بالغ) انظر :

Grohmann, Arabische Papyri aus den Staatlichen museen zu Berlin, Der lslam (22) 1934 p. 48.

(١٧) انظر ابن منظور ، لسان العرب ، ايم ، ج١٢ ص٤٠ .

(١٨) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ثيب ، ج١ ص ٢٤٨ ، انظر مادة بكر ج٤ ص ٧٨.

(١٩) مالك بن انس ، الموطأ ، ج٢ ص ٥٥٢، انظر الموسوعة الفقهية ج٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ — ١٨٠ طبعة اولى ١٩٨٦ وزارة الاوقاف — الكويت .

(٢٠) انظر عقد زواج رقم ٣٠ مؤرخ بسنة ٢٦٤ ، جروهمان ج١ ، ص ٧٩ عقد زواج رقم ٤٢ يعود للقرن الثالث الهجري ج١ ٩٢ـ٩٣.

(٢١) انظر هامش رقم ٨ (الصفحة السابقة).

(٢٢) جروهمان ، اوراق البردي العربية ، ج١ ص١٠١ عقد زواج رقم (٤٥) سطر ١٢ـ١٥.

(٢٣) الوثيقة رقم (١٠) التي نشرها جروهمان ، في مجلة Der Islam عدد ٢٢ لسنة١٩٣٤ بعنوان

Arabische Papyri aus den Stat-lichen muessn zu Berlin p. 38.

(٢٤) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج١ رقم ٤٥ ص١٠٠ـ١٠١ الاسطر ٨ـ١٠ .

(٢٥) مالك بن انس ، الموطأ ج٢ ص ٥٢٨ .

(٢٦) السرخسي ، المبسوط ج٢ ص ٨١.

(٢٧) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج١ ص ٧٦ يقصد هنا المهور المتداولة على النطاق الشعبي بين الناس ولا يقصد بها الحالات الفردية التي قد نجدها بين الخلفاءوالامراء أو سواهم مما لا ينطبقعلى الحالاتالطبيعية في المجتمع اذ لا قياس على الاستثناء او على الحالات المقصودة هنا .

(٢٨) وكذلك العقد رقم (٤٠ ، ٤٤) ، ص ٨٥ ، ص ٩٧) من المنشور في اوراق البردي العربية ج١ وعقود اخرىمشابهة ضمن اوراق مجموعة برلين رقم ١٢٧٨٩ ، ٧٢١٧ انظر جروهمان ، اوراق البردى العربية ج١ ص ٧٦ — ٧٧ .

(٢٩) البقرة (٢٢٩) انظر ايضا اية (٢٣١) النساء (١٩) الاحزاب (٤٩) .

(٣٠) جروهمان ، اوراق البـردي العربية ج١ ص ٨٩ عقد رقم ٤١ لسنة ٢٧٩ سطر ٨ـ١٠.

(٣١) Grohmann, Arabische Papyri.. Der Islam, (22), 1934, p. 30-31.

(٣٢) مالك بن انس ، الموطأ ج٢ ص ٥٣ .

(٣٣) جروهمان ، اوراق البردى العربية ج١، ص١١٢ رقم ٤٩.

(٣٤) جروهمان ، اوراق البردى العربية ج١ ،ص ١١٤ رقم ٥٠ انظر وثيقة رقم ٤٥ . سطر ٧ـ٩ .

(٣٥) انظر جروهمان ، اوراق البردى العربيـة ج١ ص ٧٧ـ٧٨ .

(٣٦) جروهمان ، اوراق البـردى العربيـة ج١ ص ٨٠ـ٨١ .

(٣٧) Grohmann, Arabische Papyri.. Der Islam, (22), 1934. Nr. 10, p. 37 .

وانظر ايضا ص ٤٠سطر ٢٥،٢٧ حيث اثبت الناشر كلمة Hand Zeichen بالالمانيـة وفعلا يظهر في الاصل (التوقيع) ويعود تاريخ هذا العقد لسنة ٢٩٥ .

(٣٨) انظر مثلا سطر ١٠ من الوثيقة رقم ٨ ..
Grohmann, Arabische Papyri..

ورجح الناشر تاريخ العقد بالقـرن الثاني الهجري وانظر ايضا رقم ١١ سطر ٨ص٤٥ اذ جاء النص (ولا يمنعها من زيارة أهلهـا ولا يمنع اهلها من الدخول عليها). وفيأوراق البردي العربية ج١ ، واعقد زواج رقم ٣٩ لسنة ٢٦٤ هـ سطر ١ ص ٧٨ ، عقد زواج رقم ٤١ لسنة ٢٧٩ هـ سطر ١٠ ص ٨٩نجد نفس النص المشار اليه (ولا يمنعها مـن أهلها ولا يمنع أهلها منها) .

(٣٩) جروهمان ، اوراق البردى العربية ،ج١ص ١١٢ وثيقة رقم ٤٩ لسنة ٢٩٧ ورد فيالاصل تاريخ الوثيقة ٢٩٩هـ ونعتقد انه خطامطبعي. انظر وثيقة رقم ٥٠ ص١١٤ ومضمونها :باقرار قطامة ابنة نصر الفران الساكنة بمدينـة اشمون انها قبضت من زوجها (معجلصداقها الذي عقد به اليها)وتعود للقرنالثالثالهجري

(٤٠) انظر الطحاوي ، ابو جعفر احمد بن محمد ت٣٢١ ـ كتاب الشفعة من كتاب الشروط الصغير ج٢ ص ١١٠٠ ـ ١١٠٢ ,وانظر ج١ ص ٤٥٥ ، ٤٦٤ . وهو جزءان تحقيقروحي اوزجان مراجعة عبد الله محمد الجبوري، نشر رئاسة ديوان الاوقاف ، سلسلة احياء التراث الاسلامي (١١) مطبعة العانـي ، بغداد ١٩٧٤ .

(٤١) انظر الهامش السابق .

(٤٢) جروهمان ، اوراق البـــردي العربية ج١ ص١٠٦ ـ ١٠٨ رقم ٤٨.

(٤٣) الطحاوي ، كتاب الشـــروط الكبير ج١ ص ٤٦٤ .

(٤٤) انظر الزمخشري ، جار الله ابو القاسـم محمود بن عمر (ت ٥٣٨) المفصـل ، تحقيق عبد الرحيم محمود اوفست دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٩ ص ١٤٤ . الزبيدي ، محمـد مصطفى ، تاج العروس تحقيق عبد الكريم الغرباوي ، وزارة الاعلام ـ الكويت ـسلسلة التراث العربي (حا) ١٩٧٢ ط ١ ص ٣٧٩. ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ذكر ج٤ ص٣١٠ .

(٤٥) الطحاوي ، الشروط الكبير ج١ ص ٤٦٥ وانظر الشروط الصغير باب اذكار الحقوق والرهون ص ٤٥٥ ـ ٤٦١ . قارن مع سطر ٦ـ٧ من الوثيقة .

(٤٦) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج١ ص ٨٥ـ٨٦ عقـد زواج رقم ٤٠ سـنة ٣٧١ هـ وهو مكتوب على ورقة بردي (نود هنا ان نشير بوضوح ان الوثيقة او ناشرها لا تلمح الى كـون الزوجين مـن النصارى وانمـا شجعنا على الظن على ما قلناه الاسـماء النصرانية للزوجين وليس لدينا دليل واضح على ظننا الـذي أقمناه على أساس عـدم الاشارة الى سنة محمد (ص) او مسـألة الامساك بمعروف أو التسريح باحسان .

العيارون والشطار
ودورهم في الحرب بـين الامين والمامـون

د. محمد ارشيد العقيلي
ج. الامارات العربية المتحـدة

العيارون والشطار لغة واصطلاحا :

العيارون جمع عيار ، والعيار لغة الشخص الكثير التجوال الذي يتـردد على الاماكن بدون عمل . ويقال عار الفرس يعير ، أي ذهب أو انفلـت يهيم علـى وجهه لا يثنيه شيء ،فهو عائر أي متردد وجوال . كما يطلق العيار على الوزان أو الكيال(١). وفي الفارسية يعني اللص الشريف . والشطار جمع شاطر وفعله الثلاثـي شطر . ويقال شطر عن أهله أي نزح عنهم وهجرهم ، والشطارة تعني الانفصال والابتعاد . والشاطر من عصا ولي أمره وانشطر عن أهله وعاش في الخلاعة . ويتصف الشاطر بالدهاء والمكر والخبث والذكاء والحيلة(٢) .

وأما العيارون والشطار اصطلاحا فهم علم على طائفة مـن اللصوص الشرفاء المتمردين على واقعهم الاجتماعي ، ذاع صيتهم وتردد ذكرهم في بعض حقب الدولة العباسية لاسيما في مرحلة التفكك السياسي ، وأيام الفتن الاهلية او المذهبيـة أو الازمات الاقتصادية الخانقة ، او التفاوت الاجتماعي الطبقي البغيض .

ثمة قواسم مشتركة بين العيارين والشطار وبين من أطلق عليهم اسم الاحداث والزعار والدعار والعياق والحرافيش ، أو اصحاب المهن المتدنية الوضيعـة(٣) من المعدمين والجياع والعاطلين عن العمل الذين أعجزتهم البطالة وطحنهـم الفقر . اذ ان كلا منهم قد احترف اللصوصية وسيلة . ولكن مع اختلاف في الغايات ،وتفاوت في الاهداف والمرامي لهذه « الطوائف ».

وهذه الدراسة تتمحور اولا حول نشأة طائفة العيارين والشطار في العراق عامة وبغداد خاصة . وتفسير دوافع هذه الطائفة وغاياتها ، وهل تتميز عـن اللصوص العاديين . وثانيا موقف هذه الطائفة من اجتياح جيوش المأمون التي تأتمر بأوامر قادة

من الفرس لمدينة بغداد ، ابان الحرب بين الامين والمأمون ، وتفسير هذا الموقف وما ترتب عليه من نتائج .

الصلة بين الصعاليك والعيارين والشطار :

ان الباحث لا يستطيع ان يتناول طوائف العيارين والشطار والفتيان ودورهم في المجتمع العربي الاسلامي دون ان يربط ذلك بطائفة الصعاليك(٤) في المجتمع الجاهلي. وذلك لما بينهما من وشائج عميقة في كثير من الدوافع والوسائل والغايات . فهي جميعها تصدر في سلوكها عن موقف مشترك رافض ومتمرد على الواقع الاجتماعي والسياسي في عصرها . والصعلكة في المجتمع الجاهلي تعتمد على لصوصية السيف والعقل ، ولكنها في جوهرها تقوم على النشاط الفردي أو البطولة الفردية . في حين تقوم حركة العيارين والشطار واضرابهم على النشاط الجمعي أو البطولة الجماعية ، وهي أشبه بتنظيم الجند أو النقابات المهنية .

وحركة الصعاليك في العصر الجاهلي هي تمرد على النظام الاجتماعي والاقتصادي ، لانهم وجدوا انفسهم ضحية لنظام جائر فرفضوه وتمردوا عليه فانشطروا « انفصلوا » عن قبائلهم فقابلتهم قبائلهم بدورها (بخلعهم) . وقد اسفر ذلك عن صراع مرير بين الجانبين ، بين الصعاليك الخلعاء وبين قبائلهم(٥). والصعاليك في الجاهلية طوائف ثلاث : الخلعاء الذين تبرأت منهم قبائلهم وطردتهم ، والاغربة السود الذي سرى لهم السواد من أمهاتهم الاماء فلم يعترف بهم اباؤهم العرب مثل تأبط شرا(٦) والشنفري(٧) ، ثم طائفة الفقراء والمتمردين الذين تصعلكوا نتيجة لظروفهم الاقتصادية السيئة ، ويمثلهم عروة بن الورد ومن التف حوله من فقراء العرب . ومن هذه الطوائف الثلاث تألفت عصابات انطلقت الى الصحراء يجمع بينها على اختلاف قبائلها الفقر والتشرد ، والتمرد على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية والايمان بان الحق هو القوة .

وبذلك يتضح ان الظاهرة في حياة الصعاليك هي أنهم جميعا فقدوا توافقهم الاجتماعي . وقد انتهى بهم ذلك الى «سلوك صراعي» مع مجتمعاتهم(٨) .

ان ما يعنينا من طوائف الصعاليك ذلك الفريق الذي صدر في سلوكه عن موقف فروسي نبيل ، أو احساس مرير بالقهر الاجتماعي،لا عن نزعة شريرة متأصلة حاقدة، فطارد الاغنياء المترفين ، ولا سيما البخلاء منهم ، وتربص الدوائر بالقوافل التجارية، وآلى أفراده على انفسهم أن يثأروا من مجتمعهم ، وان يقتلوا من يعترض طريقهم .

وبذلك تكون الصعلكة كما يراها يوسف خليف(٩) نزعة انسانية نبيلة ، وضريبة يدفعها القوي للضعيف ، والغني للفقير ، بهدف تحقيق لون من الوان العدالة الاجتماعية ، واعادة التوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع المتباعدتين . فالغزو والسلب والنهب لم يكن عند الصعاليك غاية بل وسيلة لتحقيق العدالة والتوازن الاجتماعي . ويجسد عروة بن الورد فلسفة هذا الفريق الاجتماعية والاقتصادية(١٠) ، معبرا عن تلك المعايير المادية التي تحكم عصره بمرارة وتهكم بقوله :

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير

ويقصيه الندي وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير

وتلقى ذي الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير

وكما عرف القرشي(١١) الصعلوك بأنه لص شاطر مغير ، فان مصادر اخرى اشارت الى أن الصعاليك هم شطار العرب في الجاهلية . كما ألحق ابو عبيدة البكري(١٢) صفة العيارة بهم في اطلاقه اسم اللص العيار على قرين بن الصاد الكلبي.

والملفت للنظر أن بعض المصادر العربية ذكرت أن بعض الصعاليك طاب لهم أن يطلقوا على انفسهم « الفتيان » لاتصافهم بالفتوة الدالة على الشهامة والمروءة والفروسية والشجاعة والنجدة ، واغاثة الملهوف ، ونكران الذات(١٣) وغيرها من مقومات « الفتوة الشعبية » .

والجدير بالذكر أن صعاليك العرب أو شطار الجاهلية وعياريها انقسموا حسب دوافعهم النفسية والاجتماعية الى فريقين : فريق متمرد حاقد تنطوي نفسه على نزعة أنانية شريرة . وفريق تنطوي نفسه على نزعة خيرة غايتها حماية المستضعفين وتحقيق العدالة الاجتماعية . وأشهر من يمثل هذا الفريق عروة بن الورد ومن انضوى تحت لوائه(١٤) . وقد تغنى بعض الصعاليك ببطولاتهم شعرا ونثرا بفخر واعجاب(١٥) ، وحفرت بعض قصصهم مكانا في الذاكرة الشعبية العربية كسيرة عنترة بن شداد الذي تمحورت سيرته حول قضية التحرر الاجتماعي وظلت حية في الوجدان الشعبي في العصور الاسلامية .

وبذلك فان ظاهرة الصعلكة الجاهلية في نزعتها الانسانية التقت مع ظاهرة العيارة والشطارة في المجتمع الاسلامي . وقد اعطى معظم الباحثين تفسيرا أو مضمونا انسانيا لكلتا الظاهرتين من حيث اللقاء والتداخل بينهما من ناحية ، والتواصل من ناحية اخرى ، لان الظاهرتين تحملان في طياتهما فكرة انسانية رددتها العامة في كلا

المصرين الجاهلي والاسلامي الوسيط ، في الحكايات والقصص . ولا شك أن هاتين الظاهرتين التاريخيتين والشعبيتين تعكسان طموحا أو حلما جماعيا لتحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية ، تتلاشى معه تلك الهوة السحيقة التي تفصل بين اقلية تملك معظم الثروة ، واغلبية ساحقة تعيش على الفقر والحرمان(١٦) .

وقد عبر احد الصعاليك والعيارين عن المرارة التي تتفاعل في نفسه بسبب التفاوت الاجتماعي وضيق ذات اليد بقوله :

وإني لأستحيي من الله أن أرى   أجرجر حبلا ليس فيه بعير

وان اسأل الخب اللئيم بعيره   وبعران ربي في البلاد كثير

ولذلك فان طائفة من الصعاليك ، وكذلك من العيارين والشطار قد بررت وسوغت لنفسها اللجوء الى السرقة ، واعتبرت ذلك موضع فخر واعتزاز ومؤشرا على البطولة ، وان تقوم بذلك في رابعة النهار . وقال أحدهم :

معاذ الله أن أسرق بليل   ولكني اجاهر بالنهار (١٧)

ولذلك فان الصعاليك من قبل والعيارين والشطار من بعد ، باعلانهم التمرد على بعض طبقات المجتمع ، وعلى الذين استأثروا لأنفسهم بالسلطة او المال أو بهما معاً ، استهدفوا أن ينالوا بأسلوب غير شرعي ما يتصورون ويعتقدون أنه حق شرعي لهم . وسوف نجد أن ظاهرة التمرد هذه سوف تواجه بكل عنف وقسوة من السلطة القائمة، باعتبارها خروجا على القانون والسلطة الشرعية . ومن الطبيعي أن تشوه صورتهم من قبل مؤرخي السلطة الرسميين ، إما جهلا بأوضاع هذه الطبقة الاجتماعية المتردية أو ممالاة للسلطة القائمة . غير أن العيارين والشطار بالمقابل حظوا باعجاب العامة في عصرهم ، فتعاطفت معهم وأشادت بأفعالهم . وقد انتهى الارتقاء بالشطار والعيارين في التراث الشعبي الى مرتبة البطولة شبه ملحمية ، حتى رددت الالسنة أن اللص أحسن حالا من الحاكم المرتشي او القاضي الذي يأكل أموال اليتامى(١٨) .

تطور ظاهرة العيارين والشطار حتى مطلع العصر العباسي :

ظاهرة العيارين والشطار ظاهرة عالمية لها بصماتها في المجتمعات الهندية والبابلية والفرعونية والعربية قبل الاسلام(١٩) . غير أن هذه الظاهرة كانت تتفاوت بين مرحلة وأخرى ، فتخبوا وتتلاشى حين تكون المجتمعات في حالة مد حضاري ،

وتظهر وتشتد حين تكون في حالة جزر . وهي عموما تنتعش في الحقب التاريخية التي تتعرض فيها المجتمعات للفوضى والتفكك والتجزئة ، وضعف السلطة المركزية أو التفاوت الاجتماعي الطبقي .

ففي العصر الجاهلي كما عرفنا كانت ظاهرة الصعلكة والشطارة وليدة الصراع الداخلي بسبب شح الموارد والفقر والجوع(٢٠) وما نجم عنه من فرز طبقة فقيرة معدمة لم تجد سوى الغزو والسلب والتلصص وسيلة لاستنقاذ نفسها من ذل الفاقة والحرمان ، مما دفعها الى التمرد . ولكن بعد ان أشرقت الجزيرة العربية بنور الاسلام تغيرت أوضاع الحياة العربية الاجتماعية والاقتصادية ولم يبق للصعلكة مكان فيها(٢١) وبخاصة في العهدين النبوي والراشدي ، بسبب ما نشره الاسلام من مبادىء سامية قائمة على العدالة ومبدأ تكافؤ الفرص ، ومسؤولية الامة عن أي حيف او جور اجتماعي يقع على كاهل الفقراء والمعوزين .

وفي العصر الاموي وجهت طاقات الامة نحو الجهاد ونشر الاسلام . ففضالة بن شريك مع أنه كان شاعرا فاتكا صعلوكا مخضرما أدرك الجاهلية والاسلام(٢٢) لم يصل الينا من شعره الا ما ورد من أخبار وأسماء اسلامية . وكان لابنه « فاتك » مركز اجتماعي مرموق في عهد عبد الملك بن مروان . وبرغم أن ثمة رواسب للصعلكة في شعر أبي خراش(٢٣) الاسلامي في تصويره للفقراء والجياع ذوي الثياب البالية ، فاننا نشهد صورة أخرى لتلك الحياة التي تغيرت ظروفها بسبب ما أحاط برقاب الصعاليك من ضوابط الدين الجديد. فلم يعودوا قادرين على المضي في حياتهم كما كانوا في الجاهلية، لأن مقياس الامور في ظل الحياة الاسلامية كان يقوم على الحق والعدل . ومع ذلك نجد رواسب تلك الحياة المتصعلكة التي أخلص لها أبو حراش في جاهليته اخلاصا عميقا ظلت آثاره تتسرب من حين لآخر في شعره الاسلامي . والجدير بالذكر أن ابنه حراش كان من أكثر المتحمسين للجهاد في سبيل الله .

ظاهرة العيارين والشطار في العصر العباسي الاول :

شهدت الدولة العباسية في عصرها الاول تغيرات شاملة في مختلف الميادين ، الثقافية والاجتماعية والاقتصادية . . . وما نجم عن ذلك من بروز ظاهرة التفاوت الطبقي ــ الاقتصادي ، ما ولدته من ردود فعل ، كان ضمنها أولى بوادر ظاهرة العيارين والشطار . ونتلمس بدايات هذه الظاهرة منذ عهد الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ ــ ١٦٩هـ) . ويذكر البلاذري بوادر هذه الظاهرة في مقاطعة « سيسر » التي كان بها مزوج لدواب الخليفة المهدي وأغنامه بقوله : « فلما كثر الصعاليك والذعار

وانتشروا بالجبل في خلافة المهدي أمير المؤمنين ، جعلوا هذه الناحيه ملجأ لهم وحوزا. فكانوا يقطعون ويأوون اليها ولا يطلبون لأنها حد همذان والدينور وأذربيجان . فكتب سليمان بن قيراط وشريك معه يقال له سلام الطيفوري بخبرهم وشكيا تعرضهم لما في أيديهم من الدواب والاغنام ، فوجه لهم جيشا عظيما وكتب الى سليمان وسلام يأمرهما ببناء مدينة يأويان اليها وأعوانهما ورعاتهما ، ويحصنان فيها الدواب والاغنام مما خافاه عليها. فبنيا مدينة « سيسر » وحصناها وأسكناها الناس ، ووليها عامل، وكان خراجها يؤدى اليه »(٢٤) . ويقول الفقيه الهمذاني في حديثه عن « سيسر » أحد رساتيق همذان بقوله : « ولم تزل سيسر وما ولاها مراعي لمواشي الاكراد وغيرهم . فلما كثر الصعاليك والدعار وانتشروا في الجبل في خلافة المهدي ، جعلنا هذه الناحية ملجأ لهم ، فكانوا يقطعون ويأوون اليه ، فلا يطلبون ..... فكتب سليمان وشريكه (صاحبا صحراء وقيراط بمدينة السلام) الى المهدي بذلك . فوجه اليهما جيشا عظيما ، وكتب اليهما فأمرهما ببناء مدينة يأويان اليها مع أغنامهما ورعاتهما مما خافاه عليها . فبنيا مدينة « سيسر » ، وحصناها وأسكناها الناس »(٢٥) .

ويذكر البلاذري(٢٦) أيضا ان الصعاليك كثروا في خلافة أمير المؤمنين الرشيد وشعثوا سيسر ، فأمر ببنائها وتحصينها ، ورتب فيها ألف رجل من أصحاب خاقان الخادم السعدي . وفي آخر أيام الرشيد وجه الى سيسر مرة بن مرة العجلي ، ولم يزل مرة يؤدي الخراج عن سيسر في أيام محمد بن الرشيد (الامين) الى أن وقعت الفتنة . ثم أخذت سيسر من عاصم بن مرة ،فأخرجت من يده في عهد المأمون، ورجعت الى ضياع الخلافة . فولى عليها المأمون قائدا يدعى همام بن هاني العبدي على ان يتعاون مع أهلها ويحصنها من غارات الصعاليك(٢٧) .

من خلال ما سبق عن بدايات ظهور الصعاليك والذعار في رستاق سيسر ، يتبين ان بوادر هذه الظاهرة كانت في مطلع العصر العباسي وفي شرق دار الخلافة . وان هذه الظاهرة لم تكن تشكل خطرا كبيرا يهدد سلطة الدولة . وذلك لان الدولة كانت لا تزال قوية متماسكة ، وفي أوج مجدها السياسي والحضاري ، ولا تزال قبضتها قوية حتى على الاطراف. ولم تكن غاية الصعاليك والعيارين حتى عهد الرشيد سوى ان يتعرضوا لقافلة أو سفينة ، فيختلسوا على حين غرة الشيء الطفيف الذي يسد عوزهم .

دور العيارين والشطار في احداث الحرب بين الامين والمامون :

نعود جذور الصراع على السلطة بين الامين والمأمون الذي استمر خمس سنوات سالت خلالها دماء أهل العراق وخراسان وانتهى بمقتل الامين ، الى ذلك القرار

السياسي الذي اتخذه الرشيد بتقسيم الخلافة بين أبنائه الثلاثة(٢٨) . وما ذهب اليه بعض المؤرخين المحدثين امثال فلوتن وولهاوزن(٢٩) من تفسير عنصري لهذه الحرب ، وأنها حرب فارسية عربية ، تفسير غير واقعي ، فالمأمون برغم أنه كان معه بعض العناصر الايرانية التي أسلمت حديثا مثل الفضل بن سهل ، فقد كان معه أيضا العديد من العرب ، كما كان في جيش الامين الى جانب العرب عناصر ايرانية ، مع أرجحية العنصر الفارسي عند المأمون والعربي عند الامين . كما أن الامين لم يحاول جذب العرب والتوسل بالنزعة العربية الا في فترة متأخرة من هذا النزاع ، مما أهاج عياري بغداد وشطارها للدفاع عنه في حصار بغداد ضد التيار الفارسي الذي يحيط بالمأمون.

ويرى المستشرق الفرنسي سورديل أن الدوافع الحقيقية للنزاع بين الامين والمأمون تكمن في اختلاف النزعة الدينية الفكرية لكلا المعسكرين(٣٠) ، الا أنني أرى ان افضل تفسير لهذه الحرب أنها نزاع اقليمي بين العراق وخراسان على أيهما سيكون الاقليم المركزي للدولة يتمتع بامتيازاتها ، تماما كما ظلت بلاد الشام ناقمة على العباسيين منذ أن نقلوا عاصمتهم من دمشق الى الهاشمية ثم الى بغداد في العراق . وقد تمحور هذا التأقلم حول الفضل بن الربيع ممثل الكتلة العربية في بلاط الامين ، والفضل بن سهل ممثل الكتلة الفارسية في بلاط المأمون ، ولعبت الطموحات الشخصية لكلا الشخصين دورا بارزا في تأجيج مشاعر الاخوين ضد بعضهما البعض وتفجر الموقف الذي انتهى باجتياح طاهر بن الحسين قائد المأمون لمشرق العالم الاسلامي في طريقه الى العراق وقتل علي بن عيسى بن ماهان قائد الامين ، واحتلال معظم مدن العراق ، ثم محاصرة الامين في بغداد(٣١) .

والجدير بالذكر أن ظاهرة العيارين والشطار أخذت تلفت انظار المؤرخين منذ أن حاصر طاهر بن الحسين بغداد . وحين ضيق طاهر الخناق على مداخل المدينة من الشرق ثارت العامة فيها دفاعا عن الامين الخليفة الشرعي ، ويشير ابن الاثير(٣٢) أنه في سنة ١٩٦ هـ نقب أهل السجون السجون ، وخرجوا منها ، وفتن الناس وساءت أحوالهم ، ووثب الشطار على أهل الصلاح . ويقصد بأهل الصلاح كبار التجار والاثرياء والقواد .

وسبب ثورة العيارين والشطار على التجار والاثرياء هو تخاذل هؤلاء في نصرة الامين حينما رميت بغداد بالمجانيق والعرادات في مطلع عام ١٩٧ هـ ودب فيها الخراب هدما وحرقا(٣٣) . وقد هرب معظم قواد الامين ، وتخاذل جنده واستسلم معظمهم . وكان عيارو بغداد وشطارها وعامتها وأوباشها وأهل السجون هم رموز موازرته والدفاع عن بغداد . وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير الطبري بقوله : « فذلت الاجناد ،

وتواكلت عن القتال ، الا باعة الطريق والعراة ، وأهل السجون والاوباش والرعاع والطرارين وأهل السوق »(٢٤) . وقد ذكرهم أيضا ابن الاثير وسماهم « الغوغاء والفساق »(٢٥) .

معركة قصر صالح :

أحكم طاهر بن الحسين حصار بغداد ، لكنه فشل في اقتحامها لضراوة مقاومة العيارين ، ويذكر الطبري ان ظاهرا ظل يقاتلهم لا يفتر ولا يمل ولا يني عن ذلك(٢٦) ولكنهم أعجزوه . وحدثت حول قصر صالح بين قواته والعيارين معركة من أشرس المعارك بين العرب والفرس واستمات العيارون في الدفاع عن المدينة والقصر . وبرغم أن قائد الامين الموكل بقصر صالح علي افراهمرد قد استسلم وسلم ما بيده الى جند طاهر ، وكذلك صاحب شرطته محمد بن عيسى – وكان مجدا في نصرته – كما استسلم اخرون ، الا ان الغواة والعيارين قاتلوا قوات طاهر قتالا شديدا داخل القصر . وقد اورد الطبري : « فلما استأمن هذان الى طاهر اشفى الامين على الهلاك، واقبلت الغواة من العيارين ، وباعة الطريق ، والاجناد ، فاقتتلوا داخل قصر صالح قتالا عظيما »(٢٧) . كما يذكر ابن الاثير انه قتل من اصحاب طاهر جماعة كثيرة، ومن قواده جماعة . ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها أشد على طاهر منها(٢٨) .

ويسترسل الطبري في وصف المعركة وضراوتها داخل القصر بين العيارين وقوات طاهر بن الحسين : « وقتل في داخل القصر ابو العباس يوسف بن يعقوب ومن كان معه من القواد والرؤساء المعدودين . وقاتل فراهمرد وأصحابه خارجا من القصر حتى فل وانحاز الى طاهر . ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها اشد على طاهر واصحابه منها ، ولا اكثر قتيلا وجريحا مقعورا من أصحاب طاهر من تلك الوقعة . فاكثرت الشعراء فيها القول من الشعر ، وذكر ما فيها من شدة الحرب» (٢٩) .

وقد اسفر ذلك عن تدمير بغداد واحتراقها لاول مرة في التاريخ ، وتعرض كل من جانبي المعسكرين الى حرق وتدمير من قبل الطرف الاخر . وقد رثى الشعراء بغداد رثاء يفيض ألما وحسرة على ما ألم بها من مصير ، وحتى احد شعراء العيارين الذين أطلق عليهم الطبري اسم « فتيان بغداد » رثاها بقصيدة نجتزىء منها(٤٠) :

بكيت دما على بغداد لما ... فقدت عضارة العيش الانيق
تبدلنا هموما من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
اصابتها من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق

فقوم احرقوا بالنار قسرا ونائحة تنوح على عريق
وقوم اخرجوا من ظل دنيا متاعهم يباع بكل سوق
فلا ولد يقيم على ابيه وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنس من شيء تولى فاني ذاكر دار الرقيق

وقد تناول الحريمي وهو شاعر مأموني احداث بغداد ووصف ما جرى فيها بقصيدة طويلة من نحو مائة وخمسين بيتا أورد الطبري نصها كاملا في حين تركها ابن الاثير لطولها(٤١) وقد أنحى الشاعر باللائمة على الذعار والشطار والعيار وغيرهم ، وكان يرى أن دفاعهم عن بغداد هو الذي جلب لها الحرب والدمار . غير أنه لا ينكر أن المسؤولية تقع على الطرفين المتقاتلين . نجتزىء من هذه القصيدة بعض الابيات التي فيها ذكر للعيارين والشطار(٤٢) .

وصار رب الجيران فاسقهم وابتز امر الدروب ذاعرها
يحرقها ذا وذا يهدمها ويشتفي بالنهاب مشاطرها
والكرخ أسواقها معطلة يستن عيارها وعاثرها
كتاب الهرش تحت رايته ساعد طرارها مقامرها
خرجت الحرب من اراذلهم أسود غيل علت قساورها

وهذه القصيدة تعكس رأي أنصار المأمون من خلال الشائعات التي روجوها بأن الامين وجنده والعيارين والشطار وغيرهم هم الذين أحرقوا مدينة بغداد . كما أن هناك قصائد أخرى تذهب هذا المذهب بوضع المسؤولية على الحركة الشعبية ومن يمثلها من الشطار والعيارين . من هذه القصائد قصيدة طويلة للشاعر البغدادي الاعمى الذي كان متعصبا للمأمون ومنها(٤٣) :

وصار رئيس القوم يحمل نفسه وصار رئيسا فيهم كل شاطر

بيد أن الطبري كان اكثر موضوعية وحيادا حين نسب ما حدث من سلب ونهب الى « اللصوص والفساق » دون أن يذكر العيارين بينهم ، فقال « وكان اللصوص والفساق يسلبون من قدروا عليه من الرجال والنساء والضعفاء من اهل الملة والذمة »(٤٤) .

وبرغم أن المسعودي(٤٥) فيما يروي يقرن بين العيارين و « من أهل السجون »، الا أن رثاء العيارين لمدينةبغداد يعكس مشاعر هذه الطائفة ومروءتها ، ولو كان العيار لصاً لما صدرت عنه مثل هذه الاقوال والافعال التي سنأتي على ذكرها ، والتي تفيض نبلا وعفة ومروءة . فالسطو على النساء لم يكن من شيم الشطار والعيارين ولذلك فان رواية الطبري تنطوي على اعجاب بهم خاصة عندما لاذ أكثر قادة الامين بالفرار أو آثروا السلامة بانضمامهم الى قوات طاهر بن الحسين ، وثبت العيارون والعامة من أهل بغداد واستماتوا في الدفاع عن بغداد ودحروا الجند الخراسانيين مرارا .

وليس أدل على اقدام العيارين والشطار وقوة بأسهم من هذه الحكاية التي أوردها الطبري(٤٦) والمسعودي(٤٧) وابن الاثير(٤٨) : « أن قائدا من قواد أهل خراسان ممن كان مع طاهر من أهل النجدة والبأس خرج يوما الى القتال ، فنظر الى قوم عراة، لا سلاح معهم ، فقال لاصحابه : لا يقاتلنا الا من أرى ؟ استهانة بأمرهم واحتقارا لهم، فقيل له : نعم هؤلاء الذين ترى هم الافة ، فقال أف لكم حين تنكصون عن هؤلاء وتخيمون عنهم ، وانتم في السلاح الظاهر والعدة والقوة ، ولكم مالكم من الشجاعة والنجدة . وما عسى أن يبلغ كيد من أرى من هؤلاء ، ولا سلاح معهم ، ولا عدة لهم ، ولا جنة تقيهم . فأوتر قوسه وتقدم ، وابصره بعضهم ، فقصد نحوه ، وفي يده بارية قصيرة ، وتحت ابطه مخلاة فيها حجارة فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر منه العيار ، فوقع في باريته أو قريبا منه ، فأخذه فجعله في موضع من باريته ، وقد هيأه لذلك ، وجعلهشبيها بالجعبة . وجعل كلما وقع منه أخذه ، وصاح دانق ، اي أن ثمن النشابة دانق قد أحرزه ، ولم تزل تلك حالة الخراساني وحال العيار حتى أنفد الخراساني سهامه ، ثم حل على العيار ليضربه بسيفه . فأخرج من مخلاته حجرا فجعله في مقلاع فرماه ، فما أخطأ به عينه ، ثم ثناه بآخر . فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه ، وكرّ راجعا وهو يقول : ليس هؤلاء بانس ، قال : فحدثت أن طاهرا حدث بحديثه فاستضحك وأعفى الخراساني من الخروج للحرب » .

وكان طاهر بن الحسين اعرف بحقيقة هؤلاء العراة العيارين ، فهم وحدهم الذين أفقدوه خيرة جنده وقواده ، وحالوا دون سقوط بغداد بأيدي قواته ، في حين كان موقف تجار بغداد واثريائها متخاذلا ، لا يأبهون لسقوط المدينة . وهذه المواقف المتباينه جعلت أهل بغداد والعامة والمستضعفين فيها ينظرون نظرة ازدراء واحتقار لاغنياء بغداد وكبارها ، ونظرة تقدير واعجاب الى العراة العيارين ، الذين كانوا بنظرهم ابطال بغداد الحقيقيين ولو هزموا في النهاية . مدحهم احد شعراء بغداد المجهولين(٤٩) في قصيدة منها :

ليس يدرون ما الفـرار اذا الابـ طال عاذوا من القنـا بالفـــرار
واحـد منهـم يشد عـلى الفـين عريـــان مـالـــه مـــن ازار
ويقـول الفتـى اذا طعن الطعـ نة : خذهـا مـن الفتى العيـار

وبرغم ان بعض قادة الامين وجنده تخلوا عنه واستسلموا ، ومنهم عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي واحوته وولد الحسن بن قحطبة ، ويحيى بن علي بن ماهان، ومحمد بن أبي العاص(٥٠) . الا أن ذلك لم يفت في عضد العيارين ، ولم يزدهـم الا تصميما على الدفاع عن بغداد . فواجه بعض قادة المأمون وخاصة عبد الله بن الوضاح و « هرثمة » هزائم منكرة على يدهم . وكان من غيظ جند هرثمة وصفهـم بـ « اولاد الزنـا » في حين وصفهم بعض اصحاب هرثمة وقد داخله العجب في أمرهـم وقوة بأسهم بقوله(٥١) :

يفنى الزمـان وما يفنى قتالهـم والدور تهـدم والامـوال تنتقص
يأتوننـا بحديـث لا ضيـاء لـه في كل يـوم لاولاد الزنـا قصص

لكن الغريب والملفت للنظر انه في الوقت الذي كانت بغداد تنهب أو تحرق على يد جند الامين تارة وبأمر منه(٥٢)، وعلى يد جند طاهر بن الحسين تارة وبأمر منه ، فان ذلك كان ينسب الى العيارين . ومع ذلك فان هؤلاء لم ينثن لهـم عـزم ، واستماتوا في الدفاع عن بغداد ، ومناصرة الامين حتى النهاية .

وقعة الكناسـة :

يتلخص خبر هذه الوقعة كما ورد في الطبري(٥٣) في ان طاهر بن الحسين احاط بغداد بعدد من قواده، فجعل العلاء بن الوضاح في أصحابه على الوضاحية ، وجعل نعيم بن الوضاح فيمن كان معه من الاتراك وغيرهم على شاطىء الصراة . واستمر القتال اشهرا حتى ان طاهرا باشر القتال بنفسه ، وقتل فيه عدد كبير من أصحاب الامين . وقد وصف هذه الوقعة الشاعر عمرو بن عبد الملك بقصيدة طويلة مطلعها :

وقعـة يـوم الاحـد صارت حديث الابـد
كم جسد أبصرتـه ملقى وكـم مـن جسـد

وفي الابيات الاخيرة منها ندد باتباع الامين ومنهم العيارون بانهم بلا أصول وبلا قضية ، وان الامين لو انتصر لن يكترث بهم أو أن يلتفت اليهم :

من أنت يا ويلك يا مسكين من محمد

وقعة درب الحجارة :

وهذه الوقعة من الايام المشهودة بين قوات طاهر واتباع الامين الذين كان معظمهم من العيارين ، وكانت الغلبة فيها لاصحاب محمد علي أصحاب طاهر من الجند الخرساني(٥٤) ، قتل فيها اعداد غفيرة من اصحاب طاهر ، وندد شاعر مأموني في أعقابها باتباع الامين من العامة والعيارين في قصيدة منها(٥٥) .

وقعة السبت يوم درب الحجارة قطعت قطعة من النظارة
ذلك من بعد ما تفانوا ولكن أهلكتهم غوغاؤنا بالحجارة
اخرجته من بيتها أم سوء طلب النهب أمه العيارة
ليس هذا زمان كريم ذا زمان الانزال أهل الزعارة

وقعة باب الشماسية :

وهي من الايام الحاسمة الكبرى بين اتباع طاهر بن الحسين وبين العيارين والشطار والذعار انصار الامين ، وقد مرت بمراحل وكان فيها عدة جولات . كان على راس قوات طاهر هرثمة بن اعين ، وعبيد الله بن الوضاح ، وأبرز قواد الامين حاتم ابن الصقر . وقد أوعد حاتم اصحابه الغزاة والعيارين أن يباغتوا عبيد الله بن الوضاح ليلا . فأوقعوا به وقعة وأزالوه عن موضعه وولى هاربا تاركا الخيل والسلاح والمتاع . وسيطر حاتم على الشماسية(٥٦) . فخف هرثمة بن أعين لنصرة ابن الوضاح فوافاه اصحاب الامين في جولة ثانية وتمكنوا من دحر قواته ، ووقع هرثمة نفسه في الاسر . لكن ما لبث ان خاصه احد جنده . وطارد أصحاب الامين فلول جيش هرثمة، ولم يتمكنوا من استثمار هذا النصر بسبب حلول الليل ، وما شغلوا فيه من النهب والسلب(٥٧) . ولم يتمكن هرثمة من تجميع صفوف جنده الا بعد يومين . وقد نظمت اشعار كثيرة في هذه الجولة منها ما قاله عمرو الوراق شاعر طاهر بن الحسين يندد بالعيارين ويتهكم عليهم ويستخف بهم :

عريـــان ليـــس بـــذي قميص　　يغـــدو على طلـــب القميـــص
في كفــــــه طــــــرارة　　حمــــراء تلمــع كالفصـــوص
حرصا عـــلى طلـب القتــال　　أشــد مـــن حرص الحريـــص

ولما بلغ طاهر ما صنع العراة وحاتم بن ابي الصفر بابن الوضاح وهرثمة ، اشتد عليه ذلك . فأمر بعقد جسر على دجله فوق الشماسية ، وعبأ أصحابه وخرج معهم الى الجسر استعدادا لجولة فاصلة . فعبروا اليهم وقاتلوهم أشد قتال حتى ردوا الى أصحاب الامين وأزاحوهم عن الشماسية ، واستردوا الاسـرى وقتل مـن العـراة بشرا كثيرة(٥٨) . وكما هي العادة فان عمرو بن انوراق شاعر طاهر بن الحسين نظم قصيدة في هذه المناسبة تهكم فيها على العيارين وسخر من سلاحهم وطبلهم نجتزىء منها بعض الابيات(٥٩) .

ضربـوا طبلهـم فثـــار اليهـم　　كل صلـب القنـــاة والساعدين
أو وزيـر أم قائد بـل بعيــــد　　انت من ذين موضـع الفرقديـن
كم بصـــير غدا بعينين كي يبـ　　ـصر ما حالهـم فعـاد بعـين

ورغم أن هؤلاء العيارين بنظر هذا الشاعر لا يتطلعون الى مراكز قياديـة كالوزارة او غيرها ، « اين من ذي موضع الفرقدين »، الا انهم استماتوا في مقاومة قوات طاهـر والدفاع عن بغداد ، وكان سلاحهم المسمى « المطرد » لا يخطىء ما يريدون ولا يصيب الا العينين .

وقد ترتب على هزيمة أصحاب الامين في الجولة الاخيرة مـن وقعة الشماسـية نتائج هائمة أبرزها أن الذعر والهلع دب في صفوف قواته ، ففر معظمهم الى المدائن . كما أدرك التجار والاثرياء أن لا أمل لهم في الامين وخافوا على أنفسهم من « الغوغـاء والسفلة » والعيارين . وتداعوا واتفقوا على مكاتبة طاهر بن الحسين للدخول في طاعته . وعلى تبروئهم ممن سموهم على حد تعبيرهم بالسفلة الذين ليست لهم في بغداد دور ولا عقار ولا مأوى سوى الحمامات والمساجد ، وقد برر هؤلاء موقفهم بأنهم لا طاقة لهم بهؤلاء الاوباش والعيارين . وقد أورد الطبري(٦٠) النص الكامل للكتاب الذي وجهـه هؤلاء التجار الى طاهر بن الحسين . ومضمونه يدل دلالة واضحة على أن هذه الطبقة من الاثرياء كانت تسير وفق مصالحها ، اذ عندما كانت للعامة ـ أو من يطلق عليهم الاثرياء اسم الاوباش وأهل السجون والعيارين ـ حماية بغداد وحماة هؤلاء الاثرياء من

هجمات قوات طاهر . هذا في حين تنصلت جماعة اخرى من الدخول في طاعة طاهر خوفا على أنفسهم وأموالهم من مطاردة من سموهم بالسفلة في بغداد : « والرأي الا تشهروا انفسكم بهذا ، فانا لا نأمن ان رآكم أحد من السفلة أن يكون به هلاككم ، وذهاب أموالكم والخوف من تعرضكم لهؤلاء السفلة أعظم من طلبكم براءة الساحة عند طاهر خوفا ، بل لو كنتم من أهل الاثام والذنوب ، لكنتم الى صفحه وتغمده وعفوه أقرب فتوكلوا على الله تبارك وتعالى وامسكو ، فأجابوهم وامسكوا »(٦١) .

ومهما يكن الامر فانه من الطبيعي في حالة الفوضى والذعر التي أصابت بغداد أن تختلط الامور وتتعدد الولاءات ، وأن يبحث كل فريق عن النجاة بأية وسيلة . لذلك رأينا فريقا يطلب النجاة في موالاة طاهر ، وفريقا آخر يتخوف من عاقبة موالاة طاهر بأنها ستثير العامة والعيارين في بغداد ضدهم .

ومما زاد الامور تعقيدا واضطرابا أن طاهرا انتهج سياسة ماكرة ذكية وهي مراسلة بعض قادة الامين ورجاله ، يحذر هم من مغبة موقفهم ، وانه سيستولي على ضياعهم . ففر معظمهم واستبقوا الاحداث وانضموا الى صفوف قوات طاهر ، بعد ان شاهدوا بأم أعينهم ان ميزان القوى يسير لغير صالح الامين، ثم ان طاهرا دعا العيارين أيضا وهم القوة الرئيسية التي بقيت تناصر الامين وتذب عن بغداد بقوة واخلاص ، دعاهم للكف عن القتال والاستسلام ، له على أن يؤمنهم علىأرواحهم . فرفضوا على الرغم من هزائمهم المتوالية(٦٢) . وقد عبر عمرو الوراق عن هذا الموقف بقصيدة منها :

نادى منادي طاهر عندنا ... يا قوم كفوا واجلسوا في البيوت

فثارت الفوغاء في وجهه ... بعد انتصاف الليل قبل القنوت(٦٣)

والذي ينبغي أن يسجل في هذا المقام امران ، الاول : ان العيارين صمدوا صمود الابطال في الدفاع عن بغداد مؤمنين بعدالة قضيتهم ، رغم ما كال لهم خصومهم من تهم وما أثاروا حولهم من شكوك وشبهات ، وما وجه لهم من تحقير وسخرية . ولولا ايمانهم بعدالة قضيتهم لما استماتوا في حرب طاهر بن الحسين من بيت لبيت ومن شارع لشارع(٦٤) . وكان بمقدورهم لو كانوا لصوصا ، ان يهربوا ويستنفذوا ارواحهم وهم ـ كما وصفهم بعض تجار بغداد ـ لا دور لهم ولاعقار . ولا يسعنا الا القول بان هؤلاء العيارين كانوا يحاربون عن بغداد العربية في وجه ما اعتقدوا أنه سيطرة فارسية استظلت بالمأمون في سبيل استئصال شرعية الخلافة ممثلة بالامين.

والثاني : ان أثرياء بغداد وكبار تجارها وبعض قادتها كشفوا عن حقيقة موقفهم بعد ان انقلبت نتائج الحرب لصالح المأمون ، فتخلوا عن الامين الخليفة الشرعي من ناحية ، وتنصلوا من الغوغاء والسفلة والعيارين ، الذين سبق أن دافعوا عنهم وحموا اموالهم ودورهم من ناحية أخرى . وبذلك انكشفت النوايا وتحددت المواقف ، بعد ان اتضحت هزيمة العيارين . وهذه المواقف تنطوي على نزعة طبقية من قبل الاثرياء وكبار التجار على اعتبار انهم يمثلون فئة اجتماعية تنظر بمنتهى الازدراء والتحقير للعيارين وأمثالهم ، اضافة الى ان هذه الطبقة يهمها بالدرجة الاولى ان تحافظ على مصالحها المادية والاقتصادية . وقد عبر احد شعراء طاهر عن هذا الاتجاه بقوله(٦٥).

أي دهر نحن فيه ... مات فيه الكبراء
هذه السفلة والغو ... غاء فينا امناء

وقد أسفرت المعارك عن رجحان كفة قوات طاهر وانهيار المقاومة في صفوف الامين . وأصيب الناس بالهلع والجوع لشح الموارد وارتفاع الاسعار . وزاد الطين بلة ان جند المأمون احرقوا المنازل ، ومنها منازل الامين بالخيزرانية(٦٦) ، التي انفق على بنائها عشرين مليون درهم . وكانت سقوفها مرصعة بالذهب . وفي عام ١٩٨ هـ ضعف أمر الامين وأيقن بالهلاك ، ووجه التهم لاحد قادته البارزين وهو عبد الله بن خازم بن خزيمة ، وتحامل عليه السفلة والغوغاء على حد تعبير الطبري(٦٧) مما حمله على مكاتبة طاهر والهرب مع أسرته الى المدائن . وعندما أحكم الحصار على بغداد وضاقت الحال أوعز الامين الى قائد من قواده يقال له ذريح أن يتعقب اصحاب الاموال والودائع والذخائر من أهل الملة(٦٨) ورفده بشخص عرف بالهرش . فكانا يهجمان على الناس ويأخذان اموالهم بالظنة . فتجمعت اموال كثيرة ، ولكن العواقب كانت وخيمة ، اذ فر معظم الناس من بغداد بعلة الحج(٦٩) فاضطرب الامر ، وعمت الفوضى وتأزم موقف الامين .

هذه الاوضاع المتردية كانت ايذانا بالمعركة الفاصلة بين الفريقين في جزيرةالعباس وذلك ان الهرش ومن معه من العيارين خرجوا الى هذه الجزيرة ، فتصدى لهم اتباع طاهر وحصل اقتتال شديد كانت الغلبة فيه للعيارين . ولكن طاهرا أمد اصحابه في اليوم التالي بجند كثيف ، فدارت الدائرة على العيارين وقتل منهم اعداد غفيرة ، ولاذ الباقون بالفرار(٧٠) .

وأصيب الامين في أعقاب ذلك باحباط شديد ، ونسب اليه انه قال : « وددت ان الله قتل الفريقين جميعا ، فأراح الناس منهم ، فما منهم الا عدو لي ، أما هؤلاء فيريدون مالي ،وأماأولئك فيريدون نفسي »(٧١) . وبذلك ضعف امر الامين ، وتفرق جنده ، وايقن بظفر طاهر به .

الا أن اعدادا غفيرة من الصعاليك والعيارين ظلت موالية للامين حتى اللحظات الاخيرة من حياته وتذكر المصادر ان الامين حين هم لخمس ليال بقين من محرم عام ١٩٨هـ بتسليم نفسه الى القائد المأموني هرثمة بن أعين دخل اليه الصعاليك من أصحابه ، وهم فتيان الانبار والجند فقالوا له(٧٢) : يا أمير المؤمنين ، ليس معك من ينصحك ، ونحن سبعة الاف رجل مقاتلة(٧٣) ، وفي اصطبلك سبعة الاف فرس (يحمل كل منا على فرس) ونفتح بعض ابواب المدينة ، ونخرج في هذه الليلة ، فما يقدم علينا احد الى ان نصير الى بلد الجزيرة وديار ربيعة ، فنجتبي الاموال ، ونجمع الرجال ، ونتوسط الشام ، وندخل مصر ، ويكثر الجيوش والمال ، وتعود الدولة مقبلة جديدة ، فقال : هذا الله بالراي ، فعزم على ذلك وهم به وجنح اليه . وكان لطاهر في جوف دار الامين غلمان وخدم من خاصة الامين يبعثون اليه بالاخبار ساعة ساعة . فخرج الخبر الى طاهر من وقته . فخاف طاهر ، وعلم انه الرأي ان فعله ، فبعث الى بعض قواد الامين مهددا « ان لم تزيلوه عن هذا الرأي لاخربن دياركم وضياعكم ولازيلن نعمكم ، ولاتلفن نفوسكم ، فدخلوا على الامين . .في ليلتهم فأزالوه عن هذا الرأي. واتاه‌هرثمة في الحراقة الى باب خراسان ، فدخل الامين الحراقة ، وكان يرتاح الى هرثمة ، غير ان طاهر نمي اليه خروج الامين ، فبعث ببعض رجاله فدفعوا الحراقة فانقلبت بمن فيها ، فنجا هرثمةوألقي القبض على الامين ، فقتله جند المأمون .

وكان العيارون قد حذروا الامين من الاستسلام ، وقالوا : « حرب من الداخل وحرب من الخارج »(٧٤) . بمعنى أن بطانة الامين وبعض قادته عندما هددهم طاهر وأرغمهم على حمل الامين على عدم الخروج مع الصعاليك والعيارين ، كانوا أشد حربا عليه من جيوش طاهر التي تطوقه من الخارج ، وبوادر الخيانة التي ظهرت بفترات متعاقبة من حصار بغداد ، وآخرها هذه الخيانة .

ولكن ، ماذا كان مصير هؤلاء العيارين والشطار والصعاليك الذين أدينوا من السلطة العباسية في ظل الحكم الجديد ، كما أدينوا من كبار التجار والاثرياء ؟ سوف يسكت صوت هذه الحركة الشعبية الاجتماعية الثائرة نسبيا مدة نصف قرن . ولكن صوت العيارين عاد فارتفع من جديد عندما بدأ قتل الخلفاء على يد القادة الترك ابتداء من عصر المتوكل ومرورا بقتل المنتصر والمستعين ، وما نجم عن ذلك من فوضى واضطراب . حتى أن الخليفة المتوكل عندما اراد ان يعزز موقفه ضد النفوذ التركي شكل فرقة عسكرية جديدة تتكون من (١٢) الفا من العرب والصعاليك(٧٥) . وواجهت هذه الفرقة مؤامرات القيادة التركية . ونجد صوتهم مرتفعا أيضا ابتداء من عصر المعتضد العباسي عندما بدات قبضة الدولة تتراخى(٧٦) ، والظاهرة تتنامى في فترات الفوضى والاضطراب عام ٣١٥هـ في عهد المقتدر(٧٧) ، وامرهم يتفاقم كلما ضعفت

الحكومة كما في الفترة بين مقتل بجكم التركي(٧٨) ودخول بني بويه الى بغداد (٣٢٩ ـ ـ ٣٣٤ هـ) . والملفت للنظر أن ظاهرة الشطار والعيارين كانت تجد تعاطفا كبيرا في اوساط العامة في بغداد ، حتى أن العامة ربطوا بين سقوط « قبة بغداد » وغضب السماء على الامة بما اجتاح بغداد من عواصف وأمطار غزيرة(٧٩) .

ويستقرأ من انتعاش ظاهرة العيارين والشطار أنها تزامنت مع محاولات قوى خارجية للسيطرة على بغداد العربية وخلفائها العباسيين الهاشميين ، كما حدث ابان الفتنة بين الامين والمأمون أو سيطرة القادة العسكريين الترك على مقدرات الخلافة أو قدوم عنصر بويهي جديد حل محل المؤسسة العسكرية التركية المنهارة .

تنظيمات العيارين ودستورهم الاخلاقي :

انفرد المسعودي(٨٠) بالاشارة الى تنظيمات العيارين والشطار وأهل السجون في معرض حديثه عن مقاومتهم لجيش هرثمة بن أعين بقوله : « انه ما كاد هرثمة ينصب المنجنيقات على بغداد ويأخذ لنفسه عشر ما في السفن من أموال التجار الواردة من البصره وواسط ، الامر الذي تأذى منه الناس ، وصعد نحوه من العيارين وأهل السجون وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم التبابين والمبارز ، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص ، وسموها الخوذ ،ودرقا من الخوص والبواري قد قيرت وحشيت بالحصى والرمل ، على كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده ، فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتله ، وكذلك النقيب والقائد والامير ، وناس عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصوف الاحمر والاصفر ، ومقاود قد اتخذت لهم ولجم وأذناب من مكانس ومذاب. فيأتي العريف وقد أركب واحدا وقدامه عشرة من المقاتلة على رؤوسهم خوذ من الخوص ، ودرق البواري . ويأتي النقيب والقائد والامير كذلك . فتقف النظارة ينظرون الى حربهم مع أصحاب الخيول .. والدروع والتجافيف والسواعد والرماح والدرق . فهؤلاء عراة ، وهؤلاء على ما ذكرنا من العدة ، فكانت العراة على زهير . وأتاه المدد من هرثمة ، فانهزمت العراة ، ورمت بهم خيولهم ، وتحاصروا جميعا ، واخذهم السيف ، فقتل منهم خلق ، وقتل من النظارة خلق » .

والجدير بالذكر أن هذا التنظيم شبه العسكري كان شأنهم في كافة حروبهم ، ان مع الامين ، أو في الازمات اللاحقة في العصر التركي أو البويهي . وقد وصفهم المسعودي في أكثر من موضع ووصف اسلحتهم واعلامهم وابواقهم ، فهم من العراة اصحاب مخالي الحجارة والآجر ، وخوذ الخوص ، ورماح القصب ، وأعلام الخرق وقرون البقر(٨١) .

ويشير المسعودي الى أعدادهم في احدى المعارك بقوله : « وثارت العراة ذات يوم فينحو مائة الف بالرماح والقصب ، والطرارات من الفراطيس على رؤوسها ، ونفخوا في بوقات القصب ، وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من المحمدية (جند الامين) ، وزحفوا نحو المأمونية(٨٢) (أصحاب جيش المأمون) . وهناك تشابه واضح بين تنظيمات العيارين في الحرب بين الامين والمأمون ، وتنظيماتهم في الفتنة بين المستعين والمعتز . يقول المسعودي : « وقد كان لأهل بغداد في أيام حرب المستعين والمعتز نحو هذا من خروج العيارين الى الحرب ، وقد اتخذوا خيلا منهم وأمراء ، كالملقب بنينويه خالويه، وغيرهم ، يركب الواحد منهم على واحد من العيارين ويسير الى الحرب في خمسين الف مراة »(٨٣) .

ان هذا العدد الكبير من العيارين في مواجهة أعداء السلطة الشـرعية القائمة ، سواء في عهد الامين أم في ظل الفوضى العسكرية والتركية أو البويهية ، يضعنا أمام تساؤل خطير ، وهو مصداقية ما ألصق بهم من تهم ، وانهم ليسوا سوى مجموعة من اللصوص والحرامية والذعار . فلو كانوا لصوصا ما أصروا على المقاومة حتى النهاية وقد قتل منهم في مذبحة واحدة زهاء عشرة آلاف . وكان بامكانهم أن ينجوا بأرواحهم لو لم تكن لديهم بواعث كبيرة وأهداف سامية يحاربون من أجلها ، بوسائل بدائية ، جيشا منظما ومسلحا تسليحا قويا ، وكان بامكانهم أن يستنقذوا أنفسهم بما عرض عليهم من أمان. اضافة الى بعض الشواهد التي تدل على ان حركتهم تنطوي على غايات كبيرة.

فقد ورد أن احد الشطار تستر على ابراهيم بن المهدي واخفاه في بيته . ورفض افشاء سره وتسليمه لقاء الجائزة التي أعلنها ابن أخيه الخليفة المأمون ، ومقدارهـا الف دينار لمن يدل عليه أو يسلم رأسه(٨٤) .

نستطيع أن نكوّن فكرة عن دستور العيارين وأخلاقياتهم مما كتبه أبو القاسم الراغب الاصفهاني عن التلصص وما يجري مجراه(٨٥) وشيئا من أحاديثهم ووصاياهم، وما نقله عن الجاحظ في بضع فقرات من « وصية عثمان الخياط للشطار اللصوص ». بالاضافة لما ضمنه الجاحظ نفسه في كتابه « الحيوان »(٨٦) عن الوصية ذاتها . وعثمان الخياط يعد زعيم اللصوص الفكري ، لانه هو الذي وضع الاسس والمبادىء الحرفية والاخلاقية التي ينبغي أن يتصف بها اللصوص ، ونسب اليه أنه قال : « ما سرقت جارا ؛ وان كان عدوا ،ولا كريما ،ولا كافأت غادرا بغدره(٨٧)» . ومن وصاياه لاصحابه: « اضمنوا لي ثلاثا اضمن لكم السلامة : لا تسرقوا الجيران واتقوا الحرم ، ولا تكونوا اكثر من شريك مناصف ، وان كنتم أولى بما في أيديهم لكذبهم وغشهم وتركهم اخراج الزكاة ، وجحودهم الودائع » .

وذكر الاصفهاني ايضا ان سليمان وكان أجلد عصابة العيارين « خرج ليلة بأصحابه الى دار بعض الصيارفة ، فاختفوا ، فلما ارادوا الانصراف ، قال بعض أصحابه : دعنا نقم على مفارق الطرق لنأخذ من بعض المارة نفقة يومنا ، فقال : على ان لا تبطشوا بهم . فقالوا : وهل يفعل ذلك الا الجبان . فبينما هم كذلك اذ مر شاب ذو هيئة . فلما قرب سلم عليهم ، فرد عليه بعضهم السلام ، فقام اليه بعضهم ، فقال رئيسهم : دعه فانه سلم ليسلم ، واجابه بعضكم فصار له ذمة بذلك ، قالوا فنخلي سبيله ، قال : أخاف عليه غيركم ، ليذهب معه ثلاثة يوصلونه الى منزله ، ففعلوا ، فلما بلغ دفع لهم مالا وقال : لاحوطنكم بمالي وجاهي لما عاملتموني به . فلما عادوا بالدراهم قال رئيسهم : هذا أقبح من الاول تأخذون مالا على قضاء الذمام والوفاء بالعهد ، لا ابرح أو تردوا اليه المال : فقالوا : قد افتضحنا بالصبح . فقال : لئن نفتضح بالصبح خير من تضييع الذمام وقال : ما خنت ولا كذبت منذ تفتيت»(٨٨).

أما الجاحظ في كتابه « اللصوص » فقد سرد نوادر اللصوص الشطار وطرائفهم وحيلهم ولطائف خدعهم . وهو بذلك يقدم فلسفة هؤلاء اللصوص ، ودوافعهم الكامنة وراء شطارتهم ، وما يسبغونه على سلوكهم من شرعية . فقد ضمن القاضي أبو علي المحسن التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة » بعض ما ذكره الجاحظ في «اللصوص» عنهم . ومن ذلك قوله عن بعضهم : « ان هؤلاء التجار خانوا اماناتهم ، ومنعوا زكاة اموالهم . فصارت اموالهم مستهلكة بها . واللصوص فقراء اليها . فاذا اخذوا اموالهم — وان كرهوا أخذها — كان ذلك مباحا لهم . لان عين المال مستهلكة بالزكاة . وهؤلاء يستحقون اخذ الزكاة بالفقر . شاء ارباب الاموال ام كرهوا»(٨٩) .

ويستدل من استجواب التجار من قبل العيارين والشطار انهم بالفعل لا يزكون اموالهم رغم غناهم .

يتضح من خلال هذه الوصايا ، ومن اخبار العيارين ان العيار يخون أو يكذب منذ ان صار من اللصوص الفتيان . والسرقة بنظرهم هي سرقة كبار الاغنياء والبخلاء وغيرهم ممن لم يخرج زكاة او يغش او يكذب في معاملات الناس او يجحد الودائع . فتلك في رايهم هي اللصوصية الحقيقية . اذن المروءة والقيام بالفتوة هي من شيم هؤلاء اللصوص والسرقة في عرفهم عملا مشروعا مادام يتم من خلالها استعادة مال الله (الزكاة) من الفجرة والبخلاء ، واعادة توزيعه على مستحقيه الشرعيين من وجهة نظرهم(٩٠) .

الخلاصة :

في ضوء ما سبق عرضه من بدايات ظاهرة الشطار والعيارين في العصر العباسي الاول وتبلورها بشكل واضح في احداث الحرب بين الامين والمأمون ، ثم خفوت صوتها بعد ذلك لتظهر في حقب الاضطراب والفوضى الاجتماعية والسياسية والعسكرية في العصر العباسي الثاني (التركي) . وفي العصر العباسي الثالث (البويهي) . ومن خلال ممارسات أفراد هذه الطبقة من العيارين والشطار والدستور الاخلاقي الذي التزمت به الغالبية لتسويغ ما تمارسه من أعمال اللصوصية أو لاضفاء الشرعية على استخدام وسائل غير شريفة لتحقيق غايات سامية نبيلة ، وهي استعادة ما كان قد سلبه الاغنياء من حقوق الفقراء ممثلا بالزكاة ــ الفريضة المعطلة ــ بنظر هؤلاء العيارين . وان انتزاع هذه الاموال من أيوي المترفين واعادة توزيعها توزيعا عادلا على الفقراء والمعوزين أمر يقع داخل دائرة الواجب الديني .. من خلال ذلك كله يمكن ان نجمل اسباب بروز هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي ابتداء من العصر العباسي الاول، وان نضع تقييما شاملا لها .

ان بروز ظاهرة الشطار والعيارين كان نتيجة طبيعية لما آل اليه المجتمع الاسلامي في بغداد من تمايز طبقي وتباين اقتصادي . حيث عاش الامراء والقواد والاثرياء ، في مجتمع بغداد من قبل وفي مجتمع القاهرة والشام من بعد ، في غاية الغنى والترف . في حين كان العامة والعاطلون عن العمل ، واصحاب الحرف المحقرة يعيشون في اقصى درجات الفقر والحرمان . وكان هذا التباين بين من يموتون من التخمة ومن يموتون من الجوع وسوء التغذية يزداد عمقا ، في ظل الصراعات المذهبية ، او التكتلات القومية (الشعوبية) ، أو الخلل الاقتصادي والتمزق السياسي ، ومن الطبيعي ان يترافق ذلك باضطرابات وفوضى ، وضعف سلطة الدولة ، وبالتالي اختلال الامن . فظاهرة العيارين والشطار اذن هي وليدة المجتمع. واحدى افرازات التباين الطبقي الاقتصادي التي صاحبها بالضرورة اختلال الامن ، مما انعش اللصوصية الفردية ، التي ما لبثت أن تحولت الى عمل شبه جماعي منظم ومدروس وله قواعد وقيم وتقاليد . ولكن ينبغي بالمقابل ان لا نغمض اعيننا عن الوجه الاخر وهي اللصوصية الرسمية أو لصوصية بعض الجند والقادة واصحاب السلطة في ظل ظروف الفوضى وغلبة العسكر على مقاليد الامور لتصبح بغداد مرتعا خصبا للفتن والقلاقل والاضطرابات . فكان العسكر اول من يعبث فيها فأخربوا البلاد ، ونهبوا العباد ، وقطعوا الطرق على حد تعبير الطبري وابن الاثير .

وكان العامة هم ضحية هذه الاوضاع السياسية المتردية في أرجاء الدولة ،وتقع

المسؤولية ابتداء على عاتق الدولة ، لانها لم تكن جادة في الحد من التفاوت في الملكية والثروة بالطرق المشروعة لضمان حقوق وواجبات كافة الطبقات الاجتماعية ، ولتوفير الحد الادنى من متطلبات الحياة للفقراء . لذلك كان المناخ مواتيا في ظل هذه الظروف لازدهار حركة الشطار والعيارين في بغداد . خاصة وان بغداد اكبر عواصم الدنيا ، تستقطب افواجا كبيرة من المهاجرين ، وجلهم من الطبقات الفقيرة الباحثة عن عمل. فظهرت فيها تجمعات بشرية يسودها الفقر والقذارة وعصابات اللصوص والعيارين هي من افرازات هذه الطبقات(٩١) . وكلما تعسفت الدولة العباسية في كبح جماح اللصوص ، كلما تفنن هؤلاء في ايجاد الوسائل للتمرد او الثورة على الاغنياء . ومع مرور الايام اصبحت اللصوصية الفردية بتنظم جماعي له قوانين ودستور اخلاقي واعراف وتقاليد ، وسوغت لنفسها ما تقوم به لصوصية لاضفاء الشرعية على هذه الاعمال حتى من ناحية دينية . ثم ما لبثت ان تحولت الى حركة شعبية بمن انضم اليها من اهل الاصناف والصنائع والحرف الصغيرة ، وهدفهم الاساسي موجها للتجار الموسرين(٩٢) ومن يحميهم من رجال السلطة . وكان من شيمهم الا يتعرضوا لاصحاب البضائع القليلة التي تكون قيمتها دون الف درهم فضلا عن احترامهم للمرأة، فلا تفتش ولا تسلب ولا تهان .

والجدير بالذكر ان طبقة العيارين والشطار لم تشكل حركة سياسية كالزنج او القرامطة ، لانه لم يخطر ببالهم اساسا قلب نظام الخلافة ، او الثورة على الخليفة الشرعي ، لذلك رايناهم مع الخليفة الشرعي « الامين » ضد من ارادوا أن يطيحوا به . وكذلك الامر عندما ثاروا على الترك أو البويهيين كانوا مع الخليفة ضد خصومه . وجل ما كانوا يتطلعون اليه هو ان يحظوا في تحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية التي يحلم بها هؤلاء المحرومون . واذا كان خصومهم السياسيين ومن شايعهم من المؤرخين الرسميين ، قد شوهوا غاياتهم النبيلة ، وان انتفاضتهم لم تكن سوى « انتفاضة حرامية »، ففرغوا بطولاتهم حتى في وقوفهم مع الامين ضد قوات طاهر بن الحسين من أي مضمون سياسي . الا ان خصومهم لم يستطيعوا بنظر جمهور العامة ان يسلبوهم الجانب البطولي في مقاومتهم لجيش طاهر. على اعتبار انه في نظرهم ، جيش فارسي جاء ليطيح بالخلافة العربية الهاشمية ولكن الذي ينبغي أن يسجل ايضا هنا هو انه يجب أن لا يظن أن كل الشطار والعيارين كانوا ابطالا او شرفاء ، وان جميع حركاتهم كانت انتفاضات ثورية واعية او ذات غايات نبيلة . اذ ان معظم الثورات الاجتماعية يندس فيها كثير من المشبوهين ، واصحاب المصالح . فما بالنا اذا كا نابطال مثل هذه الانتفاضات هم من الشطار والعيارين اساسا . بل نجد اكثر من هذا ان بعض ذوي النفوذ والسلطة من الحكام

كان متواطئا مع حركة الشطار والعيارين(٩٢) بمعنى ان بعض افرادها كانوا أدوات بيد السلطة العباسية وكانوا يتقاسمون ما يسلبونه مع بعض افرادها .

ومجمل القول أننا عند دراسة ظاهرة الشطارة والعيارة لا نجد انفسنا أمام نوع من اللصوص بالمعنى التقليدي ينبغي أن تطبق عليهم الحدود الشرعية أو الوضعية . ولكننا نجد انفسنا أمام نوع جديد من اللصوص هم ثوار لم يستهدفوا الثورة ضد الخلافة الاسلامية أو النظام نفسه ، بقدر ما استهدفوا الثورة على الواقع الاجتماعي او القائمين على النظام وذلك عن طريق احتراف اللصوصية والعيارة(٩٤) وليس من شك ان هذه الحركة لجأت الى أساليب متطرفة وغير مشروعة . لكنها وجدت ما يبرر سلوكها في وضعها الاجتماعي والفقر والحرمان الذي تعاني منه من ناحية . وفي تعسف السلطة القائمة بما مارسته من ظلم وقسوة من ناحية أخرى(٩٥) دون أن تلتفت الى حل مشاكل الطبقات الفقيرة الذي هو أحد واجبات السلطة الرئيسية .

الحواشي :

(١) انظر المعاجم اللغوية ومنها : لسان العرب ، ابن منظور ، مادة عير .

(٢) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة شطر .

(٣) يقال : زعر ريشه اي قل وتفرق فانكشف الجلد . وزعر الرجل : قل خيره . والازعر وجمعه زُعر وزعران تعني اللص الخاطف المارد . والزعارة شراسة الخلق . وأهل الزعار تعني العيارين الذين يترددون بلا عمل ويطلقون للنفس هواها وعنانها . وتحمل مادة « ذعر » و « دعر » في المعاجم اللغوية المعنى نفسه . واما العياق فاصلها عاق . وعاق فلان اي صرفه عما اراد وحبسه عنه والعائق الذي يعوق الناس عن عمل الخير . ورجل عائق هو المانع الذي يعوق الطريق ويقطعه عن الناس . انظر : مادة عوق في المعاجم اللغوية. ـ واما الحرافيش فمفردها حرفوش وتعني ذميم الخلق والخلق وهو القاتل أو اللص. (المعاجم اللغوية ، ومعجم دوزي) مادة « حرفش ».

(٤) انظر : مادة « صعلك » في لسان العرب لابن منظور . فالصعلوك لغة هو الفقير الذي لا مال له ، غير أن أبا زيد القرشي صاحب كتاب « جمهرة أنساب العرب » ص : ١١٥ يصف الصعلوك بأنه الفقير المتجرد للغارات . ولعل القرشي هو ادق من عرّف معنى الصعلوك . والجدير بالذكر انه حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك كان فقيرا مثل الصعاليك الذين كانوا يتزددون عليه ويأوون اليه (التبريزي: شرح حماسة أبي تمام : ٩/٢). والصراع الداخلي بين القبائل في الجاهلية يرجع في بعض الاحيان الى الفقر والجوع . انظر : (الاصفهاني في حديث الاصمعي في الاغاني : ٣٩/١٤) . كما يقرر علماء الاجتماع أن الجوع هو أول الدوافع المسيطرة على حياة الانسان.

(٥) انظر تفسير هذه الظاهرة في : يوسف خليف: الشعراء الصعاليك ، مكتبة غريب ، القاهرة ص ٦٠ وما بعد .

(٦) السيوطي ، القاهرة ١٣٢٥هـ ، المزهر : ٢٦٩/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ٢٦٩/٢ .

(٨) أنظر :

E.R. Groves, **Personality and Social Adjustment. U.S.A. P. 193 .**

وانظر :

Mac, Iver, Society . New York. 1944 .

(٩) انظر : خليف ، ص ٢١٨ وما بعدها .

(١٠) الاصفهاني : الاغاني ، القاهرة ١٩٣٦ ، ٧٣/٣ وما بعدها .

(١١) القرشي : جمهرة أنساب العرب ، ص١١٥ .

(١٢) ابو عبيدة البكري ، الامثـال ، تحقيق : احسان عباس . مطبوعات جامعة الخرطوم/ ١٩٥٨ ، ص ١٥٣ .

(١٣) عمر رضا كحالة ، دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية ، دمشق ١٩٧٣ ، ص٣٠ .

(١٤) سيد حنفي ، الفروسية في العصر الجاهلي ، دار المعارف / القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦٠ .

(١٥) خليف ، ص ٢١٨ .

(١٦) محمد رجب النجـار ، حكايات الشـطار والعيارين في التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون ـ الكويت ١٩٨١ ، ص١١٥ .

(١٧) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ١٧٨/١ . وانظر: الابشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ٢٢٤/١ .

(١٨) الراغب الاصفهاني : محاضرات الادباء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١ ، ١٩١/٢ .

(١٩) **Oleary (Delacy) , Arabia before Muhammad, London 1927, p 3**

وانظر : كرات (الكسندر هجرتي) ، علم الفولكور ، ترجمة رشدي صالح ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ .

وانظر :

Muir, (Sir William), The Life of Mohammed, Edniburg 1912, p. Xc.

(٢٠) الاصفهاني ، الاغاني ، ٣٩/١٤ ـ (حديث الاصمعي) .

(٢١) خليف ، ص ٢٤٧ .

(٢٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ١٧١/١٠ (بولاق) .

(٢٣) ابن الاثير ، اسد الغابة ، الوهبية ، القاهرة ١٢٨٠هـ ، ١٧٨/٥ .

(٢٤) البلاذري : فتوح البلدان ، مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٣م ، ص ٣٠٣ .

(٢٥) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان، نشر دي غويه، بريل ليدن ١٨٨٥م ، ص٢٤٠ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٣٠٤ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ٣٠٤ .

(٢٨) الدوري ، العصر العباسي الاول ، ص١٦٨ وما بعدها .

عبد المنعم ماجد ، اضواء على البرامكة ، الموسم الثقافي في بغداد ١٩٧٣ م .

(٢٩) انظر : فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، المطبعة الاردنية ، عمان ١٩٨٢ ، ٣٥/٣ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

(٣١) الطبري ، تح. محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف ، مصر ، ٤٤٥/٨ .

(٣٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ ، ٢٦٩/٦ .

(٣٣) المصدر نفسه ٢٧٢/٦ . وانظر المسعودي: مروج الذهب، دار الاندلس ، بيروت ١٩٦٦، ٤١٥/٣ والطبري ٤٥٠/٨ وما بعدها .

(٣٤) الطبري ، ٤٤٨/٨ .

(٣٥) ابن الاثير ، ٢٧٣/٦ .

(٣٦) الطبري ،٤٤٨/٨ وما بعدها .

(٣٧) الطبري ، ٤٥٤/٨ .

(٣٨) ابن الاثير : الكامل ٢٧٢/٦ .

(٣٩) المصدر السابق ، ٤٥٥/٨ .

(٤٠) وانظر المسعودي ٤١٤/٣ . وانظر ابن الاثير، ٢٧٣/٦ ، ٢٧٤ .

(٤١) ارجع الى ذلك في الطبري ، ٤٤٨/٨—٤٥٤ ابن الاثير ، ٢٧٤/٦ .

(٤٢) الطبري ، ٤٥١/٨ .

(٤٣) المسعودي ، ٤٠٢/٣ .

(٤٤) المصدر السابق ،٤٥٦/٨ .

(٤٥) المسعودي ، ٤٠٤/٣ .

(٤٦) الطبري ، ٤٥٨/٨ .

(٤٧) المسعودي ، ٤١٤/٣ .

(٤٨) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٧٥/٦ .

(٤٩) الطبري ٤٥٨/٨ .

(٥٠) المسعودي ،٤٥٦/٣ . وانظر : الطبري ، ٤٥٦/٨ .

(٥١) المصدر السابق ، ٤٦٦/٨ .

(٥٢) ابن الاثير ، ٢٥٢/٦ . وانظر : الطبري ٤٧٦/٨ وما بعدها .

(٥٣) الطبري ، ٤٦٢/٨،٤٦٣ . وانظر المسعودي، ٤١٦/٣ .

(٥٤) المصدر نفسه ، ٤٦٣/٨.وما بعدها .وانظر: ابن الاثير ، الكامل ٢٧٦/٦ .

(٥٥) ابن الاثير ، الكامل ٢٧٦/٦ . وانظر :الطبري ٤٦٣/٨ ، ٤٦٤ .

(٥٦) ابن الاثير ، الكامل ٢٧٦/٦ . الطبري ، ٤٦٥/٨ .

(٥٧) الطبري ، ٤٦٥/٨ .

(٥٨) الطبري ، ٤٦٧/٨ . وانظر : المسعودي ، ٤٠٥٩/٣ . وهو ينسبها لشاعر اخر .

(٥٩) المصدر نفسه ، ٤٦٨/٨ .

(٦٠) الطبري ، ٤٦٧/٨ ، ٦٦٨ .

(٦١) الطبري ، ٤٦٨/٨ .

(٦٢) المصدر السابق ، ٤٧٠/٨ .

(٦٣) المصدر نفسه ، ٤٦٩/٨ .

(٦٤) المسعودي ، ٤٦/٣ .

(٦٥) المصدر السابق ، ٤٧٥/٨ .

(٦٦) ابن الأثير ، الكامل ،٢٧٦/٦ .

(٦٧) انظر : الطبري ، ٤٦٧/٨ . وايضا : ابن الاثير ، الكامل ، ٢٧٧/٦.

(٦٨) الطبري ، ٤٧٦/٨ .

(٦٩) المسعودي ، ٤١٠٦/٣ .

(٧٠) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٧٧/٦ .

(٧١) المصدر نفسه ، ٢٧٧/٦ .

(٧٢) المسعودي ، ٤٢٠/٣٠ .

(٧٣) وانظر : ابن الاثير ، الكامل ، ٢٨٣/٦ . وهناك اختلاف في بعض التفصيلات . واما الطبري فأورد المضمون (٤٧٨/٨) ولكن هناك اختلافات كبيرة فالسبعة الاف مقاتل ذكرها سبعمائة وكذلك عدد الخيول ذكرها ألفا وليس سبعة الاف .

(٧٤) انظر : الطبري ، ٤٧٩/٨ .

(٧٥) فاروق عمر ، ٥٥/٣ .

(٧٦) انظر : المسعودي ، ٤/١٦٠ .

(٧٧) ابن الاثير ، الكامل ، ٤/١٣٦ .

(٧٨) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : ص : ١٢٠ .

(٧٩) ادم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبد الهادي ابو ريدة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص : ٣٠ نقلاعن مخطوطتي المنتظم وكتاب العيون .

(٨٠) المسعودي ، ٣/٤١١ .

(٨١) المسعودي ، ٣/٤١٦ .

(٨٢) المصدر نفسه ، ٣/٤١٧ .

(٨٣) المصدر نفسه ، ٣/٤١٥ .

(٨٤) ابن تيفور ، تاريخ بغداد ، ص: ١٨٧ .

(٨٥) الراغب الاصفهاني ، ٣/١٩٨ وما بعدها .

(٨٦) الجاحظ ، الحيوان ، دار صعب ، بيروت ١٩٧٨ ، ٢/٣٩٢ ، ٣/٥٤ .٥

(٨٧) المصدر السابق ، ٣/١٩١ .

(٨٨) المصدر السابق ، ٣/١٩٢ .

(٨٩) القاضي ابو علي المحسن التنوخي :الفرج بعد الشدة : تح. عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٨ ، ٤/٢٣١ وما بعد .

(٩٠) الراغب الاصفهاني ، ٣/١٩١ .

(٩١) انظر : علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (٦ اجزاء) بغداد ١٩٦٩ .

(٩٢) د. حمدان الكبيسي ، اسواق بغداد ، الدار الوطنية ، بغداد ١٩٧٩ ، ص٣٧٤ .

(٩٣) انظر تفاصيل ذلك : حسين مؤنس : الحضارة ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨، ص ٢٦٧ وما بعدها . استنادا الى ما ورد في الطبري ، ٨/٤٦١ وما بعدها .

(٩٤) الجدير بالذكر ان كلمة عيار ظلت تستخدم في تركستان حتى وقت قريب بمعنى «اللص الشريف » الذي يلجأ الى أعمال اللصوصية لانه يفشل في تسوية وضعه الاجتماعي أو حريته السياسية .

(٩٥) انظر الى ما اشارت اليه المصادر التالية : مسكويه : تجارب الامم ، تح امدروز ،مصر ١٩١٤ ، ٦/٣٠٣ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (١٤ جزءا) القاهرة ١٩٣١ ، ١/٨١ .

اليعقوبي ، لبدن ١٩٨٢ ٣/١٣٢ – ١٤٦. وانظر محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ١٩٨١، ص ٧٩ وما بعدها .



راي للمناقشة

حول اصل الاسم « سورية »

د. فاروق اسماعيل
جامعة حلب

على ارض شرقنا القديم نهضت أقدم الحضارات الانسانية ، وسطرت اقدم الوثائق الكتابية التي تروي صفحات زاهية عن تاريخ المنطقة بمختلف جوانبه . وكانت ارض سورية موئلا ثراً حيوياً ، ففي رحابها واركانها تجولت القوافل التجارية ، وازدهرت الحياة الزراعية والرعوية ، وبرزت ممالك ودويلات ، ودارت جولات من الحروب . كذلك برع سكانها في ابداع ثقافية متميزة شملت الفنون والاداب .

منذ اواخر القرن الماضي ظهرت آراء كثيرة في تفسير اصل الاسم « سورية »، وتحول الامر الى موضوع مثير ومسألة تعددت فيها الاراء الى حد كبير ، دون الوصول الى نتيجة نهائية . والسبب في ذلك هو غياب الوثائق التاريخية العلمية التي تقدم تفسيرا مباشرا ، لذا يبقى الامر في اطار الاقتراحات المعتمدة على استنتاجات شخصية ذاتية . وهنا يبرز الاختلاف في المنطلقات والمصادر المعتمدة وكذلك في الغايات المنشودة ، وليست جميعها علمية تاريخية . وهكذا تعددت الاراء بشكل لانجده في كثير من المسائل الاخرى .

هذه محاولة لبسط جميع الاراء التي طرحها المستشرقون المختصون في حضارات الشرق القديم مع مناقشة لها . وهي لا تهدف الى تقديم جواب نهائي للمسألة ، لان ذلك في اعتقادي سيكون في المحصلة اغلاقا لباب يجب ان يبقى مشرعا ريثما تتوافر قرائن ووثائق اخرى .

لا خلاف في ان الاسم بصيغته الحالية يوناني ، وان اول من ذكره هو المؤرخ هيرودوت (ولد سنة ٤٨٤ ق.م) ثم كسينوفون (٤٢٦ - حوالي ٣٥٥ ق.م) .ولكن التساؤل الذي يطرح نفسه هو : علام اعتمد اليونان في هذه التسمية ؟ وما المصدر الذي اشتق منه الاسم ؟ وما التبدلات التي طرأت عليه . . . ؟ الخ .

لعل المستشرق الالماني نولدكه(١) T. Nöldeke هو اول من تعرض للمسألة عام

١٨٧١م ، ورأى ان الاسم مشتق من اسم بلاد آشور (شمال بلاد الرافدين) ، ثم انتقلت الدلالة الجغرافية وتوسعت لتشمل المنطقة المتاخمة لها غربا .

في اعتقادي ثمة شرطان اساسيان يجب ان يتوافرا في مطابقة من هذا النوع ، اعني الاطار الجغرافي الموحد والتوافق في الاشتقاق اللغوي . وواضح ان راي نولدكة يفتقر لكليهما ، فللبلدين منذ القديم حدود متميزة خاصة ، وان تعرضت عبر التاريخ الى التداخل والاتساع او التقلص ، وتباين في كثير من المقومات والمظاهر الحضارية ، واختلاف في الهوية السكانية . ومن ناحية ثانية ليست لدينا شواهد مماثلة تبين حدوث مثل هذا الانتقال الدلالي الجغرافي الذي يطرحه نولدكه .

لقد خلط نولدكه ، كما فعل عدد من كتاب العصر الكلاسيكي ، بين الاسمين بسبب التشابه اللفظي ، وهو اتجاه مرفوض في دراسات علم اللغة رفضا قاطعا .

في قاموس العهد القديم ، الصادر عام ١٩٠١ ، يتجه سميث(٢) اتجاها اخر اذ يربط بين الصيغة اليونانية للاسم (سوريا) واسم مدينة صور المعروفة . وهو يرمي الى تأكيد الاصل العبري للاسم لقناعته بأن كلمة صور عبرية بمعنى « الصخرة ، المنحدر الصخري » . وما يفند هذا الزعم امران ، هما :

١ ــ كلمة صور ليست عبرية فحسب ، وانما هي من الكلمات التي تشترك فيها عدة لغات سامية قديمة ، فقد وردت في ملحمة جلجامش المدونة باللغة الاكدية (البابلية القديمة ، النصف الاول من الالف الثاني ق.م) دالة على الصخور(٣) . كما وردت اسما لمدينة صور في الكتابات الاوغاريتية (القرن الثالث عشر ق.م)(٤) ، ثم في النقوش العبرية (نقش سيلوح)(٥). وفي الارامية الدولية (القرن الخامس ق.م) تحولت الصاد طاء (طور)(٦) ، وكذلك في السريانية بمعنى « هضبة ، جبل »(٧) .

٢ ــ معروف ان اليونان عرفوا المدينة باسم Tyre (تلفظ تور) ، أي بالتاء ، وهي صيغة متأثرة بالارامية على الارجح . فاذا كانوا قد اشتقوا اسم سوريا من صور ، فلماذا ابدلوا الصاد تاء ؟.

وفي عام ١٩٤٥ نشر هـ . كراب(٨) دراسة عن اله اناضولي قديم يصور في هيئة اسد ويسمى « سوريا » ، وحاول الربط بين الاسمين . وهو رأي لا يدعمه سوى التشابه اللفظي ، ولا تسنده اية أدلة علمية .

في الآونة الاخيرة ساد بين أوساط الباحثين راي يلقى قبولا . وهو يتلخص في ان الاسم مشتق من اسم الشعب الخوري (في الدراسات العربية : الحوري ،

الحوريون) . والحوريون شعب لا يمت بصلة الى مجموعة الشعوب المعروفة بـ (السامية) ، ولكنه اصيل في منطقة الشرق الادنى القديم ولا سيما سورية . وهو من الشعوب الهند اوربية ، كان مستقرا في البدء في مناطق شمال غرب ايران وارمينيا وفي اواخر الالف الثالث ق.م بدأ بالانتقال والتغلغل جهة الغرب والجنوب الغربي ، وتوزع في اصقاع شتى من بلاد الرافدين وسورية ، وبدأ ذكر الحوريين يتردد في الوثائق الكتابية المسمارية بدءا من الفترة المسماة بـ « عهد سلالة اور الثالثة أو البعث السومري » ، وكان لهم وجود متميز في ابرز المراكز الحضارية في الالف الثاني ق.م مثل : نوزي ، ارابخا ، شبت انليل / شخنا ، ماري ، ايمار ، الالاخ ، اوغاريت .

شكل الحوريون عنصرا اساسيا في المملكة التي انشأها الميتانيون في منطقة مثلث الخابور (حوالي ١٤٦٠ — ١٣٣٠ ق.م) ، وكانت واشوكاني — التي يفترض وقوعها في منطقة منابع الخابور — عاصمة لها . في عهد هذه المملكة برزت علاقات متميزة بين حكام ميتاني والسلالات الحاكمة في مصر ، وتبادلوا الرسائل وعقدوا الاتفاقات للحد من الخطر الحثي . وبشكل عام سيطر الحوريون لفترة من الزمن على معظم مناطق شمال وشمال شرق سورية ، وكانت نهاية سيادتهم السياسية على يد الحثيين .

تطلق الوثائق الكتابية المصرية اسم خورو على المناطق السورية ، وبالاسم نفسه ذكرتها الرسائل المكتشفة في تل العمارنة بمصر ، وهي رسائل مدونة باللغة الاكدية تبادلها امراء سورية وفلسطين مع فراعنة مصر (القرن الرابع عشر ق.م) وكان الاسم يشير الى المنطقة المجاورة لمصر من جهة الشمال مقابل اسم كوش الذي كان يشير الى المنطقة الواقعة جنوب مصر . كما سمى المصريون البحر الاحمر — وفي بعض المصادر البحر المتوسط — باسم «بحر خورو » لانه يفصل بلادهم عن بلاد خورو . اما النصوص المصرية القبطية التالية فقد اطلقت عليه اسم « بحر شوري »(٩) .

لذلك يعتقد ان اصل الاسم هو (خ ر و) ، ثم ابدلت الخاء في القبطية شينا (ش ر ي) ، وهو ابدال مقبول لتوافر شواهد عدة مماثلة في النصوص القبطية . كما ان الابدال بين الصائتين (و/ي) امر مألوف شائع . وجدير بالذكر ان الاسم ورد بالصيغة نفسها — مع اضافة النون — في وثائق اوغاريت (ش.ر.ي.ن)(١٠) .

ويرى الذاهبون الى هذا الراي ان اليونان اعتمدوا على الصيغة الاخيرة بعد قلب الشين سينا ، وهو شائع ايضا .

من جانب آخر فان اسم شوري شائع في الوثائق المسمارية ، ويطلق دائما على مواقع ومدن حورية . فثمة مواقع عدة بهذا الاسم كانت ماهولة بالحوريين ، وتقع

في مناطق متفرقة . فقد اوضحت دراسات تناولت المعطيات التاريخية الجغرافية في الوثائق المسمارية وجود مدينة باسم شوري في منطقة مديات التركية (ربما في تل سوار غرب مديات)(١١) . واخرى في منطقة مثلث الخابور ذكرت في وثائق شاغر بازار وماري وتل ليلان(١٢) . كما اشير الى مدينة بالاسم نفسه في وثائق نوزي (يورغان‌تبه قرب كركوك) .

ومن الاراء التي يمكن عدها ثانوية تفتقر الى حجج مقنعة نذكر :

١ ـ الاسم مشتق من اسم جبل حرمون بصيغته المذكورة في العهد القديم (سريون)(١٣) .

٢ ـ مصدر الاسم هو الاسم المذكور في نقش للملك كسرى ، حيث ورد فيه (سيرارا وجبل لبنان) (١٤) .

معلوم ان منطقة سورية عرفت في النصف الاول من الالف الاول ق.م باسم آرام (العليا والسفلى)(١٥) لانها كانت مأهولة بالاراميين الذين انتشروا في مختلف أرجائها ، واسسوا فيها ممالك ودويلات صغيرة كانت في صراع دائم مع الاشوريين بهدف التخلص من نفوذهم في المنطقة(١٦) . كما أن اللغة الارامية في ذاك العهد تفردت بخصائص لغوية مستقلة(١٧) . بعد ذلك انتشرت الارامية كلغة مراسلات دولية في مناطق متفرقة وصلت إيران وما وراءها ومصر . ثم برزت خصوصيات لهجوية واضحة بسبب سعة رقعة الانتشار الجغرافي وتعدد الممالك لدرجة تسمح بالحديث عن لغات آرامية منها : التدمرية والنبطية والفلسطينية ، وآرامية جزيرة الفيلة بمصر ، وارامية مملكة الحضر .. وغيرها .

في القرون الاربعة السابقة للميلاد شهدت أرض سورية صراعات بين القوى الاجنبية على ارضها كالفرس واليونان والرومان . وكان سكانها الاراميون والعرب يحاولون اثبات الذات والاستقلال بشؤونهم ، وقد انعكس ذلك في الاحداث التي شهدتها أبرز المدن أو الممالك السورية كتدمر والبتراء والرها وانطاكية .

لقد تبنى اليونان الاسم الجديد للبلاد (سوريا) ونشروه بدلا من (آرام) ، واعتمادا على ذلك سموا سكان البلاد أيضا باسم جديد هو (سوريان ، سريان) أي السوريين في صياغة يونانية . ومع فجر الديانة المسيحية التي اعتنقها قسم كبير من السكان ، تمسك هؤلاء بالتسمية الجديدة التي توحد بينهم ، ونبذوا الاسم القديم لهم (الاراميين) لانه يذكر بعهود وثنيتهم .

في هذه الفترة تميزت مملكة الرها الارامية الاصل كمركز اساسي هام من مراكز الديانة الجديدة ، وبرزت كذلك لغة الرهـا ، وانتشرت وطغت على اللغات الارامية الاخرى التي اختفى استعمالها مع مرور الزمن . وكان طبيعيا ان يشمل تغير اسم المكان اسم لغتهم ايضا ، فصارت تسمى (السوريانية ، السريانية) اي السورية في صياغة يونانية ايضا .

فالناطقون بهذه اللغة فيعصرنا هم آراميو الاصل سوريو الوطن مسيحيو الديانة.

الحواشـــي :

(١) راجع : Hermes 5 (1871) 443-468

(٢) Smith's Bible Dictionary (Syria) 669

(٣) راجع معجم اللغة الاكدية :

W. von Soden: AHw 1115.

(٤) راجع معجم اللغة الاوغاريتية :

C. H. Gordon : Ugaritic Textbook. 476 .

(٥) راجع معجم النقوش السامية الشمالية الغربية :

Ch— F. Jean; J. Hoftijzer : DISO, 247 .

(٦) انظر المعجم نفسه ، 110 .

(٧) انظر قاموس كوستاز ص ١٢٥ .

(٨) H. Krappe: The Anatolian Lion God . JAOS (1945) 144-145.

(٩) راجع الدراسة التالية والمراجع المذكورة فيها :

J.A. Tvedtnes : The Origin of the Name «Syria». JNES(1981) 139-140 .

(١٠) انظر المرجع المذكور في الحاشية (٤) . ص ٤٩٥ .

(١١) انظر :

K - H. Kessler : Untersuchungen zur historischen Topographie Nordmesopotamien ......, 1979, 57 ff.

(١٢) انظر :

F. Ismail : Altbabylonische Wirtschaftsurkunden aus Tall Leilan (Syrien) . Diss. Uni . Tübingen, 1991, 147 .

(١٣) ذكر في سفر التثنية ٣ : ٩ والمزامير٢٩:٦.

(١٤) راجع :

J. B. Pritchard : ANET, 291.

(١٥) راجع مثلا النقوش المكتشفة في السفيرة (قرب حلب) .

(١٦) راجع : علي ابو عساف : الاراميون ، دار اماني ١٩٨٨ .

(١٧) حول لغة تلك الممالك الارامية القديمةراجع: فاروق اسماعيل : لغة نقوش الممالك الارامية رسالة ماجستير . جامعة حلب ١٩٨٤ .

متى كان لسورية والعراق حدود
مميزة خاصة ؟!

د. محمد محفل

يسرد لنا الباحث في الدراسة التالية عدة آراء حول اشتقاق اسم « سورية » ليستبعدها بشكل أو بآخر ، باستثناء الرأي القائل أن الاصل اسم « سورية » ارتباطا باسم الشعب « الخوري / الحوري » ، ولحسن الحظ أن الباحث يقول في فاتحة الدراسة ، ان اجتهاده لا يهدف الى « تقديم جواب نهائي للمسألة ، لان ذلك في اعتقادي سيكون في المحصلة اغلاقا لباب يجب ان يبقى مشرعا ريثما تتوافر قرائن ووثائق اخرى. » ، واعتمادا عليه ، نعرض رأي (لجنة الاشراف على مجلة «دراسات تاريخية ») لتوضيح بعض النقاط ، شاكرين للكاتب تعاونه واهتمامه بموضوع ، صريح الصلة بتاريخنا القومي .

من الامور المسلم بها ، واعتمادا على الوثائق المعروفة حتى الان ، كان المؤرخ اليوناني (هرودوتس ، حول ٤٨٤ ــ حول ٤٢٠ ق.م .) اول من ذكر التسمية الجغرافية « سورية » في مؤلفه (التاريخ ، الكتاب الاول ، ١٠٥ ، الخ..)، ثم شاعت التسمية فيما بعد لدى غيره من الكتاب الاغريق ، قبل ان تعم في الكتابات اللاتينية، اعتبارا من القرن الاول ق.م ، والجدير بالذكر وجود اشارة الى « سورية ، سوري » في مصدر يوناني آخر ، للشاعر المسرحي اليوناني (اسخيلوس ، حول ٥٢٥ ــ حول ٤٥٦ ق.م .) في مسرحيته « آغا ممنون ١٣١٢ » ،مشيرا الى قصر الملك ، الذي غدرت به امرأته بمساعدة عشيقها ، بعد عودة « آغا ممنون » من حرب طروادة : « وكأن الدار ، عندما نسمعك ، لا تعبق بالاريج السوري » ، علما ان « اسخيلوس » قد وضع « آغا ممنون » (اولى ثلاثيته المأساوية ، أورستيا) قبل تواريخ هرودوتس بعشرات السنين .

يطرح الكاتب عدة تساؤلات حول أصل التسمية « سورية » والتبدلات التي طرأت ــ عبر العصور ــ على مصدرها (الخوري / الحوري) لندركها لاحقا باسم « سورية » اعتبارا من عصر هرودوتس . ويبدا بتنفيذ قول المستشرق الالماني

(ثيودور نولدكه T. Noeldeke ، ١٨٣٦ ــ ١٩٣٠) ، الذي ربط بين اسم « سورية Syria » وآشور Assyria ، شمال بلاد الرافدين » . ويرى الكاتب ، ان راي (نولدكه) يفتقر الى شرطين اساسيين ليصبح مقبولا ، اما هذان الشرطان ، فهما في راي الكاتب :

١ ــ الاطار الجغرافي والتوافق في الاشتقاق اللغوي .

٢ ــ وجود شواهد جغرافية مماثلة تدعم فرضية المستشرق الالماني .

فيما يتعلق بالشرط الاول يقول الباحث ، ردا على نولدكه « .. فللبلدين منذ القديم حدود متميزة خاصة ، وان تعرضت عبر التاريخ الى التداخل والاتساع والتقلص ، وتباين في كثير من القوميات والمظاهر الحضارية ، واختلاف في الهوية السكانية .. ».

وهنا ، وفي رأينا ، لابد من القول اننا لا نشارك الباحث في رأيه .. فمتى كان للبلدين حدود متميزة خاصة ، سواء في العصور القديمة ام العربية الاسلامية ، والحديثة فالمعاصرة ، حتى الحرب العالمية الاولى ، فاتفاقية (سايكس ــ بيكو) ؟! ولو اخذنا حصرا الديار الاشورية ، ولا نعني الامبراطورية الاشورية الحديثة ، بأطرافها المترامية ، افليست هي حاليا (محافظة نينوى وعاصمتها الموصل) المتاخمة لمحافظة (الحسكة / الجزيرة) .

ثم ، أين تقع (تل ليلان : شوبات انليل / شخنا) حاضرة الملك (شمش أدد الاول ، القرن الثامن عشر ق.م) ، الاموري الاصل والذي اعتلى عرش آشور ، اليست في الجزيرة السورية (٢٥ كم الى الجنوب الشرقي من مدينة القامشلي .؟!) فهل ننسبها الى الاشوريين أم الى الاموريين الغربيين (السوريين) .. ؟ ومن أين انطلق مؤسسو السلالة البابلية الاولى(القرن التاسع عشر ــ السادس عشر ق.م) ؟!. من الغرب كما نعلم (سورية) .

اما الحمدانيون ، فعلى العكس ، انطلقوا من ديار الموصل وأرض الجزيرة السورية غربا ليجعلوا من حلب حاضرة امارتهم .

ثم تأتي الى اتابك الموصل (عماد الدين زنكي) فنور الدين الشهيد وصلاح الدين الايوبي ، ألم ينطلقوا من شمال العراق ، بلاد آشور نحو الغرب سورية فمصر ؟!

وكيف تغيب عن بالنا (قضية الموصل) والصراع على نفطها ، بعد الحرب العالمية الاولى ، ورسم الحدود المصطنعة (سايكس / بيكو) !؟.. فهل هي سورية (في راي فرنسا) أم عراقية (وفقا لمنطق الاستعمار البريطاني).

ثم الملك الفيصل الاول ، الم يكن في سورية قبل ان يعتلي عرش العراق ؟! ونعد بالعشرات الزعماء السوريين الذين انتقلوا معه الى العراق ولعبوا دورا كبيرا في تاريخ العراق المعاصر .

فهل بعد هذا يمكننا القول ان للبلدين «منذ القديم حدودا متميزة خاصة ..»؟!.

اما بالنسبة للشرط الثاني : انتقال الدلالة الجغرافية ، فدراسة لغوية تاريخية لمختلف اسماء المواقع الجغرافية في بلادنا . تؤكد مفهوم « الشواهد المماثلة ».

وبالاضافة لكل ذلك ، فهرودوتس الذي اطلق تسمية « سورية » هو نفسه الذي عمم اسم « فلسطين » (الكتاب الاول ، ١٠٥، الثاني ١٠٤، الثالث ٩١، الخ.).

اما النص الذي يجعلنا نميل الى ما ذهب اليه نولدكة ـ ونعتقد ان المستشرق الالماني قد اعتمد عليه لبناء فرضيته ـ هو التالي (هرودوتس ، الكتاب السابع ، ٦٣) : « والاشوريون كان لهم خوذ نحاس منسوجة ومشبكة بطريقة غريبة الوصف ، وحرابهم وتراسهم وخناجرهم تشبه تقريبا سلاح المصريين ، وفوق ذلك كانوا يحملون نبابيت خشب لها عجر من حديد ودروعا كتانية كاللباد ، وكان اليونانيون يسمونهم سوريين والبرابرة آشوريين وكان الكلدانيون منضمين اليهم وكان قائد الفريقين أو تسبس بن أرتاخايس » .

نجد هذا المقطع في سياق النص الذي وضعه هرودوتس ، ساردا فيه وقائع الحرب الفارسية ـ اليونانية الثانية (٤٨١ ـ ٤٧٩ ق.م)، في عهد (خسايارسا / سرخس) الفارسي ، حيث حشد « ملك الملوك » قطيعا بشريا هائلا ، مؤلفا من مختلف شعوب الامبراطورية الفارسية ، الممتدة من أفغانستان حتى مصر .

نحن نعتقد ان ما جاء اعلاه يرجح قول نولدكه . ونود أن نطرح السؤال التالي:

لماذا نستبعد الاشتقاق « السامي » ونجهد النفس في البحث عن الاصل « الهندو ـ أوروبي » .. ثم ، ما هو الارث اللغوي (الخوري / الحوري) في الطوبوغرافية التاريخية لبلادنا ، مقارنة بالالاف التي لا حصر لها لاسماء المواقع التاريخية والجغرافية لبلادنا .

الملك والأسرة المالكـة في فينيقية

د. احمـد حامـدة
جامعـة دمشـق

يعالج هذا البحث دور الملك والأسرة المالكة في فينيقية . وفينيقية اسم اطلق على الارض ، في حين سمي الشعب باسـم الفينيقيين . والاسـم اغريقي المصدر يرجـع اشتقاقه الى أصل لغوي معناه « الارجوان » .

تقع فينيقية على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وتتكون من أرض ضيقة محصورة بين مصب نهر العاصي شمالا ونهـر بيلوس (النعمين حاليا في فلسـطين) جنوبا ، يحدها من الشرق جبال اللاذقية وسلسلة جبال لبنان. ونظرا لاقتراب الجبال من البحر في معظم المناطق كانت الاراضي الصالحة للزراعة محدودة لا تفي باحتياجات السكان ، كما أن انتشار السلاسل الجبلية جعل اتصالهم بالداخل وفيما بينهم صعبا الى حد كبير ،هذا بالاضافة الى النزعة التوسعية لجيرانهم الاقوياء آنذاك من الآشوريين والبابليين ثم الاسكندر وخلفائه ، وغيرهم . كل ذلك ساعد منذ فترة مبكرة على تكوين «دويلات مدن » صغيرة مستقلة اداريـا ، أو شـبه مستقلة ، ودفع الفينيقيين الـى الاهتمام بالبحر وتوجيه أنظارهم نحوه(١) .

أطلق الفينيقيون على وطنهم اسم كنعان ، وهي كلمة لـم يتفق الباحثون علـى معناها بعد . اسمها في الفينيقية (كينع ، أو كنعان) . ونجد في المصادر أنها أطلقت على البلد ، في حين اطلق اسم الكنعانيين على الشعب وظهر هذا الاسم بالقرن الخامس عشر قبل الميلاد في أحد النقوش الاكادية على تمثال أدريمي ، وعلى الشاهدة المصرية لأمنوفيس الثاني في ممفيس ، كما ظهر في ألواح تل العمارنة ايضا .

اضافة لذلك تردد ذكر هذا الاسم في الكتابات على النقود في الفترة الهيلينستية في فينيقية ، فقد ورد على أحد النقود « لأوديكيـا في كنعان » ، كما استعمله فيلـون الجبيلي في القرن الاول الميلادي . ونسبه الى الكنعانيين سـمي البونيون في القـرن الرابع الميلادي chanani, chananaei (٢) .

الى جانب ذلك ورد اسم كنعان في العهد القديم ، اذ يذكر أن لكنعان ولدين هما: صيدون وحيت(٣) .

دراسـات تاريخيـة ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار ــ حزيران ١٩٩٤

وتذكر المصادر خمسا وعشرين مدينة تكونت خلال هجرة الكنعانيين على طول الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، أهمها **اوجاريت ، وجبيل ، وصيدا ، وصور ، وطرابلس ، وأرواد ، وبيروت ، عكا ، الخ..** وكانت على طراز المدن في العالم اليوناني - اي **دويلات مدن** ، كونت كل مدينة وحدة سياسية مستقلة ، تمد سيطرتها على المدن والضواحي التابعة لها . وجدت بدون شك فترات مارست فيها احدى المدن الكبرى الزعامة على المدن الاخرى . ولم تكن هناك تحالفات مدن بل تحالفات ذات غايات محددة ولفترات مؤقتة ، كما كان الحال في مدينة صور اذ لم تكن هناك قيادة عسكرية موحدة(٤) .

تشكلت دويلات المدن هذه أرستقراطيا ، وكان معظمها مستقلا ، ولم تكن هناك علاقات بين المدن المتفرقة ، بل كانت هناك مطامح قوية لبعض المدن وفرضت سيطرتها في حدود المناطق المجاورة فقط ، لان ذلك كان ضروريا لتأمين الزراعة لها ، وكان حكم هذه المدن ملكيا وراثيا ، وسلطة الملوك مطلقة ، وخصوصا قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، اجتمعت في أيديهم المناصب الاخرى ، كمنصب القاضي وقائد الجيش وكبير الكهنة .

وبدءا من القرن الثاني عشر ق.م جلب المهاجرون من بحر إيجة نظريات بلادهم السياسية الى فينيقية ، الى صور وصيدا وجبيل وأرواد في القرن السادس قبل الميلاد ، وتطلع كل منهم الى زيادة قوته على مر الزمن(٥) .

الى جانب ذلك وجدت تسمية أخرى للفينيقيين وهي : الصيدونيون ، ولم يقصد بها سكان مدينة صيدا فقط بل كامل الشعب الفينيقي(٦) .

وبالنسبة لأصل الفينيقيين هناك آراء متعددة :

ـ احد هذه الآراء نقل عن فيلون الجبيلي ، يصف الفينيقيين بأنهم سكان البلاد الاصليون (جبيل) ، ليس فقط الاشخاص وانما الالهة أيضا ، وبشكل مطلق فان الحضارة الانسانية بكاملها تنتسب الى منطقتهم(٧) .

ـ غير ان هيرودوت يروي أنهم جاؤوا من البحر الارتيري (البحر الاحمر) عبر البحر الميت الى ساحل البحر المتوسط(٨) . في حين يرى سترابو وبلينيوس أن الموطن الاصلي للفينيقيين يقع على ساحل الخليج العربي حيث وجدت المدن والمعابد الفينيقية(٩). ويذكر جوستينوس أن الفينيقيين شردوا من وطنهم بسبب هزة ارضية، واستقروا اولا على البحر السوري (البحر الميت) ، ثم انتقلوا الى ساحل البحر المتوسط(١٠) .

ومن المعروف أن الكنعانيين قد انتشروا من الجنوب باتجاه الشمال ، وتشير النصوص المكتشفة في راس شمرة ، والتي تعود الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى أن الفينيقيين قد زحفوا من شبه جزيرة سيناء او النقب ، وتوسعوا باتجاه الشمال ، وهذا ما يذكره هيرودوت أيضا ، الذي يقول انهم نزلوا في خليج العقبة قادمين من منطقة البحر الاحمر(١١) .

وقد اجمع الباحثون على ان الفينيقيين يعدون أحد اكبر الشعوب المتفرعة من الكنعانيين .

بدأ التاريخ الحقيقي للفينيقيين مع نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ، اما الفترة الاقدم فمعلوماتنا عنها قليلة ، وهي خاصة بمناطق محددة ولفترات متقطعة كما يتبين من رسائل تل العمارنة واكتشافات جبيل . ويمكن تقسيم الحقبة من ٣٠٠٠ (بدء هجرة الفينيقيين) الى ١٢٠٠ قبل الميلاد ، الى اربع مراحل :

١ ــ المرحلة الاولى وامتدت حتى غزو الهكسوس لمصر ، قامت فيها بين المدن الفينيقية ومصر اتصالات نشيطة ، وظهر الفينيقيون خلالها تابعين لمصر .

٢ ــ المرحلة الثانية بدأت مع خضوع مصر للهكسوس نحو ١٧٠٠ ق.م وانتهاء السيادة المصرية على فينيقية لتحل محلها سيادة الهكسوس .

٣ ــ المرحلة الثالثة وتمتد حتى ١٤٠٠ ق.م وتبدأ بعودة المصريين لغزو فينيقية والزام المدن الفينيقية بدفع الجزية للمصريين (حبوب ــ زيت ــ خمر ــ بخور ...).

٤ ــ مع أمنوفيس الثالث (١٤١١ ق.م ــ ١٣٧٥ ق.م) تبدأ المرحلة الرابعة ، وانتهت بزوال النفوذ المصري عن فينيقية بصورة نهائية(١٢) .

واما الحقبة ما بين ١٢٠٠ و ٧٥٠ ق.م أي عصر الاستقلال : فقد اتصفت بتأسيس ما عرف بالمستعمرات الفينيقية في منطقة البحر المتوسط بكاملها ، ووصول الكتابة الفينيقية والنتائج العلمية والفنية الى اليونان ، وتأسيس قرطاجة .

وفي الفترة الواقعة بين ٧٥٠ ق.م والفتح العربي الاسلامي ، كان على المدن الفينيقية ان تفقد الكثير من استقلالها .

ففي ظل الملك الاشوري تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧ ق.م) أصبح جزء كبير من فينيقية مقاطعة آشورية ، وقد ادى تعيين الاشوريين لملك في صيدا ووال في صور الى دفع الجزية لهؤلاء ، وتقييد استقلال الفينيقيين بشكل دائم .

وفي ظل السيادة البابلية الحديثة ، تم القضاء على الملكية من قبل القضاة ، وبقي الاستقلال محدودا . وبانتهاء السيادة البابلية على يد الفرس ، حصل الفينيقيون مرة اخرى على قدر كبير من الاستقلال ، الا انهم ظلوا تحت السيادة الفارسية ، وكان عليهم دفع الاتاوة . وبعد محاولات فاشلة في القرن الرابع قبل الميلاد في سبيل الحرية والخلاص من الفرس ، وقع الفينيقيون تحت سيادة الاسكندر الكبير (٣٣٣ق.م) ، الذي دمر مدينة صور لمقاومتها . وخلال العصر الهلنستي ازداد النفوذ الهيليني وادى بالتالي الى اختلال التاريخ الفينيقي ، فظهر تاريخ للمدن الفينيقية المتصارعة ، التي ازداد ضعفها فيما بعد لتصبح لعبة في يد القوى المتصارعة في سورية وفلسطين .

وبعد غزو الرومان لفينيقية حصلت المدن الفينيقية من جديد على استقلالها ، واصبحت مركزا للتجارة والثقافة في ظل (السلام الروماني) وحتى العصر البيزنطي(١٣) .

والمعروف ان الفينيقيين اخترعوا الابجدية ، واعطوا لأوربة اسمها ، واشتهروا بالملاحة البحرية وكانوا من أفضل الملاحين البحريين في العالم القديم ، فطافوا حول أفريقية ، وساهموا في تطوير صناعة الزجاج وصقله ، ولمع اسمهم في صناعة الصباغ الارجواني بلونيه ، الزهري والقرمزي . مع العلم انه لم يتاجروا بالصباغ الارجواني نفسه بل بالاقمشة المصبوغة به ، وكان باهظ الثمن والحصول عليه يكلف مبالغ طائلة ، كما كان استعماله مقتصرا على الطبقات الحاكمة والغنية آنذاك (٩) . بالاضافة الى ذلك برز الفينيقيون في صناعة العاج والحفر على العظام ، وعملوا بصيد الاسماك والاعمال البحرية على السواحل ، وسيطروا فيما بعد على البحر ، وبنوا الموانىء ، وتوسعوا في حوض البحر الابيض المتوسط ، واسسوا المحطات التجارية والبحرية وامتد نفوذهم حتى انكلترة(١٤) .

واعتمادا على المصادر المتوافرة سوف نحاول ان نعطي فكرة عن دور الملك والاسرة المالكة في فينيقية ونوضح ذلك بالدليل ، لغويا وتاريخيا . وقبل الشروع في ذلك لا بد من الاشارة الى أن البناء الاجتماعي في المجتمع الكنعاني الفينيقي كان على شكل هرمي ، تبدو فيه العناصر المتدرجة التالية :

الملك والاسرة المالكة ، النبلاء ، الكهنة ورجال الدين ، الجيش ، الموظفون ، التجار والصناع والاحرار الاخرون ، والعاملون في مجال الزراعة وصيد الاسماك ، واخيرا العبيد .

وقد قسمت فئات الشعب بشكل عام الى ثلاث فئات : الاحرار وانصاف الاحرار والعبيد(١٥) . سمي الملك ملك بالفينيقية(١٦) ، وقد استعملت هذه التسمية في صيغ كما نلاحظ في الامثلة التالية :

....

ـ (ابي بعل ملك جبيل)(١٧) . وابي بعل اسم معناه « ابي هو بعل » وهو اسم لعدة ملوك بينهم ملك من جبيل ، وملك من سامسيمورونا ، ذكر كخصم لاسر حدون (٦٨٠ ق.م ـ ٦٦٩ ق.م) وآشور بانيبال (٦٦٨ ق.م ـ ٦٢٦ ق.م) وورد عند المؤرخ يوسفوس أن والد حيرام ملك صور يحمل الاسم 'Abi Balos (١٨) .

مدينة جبيل تبعد حوالي ٣٠ كم (الخط الجوي) الى الشمال من بيروت على البحر الابيض المتوسط وهي مدينة فينيقية مع ميناء ، سميت عند الاشوريين Gubla جبلا ، ودعيت في الكتابات المصرية القديمة خلال فترة الدولة الوسطى باسم Kap - ni كابني ، وفي كتابات اخرى Kpn كبن وفي الكتابة السومرية في عهد سلالة اور الثالثة عرفت باسم Ku - ub - la(ki) كوبلا ، وفيما بعد سميت جُبْلا ، جُبْلي (uru) Gub /Gu-ub-la/li وفي العهد القديم Gebal ، وفي اليونانية بيبلوس Byblos ، وفي اللاتينية بيبلو ، واسمها الحالي في العربية جُبَيْل (١٩) .

ـ (يحيملك ملك جبيل . .)(٢٠) . ويحيملك : وهو اسم مفرد علم معناه اللغوي « يحيا الملك »(٢١) .

ـ (ايلي بعل ملك جبيل . . .)(٢٢) . ايلي بعل : هو اسم مفرد علم معناه «الهي هو بعل » .(٢٣) .

ـ (شفط بعل ملك جبيل . .)(٢٤) وهو اسم مفرد علم معناه « بعل قد قضى » . وقد ورد ذكر الملك si - pi - it - ti - bi ->- il/lu الاول من جبيل ضمن قائمة ملتزمي الضرائب أيام تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م) ، وبذلك يكون قد حكم حوالي عام ٧٤٠ ق.م، بينما هناك ملك آخر يحمل هذا الاسم يعود الى القرن الرابع قبل الميلاد .

يظهر الاسم عند آشور بانيبال الثاني كما يلي : sa - pa - ti - ba - al
ويذكر في الواح تل العمارنة : si - ip - ti - Ba' Lu ، وفي الوثائق والمستندات الاشورية Is - pi - it - ti - I (lu ?) (٢٥) .

ـ (يحاو ملك جبيل . .)(٢٦) . ويحاو ملك معناه « حي الملك » أو « الملك الحي »(٢٧) .

ـ أورو ملك ملك جبيل . .) (٢٨) أورو ملك : اسم علم معناه : « نور الملك» ،أو « الملك هو النور » انظر اسم الملك Iu - ru - mil - Ki ،(٢٩) .

ـ (عزي بعل ملك جبيل . .) (٣٠) وعزي بعل هو اسم علم معناه « بعل هو قوتي» عزتي ، وقد ظهر هذا الاسم عند آشور بانيبال الثاني A - Zi - ba - > - al ، أسس

هذا الملك سلالة جديدة وعرف اسمه من خلال قطع نقدية كثيرة ، وحكم حوالي نهاية فترة السيادة الاخمينية(٣١) .

ـ(فومي ياتون ملك كيتيون ودالي . .)(٣٢) وفومي ياتون اسم علم معناه :«فومي قد اعطى ». حكم هذا الملك من ٣٦١ ق.م ـ ٣١٢ ق.م ، واعـدم اخـيرا من قبل بطلميوس الاول سوتير(٣٣) .

اما كيتيون فهي مدينة لارنكا في قبرص اليوم ، أهم مدينة في الجزء الشرقي مـن الجزيرة ولها ميناء طبيعي . وقد أطلق اسم الليتيين على القبارصة عموما في كتـاب العهد القديم ، واخيرا شمل هذا الاسم جميع سكان جزيرة قبرص(٣٤) . وادیل هي مدينة دالي اليوم ، وتقع الى الشمال الغربي من كيتيون (لارنكا) في وسط قبرص، وظهرت في المسمارية باسـم (uru) E-di-'i - il في قائمـة ملتزمي الضـرائب لاسر حدون ، وخضعت ايضا لاشور بانيبال(٣٥) .

ـ (ملكياتون ملك كتيون ودالي . .)(٣٦) . وملكياتون هو اسم علم معناه « الملك قد اعطى »، وملكياتون والد فومي ياتون . حكم ملكياتون مابين ٣٩٢ ـ ٣٨٨ق.م ، ثم أبعد لمدة سنة عن السلطة عندما احتل الاثينيون بقيادة خابرياس قبرص ،وعينوا الملك ديمو نيكوس بن هيبو نيكوس على كيتيون ، وبعد سنة عاد ملكياتون الى مدينته وحكم حتى سنة ٣٦١ ق.م(٣٧) .

نستنتج من الامثلة السابقة ان الملك كان ملك مدينة ، وسنجد في الامثلة التالية شكلا آخر للملكية ، الا وهو أن الملك ملك شعب او قبيلة .

ـ (الملك اشمنعزرملك الصيدونيين . .) (٣٨) . واشمن عزر اسم علـم معناه « اشمن قد ساعد »، واشمن هو اله الصحة (الشفاء) ، والمماثل له عند الاغريق هو الاله اسكليبيوس . والاله اشمن معروف من خلال الاسماء والمعابد في صيدا وقبرص وسردينيا وقرطاجة ، وذكر اسمه لاول مرة في اتفاق اسرحدون مع بعل صور كمايلي: (d) Ja-su-Mu-nu وقد ارتبط اسمه مع عشترت أو ملقـرت ، واشتقاق هـذا الاسم لا يزال غير مؤكد(٣٩) .

(الملك بدعشترت ملك الصيدونيين .)(٤٠) وبدعشـترت اسم عـلم يعني : « بيد عشترت أو عن طريقها رزقت صبياً »(٤١) .

ـ (الملك بدعشترت والابن الشرعي لياتون ملك ملك الصيدونيين . .(٤٢) ياتون ملك : اسم علم معناه : « أعطي الملك ، او الملك المعطي » . ومن الملاحظ هنـا

التأكيد على شرعية الابن ،وهنا يمكن ان نسأل : هل كان هناك أولاد شرعيون آخرون تولوا الملكية ؟ كما نسأل عن شرعية بدعشترت نفسه وهل كان شرعيا حقا ام جاء عن طريق آخر كالتبني مثلا ؟ .

— (.. حيرام ملك الصيدونيين ..)(٤٣) . ظهر هذا الملك باسم حيرومو Hi-ru - um-mu ملك صور ضمن قائمة ملتزمي ضرائب تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ ق.م ؛ وهناك خلاف حول مجال السيادة ، اذ تذكر المعلومات ان ملك صور مارس السيادة على صيدا ايضا ، واستطاعت صور ان تمد وبشكل قوي مجال تأثيرها في القرن الثامن قبل الميلاد . ومن الجدير بالذكر ان تسمية الصيدونيين استعملت للدلالة على جميع الفينيقيين ، وحيرام الثاني المذكور هنا حكم حوالي سنة ٧٤٠ ق.م(٤٤) .

— (.. أزيتفادا .. ملك الدانونيين ..) (٤٥) . اصل هذا الاسم من آسية الصغرى ويقرأ حسب التهجية الحثية أزيتفادا . كان أزيتفادا ملك شعب دانونا الذي عاش في كيليكية جنوب شرق آسيا الصغرى في القرن الثامن قبل الميلاد(٤٦) .

الشكل الثالث من أشكال الالقاب الملكية كان ملك المنطقة أو ملك الاقليم ، حيث كانت سيادته تشمل جماعات السكان والارض معا ، ونجد مثل هذا النوع من الالقاب الملكية في الامثلة التالية :

(.. ملك جبارو على يادي ..)(٤٧) . وجبارو اسم علم يعود كما يراه دونر ورروليج الى gabaru (mi)، اي ان اصله من الشعوب المعروفة بالسامية ، بينما يرى بينز انه اسم من آسية الصغرى ، وجبارو كان ملكا على يادي ، وهو الاسم المحلي القديم لما يسمى اليوم زنجرلي ونقع الى جانب سمأل في شمال سورية(٤٨) .

— (في السنة الرابعة ، لما كان ملكياتون ملكا على كيتيون ودالي ..)(٤٩) .

(انا يحاو ملك ملك جبيل .. الذي جعلتني الربة بعلة جبيل ملكا على جبيل .)(٥٠) . اضافة للالقاب الثلاثة المذكورة أعلاه وجد لقب رابع للملك وهو سيد الملوك ، وهو ارفع القاب الملك ، واستخدم كما يبدو للتفاخر والمجاملة ، وقد تقلده بطلميوس ، وفيما يلي بعض النصوص التي تشير الى ذلك :

(في اليوم السابع من شهر حيار (أيار) ، في السنة الحادية والثلاثين لسيد الملوك بطلميوس ابن بطلميوس .. (٥١) .

(لعنات ملاذ الاحياء ولسيد الملوك بطلميوس يهب بعل شليم بن سيسامي المذبح للحصول على مصير جيد . .)(٥٢) .

وبطليموس هو نفس الاسم اليوناني ، وهـذا الملك هو بطليموس الاول سـوتير (٣٠٥ – ٢٨٥ ق.م) وكان حسب رأي ديودوروس الصقلي الملك الاخير لـ : لابيتوس (لامبوسا)، وبراكسيبوس ، ووضع مع القبارصة الاخرين الى جانب سلوقس ، وفي سنة ٣١١/٣١٢ ق.م عزل . ومن المعلوم أن اسم بطليموس ورد أيضا في نقوش فينيقية من قبرص باسم بطليموس كما في نقش معصوب(٥٣) .

تسمية أخرى للملك : اضافة الى تسمية الملك ملك، وجدت تسمية اخرى هي مملكوت(٥٤) . كما في الامثلة التاليـة :

(أنا يحاو ملك ملكجبيل. .الذي جعلتني الربة بعلة جبيلملكا علىجبيل.)(٥٥).

(. . من تكون أنت . . أي ملك او انسان ، لا تفتح مرقد الراحة هذا .)(٥٦)

وتجدر الاشارة ان تسمية مملكوت جاءت بمعنى مملكة في امثلة اخرى . .

رمز السيادة الملكية : كان رمز السيادة الملكية نورة (زهرة النوار) وقد وجدت على نقوشبارزة عديدة . كما وجدت على تابوت الملك احيرام يحملها الملك في يده(٥٧) .

لباس الملك : هناك نقش من سمأل يظهر الملك بادراكيب وهو يجلس على كرسي العرش المزخرف ، ويضع قدميه على مسند الاقدام ، وخلفه عبد يلوح بالمروحـة (المنشة) ، ويحيط بادراكيب بعود من النخيل بيده اليسرى ، تشبه زهـرة النوار المذكورة تقريبا ، ويرفعيده اليمنى امرا أو مكلما ، وهو يرتدي حلة طويلة لف طرفها فوق الكتف الايسر ، وانهدل طرفها الاخر المزركش على قدميه ، ويجلس امام الملك كاتب حليق الرأس ، يرتدي ثوبا بسيطا)(٥٨) .

النسب الانثوي للملك : فيما يخص النسب الانثوي لدينا كلمة ميلكيوت ،وهي جمع لكلمة ميلكيت ويقصد بها النسب الانثوي للملك (نساء الملك وقريباته)(٥٩) ونجد ذلك في نقش بت نعم وهذه ترجمته :

(في هذا التابوت ارقد انا بت نعم ، أم الملك عزي بعل ملك جبيل ، ابن فلطبعل كاهن بعلة (جبيل) بثوب وقلنسوة (غطاء الرأس للسيدات) علي وعلبة أحمر الشفاه الذهبية لفمي ، مثل أمهات (قريبات) الملوك اللواتي كن قبلي (٦٠) .

وبَت نعم اسم علم مؤلف من كلمتين بَت بمعنى : بنت ، ونعم بمعنى : النعم ـ الخيرات فيصبح معناه بنت النعم كما تسمى اليوم فتاة باسم أم الخير مثلا . وواضح من خلال النص ان بت نعم لم تكن ملكة كما لم يكن زوجها ملكا ، بل كانت أماً للملك عزي بعل ، وزوجها كاهنا للربة بعلة جبيل . ومن المعلوم أن الايجيين والقبارصة كذلك في آسية الصغرى ، كانوا يستعملون طلاء الشفاه (ربما احمر الشفاه) لموتاهم ، فمنذ الالف الاول ق.م ساد استعماله في آسية الصغرى بوساطة علبة معدنية مغلقة ، حيث كانوا يستعملونه لمنع دخول الشياطين الى اجسادهم . كذلك استعمل في قرطاجة إذ وجدت في المقابر التي تعود للقرن السادس علب فضية ضمن الاثاث الجنزي الذي كان يدفن مع الاموات(٦١) .

كذلك استعمل اسم ملكة بمعنى ملكة(٦٢) ونجد ذلك في نقش اشمن عزر التالي :

(... أنا اشمن عزر ملك الصيدونيين ، ابن الملك تبنيت ملك الصيدونيين ، حفيد الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين ، وأمي أم عشترت كاهنة عشترت ربتنا **الملكة** بنت الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين ...)(٦٣) . وأم عشترت : اسم علم معناه (أمة عشترت ، خادمة عشترت)(٦٤) . ولا توجد دلائل واضحة على وضع الملكة في المصادر الفينيقية ، والتوراة تذكر زوجة الملك أهاب اليصابات (ايزابيل) وهي ابنة لملك الصيدونيين ايتوبعل ، وقد خدم أهاب لذلك بعل . ونصل من هذا الى المكانة المرموقة التي حظيت بها الملكة بشكل عام(٦٥) .

اضافة لذلك كانت الملكة كاهنة لعشترت وفي ذلك برهان على مكانتها الرفيعة أيضا . اما بالنسبة للام الملكة فقد حظيت باحترام كبير ، وكان على المرء أن يركع امامها سبع مرات ، سبع مرات (والمقصود بذلك سبع مرات على ظهره ، وسبع مرات على بطنه) :

(... الى اقدام سيدتي ركعت انا سبع مرات ، سبع مرات ...)(٦٦)

ومن رسالة للملك نلمس احترام الام الملكة ايضا :

(الى اقدام امي ركعت انا ، اتمنى لأمي الخير ، لتحميك الالهة وتحفظك ..)(٦٧)

من هذا نستنتج أن الملكة الام تمتعت باحترام كبير من الملك والوجهاء والموظفين، ومارست تصرفات الملكة نفسها في شؤون الدولة .

إخوة الملك : مكانة اخوة الملك غير واضحة ، وهناك امثلة تدل على حدوث توترات قوية بين الملك وسكان المدينة النبلاء ، أدت الى عزل الملك أو قتله مثلما حصل في

اوجاريت وارقاطة وتعنك ، وان اخوة الملك (الاشقاء) شاركوا احيانا في الثورة ضده كما حصل في جبيل وجيزر وتوبيهي(٦٨) .

الملكية الوراثية : كان الحكم في دول المدن الكنعانية الفينيقية قبل القرن الثاني عشر ق.م ملكيا مطلقا ، ومع هجرة الايجيين واندماجهم التدريجي مع الكنعانيين تسربت مفاهيم وافكار سياسية جديدة الى فينيقية ، ورغم ذلك استمرت ادارة الحكومة من قبل الملوك الذين حلوا في المدن الفينيقية بالوراثة ولدينا امثلة كثيرة حول ذلك نكتفي ببعضها :

(ابي بعل ملك جبيل ، ابن يحميلك ملك جبيل . .)(٦٩) .

(شفط بعل ملك جبيل، ابن ايلي بعل ملك جبيل، ابن يحيملك ملك جبيل. .)(٧٠)

(انا تبنيت كاهن عشترت ملك الصيدونيين ، ابن اشمن عزر كاهن عشترت ملك الصيدونيين . . .)(٧١) .

(. . . انا اشمن عزر ملك الصيدونيين ، ابن الملك تبنيت ملك الصيدونيين ، حفيد الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين وأمي أم عشترت كاهنة عشترت ربتنا الملكة بنت الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين . . .)(٧٢) .

(أنا بدعشترت والابن الشرعي لياتون ملك ملك الصيدونيين . . .)(٧٣) .

(. . . انا كيلاموڤا بن حيا جلست على كرسي ابي . .)(٧٤) . والاسم من آسية الصغرى وقد بني من عنصر متكرر ــ موڤا في نهاية الاسم انظر :

(٧٥) I Mi-is - ra - mu - wa, Id šaušga - mu - wa, Klnmw :

(. . فومي ياتون ملك كيتيون ودالي، ابن ملكياتون ملك كيتيون ودالي. .)(٧٦).

نلاحظ أن هناك سلالات أو اسر متعددة استطاعت أن تعيد دورها كاملا أو ناقصا ، كذلك عندما قامت الحروب أو الانقلابات في الاسر الحاكمة وقلبت هذه الادوار راسا على عقب(٧٧) مثال ذلك نقش بت نعم المذكور الذي يستخلص منه أن أم الملك لم تكن ملكة ، وان اباه لم يكن ملكا أيضا بل كان كاهنا لبعلة جبيل ، الا أن الابن عزّي بعل كان ملكا وهذا يدل على أن الملكية الوراثية تعرضت احيانا للتبديل والتغيير ، وشابتها بعض الاستثناءات كما في المثال التالي :

(انا يحاو ملك ملك جبيل ابن يحار بعل حفيد أورو ملك ملك جبيل . .)(٧٨).

يغلب الظن هنا ان والد يحار بعل نفسه لم يكن ملكا ، اما امه فلا يوجد اي ذكر لها في النقوش الفينيقية .

والجدير بالذكر انه قد حصل بعد الغزو الاشوري لبعض المدن الفينيقية تعيين حاكم آشوري SKn الى جانب الملك ليراقب أعماله كما حصل في عهد اسرحدون (٦٨١ ق.م – ٦٦٩/٦٦٨ق.م) بتعيين والٍ في مدينة صور يراقب أعمال الملك(٧٩).

لم يكن الملك حاكما سياسيا فحسب ، بل كان قائدا عسكريا ، وكاهنا ، وبناءً، وتاجرا أيضا . كان حاكما مطلقا ، لكن ماذا حكم وأين كانت مجالات حكمه ؟ نجد الجواب في النصوص التالية :

(هذه المرقعة (المعشقة) الذهبية ، التي وهبها الملك ملكياتون ملك كيتيون ودالي ، ابن بعلرام الى الهه رشف ميكل في دالي ، في شهر بول في السنةالثانيةلحكمه على كيتيون ودالي ، حتى يسمع قوله ويباركه).(٨٠) .

– (.. حكم جبارو على يادي ..)(٨١) .

(.. وأعطانا سيد الملوك (دور ويافا) الاراضي الخصبة التي في مزرعةشارون، لاعمالي العظيمة التي قمت بها ، ونحن ضممناها (اتبعناها) الى حدود البلاد، لتكون للصيدونيين الى الابد ..)(٨٢) .

وتقع دور جنوب الكرمل على الساحل ، وهي اليوم « البرج » عند الطنطورة(٨٣)

sgs : يافا ، في الاكادية (uru) Ja - pu ، وهي مدينة يافا اليوم وتعني الجميلة (٨٤).

(أنا أزيتفادا المبارك (من) بعل ، خادم بعل ، الذي جعلني أورك قويا ، انا ملك الدانونيين ، لقد جعلني بعل للدانونيين أباً وأماً ، وأحييت أنا الدانونيين ، لقد وسعت انا بلاد أضنة البعيدة من مشرق الشمس وحتى مغربها ، وكانت في أيامي الخيرات كلها للدانونيين والشبع والنعم ..)(٨٥) .

(.. ولكن اذا ملك بين الملوك أو حاكم بين الحكام أو قائد جيش زحف ضد جبيل وأزاح (فتح) هذا التابوت ، فينبغي ان تنتزع عصا سلطته ، ويقلب كرسي عرشه ويزول السلام عن جبيل ..)(٨٦) .

وحاول الملوك ان يسخروا سلطتهم في رفع مظالم الملوك السابقين عن ابناء شعبهم كما يتضح من النص التالي :

ـ (.. انا كيلاموفابن حيا ، جلست على كرسي ابي ، امام الملوك السابقين زمجر الموشكابيم كالكلاب ، وانا كنت لأحدهم أبـاً ، وللثاني أماً ، وللثالث اخاً ، ومن لـم ير شـاة قط من قبل جعلته صاحب قطيع غنم ، ومن لم ير قط من قبل ثورا جعلتـه صاحب بقر ومالكا للفضة والذهب ، ومـن لم ير منذ صباه الكتـان كسوته بثوب . ورفعت انا الموشكابيم على اليد ، وأحسوا بالروح كاحساس اليتيم بأمـه ..)(٨٧) .
وطبقة الموشكابيم : هي طبقة من طبقات الشعب الفينيقي كانت تتألف على الاغلب من الفلاحين الاصليين سكان البلاد القدامى والمستوطنين الذين أخضعوا من طبقـة ا لرجال الاراميين الجدد . وكانت معاملتهم مهينة وغير مرضية في ايام الملوك الذيـن سبقوا كيلاموفا كما يوضح نقش كيلاموفا(٨٨) .

وهنا يطرح السؤال التالي نفسـه : بهذه الرعاية الملكية هل سادت حقيقة هذه الاوضاع الفردوسية ؟ وهل كانت هذه الخصال المكتوبة حقيقية ؟ اننا لا نملك اي دليل من قبل الموشكابيم ،وهنا نستفسر عن الاسباب التي دعت الملك الى ذلك : هل كان الملك ضعيف الشخصية حتى اضطر لشراء هؤلاء الموشكابيم ؟ أم كان صاحـب الفضل عليهم لاسباب اخرى ؟.

نلاحظ أيضا تناقضات الملك نفسه في هذا النص ،حيث وفق بين الحسنات والسيئات ففي تتمة نقشه يقول :

(.. ومن يتلف هذا النقش : ينبغي ان يسحق راسه بعل صمد (الذي ينتمي الى بيت جبارو) وينبغي على بعل حمون (الذي ينتمي الى باماهو) وراكب إبل سـيد هذا البيت أن يسحقا رأسه)(٨٩) .

وهكذا يجب ان تفصل فكرة السيادة الملكية عن شخصيـة الحاكم ، اذيعتبـر الحاكم كرمز مؤقت للسيادة ، لقد أثبت الملك شرعية مراسيمه بوساطة الخاتم الملكي، الذي كان يورث في الاسرة المالكة ، وبذلك يحمل مرسومه الملكي تأييد سابقيه ، الذين يتولون الفصل في القضايا مباشرة ، ولذلك طالب ملوك أوجاريت بخاتـم سابقيهـم مؤسسي اسرهم للاحتفاظ به (٩٠) .

كان الدعم الاخر للملوك الالهة ، وكان الملوك متعلقين بهم وبحاجة لوقوفهم الى جانبهم . ولدينا امثلة متعددة تبين حاجة الملوك لدعم الالهة وكسب رضاها ، وحاولوا

كسب ودها والحصول على تأيدها ومباركتها بوسائل متعددة كتقديم الهدايا . وبناء المعابد ووقف الاوقاف ومن هذه الامثلة :

(هذا المعبد بناه يحيملك ملك جبيل . هو رمم كل أنقاض هذه البيوت . ليطيل اله السماء (بعل شميم) والهة جبيل ومجمع آلهة جبيل المقدس ايام يحيملك وسنواته على جبيل ، لانه ملك صادق وملك مستقيم أمام آلهة جبيل المقدسين (هـو) (٩١) .

ــ (أنا يحاو ملك ملك جبيل ، ابن يحار بعل حفيد اورو ملك ملك جبيل الذي جعلتني الربة بعلة جبيل ملكا على جبيل . وناديت ربتي وسمعت ندائي . .)(٩٢) وبذلك كان الملك سيدا على كل شيء ، فهو صاحب الحق في الاملاك وفي انتزاعها وتوزيعها على من يشاء)(٩٣) .

الملك قائد أعلى للجيش : اضافة لعمل الملك كحاكم سياسي كان قائدا أعلى للجيش . نجد ذلك في النص التالي :

ــ (. . . وانا ملأت مستودعات فاعر ، واتبعت الحصان بالحصان والمجن بالمجن والمعسكر بالمعسكر ، بوساطة بعل والآلهة ، وحطمت المعاندين وأهلكت كل الاشرار في الارض ، وأقمت أنا بيت سيادتي على النعم وجعلت الخير أساس حكمي . وجلست على كرسي أبي وأقمت السلام مع كل ملك ، وعاملني كل ملك بالابوة ، بسبب صدقي وحكمتي وطيب قلبي . وبنيت أنا تحصينات قوية في كل الاطراف ، على الحدود ، على الاماكن حيث كان الناس الاشرار ، رؤساء العصابات الذين لم يخضعوا لبيت مافاش ، وأنا أزيتفادا وضعتهم تحت قدمي ، وبنيت التحصينات في كل مكان لتكون لسكن الدانونيين ، واخضعت أنا بلادا قوية في مغرب الشمس التي لم يخضعها كل الملوك الذين كانوا قبلي . .)(٩٤) .

وبذلك يتضح ان الملك بصفته قائدا أعلى للجيش عمل على اعداد المستودعات وتأمين العتاد اللازم والخيول المدربة وبناء التحصينات القوية في كل مكان ، وسهر على الامن في الداخل والخارج وقضى على العصاة والخارجين على القانون والنظام وأحل الامن والسلام في كل مكان في بلاده لينعم شعبه بالراحة والاطمئنان .

اما من أجاريت فليس لدينا في النصوص الادارية المتأخرة والرسائل الموثوقة اي دليل يشهد على القيادة الشخصية للملك في القرن الرابع عشر ق.م ، الا ان النظام الاقطاعي اثبت أنه كان ظاهريا (الملك) القائد العام للجيش(٩٥) .

الملك كاهن : كان الملك كاهنا أيضا ، ويظهر ذلك من نصوص عدة ففي صيدا تقلد تبنيت منصب كاهن عشترت ، اضافة لمنصبه ملكا على الصيدونيين :

ـ (أنا تبنيت كاهن عشترت ملك الصيدونيين ، ابن اشمن عزر كاهن عشترت ملك الصيدونيين . .)(٩٦) .

ونجد في نقش اشمن عزر أن أمه أم عشترت تقلدت منصب كاهنة عشترت اضافة لكونها ملكة ، كما في النص التالي:

ـ (. . أنا اشمن عزر ملك الصيدونيين ، ابن الملك تبنيت ملك الصيدونيين ، حفيد الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين ، وامي أم عشترت كاهنة عشترت ربتنا الملكة ، بنت اشمن عزر ملك الصيدونيين . .)(٩٧) .

لقد احتفظ الملك ، بصفته كاهنا اعلى وملكا ، بعلاقات وثيقة مع الالهة وقدم لها الهدايا والهبات وبنى لها المعابد ، ووقف لها الاشياء المختلفة لكسب ودها والحصول على رضاها ومباركتها ، والنصوص كثيرة بهذا الخصوص :

ـ (هذه الصورة (اللوحة النذرية) حضرها (جلبها) أبي بعل ملك جبيل ، ابن يحيملك ملك جبيل في مصر (من مصر) لبعلة جبيل آلهته ، لتطيل بعلة جبيل ايام ابي بعل وسنوانه على جبيل)(٩٨) .

ـ (أنا يحاو ملك ملك جبيل ، ابن يحار بعل حفيد اورو ملك ملك جبيل ، الذي نصبتني الربة بعلة جبيل ملكا على جبيل . وناديت انا ربتي بعلة جبيل وسمعت ندائي . فصنعت أنا لربتي بعلة جبيل هذا المذبح النحاسي (البرونزي) الذي في هذا . . .، وهذا الباب الذهبي الذي أمام بابي هذا ، والشمس المجنحة الذهبية التي في وسط الحجر الذي على الباب الذهبي هذا ، وهذه الاروقة واعمدتها والتيجان التي فوقها ، وسقفها ، صنعتها أنا يحاو ملك ملك جبيل لربتي بعلة جبيل ، كما دعوت ربتي بعلة جبيل، وسمعت دعائي ، وجعلت لي النعم (الخيرات) ، لتبارك بعلة جبيل يحاو ملك ملك جبيل ، وتحييه ، وتطيل أيامه وسنواته على جبيل ، لأنه ملك صادق هو ، وتعطيه الربة بعلة جبيل الرحمة (الحنان) أمام الالهة وأمام شعب الارض هذا وحنان شعب الارض هذا ، والحنان أمام كل الملوك وكل انسان (الذي) يجمع لينجز العمل لهذا المذبح والباب الذهبي هذا وهذه الاروقة . اسمي انا يحاو ملك ملك جبيل. هل ستضع نفسك لهذا العمل ؟ لكن اذا لم تضع لنفسك اسما ، أو تبعد هذا العمل

. . . .

او تنقل هذا الـ. . . مع اساسه من هذا المكان وتزيل مخبأه ، فعندئذ ستهلك الربة بعلة جبيل الانسان هذا وكل نسله أمام كل آلهة جبيل)(٩٩) . .

ـ (هذه المرقعة (المعشقة) الذهبية التي وهبها الملك ملكيانون ملك كيتيون ودالي ، ابن بعلرام الى الآلهة رشف ميكل في دالي في شهر بول في السنة الثانية لحكمه على كيتيون ودالي حتى يسمع قوله ويباركه)(١٠٠) .

الملك بناء : اضافة لما ذكر من أعمال الملك فقد قام بالبناء أيضا ، فبنى البيوت والمعابد ، ورمم البيوت المهدمة ، وبنى الاسوار والقلاع والتحصينات في انحاء متفرقة من البلاد :

ـ (هذا المعبد بناه يحيملك ملك جبيل، هو رمّم كل انقاض هذه البيوت.)(١٠١).

ـ (هذا السور (الجدار) بناه شفط بعل ملك جبيل ، ابن ايلي بعل ملك جبيل ، ابن يحيملك ملك جبيل لبعلة جبيل آلهته ، لتطيل بعلة جبيل أيام شفط بعل وسنواته على جبيل)(١٠٢) .

ـ (. . . وبنيت أنا تحصينات قوية في كل الاطراف على الحدود ، في الامكنة التي كان فيها اشخاص اشرار ، رؤساء العصابات الذين لم يخضع منهم احد لبيت مافاش، وأنا أزيتفادا وضعتهم تحت قدمي . وأنا بنيت تحصينات في تلك الاماكن ليسكنها الدانونيون لطمأنينة قلوبهم . . . . وبنيت أنا هذه المدينة وأعطيتها الاسم أزيتفادي لأن بعل ورشف صفاريم(١٠٣) أرسلاني لأبنيها ،وبنيتها أنا بوساطة رحمة بعل وبوساطة رحمة رشف صفاريم . . .) .

الملك وحفظ الامن : ضمن الملك الامن داخل حدود مملكته ، وكذلك أمن المسافرين اليها ، وقام بتعويض المسروقات عند عدم القاء القبض على اللصوص ، كما في النقش التالي :

ـ وحطمت أنا (ازيتفادا) المعاندين ، واقتلعت كل الاشرار الذين كانوا في البلاد، واقمت انا بيت سيادتي على النعم ، وصنعت الخيرات لأصلها . وجلست على كرسي عرش ابي وأقمت السلام مع كل ملك ، وعاملني كل ملك بالابوة ، بسبب صدقي وحكمتي وطيب قلبي ، وبنيت أنا التحصينات القوية على كل الاطراف ، على الحدود، على الاماكن ، حيث كان الناس الاشرار ، رؤساء العصابات الذين لم يخضعوا لبيت

مافاش ، وأنا أزيتفادا وضعتهم تحت قدمي ، وبنيت التحصينات في كل مكان لتكون لسكنى الدانونيين لطمأنينة قلوبهم .

وأخضعت البلاد القوية في مغرب الشمس التي لم يخضعها كل الملوك الذين كانوا قبلي ، وأنا أزيتفادا أخضعتهم وانزلتهم وأسكنتهم خارج حدودي في مشرق الشمس، وتركت الدانونيين يسكنون هناك ،وكانوا في أيامي في كل حدود مزارع أضنة من مشرق الشمس حتى مغربها وفي كل الاماكن التي كانت قبلي مخيفة ، حيث يخاف المرء أن يذهب في الطريق ، وفي أيامي أنا تستطيع المراة بمغزل . . . بوساطة رحمة بعل والآلهة. وكان في كل أيامي الشبع والنعم والمساكن الجيدة وطمأنينة القلب للدانونيين ولكل مزارع أضنة)(١٠٤) .

الملك تاجر كبير : اضافة لما تقدم من أعمال الملك فقد كان الملك تاجرا كبيرا ، والدلائل على ذلك تقول أنه في مدينة صور حكم حيرام الاول (٩٦٩ ــ ٩٣٦ق.م) في عهد داود وسليمان ، وقد ربح بسبب التجارة في البحر المتوسط والبحر الاحمر مشاركة مع سليمان ثروات كبيرة استثمرها في اقامة المباني الضخمة(١٠٥) .

وكتب نجيب ميخائيل ابراهيم قائلا : خاض الملك مغامرات مستمرة بسبب نشاطاته التجارية ، واثر نجاحه أو فشله في هذه الحملات التجارية على وضعه كملك (١٠٦) .

اما في أوجاريت فقد عثر في الجزء الشرقي للقصر الملكي على بقايا محل لصياغة الذهب وورشة للمجوهرات كانت ملكيتها تعود للملك ، وتحتوي هذه الموجودات على عدد كبير من الحجارة الثمينة والحلي الذهبية (١٠٧) .

ومن رسالة حثية اهتمت بنقل الحبوب في احدى المجاعات في الساحل الجنوبي من الاناضول استنتج Nougayrol (نوغايرول) أن ملك أوجاريت كان يأمر عند شحن كل سفينة أن يؤخذ حوالي خمسمائة طن من على ظهرها(١٠٨) . وهنا يشك المرء في هذا الرقم كما يشك في حمولة السفينة .

سكن الملك وحديقة القصر والاصطبل الملكي : سكن الملك في قصر على هضبة تقع على ساحل البحر ، مع معبد وضريح كما نعلم ذلك من جبيل ، وبالنسبة للقصر الملكي في أوجاريت فقد استقينا معلوماتنا من الحفريات التي جرت هناك ، حيث شغل القصر الملكي مساحة تقدر بـ ستة آلاف وخمسمائة ــ ٦٥٠٠ ــ متر مربع في القرن الرابع عشر

ق.م والثالث عشر ق.م ، وكان الجزء الاعظم منه قد رتب في مكان منتظم ذي طابقين لأجل اقامة سرايا متتالية وكبيرة المساحة .

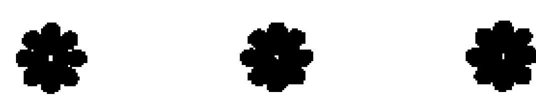
كان المسكن كبيرا وماهولا ، وعلى امتداد الزاوية اليمنى شرقي القصر اقيمت الحديقة والامكنة المتصلة استعملت محلات وورشات لنحت العاج ، والى الجنوب من مكاتب القصر وجد حوض ماء يلاصق غرف الارشيف حيث وجدت رسائل سياسية ومعاهدات كما حفظت أحكام قضائية ، ووثائق كتابية مختلفة ، والى الجنوب من القصر الملكي وجد قصر ثانٍ أصغر من القصر الاول ، في الشمال الشرقي من منطقة القصر لنصل نحن الى حي اقامة الملك .

وجدير بالذكر أن القصر تعرض مرة أو مرتين للحريق واصابته خسائر فادحة ، وقد جمعت من بين الانقاض قطع مكسرة لأوعية كبيرة من الذهب ، كذلك صناديق من العاج وكراسي وعلب من البورفير (حجر السماق)، والعقيق اليماني والجزع والعقيق الاحمر وحجارة كريمة اخرى .

وقد حمي القصر بحصن منيع وكان في وسط برج ضخم مساحته ١٤م٢ ، وكانت هناك أسلحة كثيرة مبعثرة في منطقة القصر بكاملها وهذه تعود في ماضي الزمان الى النبّالة (النشابين) الذين تولوا حماية القصر(١٠٩) .

هذا فيما يتعلق بقصر اوجاريت اما بالنسبة لقصر مدينة صور فانه اذا كان المرء قادرا على تصور أبعاد قصر أوجاريت الضخمة فانه سيعجز بالتالي عن وصف ضخامة قصر مدينة صور ، وكان كلود شيفر قد اعلن ان ثروة قصر مدينة صور لا يمكن ان تقدر(١١٠) . وبخصوص حديقة القصر فقد وصفها أحدهم بأنها حديقة أزهار مع حوض ماء في الزاوية اليمنى وطريق دائري ، وقد وجدت مجاري مائية تحت حوض الماء (١١١) .

اضافة لما تقدم فقد كشفت الاصطبلات الملكية ، وظهر هنا لوح ضخم بالكتابة المسمارية وموجودات لمعدات عسكرية كانت تحفظ في ترسانات الاسلحة ، وتوزع في أيام الحرب على الجنود (١١٢) .



- الاختصارات -

AAAS	Les Annales Archeologiques Syriennes Damaskus.
AFO	Archiv für Orientforschung, Berlin, (später) Graz.
Benz, PN	Frank L. Benz, Personal Names in the phoenician and punic Inscriptions, Rome, Biblical Institute Press, 1972.
Bibel	Die Bibel, Altes und Neues Testament, Einheitsübersetzung, Herder Freiburg. Basel. Wien, Katholische Bibelanstalt Gmb H, Stuttgart, 1980.
En Br	Encyclopaedia Britannica, Encyclopaedia Britannica INC., William Benton Publisher, Chicago. London. Toronto. Geneva.
Friedrich-Röllig, PPG	Johannes Friedrich-Wolfgang Röllig, phönizisch-Punisch Grammatik, An Or, 46, (I-00 187 Roma pizza pilotta 35), 1970.
Harris, Grammar	Z.S.Harris, A Grammar of the phoenician Language, AOS 8 (New Haven), 1936.
IAKA	R.Borger, Die Inschriften Asarhaddons Königs von Assyrien, Graz, 1956.
JNES	Journal of Near Eastern Studies, Chicago, Illinois.

KAI	H.Donner-W.Röllig,Kanaanäische und Aramäische Inschriften,zweite,durchgesehene und erweiterte Auflage, Wiesbaden,Band I:Texte,1966;Band II: Kommentar,1968;Band III:Glossare und Indizes Tafeln,1969.
Lidzbarski, Handbuch	Mark Lidzbarski,Handbuch der nordsemitischen Epigraphik,nebst Ausgewählten Inschriften,I. Teil:Text, George Olms Verlagsbuchhandlung, Hildesheim,1962.
RE	Pauly-Wissowa,Paulys Realencyclopädie der classischen Altertumswissenschaft, Stuttgart,1894 ff.
RLA	Erich Ebeling und Bruno Meiss;später Ernst Weidner und Wolfram von Soden, Reallexicon der Assyriologie und vorderasiatischen Archäologie, Berlin und Leipzig (später Berlin und New york),1932ff..
RŠ	Ras Schamra
P.	Page
Segert, Grammar	Stanislav Segert,A Grammar of phoenician and punic,München,Verlag C.H. Beck München,1976.
Syria	Syria.Revue d'art oriental et d'archéologie,Paris.

- الاختصارات ٣ -

Tomback, Lexicon	Richard S. Tomback, A comparativ semitic Lexicon of the phoenician and punic Languages, Scholars press, Missoula, Montana, printed in the United States of America, 1978.
UF	Ugarit-Forschungen (Kevelaer/Neu KirchenVluyn).
v.Chr.	vor Christus

(1) RE,39,1941,P.350-353 ; En Br,17,1962,p.763 ; Moscati,S.,The World of the Phoenicians,New-york,Washington,Friedrick A. Praeger publishers, 1968,P.5-7; Baramki,D.,Die Phönizier,Stuttgart, 1965,P.9-10; Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen im Phönizien des ersten Jahrtausends vor Christus,Würzburg,1985,P.2-4.

(2) RE,39,1941,P.354;En Br,17,1962,P.764;Moscati, S,Die Phöniker von 1200 v.Christus bis zum Untergang Karthagos,Zürich,Kindler-verlag,1966, P.16 ;Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ..., P.7-8; مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢٩ - ٣٠، دمشق، ١٩٨٨ د. عيد مرعي.

(3) Bibel,Genesis,10,15.

(4) Delaporte,L.,Die Völker des antiken Orients, Die Babylonier,Assyrer,Perser und Phöniker, Freiburg im Breisgau,1933,P.318; Meyer,E., Geschichte des Altertums,zweiter Band,zweite Abteilung,dritte Auflage,Darmstadt,1953,P.1223; Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.66.

(5) Baramki,D.,Die Phönizier,P.71-72.

(6) RE,39,1941,P.354;En Br.,17,1962,P.764;Moscati, S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.30; Wiesman,D. J.,Peoples of old Testament Times,Oxford,1973, P.262;Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ..., P.8.

(7) RE,39,1941,P.353 ; Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.20.

(8) Herodots,Erklärt von Heinrich Stein,erster Band,Buch I,siebente Auflage,Berlin,1962,P.2; Vierter Band,Buch VII,1963,P.90;RE,39,1941,P. 353;Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.20; Moscati,S.,The world of the Phoenicians,P.5; Movers,F.K.,Die Phönizier,Band II,Neudruck der Ausgabe Berlin 1856,Scientia verlag Aalen,1967, P.56;Delaporte,L.,Die Völker des antiken Orients, ...,P319.

(9) Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.20; Moscati,S.,The world of the Phoenicians,..., P.5; Delaporte,L.,Die Völker des antiken Orients, P.319.

(10) RE,39,1941,P.353;Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.20-21; Moscati,S.,The world of the Phoenicians,...,P.5.

(11) RE,39,1941,P.353;Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.19-20;Moscati,S.,The world of the Phoenicians,...,P.4.

(12) RE,39,1941,P.355-357;Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ...,P.8-11.

(13) Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ...,P.11-18.

(14) Herm,Gerhard,Die Phönizier Das Purpurreich der Antike,Econ Verlag Gmb H,Düsseldorf und Wien,1973,P. Zu diesem Buch;Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ...,P.138-144;13-14.

(15) JNES,XXVI,1967,P.102; Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ...,P.21.

(16) KAI,III,14;Tomback,R.S.,Lexicon,P.180;Segert,S.,Grammar,P.293;Harris,Grammar,1936,P.118 ; Friedrich-Röllig,PPG,1970,75 a,P.28;204 a,P.98;212,P.101;Lidzbarski,Handbuch,P.310.

(17) KAI,I,5,1.

(18) Benz,PN,P.257;KAI,II,P.8;Harris,Grammar,P.73;Lidzbarski,Handbuch,P.205.

(19) RLA,III,P.673;KAI,II,P.3;Tomback,Lexicon,P.16;Segert,Grammar,P.286;Lidzbarski,Handbuch,P.248.

(20) KAI,I,4,1;5,1.2;6.1;7.3;Segert,Grammar,82.12,1,P.267.

(21) Benz,PN,P.308-309;KAI,II,P.6;Harris,Grammar,P.101; Segert,Grammar,P.290;Noth,IP,P.28f.;39[3],P.206.

(22) KAI,I,6.1;7.2.

(23) Benz,PN,P.266;Harris,Grammar,P.77;KAI,III,P.45;Noth,IP,P.139-147.

(24) KAI,I,7,1.2;9A,1.

(25) KAI,II,P.9;Benz,PN,P.423-424;Harris,Grammar,P.133;Friedrich-Röllig,PPG,P.30;132 P.60;Segert,Grammar,P.303;Tomback,Lexicon,P.329.

(26) KAI,I,10,1.7.8.9.12.13;Segert,Grammar,82.12,1.7.8.9.12.13,P.267-268;Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos,1.7.8.9.12.13,P.416.

(27) Benz,PN,P.308;Friedrich-Röllig,PPG,12,P.10; Harris,Grammar,P.106;Segert,Grammar,P.290 ; Tomback,Lexicon,P.100;KAI,II,P.12;Lidzbarski, Handbuch,P.287;Noth,IP,P.27-30.

(28)KAI,I,10,1.2;Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos,1.2,P.416;Segert,Grammar,82.21,P.267.

(29)Benz,PN,P.274;KAI,II,P.12;Harris,Grammar,P.118; Segert,Grammar,P.284;Lidzbarski,Handbuch,P.226.

(30)KAI,I,11.

(31)KAI,II,P.16;Benz,PN,P.374;Harris,Grammar,P.131; Segert,Grammar,P.297;Tomback,Lexicon,P.240.

(32)KAI,I,32,1.2;33;Lidzbarski,Handbuch,Text aus Limassol,P.419.

(33)Benz,PN,P.391-392;KAI,II,P.50;Harris,Grammar, P.137;Friedrich-Röllig,PPG,P.23;62A,P.24;101A, P.40;Lidzbarski,Handbuch,P.351.

(34)KAI,II,P.50;Segert,Grammar,P.291;Lidzbarski, Handbuch,P.299-300;Wiesman,D.J.,Peoples of Old Testament Times,P.279.

(35)RLA,II,P.273;KAI,II,P.50;Lidzbarski,Handbuch, P.207.

(36)KAI,I,32,2;33,2;38,1;39,1.2;41,5.6;Segert, Grammar,83.42,2,P.274;Lidzbarski,Handbuch,Text A aus Citium 2,P.420;Text aus Idalion 1,1,P. 421.

(37) Benz,PN,P.344-345;KAI,II,P.56;Friedrich-Röllig,PPG,66a,P.24;78C,P.30;Harris,Grammar,P.119;Segert,Grammar,P.293;Lidzbarski,Handbuch,P.311.

(38) KAI,I,13,2;14,1.2.13.14.15.16;Segert,Grammar,82.31,1.2.13.14.15,P.268-269;82.32,P.269.

(39) KAI,II,P.21;Benz,PN,P.278-279;Harris,Grammar,P.83;Segert,Grammar,P.284;Lidzbarski,Handbuch,P.229.

(40) KAI,I,15;16;Segert,Grammar,82.32,P.269.

(41) KAI,II,P.24;Benz,PN;P.283-285;Friedrich-Röllig,PPG,40,41a,P.17;Harris,Grammar,P.85;Segert, Grammar,P.285;Lidzbarski,Handbuch,P.234.

(42) KAI,I,16.

(43) KAI,I,31,1;Lidzbarski,Handbuch,Text A aus Limassol,Cypern,P.410;Segert,Grammar,83.31,P.273.

(44) KAI,II,P.49;Benz,PN,P.310;Friedrich-Röllig,PPG,78 d,P.30;Harris,Grammar,P.75;Segert,Grammar,P.77,289;Lidzbarski,Handbuch,P.280.

(45) KAI,I,26A I,1.2;Segert,Grammar,83.12,I,1.2,P.271.

(46) KAI,II,P.38-39;Benz,PN,P.186;Friedrich-Röllig,PPG,P.1;Segert,Grammar,P.282;Tomback,Lexicon,P.180.

(47) KAI,I,24,2;Segert,Grammar,83.11,2,P.270;Friedrich-Röllig,PPG,262,2,P.132.

(48) KAI,II,P.31-32;Harris,Grammar,P.93,105; Benz

PN,P.187;Friedrich-Röllig,PPG,262,2,P.132; Tomback, Lexicon,P.61; Segert,S.,Grammar,P. 286.

(49) KAI,I,39,Die Umsetzung in griechischer Schrift,P.9.

(50) KAI,I,10,1.2;Segert,Grammar,82.22,1.2,P. 268;Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos, 1.2,P.416.

(51) KAI,I,40,1;Lidzbarski,Handbuch,Text 3 aus Idalion,1,P.421.

(52) KAI,I,42 phönizisch,1.2.3.4.5;Segert,Grammar, 83.33,1-5,P.273;Lidzbarski,Handbuch,Text aus Larnax Lapithu 1,1-5,P.422.

(53) KAI,II,P.59;J.Brian Peckham,S.J.:The Development of the late phoenician Scripts,Harvard University Press,1968,P.80ff.;Cambridge,Massachusetts,Harvard Semitic Series, VolumXX; M.Weippert and Kurt Galling:Eschmunazar und der Herr der Könige,ZDPV 79,1963,P.145-149 ; KAI,I,19,1.2.3.4.5.6.7.8.9;Lidzbarski,Handbuch, Text e aus Maʿṣub,1-9,P.419.

(54) KAI,III,P.14;Friedrich-Röllig,PPG,207,P.99;306, 2,P.154;Tomback,Lexicon,P.184;Segert,P.293.

(55) KAI,I,10,1.2;Segert,Grammar,82.22,1.2,P.268 Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos,1.2,P.416.

(56) KAI,I,14,4;Lidzbarski,Handbuch,Text 2 aus Sidon, 4,P.417;Segert,Grammar,82.31,4,P.268.

(57) KAI,II,P.4.

(58) Samaal,Eckorthostat mit der Darstellung des

Fürsten Barrakib von Samaal,vorderasiatisches Museum,Berlin.,Vgl.Klengel,H.,Geschichte und Kultur Altsyriens,1980,P.235.

(59) Harris,Grammar,P.118;Tomback,Lexicon,P.182; KAI,III,P.14;Friedrich-Röllig,PPG,204a,P.98; 230a,P.108;KAI,II,P.16.

(60) KAI,I,11.

(61) KAI,II,P.16;Harris,Grammar,P.87;Lidzbarski, Handbuch,P.247; Christel Butter Weck, Diethelm Conrad, Wilhelms C.Delsman,Manfried Dietrich,Karl Hecker,Heike Sternberg-elHotabi,Frank Kammer Zell,Oswald Loretz,Hans-Peter Müller,Walter W.Müller,Boyo Ockinga,Willem H.Ph.Römer und Hans P.Roschinski: Grab-,Sarg-,Votiv- und Bauinschriften,Texte aus der Umwelt des Alten Testament,Band II,Religiöse Texte,1988,Güterstoher Verlagshaus Gerd Mohn, Printed in Germany, P. 589.

(62) KAI,III,P.14;Segert,Grammar,P.293;Tomback, Lexicon,P.182;Harris,Grammar,P.118;Lidzbarski, Handbuch,P.310.

(63) KAI,I,14,13.14.15;Segert,Grammar,82.31,13.14. 15,P.269;Lidzbarski,Handbuch,Eschmunazarinschrift,Sidon,13.14.15,P.417.

(64) Benz,PN,P.62;269;Segert,Grammar,P.283;KAI,II, P.22.

(65) Bibel,1 Könige,16,30.31.32;Moskati,S.,Die Phöniker von 1200...,P.41;Richter,H.F., Geschlechlichkeit,Ehe und Famili im Alten Testament und seiner Umwelt,Frankfurt am Main, Bern,Las Vegas,1978,P.198.

(66) Virolleaud,Ch.,Textes Alphabétiques de Ras-Shamra,Provenant de la Neuviéme Campagne, Text I,RŠ 9479,6.7.8.9.1o.11,P.127 in: Syria,XIX,1938,P.127-131; Friedrich,J.,Fest-schrift zum 65. Geburtstag...,P.121;

Donner,H.,Art und Herkunft des Amtes der Königinmutter im Alten Testament,P.121 in: Friedrich,J.,Festschrift zum 65. Geburtstag am 27. August, 1958 gewidmet,Heidelberg,1959.

(67) Virolleaud,Ch.,Lettres et Documents Administ-ratifs provenant des Archives D'Ugarit,II,RŠ 11.872:Lettre du roi(d'ugarit) á la Reine sa mère,Zeile 5-8,P.250 in: Syria,XXI,1940,P.250-253;Friedrich,J,Fest-schrift zum 65. Geburtstag am 27. August 1958 gewidmet, Heidelberg,1959,P.120.

(68) Müller-Karpe,Hermann,Handbuch der Vorgeschichte vierter Band, Bronzezeit,erster Teilband, München,1980.P.463.

(69) KAI,I,5,1.2.

(70) KAI,I,7,1.2.3.

(71) KAI,I,13,1.2;Lidzbarski,Handbuch,Text 1 aus Sidon.1.2,P.417.

(72) KAI,I,14,13.14.15;Segert,Grammar,82.31,13.14.15,P.69;Lidzbarski,Handbuch,Eschmunazar-inschrift,Sidon,13.14.15,P.417.

(73) KAI,I,16.

(74) KAI,I,24,9;Segert,Grammar,83.11,9,P.270.

(75) KAI,II,P.31;Segert,Grammar,P.291;Benz,PN,P.187;Harris,Grammar,P.111.

(76) KAI,I,33,1.2.

(77) Moskati,S.,Die Phöniker von 1200...,P.66.

(78) KAI,I,10,1.2;Segert,Grammar,82.21,1.2,P.267;Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos,1.2,P.416.

(79) IAKA,§69,RŠ III,13 f.,P.108-109;Jirku,A.,Die Welt der Bibel,zweite Auflage,Stuttgart,1957,P.33;Moscati,S.,Die Phöniker von 1200...,P. 55 ;RE,39,1941,P.365.

(80) KAI,I,32,1.2;Lidzbarski,Handbuch,Text 1 aus Idalion,1.2,P.421.

(81) KAI,I,24,2;Segert,Grammar,83.11,2,P.270.

(82) KAI,I,14,18.19.20;Segert,Grammar,82.31,18.19.20,P.269;Lidzbarski,Handbuch,Eschmunazar-inschrift,Sidon,18.19.20,P.418.

(83) KAI,II,P.23;Segert,Grammar,P.287;Vertrag Asarhaddons mit Baal von Tyros,AFO,Beiheft 9,§ 69,III,19,P.108;Friedrich-Röllig,PPG,P.10;Lidzbarski,Handbuch,P.254.

(84) KAI,II,P.23;Segert,Grammar,P.290;Lidzbarski,Handbuch,P.289.

(85) KAI,I,26A I,1.2.3.4.5.6;Segert,Grammar,83.12, A I,1.2.3.4.5.6,P.271.

(86) KAI,I,1, 2;Segert,Grammar,82.11,2,P.267.

(87) KAI,I,24,9.10.11.12.13;Segert,Grammar,83.11, 9.10.11.12.13,P.270.

(88) KAI,II,P.31; Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ....,P.179-180.

(89) KAI,I,24,15.16;Segert,Grammar,83.11,15.16,P.270.

(90) AAAS,IV-V,1954-1955,P.159ff.

(91) KAI,I,4,3.4.5.6.7;Segert,Grammar,82.12,3.4. 5.6.7,P.267.

(92) KAI,I,10,1.2.3;Segert,Grammar,82.21,1.2.3, P.267;Lidzbarski,Handbuch,Text aus Byblos, 1.2.3,P.416.

(93) AAAS,II,1952,P.14.

(94) KAI,I,26A I,6.7.8.9.10.11.12.13.14.15.16.17. 18.19;Segert,Grammar,83.12,A I,6-19,P.271.

(95) Gray,J.,The Legacy of Canaan,the Ras Shamra Texts and their Relevance to the old Testament, second Revised Edition,Leiden,E.J.Brill,1965, P.222-223.

(96) KAI,I,13,1.2;Lidzbarski,Handbuch,Text 1 aus Sidon,1.2,P.417.

(97) KAI,I,14,13.14.15;Segert,Grammar,82.31,13.14. 15,P.269;Lidzbarski,Handbuch,Eschmunazar-inschrift,Sidon,13.14.15,P.417.

(98) KAI,I,5,1.2.

(99) KAI,I,10,1-16;Segert,Grammar,82.21,1-16,P. 267-268;Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos, 1-16,P.416.;Christel Butter Weck,Diethelm Conrad,Wilhelms C.Delsman,Manfried Dietrich, Karl Hecker,Heike Sternberg- el Hotabi,Frank Kammer Zell,Oswald Loretz,Hans-Peter Müller, Boyo Ockinga,Willem H.Ph.Römer und Hans P. Röschinski:
Grab-,Sarg-,Votiv- und Bauinschriften,Texte aus der Umwelt des Alten Testament,Band II, Religiöse Texte,1988,Gütersloher Verlagshaus Gerd Mohn,Printed in Germany,P.586-588.

(100) KAI,I,38,1.2;Lidzbarski,Handbuch,Text 1 aus Idalion,1.2,P.421.

(101) KAI,I,4,1.2;Segert,Grammar,82.12,1.2,P.267.

(102) KAI,I,7,1.2.3.4.5.

(103) KAI,I,26 AI,13.14.15.16.17.18.19;II,9.10. 11.

(104) KAI,I,26A I,8-21;26A II,2-9;Segert,Grammar, 83.12,A I,8-21;A II,1-9,P.27.

(105) Bibel,1 Könige,9-14;1 Könige,10,11;Golo Mann und Alfred Heuß,Propyläen Weltgeschichte, zweiter Band,1962,P.76.

(106) نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم ، المجلد الثالث ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ ، الصفحة ٥٠ .

(107)AAAA,II,1952,P.11.

(108)AFO,XIX,1959-1960,P.194-195.

(109)Delaporte,L.,Die Völker des antiken Orients, ...,P.320;Odenthal,J.,Syrien,Hochkulturen zwischen Mittelmeer und Arabischer Wüste 5000 Jahre Geschichte im Spanungsfeld von Orient Okzident,Du Mont Buchverlag Köln,1982,P.239.

(110)AAAS,II,1952,P.22.

(111)AAAS,XXIX-XXX,1979-1980,P.22 مجلة الحوليات الأثرية السورية العدد ٢٩-٣٠ الصفحة ٢٢ .

(112)AFO,XIII,1939,P.172.

علاقات سورية التجارية

د. محمود رمزي

١ ـ لمحة تاريخية :

بين المصالح الاقتصادية السورية والمصالح الاقتصادية لبلدان العالم الاخرى القريبة والبعيدة ، ارتباط وثيق تفرضه مجموعة من العوامل الجغرافية والتاريخية ، يتقدمها ما تملكه سورية من ثروات طبيعية . وموقعها الجغرافي الهام على مفترق الطرق العالمية بين ثلاث قارات ، تلتقي عنده خطوط العالم التجارية البرية والبحرية والجوية . ونشاط سكانها ودورهم في التجارة العالمية عبر العصور(١) .

فمن الناحية الجغرافية . تطل سورية بواجهتها الغربية على البحر المتوسط الذي تنتهي عنده طريق الحرير ، أقصر وأيسر طريق بين شرقي آسيا وغربيها . والذي تنفذ بواباته الى جميع الاتجاهات . ومن الطبيعي أن تجعل هذه الوقائع الجغرافية الثابتة من سورية بؤرة مركزية هامة للتجارة في قلب العالم القديم ، تلتقي على أرضها وعلى طول سواحلها طرق التجارة العالمية ، حيث قامت وبوقت مبكر سلاسل من المدن والموانىء على نسق واحد وبأعداد لا مثيل لها في أية بقعة من الارض. تتمثل في الشمال بجزيرة ابن عمرو وتل حلف والرها وجرابلس والاسكندرونة والسويدية وانطاكية واوغاريت واللاذقية . وفي الوسط بماري وايبلا وحلب وقنسرين وادلب وتدمر وحمص وحماه وطرطوس وارواد وطرابلس الشام . وأخيرا في الجنوب بدمشق والجابية وبصرى الشام أذرعات (درعا) .

ان الدور الذي لعبته هذه المدن والموانىء في خدمة وحماية الطرق التجارية التي كانت تمر بها أو تنتهي عندها ، كان عظيما . فمنذ زمن اسكندر المكدوني (٣٣٣ ق.م) كان لسورية مكانة مرموقة في العلاقات التجارية العالمية . واذا ذهبنا الى أبعد من ذلك ، الى خمسة آلاف سنة مضت . أي منذ أن تدفقت الى أرض سورية أول موجة بشرية عرفها التاريخ باسم (آمورو) . نرى ان هذه الارض الطيبة كانت أروع مسرح لقصة الانسان ولنشاطاته التجارية ومبادلاته الاقتصادية . وصلات

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٤

شعبها مع الجزيرة العربية لم تنقطع . والتجارة بين الشمال والجنوب ، بين بـلاد الشام واليمن ، لم تتوقف تمارسها قريش في رحلتي الشتاء والصيف .

وفي العصور الاسلامية وصلت هذه النشاطات التجارية والمبادلات الاقتصادية الى اوج ازدهارها . فعلى طرقها التي أخذت مداها الكبير في كل الاتجاهـات . كان يتم نقل التوابل والبخور والذهب من شبه الجزيرة العربية . والمنسوجات من ايران . واللآليء من أطراف الخليج . والحرير من الصين . والطيوب والجواهر والعاج مـن الهند . والمعادن من آسيا الصغرى . والخشب والملح والحبوب والفاكهة والمنسوجات والاسلحة الخفيفة والزجاج والزيوت من سورية .

واستمر موقع سـورية الجغرافي ، ذو الاهميـة المتزايـدة ، يساعد أهلها على الاستفادة من نقل البضائع والمتاجرة بها وحملها من أطراف اسيا الى المدن السورية التي أقيمت فيها البيوت التجارية ، ليقوم بعد ذلك تجار البندقية وغيرهم من ملاحي وتجار البحر المتوسط بنقلها بحرا الى المدن الاوربية .

الا ان كشف الطريق البحرية الى الشرق عبر رأس الرجاء الصالح وعبر البحـر الاحمر . واكتشاف العالم الجديد . ثم الاحتلال العثماني الذي جعل من سوريـة والبلاد العربية وحدة اقتصادية تقتصر العلاقات فيها على المبادلات الداخلية بـين المدن ، وتفكك الدولة العثمانية ، بعد الحرب العالمية الاولـى ، الى مناطـق نفوذ للمستعمرين . كان نصيب سورية فيها الانتداب الفرنسي .

كل ذلك ادى الى فقدان الطرق البرية التي تنتهـي في الساحـل السـوري أهميتها . فسـاد ركود عام شل حركة التجارة الخارجية مع بلدان العالم المختلفـة ، واضعف العلاقات معها حتى اقتصرت على فرنسا ومستعمراتها . وهي علاقات كان الجانب الخاسر فيها دوما سورية .

برغم كل ذلك . لم تفقد سورية مكانتها في عالم التجارة والمواصلات . فقد بقيت ممرا رئيسيا من ممرات العالم الكبرى لتجارة العبور بين الشرق والغرب(٢) . وبمجرد تبدل الاوضاع السياسية في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية . وحصول سورية على استقلالها وتحررها من الارتباطات الجمركية والقيود التي فرضها الانتداب لربـط اقتصادها بعجلة الاقتصاد الفرنسي . وتيسير السبل لها لسلوك سياسة اقتصادية رشيدة . التجارة الخارجية فيها ، والعلاقات التي تبنى لخدمتها ، لا تخضـع الا لتوجهات المسؤولين عن انعاش اقتصاد البلد واصلاح ميزانه التجاري . خرجـت سورية من عزلتها لتعود الى عالمها التجاري الواسع في خدمة ما استجد من أنظمـة

وعلاقات اقتصادية . وتستعيد علاقاتهـا بالدول العربية وبدول العالم . وتثبت مـن جديد ان الطريق البرية للسيارات الشاحنة الكبيرة ، بين أوربا واقطار شبه الجزيرة العربية وبعض المناطق الداخلية من اسيا ، والمارة بسورية، لا زالت تلعب دورا هاما في التجارة والعلاقات التجارية . وان للشبكات التي تنقل النفط والتي تمر بسورية وينتهي بعضها في ساحلها دورها الهام ايضا في التجارة العالمية .

غير أن الوحدة الاقتصادية التي بقيت مع لبنان حتى عـام ١٩٥٠ ، وسياسـة الاسراف في الاستيراد التي أعقبت الحرب بسبب تعطش السوق الى البضائع الاجنبية المفقودة ، وما نتج عنهما من اغراق البضائع الامريكية والانكليزية للاسواق السورية . يضاف الى ذلك استغلال الجانب اللبناني الوحدة الاقتصادية لمصلحته ، واصرار التجار اللبنانيين على ابقاء سياسة حرية التجارة التي أعقبت الحرب ، رغم الاضرار الفادحة التي كانت تلحقها بالاقتصاد السوري .

كل ذلك قد أدى في بداية فترة الاستقلال الى فقدان التوازن بين الصادرات والواردات ، والى وقوع الميزان التجاري تحت عجز كبير بلغ في الاعوام الاخيرة مـن عقد الاربعينات أرقاما مخيفة . ففي عام ١٩٤٧ كانت قيمة الواردات ٣٦١ مليـون ليرة سورية ، وقيمة الصادرات ٨٧ مليون ليرة سورية فقط . وارتفع العجز من ٢٧٥ مليون ليرة سورية عام ١٩٤٧ الى نحو ٤١٢ مليون(٣) عام ١٩٤٨ .

وأمام هذا الوضع المتردي لم تجد سورية بدأ من ركوب المركب الصعب وفصم الوحدة الاقتصادية مع لبنان كحل لوقف النزيف ولانقاذ الاوضـاع الاقتصاديـة مما آلت اليه(٤) .

ولقد شعرت سورية بشيء من الضيق الاقتصادي فيبادىء الامر ، لان السياسة الاقتصادية البديلة لم تكن جاهزة ، تعاني من بعض السلبيات والنواقص . فالاتصال بالخارج لاتمام الصفقات التجارية كان يتم على يـد التجار اللبنانيـين . والبرامـج الاقتصادية البديلة كانت تحتاج الى الاختبار في التطبيق ، وتفتقر الى مـا يساندها في مجال عقد المعاهدات التجارية الثنائية المتكافئة لفتحالاسواق امامالمنتجات السورية وللتشجيع على التصدير والحد من الاستيراد الواسع وخاصة للكماليات .

الا ان هذا الضيق لم يدم طويلا . اذ سرعان ما توصل رجال التجارة في سورية الى كسر الطوق الذي كان تجار لبنان قد فرضوه . وأوجدوا لانفسهم قنوات الاتصال الخارجي اللازم لتسيير أمور تجارتهم على احسن شـكل . كما عملـت الحكومـة

السورية على وضع التشريعات المختلفة التي تحمي اقتصادها مما كان يتهدده مـن أخطار . فأصدرت في عام ١٩٥٢ عدة مراسيم تشريعية لتشجيع الصناعة وتنشيط الزراعة وحماية الانتاج الوطني من المضاربة والحد مـن الاستيراد ومنع تصدير المواد اللازمة للاستهلاك المحلي وجعل السوق المحلية تعتمـد على المنتجـات الوطنيـة . وسارعت الحكومة أيضا الى اعداد مرفأ اللاذقية اعدادا مؤقتا لاستقبال السفن بـدلا من مرفأ بيروت الى أن يتم انجاز المشاريع الكاملة لتوسيع هذا المرفأ . ودعمه ببناء مرفأ اخر في طرطوس بمساحة تساوي مجموع مساحـة حوضـي مرفئـي بيروت واللاذقية معا .

وقد ساهمت هذه التدابير السريعة في انقذ الوضع الاقتصادي في سوريـة من التدهور . فاعتدل الميزان التجاري . ولاول مرة ، وبالرغم من أن دور البترول لـم يبدأ بعد في دعم الاقتصاد بصادراته(٥) ، زادت قيمة الصادرات على قيمة الواردات في عام ١٩٥٣ (٦) .

وبهذه المرحلة الانتقالية القصيرة وبما اتخذ فيها من تدابير اقتصاديـة سريعـة وناجعة ، تمكنت سورية من الانتقال الى المرحلة الاخيرة الحالية مـن مراحـل تطور التجارة الخارجية فيها ، والتي يمكن القول بانها بدأت منذ ان أخضعـت الامـور الاقتصادية في البلاد ، بما فيها قطاع التجارة الخارجيه ، لسياسة التخطيط . فاصبح التطور فيها يجري وفق خطط خماسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وفي سبيل تطوير علاقات سورية التجاريه في هذه المرحلة . ومن اجـل زيادة حجم التبادل التجاري مع بلدان العالم المختلفة . بذلت جهود كبـيرة ، وخاصـة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٩ ، من أجل تأمين أسواق جديدة للمنتجات السوريه . وتأمين مصادر جديدة لاستيراد السلـع والتجهيـزات اللازمة لتنفيـذ مشاريع التنمية الشاملة والمستمرة . وتوج هذا النشاط بعقد المزيد من الاتفاقيات التجارية واتفاقيات التعاون الاقتصادي(٧) .

والشيء البارز في علاقات سورية التجاريه في هذه المرحلة الانتقاليـة هـو ان العلاقات مع البلدان الاشتراكية كانت أسرع في تطورها وزيـادة حجمها منهـا مـع البلدان الرأسمالية . كما أن العلاقات التجارية مع البلدان النامية هي الاخرى قـد أخذت سبيلها الى التوسع لتفتح أمام منتجات القطاع الصناعي الذي توسع في سورية أسواقا جديدة وواسعة .

وما تجدر اليه الاشارة في هذه المرحلة ، هو دور التطور الهام الذي طرا علـى

الحياة الاقتصادية في سورية خلال السنوات الاخيرة والذي كان من نتيجته النمو الملحوظ في كافة فروع الاقتصاد بعد أن تم تنفيذ العديد من الخطط الخمسية التنموية التي رسمت بطريقة علمية روعي فيها الانسجام مع واقع البلد الاقتصادي والاجتماعي ، ووضع الاسس الكفيلة بتنمية الصادرات السورية وتنويعها بما يتماشى مع التطور الذي تحقق في مجال الصناعة والتعدين والزراعة. والاقلال ما أمكن من تصدير المواد الاولية . وتشجيع تصدير المنتجات والمواد المصنعة ونصف المصنعة مما يساهم في زيادة الموارد من القطع الاجنبي ، وفي تحرير البلد من التبعية الاقتصادية . وتحقيق تنمية اقتصادية مستمرة ومتوازنة . أما في مجال الاستيراد فقد هدفت هذه الخطط الى الاقلال من استيراد المواد الكمالية وغير الضرورية والى تأمين أفضل المصادر لاستيراد المواد التموينية والسلع والتجهيزات اللازمة لمشاريع التنمية . كما عملت هذه الخطط على تطوير علاقات سورية مع البلدان العربية والاجنبية عن طريق عقد المزيد من الاتفاقيات الاقتصادية التي تسهل زيادة حجم المبادلات . وزيادة عدد الملحقين التجاريين في البعثات الدبلوماسية في الخارج ، وافتتاح مكاتب للتمثيل التجاري في الكثير من بلدان العالم ، والاشتراك في المعارض التي تقام في البلدان العربية وغير العربية ، والتشجيع على زيارة الوفود الاقتصادية ، وافساح المجال لها للاطلاع على المنتجات المحلية المعدة للتصدير(٨) .

وكنتيجة حتمية لهذه السياسات الاقتصادية ، تحولت الجهود التي بذلت لدعم التجارة الخارجية وتوسيع علاقاتها بعد عام ١٩٨٩ الى أرقام فاقت فيها قيمة الصادرات قيمة الواردات بعشرات المليارات من الليرات السورية . واعتدل الميزان التجاري ومالت كفته للمرة الثانية لمصلحة سورية . والجدول رقم ١ مع اللوحة رقم ١ يبينان ذلك بكل وضوح .

ان العجز الذي يبينه الجدول وتظهره اللوحة بالنسبة لاكثر السنين التي سبقت عام ١٩٨٩ ، فناتج عن زيادة أثمان الواردات زيادة كبيرة خطرة حين كانت أمور التجارة الخارجية غير موجهة . فقيمة الواردات في عام ١٩٤٩ وصلت الى أكثر من ٥١٦ مليون ليرة سورية . في حين لم تتجاوز قيمة الصادرات لهذا العام ١١٢ مليون ليرة سورية . فكان العجز أكثر من ٤٠٥ ملايين ليرة سورية .

أما في السنوات الاخيرة ، فقد خف العجز . وأخذ الميزان يميل لمصلحة البلاد. وبدأت أثمان الصادرات تطغى على أثمان الواردات مرة ثانية في عام ١٩٨٩ وذلك بعد المرة الاولى في عام ١٩٥٣ عندما دخل القطن قائمة الصادرات السورية انذاك. ولدخول البترول والفوسفات وبعض المنتجات الصناعية في قائمة الصادرات حاليا .

جدول رقم ١

تطور قيمة الواردات والصادرات والميزان التجاري في سورية

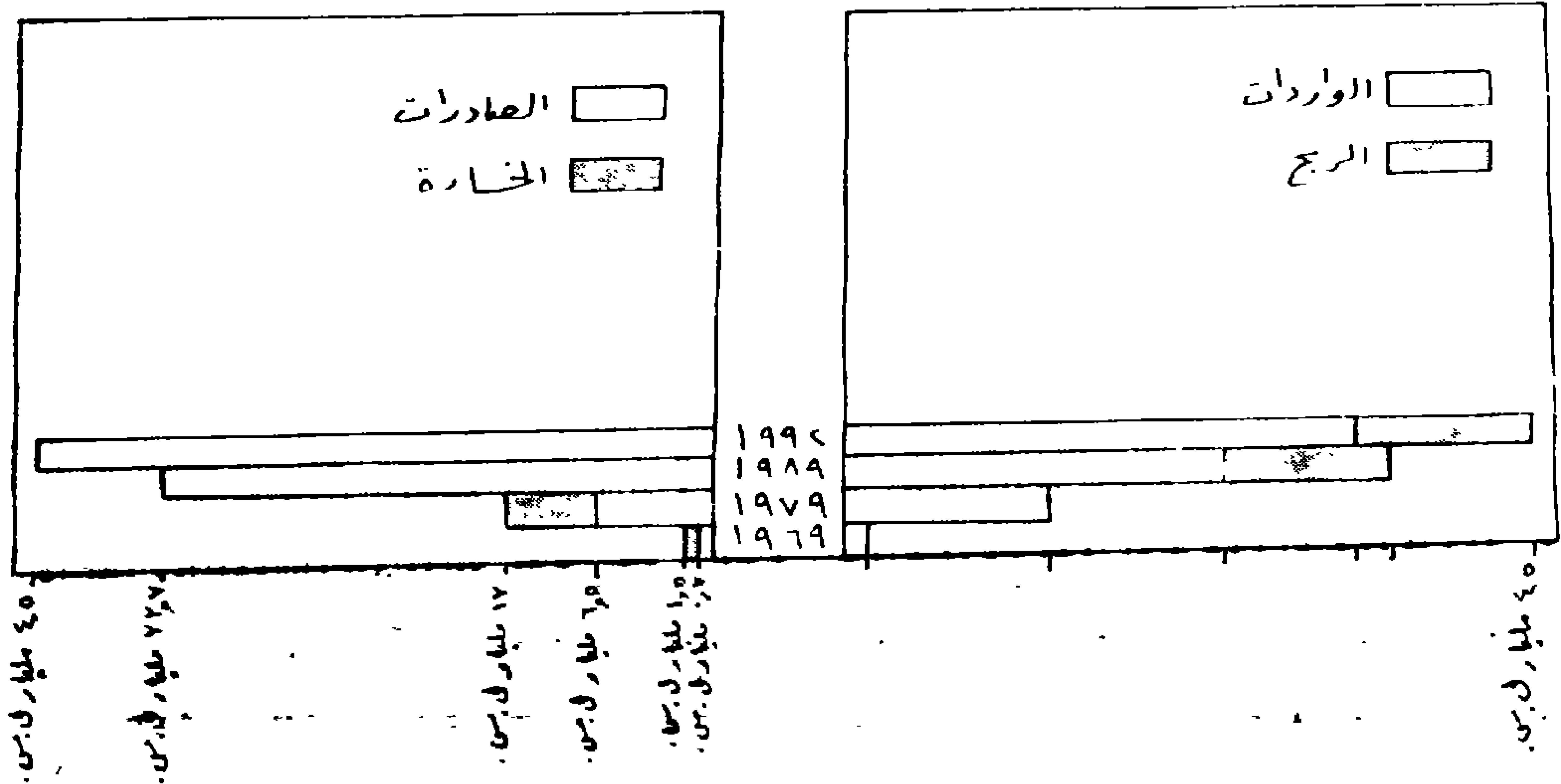
بين ١٩٣٩ و ١٩٩٢

السنوات	الواردات بآلاف الليرات السورية	الصادرات بآلاف الليرات السورية	الربح أو الخسارة بآلاف الليرات السورية
١٩٣٩	١١٣٢٥٣	٣٦٥١٧	(–)٧٦٧٣٦
١٩٤٩	٥١٦١٨٧	١١١١٠٤	(–)٤٠٥٠٨٣
١٩٥٩	٦٧٨٠٠٠	٤٢٥٠٠٠	(–)٢٥٣٠٠٠
١٩٦٩	١٤١١٠٠٠	٧٩٠٠٠٠	(–)٦٢١٠٠٠
١٩٧٩	١٣٠٦٧٠٠٠	٦٤٥٣٠٠٠	(–)٦٦١٤٠٠٠
١٩٨٩	٢٣٥٤٤٠٠٠	٣٣٧٤٠٠٠٠	(+)١٠١٩٦٠٠٠
١٩٩٢	٣٢٥٠٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠٠٠	(+)١٢٥٠٠٠٠٠

لوحة رقم ١

تطور قيمة الواردات والصادرات والميزان التجاري في سورية

بين ١٩٦٩ و ١٩٩٢



ولمعرفة كيف كانت تحدث هذه الخسارة الكبيرة في الميزان التجاري خلال تلك الفترات من تاريخ التجارة الخارجية السورية وعلاقاتها . ثم معرفة لمن كانت تدفع سورية هذه المبالغ الضخمة من أموالها ، وكيف انخفضت هذه الخسارة . واخذت تتراجع حتى مالت كفة الميزان لمصلحة البلاد . نورد الجدولين رقم ٢و٣ واللوحتين رقم ٢و٣ التالية والتي تمثل أولا جانبا من علاقات سورية التجارية في عام ١٩٤٩عندما كانت سورية تخسر . ثانيا كامل علاقات سورية التجارية في عام ١٩٨٩ عندما أصبحت تربح .

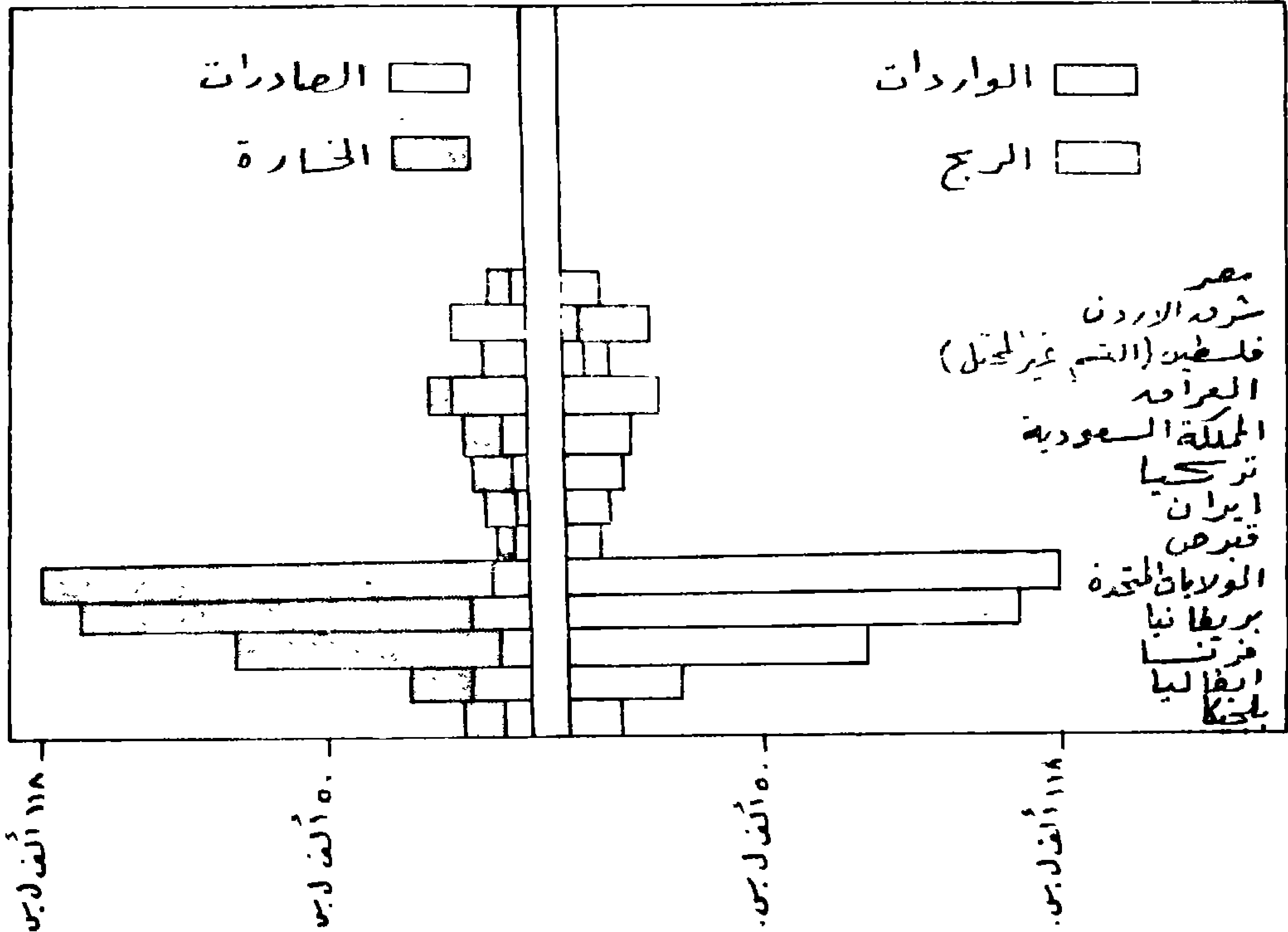
جدول رقم ٢

جانب من علاقات سورية التجارية في عام ١٩٤٩

البلدان	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)
مصر	٦٧٨٤	٣٢٨٨
شرق الاردن	١٦٢٦	٢١٠٦٦
فلسطين	١٢٢٨	٨٠٦٩
العراق	٢٦٨١٣	٢٢٣٥٣
المملكة السعودية	١٢٧٥٧	٥٧٨٧
تركيا	١٢٢٩٨	٥٥٦
ايران	٥٩٤٠	١٤٤٠
قبرص	١٢٤٠	٢٤٢
الولايات المتحدة	١١٨٩٦٩	٣٧٥٩
بريطانيا	١٠٨١١٧	٩٦٩٤
فرنسا	٧٠٨٢٣	٧٠٧٢٣
ايطاليا	٢٦٢٧٢	١٣٢١٩
بلجيكا	١٣٠١٢	٢٨٦٤

لوحة رقم ٢

جانب من علاقات سورية التجارية في عام ١٩٤٩

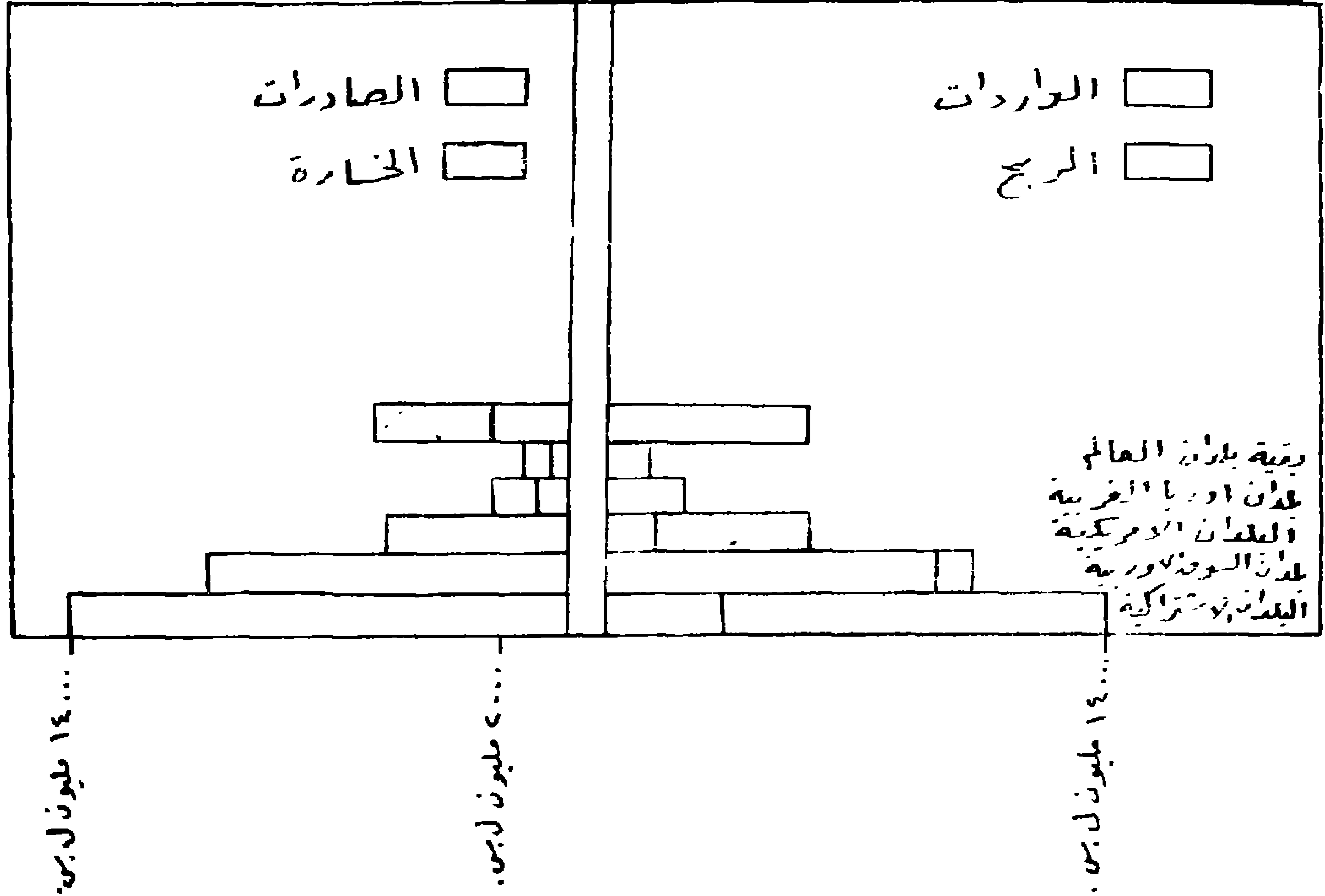


جـدول رقم ٣

علاقات سورية التجاريــة عام ١٩٨٩

مجموعات البلدان	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)
البلدان الاشتراكية	٣٣٣٠٢٢٨	١٤٢٢٧١٢٨
بلدان السوق الاوروبية	٩٨٢٧٩٦٨	١٠٤٦٦٦٦١
البلدان العربيــة	١٣٢٤٦١٦	٥٦٣٦١٧٣
البلدان الامريكية	٢١٨٢٦٦٨	٨٠٦٨٤٨
بلدان اوربا الغربية	١٠٨٤٥٤٤	٣٣٤٠٦٦
بقية بلدان العالم	٥٧٩٤٠٩٨	٢٢٩٨٧٦٢

لوحة رقم ٢
علاقات سورية التجارية عام ١٩٨٩



وتظهر هـذه الجداول واللوحات كيف ان معظم الخسـارة في المراحل الاولى ، خسارة ١٩٤٩ مثلا كانت تحصل من الفـرق الكبير بين قيمة الواردات من الولايـات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا وقيمة الصادرات الى هذه البلـدان . وكيف أن الميزان كان خاسرا مع كل البلدان ، باستثناء شـرق الاردن والقسم غير المحتل مـن فلسطين . وهذه الخسارة الكبيرة في الميزان تستدعي البحث عـن الاسباب والتـي يتلخص أهمها بما يلي :

١ ـ سوء السياسة التجارية بفتح باب الاستيراد على مصراعيه وتقييد التصدير وترك أمور التجارة الخارجية بأيدي تجار لا يعملون الا لمصلحتهم .

٢ ـ ارتفاع ثمن الواردات ، وخاصة التي تشرى بالعملة الصعبة من الأسواق الحرة . وكثرة التكاليف التي تصرف على هذه الواردات لايصالها (فواتير التحميـل والتخزين والنقـل والتفريغ والتأمين) . وعـدم ارتفاع ثمـن الصادرات السـورية بالنسبة نفسها .

٣ ـ سياسة الباب المفتوح التي كانت فرنسا تطبقها بالاستناد الى المادة ١١ من صك الانتداب وهي التي كانت تسهل دخول البضـائع الاجنبية الى سورية ولبـنان بتطبيق التعرفات الجمركية المخفضة عليها . يضاف الى ذلك سياسة الاستيراد التي كان يطبقها لبنان على حساب سورية . اذ كانت هذه السياسة مسؤولةعن الجـزء الاكبر من هذه الخسارة . والدليل على ذلـك ان الخسارة توقفـت بعـد الانفصال الجمركي عن لبنان .

أما تعويض هذه الخسارة الكبيرة فكان يتم على حساب اضمحلال وتآكل الثروة الوطنية شيئا فشيئا من الجوانب التالية :

- من الذهب المخزون والذي فقد القسم الاكبر منه .
- من ارباح تجارة العبور (الترانزيت) رغـم قلتها وعدم تناسبها مع مكانـة سورية ولبنان وأهمية الموقع الجغرافي الذي تحتلانه اذ أنها لم تكن تتجاوز الـ ١٨ مليون ليرة سورية سنويا . ثم من البضائع التي كانت تستورد ثـم يعاد تصديرها .
- من التبرعات وريع رؤوس الاموال الموظفة في الخارج ومن ارباح الحجـاج والسواح والطلاب الغرباء والاصطياف .
- من اموال المهاجرين . وقد بلغ ما وصل البلاد منها بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٤ أكثر من ١١٤ مليون ليرة سورية(٩) .
- من الرسوم التي كانت تستوفى من شركات البترول التي تمر أنابيبها عبـر الاراضي السـورية واللبنانية(١٠) ، ومـن الطائرات التـي كانت تهبـط في المطارات .
- من أرباح التهريب الخفية .

٢ ـ علاقات سورية التجارية مع البلدان العربية وصور عن واقع هذه العلاقات :

ان الحال الذي وصلت اليه الاوضاع في الجزء الآسيوي من الوطن العربي بعـد الحرب العالمية الاولى . حيث « تضرب فيه الاسداد بين فريق وفريق، وتقام الفواصل وتصطنع الحدود والحواجز ، وتبتكر السياج حول مقاطعات اقليمية »(١١) . ان هذا الذي ادى الى تقسيم هذا الجزء من الوطن الى دويلات ذات حدود مصطنعة ، قـد قلب الموقع الاقتصادي التقليدي لسورية ، وهو موقع احتل مكانـة رئيسـية في كـل منطقة الشرق الادنى خلال الفترة الواقعة بين ١٨٨٠ و ١٩١٤ .

لقد لمس معاصرو تلك المرحلة آثار التجزئة السياسية الاستعمارية على مصالح المنطقة الاقتصادية ، وبشكل خاص على مصالح سورية ، بعد السهولة التي كانت تسير بها التجارة في المنطقة دون حدود سياسية ودون حواجز جمركية . وان ما كتبه لطفي الحفار في جريدة الشعب في ١٧ تموز عام ١٩٣٠ ، وما ذكره بدر الدين الشلاح في مذكراته في شرح أسباب الازمة الاقتصادية في سورية يقدم خير صورة لتلك الآثار السلبية السيئة . حيث يرجع كل منهما هذه الاسباب الى تقسيم البلاد . « فسورية التي كانت قبل الحرب مورد التصدير الى الاناضول والروملي والعراق والحجاز وفلسطين . تصدر الى كل هذه المناطق المحيطة محصولاتها الوطنية ، كما تسهل لها مرور المصنوعات والمنسوجات الاجنبية ، خسرت بعد الحرب هذه الاسواق . ودمشق التي كانت تصدر أفضل أنواع النسيج والفواكه المجففة الى فلسين ومصر والحجاز والعراق حينما كانت حركة النقل والمواصلات بين دمشق وهذه الاقطار العزيزة سهلة وميسورة لا تقف بوجهها حدود أو جمارك . دمشق هذه وجدت نفسها ، عندما فرض الاستعمار التجزئة ورسم الحدود السياسية والجمركية الوهمية بينها وبين هذه الاسواق ، معزولة اقتصاديا . وحل بها الضيق والبطالة والكساد . وانعكس هذا كله على علاقاتها التجارية »(١٢) .

رغم كل هذه الظروف القاسية التي أحاطت بعلاقات سورية التجارية مع شقيقاتها ، فان سورية استطاعت أن تعيد لهذه العلاقات حيويتها ونشاطها بسرعة ، مؤكدة بذلك أن ارتباط المصالح الاقتصادية بين البلاد العربية ، التي هي في الحقيقة أجزاء من سوق تجارية واحدة متكاملة ، يملك من القوة ما يمكنه من الصمود امام عوامل التجزئة مهما كان شكلها وحجمها . وعادت البلاد العربية ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٩ لتصبح من أحسن من تعامل مع سورية تجاريا . وكانت سورية هي الرابحة دوما من هذا التعامل . فعلى سبيل المثال استوردت سورية مع لبنان في عام ١٩٣٩ من مصر والعراق وفلسطين وشرق الاردن والمملكة العربية السعودية ما قيمته ٧٣٢٢ الف ليرة سورية . وصدرتا الى هذه البلدان ما قيمته ١٥٧٤٧ ألف ليرة سورية ، أي ضعف قيمة ما استورد منها . واستمر التعامل مع البلاد العربية يتحسن ، وبقي لمصلحة سورية حتى بلغت قيمة ما استوردته مع لبنان من البلاد العربية في عام ١٩٤٦ نحو ٣٧٥١٩ ألف ليرة سورية ، أي ما يعادل ١٤٪ من اجمالي قيمة الواردات البالغ ٢٦٦٦٥٤ ألف ليرة سورية . بينما بلغت قيمة ما صدرتاه الى هذه البلدان في هذه السنة نحو ٣٩٠٩٥ ألف ليرة سورية ، أي ما يعادل ٤٧٪ من اجمالي قيمة الصادرات البالغ ٨٥٥٦٢ ألف ليرة سورية. وفي عام ١٩٦٩ وصلت قيمة ما استوردته سورية من البلاد العربية الى ١٩٨٩٤٢ ألف ليرة سورية ، وقيمة ما صدرته الى هذه البلدان ٢٤٥٣٢٨ ألف ليرة سورية وتكون سورية ، وقد انفردت بتجارتها الخارجية بعد انفصالها عن

لبنان عام ۱۹٥۰ ، قد حققت من هذه العلاقات المميزة ربحا مقداره ٤٦٣٨٦ ألف ليرة سورية . اخيرا بلغت قيمة واردات سورية من البلاد العربيـة في عام ۱۹۸۹ نحـو ۱۳۲٤ مليون ليرة سورية . وقيمة صادراتها ٥٦٣٦ مليون ليرة سورية . وبذلك يكون ربح سورية من علاقاتها مع البلدان العربية قد ارتفع الى أكثـر مـن ٤٣١٢ مليـون ليرة سورية(۱۳) .

ونظرا للروابط التقليدية بـين سورية وفلسطين ضمـن وحـدة بـلاد الشام الجغرافية ، حيث كانت فلسطين اكثر اسواق التصدير قيمة بالنسبة لسورية ، فان تجار دمشق كانوا حريصين دوما على عدم قطع هذه الروابط ، وعلى ابقـاء هـذه الاسواق مفتوحة لانها كانت تؤمن العمل لنحو ۲٥۰ الف عامل سوري ولان قيمـة ما كانت تستجره من بضائع لا تقل عن ثلاثة ملايين ليرة ذهبية عثمانية(١٤) .

ونتيجة لممارسات وطنية وقومية من الجانبين السوري والفلسطيني بقي للسوق الفلسطيني دوره الكبير في الاقتصاد السوري خلال فترة الانتداب . وبقيت تجـارة فلسطين مع سورية اكثر نشاطا من التجارة مع كل من مصر والعراق . حيث تبين من احصاءات ١٩٣٤ ــ ١٩٢٧ ان حصة سورية من مجموع مستوردات فلسطين من البلدان الثلاثة المجاورة مصر وسورية والعراق قد بلغت ٦٣٪ كما بلغت حصتها من صادرات فلسطين الى هذه البلدان نحو ۸۰٪ . وكان رصيد العلاقات التجارية بين سوريـة وفلسطين ايجابيا لمصلحة سورية ، حيث كان معدل ما تبيعه سورية لفلسطين لا يقل عن اربعة اضعاف ما تشتريه منها . ففي عام ١٩٢٧ على سبيل المثال ، باعت سوريـة لفلسطين ما قيمته ۸۸۲۱۳۲ ليرة سورية . واشترت منها مـا قيمتـه ۲٦۰۷۲۷ ليرة سوريه . وفي مقدمة البضائع التي كانت تصدرها سورية الى فلسـطين : الحنطـة والشعير والطحين والبيض والالبسة والمنسوجات الحريريـة والاحذيـة والجزمات الجلدية والاسمنت والبطاطا . وكانت هـذه البضائع تدخـل الى فلسطين في مطلـع الثلاثينات بسهولة بسبب ضعف بنية الاقتصاد الفلسطيني في تلك الفترة من جهة ، وبسبب مقاطعة عرب فلسطين للمنتجات اليهودية من جهة أخـرى . وكان معرض القدس العربي الذي افتتح في تموز ۱۹۳۳ ، والذي كانت المنتوجات السورية فيه موضع اعتزاز أهل فلسطين ، مناسبة لتوثيق الروابط الاقتصادية بين البلدين .

وتستفيد سورية مما تربحه من علاقاتها مع البلدان العربية في تعديل الميزان التجاري ،وتغطية جزء من الخسارة التي تلحقه من العلاقات مع البلـدان الاخـرى ، وبخاصة العلاقات مع بلدان السوق الاوربية المشتركة والبلدان الامريكية . والجدول التالي رقم ٤ يبين تطور حجم علاقات سورية التجارية مع كل البلدان العربية مجتمعة.

جدول رقم ٤

تطور حجم علاقات سورية التجارية مع البلدان العربية

(القيمة بملايين الليرات السورية)

السنوات	قيمة الواردات من البلاد العربية	قيمة الصادرات الى البلاد العربية	قيمة اجماتي واردات سورية	قيمة اجمالي صادرات سورية
١٩٤٦*	٣٧	٣٩	٢٦٦	٨٥
١٩٦٩	١٩٨	٢٤٥	١٤١١	٧٨٩
١٩٧٩	٢٦٣٧	٧٦٠	١٣٠٦٧	٦٤٥٣
١٩٨٩	١٣٢٤	٥٦٣٦	٢٢٥٤٤	٣٣٧٣٩

* * *

* ارقام هذه السنة فقط تخص سورية ولبنان معا بسبب الوحدة الاقتصادية التي كانت بينهما .

الصــورة الاولى

علاقات سورية التجارية مع العــراق :

كانت العلاقات التجارية وثيقة بين المدن العراقية والمدن السورية أثناء الحكم العثماني . وكانت حلب بصورة خاصة مركزا تجاريا هاما ومخزنا لتوزيع البضائع في الشرق باجمعه .

أما في زمن الانتداب فقد طرأ على هذه العلاقات تطورات جديدة نتيجة لخضوع كل من البلدين لنظام سياسي واقتصادي مختلف فانتــداب فرنسي في سوريــة ، وانتداب انكليزي في العراق . وقامت الحدود الجمركية بين البلدين فاتجه العراق نحو الخليج العربي ، في حين اتجهت سورية نحو ساحل البحر المتوسط . وظل الحــال على هذا الشكل حتى مطلع الحرب العالمية الثانية . وكان العراق خــلال هــذه المــدة يستفيد من التعرفة الجمركية الدنيا بموجب أحكام المادة ١١ من صك الانتداب على صادراته الى سورية بينما كانت سورية لا تنال مقابل ذلك أي تســهيل لبضائعهــا المصدرة الى العراق ، فكانت الواردات منه تفوق الصادرات اليه بكثير . وفي مطلــع الحرب العالمية الثانية بدأت هذه الحالة تتغير ، وصار الميزان التجاري يتأرجح بــين التعادل وبين الخسارة البسيطة . ففي عام ١٩٤٦ بلغت قيمة الواردات من العراق ١٦ مليون ليرة سورية ، وقيمة الصادرات اليه نحو ١٢ مليون ليرة سورية . فكانت الخسارة بسيطة . وفي عام ١٩٤٧ كان الميزان التجاري رابحا لاول مرة ، اذ بلغت قيمة الواردات منه نحو سبعة ملايين ليرة سورية ، وقيمة الصادرات اليه نحو ١٧ مليون ليرة سورية . أي بربح قدره ١٠ ملايين ليرة سورية .

وسورية في الحقيقة هي ممر طبيعي للبضائع الذاهبة للعراق والخارجة منــــه . وتجارة الترانزيت الى العراق تحتل المكانة الاولى في الترانزيت السوري . ففي عــام ١٩٨١ ، قبل فتور العلاقات التجارية مع العراق لاسباب سياسية طارئة ومؤقتة . بلغت قيمة البضائع المارة لحساب العراق أكثر من ٦ر١٦ مليار ليرة سورية . كما أن سورية وقــد سبقت العراق بنهضتها الصناعية والزراعية ، كانت احســن ســوق تتزود منه العراق بما تحتاجه .

وبقيت العلاقات مع العراق تزداد أهمية يوما بعد يوم . تدعمهــا الاتفاقيــات التجارية التي تعقد بينه وبين سورية . ففي عام ١٩٥١ ، بعد الانفصال عن لبنان ، تم

الاتفاق بينهما لتصدر سورية القمح الى العراق على أن يسدد ثمنه بمنتجات عراقية من اغنام وجمال وتمور وشعير وجلود وبترول(١٥) . أما أهم ما يستورده العراق من سورية المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية والاحذية والشالات والمصنوعات الزجاجية والخزفية ، ثم الفواكه والقمح وقمر الدين والصابون وزيت الزيتون والتبغ والخضراوات والاثمار المحفوظة والمجففة .

الا أن العراق عاد ليصبح الرابح من التجارة طيلة فترة تزويده لسورية بالبترول الخام . ففي عام ١٩٦٩ بلغت قيمة صادرات العراق الى سورية نحو ٨٨ مليون ليرة سورية . في حين لم تتجاوز قيمة وارداته من سورية الـ ٢٤ مليون ليرة سورية . فكان ربحه بحدود الـ ٦٤ مليون ليرة سورية . وارتفعت قيمة صادراته الى سورية في عام ١٩٨١ الى أكثر من ٣٫٧ مليار ليرة سورية . اما قيمة وارداته منها فلم تتجاوز الـ ٥٫٩ مليون ليرة سورية . وبالتالي كان ربحه في هذه السنة اكثر من ثلاثة مليارات ليرة سورية(١٦) .

والجدول التالي رقم ٥ بأرقامه يبين تطور العلاقات التجارية مع العراق منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٨١ .

جدول رقم ٥

تطور علاقات سورية التجارية مع العراق (١٧)

السنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)	الربح أوالخسارة (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩	١٢٧٥	١١١١	١٦٤ (—)
١٩٤٩	٢٦٨١٣	٢٢٣٥٣	٤٤٦٠ (—)
١٩٦٩	٨٨٠٨٧	٢٤٢٤٦	٦٣٨٤١ (—)
١٩٨١	٣٧١٣٣٢٦	٥٩٢٩	٣٧٠٧٣٩٧ (—)



الصــورة الثانية

علاقات سورية التجارية مع المملكة العربية السعودية :

بقيت العلاقات بين سورية من جهة والمملكة العربية من جهة اخرى ، محدودة الى وقت متأخر . ففي عام ١٩٣٩ لم تتجاوز قيمة الصادرات اليها من كل من سورية ولبنان الربع مليون ليرة سورية . وقيمة الواردات منها الـ ٥١ ألف ليرة سورية . ثم تدنت هذه الارقام في السنوات الاولى للحرب العالمية الثانية ، وعادت بعد ذلك الـى النشـاط حتى عام ١٩٤٥ حيث كان الميزان التجاري معها خاسرا لاول مرة اذ هبطت الصادرات الى ثلث الواردات . ومنذ عام ١٩٤٦ بدأ الرجحـان في الميـزان يميـل لحسـاب سورية ولبنان حتى بلغ الصادر في عام ١٩٤٧ عشرة أضعاف الوارد منها . وفي عام ١٩٥٠ ، بعد الانفصال ، عقد بينها وبين سوريه معاهدة تجارية لانماء التبادل بينهما الى أقصى حد مستطاع ، ثم اتبعت المعاهدة بقرض لسورية تسدده بالبضائع السـورية من حبوب وبقولات وفواكه مجففة وطازجة واقمشـة قطنية وحريرية وصوفية وملبوسات وأحذية وسكاكر ومحفوظات وزجاج وخزف وصابون وزيت زيتون . أما اهم ما كانت تستورده سورية من المملكة العربية السعودية فهو الجلود الخام والجمال.

واستمر تحسن العلاقات التجارية بين البلدين كماً وقيمة . وبقي الربح الذي كان بازدياد مستمرا أيضا لمصلحة الجانب السوري . ففي عـام ١٩٦٩ وصـل الربح الى أكثر من ١١ مليون ليرة سورية . وارتفعت الارباح في عام ١٩٨١ الى نحـو ١٤٢ مليون ليرة سورية . أما في عام ١٩٨٩ فقد قفزت هذه الارباح الى اكثر مـن ١٥٩٩ مليون ليرة سورية(١٨) وأرقـام الجدول التالي رقم ٦ تبـين بوضوح تطـور حجـم العلاقات التجارية مع المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٣٩ ونسبتها الى اجمالي قيمة الواردات والصادرات السورية .

جـدول رقم ٦
تطور حجم العلاقات التجارية السورية مع المملكة العربية السعودية

السنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ل.س)	قيمة اجمالي واردات سورية (١٠٠٠ل.س)	قيمة اجمالي صادرات سورية (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩	٥١	٢٥٠	١١٣٢٥٣	٣٦٥١٧
١٩٤٩	١٢٧٥٧	٥٧٨٧	٥١٦١٨٧	١١١١٠٤
١٩٦٩	٦٤٤	١٢٤٢٣	١٤١١٣٢٤	٧٨٩٩١٨
١٩٨١	١٥٢٤٠	١٥٧١٨١	١٩٧٨١٠٤٢	٨٢٥٢٧٣١
١٩٨٩	٤١٨٢٠٢	٢٠١٧٢٠٦	٢٣٥٤٤٠٠٠	٣٣٧٤٠٠٠٠

الصورة الثالثـة

علاقات سورية التجارية مع المملكة الاردنية :

كان شرق الاردن يحتل في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة ، المرتبة السادسة بين المتعاملين تجاريـا مع سوربة بالشكل الرسـمي المعلن . الا ان التهريب على الحدود بين البلدين في هذه الفترة ، وهي حدود طويلة ، كان يتـم على نطاق واسع ، حيث اصبح شرق الاردن مركزا لتوزيع وتهريب البضائع الى كافة البلدان العربية . وقد بلغت قيمة الصادرات اليه في عام ١٩٤٦ على سبيل المثال نحو ٤ ملايين ليرة سورية مقابل ٥ر٥ ملايين ليرة سورية للواردات منه .

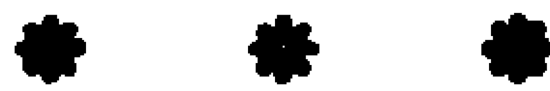
ويقي الميزان التجاري يتأرجح بين البلدين ، فتارة يميل لمصلحة سورية، وأخرى لمصلحة الاردن . ولكن في الغالب كانت سورية هي الرابحة بالنسبة للمبادلات الرسمية المعلنة . اما بالنسبة للمبادلات الخفية (التهريب) فالربح كان دوما من حصة الاردن .

وفي كل الاحوال ، يبقى الاردن من بين البلدان العربية التي تتعامل تجاريا مـع سورية بشكل واسع . وذلك نتيجة للجوار بين هذين البلدين الشقيقـين من جهة ، وللتكامل الاقتصادي بينهما ، وحاجة كل منهما للاخر من جهـة اخرى . ففي عـام ١٩٦٩ كان الاردن ثاني بلد عربي تصدر اليه سورية بعد لبنان . ورابـع بلـد عربي تستورد منه بعد العراق ولبنان ومصر . فقد بلغت قيمة الصادرات اليه أكثر مـن ٥ر٤١ مليون ليرة سورية من أصل ٢٤٥ مليون ليرة سورية قيمة اجمالـي الصادرات السوريه الى البلدان العربية . أما الواردات منه فقد كانت بحدود ٥ر١٤ مليون ليرة سورية من أصل ١٩٩ مليون ليرةسورية قيمة اجمالي الواردات السورية من هـذه البلدان . وتكون سورية قد حققت في هذه السـنة من علاقاتها التجارية مع الاردن ربحا صافيا مقداره ٢٧ مليون ليرة سورية .

وفي عام ١٩٨١ ازداد حجم التبادل بين البلدين لتصل قيمة الصادرات السـورية الى الاردن الى نحو ١١١ مليون ليرة سورية ، من أصل ٧٩٧ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الصادرات السورية في هذه السنة الى البلدان العربية . اما الواردات فقد بلغت فيمتها أكثر من ١٤٣ مليون ل.س . من أصل ٥٩٦٧ مليـون ل.س ، قيمـة اجمالي الواردات السورية لهذا العام من هذه البلدان . وهكذا يكون الاردن بهـذه الارقام ثالث بلد عربي تستورد منه سورية بعد العراق ولبنان ، وخامس بلد تصدر اليه بعد الكويت وليبيا والمملكة العربية السعودية ولبنان .

أما في عام ١٩٨٩ فقد حافظ الاردن على مرتبته الخامسة بين البلدان العربية التي تصدر اليها سورية بعد كل من المملكة العربية السعودية ولبنان والامارات العربية المتحدة وتونس . حيث بلغت قيمة ما صدر اليه نحو ٣٢٣ مليون ل.س . من أصل ٥٦٣٦ مليون ل.س . قيمة اجمالي الصادرات السورية الى هذه البلدان . أما في حقل الواردات فقد كانت قيمة ما استوردته سورية منه نحو ١٢١ مليون ل.س . من أصل ١٣٢٤ مليون ل.س قيمة اجمالي واردات سورية من البلاد العربية . وهو بهذا يكون قد حافظ على مرتبته السابعة(١٩) .

وهكذا يتضح أن سورية هي التي أصبحت تربح في الفترات الاخيرة ، وبشكل جيد من عمليات التبادل التجاري مع الاردن . وقد تحقق هذا كنتيجة طبيعية للتقدم الصناعي والزراعي الذي شهدته سورية ولفائض انتاجهما الذي يحتاج اليه الاردن البلد المجاور . تم للسياسة الحكيمة والموجهة التي أصبحت سمة أساسية من سمات التجارة الخارجية السورية ولعلاقاتها مثلها في ذلك كمثل بقية القطاعات الاقتصادية الاخرى . يضاف الى ذلك الدور الذي تلعبه تجارة الترانزيت الى الاردن حيث بلغت قيمة البضائع المارة بسورية الى الاردن في عام ١٩٨٩ أكثر من ٧٥٧ مليون ليرة سورية .



الصــورة الرابعــة

علاقات سورية التجارية مع مصر :

بدات علاقات سورية التجارية مع مصر في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ، بشكل متواضع من حيث حجمها ، رغم ما يصل هذين البلدين من روابط تاريخية وثقافية واقتصادية ، ورغم ما يقتضيه الحال بأن تكون مصر من أول زبائن سورية لحاجتها ، وهي البلد المستهلك الكبير ، لما يفيض من الانتاج السوري . وحاجة سورية بالمقابل لبعض ما تنتجه مصر .

ورغم سهولة المواصلات البحرية وقربها . ورغم توصيات مجلس جامعة الدول العربية المتكررة بتوثيق وتوسيع العلاقات بين دول الجامعة . فقــد بقيت مصر حتى عام ١٩٤٩ لا تحتل الا المقام السابع بين البلاد المستوردة من سورية ، والمرتبة التاسعة بين البلاد المصدرة اليها . وذلك لأن مصر كانت تفضل في هذه الفترة تصدير منتجاتها الى اسواق النقد القوي .

وبقي حجم تجارة سورية مع مصر محدودا في الفترات التالية ، كما أن العلاقات كانت تتعرض باستمرار لتأثير الاحداث السياسية التي مرت بالبلدين وبالمنطقة العربية عامة . كالوحدة بين البلدين والانفصال الذي تلاها . ثم الحروب مع اسرائيل والمواقف المتباينة من النتائج التي أفرزتها هذه الحروب ـ وخاصة حرب تشرين عام ١٩٧٣ ـ والتي أدت الى القطيعة المؤقتة بين البلدين والتي استمرت حتى عام ١٩٩٠ .

أما مبيعات سورية لمصر فقد كانت تتكون من بعض الثمار والبقول المجففة والتبغ والتنباك وخيوط الحرير . وقد بلغت قيمة هذه المبيعات في عام ١٩٤٦ ، بعــد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، نحو خمسة ملايين ليرة سورية . ثم أخذت هــذه القيمــة بالتناقص حتى وصلت الى نحو ثلاثة ملايين ليرة سورية فقط في عام ١٩٤٩ . وبالمقابل كانت سورية تستورد من مصر القطن(٢٠) والسكر والارز والنحاس والاسفلت وبطانيات الصوف والافلام السينمائية . وقد بلغت قيمة هذه المستوردات في عام ١٩٤٦ نحــو سبعة ملايين ليرة سورية . وتناقصت هذه القيمة في عام ١٩٤٩ بمقدار قليل لتعود الى الارتفاع من جديد وتصل في عام ١٩٦٩ الى ١٩ مليون ليرة سورية . وبعــد الانقطاع الذي اعقب احداث حرب تشرين ، عادت الواردات في عام ١٩٨٩ لتسجل قيمــة ٢٣ مليون ليرة سورية . في حين بقيت الصادرات حتى هذه السنة شبه معدومة .

وما تجدر الاشارة اليه في العلاقات التجارية بين سورية ومصر ، هو أنها بدأت

ضعيفة واستمرت كذلك . وان الميزان التجاري بدأ لمصلحة مصر في هــذه العلاقات وبقي حتى عام ١٩٨٩ لمصلحتها ولكن الارباح كانت ولا زالت ضعيفة اذا ما نسبت الى الارباح التي كانت تحققها العلاقات التجارية مع البلدان العربية الاخرى ، خاصة تلك التي تتعامــل مع سورية تجاريا على نطاق واسع . والجدول التالي رقم ٧ يبــين ذلك بوضوح .

جـدول رقـم ٧

العلاقات التجاريـة السورية مـع مصر

السـنوات	قيمـة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمـة الصـادرات (١٠٠٠ ل.س)	الربـح اوالخسارة (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩	٢٤١٨	١١٣٢	١٢٨٦ (—)
١٩٤٩	٦٧٨٤	٣٣٨٨	٣٣٩٦ (—)
١٩٦٩	١٨٩٥٣	٢٤٧٥٥	٥٨٠٢ (+)
١٩٨١	٢٣١	—	٢٣١ (—)
١٩٨٩	٢٣٢٩٩	—	٢٣٢٩٩ (—)

* * *

الصورة الخامسة

علاقات سورية التجارية مع لبنان :

ان الوحدة الجمركية بين سورية لبنان والتي أوجدتها السلطات الفرنسية ، وابقت عليها سلطات البلدين في أول عهد الاستقلال ، لم تكن لتقتصر على الجمارك فحسب ، انما كانت تتسع لتكون شبه وحدة اقتصادية بين البلدين .

وكان لبنان يستغل هذه الوحدة الاقتصادية لمصلحته على حساب سورية ، ويحتكر فوائد تجارة البلدين الخارجية مستفيدا من وجود ادارة الجمارك والمرفأ ومراكز وكالات وتخليص البضائع وأسواق القطع لديه ، وفي بيروت بالذات ، ليفرض نفسه كوسيط لعمليات الاستيراد والتصدير الى سورية مقابل نفقات باهظة يدفعها في النتيجة المستهلك السوري .

ثم ان لبنان كان ينتهج ، وبشكل منفرد ، سياسة اقتصادية تتنافى ومصلحة شريكه سورية ، فيفتح أبوابه على مصراعيها أمام البضائع الاجنبية لتغزو الاسواق السورية وتضارب المنتوجات المحلية وتشل النشاط الصناعي وتستنزف الثروات وتدخل الخلل الى الميزان التجاري .

وبعد الاستقلال، رغبت سورية انتهاج سياسة اقتصادية بديلة تحد من الاستيراد للكماليات ، وتحمي المصنوعات الوطنية وتشجعها ، وتقي البلد شر استنزاف الثروة التي أصبح تآكلها يهدد كيان البلد الاقتصادي ، وتوقف الخسارات الفادحة في الميزان التجاري . لقد أرادت سورية في الحقيقة اعادة تنظيم التجارة الخارجية للبلدين المتحدين اقتصاديا ، على أسس صحيحة في مجالي التصدير والاستيراد ، وتعديل فوائد المصالح المشتركة مع لبنان وجعل القسمة عادلة بحيث تتلاءم مع عدد المستهلكين في كلا البلدين . وهي لم ترد القطيعة بأي شكل من الاشكال . الا أن هذه الاسس الجديدة التي اقترحت سورية تنفيذها لصالح البلدين وللحفاظ على الوحدة الاقتصادية بينهما ، لم ترق للبنان لانها ستحد بالطبع من مكاسب المنتفعين وستضع حدا للاستغلال الذي كان يحقق لهم المرابح الطائلة . وأمام الموقف المتشدد من لبنان ورفضه لأي تعديل للشكل القديم للوحدة الاقتصادية ، لم يبق أمام سورية من أجل صيانة الجزء الباقي من ثروتها الا فصم الوحدة الاقتصادية عام ١٩٥٠ وتحررت سورية من القيود التي كانت تربطها وتمنعها من توجيه تجارتها الخارجية وعلاقاتها التجارية وفق ما تقتضيه المصلحة الوطنية .

وهكذا تحول ما كان يجري داخليا من تبادل مصالح بين البلدين في ظل الوحـدة الاقتصادية ، الى تجارة خارجية . وأخذت خطوط التعامل في هذه التجارة الجديدة بين البلدين تتضح شـيئا فشيئا لتصبح متشابهة لما هـو موجود بين سورية وبقيـة البلدان العربية المجاورة كالاردن والعراق . مع فارق بسـيط يعود للعلاقات السابقة ويتمثل بسهولة المبادلات . ففي عام ١٩٦٩ فاقت قيمة ما صدرته سورية الى لبنـان الـ ١١٢ مليون ل.س ، وقيمة ما استوردته منـه الـ ٧٢ مليـون ل.س . وارتفعت الارقام في عام ١٩٨٩ الى أكثر من ١٥٠٦ ملايين ل.س للصادرات . في حين لم تصل قيمة الواردات لأكثر من ٧١ مليون ل.س ، فتكون سورية قد حققت بذلك ربحا يزيد على الـ ١٤٣٥ مليون ليرة سورية .

٣ ـ علاقات سورية التجارية مع البلدان الاجنبية وصور عن واقع هذه العلاقات :

منذ أن وضعت سورية تحت الانتداب الفرنسي بعـد الحرب العالمية الاولـى ، والعلاقات تسير وفق ما تقتضيه مصلحة الدولة المنتدبة التي كانت لا تترك مجالا لأي دولة اجنبية أخرى لمزاحمتها في جني فوائد الانتداب(٢١) . فبقيت تتبوأ لوحدها المركز الاول في المبادلات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث استقلت سورية ، وظهـر على المسرح التجاري العالمي مزاحمون جدد مثل الولايات المتحدة الامريكية التي انتزعت المكانة الاولى من فرنسا ودفعتها الى المرتبة الثالثة . في حين بقيت انكلترا تحتل المكانة الثانية طيلة هذه الفترة .

والصفة البارزة في علاقات سورية مع الدول الاجنبية في هذه المرحلة هي عـدم تمشيها مع ما تقتضيه المصلحة من حماية للثروة الوطنية من خطر التبديد . فقيمـة الواردات من هذه الدول اكثر من قيمة الصادرات اليها بعدة مرات . والامور التـي كانت تدعم الاسترسال في هذه العلاقات ، رغم معرفة ما تجر من أضرار ، كثـيرة وفي مقدمتها أن سورية لم تكن تملك في ظل الانتداب حرية القرار . ثم السياسة الاقتصادية المشتركة مع لبنان التي استمر اعتمادها بعد الاستقلال ، والتي كان ما يسمى فيهـا بالمصالح المشتركة يستغل بأبشع شـكل من قبل تجـار لبنان عامـة ، وتجار بيروت خاصة . حيث كانوا يغرقون الاسواق بالكماليات ، يستوردونها ليتـم تصريفها فيما بعد في سورية . مستغلين في ذلك سيطرتهم على الميناء الوحيد للاسـتيراد السهل في البلدين ، ولولا أن تم عام ١٩٥٠ الانفصال الاقتصادي عن لبنان ، وانهـاء المصالـح المشتركة ، لانتهى الامر بسورية الى كارثة اقتصادية لا يعلم مداها .

ولأول مرة في تاريخ سـورية التجاري منذ الانفصال عن جسم الامبراطوريـة العثمانية ، اخذت قيمة الصادرات فيها تقترب من قيمة الواردات حتى فاقتها في مطلع عام ١٩٥٣(٢٢) .

وفي المرحلة الحالية ، وبعد أن اصبحت سورية تطبق سياسة اقتصادية وطنية موجهة ، ان كان في مجال الزراعة والصناعة ، أو في مجال استثمار الثروات الطبيعية وفي مقدمتها البترول والفوسفات . ثم بعد أن وضعت هذه التجارة في خدمة التنمية الشاملة ، وما يقتضيه تنفيذ الخطط الخمسية الموضوعة لهذا الهدف . نتيجة لكل ما تقدم ، أصبحت الصفة البارزة لعلاقات سورية مع الدول الاجنبية هي الحرية في اختيار التعامل الامثل ومع أي طرف من هذه الاطراف الاجنبية ، وبشكل متوازن وعقلاني ، ملتزم بكل ما من شأنه الحفاظ على الثروة الوطنية وتنميتها ، دون التقصير في تلبية ما تتطلبه التنمية المستمرة . وقد تمثلت هذه الصفة وبكل وضوح في واقع التجارة الخارجية لسورية في عام١٩٨٩ عندما تخطت قيمة الصادرات ،وللمرة الثانية، وبعد سنوات من التأرجح بين الخسارة والتوازن ، وبمقدار كبير ، قيمة الواردات ، ومعظمها من البلدان الاجنبية(٢٢) .

لقد تغيرت طبيعة العلاقات التجارية مع الدول الاجنبية في المراحل الاخيرة من هذه الفترة نتيجة للسياسة الاقتصادية الوطنية التي اتبعتها سورية في تنظيم هذه العلاقات بشكل ينسجم مع طبيعة العلاقات السياسيه بينها وبين كتل العالم ومعسكراته المختلفة . لقد توجب عليها أن تشق لعلاقاتها التجارية ولمبادلاتها مع الدول الاجنبية طريقا آمناً في ميادين لم تعد تشغلها دول ذات نظام اقتصادي واحد هو النظام الرأسمالي ، انما أصبح فيها معسكر لنظام اشتراكي أيضا وآخر لنظام غير منحاز ، خاصة وأن العلاقات مع هذه الانظمة الجديدة تختلف في طبيعتها عن تلك التي هي مع النظام الرأسمالي . وان الاساس فيها هو تبادل المنافع .

وفي سبيل تطوير علاقات سورية التجارية مع البلدان الاجنبية في هذه المرحلة الجديدة من تاريخ علاقاتها التجارية . ومع البلدان الصديقة بشكل خاص ، ومن أجل زيادة حجم التبادل التجاري مع هذه الدول . فقد بذل نشاط كبير في عام ١٩٦٩ كما سبق وذكرنا ، وذلك من أجل تأمين أسواق جديدة للمنتجات السورية . وتأمين مصادر جديدة لاستيراد السلع والتجهيزات اللازمة لتنفيذ مشاريع التنمية الشاملة والمستمرة . وقد توج هذا النشاط بعقد المزيد من الاتفاقيات التجارية واتفاقيات التعاون الاقتصادي(٢٤) . والجدول التالي رقم ٨ يبين حجم علاقات سورية التجارية مع الكتل الرئيسية للبلدان الاجنبية في ثلاث فترات متعاقبة .

جـدول رقـم ٨

علاقات سورية التجارية مع الكتل الرئيسية للبلدان الاجنبية

السـنوات		قيمة الواردات ١٠٠٠ ل.س	قيمة الصادرات ١٠٠٠ ل.س
	بلدان السـوق الاوربية	٣٧١٧٠٩	١٤١٨١٤
١٩٦٩	البلدان الاشـتراكية	٤٣٧٢٣٣	٢٩٧٢٥٥
	البلدان الامريكيـة	٦٦٩٩٤	٥٠٧٨
	بلدان السـوق الاوربية	٤١٩١٠٠٠	٣٣٢٢٠٠٠
١٩٧٩	البلدان الاشـتراكية	٢٣٥١٠٠٠	١٠٣٦٠٠٠
	البلدان الامريكيـة	٦٢٥٠٠٠	٦١٩٠٠٠
	بلدان السـوق الاوربية	٩٨٢٧٩٦٨	١٠٤٦٦٦٦١
١٩٨٩	البلدان الاشـتراكية	٣٣٣٠٢٢٨	١٤٢٢٧١٢٨
	البلدان الامريكيـة	٢١٨٢٦٦٨	٨٠٦٨٤٨

* * *

الصــورة الأولــى

علاقات سورية التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية :

اصبحت الولايات المتحدة الامريكية في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ضمن مجموعة الموردين الاساسيين لسورية بعــد أن سيطرت على التجارة العالميــة ، وانتزعت من فرنسا مكان الصدارة في العلاقات التجارية لهذا البلد . ووصــل وزن ما صدرته لسورية ولبنان في عام ١٩٤٧ على سبيل المثال ، ٦٦١.٠٤ أطنان ، بقيمــة تزيد على ٩٧ مليون ليرة سورية . بينما لم يتجاوز وزن ما صدر اليها من ســورية في هذا العام الـ ٩٤٧.٠ طنا ، بقيمة لا تزيد على ٦ ملايين ليرة سورية . فالميزان التجاري كان خاسرا معها في هذه الفترة بشكل كبير . وقد وصلت الخسارة الى هذا الشــكل الكبير بسبب سنوات الرفاه التي جاءت بعــد الحرمان الطويل أثناء الحرب العالميــة الثانية . ففتحت الابواب على مصراعيها أمام البضائع الامريكية ، وقسم كبير منهــا يدخل في باب الكماليات ، وارتفعت أرقام الواردات ارتفاعا هائلا من حيث الوزن ومن حيث القيمة ، حتى أصبحت نسبة الصادرات اليها لا تساوي الا ٥٪ فقــط . ولم يوقف هذا الاتجاه الخطير ، الا بعد أن حصل الانفصال عن لبنان بعد ١٩٥٠ . ومــن استعراض الواردات لهذه الفترة ،والتي تضم السيارات والزيوت المعدنية والكاوتشوك والافلام والالبسة المستعملة (البالة) والاقمشة والورق والخيوط والادوية والروائح وأدوات الزينة والجعة والمشروبات والسجاير ومصنوعات النايلون ، يتضح أن ٧٥٪ من هذه الواردات يستهلك دون أن يدر على البلاد أية فائدة . والباقي ونسبته ٢٥٪ فقط يستفاد منه في الصناعة والزراعة . وبالمقابل تضم قائمة ما تصدره سورية اليهــا التبغ والتنباك والصوف وزيت الزيتون وعرق السوس والجلود والامعاء . ومعظم هذه الصادرات مواد خام أولية يستفاد منها في الصناعة .

ومع اصرار سورية على الاستمرار في تطبيق سياســتها الاقتصادية الجديــدة الموجهة ، واتفاق ذلك مع عودة النشاط الى مناطق الانتاج والاسواق المختلفة في غرب أوربا وفي شرقها . ثم ظهور التكتلات الاقتصادية والسياسية الجديدة في العالم ، مثل السوق الاوربية المشتركة في غرب القارة الاوربية ، ومنظومة التعاون في شرقها ، وكتلة عدم الانحياز والعالم الثالث . أمام كل هذه الاوضاع ، أخذت العلاقات التجارية مــع الولايات المتحدة الامريكية تتقلص . لتتوسع وتتوثق بالمقابل علاقات جديدة ومفيدة وموزونة مع بلدان في أوربا الشرقية والغربية وفي آسيا ، علاقات موجهة ومدروسة ، وهي في الوقت نفســه حلقة من مخطط اقتصادي متكامل .

وهكذا أصبح حجم العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية يتحدد وبفعل عاملين أساسيين : الاول سياسة سورية الاقتصادية وما ترسمه لتنظيم علاقاتها التجارية الخارجية مع الكتل الاقتصادية والسياسية العالمية . والثاني المنافسة المتعاظمة من قبل الاطراف الاوربية الغربية والشرقية ومن قبل اليابان . بعد أن استطاعت هذه الاطراف ترميم ما دمرته الحرب ، واستعادة قوتها الاقتصادية ونشاطها التجاري . ولعل أرقام الجدول التالي رقم ٩ واللوحة رقم ٤ تعطي فكرة واضحة عن تطور حجم العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية عند عام ١٩٣٩ ونسبتها الى اجمالي قيمة الواردات والصادرات السورية .

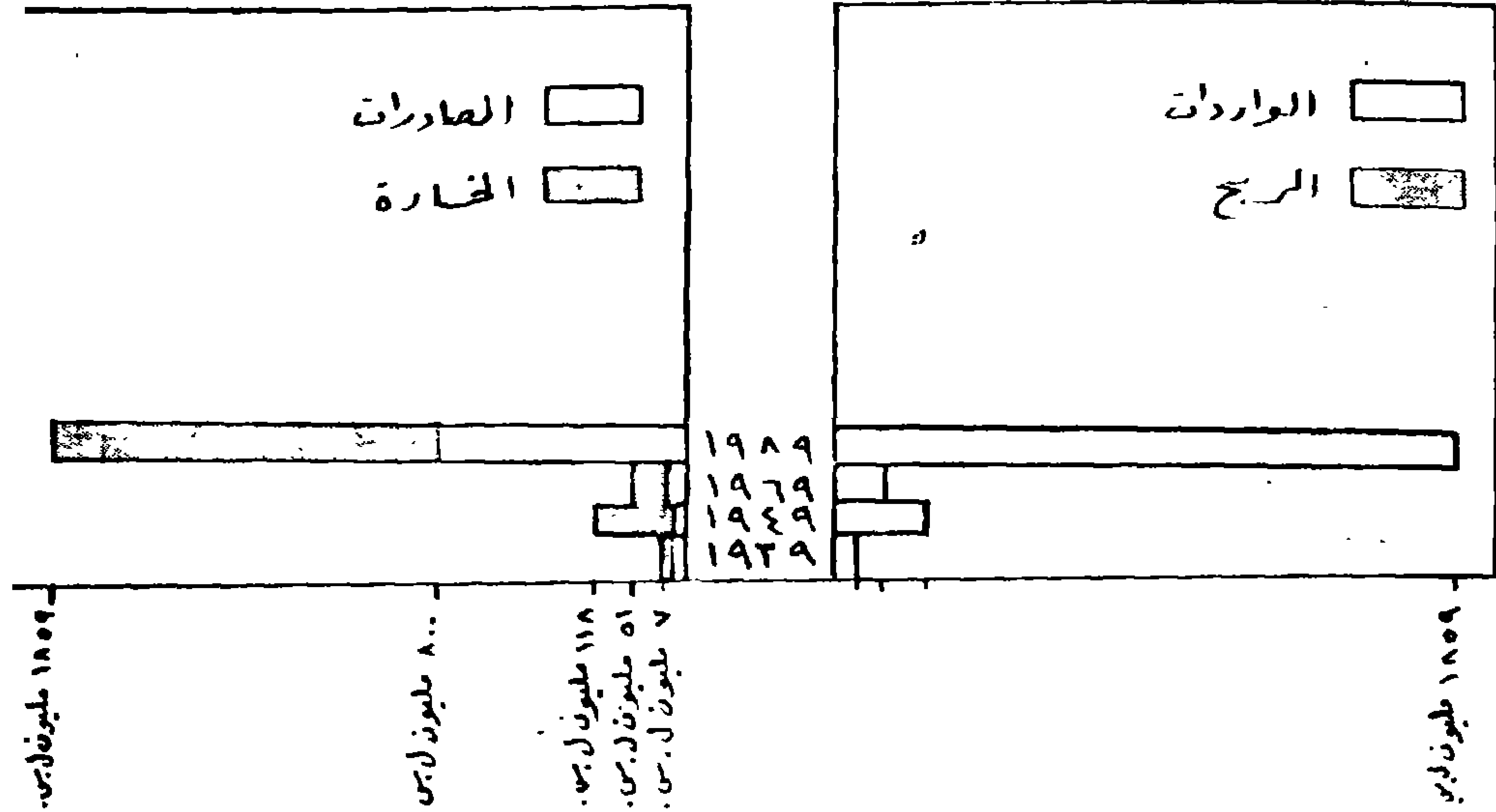
جدول رقم ٩

تطور علاقات سورية التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية

السنوات	قيمة الواردات من امريكا الف ل.س	قيمة اجمالي واردات سورية الف ل.س	قيمة الصادرات الى امريكا الف ل.س	قيمة اجمالي صادرات سورية الف ل.س	الربح أو الخسارة الف ل.س
١٩٣٩	٧٠٧٥	١١٣٢٥٣	٣٨٩٢	٣٦٥١٧	٣١٨٣ —
١٩٤٩	١١٨٩٦٩	٥١٦١٨٧	٣٧٥٩	١١١١٠٤	١١٥٢١٠ —
١٩٦٩	٥٠٩٤٤	١٤١١٣٢٤	٥٠٥٥	٧٨٩٩١٨	٤٥٨٨٩ —
١٩٨٩	١٨٥٩٠٢٢	٢٣٥٤٤٠٠٠	٨٠٠٦٢١	٣٣٧٤٠٠٠٠	١٠٥٨٤٠١ —

لوحة رقم ٤

تطور علاقات سورية التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية



الصورة الثانيــة

٢ ـ علاقات سورية التجارية مع الاتحاد السوفييتي :

برغم ان سورية نالت استقلالها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فأصبحت حرة في اتباع السياسة الاقتصادية التي تتمشى مع مصالحها ، فقد تأخر ولاسباب سياسية ، بدء العلاقات التجارية مع أطراف المنظومة الاشتراكية .

ولكن هذا الوضع لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما أقدمت سورية اولا ، ثم تبعتهما اقطار عربية أخرى ، ففتحت صفحة علاقاتها التجارية مع أطراف هذه المنظومة ، ومع الاتحاد السوفييتي بالذات . ولم يأت عام ١٩٦٣ الا وكانت حركة الصادرات

والواردات قد اخذت طريقها الى التوسع . ومنذ عام ١٩٦٤ بدات سوريـة باكورة علاقاتها التجارية مع الاتحاد السوفييتي باستيراد ما يقرب من ١١ الف طـن مـن قضبان السكة الحديدية وهي كافية لتمديد خط بطول ١١٠كم . وفي عام ١٩٦٥ تم استيراد كمية اخرى تكفي لتنفيذ ١٠٠ كم مع كل ما يلـزم من الات ومعدات اليـة للتنفيذ السريع . واستمرت هذه العلاقات تتطور بسرعة لتأخذ دورها الهام بينعلاقات سورية التجارية العالمية . انما بشكل جديد ومختلف عما كان يتم في السابق وفـق اتفاقيات تجارية طويلةالامد مدعومة باتفاقيات تعاون اقتصادي ابرمت مع أكثر من بلد من البلدان الاشتراكية . فمع الاتحاد السوفييتي(٢٥) ، تم في عام ١٩٦٩ ابرام اتفاق تعاون اقتصادي وتجاري من أجل توثيق العلاقات التجارية يقضي بأن يقـوم الاتحاد السوفييتي بتقديم قرض الى سورية بغية تنمية صناعة النفط وتوليد ونقل الطاقة الكهربائية وانشاء الخطوط الحديدية واقامة مصنع للمنتجات الحديدية واخر لاطارات السيارات وتسليم الات ومعدات البناء ومواد البناء للازمة لذلك . بالاضافة الى المعدات والالات الزراعية اللازمة لتهيئة أكثر من١٧ الف هكتار للاستثمار الزراعي في منطقة مشروع الفرات الكهرمائي . على أن يتم التسديد بمنتجات سوريـة معدة للتصدير من مواد خام ومواد مصنوعة او نصف مصنعة .

وقد كان من نتائج هذا التعاون الوثيق أن تصدر الاتحاد السوفياتي في عـام ١٩٦٩ المكان الاول بالنسبة لصادرات سورية ووارداتها حيثتجاوزتقيمة ماصدرته سورية الى الاتحاد السوفييتي في هذه السنة الـ ١٣٦ مليون ليرة سورية من ٧٩٠ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الصادرات السورية . أي ما يساوي ١٧٪ منها . كما بلغت قيمة واردات سورية من الاتحاد السوفييتي ١٢٦ مليون ليرة سورية من ١٤١١ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الواردات السورية . أي ما يساوي ٨ر٩٪ منها(٢٦).

وظل الاتحاد السوفياتي حتى السنوات الاخيرة من المرحلة الحالية من بين أوائل المتعاملين مع سورية . وقد تبعه في ذلك عدد من بلدان المنظومة الاشتراكية في شرق أوربا كرومانيا والمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا . ثم في شـرق اسـيا كالصـين .

وأرقام الجدولين التاليين رقم ١٠ ورقم ١١ اللذين يعودان لعامي ١٩٨١ و ١٩٨٩ يبينان بوضوح دور الاتحاذ السوفييتي ودور بعض الاطراف الاخـرى في المنظومـة الاشتراكية في علاقات سورية التجارية من حيث قيمة ما تستورده سورية من هـذه البلدان وما تصدره اليها ومقابلة ذلك مع قيمة اجمالي الصادرات والواردات السورية.

جدول رقم ١٠

واردات سورية وصادراتها في عام ١٩٨١
من والى بعض البلدان الاشتراكية

البلدان	قيمة الواردات ١٠٠٠ ل.س	قيمة الصادرات ١٠٠٠ ل.س	الربح او الخسارة ١٠٠٠ ل.س
الاتحاد السوفياتي	٢٨٣٨٩٧	٤٤٦٢٣٩	+ ١٦٢٣٤٢
رومانيا	٨٣٩٧٩٠	٨١٠٠٧١	– ٢٩٧١٩
المانيا الديموقراطية	٥١٤٢٩٥	١٥٣٩٧١	– ٣٦٠٣٢٤
تشيكوسلوفاكيا	٣١٦٧٩٤	٧٣٩٧٣	– ٢٤٢٨٢١
بلغاريا	٣٩٩٨٩٥	٣٧١٠٦	– ٣٦٢٧٥٣
الصين	٣١٨٨٩٤	٩٩٢٤١	– ٢١٩٦٥٣

قيمة اجمالي واردات سورية
١٩٧٨١٠٤٢ الف ل.س

قيمة اجمالي صادرات سورية
٨٢٥٣٧٣١ الف ل.س

جـدول رقم ١١

واردات سورية وصادراتها في عام ١٩٨٩ من والى بعض البلدان الاشتراكية

البلدان	قيمة الواردات ١٠٠٠ ل.س	قيمة الصادرات ١٠٠٠ ل.س	الربح او الخسارة ١٠٠٠ ل.س
الاتحاد السوفياتي	٣٠٣٨٩٢٧	١٢٠٥٢٧٩٧	+١١٠١٣٨٧٠
رومانيا	٤٤٥٥٩٦	١٥٦٣٥٩٣	+١١١٧٩٩٧
بلغاريا	٢٦٩٠٥١	٧٣٩٠٦	-١٩٥١٤٥
تشيكوسلوفاكيا	٢٠٣٠٥٤	١١١٥١٢	-٩١٥٤٢
هنغاريا	٣٠٠٧٩٧	٣٥٠٠١	-٢٦٥٧٩٦
الصين	٣٣٣٧٢٣	١٧٤٤٨	-٣١٦٢٧٥

قيمة اجمالي واردات سورية
٢٣٥٤٤١٢٢ الف ل.س

قيمة اجمالي صادرات سورية
٣٣٧٣٩٦٣٨ الف ل.س

الصـــورة الثالثـة

٣ ـ علاقات سورية التجارية مع بريطانيا (المملكة المتحدة) :

كانت بريطانيا قبل عام ١٩٣٩ تشغل المرتبة الثانية في التعامل مع سورية ولبنان. اما في عام ١٩٤٦ فقد تراجعت مرتبتها الى السابعة . ويعود السبب في ذلـك الـى اوضاع بريطانيا الخاصة بعد الحرب العالمية الثانيـة التي اضطرتها لاتبـاع نظـام اقتصادي شديد ، كل شيء فيه يخضع للتقنين . ولكن هذا الوضع لم يدم طويلا . اذ سرعان ما تخطته بتحسين شروط انتاجها الصناعي . وأخذت من جديد تغـرق اسواق سورية ولبنان بالمنتوجات الصناعية والمحـركات والالات ، لتقفـز بذلك الواردات منها قفزات كبيرة ، مع بقاء الصادرات اليها منخفضة .

الا أن العلاقات التجارية مع بريطانيا بقيت متخلفة عن العلاقات مـع اطـراف السوق الاوربية المشتركة طيلة وجودها خارج هذه السو ق من جهة . ولان بريطانيا كانت من جهة اخرى تحرص بالدرجة الاولى على توسيع علاقاتها مع مناطق مجموعة رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث). اضافة الى ان البضائع البريطانية ، رغم جودتها ، كانت تلقى بسبب ارتفاع اسعارها منافسة قوية من بضائع الدول الصناعية الاخرى . ولكن ذلك لم يمنع سورية ، التي اختطت لنفسها في المراحل الحالية توسيع علاقاتها التجارية مع كل بلدان العالم ، من أن تشجع بقاء أسواقها مفتوحـة لما هـو ضروري ومطلوب من المنتجات الصناعية البريطانيـة لسـد حاجة متطلبات البنـاء والتنمية ، اضافة لطبيعة السوق الواسعة التي تسيطر عليها بريطانيا اقتصاديا وهي سوق مجموعة الاسترليني التي يمكن ان يصرف فيها العديد من الصادرات السورية.

أما أهم الواردات من انكلترا فهي المنسوجات بأنواعها ، وخاصـة الاقمشـة الصوفية ، ثم الادوية والكاوتشوك وخيوط الغـزل على أنواعهـا والالات والمحركات والذهب والحديـد . والورق . أما الصادرات اليها فهي الحبـوب وزيت الزيتـون والمحفوظات والتنباك والجلود ثم العظام وقرون الحيوانات .

والجدول التالي رقم ١٢ يوضح سير علاقات سورية التجارية مع بريطانيـا منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٨٩ .

جدول رقم ١٢

علاقات سورية التجارية مع بريطانيا (٢٧)

السنوات	قيمة الواردات من انكلترا ألف ل.س	قيمة اجمالي واردات سورية ألف ل.س	قيمة الصادرات الى انكلترا الف ل.س	قيمة اجمالي صادرات سورية الف ل.س	الربح أو الخسارة ألف ل.س
١٩٣٩	٨٧٠٧	١١٢٢٥٣	٢٤٥٩	٣٦٥١٧	٦٢٤٨
١٩٤٩	١٠٨١١٧	٥١٦١٨٧	٩٦٩٤	١١١١٠٤	٩٨٩٢٣
١٩٦٩	٦٤٩٣٣	١٤١١٣٢٤	٨٠٣٦	٧٨٩٩١٨	٥٦٨٩٧
١٩٨٩	٦٨٦١٣٠	٢٣٥٤٤٠٠٠	٣١٠٣٨٧	٢٣٧٤٠٠٠٠	٣٧٥٧٤٣

* * *

الصورة الرابعة

علاقات سورية التجارية مع ايطاليا :

تتمتع ايطاليا بمركز تجاري مهم في حوض البحر المتوسط ، وتملك صناعة متنامية - يدعمها اسطول تجاري كبير ، وانخفاض في أسعار الكلفة . مما جعل البضائع التي تختص بانتاجها رائجة . لهذا تحتل مكانة مرموقة بين البلدان التي تتعامل معها سورية .

يضاف لما تقدم ان لهذه العلاقات التجارية بين سورية وايطاليا جذورا تاريخية تعود الى الروابط بين تجار البندقية والمدن الايطالية الاخرى . ومراكز التجارة السورية القديمة على الساحل وفي الداخل تشهد على ذلك . والخانات القديمة التي لا زالت موجودة في أسواق هذه المراكز تحمل اسمهم .

أهم ما يستورد من ايطاليا المنسوجات بأنواعها وخيوط الغزل والاجهزة الكهربائية والورق والسيارات والرز ، أما أهم ما يصدر اليها ففي المقدمة يأتي القطن والبترول، ثم الجلود والصوف والفوسفات وزيت الزيتون .

بدأت العلاقات التجارية الجديدة بين سورية ولبنان وايطاليا قبل الحرب العالمية الثانية ناشطة . وكانت الخسارة في البداية بسيطة لم تتجاوز عام١٩٣٩ الثلاثة ملايين ليرة سورية ونيف . الا أن هذه الخسارة ارتفعت بعد الحرب ، وقد توقفت أثناءها بسبب انقطاع السبل ، بحيث أصبحت في ١٩٤٩ بحدود ١٣٫٦ مليون ليرةسورية(٢٨). ثم تتابعت ارقام الاستيراد من ايطاليا بشكل قفزات واسعة فابتعدت بذلك قيمة هذه الواردات عن قيمة ما كانت تصدره سورية اليها .

ففي عام ١٩٦٩ وصلت قيمة ما صدرته ايطاليا الى سورية الى ١٢٣ مليون ليرة سورية . في حين كانت قيمة ما استوردته من سورية ٩٦٫٥ مليون فقط .

الا أن الوضع التجاري بين سورية وايطاليا تبدل في السنوات الاخيرة تبدلا كبيرا ولمصلحة سورية . ففي عام ١٩٨٩ فاقت قيمة الصادرات السورية الى ايطاليا قيمة ما استورد منها بمقدار كبير . فقد كانت قيمة الصادرات اكثر من ٥٢٣٦ مليون ليرة سورية . في حين لم تتجاوز قيمة الوارداتمنها الـ ١٦٥٩ مليون ليرة سورية . وتكون سورية قد حققت من هذه العلاقات ربحا يزيد على الـ ٣٥٧٦ مليون ليرة

سورية . أما في عام ١٩٩٢ فقد بلغت قيمة الصادرات اليها ١٢١٦٣ مليون ليرة سورية بينما لم تتجاوز قيمة الواردات منها الـ ٣٢.٨ ملايين ليرة سورية ، وبهـذا يكـون ربح سورية قد ارتفع الى ما يقرب من ٨٩٥٥ مليون ليرة سورية .

والملاحظ بصورة عامة ان صادرات سورية الى ايطاليا تزداد وتتناقص تبعـا للمواسم الزراعية في البلدين . فعندما تكون هذه المواسم رديئـة في ايطاليا وجيدة في سورية ، ترتفع نسبة واردات ايطاليا من سورية من المنتجات الزراعية الغذائية .

ثم يجب ان لا يغيب عن البال أن ايطاليا التي تفتقر الى النفط . قد وجدت في النفط السوري ما يناسبها من حيث القيمة ومن حيث التركيب الحاوي على الكبريت والذي يتطلب لمعالجته أنواعا خاصة من المصافي تنطبق مواصفاتها على المصافي الايطالية. والجدول التالي رقم ١٣ يبين تطور قيمة المبادلات التجارية بين سورية وايطاليا منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٩٢ .

جدول رقم ١٣

علاقات سورية التجارية مع ايطاليـا

السـنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩	٥٤٤٤	٢٢٦٤
١٩٤٩	٢٦٨٧٢	١٣٢١٩
١٩٦٩	١٢٣٠٧٨	٩٦٥٩٥
١٩٨١	١٩٨٦٦٨٨	٣٤٨١١٩٤
١٩٨٩	١٦٥٩٥٢٠	٥٢٣٦٣٤٧
١٩٩٢	٣٢٠٨٠٠٠	١٢١٦٣٠٠٠

الصورة الخامسة

علاقات سورية التجارية مع تركيا :

ان أهم البلدان المجاورة والتي لها علاقات تجارية مع سورية ، هي تركيا . وانه لما يثير العجب أن تكون العلاقات التجارية بين بلدين متجاورين ، تمتد الحدود بينهما على مئات الكيلومترات ، محدودة ، بحيث لم يتجاوز حجم التجارة بينهما عشرات الالوف من الليرات السورية فقط في بداية التعامل بعيد الحرب العالمية الاولى ، بعد تفكك الدولة العثمانية . واذا ما تذكر المرء حالة المبادلات قديما ، حينما كانت حلب مخزنا لجنوب الاناضول يوزع البضائع من أقمشة ومنتوجات محلية الى أورفا وعينتاب وديار بكر ومرعش فانه سيزداد عجبا .

ان أسباب ضعف العلاقات هذه كثيرة . منها سياسية ومنها اقتصادية . وسياسة تركيا الاقتصادية الصارمة في صيانة ثروتها الوطنية في الفترة الاولى لقيام الدولة التركية الجديدة . وتشابه المنتوجات وخاصة المنتوجات الزراعية في كل من البلدين . قد قلل من أهمية المبادلات . الا أن هذا لا يمنع القول بأنه من الممكن قيام حركة مبادلات لكثير من الاصناف . ففي وسع سورية أن تصدر الى تركيا مثلا منسوجات الحرير الاصطناعي والاسفلت والبترول وبعض المنتجات المعدنية والصناعية . وأن تستورد منها بالمقابل الاخشاب الجيدة والفحم الحجري والورق والاسماك والاغنام والانواع الجيدة من السجاير .

ثم هناك مسألة التهريب الواسعة على الحدود التي يزيد طولها على الـ ٥٥٠ كم، بين البلدين ، وهي لا تدخل في الحسابات والاحصاءات الرسمية .

ثم هناك تجارة العبور (الترانزيت) التي كانت ولا تزال تجري لحساب تركيا عبر الاراضي السورية . وتلعب دورا هاما بالنسبة لعلاقات تركيا التجارية مع اقطار الخليج العربي . ففي عام ١٩٤٧ وفي البداية كانت تركيا من بين البلدان الاوائل التي تصدر وتستورد عن طريق سورية ، حيث بلغت آنذاك قيمة ما صدرته عن طريق سورية نحو ١٧ مليون ليرة سورية ، فكانت رابع دولة بين ٢٥ دولة . كما بلغت قيمة ما استوردته سورية في السنة نفسها أكثر من ١٢ مليون ليرة سورية ، أي ثامن دولة بين ٢٥ دولة . وقد ارتفعت هذه الارقام في عام ١٩٨١ بشكل كبير لتصبح قيمة ما صدرته عن طريق سورية ١١٣٤ مليون ليرة سورية ، وقيمة ما استوردته ٣٨

مليون ليرة سورية . وبقيت الارقام مرتفعة بهذا الشكل حتى عام ١٩٨٩ ، على الرغم من أن تجارة الترانزيت قد تراجعت في سورية بشكل عام . فقيمة صادراتها عن طريق سورية لم تهبط عن مبلغ ١١٠٨ ملايين ليرة سورية. في حين ارتفعت قيمة ما استوردته عن طريق سورية الى ٥٨ مليون ليرة سورية .

هذا وانه لمن الطبيعي كنتيجة لسياسة التشدد التي تتبعهــا تركيا في معاملاتها التجارية مع سورية ومع غيرها من بلدان العالم ، أن تكون العلاقات معها خاسرة غالبا وان يميل الميزان التجاري لمصلحتها دوما .

والجدول التالي رقم ١٤ يبين ذلك بكل وضوح . كما يبين أيضا ارتفاعا ملموسا في قيمة المبادلات ، ولكن لمصلحة تركيا أيضا .

جــدول رقــم ١٤
علاقات ســورية التجارية مــع تركيــا

السنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)	الربح أو الخسارة (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩*	٢٢٥٣	١٢٧	٢١٢٦ (—)
١٩٤٩*	١٢٢٩٨	٥٥٦	١١٧٤٢ (—)
١٩٨١	٣٧٩٧٧٥	١٢٢٧١	٣٦٧٥٠٤ (—)
١٩٨٩	١٨٥٤٤٢٧	٢٩١٧٤٧	١٥٦٢٦٨٠ (—)

* أرقام عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٩ هي لسورية ولبنان معا بسبب الوحدة الاقتصادية التي كانت قائمة بينهما .

الحواشـــي :

(١) جاء في تقرير لجنة (كنغ ـ كرين) الــذي صدر في صيف عام ١٩١٩ ما يلي : « لما كانت سوريــة جزءا من رأس الجسر الذي يربط بين اسيا واوربا وافريقيا ، حيث يلتقي الشرق والغرب بصورة فريدة ، فـان موقعها ذو أهمية استراتيجية وسياســية وتجارية » .

(٢) كتاب الوطن العربي ـ الجزء الاول (سورية ولبنان) لعبد العزيز عثمان ، نشر مكتبــة ربيع بحلب عام ١٩٥٧ ـ ص : ٢٣٣ .

(٣) تجارة سورية ولبنان الخارجية بين ١٩٣٩و ١٩٥٠ محمود خليل اغا . جامعة دمشــق ١٩٥٢ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) أول شحنة صدرت مـن البترول السوري كانت في عام ١٩٥٨ من ميناء طرطوس .

(٦) استوردت سورية في هـذا العام ، ومـن مختلف أسواق العالم ، ما قيمته ٣٠٧ملايين ليرة سورية . وصدرت مقابل ذلك ماقيمته ٣٦٩ مليون ليرة سورية . فتكون قد حققت بذلك ربحا مقداره ٦٢ مليون ليرة سورية ـ المجموعة الاحصائية السنوية لوزارة الاقتصاد الوطني .

(٧) عقد في هذه الفترة عـــدد مـن الاتفاقيات التجارية واتفاقيات التعاون الاقتصادي مـع أكثر الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي . كذلك مع عدد من بلدان العالم النامي . وسنرد استعراض مفصـل لبعض هذه الاتفاقيات الهامة في سياق الكلام عن العلاقات التجارية مع أهم بلدان العالم .

(٨) النشرات الصادرة عن وزارة التخطيط وعن وزارة الاقتصاد الوطنــي والتي تتضمـن التفاصيـل الكاملة عن تطبيقـــات الخطط الخمسية للتنمية الاقتصادية ونتائجها .

(٩) تجارة سورية ولبنان الخارجية بين (١٩٣٩و ١٩٥٠) مصدر سبق ذكره .

(١٠) وصلت الرسوم التي كانت تستوفي عن مرور البترول العراقي قبل توقفه الى ما لا يقل عن ٩٠٠ مليون ليرة سورية .

(١١) المقاطعة الاقتصادية للصهيونية واسرائيـل (١٩٩٣) الدكتورة خيرية قاسمية .

(١٢) المصدر الســابق .

(١٣) الارقام التي وردت في الشـــرح مصدرهـا النشرات الصادرة عن وزارة الاقتصاد الوطني وعن غرفتي تجارة دمشق وحلب اضافة الى المجموعات الاحصائية الصادرة عن المكتـب المركزي للاحصاء بدمشق .

(١٤) المقاطعة الاقتصادية للصهيونية ولاسرائيل . الدكتورة خيرية قاسمية ١٩٩٣ .

(١٥) كانت مصفاة حمص ، قبل ان تتحول الـى التزود بالبترول السوري ، تعتمد علـى البترول العراقي المار عبر الاراضي السورية بواسطة خط انابيـــب شركة البتـرول العراقية . كجزء من رسوم المرور . ثـم اصبحت الرسوم كلها نقدية .

(١٦) المجموعة الاحصائية السنوية الصادرة عن مكتب الاحصاء المركزي بدمشق .

(١٧) حققت أرقام الجدول بالاعتماد على النشرات الرسمية لوزارة الاقتصاد الوطني ، ولغرفتي تجارة دمشق وحلب . وعلى تجارة سورية ولبنان الخارجية بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٥٠ للاستاذ محمود خليل اغا .

(١٨) اضافة لكل ذلك ، كانت المملكة العربية السعودية على الدوام في مقدمة البلدان التي تستورد جزءا كبيرا من وارداتها عن طريق سورية . ففي عام ١٩٨١ كانت ثاني عميل ترانزيت لسورية بعد العراق حيث بلغت قيمة ما استوردته عن طريق سورية أكثر من ٢ر٩ مليار ليرة سورية .

(١٩) استخلصت الارقام من جداول المجموعة الاحصائية السنوية الصادرة عن مكتب الاحصاء المركزي بدمشق .

(٢٠) يرد القطن هنا بين واردات سورية من مصر بالنسبة للفترة التي سبقت بدء زراعة القطن في سورية .

(٢١) كانت المفوضية العليا الفرنسية ببيروت تتصرف باقتصاد سورية ولبنان حسب مشيئتها ، ولصالح فرنسا غالبا . وعندما انتقلت بعض الصلاحيات في عام ١٩٤٣ الى الحكومتين الوطنيتين في البلدين . لجأت السلطات الاستعمارية الى اتباع سياسة الدس بين البلدين مصورة لكل منهما انه المغبون في حقه من دخل المصالح المشتركة .

(٢٢) بلغت قيمة الصادرات لهذه السنة ٣٦٩ مليون ليرة سورية ، بينما كانت قيمة الواردات ٣٠٧ ملايين ليرة سورية فقط . تجارة سورية ولبنان ، محمود خليل اغا .

(٢٣) بلغت قيمة الصادرات لهذا العام ٣٣٧٤٠ مليون ليرة سورية.بينما كانت قيمة الوردات ٢٣٥٤٤ مليون ليرة سورية فقط .

(٢٤) عدا عن اتفاقية التعاون مع الاتحاد السوفييتي التي سيرد تفصيلها مع صورة العلاقات مع هذا البلد . فقد تم عقد اتفاق تعاون مع كل من الصين لانشاء معمل الغزل الرفيع في حماه ، ثم مع بولندا لانشاء معمل القضبان الحديدية في حماه ايضا ، ومصنع الفوسفات ، ومصنع الزجاج واللمبات الكهربائية ، ومصنع غسل الصوف ، ثم مع المانيا الديمقراطية لبناء مصانع اسمنت ، ومعمل الجرارات في حلب ، ومعمل الكابلات في حماه ، وعدد من المطاحن . على أن يتم تسديد ثمن ماستقدمه هذه البلدان من الات وتجهيزات بمنتجات سورية خام أو مصنعة أو نصف مصنعة من قطن وأسمدة وبترول مع مشتقاته وجلود وتبغ وخيوط ومنسوجات وغيرها من المصنوعات السورية. المصدر . الكتاب السنوي (سورية في ارقام وصور) الصادر عن وزارة الاعلام .

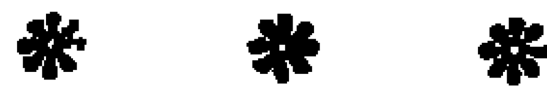
(٢٥) كذلك عقدت اتفاقيات تعاون اقتصادي وتجاري مثيلة لما عقد مع الاتحاد السوفييتي. وذلك مع كل من بولندا والمانيا الديمقراطية ورومانيا والصين . حيث تقوم هذه البلدان

بتقديم قروض طويلة الامد لسورية لتستورد الات ومعدات بناء معامل أو استثمار معدني أو كهربائي او زراعي . على ان يتم تسديد هذه القروض بمنتجات سورية معدة للتصدير.

كتاب الثورة ـ عامها التاسع . اصدار وزارة التخطيط بدمشق .

(٢٧) حققت ارقام الجدول بالاعتماد على النشرات الرسمية لوزارة الاقتصاد الوطني وعلى المجموعة الاحصائية السنوية للمكتب المركزي للاحصاء بدمشق .

(٢٨) محمود خليل اغا ، تجارة سورية ولبنان الخارجية بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٥٠ جامعة دمشق ١٩٥٢ . مصدر سبق ذكره .





دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكّمة

« تعنى بتاريخ العرب »

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب ـ جامعة دمشق

السنة السادسة عشرة ، العددان ٥١ و ٥٢ كانون الثاني ـ نيسان ١٩٩٥

الاشتراكات	للأفراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر العربي السوري	(٢٠٠) ل.س .	(٤٠٠) ل.س	(١٠٠) ل.س
في الاقطار العربية	(٢٠) دولار أمريكي	(٤٠) دولار امريكي	
في البلاد الاجنبية	(٣٠) دولار أمريكي	(٦٠) دولار امريكي	

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام ، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب ، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣ .

المراسلات : لجنة كتابة تاريخ العرب ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق

المكاتب : جامعة دمشق ، هاتف / ٢٢٢٢٤٦١ /

تصــدرها وتشـرف عـلى تحريرهـا

لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المديــر المسؤول	**أ. د. عبد الغني ماء البارد** رئيس جامعة دمشق
رئيس التحريــر	**أ. محمــد محفــل**
مدير التحريــر	**أ. عبد الكريم علي**

هيئة التحرير والاشراف :

د. عبد الغني ماء البارد
د. عادل العــوا
د. نور الدين حاطوم
د. شـاكر الفحام
د. محمد خير فارس
د. حامد خليــل
د. خيرية قاســمية
د. طيب تيزيني
د. سلطان محيسن
أ. محمد محفل
د. سـهيل زكــار
د. مفيد العابــد
د. فيصل عبد الله
د. علي أحمد
أ. عبد الكريم علي

شـروط النشـر في المجلـة

ان مجلـة دراسـات تاريخيـة هي جـزء مـن **مشروع كتابـة تاريخ العـرب** ، وخطوة مـن خطوات تخـدم كلها وبمجموعها الفرض الاساسـي ، وهو كتابـة تاريخ العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي ، وتسـليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريـخ الامة العربية واعطتـه خط مساره الخاص ، وايضاح ما لفه الغموض ، وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع ، وكل ما يمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترح وراي يسـاعد في مسيرتها ، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به ، على ان يراعى فيها ما يلي :

آ ـ ان تتوافـر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب ـ ان لا يكون البحث منشورا من قبل .

جـ ـ أن يكون مطبوعا على الآلة الكاتبة ، خاليا من الاخطاء الطباعية .

د ـ تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مـدى صلاحيتها للنشر ، وفـق المعايير المذكـورة اعلاه ، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف او الاختزال ، بما يتوافق مع اغراض الصياغة.

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع ، ولذلك يحسـن أن يتقيـد السـادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها ، على النحو التالي :

أ ـ في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى) :

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين ( ) ان كان متوفى ، اسم المصدر او المرجع وتحته خط ، عدد المجلدات أو الاجزاء ، اسم المحقق ان وجد ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

ب ـ في محاضر المؤتمرات :

ذكر اسم الباحث كاملا ، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين « » ، عنوان الكتاب كاملا ، اسم المحرر أو المحررين ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

ج ـ في المجلات :

اسم الباحث كاملا ، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « » اسم المجلة كاملا وتحته خط ، رقم المجلد او السنة ، رقم العدد وتاريخه ، الصفحة .

ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية :

د ـ في المخطوطات (للمرة الاولى) :

اسم المؤلف كاملا ، عنوان المخطوط كاملا ، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد اوراقها ، رقم الورقة من الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب) . ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية .

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين ( ) ، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة * . **وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من اول البحث الى آخره ، دون التوقف عند نهاية الصفحات .**

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والاعداد الصادرة خلال ذلك العام ، مع عشرين (مستلة) من البحث .

رحيـــل زميـــل عزيـــز

بمناســـبة صدور العـــدد الجديد لمجلتنـــا « دراســـات تاريخيـــة » ، تعتذر الادارة الجديدة من القراء الكرام لانقطاع المجلة عن الصدور ، بعض الوقت ، ولأســـباب قاهرة ، ألا وهـــي غيـــاب زميلنـــا رئيس التحريـــر السابق ، الأســـتاذ ناظـــم كلاســـ ، الذي انتقـــل الى رحمتـــه تعـــالى ، في أوائل تشـــرين الاول ١٩٩٤ .

إننـــا إذ ننعيـــه لزملائنـــا وقرائنـــا الكـــرام ، في ســـورية ومختلف أصـــقاع الوطـــن العربي ، نســـأل المولى « عز وجل » أن يتغمده برحمته الواســـعة .

إن إدارتنـــا الجديدة لا تنسى فضل زميلنـــا الراحل ، على نشـــوء وتطور فازدهار مجلتنـــا . وكل من عرفه وشـــاركه العمل يدرك مغـــزى كلامنا . لقـــد عمل طوال حياته بدأب وصمت وتواضع ، ولم يســـع قط الى الظهور في المقام الأول . لقـــد أدى واجبه بكل أمانة ... لقـــد كـــان معلماً في كـــل ذلك ، ولـــن نتردد في القول بأننـــا قد أثقلنـــاه أحيانا بعبء العمل ، فلم يتذمر ، وإن فعل فبنكتته المعهودة رحمه الله .

أصبحت مجلتنا ذات اعتبـــار ونالت الاعتراف كمجلة علمية محكمة ، إن كان في قطرنا أو في وطننا العربي ، وكذلك لـــدى المراكز والمؤسسات العالميـــة التي تهتم بقضـــايا تاريخنـــا . وكان لفقيدنـــا الراحـــل دور في هـــذا كلـــه .

لقـــد رعى زميلنـــا الراحل مجلتنـــا ، فشبت بعنايته وعظم شـــأنها وارتفـــع اسمها .. ونحن لا ننكـــر فضلـــه ، وعسى أن نقوم بمهمتنا على الوجـــه الأكمـــل .

في رحـــاب اللـــه أيهـــا الزميل ، وأحرّ التعازي لعائلتـــه وعشيرته ، ولجميع أصدقائه وزملائـــه .

هيئـــة التحريـــر

محتويات العــدد

تنويه :

- **الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها**
- **ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية**

الفصــل الثــاني
العربيــة وظهـور الاســلام

د. مسـعود بوبـو

أولا : الكتابة والتدوين :

يمثل ظهور الاسلام انعطافا تاريخيا كبيرا في حياة العرب والبشريـة ، وانتقالا حضاريا واجتماعيا له اثار خالدة في التاريخ تتجلى في نهجه الاصيل الرامي الى تنظيم حياة الانسان وتحقيق الامن والمساواة والعدل في المجتمع البشري ، ومؤالفة القلوب حول عقيدة التوحيد التي ترسم للحياة منهجا جديدا مغايرا لما عرفه العرب من قبل ، منهجاً يحتاج الى لغة جديدة تستوعب هذا الدين السماوي ، وتعبر عن قيمه وتصوغ فكره ، وتفي بحاجات تعالبمه وتشريعاته .. فكيف طور الاسلام هذه اللغة وارتقى بها منذ بزوغ فجره : في الكتابة والتدوين وتصنيف الكتب واشـاعة المكتبـات ، وفي المصطلحوالتعريب والترجمة ؟ وكيف أفاد من غناها وقدراتها في الاشتقاق والتوليـد والمجاز والوضع والنقل والارتجال والابداع .. وما الى ذلك مـن مظاهـر الثروة اللفظية والتنمية اللغوية .. ثم وظفها لصالح العقيدة والفكر والعلوم النقلية والعقلية؟.

لكي نتبع هذه الخطوط العريضة بالتدريج ، قد يكون مـن الموافق والمنطقي أن نبـدأ بالكتابة والتدوين .

ومن المعروف ان الكتابة ــ بمعنى اثبات اللغة برموز من الحروف يتفق عليها ــ كانت ظاهرة معروفة في تاريخ اللغة العربية قبل الاسلام ، واستمرارها يعدان امتدادا متناميا في هذا السبيل ، على نحو يصعب معه الفصل بين صورة هذه العملية في العصر الجاهلي ، وصورتها في الاسلام ، على غرار تقسيم عصور الادب مثلا . ولذا سنحاول ان نقف على نشأة الكتابة ملتمسين الادلة على وجودها في جانبين أساسيين هما :

آ ــ النقوش المتأخرة التي عثر عليها في مناطق بلاد الشام ، كما في أم الجمال ،

* نشـرت الحلقة الاولى من هـذه الدراسات في العدد ٣٤/٣٣ (١٩٨٩) ، والثانيـة في العدد ٣٨/٣٧ (١٩٩٠) ، والثالثة في العدد ٤٨/٤٧ (١٩٩٣) ، والرابعة في العددين ٥٠/٤٩ (١٩٩٤) .

وخربة زبد ، وحران ، والنمارة . . وما ذكر عن نقوش كنائس الحيرة وبِيَعِها . تلك التي كانت معروفة في عهد المناذرة وفيها أخبار العرب وأنسابهم(١) ، وما يشبه ذلك مما ذكر سابقا .

ب ـ الاخبار الكثيرة التي تناقلتها كتب اللغة والتاريخ عن معرفة العرب بالكتابة منذ العصر الجاهلي ، ولا سيما في حواضرهم آنذاك ، كمكة والمدينة ، وفي الشمال الشرقي والغربي من جزيرتهم ، وفي جنوبها باليمن .

أما النقوش فقد أثبتت الابحاث المبنية عليها والمستخلصة منها أن الكتابة عند العرب قد عرفت ومورست في شمال الجزيرة العربية متطورة من الخط النبطي ، وذلك منذ بداية القرن الرابع الميلادي . وبلغت درجة مقبولة من الكمال والوضوح في القرن السادس للميلاد كما ترجح المصادر الكثيرة المعنية بهذا الموضوع .

وأما فيما يتعلق بالاخبار المتواترة فيمكن القول ان كثرتها تجمع على فكرة معرفة العرب الكتابة منذ الجاهلية . من ذلك ما ذكر عن صحيفة المتلمس من عمرو بن هند ، ملك الحيرة ، الى أمير البحرين ، أو عامله هناك(٢) ، وربط مقتل طرفة بن العبد (ابن أخت المتلمس) بتلك الصحيفة التي حمل كل منهما ما يمكن أن يسمى نسخة أو صورة عنها ، في خبر معروف تتناقله كتب التراث وما ذكر عن معرفة أكثم بن صيفي ـ حكيم قبيلة تميم في الجاهلية ـ بفن الكتابة . وما ذكر من أن لقيط بن يعمر الإيادي كان كاتبا في ديوان كسرى ، يكتب بالعربية والفارسية ، وأرسل الى قومه يحذرهم من كسرى فقال :

هذا كتابي إليكم والنذير لكم	لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا(٣)

وقال لهم أيضا :

سلام في الصحيفة من لقيط	الى من بالجزيرة من إياد
فان الليث كسرى قد أتاكم	فلا يشغلكم سوق النقاد(٣)

وذكر أن النابغة الذبياني كتب قصائد اعتذار بعث بها الى الملك النعمان بن المنذر ، وانه كان في الجاهلية معلمون يكتبون ، مثل عمرو بن زرارة ، وغيلان بن سلمة بن معتب الذي جاء بعده في الطائف يوسف بن الحكم الثقفي . ومن ذلك ما ذكر عن معرفة بعض الشعراء الجاهليين بهذا الفن ، كالمرقش الاكبر ، وسلامة بن جندل ، وعدي بن

زيد العبادي(٤) .. فضلا عن كتابة العهود والمواثيق والاحلاف وكتب الخلع والرقيق والديون وتخليد ذكر وفاة أو انتصار .

ولعل مما يعزز صدق هذه الاخبار ويرجح صحتها ما ورد ذكره من الفاظ تتصل بالكتابة وأدواتها في أشعار الشعراء الجاهليين ، كقول الحارث بن حلزة :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء

حذر الجور والتعدي وهل ينقص ما في المهارق الاهواء (٤)

قال ذلك لما اختلف بنو بكر وبنو تغلب ، ثم اصطلحا عند عمرو بن هند وكتبوا بينهم عهدا . والمهارق (في البيت) : جمع « مهرق » وهو نسيج حريري كان يصقل ثم يستخدم في الكتابة ، والكلمة بالفارسية « من ترد » أي الصقل ، ومنها جاء تعبير « مهره بتوقيعه » . ولعل مما يؤكد فارسية الكلمة قول ابن حلزة نفسه :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس (٥)؟

وفي هذا اشارة صريحة الى أن العرب عرفوا « المهارق » من الفرس في وقت مبكر ، كما عرفوا أدوات الكتابة « القرطاس » ، ويبدو أنهم أخذوه عن الروم (٦) ، فقد نسبه طرفة بن العبد في شعره الى بلاد الشام حينما قال يصف ناقته :

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر كسبت اليماني قده لم يجرد(٧)

والقرطاس : الصحيفة يكتب فيها ، والسبت : الجلد المدبوغ المعالج بالقرظ لاستخدامه في الكتابة (٨) ، والاحتذاء . والظاهر أن أهل اليمن كانوا مهرة في اعداد الأدم ، حاذقين في صناعة أدوات الكتابة الاخرى كالعسيب الذي ذكر في شعر امرىء القيس ، في قوله :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان(٩)

والعسيب : جريدة النخل المستقيمة يكشط خوصها بحيث تصبح صالحة للكتابة ، وقوله : كخط زبور : اي كخط الكتاب المزبور ، ومن ذلك اخذ معنى القلم عندهم حين سموه المزبر (بالزاي وبالذال) ، وكذا زبور داود عليه السلام ، أي صحفه . وعليه قول عمرو بن أحمر :

أم لا تزال ترجي عيشة أنفاً لم ترج قبل ولم تكتب بها زبر(١٠)

وعرف هذا أيضا في شعر أبي ذؤيب الهذلي حيث قال :

عرفت الديار كرقم الدوا ة يزبرها الكاتب الحميري(١١)

أي يكتبها ، والرقم هنا : الكتابة ، ومنه « المرقم » أي القلم .

وقال امرؤ القيس وذكر الزبور أيضا :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسمٍ عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان(١٢)

وتجدر الاشارة هنا الى أنه ذكر المصاحف ، أي الكتب المجموعة في صحف . وذلك مما يتصل بالكتابة ويدلل عليها .

وممن ذكروا الزبر والقلم من شعراء الجاهلية لبيد بن ربيعة العامري ، قال :

درس المنا بمتالعٍ فأبان وتقادمت بالحبس فالسوبان
فنعاف صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد يمان
متعود فطن يعيد بكفه قلماً على عسب ذبلن وبان (١٣)

والمنا هنا : المنازل ، حذف منها مقطعا صوتيا (زل) ، ويسمى هذا الاختصار أو القطع : « القطعة » كما مر في اللهجات قبلا . والحبس والسوبان ونعاف صارة والقنان : أماكن .

والزبر عنده : الكتب أو الصحف .

وقال لبيد أيضا :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبُر تجد متونها أقلامها(١٤)

أي كأن الاقلام الشبيهة بالسيول تجدد وجه الارض .. ويروى : تخد ، من الاخدود ، وهو الشق الطويل في الارض .

وقال المرار بن منقذ من ذلك :

وترى منها رسوماً قد عفت مثل خط اللام في وحي الزبر(١٥)

والمقصود بالوحي هنا : نقش الكتاب ، والزبر : جمع زبور . ولا معدى هنا عن الوقوف عند كلمة « الزبر » وقفة قصيرة ، ولا سيما عند ذكر زبور داود ، ومصاحف الرهبان ، لنذكر بأن العرب اخذوا الكتابة او الخط — على ما يرى بعض المؤرخين — عن « النصارى واليهود ، لانهم كانوا أصحاب كتب ، ولم يكن للعرب كتاب ..»، وعليه قول أبي حية النميري :

كما خُطَّ الكتاب بكف يوماً — يهودي يقارب أو يزيل(١٦)

ونقرن هذا القول مع قول الشماخ بن ضرار :

أتعرف رسماً دارساً قد تغيرا — بذروة أقوى بعد ليلى وأقفرا
كما اختط عبرانية بيمينه — بتيماء حبر ثم عرض أسطرا(١٧)

واذا لم يكن للعرب كتاب — كما قيد البطليوسي — فانهم كانوا يعرفونه ، أو كان تسمية مألوفة عندهم ، والا لما ذكر في اشعارهم كما في قول بشر بن أبي خازم :

وجدنا في كتاب بني تميم — أحق الخيل بالركض المعار(١٨)

ويروى : قرأنا ، في مكان « وجدنا » ، والمعار : السمين أو المسمن .

وقد يكون الكتاب في تصورهم بمعنى الكتابة ، أو الكلام المكتوب ، كما في قول حاتم الطائي :

أتعرف أطلالاً ونؤياً مهدما — كخطك في رق كتاباً منمنماً(١٩)

ويقوي هذا التصور وصفهم لآثار الديار والمنازل الخاويات تتعاورها الرياح راسمة عليها خطوطاً وتشكيلات على نحو ما تخلفه الكتابة المتأنية المتقنة ، من شواهد ذلك قول مالك بن جعفر بن كلاب :

فان لها منازل خاويات — على نملى وقفت بها الركابا
من الأجزاع أسفل من نميل — كما رجعت بالقلم الكتابا
كتاب محبر هاج بصير — ينمقه وحاذر أن يعابا(٢٠)

والترجيع هنا : التأني في الكتابة كفعل الواشمة أو المخضبة . والمحبر : المكتوب كتابة حسنة، من التحبير الذي يعني التزيين ، لا من الحبر ،كما قد يتبادر الى الذهن. والهاجي : مفصل حروف الهجاء ، والهجاء هنا : تقطيع اللفظ بحروفه . وينمقه :

يحسنه أيضا في الكتابة ، والظاهر أن الفعل « ينمقه » مشتق من لفظة فارسية الاصل هي « نامة » أي الكتاب .

ومن ألفاظ الكتابة أو أدواتها التي تتردد في أشعار الجاهليين : المجلة ، والصحيفة ، والقلم ، فقد ذكر المجلة الشاعر النابغة الذبياني في قوله :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم به يرجون خير العواقب(٢١)

والمجلة : صحيفة كانوا يكتبون بها الحكمة . وذكرت الصحيفة مقرونة باسم الشاعر المتلمس الضبعي ، كما ذكرها ثعلبة بن عمرو السعدي في قوله :

لمن دمن كأنهن صحائف قفار خلا منها الكثيب فواحف
أكب عليها كاتب بدواته يقيم يديه تارة ويخالف (٢٢)

أي يسوي سطوره مرة ويخالف أخرى ، بجيء بها على غير استواء . وأراد بالصحائف هنا ما فيها من النقش والكتابة ، وجاء في بعض الكتب والمعاجم أن الصحيفة : الكتاب . .

وممن ذكروا « القلم » الشاعر لبيد في بيته السابق : « وجلا السيول . . البيت » . والمرقش الأكبر في قوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم (٢٣)

وامية بن أبي الصلت في قوله :

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والقط والقلم(٢٤)

والقلم عند المحدثين معرب عن اليونانية ، عن لفظ Kalamous ، ويسمى بالعربية اليراع ، والاسمر(٢٥) .

ونضيف الى هذه الالفاظ والمسميات ما جاء من الفاظ تتصل بعملية الكتابة ، أو بفن الخط ، كقولهم : الكتاب المنمنم ، أو المرقش (كما في بيت المرقش الاكبر أعلاه) وكقول طرفة بن العبد :

أشجاك الربع أم قدمه أم رماد دارس حممه
كسطور الرق رقشه بالضحى مرقش يشمه (٢٦)

والرق : الجلد الرقيق المستخدم في الكتابة . ويتمه : ينقشه ويزينه كالوشم في المعصم أو ينقطه . والمرقش من الرقش ، أي الاستعانة بالتزويق والزخرفة للتحسين في الخط وتقويمه ، أو للتسطير في الصحف . ومنه : ترقشت المرأة إذا تزينت .

وجمع الأخنس شهاب ـ الى جانب الترقيش ـ ثلاثة ألفاظ تتصل بفن الكتابة حين قال :

لابنة حطان بن عوف منازل كما رقش العنوان في الرق كاتب(٢٧)

فذكر الرق ، والكاتب والعنوان . والرق مما سلفت الاشارة اليه في بيت طرفة بن العبد : « كسطور الرق رقته . . البيت » .

وفي اختصار وإجمال يمكن القول ان الترقيش ، والتنميق(٢٨) والتزيين والتحبير والتقطيع . . والزخرفة ـ فيما بعد ـ مظاهر تطور ومحاولات اتقان واجادة لفن الكتابة . .

والذي يعنينا هنا أن هذه المظاهر والمسميات لا بد أن تنهض أدلة كافية على معرفة العرب بالكتابة ، لأنها لم تأت من فراغ ، ولم تبد غريبة أو هجينة في العربية ، مع ما انطوت عليه من الفاظ دخلية من لغات مجاورة ، كالقرطاس والمهارق والقلم والتنميق . . أما الورق ، والصحيفة ، والمرقم ، والزبور ، والمجلة ، والسطر ، والكتاب ، والهجاء ، والوحي ، والخط ، والرق ، والقط ، والعسيب والدواة(٢٩) . . فالفاظ عربية أصيلة . وكان معظمها أدوات بدائية ومحلية للكتابة ، أضافوا اليها عند الحاجة الأدم (الجلود المدبوغة) والصفاح (٣٠) ، وعظام الاكتاف ، واللخاف(٣١) ، والاقتاب(٣٢) ، والاضلاع ، والخزف ، والقماش . . وأمثال ذلك من الادوات التي ظلوا يستخدمونها حتى القرن الاول الهجري . وفي هذا الصدد يقول الدكتور ناصر الدين الأسد :

« كان العرب . . يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذي عرفه بعد ذلك المسلمون ، وقد أصبحت معرفة الجاهلية بالكتابة معرفة قديمة امراً يقيناً يقرره البحث العلمي القائم على الدليل المادي المحسوس ، وكل حديث غير هذا لا يستند إلا الى الحدس والافتراض »(٣٣) .

تلك هي المرحلة الاولى من الكتابة والتقييد .

ـ **اما التدوين** فيعد استمرارا للكتابة وتنمية وتطويرا لها ، وبداية أو منطلقا لتسجيل نتاج العقل والوجدان .

ويرجع الفضل في التدوين الى الحافز الديني الذي كان مَعْقِد نشاط علماء الاسلام وواحدا من أعمالهم الجليلة لتثبيت لغة العقيدة ودراستها ، وتسجيل حقائق التاريخ وتأصيلها بنياناً أساسياً لنهضة لغوية واسعة لم يكن من معدى عنها ، ولا سبيل الى بناء الحضارة الاسلامية الفكرية بغيرها .

والحقائق والأدلة المتصلة بالكتابة والتدوين في التراث والعصر الاسلاميين كثيرة وموثقة باسنادها الى كتاب الله العزيز ، أرفع المصادر واعلاها حجة ومنزلة ، القرآن الكريم نزل منجّماً ، ودُوّن في البداية مفرقاً ، بأيدي كتاب الوحي ، وفي طليعتهم : زيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وطلحة بن الزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وحذيفة بن اليمان ، وعثمان بن عفان ، وأبي بن كعب ، ومعاوية بن أبي سفيان ..

وعلى أيدي نفرٍ من هؤلاء وغيرهم تمت عملية تدوين القرآن كاملة ، وهي أضخم عملية تدوين وأدقها في الصدر الاول للاسلام . والى جانب هذا يذكر أنه عند مجيء الاسلام كان في مكة سبعة عشر كاتبا ، وفي المدينة أحد عشر كاتباً ، وأنه لما حصر القرشيون المشركون محمدا رسول الله وآله في شِعب أبي طالب ، بعد اسلام عمر بقليل كتبوا بينهم صحيفة وعلقوها في الكعبة ، وتقضي بمقاطعة بني هاشم .. ويذكر عن صحيفة سويد بن الصامت التي كان يحملها وفيها حكمة لقمان ، والتي يقال انه ذهب بها الى الرسول صلى الله عليه وسلم فقرأها عليه فقال له الرسول : « ان هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل منه : قرآن أنزله الله تعالى علي ، هو نور وهدى »(٢٤) .. ويذكر بعدُ عسكر معاوية بن أبي سفيان رفعوا في وقعة « صفين » من المصاحف ما يقرب من خمس مئة كما يروى .. الى جانب كل ذلك نذكر كتابة المعاهدات والرسائل ، كالمعاهدة التي أمر النبي (ص) بكتابتها إثر هجرته الى المدينة لتنظيم العلاقات بين المهاجرين والانصار واليهود(٢٥) . وكالرسائل التي بعث بها الى القبائل في أمور العقيدة ، أو تقسيم الغنائم ، أو الأمان .. وكتب صلىالله عليه وسلم الى أهل اليمن : « من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم ، له ذمة الله وذمة رسول الله (ص) ، ومن أبى فعليه الجزية(٢٦). كما كتب (ص) الى ذرعة بن ذي يزن(٢٧) ، وللملوك حمير(٢٨) ، ولأكيدر صاحب دومة الجندل(٢٩) ، ولأهل هجر(٤٠) ، ووفد ثقيف(٤١) . ووجه العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي الى البحرين فصالحوه وكتب بينه وبينهم كتاباً(٤٢) .. فضلا عن رسائله الى ملوك الدول المجاورة للعرب ، كالمنذر بن ساوى ، والنجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس عظيم مصر .

ونقرأ — الى جانب هذه الأخبار — من أي الذكر الحكيم قوله تعالى : (والطور ،

وكتاب مسطور ، في رق منشــور)(٤٢) و (نون والقلم وما يسطرون)(٤٤) و (اقرأ باسم ربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم)(٤٥) ، كما نقرأ في سورة (القرآن) أنه لما سأل الجاهليون النبي عليه السلام معجزات خارقة نزل الوحي بالرد عليهم، ومما جاء في ذلك قوله تعالى : (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل : سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا) (٤٦) . . بل ان القرآن الكريـم حض الناس على ضرورة الاستعانة بالكتابة في بعض المعاملات كقوله تعالى : (يا أيهــا الذين آمنــوا إذا تداينتم بدين ، الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه اللــه)(٤٧) .

ولكن ، مع الاقرار بوجود هذه الادلة كلها على شيوع الكتابة في العصرين الجاهلي والاسلامي ، تبقى هناك قضية أساسية لا يمكن اغفالها ، وهي أن الكتابة كانت تقتصر في الغالب على مراكز التحضر والعمران ، وكانت محدودة ووقفاً على الشؤون الخاصة جدا في حياة العرب ، ولم تستثمر أو تسخر للتدوين بمعناه الواسع حتى القرن الاول الهجري ومن الشواهد على هذا الامر قوله تعالى : (وإن كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة)(٤٨) . فالكاتب لم يكن مهيأ في كل حين ، ولم يجاف ابن سـلام الحقيقة حين أشار الى أن الشعر ـ ديوان العرب ـ لم يكن مدوناً ، ومن هنا قال على العلماء : « فلم يؤولوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب » .

ولا ريب في أن أول ما اتجه العرب الى تدوينه القرآن الكريم ، وخاصة بعــد أن استشهد باليمامة وحدها في حروب « الردة » نحو سبع مئة رجل من حفظته زمـن الخليفة أبي بكر الصديق ، مما حدا بالخليفة عمر بن الخطاب الى مفاتحة أبي بكر بأمـر تدوين القرآن بعد أن قد دُوّن مفرقاً (كما سلف القول) ، وما زال به حتى أقنعـه بانجاز هذه المهمة التي أوكلت الى زيد بن ثابت وأحسن اتمامها على خير وجه بجمـع القرآن في نسخة واحدة ظلت عند أبي بكر حتى وفاته ، ثم انتقلت الى عمر ، فالـى ابنته حفصة حتى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي عهد الى زيد بن ثابت مرة أخرى ، ومعه عبد اللــه بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمـن بن الحارث ابن هشام بنسخ الصحف التي كانت بحوزة حفصة . وهكذا تمت على أيدي هـؤلاء عملية تدوين القرآن في صورة نهائية ، وفي ست نسخ موحدة .

وكانت الخطوة الثانية في طريق التدوين بعــد القرآن تدوين الحديث بصـفته المصدر الثاني للعقيدة ، ولانه يمثل الجانب التطبيقي لهـا . وفي طليعة من اشـتغل بتدوين الحديث من الصحابة عبد الله بن عمرو بن العاص الذي قال عليه أبو هريرة : « ما أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً مني ، الا ما كان

من عبد الله بن عمرو ، فانه كـان يكتب ولا أكتب »(٤٩) . ويقول عبد الله بن عمـرو نفسه في هذا الامر : « كنت اكتب كل شيء اسمعه من رسول الله صلى الله عليم وسلم اريد حفظه »(٥٠) . كما يروى عن ابن عباس انه كان أيضا يدوّن الاحاديث .

وثمة روايات اخرى كثيرة تدل على كتابة الصحابة للحديث وجمعه في صحـف لحفظها ، على أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن كتابته خشية اختلاطه عند بعضهم بالقرآن ، وتكريما لمنزلة القرآن وحـده . ولكن بعض الاحكام الشـرعية لم تفصل في القران الكريم ، فوجد اهل الرأي الحصيف من الصحابة وجاهة الاحتكام الى الحديث مخرجا ، وعوناً على الوصول الى سلامة القضاء والحكم في الامور الشرعية والفقهية . وعلى يدي محمد ن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) في كتابه « الموطأ » بالمدينة، وسفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) بالكوفة ، وحماد بن سلمة بن دينار (ت ١٧٦هـ) في البصرة ، وعبد الرحمن الاوزاعي (ت ١٨٣ هـ بالشام . ثم يلمع في القرن الثالث الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) في مسنده ، والبخاري (ت٢٥٦هـ) ، والنيسابوري (٢٠٤هـ) في كتابيهما « صحيح الحديث »، ثم تظهر كتب السنـن ، كسنـن ابن ماجة (ت ٢٧٣هـ)، وسنن ابي داوود السجستاني (ت٢٧٥ هـ) ، وسنن أحمد بـن علي النسائي (ت ٣٠٣ هـ).

وبمرور الزمن راح التدوين ينمو ويتسـع ويشمل أمـورا أخرى غـير القرآن والحديث ، مثل القصص والاخبار ومغازي الرسول (ص) ، وأخبار الفتوح ، وانساب العرب . . ولعل أكبر ما دون في هذا المجال يرجع الى عهد معاوية بن أبي سفيان الذي استحضر من اليمن عبيد الله بن شريه الجرهمي ، الى دمشـق وسأله عن أخبـار المتقدمين من ملوك العرب والعجم وغير ذلك مما عنّ له ، فكان عبيد الله يجيبه عن كل ما سأل عنه . فأمر معاوية أن تدوّن أخبار عبيد الله في كتاب(٥١) منسوبة الى راويها، وهذا يعني أن التدوين في غير الاطار الديني الصرف يمكن أن يكون قد بدأ منذ منتصف القرن الاول الهجري(٥٢) .

ومنذ زمن ابن عباس (ت٦٨ هـ) بدأ التدوين في التفسير يتسع ويحمل عنوانات على غرار ما صنعه ابن عباس في « غريب القرآن »(٥٣) ، من مثـل : مجاز القرآن ، معاني القرآن ، إعراب القرآن ، لغات القرآن ، إعجاز القرآن . . وكل ذلك يرمي الى هدف أساسي هو شرح ما غمض من القرآن الكريم ، وتوضيح أسباب النزول . الى غير ذلك مما يتصل بعلوم القرآن عامة .

ومن التابعين ممن دونوا وصنفوا في التفسير : عروة بن الزبير ، وسعد بن جبير ،

والحسن البصري ، وقتادة وغيرهم . وقد انتهى هذا التفسير المأثور كله عن الصحابة والتابعين الى تفسير « جامع البيان في تفسير القرآن » لأبـي جعفر محمد بن جريـر الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ) ، وهو تفسير ضخم يقع في ثلاثين جزءا .

ثانيـاً ـ المكتبـات :

وكما هو منتظر فقد أفضت حركة التدوين المتنامية الى اقتناء الكتب وانشـاء الخزائن الخاصة والمكتبات لحفظها ، وكان ذلك منذ زمن الامويين ، فعلى ما تذكر كتب التاريخ ـ مثلا ـ كانت خزائن كتب الوليد بن يزيد ـ الذي كان مولعاً بالشعر ـ تضم ما استنسخه من كتب حماد الرواية ، وجناد بن واصل ـ وكان أعلم الناس بالشعر ـ الى جانب مصنفات ابن شهاب الزهري على كثرتها(٥٤) ، وغيرها من الكتب حتـى ان الوليد بن يزيـد هذا حين قتل سـنة ١٢٦ هـ حملت هذه الكتب مـن خزائنه علـى الدواب(٥٥) .

وكان بحوزة أبي عمرو بن العلاء كتب « ملأت بيتاً له الـى قريب من السقف ، ثم تنسـك فأحرقها كلهـا ، فلما رجع عن تنسـكه لم يكن عنده من العلوم الا ما وعاه في قلبـه » (٥٦) .

وتذكر في جملة هذا النشاط مكتبة اسحاق بن سليمان العباسي التـي كانت تمتلىء بالكتب والاسـفاط والرقـوق والقماطر والمساطـر والمحابر ، على حد قول الجاحظ(٥٧) . ومثلها مكتبة يحيى بن خالد البرمكي (كان عنده من كل كتاب ثلاث نسخ) وربما فاقتها مكتبة الواقدي المؤرخ المشهور (ت ٢٠٧ هـ) التي كانت تشتمل على ست مئة صندوق مملوءة بالكتب (٥٨) .

ويذكر صاحب « الاغاني » أن هناك من أنشأ مكتبة تشبه النادي أو ما يسمى بالمركز الثقافي اليوم ، ولعلها الاولي من نوعها في المجتمع العربي الاسلامي ، وذلك في أوائل النصف الثاني من القرن الاول الهجري . يقول الاصفهاني : ان « عبد الحكيم ابن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتا فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقرات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتادا ، فمن جاء زائرا أو قارئا علق ثيابه على وتد منها ، ثم جرد دفترا فقرأه ، أو نهض الى بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم »(٥٩) .

وانشأ بعض الوراقين لهم دكاكين كبـيرة ملؤوها بالكتـب للمتاجـرة والاكتراء للقراءه ، وثمة أخبار تتحدث عن مكتبة علي بن عيسى المنجم . ومكتبة ابنه يحيى بن

علي .. فهذه الاخبار وامثالها تدل على أن عملية التدوين والتصنيف قد بدأت في حياة العرب منذ وقت مبكر ، وترجح ان هذا الوقت المبكر هو ما بعد منتصف القرن الاول الهجري كما سلف القول ، وان هذه العملية « أخذت تنمو وتتطور حتى اكتمل تدوين المعارف العربية الاسلامية في النصف الاول من القرن الثالث الهجري » (٦٠) ، أو كاد .

وحركة التدوين المبكرة هذه كانت حافزا قويا على اتساع دائرة الحياة العلمية ورواج الكتب والمخطوطات ، كما كان من ثمارها تفتح القرائح والعقول على ألوان شتى من العلوم والثقافات مما شغل النابهين من أهل المعرفة بالقراءة والكتابة فأكبوا على التحصيل والتأليف ولفتوا أنظار الناس واهتمامهم فصاروا موضع اجلال ، ومقصد طلاب العلم ، ومحل اكبار عند ذوي الشأن والسلطان ، وقد قوي هذا التيار العلمي حتى استقل بجانب عظيم من مسؤوليات السلطة الحاكمة وجعل الدولة بمفهومها الديني والاداري تضع في حسبانها مهمة جديدة لم تكن محل التفات من قبل ، الا وهي مهمة رعاية العلم والعلماء ، وهكذا كان الخلفاء والامراء سباقين الى استقدام المؤدبين لتدريس أبنائهم ، وكانوا الساعين الى انشاء المكتبات الضخمة ورصد الاموال لها كجزء من انفاقات الدولة . من ذلك مكتبة « بيت الحكمة » التي أنشأها المأمون ، ومكتبة « البرامكة » التي أنشأها الفضل بن عيسى البرمكي . .

وهكذا تنامى الاهتمام بالكتب حتى أصبح اقتناؤها والاكثار منها رمزا ودليلا على الرفعة والمكانة المرموقة في المجتمع العربي الاسلامي . من ذلك على سبيل المثال ما يروى عن الصاحب بن عباد من أنه كان اذا ترحل اصطحب معه أربعين بعيرا محملة كتباً ، على حين أن ما عنده من الكتب كان يحتاج الى أن يحمل على أربع مئة بعير أو أكثر (٦١) .

ولقد رفد هذا اللون من النشاط العلمي رافد مهم كان له طابعه الخارجي العام، وأسهمت في تعزيزه سلطة الدولة أيضا ، ونعني به « الترجمة »(٦٢) ، ورعاية المترجمين والباحثين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ، والتغاضي عن تسرب ألوان من الثقافات المجاورة الى داخل حرم الثقافة العربية الاسلامية ، ان لم نقل اتاحة قدر مقبول من الحرية لها ؛ فكان ذلك كله من دواعي اختبار مقدرة العربية على الاستمرار واستيعاب المعطيات الحضارية المغايرة لما عرفته من قبل ، كما كان برهانا على مرونتها وقابليتها لأخذ مكانهاودورها في الحضارة البشرية ، ودافعا لها على التجدد والنماء والاغتناء .

.. وكانت العربية في كل خطوة في هذا المضمار تزداد مناعة ومَنَعة ، وتبدي

استعدادا واضحا لتقبل مظاهر التغير وهضمها والتعبير عنها في ميادين العلم والفن وسائر أشكال التحضر والرقي العقلي ، من غير تعثر أو تلكؤ ، أو تخل عن الاصالة وعناصر الابداع .

استئناساً بهذه الصورة العامة نستطيع القول ان اللغة العربية أسهمت كالعامل الديني والسياسي (الفتوحات بوجه خاص) ، في صنع الحضارة الاسلامية اسهاماً عظيماً ، بل كانت الاداة الاساسية في انجاح ذلك .. ولكن ، ما الذي ساعد اللغة العربية على أن تنهض بمثل هذه المهمة الجسيمة ؟!

القضية من المنظور التاريخي متداخلة يظاهر بعضها بعضا ، فالحاجة أم الاختراع كما يقال ، ولقد كانت الحاجة تقتضي الاستعانة باللغة مشافهة وكتابة لنشر الدين الاسلامي ، ولتدوين هذا التراث الثمين ، وللتفاهم مع الاقوام الداخلين في الاسلام ، او في دائرة السلطة السياسية ، ولصياغة نظم الحياة الاجتماعية والادارية في المجتمع العربي والديار الاسلامية بمن فيها وما فيها ، كما أن اللغة نفسها ـ من هذا المنطلق ـ استدعت من واقع الحال أن تسعى الجهات المعنية الى توفير متطلبات الافادة منها ، أي فرضت على هذه المرحلة المبكرة مسؤولية تهيئة وسائل للتدوين والتنظيم والتعليم بما يماشي حركة التطور وسرعتها المتنامية ، ويمثل اعدادا لانجاز خطة عامة متكاملة في تلك المجالات .. ومن هنا نشأ التفكير بصناعة أدوات الكتابة والوراقة .

* * *

الحواشي والاحالات :

(١) تاريخ الطبري : ٣٧/٢ (ط.مصر) ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية للدكتور ناصر الدين الاسد ، ص ١٦٢ (دار المعارف بمصر) ١٩٦٥ .

(٢) قال ابن السيد البطليوسي : « .. وأما أول من طبع الكتب فعمرو بن هند ، وكان سبب ذلك أنه كتب كتابا للمتلمس فدفعه الشاعر الى عامله بالبحرين يوهمه فيه بجائزة ، وأمره فيه بضرب عنقه فاستراب به المتلمس ، فدفعه الى من قرأه عليه ، فلما قرئ عليه رمى بالكتاب في النهر ، وفر » ، وفي ذلك يقول :

والقيتها بالثني من جنب كافر
كذلك أجزي كل قط مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتها
يجول بها التيار في كل محفل

والقط هنا: الصك ، وجمعه قطاط وقطوط. وانظر : « الاقتضاب في شرح أدب الكتاب»: ١٠٤ (دار الجيل . بيروت ١٩٧٣) . وفي كتاب « الحلل في شرح أبيات الجمل » لابن السيد البطليوسي نفسه (ط. الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة ١٩٧٩) تحقيق د. مصطفى امام يرد الخبر ص ٩١ مع بعض اختلاف . وانظر أمالي المرتضى : ١٨٤/١ ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، (ط: الاولى ، القاهرة ١٩٥٤) ، والخزانة للبغدادي ٤٤٦/١ ، والاغاني ١٢٥/٢ — ١٢٦ .

(٣) مختارات ابن الشجري ، ج١/١ . والنقاد: صغار الغنم .

(٤) انظر : الاغاني ١٢/١٦ (ط. دار الكتب)و ٢٤/٢٠ (ط . الساسي) ، الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١٨٠/١ (ط. دار المعارف)، شرح المعلقات السبع للزوزني : ٢٢٣ (ط. دار القاموس الحديث — بيروت).

(٥) المفضليات للمفضل الضبي : ١٣٢ تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، عبد السلام محمد هارون (ط. دار المعارف) . وعن المهارق انظر : الاقتضاب للبطليوسي : ٩٣.

(٦) هو باليونانية (خارتس) وتثلث قافه ، وانظر مثلا : المعجم الوسيط / قرطس .

(٧) ديوان طرفة بن العبد : ٢٧ (المؤسسة العربية للطباعة والنشر — بيروت) ، ومختارات الشعر الجاهلي : ٣١٣/١ . شرح وتحقيق مصطفى السقا (ط ٤ . البابي الحلبي — القاهرة) .

(٨) انظر : المعجم الوسيط / قرطس ، والقرظ : شجر عظام لها سوق ، من الفصيلة القرنية، وهي نوع من السفط العربي يستخرج منه صمغ مشهور .

(٩) ويروى البيت : (... كخط الزبور في العسيب اليماني) وانظر الديوان : ٨٥ : تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم (دار المعارف بمصر ١٩٥٨) ، وصنعة الاعلم الشنتمري ص : ٢٠١ بتصحيح الشيخ ابن أبي شنب (ط . الجزائر) .

(١٠) جمهرة أشعار العرب لابي زيد القرشي:٨٤٣، تحقيق محمد علي البجاوي (ط . القاهرة).

(١١) ديوان الهذليين — القسم الاول : ٦٤ (مصورة عن طبعة دار الكتب — القاهرة ١٩٦٥) . وقال أبو ذؤيب نفسه وذكر الرقم :

برقم ووشم كما نمنمت
بميشمها المزدهاة الهدى

وانظر الاقتضاب لابن السيد البطليوسي : ٩٤ (مرجع سابق) .

(١٢) ديوانه : ٨٩ وما بعدها . والاقتضاب : ٩٢ ، والزبور هنا : الكاتب (عن ابن قتيبة) .

(١٣) شرح ديوان لبيد : ١٣٨ تحقيق د. احسان عباس (الكويت ١٩٦٢) .

(١٤) نفسه : ٢٩٩ . ومثله ذكر المرقش الاكبر القلم و (الترقيش) في قوله :

الدار قفر والرسوم كما
رقش في ظهر الاديم قلم

ولعله بهذا سمي المرقش ، والاديم هنا : الجلد يكتب عليه . والقلم معرب .

(١٥) المفضليات : ٨٩ .

(١٦) الحلل في شرح أبيات الجمل : ٣٤٩ (م.س).

(١٧) ديوانه : ١٢٩ حققه وقدم له صلاح الدين الهادي (ط . دار المعارف بمصر ١٩٦٨) .

(١٨) الشعر والشعراء : ١/١٨٠ ، والاغاني ٢٠/٢٤ (ط. الساسي)، والمفضليات : ٢٤٤

(١٩) ديوانه : ٧٩ (دار صادر) ، بيروت ١٩٦٣).

(٢٠) غلى : ماء قرب المدينة . والقصيدة في المفضليات : ٣٥٧ ــ ٣٥٨ .

(٢١) ديوان النابغة (ط. بيروت ١٩٦٠) والمجلة صحيفة كانوا يكتبون بها الحكمة . وانظر البيت في « مبادىء اللغة » للاسكافي : ٩٠ (ط . القاهرة ١٣٢٥هـ) . وفي « الصاحبي في فقه اللغة » لابن فارس : ١٥٤ « غير العواقب » بدلا من : خير العواقب .

(٢٢) المفضليات : ٢٨١ .

(٢٣) المفضليات : ٢٣٧ .

(٢٤) ديوانه : ٦٠ (ط . بيروت ١٩٣٤) المكتبة الاهلية . ويقول شتيم بن خويلد الفزاري :

تسمع أصوات كدري الفراخ به
مثل الاعاجم تغشى المهرق القلما

وانظر « مصادر الشعر الجاهلي) : ٥١ (ط ٣ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦) .

(٢٥) وفيه يقول الشاعر :

وبيت على ظهر المطي بنيته
بأسمر مشقوق الخياشم يرعف

وانظر : الاغاني ٦/٢٧ ، وانظر ١٦/١٣٠ حول ما كتبه المرقش الاكبر على رحله .

(٢٦) ديوانه : ٦٨ وما بعدها (ط. دار صادر ــ بيروت) . وانظر : الاقتضاب لابن السيد البطليوسي : ٩٣ .

(٢٧) المفضليات : ٢٠٤ .

(٢٨) وذكر التنميق في شعر سلامة بن جندل حيث قال :

لمن طلل مثل الكتاب المنمق
خلا عهده بين الصليب فمطرق

وانظر الاصمعيات : ١٣٢ للاصمعي ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ، و عبد السلام هارون (ط٣ ، دار المعارف بمصر) ، والاصمعيات : ٢١٣ .

(٢٩) وممن ذكر « الدواة » عبد الله بن عنمة الضبي حيث قال :

فلما رأيت الدار قفرا سألتها
فعي علينا نؤيها ورمادها

فلم يبق الا دمنة ومنازل
كما رد في خط الدواة مدادها

وانظر : المفضليات : ٣٧٩ ، والاصمعيات ٢٢٦ .

(٣٠) الصفاح : حجارة رقيقة عريضة .

(٣١) اللخاف : حجارة عريضة بيضاء .

(٣٢) الاقتاب : مفردها قتب ، وهو الاكاف الصغير على قدر سنام البعير .

(٣٣) مصادر الشعر الجاهلي : ٣٣

(٣٤) السيرة النبوية ٢/٦٨ .

(٣٥) انظر : نهاية الارب للنويري ٣٤٨/١٦ . ويذكر من ذلك أنه لما جاء عمر بن الخطاب ليبطش بأخته فاطمة وبزوجها لانهما كانا أسلما وجد عندهما خباب بن الارت يقرئهما القرآن الكريم في صحيفة مكتوبة ، وذلك قبل الهجرة بنحو سبع سنوات . وانظر : تاريخ ابن الاثير ٣٤/٢ . وقد ذكر المسعودي في « التنبيه والاشراف » أن زيد بن ثابت كان يكتب الى الملوك، ويجيب بحضرة النبي(ص)، وكان يترجم له بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، وكان تعلم ذلك بالمدينة من أهل الالسن . ولا تفوتنا الاشارة الى أسرى معركة « بدر » الذين كان فداء كل واحد منهم تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة . ولا صلح « الحديبية » المكتوب .. وانظر : « طبقات ابن سعد ١/٢ : ١٤ » .

(٣٦) فتوح البلدان للبلاذري : ٨٠ عني بمراجعته والتعليق عليه : رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية — بيروت ١٩٨٣ .

(٣٧) فتوح البلدان : ٨١ .

(٣٨) نفسه ٨٢ .

(٣٩) نفسه ٧٢ .

(٤٠) نفسه ٩٠ .

(٤١) نفسه ٦٧ .

(٤٢) فتوح البلدان : ٨٩ .

(٤٣) سورة الطور : ٣/٥١ .

(٤٤) سورة القلم : ١/٦٨ .

(٤٥) سورة العلق : ٥،٤،٣/٩٦ .

(٤٦) سورة الاسراء : ٩٣/١٧ .

(٤٧) سورة البقرة : ٢٨٢/٢ .

(٤٨) سورة البقرة : ٢٨٢/٢ — ٢٨٣ . ويرد ذكر الكتابة في القرآن الكريم : ٥١ مرة ، وسطور الكتابة ثلاث مرات ، والكتاب ٢٦١ مرة ، والكتاب مرتين ، والقلم ثلاث مرات، والصحف ثماني مرات : والرق الذي يكتب عليه مرة واحدة ، والالواح أربع مرات . وانظر الايات والسور : الفرقان : ٥ ، النور : ٣٣ ، البقرة : ٢٨١ —٢٨٣، القلم : ١، العلق: ٤ ، الطور : ٣ ، النجم: ٣٦ ، عبس : ١٣ ، التكوير : ١٠ ، الاعلى : ١٨—١٩ ، المدثر : ٥٢ ، البينة : ٢، الاعراف : ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، البروج : ٢٢ .

(٤٩) فتح الباري : ١٨٤/١ — ١٨٥ ، وسنن الدارمي : ١٢٥/١ .

(٥٠) الموضع السابق : ١٨٥/١ ، ١٢٥/١ ، ومسند أحمد بن حنبل ٢١/١٠ .

(٥١) الفهرست لابن النديم : ١٣٨ ، ومروج الذهب للمسعودي : ٢٢٢/٣ (ط.بيروت)

(٥٢) ينظر الفهرست : ٦٦—٦٧ ، ونشير هنا الى ان بعض الروايات تقول ان كعب الاحبار (ت٣٤هـ) ترك كتابا في تاريخ الاسكندر ، وعروة بن الزبير (٢٢—٩٣هـ) كان له فضل عناية بالتاريخ ولعله أول من صنف المغازي واحرق يوم الحرة سنة ٦٣هـ كتب فقه كان ألفها ثم حزن عليها اشد الحزن ، وان وهب بن منبه قد صنف كتابا في تاريخ المتوجين من ملوك حمير ، وان خالد بن يزيد بن معاوية كتب أكثر من كتاب في الكيمياء والعلوم .

(٥٣) ويقول محمد ابو الفضل ابراهيم في مقدمة كتاب « الغريبين » ص ٥ انه أورد قدرا كبيرا منه ، وفي « المعجم العربي »: ٣٩/١ يسميها د. حسين نصار «مقتبسات» نقلها السيوطي في الاتقان .. وكتب في هذا الموضوع «غريب القرآن » جملة من القدماء منها : ابو سعيد ابان بن تغلب البكري (ت ١٤١ هـ) ،محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) ، أبو فيد المؤرج السدوسي (ت ١٧٤) ، علي

بن حمزة الكسائي (ت ١٨٢ هـ) ، محمد بن المبارك اليزيدي (ت ٢٠٢هـ) النضر بن شميل (ت ٢٠٣ هـ) ، قطرب ــ محمد بن المستنير (ت٢٠٦هـ) ..الخ .

(٥٤) يقال ان ابن شهاب الزهري كان يجلس في بيته ويحيط نفسه بالكتب يضعها حوله، وكان يطوف في البلدان ومعه ألواح وصحف يكتب عليها كل ما يسمع ، وكان حجة في السنة والحديث حتى ان عمر بن عبد العزيز قال في شأنه : عليكم بابن شهاب فانكم لا تجدون احدا أعلم بالسنة الماضية منه . ولقد شغل الزهري بكتبه عما سواها ، حتى عن أهل بيته ، ولهذا قالت له امرأته ذات يوم : والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر . « الفهرست : ١٣٤ ، والبيان والتبيين : ٢/٢٩٠» .

(٥٥) الطبقات الكبرى ٢/١٣٦ .

(٥٦) الاغاني ٤/٥٢ ، وفيات الاعيان ٤/١٧٧ ــ ١٧٨ ، البيان والتبيين ١/٣٢١ .

(٥٧) الحيوان : ١/٦١ .

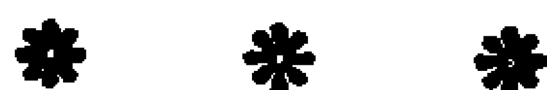
(٥٨) معجم الادباء : ١٨/٢٨١ .

(٥٩) وفيات الاعيان : ٣/٤٦٦ .

(٦٠) انظر « المصادر الادبية واللغوية » للدكتور عز الدين اسماعيل : ٢١ ، والفهرست: ٦٦ ــ ٦٧ ، حيث يرسم ابن النديم صورة تفصيلية لما آل اليه امر المكتبات بعد هذا فيقول على مكتبة صاحب له هو محمد بن الحسين (زمن بني حمدان) : « أخرج لي قمطرا كبيرا فيه نحو ثلاثمئة رطل من جلود وصكاك وقراطيس وورق صيني وورق تهامي وجلود ادم فيها تعليقات عن العرب وقصائد مفردات من أشعارهم وشيء من النحو والاخبار والحكايات والاسماء والانساب ، ولكنها كانت خلقة .. وكان على كل ورقة مدرج توقيع بخطوط العلماء واحدا اثر واحد ثم يقول : ورأيت في جملتها مصحفا بخط خالد بن ابي الهياج وصاحب علي ، ورأيت فيها بخط الامامين الحسن والحسين، ورأيت عنده أمانات وعهودا بخط أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ، وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط علماء النحو واللغة امثال أبي عمرو بن العلاء ، وابي عمرو الشيباني » .

(٦١) معجم الادباء : ٦/٢٥٩ .

(٦٢) سيجيء الحديث عن الترجمة بشيء من التفصيل .



اخناتــون وبــلاد الشـــام

الســلطة والمعارضــة

محمود عبد الحميد احمد

يعد أخناتون شخصية فريدة في تاريخ البشرية . فانـك ما ان تسـمع اسـم اخناتون الا ويتبادر الى ذهنك ذكرى فيلسوف عظيم كـان له السبق بالدعوة الـى الوحدانية في عصور موغلة في القدم . وأنك لتعجب حقا لهذه الدعوة المبكرة ، وتكون بين مصدق ومعـجب بهذهالشخصية الفـذة . ولم يقف أخناتون عنـد الدعوة الى وحدانية ربه ، بل أسبغ عليه من الصفات ما يجعلنا ندهش لهـذا الابداع في صفات الـه كلها رحمة ومحبة وخير للبشر عامة ، في وقت كانت رحمة الـه قوم أو منطقـة لا تتنزل الا عليهم ، وكان أي اله يسوق الاخرين أسرى ويقتلهم وينكل بهم أمام مـن يعبدونـه .

ان شخصية أخناتون ـ كما سنرى ـ متعددة الجوانب ، فهو أول من حاول أن يجدد في عالم الدين والفكر والفن والعلاقات بين الشعوب . وقد كان اخناتون مخلصا لمبادئه ، صادقا في كل ما دعى اليه، على الرغم من قوة التقاليد وجبروتها، واستخدامها من قبل أعدائه (كهنة أمون) سلاحا ضده . وهكذا فاني أستطيع القول بناء على كل ما جاء به اخناتون ، ان هذا المفكر العبقري أول ثائر عالمي . لم ترهبـه قوة الكهنـة الاقتصادية ، ولا تغلغل نفوذهم الديني والثقافي في نفوس المصريين . ولا قوة التقاليد التي كانت راسخة رسوخ الجبال في أذهان المصريين القدماء . بل مضى في طريق دعوته غير هياب ، وسان حاله يقول : لن أترك هذا الدين . وفي السطور التالية سوف أحاول كتابة قصة أخناتون من أولها الى آخرها .

مصر قبل اخناتــون :

نتج عن تحرر مصر من حكم الهكسوس في مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد (١٥٧٥ ق.م) نتائج عظيمة . من أهم هذه النتائج ، تحقيق الوحدة المصرية للمـرة الثالثة . بعد أن كان حكام الاقاليـم يحكمون أقاليمهم شـبه مستقلين عن سـلطة

الهكسوس ، حيث قبل الهكسوس بهذا الوضع ، طالما كان حاكم الاقليم يعترف بسيادتهم ويدفع لهم الجزية . وعلي أن اشير هنا الى قانون عام في تاريخ الشعوب ، يتلخص في أنه ما من شعب حقق وحدته الا وامتلك قوة كبيرة – بالقياس لماضيه القريب – تجعله يبحث عن مكان له تحت الشمس، وهذا ما حصل للشعب المصري بعد تخلصه من حكم الهكسوس كما سنرى . والنتيجة الثانية هي تكوين الجيش المصري فقد كان الجيش المصري قبل الان يجمع من الاقاليم ، حين تقتضي الاحوال ، كما فعل الملك بيبي الاول في الدولة القديمة . ولكننا الان ، نرى الوضع قد تغير كثيرا بعد حرب الهكسوس . فالاسطول الحربي المصري أصبح مؤسسة قائمة بذاتها ، يأتمر افراده بأمر الفرعون . وقد بدأ هذا واضحا خلال حرب الهكسوس(١) . وأصبح الجيش البري تحت امرة الفرعون والضباط . والمرء يلمس هذا واضحا كل الوضوح في حروب ملوك الاسرة الثامنة عشر(٧). أما النتيجة الثالثة ، فهي وجود ادارة مركزية منظمة ، ذات خبرة عظيمة ، استطاعت هذه الادارة ، أن ترسل الجيوش المصرية الى الفرات في أقصى الشمال ، والى قلب افريقية . كما استطاعت هذه الادارة ، أن تشرف على شؤون البلاد الدينية والادارية والاقتصادية والاجتماعية . فأرسلت البعثات التعدينية والتجارية الى بلاد البونت والى سيناء ، والى بلاد الشام . كما نظمت الزراعة وأشرفت عليها .

سعت الامة المصرية وقد تحررت من الهكسوس ، ورتبت البيت المصري من الداخل الى ايجاد استراتيجية تستطيع من خلالها التعامل مع شعوب المنطقة في مستقبل الايام . وبرز هنا رأيان ، وكل من الرأيين يرى أن على مصر أن تغير من استراتيجيتها السابقة تجاه الشعوب المحيطة بها . فالمناعة الالهية الطبيعية ، حيث لا تسبغ الالهة حمايتها الا على مصر ، قد فشلت بعد غزو الهكسوس . وقال أصحاب الرأي الاول والاقدم – الملكة حتشبوت وأنصارها – أن عزة مصر وتفوقها لا يتحققان الا من خلال التفوق الثقافي والاقتصادي على شعوب المنطقة . وقال أصحاب الرأي الثاني – الملك تحوتمس الثالث وأنصاره – ان عزة مصر وتفوقها لا يتحققان الا من خلال قيادة الجيوش العظيمة المدربة ، والانتصار في المعارك الحربية . وبعد صراع قصير بين المبداين ، نجح أصحاب الرأي الثاني ، واستطاع تحوتمس وأنصاره تكوين امبراطورية تمتد من الفرات وجبال طوروس في سورية الى حدود السودان . وحمل الفراعنة الى مصر الكثير من الاسلاب والغنائم خلال حروبهم في بلاد الشام أو النوبة . كما حملت الشعوب التي أصبحت تحت السيطرة المصرية جزاها السنوية الى قصر الفرعون . ومن المؤكد أن عظمة مصر في هذا المجال وصلت الذروة في عهد الملك امنحوتب الثالث حوالي ١٤٠٥ ق.م. فالامبراطوريات الكبيرة في منطقة الشرق القديم من حثية ومتيانية وكاشية وآشورية ، آمنت بأن مصر قوة كبيرة لا يمكن قهرها ، تمتلك جيشا عظيما ،

وتسيطر على بلاد الشام التي تعد من أعظم المناطق ، بسبب مرور الطرق التجارية العالمية خلالها عصرئذ . ولذلك سعت اليها تحمل الهدايا لتكسب صداقتها . وهنا التفت امنحوتب الثالث الى متع الدنيا ، من شراب ، وبناء ، وصيد ، ونساء . وقد نتج عن وجود ملك غير محارب على رأس السلطة المصرية ، غير هياب بأحوال امبراطوريته ، ان تحركت الاطماع للقضاء على الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . وكان من أشد الممالك عداوة لمصر ، مملكة خيتا في آسيا الصغرى ، حيث صارت تغير على الامارات السورية الواحدة تلو الاخرى وتنال منها ، والمملكة العمورية التي قامت في وسط سورية بزعامة عبدي عشرتا وابنه عزيرو ،واخذت تتوسع على حساب الممالك السورية الموالية لمصر ، الى أن وصلت الساحل السوري على البحر الابيض المتوسط. وقد كتب أمراء الامارات السورية الموالية لمصر الى الفرعون أمنحوتب (٣) أمثال جبيل ، وقطنا وغيرهما عن الغارات التي قام بها الحثيون ، وعن توسع المملكة العمورية الحليف غير المعلن مع خيتا . ولكن امنحوتب الثالث لم يقم بأي عمل حاسم، يضع النقاط على الحروف(٤) .

توفي امنحوتب الثالث حوالي ١٣٦٧ ق.م ، وخلف ابنه امنحوتب الرابع على عرش المملكة المصرية القديمة . وفي هذا الوقت، كان وجود الامبراطورية في بلاد الشام، يتعرض لرياح حثية قوية،تريد أن تجتثه من جذوره وكانت أحوال مصر وامبراطوريتها في بلاد الشام ، تتطلب قائدا محاربا مثل تحوتمس الثالث(٥) . ولكن الواقع جاء مخالفا تماما . فالحاكم الجديد فيلسوف ، خيالي ، حالم ، لم يعط جل اهتمامه لمجد مصر في بلاد الشام والشرق القديم . بل نراه يولي اهتمامه فكرا خلاقا، لا عهد لمصر والشرق القديم بـه .

استمر أمنحوتب الرابع خلال الاربع سنوات الاولى من حكمه في تقديس كل الالهة المصرية ، وتقديم العبادات والقرابين لها . ولم يلحظ الباحثون أي تغير في أمور الدين بخاصة . ولكن يبدو أن النار كانت تحت الرماد ــ كما سيتبين لنا فيما بعد ــ اذ أن صراعا مستترا كان يدور بين فراعنة مصر وكهنة الاله أمون ــ أكبر آلهة مصر وقتئذ ــ منذ عهد جده الفرعون تحوتمس الرابع (جد امنحوتب الرابع) ، وكان محور هذا الصراع السلطة في مصر القديمة . وقد تفجر هذا الصراع في السنة الرابعة من حكم امنحوتب الرابع . ويستطيع الباحث أن يتلمس مظاهره الدينية ، والادارية ، والاقتصادية ، والفكرية بشكل واضح وجلي(٦) .

المظاهـر الدينيـة :

قام أمنحوتب الرابع بعدة اجراءات دينية ، الهدف الاســاسي منها القضاء على ديانة امون ونفوذ كهنة أمون . وفيما يلي يعرض الباحث لهذه الاجراءات :

اولا ــ تغيير اسمه : غير امنحوتب اسمه الذي يعني أمون راض أو أمون في سلام الى اخناتون بمعنى المفيد لآتون ــ اسم الهه الجديد ــ أو « آتون راض »(٧) ولهــذا التغيير أهمية كبيرة ، تكمن هذه الاهمية في أن الملك تخلى عن ارتباط اسمه باسم الاله المبجل في كل مصر القديمة ، والذي ساعد الفراعنة على بناء الامبراطورية المصرية في الشام والنوبة . بل وأكثر من ذلك ، فقد كانت ديانة أمون هي الديانة الرسمية للدولة في عصر الاسرة الثامنة عشرة ،لان اسم هذا الاله ارتبط بأسماء معظم ملوك هذه الاسرة، ولانه كان اله طيبة العاصمة الامبراطورية . وهكذا فان التخلي عن اسم أمون ، يعني التخلي عن عبادة هذا الاله ، وعن معابده ، وطقوسه ، وكهنوته ، وامتيازاته . وبالمقابل فان ارتباط اسم الفرعون باسم اله جديد ، يعني الاعلان عن دين الفرعون الرسمي . ويعني الاعلان عن الاله الرسمي للدولة ويعني أن الطقوس سوف توجه اليه وان المعابد سوف تقام له .

ثانيا : شنّ اخناتون حملة شعواء على اسم أمون . فامر ان يمحى هذا الاســم أينما وجد ، فمحاه من اسمه ، ومحاه من اسم ابيه أمنحوتب الثالث . كما محاه من كل آثار الامبراطورية التي وجــدت في طيبة . ومن المؤكد ان اخناتون بمحوه هذا ، أراد ان يمحو ديانة أمون من الوجود ومن اذهان الشعب المصري . فمحو الاسم في مفهوم الشرق القديم بشكل عام،يعني حرمان صاحبه من السعادة والخلود ، ويعني القضاء على قوته وتأثيره(٨) .

ثالثا : أمر اخناتون ألا يشار الى الالهة بصيغة الجمع ، فكانت تمحى الكلمــة التي تشير الى الالهة بهذه الصيغة .

رابعا : اتخذ الملك اخناتون لنفسه لقب الكاهــن الاعظم لاتــون ، حيــث سمى نفسه « الناظر الاعظم » M 33 WT . والناظر الاعظم هو لقب الكاهن الاعظم في مذهب هيلوبولس (عين شمس) الشمس . ويعني الكاهن العظيم الذي يراقبالاجرام السماوية ، لتقام الطقوس طبقا لحركاتها .

خامسا : لقد بلغ اخناتون ذروة الاجراءات الدينية عندما نادى بعبادة اله واحد، هو الاله آتون . وقد وصفته نصوص العمارنة ، بأنه « الاله الاوحد ، الذي لا مثيــل

لـه »(٩) . وهو مصدر الحياة في هذا الوجود سواء للانسان أم للحيوان والنبات ، فأشعته التي رسمت على شكل أيدي منبعثة من قرص الشمس ، هي التي تمنح الحياة والخير والبركة للوجود ، حيث نرى هذه الاشعة في بعض الرسوم وهي تقدم علامة الحياة عنخ fcnh (٨٠) .

كان آتون قرص الشمس المستدير ، وهو اله قديم معروف لدى المصريين منذ أيام الدولة المصرية القديمة ، حيث ورد اسمه في نصوص الاهرام . كما عثر بالقرب من تمثال « ابو الهول» بالجيزة على لوحة من عهد الملكتحوتمس الرابع (جد أخناتون)، مرسوم عليها قرص الشمس ، وهو يعطي الحياة . كما أصبح عليه الامر في أيام اخناتون(١١) .

المظاهر الاداريـة :

كانت طائفة الكهنة في مصر القديمة تتمتع بميزات ادارية خاصة ، جعلت منها طبقة في المجتمع لا تدانيها طبقة . من هذه الميزات ، الثقافة العالية ، اذ كانت مهنة الكتابة سائدة بينهم ، ويكفى ان نتذكر ان خطا رئيسا في الكتابة المصرية سمي باسمهم « الخط الهيراطيقي ــ الخط الكهنوتي » ، لندرك كم كان حظهم من الكتابة بخاصة ومن الثقافة بعامة عظيما . وتمتعت طبقة الكهنة بميزة التنظيم ، حيث كانت للكهنة مراتب أعلاها الكاهن الاكبر في معبد الالـه الذي يعبده(١٢) . وكذلك تمتعت طبقة الكهنة بميزة الادارة ، وقد اكتسب الكهنة خبرتهم الادارية من واقعهم ، حيث امتلك المعبد آلاف العبيد وقطعان الماشية ، والحقول ، والذهب وغير ذلك . ولا بد أن مصروفات عديدة ، كانت تلقى علىعاتق المعبد. ولهذا برعالكهنة في حساب الصادر والوارد،والحفظ(١٣). وعندما قاماخناتون بالدعوة الى عبادةالالة اتن، تبعه دون شك بعض رجال البلاط . وبعض عامة الناس . أما كهنة أمون ، فقد أخذوا يحقدون على أخناتون ودينه . ويخلقون المصاعب لادارته . بسبب الاذى الـذي أصاب مصالحهم. فكان على الملك والحالة هذه ، ان يحدث تغييرا في ادارة الدولة . فأبعد عن الادارة انصار كهنةالاله أمون ، وجعل بطانته من الذين نصروه وأيدوه وامنوا بدينه الجديد. ولا يشك أي باحث ان هذا الامر قد اربك الادارة المصرية الاخناتوتية ، التي اصبحت تديرها فئة من الناس حديثة العهد بفن الحكم والاضطلاع بالمسؤوليات واتخاذ القرارات ، وقد عمق هذا الاجراء الملكي الهوة بين السلطة التي رأسها اخناتون . وبين المعارضة التي كان على راسها كهنة أمون .

نقل العاصمــة :

ومن الاجراءات الادارية التي قام بها اخناتــون للحد من سلطة الكهنة ، نقــل العاصمة من طيبة الى موقع العمارنة الحالي ، في مصر الوسطى بالقرب من اســيوط الحالية ، وقد اطلق على عاصمته الجديدة « آخت اتن » ، أي أفق اتن . وذلــك ليصرف أنظار المصريين عن أمون وكهنته ، وليوجههــا الى الهــه أتون والى فكــره وعاصمته(١٤) .

المظاهر الاقتصاديــة :

يستطيع الباحث من خلال دراسة المصالح الاقتصادية لطرفي الصــراع (الملك اخناتون ــ السلطة وكهنة امون ــ المعارضة ــ) ، تلمس أهم أسباب الصراع الــذي ساد كل عهد اخناتون (١٣٦٧ ــ ١٣٤٧ ق.م) .

منذ مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد خاضت مصر حروبا عديدة في الداخل والخارج . ففي الداخل حارب المصريون الهكسوس . وغنموا منهم الكثير (١٥) . وفي خارج مصر ، قام ملوك مصر من بداية حكم الاسرة الثامنــة عشرة ــ أي بعــد طــرد الهكسوس ــ بالحرب في بلاد الشام والنوبة . ومن خلال الآثار والنصوص المصريــة نستنتج ، أن المصريين انتصروا في كل حروبهم ، وحصلوا على مكاسب مادية كبيرة ، حيث الغنائم والاسلاب وجزى الشعوب التي حملتها (وهي صاغرة) الى مصر ، نذكر من هذه الحروب على سبيل المثال ، حروب احمســس الاول (١٥٧٥ ــ ١٥٢٥ ق.م) مؤسس الاسرة الثامنة عشرة في فلسطين ، وحروب تحوتمس الاول (١٥٢٨ ــ ١٥١٠ ق.م) في سورية ، حيث وصل الى نهر الفرات (١٦) ، أما تحوتمس الثالث (١٤٦٨ــ ١٤٤٧ ق.م) فقدقضى عمره يحارب في بلاد الشام ، اذ شن سبع عشرة حملة عسكرية عليها ، وبذلك استطاع ان يكون امبراطورية تمتد من الفرات الى حدود السودان . كما حارب في بلاد الشام كل مــن امنحوتب الثاني بن تحوتمس الثالث ، وتحوتمس الرابع بن امنحوتب الثاني (١٧) .

نتج عن حروب المصريين الآنفة الذكر ثلاث نتائج هامة :

اولا : ارتفاع شأن الاله أمون : ارتفع شأن الاله أمون عند المصريين كثيرا ،وذلك لانه كان اله العاصمة التي انطلقت منها الجيوش المصريــة ، وحققــت الانتصارات العظيمة ، ليس بسبب قوتها ، وحسن تنظيمها ، وتدريبها ، وامتلاكها لافضل أسلحة العصر ، بل لان أمون ــ حسب العقيدة المصرية الدينية ــ أراد ذلك .

ثانيا غنى كهنة معبد الاله امون :

كان على الملك المصري ــ وقد نصره الاله امون حسب العقيدة المصرية القديمةــ أن يقابل احسان الاله باحسان ، وذلك بأن يخصص جزءا من الغنائم والاسلاب والجزى وأرباح الحملات التجارية والتعدينية الى معبد الاله أمون ، يضاف الى هذا الانعامات الملكية والنذور وتقدمات عباد أمون. ولذلك اصبح كهنة أمون من أغنى الاغنياء في مصر.

ثالثا تدخل الكهنة في شؤون الدولة السياسية :

غني عن القول ان القوة الاقتصادية والسياسية عنصران متلازمان في حياة البشر لا يفترق الواحد منهما عن الاخر ، بل يلازمه ويحميه ، وعندما يسقط احد العنصرين، يتبعه الاخر حتما . وينطبق هذا القول على وضع كهنة امون (المعارضة) والملك اخناتون (السلطة) . فقد أراد كهنة امون ، وقد امتلكوا المقدرة الاقتصادية ، ان يحموا مصالحهم الاقتصادية هذه عن طريق الهيمنة السياسية . ومن المؤكد ان طائفة الكهنة حاولت التدخل في الشؤون السياسية منذ ايام الملك تحوتمس الرابع (جد اخناتون) ، ولذلك لاحظ الباحثون اتجاه هذا الملك نحو تقوية العبادة الشمسية العريقة في مصر ، والتي كان مركزها في مدينة « ايون » أو « أون » (هليو بولس) في شمال القاهرة الحالية ، وكذلك فعل ابنه الملك امنحوتب الثالث(١٨) .

لقد قامت حرب اقتصادية حقيقية بين الملك والمعارضة ، وقد استخدم الطرفان أشد اسلحتهما مضاءً . لاضعاف الخصم اقتصاديا ، ثم القضاء عليه . فقد أدرك اخناتون ان قوة الكهنة الحقيقية نابعة من قوتهم الاقتصادية . وان النجاح في الحرب يعني امتلاك الاقتصاد الاقوى بالدرجة الاولى . ولذلك حاول منذ بداية هذهالحرب، أن يحطمهم اقتصاديا ، ويقضي على الاسباب التي جعلت منهم قوة اقتصادية . وفيما يلي يلقي الباحث الاضواء على تلك المعارك الاقتصادية :

اولا : امر اخناتون بعبادة اله واحد هو الاله آتن ، وحرّم عبادة الاله أمون ، ومحى اسمه أينما وجد ، ولو كان في اسم أبيه . فقد جاء في النشيد لآتن ما يلي :

ما أكثر تعدد أعمالك

انها على الناس خافية

يا ايها الاله الاحد

الذي لا يوجد بجانبه إله آخر
لقد خلقت الارض حسب رغبتك
وحينما كنت وحيدا (لا شيء غيرك):
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان(١٩) .

كما قام اخناتون بمصادرة أملاك معبد أمون ، وأمر باغلاق هذا المعبد . وغني عن القول ، ان أخناتون بعمله هذا ، قد أضعف الكهنة اقتصاديا ، حيث منع عنهم الموارد من النذور ، والقرابين ، وغلال الحقول، و والماشية ومنتجاتها ، والعبيد ، والذهب . . . .الخ(٢٠) .

ثانيا نقل العاصمة : كانت طيبة عاصمة مصر الامبراطورية منذ أيام الدولة الوسطى (٢٠٥٠ ق.م) . وقد بلغت هذه العاصمة الذروة أيام ملوك الاسرة الثامنة عشرة ، حيث كانت تقصدها الشعوب حاملة الجزية الى الفرعون ، وحيث استقطبت التجارة العالمية عصرئذ . وبسبب هذا الازدهار السياسي والاقتصادي ، علا شأن الهها أمون . لانه الاله الذي نصر الفرعون ، وهيأ الاسباب لنجاح الحملات التجارية والتعدينية . ومن أجل أن يبتعد أخناتون عن كهنة أمون ومكائدهم ، وليضع الههم في الظل ، نقل العاصمة الى موقع العمارنة في مصر الوسطى . وقد اطلق على عاصمته الجديدة اسم « أخت أتن » أي أفق أتن . وقد يظن البعض ان نقل العاصمة اجراء ادراي فحسب ،ولكنني استطيع القول ، ان العاصمة كان حربا اقتصادية قام بها اخناتون لاضعاف كهنة امون (المعارضة) اقتصاديا ، والقضاء عليهم . ونتساءل كيف . .؟

كان المصري القديم يعتقد ، ان الاله هو الذي ينصر الفرعون ، وان النصر لا يتحقق الا لان الاله راض عن الفرعون ، ولأنه منحه القوة ، وحقق له النصر على الاعداء . ولذلك على الفرعون الذي يعترف بفضل الاله، ان يقابل الاحسان بالاحسان، وذلك بأن يخصص جزءا من الغنائم والاسلاب لمعبده . وجزء من أرباح الحملات التجارية والحملات التعدينية(٢١) .

غني عن القول أن علينا أن نولي اهتمامنا في دراستنا هذه الى أمون وكهنته ، وتأثير نقل العاصمة الاقتصادي ، لقد بلغت مكانة أمون الذروة ، عندما استطاع ملوك الاسرة الثامنة عشرة وعلى رأسهم تحوتمس الثالث، تكوين امبراطورية تمتد من الفرات الى حدود السودان ، ولذلك قصد ممثلو شعوب هذه الامبراطورية العاصمة طيبة ،

وهم يحملون جزاهم السنوية من ذهب ، وفضة ، وعبيد ، وتحف ، لتقديمها للفرعون. كما كانت وفود الدول الصديقة تقصد العاصمة المصرية تحمل الهدايا للفرعون ، عربون مودة وصداقة . وكانت نشوة التدين والاعتزاز ، ومحبة الاله الذي نصر الفرعون ، وجعل هذه الشعوب تأتي طائعة صاغرة الى مصر ، تجعل الفرعون يهب جزءا من هذه الجزى الى معبد كهنة الاله مون في العاصمة طيبة . وكذلك يفعل الفرعون عندما يوفق في حملاته التعدينية أو التجارية(٢٢) .

اما الان وقد نقل اخناتون العاصمة الى « آخت أتن » ، فقد صارت وفود الشعوب الخاضعة لمصر ، تذهب الى العاصمة الجديدة . وبذلك أصبحت التبرعات الملكية من الجزى ، والغنائم ، والارباح التجارية والتعدينية تجد طريقها الى معبد إله اخناتون (الاله أتن) . ومما زاد في خسارة كهنة امون الاقتصادية ، أن قادة الجيش ، وكبار الضباط ، وكبار الموظفين ، والتجار قد التحقوا بالعاصمة الجديدة الى جانب الفرعون ، وهكذا فان نذورهم ، وتبرعاتهم نتيجة لنجاح يصيبونه ، أصبحت تذهب الى معبد أتن . يضاف الى ما سبق الانعامات الملكية سواء من الملك أم من افراد اسرته . وهكذا استطاع اخناتون بهذا العمل البارع (تغيير العاصمة)، أن يحرم المعارضة من اكبر مورد اقتصادي ، تسبب أصلا في نشوء قوتهم .

المظهر الاجتماعي :

لا شك في أن اخناتون كان جبارا ، حين وقف بوجه طائفة الكهنة المنظمة القوية الغنية ، لتكون له الكلمة الاولى في سياسة الدولة الداخلية والخارجية . ومن أجل تحقيق هذا الهدف قام اخناتون بحربه الدينية والادارية والاقتصادية ضد الكهنة. ولكن لئن حملت خطواته تلك أسباب النجاح ، لكنها حملت في ثناياها أسبابالفشل. وفيما يلي يقدم الباحث دراسة عن انعكاس خطوات اخناتون الجريئة على فئات الشعب المصري من كهنة وعمال وجنود وصناع ومفكرين وغيرهم . والتي كانت سلبية في نتائجها . وقد استغلت المعارضة هذه السلبيات بشكل جيد ، واستخدمتها سلاحا بيدها ، أدى الى سقوط اخناتون .

١ ــ الوحدانية واغلاق المعابد والبطالة : دعا اخناتون الى عبادة اله واحد (الاله أتن) ، ولذلك أمر باغلاق معابد الاله أمون ــ العدو الرئيسي ــ ومعابد الالهة الاخرى وكان على رأسهم الاله أوزير(٢٣) . وقد أشار الى هذا الاجراء خليفته الملك « توت عنخ أمون » حيث جاء في نصوصه : « وأغلقت معابد الالهة من الفنتين ــ عند الشلال الاول ــ الى مستنقعات الدلتا »(٢٤) وقد نتج عن هذا تسريح الكهنة والموظفين

وكثير من العمال والفنانين الذين كانوا في ادارة وخدمة المعابد ، وبذلك أصبحوا جزءا اساسيا في حزب المعارضة ، خلقواالكثير من المشـــاكل للسلطـــة التي يمثلها الملك اخناتون(٢٥) .

٢ ـ **استراتيجية اخناتون السلمية :** حارب الجنود المصريون منذ مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد في مصر حيث طردوا الهكسوس ، وفي فلسطين وسوريـة وبلاد النوبة ، وقد حققوا نجاحا عظيما في حروبهم هذه ، اذ أصبحت مصر تسيطر على امبراطورية تمتد من الفرات شمالا الى حدود السودان جنوبا . وقد أفاد الجنـد من هذه الحروب . حيث الاسلاب والغنائم ، وهبات القادة والملوك تقديرا لشجاعتهم، اي أن الحرب كانت تعود عليهم بالفوائد المادية والمعنوية ، وكل تغيـير يطـرأ على استراتيجية مصر القائمة على التفوق العسكري على شعوب المنطقة ، سوف يغضب الجند ويضر بمصالحهم . وقد حدث هذا التغيير فعلا في عهد الملك اخناتـون ، الذي اخذ بسياسة مبنية على التسامح والسلام مع شعوب الامبراطورية المصرية(٢٦) وقد نتج عن سياسة اخناتون هذه نيتجتان رئيستان ، الاولى سخط الجنود المصريـين الذين أضيروا بسبب انتهاج اخناتون للسياسة السلمية ، حيث حرموا من ترقيات الملوك والقادة لهم ، كما حرموا من مورد رزق كبير ، بالاضافة انهم حرموا أيضا مـن تحقيق أمجاد شخصية ، نتيجة لبطولاتهم في ساح المعارك . والنتيجة الثانية ،ضياع الامبراطورية ، اذا كانت المملكة الحثية في آسيا الصغرى ، تتطلع دوما بجشع كبير الى احتلال بلاد الشام ، للسيطرة على أهم الطرق التجارية العالمية(٢٧) . ولم يحل دون تحقيق هدفها إلاّ المملكة الحورية ـ الميتانية التي كانت تقوم في الجزيرةالسورية الحالية ، وتتخذ من واشـوكاني (تل الفخيرية بالقرب من رأس العـين الحاليـة) عاصمة لها ، وتهيمن على شمال سورية حتى المتوسـط(٢٨) . واضيف الى المملكـة الحورية ـ الميتانية الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . ولكن باعتلاء اخناتون عرش مصر وقيامه باصلاحه الديني وما نجم عنه من نتائج ذكرناها آنفـا ، حانت الفرص لشوبيلوليوما(٢٩) كي يحقق حلم الحثيين . فبدأ بالمملكة الحورية الميتانية حليفة مصر من أيام الملك تحوتمس الرابع ، حيث شن عليها هجوما كبيرا أيام الملك امنحوتـب الثالث ، لكنه لم يفلح في هذا الهجوم الذي شنه من جهـة الغـرب حيث الدفاعات العظيمة لملكة ميتاني وقد استفاد الملكالحثي من هجومه الاول ، فشن هجومه الثاني في عهد الملك اخناتون ـ من جهة الشرق ، ونجح في هزيمة الميتانيين ، وقضى عـلى دولتهم ، هذه الدولة التي كانت تجبره دوماً على البقاء خلف جبال طوروس(٣٠) .ولم يقف شوبيلوليوما عند هذا الحد ، بل قام بالغارة على الممالك السورية الحليفة لمصر . وكتبت هذه الممالك الى اخناتون تصف له شراسة الغارات الحثية ، وتطلب المساعدة والنصرة . لكن ما من مجيب . واســتمر الحثيون لذلـك في توسعهـم ، لدرجة ان

النصوص الحثية،تدعي ان نفوذ الحثيين امتد الى جبال لبنان(٢١). ولم تكن الدولة الحثية الطامعة الوحيدة بالامبراطورية المصرية في بلاد الشام . بل وجدت مملكة اخرى في وسط سورية ، هذه المملكة هي المملكة العمورية بزعامةعبدي عشرتا وابنه عزيرو . وبسبب ظروف مصر الداخلية ، استطاعت هذه المملكة ان تسيطر على وسط سورية وتمد نفوذها الى الساحل السوري ، حيث سيطرت على منطقة تمتد من سميرا جنوب طرطوس (ميناء تحوتمس الثالث المفضل) الى مدينة جبيل ، التي كان ملكها رب عدي مخلصا لمصر حتى الموت(٢٢) . وكتب رب عدي وحكام الممالك السورية التي تضررت من الاحتلال العموري الى اخناتون ، حيث أرسلوا عشرات الرسائل يستنصرونه ، ولكن اخناتون لامرٍ ما لم يجبهم الى مطالبهم(٢٣) .

وهكذا نستنتج من دراستنا السابقة ، ان الملك اخناتون اهمل ادارةالامبراطورية المصرية في آسيا ، وانه لم يستخدم الجيش في الحفاظ على هذه الامبراطورية ، على الرغم من استغاثات الحكام السوريين ، مما جعل الجيش ينحاز الى صف المعارضة ، فقائده حورم حب (قائدالجيش في عهد اخناتون) ، كان من أشد المتحمسين للقضاء على ثورة العمارنة وما خلفته من اثار ، بعد وفاة اخناتون .

تعاليم الاتونية وأثرها على الصناع والكتاب والفنانين :

أصاب الكساد كثيرا من المهن التي كانت مرتبطة بديانة أمون بخاصة والديانات المصرية بعامة ، وذلك بسبب تعارض التعاليم الاتونية مع غيرها من الديانات المصرية القديمة ، وفيما يلي يعرض الباحث لاهم المهن والطقوس المصرية التي ابطلت وأصاب أصحابها العوز ، وبذلك ازداد عدد المعارضين لديانة اخناتون :

١ ــ النذور : كانت الطقوس الدينية المصريه تقضي وضع نذور من فطائر خاصة خلال أيام الاعياد ، لكن هذه النذور توقفت بحلول ديانة أتون . وبذلك لم يعد الخبازون يصنعون تلك الفطائر ،وحرموا الارباح التي كانوا يجنونها ، وأصابتهم لعنة البطالة(٢٤) .

٢ ــ التمائم : لم يعد بمقدور صناع التمائم بيع تعاويذهم الالهية القديمة عند ابواب المعابد . أصاب هذا الكساد صناع الجعارين والتماثيل الصغيرة « أوشابتي »، فقد كان الكهنة يوصون للناس ، أنه عن طريق تعاويذ هذه الجعارين والاوشابتي يمكن ضمان براءة المتوفى . وبحلول الاتونية أقصيت هذه التعاليم ، وصار الصناع لا ينقشون فوق الجعارين التعاويذ السحرية لاخماد وحي « الضمير » عند المتهم ،

بل صاروا ينقشون فوقها أدعية بسيطة موجهة الى أتون طلبا للحياة المديدةوللعطف والطعام . وفي هذا الصدد ، علينا ان نذكر صانعي شواهد القبور المزخرفة بالنقوش الزاهية المستوحاة من كتاب الموتى ، فقد استبعدت شواهدهم لانها أخذت من تراث الديانة المصرية غير الاتونية(٣٥) .

٣ ــ لفائف البردي المكتوبة : والكتاب أيضا أصابتهم لعنة البطالة ، فقد كان هؤلاء يكتبون على لفائف من البردي النصوص الدينية الطويلة المنقولة من كتاب الموتى ، يصبون اللعنة من خلال كتاباتهم على كل من يسيء الى قبر المتوفىومحتوياته. وقد ابطلت الان هذه الكتابات ، لانها ضمت اسماء الالهة المصريين القدامى ، أو أنها كانت تضم كلمة الالهة بصيغة الجمع(٣٦) .

٤ ــ التمثيليات الدينية : كان كهنة مصر يمثلون أحداثا خاصة بالالهة قبل حلول عهد اخناتون . أما في عهد أخناتون فقد صاروا يطردون من الاماكن المقدسة في مواسم التمثيليات ، نذكر من هذه التمثيليات على سبيل المثال « تمثيلية مأساة أوزير »، وتمثيلية انتقال الاله امون من معبد الكرنك الى زوجته الالهة « موت » في معبد الاقصر(٣٧) . ونضيف الى ما سبق طوائف الحجاج الذين كانوا يحجون الى أبيدوس ــ حيث الاعتقاد يوجد قبر أوزير ــ ويمثلون هنا « حياة أوزير وموته وبعثه بعد الموت »(٣٨) .

٥ ــ نحت التماثيل : حرّم اخناتونتجسيد الاله أتون بشكلانساني أو حيواني، كما حرم عبادة الاله اوزير والالهة المصرية . لذلك أصيب نحاتو تماثيل الالهة بضربة موجعة ، وتكدست تماثيلهم في معاملهم دون ان يشتريها احد(٣٩) .

المظاهر الفكرية :

تتجلى الحرب الفكرية بين اخناتون والمعارضة في تعاليم دينه ، فالدراس لهذه التعاليم ، يستنتج ، أنها كانت تهدف الى تنزيه الدين الجديد عن كل نقيضه ،والسمو به ليكون رحمة لكل البشر ، والابتعاد عن السحر والشعوذة والدجل ، وبهذا كانت تعاليم الدين الجديد ، تسمو على ما كان قائماً ، وتتنزه عن كل كذب وسحر وشعوذة يمارسها كهنة أمون . وفي كل هذا حرب لا هوادة فيها على ديانة أمون ، وكسب مؤيدين جدد في داخل وخارج مصر . وفيما يلي يورد الباحث مزيدا من مبادىءهذه الديانة ، التي قطعت الطريق على سحر وشعوذة ودجل الكهنة .

أولا التوحيد ؛ سبق وأن قمنا ببحث هذا الموضوع مفصلا .

ثانيا الماعت(٤٠) : مارس كهنة أمون كثيرا من السحر والشعوذة لضمان براءة المتوفى ، عن طريق وزن قلبه ، والاوشابتي ، والتعاويذ كما سعى الكهنة الى تجديد وتعميق الورع الديني عند الناس عن طريق تمثيل مأساة اوزير ، وانتقال الاله أمون الى معبد الاقصر ، وغير ذلك . كما كانت العقيدة الدينية المصرية تأمر المصريين ، بأن يكون تمثال الشخص خال من المرض والعيوب ، ويجسد صاحبه وهو في شرخ الشباب ، لتستطيع الروح التعرف اليه والعودة . لكن تعاليم الديانة الجديدةنسخت كل ما تقدم وأبطلته كما رأينا في التمثيليات والسحر ، وأنكرته في النقش والنحت ايضا ، وقد كان اخناتون مخلصا لهذا المبدأ ، ولو كان الامر يتعلق بالفرعون نفسه، حيث نرى الفرعون وقد رسم برأس غير متناسق ، ورقبة رفيعة ، وشفتين غليظتين، وبطن متدل ، وأفخاذ كبيرة غير متناسقة ، وذراعين رفيعتين أيضا .

ثالثا : الديانة العالمية : ارتفع شأن الاله أمون ، منذ أيام الاسرة الثانية عشرة ، حيث ارتبط اسمه مع اسم مؤسس هذه الاسرة الملك أمنمحات الاول (١٩٩١ق.م). وزادت قدسية الاله أمون ، عندما استطاعت طيبة أن تطرد الهكسوس وتكون امبراطورية مترامية الاطراف تمتد من الفرات الى حدود السودان الشمالية ، لأن أمون إله طيبة ، هو الذي حقق كل هذه الانتصارات والانجازات . وكما رأينا سابقا بقي أمون مقدسا الى أيام الملك أمنحوتب الرابع (١٣٦٧ ق.م) . وبذلك يكون قد مر على عبادة أمون قرون طويلة ، تغيرت خلالها ظروف مصر كثيرا . فمنذ تكوين الامبراطورية المصرية (١٤٦٧ ق.م) ، انفتحت مصر على بلاد الشام بخاصة وعلى البلاد المجاورة لها بعامة ، فأخذت من حضارات هذه البلاد وأعطت ، سواء في مجال اللغة أم الديانة أم التجارة أم الصناعة أم الفن . ووفدت الى مصر جماعات الاسرى بأعداد كبيرة جدا ، جعلت بعضهم يقول أن خلقة المصريين تحسنت نتيجة لذلك(٤١) .

وهكذا نستنتج مما سبق أن أجيالا نشأت في مصر ، قد اطلعت على ثقافات الامم الاخرى ، فأصبحت لها ثقافتها الخاصة ، وأصبحت لها نظريتها الخاصة في معالجة شؤون الحياة . وكان الى جانب هذه الطبقة المستنيرة ، الطبقات الشعبية وعامة الناس وكهنة أمون . هذه الطبقات المحافظة، التي ترى دوما أن صلاح الامة وازدهارها يتحقق عن طريق التمسك بالتقاليد القديمة ، والتمسك بحرفية تعاليم الديانات التي أوصلت مصر الى بناءامبراطورية عظيمة . وقد ساعد واقع مصر هذا الملك اخناتون، الذي كان على رأس الفئة المستنيرة ، والتي كانتعلى درجة من التثقيفوالتعليم(٤٢)، على ابداع ديانة جديدة لا تسود مصر وحدها ، ولكن تسود كافة أرجاء الامبراطورية المصرية . وربما كان هدفه سياسيا ، وهو السيطرة على أرواح شعوب الامبراطورية ، وربطهم ثقافيا وروحيا بمصر ، وبذلك يسهل على مصر ادارة امبراطوريتها المرتبطة

روحيا بمصر ، وبمبدعها الروحي أخناتون(٤٣) . وشاهدنا فيما نقول أناشيد اخناتون التي تتضمن توجها عالميا ، ما وجد في اي عصر من عصور تاريخ مصر .

« ان آتون » خلقهم (لنفسه هو) .
فجميع الاراضي وأهل بحر ايجة يحملون
ضرائبهم وجزيتهم فوق ظهورهم الى الذي
أوجد حياتهم والذي بأشعته تحيا البشر
وتستنشق الهواء(٤٤) .

استطيع أن أضيف الى ما سبق ، ان أناشيد اخناتون لربه يستطيع أن يتغنى بها السوري والنوبي. الخ. حيث ذكرت في هذه الاناشيد الشعوب التي كانت تحت السيطرة المصرية ، كما وان نظرة الكبرياءوالتعالي ، التي كان ينظر بها المصريون نحو تلك الشعوب أصبحت كأنها لم تكن(٤٥) . فالناس كلهم أبناء الله ، هو الذي خلق الوانهم ولغاتهم ، ووضعهم في أقاليمهم المختلفة ، والله رحيم بهم جميعا يعطيهم حسب ظروفهم الاقليمية ، فهو يخلق لمصر نيلاً في الارض ، ولكنه يخلق لاهل الشام نيلا في السماء :

ما اكثر تعدد اعمالك
انها على الناس خافية
يا أيها الاله الأحد
الذي لا يوجد بجانبه اله آخر
لقد خلقت الارض حسب رغبتك
وحينما كنت وحيداً (لا شيء غيرك)
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان
وجميع ما على الارض
مما يمشي على رجليه
وما في عليين مما يطير بأجنحته
وفي الاقطار العالمية سورية
وكوش وأرض مصر
فانك تضع كل انسان في موضعه

....

وتمدهم بحاجاتهم

وكل انسان لديه قوتــه

وأيامه معدودات

والألسنة في الكلام مختلفة

وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم

لأنك تخلق الاجانب مختلفين .

انت تخلق النيل في العالم السفلي

وانت تأتي به كما تشاء

ليحفظ أهل مصر أحياء

لانك خلقتهم لنفسك

وانت سيدهم جميعاً

وانت الذي تنهك نفسك من أجلهم

وانت رب كل قطر

وانت الذي تشرق من أجلهم

وانت شمس النهار عظيم الافتخار

وجميع الاقطار العالمية القاصية

انت تخلق حياتها أيضا

لقد وضعت نيــلا في السماء

وحينما ينزل لهم يصنع أمواجا فوق الجبال

مثل (أمواج) البحر

فيروي حقولهم في قراهم .

ما اكرم مقاصدك يا رب الابدية

ويوجد نيل في الســماء للاجانب

ولأجل غزلان كل الهضاب التي تتجول على أقدامها

اما النيل فانه يأتي من العالم السفلي لمصر(٤٦) .

وهكذا كما رأينا ، فان حماية ورحمة ورعاية الاله المصري ، لم تعد مقتصرة على مصر فقط ، بل امتدت لتشمل سورية ومصر وكوش والنوبة والصحراء والعالم كله . ولم تعد مهمة الاله قهر الشعوب غير المصرية لصالح الفرعـون المصري ، وربط تلك الشعوب الى مركبة الفرعون لتجرها وراءها بشكل مهين ، بل صار الاله ينزل لها نيلا من السماء ليروي حقولها في قراها ، ويجعلها تعيش في سعادة ورخاء . باختصار ان الاله أتون أصبح إلهاً للجميع لا يفضل شـعبا على شعب . ولا يختار شـعبا ويخصه برحمته ورضاه ، وفي هذا سبق حضاري وانساني يرجـع الى حوالي ١٣٦٧ ق.م أي قبل حوالي ثلاثة آلاف وثلاثمائة وواحد وستين عاما . وهنا يكمن سر عظمة أخناتون .

موقف المعارضة من عالمية أخناتون :

من المؤكد أن المعارضة ، وقفت ضد هذا الاتجاه (عالمية دين أخناتون) . طالما أن التعاليم السامية لهذا الدين ، سوف تؤدي الى نجاحه وانتشاره في مصر وكافة أقطار الامبراطورية المصرية . وهذا يعني القضاء على ديانة أمون الى الابد .

ايام اخناتون الاخيرة :

واجهت دعوة أخناتـون صعوبات جمة في انتشارها ، حيث كـان كهنة أمـون (المعارضة) وراء هذه الصعوبات . وما أن وافت السنة الثانية عشرة من حكم أخناتون حتى ساءت أحوال مصر الداخلية والخارجية ، لارتباط الواحد منهما بالآخر ارتباطا وثيقا . ففي الداخل تفرقت الامة الى شيع وأحزاب متناحرة ، وقد كرس أخناتون كل اهتمامه لهذا الصراع ، ولم يول الامبراطورية في سورية أي اهتمام ، مما شـجع الحثيين والعموريين على اقتســام النفوذ المصري في ســورية ، حيث نتج عن هــذا الاقتسام انقطاع جزى الممالك الشامية عن مصر ، وانقطاع تجارة مصر مع بلاد الشام، وهكذا أصبحت مصر تعاني من الضعف السياسي والاقتصادي .

أحست الملكة « تي » أم أخناتون بوضع ابنها ووضع البلاد الذي لا يسر صديق، وأدركت المصير السيء الذي ينتظر ابنها والبلاد المصرية ، فزارته في عاصمته في عام حكمه الثاني عشر . وبسطت أمامه أمور البلاد الداخلية والخارجية ، وطلبت منــه أن يهادن كهنة أمون .

فتحت هذه الزيــارة عيني الملك على حقيقة حال البــلاد المصرية والامبراطورية المصرية . وتدل تصرفات أخناتون بعد هذه الزيارة ، أنه اقتنع بآراء أمه ، فسعى الى التخفيف من غلواء دعوته تجاه كهنة أمون . بل والى الصــلح معهم . ولذلك أرســل

شريكه في الحكم سمنخ كارع زوج ابنته الكبرى الى طيبة ليجس نبض كهنة أمون ، وليجد أفكارا تصلح لأن تكون أساسا للصلح. لكن قرائن الاحوال تدل على أن المعارضة، أدركت ان وضع اخناتون أصبح ضعيفا في الداخل والخارج . ولذلك لم يقبل كهنة أمون بأقل من اجتثاث جذور الثورة الاتونية . وقد ساعدهم القدر على هذا ، وكان لهم ما أرادوا . فاخناتون ملهم هذه الثورة وسمنخ كارع شريكه في الحكم توفيا . وصعد الى سدة الحكم في « آخت أتن » « توت عنخ أتن » زوج ابنة اخناتون الثانية (عنخى ـ ان ـ با ـ أتن) . وقد قبلت المعارضة بهذا الطفل ملكا على مصر ، لانه سيكون العوبة بأيدي كهنة أمون . فلا الخبرة متوفرة ، ولا الارادة حرة ، ولا القوة لديه موجودة . والادلة على هذا كثيرة ، نشير الى بعضها على سبيل المثال ، لقد أجبر الملك بعد فتر وجيزة على هجر العمارنة والعودة الى طيبة ، يضاف الى هذا أن الملك غيّر اسمه من توت عنخ أتن الى توت عنخ أمون ، وفي هذا اعلان رسمي عن عودة الديانة الامونية لتكون ديانة الملك الرسمية . وبهذا تكون ثورة العمارنة قد وصلت الى النهاية . واستطاعت المعارضة (الكهنة) أن تقضي عليها القضاء المبرم . وتعود ديانة أمون الى مكانتها المميزة ، ونفوذها في المجتمع المصري القديم(٤٧) .

وهكذا فشل حكم اخناتون ، وفشلت معه ديانته الاتونية . ومن دراستنا السابقة يتضح لنا بجلاء أن أسباب هذا الفشل يعود الى ثلاثة محاور رئيسة . المحور الاول يتضمن مقاومة كهنة امون وأنصارهم من كهنة الآلهة الاخرى . والمحور الثاني يتضمن النتائج التي نتجت عن اجراءات اخناتون ، حيث أصبح الجيش غير راض عن سياسة اخناتون السلمية . وزاد عدد العاطلين نتيجة لاغلاق المعابد . وانقطعت التجارة المصرية مع غيرها من البلدان المجاورة ، كما انقطعت عن مصر جزى الشعوب التي كانت خاضعة لمصر ، مما زاد في ضعف مصر الاقتصادي . أما المحور الثالث فيتضمن تعليم الديانة الاتونية نفسها . فقد كانت تعاليم محصورة بشخص الملك ، الذي يتلقى التعاليم من الاله أتن ، وعنه يأخذ البشر ، وبذلك لم تصل هذه الديانة الى قلوب المصريين ، ولم يعايشوها . فقد جاء في النشيد لأتن ما يلي:

ليس هناك واحد آخر يعرفك إلاّ ابنك اخناتون

لقد جعلته عليماً بمقاصدك وبقوتك .

يضاف الى ما سبق أن الديانة الأتونية كانت ديانة غير شعبية ـ كما بينا سابقا ـ فمبدع هذه الديانة كان ملكا ينتمي الى أعلى الطبقات المثقفة المتعلمة ، ولم يكن من الفقراء الضعاف الاقرب الى الطبقات الشعبية العريضة . كما ان الديانة كانت ديانة أكثر تجريدا مما سبقها من الديانة المصرية ، التي عاشت في ضمير ووجدان المصري

لمئات عديدة من السنين ، والذي تعوّد على عبادة الهة متجسدة بشكل حيواني او انساني . وشدته عاطفته الدينية الى موروثه الايماني ، ومنعته من ان يرقى بفكره الى ادراك الأفكار الوجدانية المجردة . ولذلك كان من الصعب على المصري ، أن يترك العادات والتقاليد والايمان الموروث بمدة وجيزة لا تتجاوز مدة حكم اخناتون (١٧ سنة) ، بل ربما أحس المصري القديم بشيء من تأنيب الضمير ، عندما كان يرى معابده المقدسة وقد اصابها الخراب والاهمال والعبث واوصدت ابوابها . وربما كان ينظر الى اماكن الاحتفالات الدينية فيجدها صامتة لا حركة فيها — كما مر معنا سابقا — فتملأ الحسرة قلبه . ومن المؤكد أن الآلهة كانت أثيرة لدى الشعب المصري وخاصة الاله أوزير ، الذي كان مسؤولا عن سعادة المتوفى في الحياة الاخرة ، حيث كان المحامي عن الاموات امام كل خطر ، اصبح منفيا من مصر ، ولا يستطيع انسان ان يذكر اسمه في عهد الملك اخناتون ، نتيجة لكل ما ذكرنا ، ابتعد الانسان المصري عن اخناتون وعن ديانته ، وأدى هذا الابتعاد الى فشل الديانة الاتونية .

المعارضة في السلطة :

عادت المعارضةالى سابق عهدها بعد فشل ثورة العمارنة . واحتلت مكانتها المميزة في المجتمع المصري القديم ، وتمتعت بكل الامتيازات السابقة(٤٩) . وقد واجهت المعارضة مشكلتين رئيستين ، الاولى اعادة ترتيب البيت المصري من الداخل ، والقضاء على كل ما خلفته ثورة العمارنة من آثار . والثانية اعادة الامبراطورية المصرية الضائعة في بلاد الشام ولو جزئيا .

أما فيما يتعلق بالمشكلة الاولى (ترتيب البيت المصري من الداخل) ، فقد بذلت المعارضة جهودا جبارة للتشهير بأخناتون ، فنسبت اليه كل مظاهر الضعف والخراب التي سادت مصر . فقد جاء في نص يعود الى عهد الملك توت عنج امون ما يلي :

« انه الحاكم الطيب(٤٩)

الذي قام بأعمال عظيمة لوالد كل الآلهة(٥٠)

والذي أصلح كل ما كان مخربا حتى صار آثارا خالدة

ومحيت من أجله الخطيئة في الارضين (مصر) وبذلك دامت العدالة وجعل الظلم شيئا تمقتهالبلاد كما كان الحال في البداية(٥١) .

لم تكتف المعارضة بالتشهير بأخناتون ، ؤوصمه بالكذب والدنس ، بل سعت

جاهزة لان تحرمه الراحة الابدية ، وذلك عن طريق عدم ذكر اسمه ضمن اسماءملوك مصر الغابرين (القوائم الملكية) ، التي كانت تسجل على الاثار ، كحجرة الاجداد في معبد الكرنك من عهد تحوتمس الثالث وغيرها . وعندما كانت الاشارة الى اسمه ضرورية في الوثائق الرسمية في عهد الفراعنة الذين اتوا بعده كان يسمى « مجرم اختياتون ». ولابراز مدى حقد الكهنة على اخناتون نورد القصيدة التالية :

انك تصل الى من يبغي عليك
والويل لمن يهاجمك
مدينتك تبقى
ولكن من يهاجمك يهوي
وشمس من لا يعرفك تغيب .. يا أمون !
وأما من يعرفك فانه يضيء
ومعبد من هاجمك في ظلمه
بينما جميع الارض في نور(٥٢)

وأخيرا حاولت المعارض ان تنحي باللائحة على اخناتون في سقوط الامبراطورية المصرية في بلاد الشام « واذا أرسل قوم الى سورية لمد حدود مصر لم يكن الفوز حليفهم قط »(٥٣) . ولكن مهما ربطت المعارض بين أخناتون وضياع الامبراطورية المصرية في بلاد الشام فان هذه الادعاءات تبقى للدعاية ضد اخناتون . قام بها اعداء اخناتون أنفسهم ، فقد قامت امبراطوريات في التاريخ مثل الامبراطورية الاكدية ، والبابلية ، والميتانية ، والحثية ، والكاشية ، والاشورية ، والكلدانية ، والفارسية والرومانية ، الاسلامية ، والبريطانية ، وسقطت كلها دون أن يظهر فيها أخناتون واحد. انها سنة الحياة ، طفولة وشباب وكهولة وسقوط .

أما فيما يتعلق بمحاولة اعادة الامبراطورية الضائعة في بلاد الشام(٥٤) ، فقد أدركت المعارضة ، عنف الهزة التي أصابت مصر ، جراء ثورة اخناتون الدينية ، كما أدركت مدى التغيير الدولي الكبير ، فقد بلغت الدولة الحثية ذروة مجدها ، وأقصى توسع لها في بلاد الشام . ولذلك آثر قائد الجيش حورم حب ، الرجل الذي كانت له السلطة الفعلية في مصر ، الاهتمام بشؤون مصر الداخلية قبل السعي لاعادة الامبراطورية ، فسن التشريع ، الذي نظم الادارة والقضاء وشؤون الجيش (٥٥).

وهكذا فقد ملأ اخناتون الدنيا وشغل الناس ، لا في القديم فحسب ، بل فيعالمنا

الحديث أيضا ، فقد كان اخناتون فيلسوفا ملتمسا ومفكرا مبدعـا ، هدتـه ثقافته وفلسفته الى ابداع فكر عظيم . لقد كان فكـر اخناتون ظاهرة مبكرة جدا في تاريـخ الفكر الانساني ، أساسه الوجدانية ، والسلام بين الشعوب ، والصدق في سـلوك البشر ، وحب الطبيعة ، وحب الانسان ، لقد كانت النزعة الانسانية في فكر اخناتون مميزة وواضحة ، فرحمة الله ـ حسب دينه ـ لا تخص شعبا بعينه ،أو أن اللـه يختار قوما ليخصهم بامتيازات على سائر البشر ، جاء كل هذا منذ ثلاثة الاف وثلاثمائة سنة . لكل ما سبق سيبقى أخناتون وفكره في ذاكرة البشرية ، ما دامت الحيـاة ، تكبره وتعجب به الاجيال .

المراجـــع :

١ ـ أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٢ ـ ارمان ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة .

٣ ـ برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ١٩٥٩ .

٤ ـ جاردنر ، مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٣ .

٥ ـ عبـد المنعم عبـد الحليم سـيد ، حضاره مصـر الفرعونية ، الجـزء الاول ، ١٩٧٨ .

٦ ـ محمد أنور شكري ، العمارة في مصر القديمة ، القاهرة .

٧ ـ محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات السورية المصرية عبـر التاريخ ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ .

٨ ـ ويلسون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، القاهرة ١٩٥٥ .

٩ ـ الموسوعة المصرية ، نخبة من الاساتذة .

١٠ — Baeasted, H., Ancient Records of Egypt , Chicago 1906 .

١١ — Gardiner, A., Egyptian Grammar, London 1959.

١٢ — Geotze, A., Shoppiliumash Destroys the Kingdom of Mitanni , A. N. E. T.

١٣ — Wihson, J., Yut - ankh - amon- Restoration after the amarna Revolu tion, A. N. E. T.

الحواشـــي :

(١) Breasted, J, H., Ancient Records of Egypt- Chicago, 1906 .

(٢) حارب احمس الاول في فلسطين ، كما حارب تحوتمس الاول في بلادالشام ووصل الى الفرات (منطقة نهارين) . كما حارب الملك تحوتمس الثالث في بلاد الشام حيث شن عليها سبع عشرة حملة عسكرية ، وقد كانت جيوشهم برية. ـ محمود عبد الحميد أحمد، سلسلةالعلاقات السوية المصرية عبر التاريخ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ ، ص ٤١ـ٨٦ .

(٣) حصل هذا في أواخر أيام الملك امنحوتب III

(٤) للاطلاع على أحوال مصر القديمة قبل أخناتون انظر : محمود عبد الححميد أحمد ، سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر التايخ ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ ، وسيشار اليه فيما بعد هكذا ، محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات .

(٥) تحوتمس الثالث (١٤٦٨ ـ ١٤٤٧) ق.م. من أعظم فراعنة الاسرة الثامنة عشرة ، حيث يعد مؤسس الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . انظر :

محمود عبد الحميد أحمد ،سلسلة العلاقات، (مرجع سابق) ، ص ٦٩ـ١٠١ .

(٦) يرى بعض الباحثين أن اخناتون لم يبدأ العداوة ضد كهنة أمون ، بدليل انه أعلن اثر اعتلائه العرش ، أن الهه أتن ما هو الا « رع حور أختي » (اله الشمس) الذي يتجلى في الافق باعتباره النور الذي في الكوكب أتن . وبهذا قدم اخناتون الاله أتن على أنه اله شمسي ربط الى اله شمسي آخر عظيم ، وهذا شائع في الديانة المصرية مثل (أمون ـ رع) . لكن الكهنة وقد أحسوا بتوجيه ملوك هذه الاسرة الى العبادة الشمسية ، بمحاولتهم تمجيد أتن رأوا في توجه أخناتون نحو الاله أتن خطرا يهدد مصالحهم الاقتصادية ، ويقضي على نفوذهم.

ـ عبد المنعم عبد الحليم سيد ، حضارة مصر الفرعونية ، جـ ١ ، الاسكندرية ١٩٧٨ ، ص ١٩٢ .

(٧) برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٩٩ .

(٨) عمد موظفو الملك الى الارشيف الملكي ، فمحوا اسم أمون . وكذلك عمدوا الى محو أسماء سائر الالهة الاخرى .

ـ محمود عبد المجيد ، سلسلة العلاقات ، ص ١٧٤ .

ـ برستد ، فجر الضمير ، مرجع سابق ، ص ٣٠٠ .

كان أمون اله الهواء ، وكان يعني اسمه « الخفي » وهو في هذا عكس اتن الاله الذي يتجلى للناس يوميا وبوضوح تام .

(٩) ويلسون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٦٢ .

— Gardiner , A., Egyptian Grammar, London, 1959, p. 625.

(١٠) الموسوعة المصرية ، نخبة من الباحثين ، الصورة ٣١٨ .

(١١) سمى امنحوتب الثالث الزورق الذي كان يستخدمه في النزهة مع الملكة في بحيرة قصره بطيبة « اتون يشع » . وبناء على كل ما سبق يرى بعض الباحثين أن نوعا من التعبد كان يقام لأتن في طيبة فعلا ، انظر :

ـ جارونر ، مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

ـ أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٢٠٧ .

(١٢) ارمان ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم ابو بكر ، القاهرة ، ص ٢٠٨ ـ ٢١٦ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(١٣) كان قضاة مصر على الاغلب من الكهان ، وكانت الدعاوى تحفظ وتعد مع مكان حفظها من المقدسات .

(١٤) ان نقل العاصمة يدخل أيضا ضمن اجراءات الحرب الاقتصادية التي شنها اخناتون على كهنة أمون ـ كما سنرى ـ .

(١٥) محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ، ص ٤٥ .

(١٦) أطلق جنود تحوتمس على نهر الفرات اسم « النهر ذي المياه المقدسة » وذلك قياسا على اتجاه مجرى النيل .

— B. A. R., vol, II

(١٧) فيما يتعلق بحروب ملوك مصر . انظر : محمود عبد الحميد أحمد، سلسلة العلاقات، ص ٤١ ـ ١١٥ .

(١٨) انظر المظاهر الدينية في هذا البحث .

(١٩) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ، ص٣٠٤ .

(٢٠) جاء في نص مصري يعود الى عهد « تون عنخ أمون » (الملك الذي حكم مصر بعد أخناتون وارتد عن الاتونية) ، وصف لحالة المعابد في عهد أخناتون كما يلي : « واغلقت معابد الالهة من ـ الفنتين » (أي الشلال الاول) الى الدلتا ...

وهجرت اماكنهم المقدسة ، ونبت فوق دمنها المرعى . وصارت معابدهم كأن لم تغن بالامس وبيوتهم صارت طرقا معبدة ، والبلاد كانت في مأزق سيء . وأما الالهة فقد هجرت هذه الارض .

ـ برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ، ص ٣٣٠ .

(٢١) من أجل حصول الكهنة على حصتهم من الاسلاب والغنائم ، كان يرافق الجيش المصري في غزواته كاتب ـ كان في أغلب الاحيان كاهن تسميه النصوص S'sms'c (كاتب الجيش) . وكانت مهمة هذا الكاتب تسجيل الاسلاب والغنائم ، ولذلك لاحظ الباحثون أن هذا الكاتب ، كان يهتم بتسجيل الاسلاب والغنائم أكثر مما يهتم بأحداث المعركة .

(٢٢) عندما شاهدت الملكة حتشبوت أرباح حملتها التجارية الى بونت ، تبرعت فورا بجزء منها الى الاله أمون . انظر :

— Breasted J., Ancient Records of Egypt. Vol II, Chicago, pp270 ff.

(٢٣) الغى اخناتون عبادة الاله أوزير ، وكان لهذا الالغاء أثر سلبي بعيد المدى في نفوس الطبقات الشعبية المصرية بخاصة . وذلك بسبب المكانة العظيمةالتي يحتلها هذا الاله في نفوس الناس كاله شعبي وكاله رمز لعقيدة المصريين في حياتهم الدنيا ، وفي بعثهم بعد الموت . وقد غزت عقيدة أوزير نفوس المصريين منذ أواخر الاسرة الخامسة ، حيث جعلت هذه العقيدة نصيبا للطبقات الشعبية بنعيم الخلد في دولة أوزير رب الابدية ، بل اعتقد المصريون في عصر الدولة الوسطى ، ان كل متوف سيصبح أوزير في الحياة الاخرة ـ وهنا سوف يتمتع الجميع بنعيم الحياة لا فرق بين غني وفقير أو بين حاكم ومحكوم ، وكان أوزير على راس اثنين وأربعين الهاً يحاكمون المتوفي في قاعة كبيرة .

ـ الموسوعة المصرية ، (مرجع سابق) ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ ٣٦١ ـ ٣٦٢ . عبدالمنعم عبد الحليم سيد ، حضارة مصر الفرعونية، (مرجع سابق) ، ص ١٣٧ ـ ١٤٦ ، ١٩٣ .

(٢٤) برستد ، فجر الضمير ، مرجع سابق، ص٣٣٠ .

(٢٥) ويلسون ، الحضارة المصرية (مرجع سابق)، ص ٣٧٢ .

(٢٦) ربما كانت هذه السياسة نابعة من ثقافة وطبع وفلسفة اخناتون الدينية ، فقد جاء في رسالة بعث بها الى عزيرو الزعيم العموري ما يلي : « أنت تعرف أنني أكره الحرب ولا أريد ان اذهب لاقتل الناس في آسيا ». أو ربما بسبب حربه مع المعارضة ، هذه الحرب التي فرقت الامة الى حزبين كبيرين (حزب الملك ، وحزب الكهنة) ، او ربما بسبب تضليل اخناتون من قبل حاشيته ، اذ يعتقد ان هذه لم تكن مخلصة لاخناتون، وبالتالي فلم تطلعه على حقيقة الوضع في سورية بشكل خاص .

– محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات . (مرجع سابق).

(٢٧) الحثيون من الشعوب الهندو – اوربية . هاجروا الى اسيا الصغرى في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد وتغلبوا على الشعب الذي سبقهم اليها واحتلوا عاصمتها خاتي فيمنعطف نهر الهالس الذي يصب في البحر الاسود ونسبوا اليها.– محمود عبد الحميد ،سلسلة العلاقات، (مرجع سابق) ، ص١٣٠ – ١٣٣ .

(٢٨) الشعب الحوري – الميتاني ، شعب هندو– أوربي ، وصل الى منطقة الجزيرةالسورية في مطلع الالف الثانية قبل الميلاد ، حيث اسس دولته ، واتخذ من واشوكاني (تل الفخيرية بالقرب من راس العينالحالية) عاصمة له .

– محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ، ص١٢٣–١٢٧ .

(٢٩) يعد شوبيلوليوما Suppilumas من أعظم ملوك الامبراطورية الحثية الحديثة. وقد امتدت فترة حكمه من حوالي ١٣٩٠ق.م الى ١٣٥٤ ق.م .

— Pritchard, A.N.E.T., P. XVIII .

(٣٠) Goetze, A., Shoppiliumash Destroys The Kingdom of Mitanni, A. N. E. T, P. 318 .

(٣١) محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات ، مرجع سابق) ، ص ١٦٢–١٦٣ .

(٣٢) تقع جبيل على الساحل السوري الى الشمال من بيروت الحالية ، وتعد من أهم الموانى الفينيقية التي كان لها صلاتتجارية كبيرة مع مصر منذ عصور مبكرة جدا .
أما سميرا « Symura » فتقع على الساحل السوري أيضا الى الجنوب منمدينة طرطوس الحالية ، وربما تل الكزل الحالي.

(٣٣) محمود عبد الحميد احمد ،سلسلةالعلاقات، (مرجع سابق) ، ص ١٦٤ – ١٧٠ .
– استطاع عزيرو أن يسيطر على بيروت بعد جبيل وبذلك امتد حكمه على الساحل من سميرا الى بيروت .

(٣٤) تماثيل الاوشابتي ، تماثيل صغيرة ، توضع مع الميت في غرفة دفنه ، كانت تقوم باجابة الالهة بدلا من الميت عندما يتطلب الموقف، وتسميتها قريبة منالمصدر العربي «اجابة» .
– برستد ،فجر الضمير ،(مرجع سابق)ص٣٣٠

(٣٥) برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليمحسن، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٢٨ .

– برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق)، ص ٣٣٠ .

(٣٦) برستد ،فجر الضمير،(مرجع سابق)،ص٣٣٠

(٣٧) محمد أنور شكري ، العمارة في مصر القديمة ، القاهرة ، ص ٢٠٠ – ٢٠١.

(٣٨) احمد فخري واخرون ،الموسوعة المصرية ، المجلد الاول ، الجزء الاول ، القاهرة ص٧٧ – ٧٨ .

(٣٩) برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق)، ص ٣٣٠ .

(٤٠) الماعت في اللغة المصرية القديمة تعني الصدق أو الحقيقة

— Gardiner , op. eil , P. 567 .

(٤١) محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات ، مرجع سابق)، ص ١٩٧–٢١٣.

(٤٢) يرى بعض الباحثين ان اخناتون كان فيلسوفا ملهما ، وقد هدته ثقافته الى ابداع ديانته . وهكذا فان هذا الابداع لم يكن وحيا الهيا يتنزل على الفقراء الضعفاء كما في الديانات السماوية بل هو اجتهاد بشري، لا يبدعه الا من كان مثقفا ومتعلما .

(٤٣) يقول برستد أن أخناتون اسس في النوبة مدينة لاتون مشابهة لـ « آخت آتن » في موقع العمارنة بمصر ، ومن المحتمل جدا، انه أقام مدينة اخرى لذلك الاله في اسيا ، وبذلك صار لكل من الثلاثة الاجزاء العظيمة التي تتألف منها الدولة وهي مصر وسورية والنوبة مقر لمذهب « أتون ».

— برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ص ٣٠٠

(٤٤) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق)، ص ٣١٢ .

أي الناس ، البشر .

(٤٥) اطلق المصريون على انفسهم تسمية « rmt »

— Gardiner, A. . Op. cit, P.578.

(٤٦) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ، ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

— احمد فخري ، مصر الفرعونية (مرجع سابق) ، ص ٣١٣ .

(٤٧) محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ص ١٧٦ .

— من فحص مومياء الملك توت عنخ أمون تبين انه في التاسعة من عمره حين تسلم عرش مصر القديم .

— محمود عبد الحميد احمد (المرجع السابق) ص ١٧٦ .

(٤٨) تكونت المعارضة ضد اخناتون من كهنة أمون والجيش ، والعاطلين عن العمل ، وكانت السلطة محور الصراع . وعلى الرغم من عنف معارضة كهنة امون لثورة العمارنة ، فقد استطاعت المعارضة العسكرية الوصول الى الحكم قبل الكهنة ، — كما رأينا — اذ كان قائد الجيش حورم حب حاكم مصر الفعلي بعد اخناتون ، الى أن اصبح ملك مصر رسميا . لكن المعارضة الكهنوتية لم تفقد الامل واستمرت تسعى الى الحكم سعيا حثيثا ، الى أن وصلت الى عرش مصر حوالي ١٠٨٧ ق.م ، حيث تولى الكاهن حريحور الحكم ، وبذلك عد مؤسسا للاسرة الحادية والعشرين .

(٤٩) « تحوت عنخ أمون ».

(٥٠) الاله أمون .

(٥١) برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ص ٣٣١. ص ٣٣١ .

(٥٢) القصيدة تخاطب أمون وتشفى من اخناتون والله ومعبده ، (برستد المرجع السابق ص ٣٣١) .

(٥٣) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق)، ص ٣٣٠ . (النص من عهد الملك توت عنخ

(٥٤) تعد بلاد الشام مقدمة لمصر ، كما تعد مصر عمقا لبلاد الشام ، وكل حدث عظيم يقع في احدهما ، فان آثاره تنعكس على البلد الاخر. وقد أدرك المصريون هذه الحقيقة ، لذلك وجدنا المعارضة في أول ايام توت عنخ امون خليفة اخناتون ، تسعى الى انقاذ ما يمكن انقاذه من بلاد الشام ، فبعثت حورم حب قائد الجيش الى فلسطين الحالية وقد حقق بعض النجاح هناك .

(٥٥) احمد فخري ، مصر الفرعونية ، (مرجع سابق) ، ص ٢٣٦ — ٢٣٨ .

حول زيارة امين الريحاني لليمن
وهل كان متنكرا ؟!

د. محمد ثنيان الثنيان

مقدمـــة :

سافر الريحاني الى امريكا صبيا ، وهناك تأمرك ، تجنسا وثقافة . لكنه بفطرته العربية السليمة حن الى ثقافة أبائه وأجداده ، فنهل من ينبوعها العذب ، وعـرف شيئا من أخبار الرحالة الغربيين، المتنكرين غالبا، الذين جابوا أرجاء الجزيرة العربية، فشعر وهو ابن العرب الاقرب والاجدر بجوب ديارهم ، بالغبن والمرارة وغـدا طموح الرحلة حلم يراوده ، حتى تحقق وقام برحلته العربية الكبرى ، والتـي زار فيهـا العراق ، وبعض مناطق الخليج العربي كالكويت والبحرين ، وزار قلب الجزيرة نجد ، وكذلك الحجاز ثم اليمن المعنية بهذا البحث .

الحجاز كتاب مفتوح قراه الريحاني في الصحف العربية والاجنبية قبل قدومه . والعراق ودول الخليج هذه كانت تحت الاستعمار البريطاني، فأخبارها قريبة متناولة، لا جديد ولا غريب فيها . أما اليمن ، فشد الرحال اليها له بريق وتميز لا يعد له الا المسير الى نجد .

اليمن كانت منغلقة ، منعزلة ، وكانت بغية الريحاني التوغل في المجهول .واليمن، جل بقاعها وعرة موحشة ، يكمن فيها الخطر ،وفي هذا اثبات للجسارة والتحدي لديه.

اليمن ، يمن التراث وعبق التاريخ ، كانت وجهة لرحالة غربيين سبقوه اليها ، أكبرهم الريحاني بل غبطهم ، وبذا ، ففي زيارته لها تحقيق لذاته وارضاء لطموحاته في رحلة يطاله منهاصيتا ، وتبقى له ذكرا .

وكانت اليمن أكثر بقاع الجزيرة تخلفا ، وكان حافزه الشخصي مـن رحلتـه العربية تطوير وتنوير اخوته العرب .

ونظرا لارتباطه الوثيق بأمريكا فقد وقفت بريطانيا ــ خوفا من منافستها ــ ضد زيارته ووضعوا الكثير من العراقيل والعقبات أمامه ، حصوصا في اليمن حيث كانت تربض متحفزة على بوابته في عدن .

ولعل إثارة قضية تنكر الريحاني القوي الصلة بهذا التناقض والتنافس لعلـه يلقي ضوءا عليه ، حيث ستكون مسألة التنكر مطية لهذا البحث ، ليس لاهميتها بحد ذاتها فقط ، ــ وان كان المتنكرون هم جيوش الليل الذين مهـدوا للاستعمار ــ وانما لانها ستوصل الى غاياتومآرب اخرى اكبر وأهم . سيقتفي البحث هذه القضيـة ويتابعها ، ويدرس جذورها ، وحقيقتها وصولا الى أسبابها ومسبباتها ، كل ذلك في سياق سيفضي الى حقائق تساعد فيوضع رحلة امين الريحاني لليمن في نصابهـا ومسارها التي كانت من اجله .

في رحلة أمين الريحاني للجزيرة العربية(١)، والتي جاب فيها صحاريها وفيافيها، وجبالها وسهولها ، في هذه الرحلة ، مكانان أو منطقتـان كانتـا بالنسبة لفيلسوف الفريكة صعبة المنال او بالاحرى الوصول اليهما كان من المشـقة بمكان جعل هـذا الرحالة ، وهو الفيلسوف المفكر ، يحار في أمره بل يخشى ويرتاع .

احتار في أمر الوصول الى نجد ، بعد ان حاول من يسيطر على البحار منعه ، ووصلها بعد أن دعاه حاكمها وسلطانها ، وسهل له ما توعر وتعسر من الدرب اليها(٢).

أما اليمن وجبالها وسهولها فكان له معها قصة اخرى ، قصة حفت بها المخاطـر في جل جوانبها ، غير أنها لم تخل من مسرات مفرحات في جوانب اخـرى . واجـه الريحاني في رحلته لليمن معظم الصعاب والعقبات التي يتوقع أن يواجهها رحالة غريب عن البلاد مثله . وواجه من الاجـواء وأحوال الطقـس وتقلباتـه : من بـرد وحـر ما كان متناقضا تماما ، جمع بين حر الاستواء وبرد شتاء لبنان ، كما قال ، في ساعة واحدة ، ومن الدروب ماكان اشد تناقضا في علوه وهبوطه ، صعد الى سطح اليمن على جبال كبوعان وحراز ووسل ، جبال لا يسمع فيها الا صفير الرياح الباردة التـي لا تنبىء الا بزمهرير الشتاء وبرده القارس . وهبط الى أسفل اليمن بل الى قبـوه وجحيمه، حيث سار في شعاب ووديان كمفحق وحجام ، حيث أشعة الشمس الحارقة يعاونها هواء الاستواء الحار(٣) .

من سمات رحلته الى اليمن ايضا ، الغموض والمجهـول ، وبالتالـي الخوف والرعب . أجل لقد كان للريحاني مواقف في هذا الشأن تذكر لتكتب ، ان رحلته في

... .

اليمن لقصة طريفة فيها من المدهشات الكثير ، ومن المفزعات اكثر ، جلها ومعظمها معروف رواه الريحاني في كتبه ومؤلفاته ، وطرفا آخر منها لا يزال طي الكتمان ستروية الوثائق الامريكية .

التنكر :

يقول القنصل الامريكي ، في عدن (ريموند ديفز) في تقرير رفعه الى الخارجية الامريكية بواشنطن بتاريخ ١٩٢٢/١١/٢١ ما يلي :

« الان أصبح من الممكن أن أعطي وصفا لزيارة أمين الريحاني لامام اليمن ، كما رواها الشخص الذي رافقه في الرحلة .

« مباشرة بعد مغادرة«ماوية» النقطة الاولى في حدود الامامعلى تخومالحواشب، تقمص الريحاني أجواء الدين متنكرا بشخصية سيد ، لقب تحمله سلالة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وطلب من صديقه قسطنطين بأن يدعي أنه تركي ، ومع أنه قد نصح منقبل ابن الوزير حاكم الامام على ماويه ، والذي يعرف كل شيء عن الريحاني والغرض من زيارته ، أن يترك عنه الخدع ويظهر ويسافر كمسيحي . لكنه مع ذلك ، سافر كسيد ، حتى وصل صنعاء ، حيث كشف الامام ، حالا شخصيته الحقيقية »(٤) .

ويبدو أن هذه الرواية ــ ضمن غيرها ــ أتت مكتوبة للقنصل اما بواسطة هذا المرافق نفسه أو بواسطة شخص آخر ولعله احد الموظفين في القنصلية حيث ان سياق هذا التقرير بعد ذلك يوحي بهذا .. « ويظهر ان التقرير أيضا يؤكد الشائعات السابقة والتي تقول بأنه .. » .

فالقنصل الامريكي اذن تلقى تقريرا مكتوبا يفيد بأن الريحاني قد تلبس بالدين منتحلا شخصية سيد من السادة مخفيا بذلك شخصيته ودينه الحقيقي ، وبالرغم من نصح أحد المسؤولين اليمنيين له بعدم التنكر فقد استمر على هذه الحال حتى وصل صنعاء حيث كشف امام اليمن يحيى حميد الدين أمره .

فنحن اذن أمام وثيقة رسمية تفيد بأن الرحالة أمينالريحاني قد اخفىشخصيته ولبس قناع شخصية أخرى وعليه، فقد تنكر مثله مثل اكثير منالرحالة الغربيينالذين سبقوه الىالجزيرةالعربية(٥) . ولا شك في ان مثل هذا القول ، أو الرواية التي تبديها

هذه الوثيقة ليعد امرا جديدا ، بل ومستغربا . ويقينا ، ان القارىء ، وخصوصا ، القارىء العربي سيقف مشدوها أمام رواية كهذه ، لان ما عرف وما اشتهر عن أمين الريحاني ، حتى الان ، سواء في مؤلفاته وكتبه هو نفسه ، أو في المؤلفات الاخرى، انه خلال رحلته في الجزيرة العربية كلها ما تنكر ولا استبـدل شخصيته بغيرها ولكن ، ايضا ، ومن ناحية اخرى ، فالوثيقة تقول بالحرف الواحد كما تقدم : « .. كما رويت من قبل شخص رافقه في الرحلة « فناقل خبر تنكره ، طبقا لهذه الوثيقة ، شاهـد عيان بل وأكثر من ذلك ، مرافق له في الرحلة » .

ــ فهل يا ترى فعل الريحاني هذا ؟

ــ هل تنكر ؟. وهل كان هناك ضرورة لان يخفي شخصيته الحقيقية ؟..

للاجابة عن هذه الاسئلة لعل الامر يقتضي متابعة فيلسوف الفريكة في رحلتـه اليمانية هـذه ، واقتفاء أثره ، خصوصا مـن النقطة التي ذكرت فيها الوثيقة بداية تنكره ، وهي بلدة ماويه أو بلد في حدود الامام يحيى حميد الدين .

التحذير والتصميم :

قدم الريحاني من مصر ، ووجته الجزيرة العربية ، ميمماً مدينة جدة ، حيث هناك صديقه قسطنطين يني(٦) . ومع رفيق رحلته قسطنطين هذا ابحر جنوبا الـى عدن . عدن !؟ لله انت يا عدن! كانت على الريحاني جحيما لا يطاق . في نيويورك ، حذره يماني ونهاه عن زيارة اليمن ، وهول له الاخطار ، وبالغ فيها(٧) ، وفي مصر كان قول الاديب نعوم شقير ، ضغثا على اباله ، زيادة في الفزع والخوف(٨) أما عدن فقـد كان فيها التهويل لا الهول نفسـه ، حيث كان لاهل الحول والطول في عدن ، الانجليز مع الريحاني التخويف والتحذير قصة طويلة يقول القنصل الامريكي في أحد تقاريره : « بعد زيارة مصر مر الريحاني على جدة وقابل الشريف . بعدئذ ، قدم هو و يني الى عدن ، حيث أعطيا أذنا ، على مضض ، بزيارة اليمن ، وأحلت الحكومة (حكومة عـدن البريطانية) نفسها من تبعات كل المسؤوليات عن أي شيء قد يحدث لهما في الرحلة»(٩).

الانجليز لم يكتفوا باخلاء مسؤوليتهم عن اي خطر قد يداهم الريحاني ورفيقه في رحلتهما لليمن ولكنهم تعدوا ذلك الى تحذيره .

هو ذا أمين الريحاني في دار المفوضية البريطانية في عدن ــ عندما أتى اليهـا طالبا الاذن بزيارة اليمن ــ في حوار مع الجنرال سكوت ، الوكيل البريطاني والحاكـم المدني والعسكري في عدن . وبعد مقدمة في حديث من الشعر والادب قال « فجهرت

بقصدي فقال : أو لا تهمك الاخطار ؟ فقلت : هي لذة الاسفار . فقال : ولكن في السفر الى اليمن خطرا أكيدا ، خطرا كبيرا على المسيحيين ونحن لا نستطيع ان نحميك في ما تجاوز حدودنا .

فقلت : يا حضرة الجنرال . . . فاذا كنت لا اطلب الحماية من حكومتي ايجوز لي ان أطلبها منكم ؟ . . اني مسافر الى صنعاء يا حضرة الجنرال وليس لي مهمة سياسية . لا علاقة لي بأي حكومة من حكومات العالم . . . وأني أجهر امامك وأمام قنصل اميركا بذلك لعلمي أننا كحكومة وكأمة لا يهمنا اليمن ولا مطامع لنا في البلاد العربية . .

فقال الجنرال ، . . . أما السفر الى صنعاء فهو كما قلت محفوف بالاخطار وخصوصا اذا كان المسافرون مسيحيين . فاذا أذنا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤولين قطعا عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود »(١٠) .

سكوت العارف ببواطن الامور يؤكد له وجود خطر في اليمن لا مفر منه ، ان هو صمم على السفر اليه . ولكن لا تلين قناة من كانت الاخطار هي لذة الاسفار لديه ؛ كانت اجابة الريحاني ، كمن باع نفسه لهذا الخطر . . . « فقلت وهل تريد أن أكتب لكم صكا أتنازل فيه عن حقوقي بل عن حياتي ؟ فضحك ، ثم سكت ، ثم وقف قائلا : سأنظر في الامر وأكتب اليكم قريبا »(١١) .

وبالفعل فقد نظر سكوت في الامر ، ولكن مليا ، وبكل تـؤدة واحتياط . فبعد استقصاء واستفسار عن الريحاني وهويته والغرض من رحلته، خصوصا من واشنطن، كما نصت على ذلك وثائق الخارجية الامريكية ، وأقوال الريحاني أيضا(١٢) ، أرسل اليه الانكليز خطابا أو بالاحرى صكا . نعم اذا كان الريحاني قد وعد الانكليز بكتابة صك يتنازل فيه عن حياته ، فما بخلوا عليه هم ، بدورهم ، بصك يعلنون فيه البراءة التامة من هذا الذي يريد أن يزج بنفسه في أتون خطر محدق . تسلم بعد طول انتظار خطابا من ريلي المعاون الاول للحاكم البريطاني بعدن هذا نصه : « قد كتب الحاكم الى سلطان لحج يسأله أن يرفقكم انت وقسطنطين يني بالحرس الى حدود حمايتنا عندما تزمعون الرحيل . ولكنه رغب الي أن اعلمكم بأن البلاد في اضطراب ، وأن السفر فيها خطرا على المسيحيين، وانه وان كان قد سأل السلطان أن يرفقكم بالحرس الى الحدود فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة . وليكن معلوما لديكم بأن الحاكم غير مسؤول البتة عما يحدث لكم . . . »(١٣) هذا هو خطاب الموافقة أو الاذن على مضض الذي أشارت اليه الوثائق الامريكية . حيث غسل الانجليز أيديهم من الريحاني ورفيقه وتبرؤا منهما ، ونتيجة لهذا فقد داخل الريحاني ، ولا شك ، شيء من الفزع والرعب

من المصير المجهول ، وهو ، الى حد ما ، محق في هذا ، كيف لا ، وهو مقبل على بلد أهله كلهم مسلحون ويتحاربون أولا ثم يستفسرون بعد ذلك عن سبب القتال ! هكذا حدث الريحاني سيد من سادات اليمن(١٤)وللريحاني ، في التاريخ ، سابقة وعبرة. الم يبتلع اليمن قبله بعضا من الرحالة ؟ وما قصة هلاك الالماني (سيتيزن)(١٥)
عن مخيلة رحالة العرب وفيلسوفها ببعيدة . ولكن هذا لم يجد سوى رحالة جسور . سافر بعد أن ترك وراءه عنوانين،في بيروت وفي نيويورك لينعى على الاقل الى اهله(١٦). واذا كان هذا قدر الريحاني ، فمن ذا يرد القدر ؟ قال : « لست أدري وأنا أعيد ذكرى تلك الايام ما الذي تغلب فيّ على ذلك الترويع اذا لم يكن ثباتي على أحد أمرين وهما ثقتي التامة بأخواني العرب وعزمي على انجاز ما باشرته من السياحة الدراسية »(١٧).

ما خاب ظنه باخوانه العرب، ولا خذلوه ،في ثقته التامة بهم . . .» ولكن كلمة قالها القاضي عبد الله العرشي بصفته الرسمية ــ اذا لم يكن الامن موجودا فنحن نوجده من أجلكم ــ وكلمة كتبها تطردان كل ما تهافت على آذاننا وتزاحم في قلوبنا من كلمات الترويع والتهويل »(١٨) . فالكلمة التي قالها العرشي هي تأمين الامن والحماية ، حيث أحاطه اليمنيون بحراسة قويه لحمايته في الطريق الى صنعاء . أما الكلمة التي كتبها العرشي في خطاب التوصية الذيحمله الريحاني معه الى الامام . وكانت تلك الكلمتان بالاضافة الى رسول العرشي الذي ندبه مع الريحاني مرافقا له في رحلته وخطاب التوصية والتعريف الذي كتبه أيضا الى أمير ماويه ، وحمله الريحاني أيضا معه ، كانت كلها معا المصباح المنير والنبراس الهادي لفيلسوف الفريكة في رحلته حتى صنعاء(١٩). وكان العرشي أيضا قد أخبر الريحاني كتابيا بموافقة الامام على الزيارة(٢٠) .

المسير الى صنعاء :

استقل الريحاني من عدن قطارا بخاريا قديما ، متجها الى لحج(٢١) ، حيث مكث فيها اسبوعا(٢٢) في ضيافة سلطانها عبد الكريم فضل(٢٣) ينتظر موافقة الانكليز على امداده بالحرس اللازم حتى نهاية محمياتهم وبعد مماطلة شديدة ، تم له ما أراد(٢٤) . فغادرها في سيارة صغيرة الى الدكيم ، آخر نقطة في حدود سلطنة لحج من الشمال حيث كانت القافلة ، ومعها الحرس ، تنتظر الريحاني فتحركوا نحو المسيمير ، قاعدة بلاد الحواشب واستقبل فيها من قبل سلطانها الذي أكرم وفادته وزوده بحرس حتى ماوية . وكان الريحاني قبلا ، قد توقع الخطر كل الخطر في هذه المنطقة لكثرة ما حذر منها. وما وقع فيها من أحداث دموية قبيل مروره بها ، ولكن على عكس ما توقع فقد كان له مع الحواشب قصة في الكرم عجيبة غريبة ، نسيها بعد أن استجد عليه أغرب منها(٢٥). قال فيلسوف الفريكة ، مخاطبا زوجة السلطان :« أكثر الله أيتها السلطانة من فخارك،

وجعلنا السنة فخارك ... كيف لا وأنت السـيف في اكرام الضيف ... تروعين أيتها الحوشبية الالمعية ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضع اعجابنا حتى في بلاد الزيود ، ... وقد تنسى الغريبة الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت في ماويه أول بلد من بلدان الزيود ... دخلناها في أصيل ذلك النهار ...(٢٦) .

ماويه ، النقطة الاولى في حدود امام اليمن ، وهي بالتأكيد العتبة الاولى في سلم ضيق صاعد متعرج موحش لكن في النهاية يفضي الى بيت القصيد ؛ الى صنعاء .

مسألة ايقاف الريحاني :

ولكن يا ترى ما هي غريبةماويه الجديدة تلك التي أنسته غرائب الحواشب . اهي تلك التي أشارت اليها احدى الوثائق الامريكية ؟

القنصل الامريكي (ريموند ديفيز) في تقريره السري :

وبعد أن أورد الشق الاول منه ، وهو عبارة عن حديث للقنصل مع الريحاني نفسه وما قاله عن رحلته لليمن قال القنصل :

« والحكاية ، طبقا للرأي العام المحلي في عدن مختلفة تماما ... بعد المكوث اسبوعا كضيوف لدى سلطان لحج ، واصلا الى ماوية ، والتي هي النقطة الاولى في حدود الامام . هنا ، أوقفا حتى أتى الامر من الامام ـ والذي استلم أخيرا ، عن هذه الرحلة المرتقبة ، رسالة من العرشي ـ بأن يتركا ليتابعا »(٢٧) .

طبقا لهذا التقرير ، اذاً فالريحاني ورفيقه قسطنطين يني ، هنا ، في ماوية قد أوقفا . والعبارة الانكليزية التي استخدمتها هذه الوثيقة لـ « أوقفا » هي : They Were Held والتي تتفاوت فيما تعنيه من مجرد الاعاقة ، والتوقيف،الى الحبس والاعتقال، فهل تعرض فيلسوف الفريكةلواحد من معانيها المرة؟هل حبس حقيقة أو سجن في ماوية ؟ أو اذا أحسن الظن بأخوته العرب ، هل على الاقل ، أوقف أو سئل؟

ماوية مجلس ابن الوزير :

وقبل مناقشة ما جاء في هذه الوثيقة والتي قبلها ، حري بنا أن نرافق الريحاني في ماية ، لنطلع أولا على ما جرى له فيها .

قال وهو على مشارفها ، بأنه سمع صوتا جميلا شنف أذنيه ، وكان لشدوه وقعا في طريق موحش وعر ، ولما شد ورفاقه في الصعود وبلغوا العقبة من الجبل ، تبينوا جنديا على سطح ، ومعه البوق ينفح فيه،ترحيبا بقدومهم باسم امير الجيش في ماوية: ابن الوزير . قال الريحاني : « وكانت فاتحة الالطاف »(٢٨) وكان لفاتحة الالطاف هذه ألطاف أخرى تبعتها .

اقول قبل سرد هذه الالطاف، انه قد أجري له في ماوية استقبالان، أو على وجه الدقة استقبال ذا وجهين أحدهما جرى خارج القصر وكان مفرحا مبهجا ، كان متمم الالطاف . اجل لما دنا الريحاني من القصر سمع فرقة الموسيقى العسكرية تصدح بالنشيد الوطني اليمني . كما رأى فرقة اخرى من جنود النظام مصطفة خارج السور للاستقبال ، وكان في مقدمتها ضابط تركي ، ممن تبقى من عسكر الدولة العثمانية من اولئك الذين غدر بهم الزمان وسفى عليهم التراب فترجل الريحاني ورفاقه من على ظهور بغالهم ليردوا التحية بمثلها . ودخلوا فناء القصر ومشوا بين صفوف من عساكر اليمن المسترسلي الشعور ، واللابسين القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل ، وكانوا مسلحين بالبنادق والجنبيات. وكان يتقدم الريحاني ورفاقه، كاتب سر الامير واثنان من رجاله حتى وصلوا باب القصر حيث أوقفهم الحارس الذي نادى بكلمة ، حارسا آخر داخل القصر فجاء الجواب بالدخول(٢٩) .

دخل القصر ، فبدات مراسم استقبال من نوع اخر ، الوجه الثاني للاستقبال ، يبدع وصفه من أجري له وعاينه وعاناه، قال فيلسوف الفريكة : « دخلنا وكانت بداءة الرعب والكرب ، صعدنا في درج لولبي ، مظلم ، ذكرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها دكة ، وعلى كل دكة واحد او اثنان من ذوي الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ، التي تفوح منها رائحة النيل الطري السائل كذلك في أجسامهم كنت وانا اتلمس طريقا اتمثل القلعة بل السجن في ذاك القصر واتصور نفسي اسيرا فيه ، فجاء الاضطراب مع التقزز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري »(٣٠) .

عندما دخل هذا القصر أو على الاصح هذه القلعة ، قال بأنها كانت بداية الرعب والكرب والامر لا شك كذلك ، فقد أفضى به المدخل الى درج لولبي ملتو مظلم ذا ردهات بها عسكر مسلح . منظر بالتأكيد لا يسلم الا الى التوجس والترقب خوفا . وكان مضطربا ولا لوم . وتخيل نفسه اسيرا في هذه القلعة أو السجن . فهل كان في غير الخيال كذلك ؟ هل اوقف أو سجن في ماوية ، كما روت الوثيقة ؟ وتكون هذه القلعة الحصينة المنيعة المظلمة المكان المشئوم ؟!

ولكن ليكمل الريحاني قصته مع هذه القلعة أو القصر فما سيأتي كان أدهى وأمر ، وكما كان هناك فاتحة الطاف فهنا فاتحة على نقيضها : « وما هي الا فاتحة الكروب ، فعندما وصلنا الى الطابق الاخير أوقفنا الحارس ثانية أمام باب صغير ، ثم دخلنا فاذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة الا واحدة منها ، وهواؤها وقد امتزج بالدخان الكثيف الفاسد ، وأرضها مفروشة بالقش والحشيش ، والى جانب الاربعة حيطان عمائم بيضاء كبيرة ، أصحابها جالسون على الارض صفوفا ملزوزة ، وكلهم في تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون وفي الزاوية عند منضدة صغيرة ، الى جانبها مداعة ، بين أكمة من الاوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا اليه كاتب الاسرار ، فعرفنا انهالسيد الامجد على بن الوزير(٢١) أمير جيش الامام في لواء تعز .

صافحناه وهو جالس كأنه احد ملوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فأشار الى فتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ، وكان كل من أولئك الاجلاء المحترمين ينظر الينا شزرا كأنه يلتمس لنفسه عذرا من مجرد النظر ، وما أظن أننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح أو التساهل(٢٢) .

ان الداخل على مجلس كهذا ، سيصاب ولا شك بالانقباض والتوتر ، خصوصا اذا سلك طريقا لا يقل هيبة عن هيبة ورزانة هذا المجلس الموقر ! واذا قوبل الضيف القادم بشيء من عدم الاكتراث وحرم بعضا من حقه لياقة الاستقبال والتوديع ، ومن أبسطها النهوض له والبشاشة في وجهه عند المصافحة ، وما حظى الريحاني الا بالاخيرة منها ، فانه ولا شك سيزداد وحشة على وحشته ، ولكن كما قال الريحاني: « في مجالس القات تقل الترهات »(٢٣) .

ولكن عدم الاكتراث يهون عند الاحراج ، ذلك الاحراج الذي ضاهى الاستجواب. وأين ؟ في غياهب قلعة موحشة كالسجون . ففيلسوف الفريكة بدل أن كان الضيف المحتفى به غدا الغريب المجهول المشكوك في أمره أو بالاحرى قد فهم خطأ وفي الحالتين هو الريب الذي لا يقين فيه ، « هل أنت حسني أو حسيني ؟ » .

لندعه يتولى زمام الحديث عن موقفه هذا العصيب وما لاقاه فيه من مباغتة ومفاجأة ، قال : « بعد ان سلمنا على الامير قدمنا له كتابا من القاضي عبد اللهالعرشي وفيه يعرفه اما خطأ واما تلطفا ، الى السيد أمين الريحاني ، فظنني حضرته من أشراف المسلمين واراد ان يعرف الى أي الفرعين أنتسب ، فسألني قائلا : هل انت حسني أو حسيني ؟.

وقع السؤال عليّ كالصاعقة ، فبلبل الخاطر مني لاول وهلـة وعقل اللســان ، فجالت في ذهنــي بل جرت كمجرى البرق وصور كلهـا ســود تنذر بالبــلاء ، أفلم ينذرنا الانجليز بالخطر على المسيحيين ؟ افلم يحذرنا عرب عدن ولحج من الزيـود المتعصبين ؟ وها نحن في مجلس اميرهم وعلمائهم ، وفي قلعة ظلماتها كظلمات الســجن او اشد ، وروائحها مثل نظرات اصحاب العمائم بل أحد ، ولا تزال والحمـد لله في بداية الرحلة ، وهل انت حسني أو حسيني ؟ »(٢٤) .

من عظم الصدمة صار فيلسوف الفريكة يحادث نفسه وكأنه يهذي حاشا ماكان يهذي ، بل كان يحاول ان يهدي نفسه الى مخرج سليم منج من هذا المأزق . وهــو يحاور نفسه ،كان كغريق يبحث عن قشة لينجو بها ،وهذا طرف منه :«جاوب يافتى. هل تكذب على الامير فتنتسب ، اذكر اني في خمس لحظات غيرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحســين ، الى دروين . امـا اذا اكتشف الامير بعدئذ حقيقة دينك ـ اصدقه بالخبر يا رجل ولكن ـ هل تعلـن امام الجمع الزيدي الرهيب مارونيتــك او مسيحيتك أو درزيتــك ، قد يوقفونـك فيأسرونك . .

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهرباء ، وانا اثناءذلك اسير خوف اشد من خوفي ساعة اطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور»(٢٥) .

جرت هذه الصدمة في أعماق فيلسوف الفريكة ، مجرى الكهرباء حتى قبل ان عرف اليمن عصر الكهرباء ! ولكن يظل السؤال هو الســؤال كيف تخلص من هــذا الموقف الحرج ؟ هل كذب وانتسب ؟ أم صدق واحتسب ؟ والصدق منجاة . أم انه وهو بين جمع ربما ضم بين صفوفه غلاة متعصبين ، لاذ بالمدارة فوارى ؟ أجل دارهم ما دمت في دارهم . هل فعل هذا وحدثهم من الامر ما يعقلون ؟ راغ الفيلسوف الــى عمله ، الى فكره ، فما وجد سوى ذاكرته وبديهته منجدتان مسعفتان . قال كلمة ، وان كانت ليست كل الحقيقة ، الا انها كانت صافية صادقة وأمينة ، واردفها ببيت من الشعر كان فيه التأييد والتعضيد . قالالريحاني ، وهو يتــوق الى الخلاص : « ولكنه سبحانه ، بعد أن غيرت فكري خمس مرات في خمس لحظــات ، فتح عــلي فقلت مجيبا : انا عربي يا حضرة الامير ، احترم كل المذاهب الاسلامية ، واحب كل العرب ، واتمثل دائما في مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكل ربــع مــن ربوعك حرمــة   وهوى تغلغل في صميم فؤادي(٢٦)

هل اقتنع ابن الوزير بهذا الجواب أو فهم مغزاه ؟

يقول الريحاني في هذا الصدد : « اظن ان الامير استحسن الجواب او انه احسن امام العلماء المداراة »(٣٧) .

« استحسن الجواب » الاستحسان ، ولا شك ، درجة من درجات القبول ، وليس القبول كله . و « احسن المداراة » فكما كان الريحاني لبقا مداريا في اجابته ، فعل ابن الوزير كان أيضا كذلك ، ولكن القبول التام لم يحن بعد . ويقيض الله لـه رجلا مال اليه قلبه مذ رآه أول وهلة، فكان له في هذا المجلس ، نعم النصير وخير المعين . قال الريحاني : « وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بشّ لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه في سلامة ، وتبادلنا واياه الثقة والولاء . فقال يعقب على جوابي مخاطبا الامير : حضرته من سادات لبنان .

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والاقتناع وغير الحديث . .(٣٨) . أخيرا افتنع الامير ، أو على الاصح تبين له أمر الريحاني وشخصيته الحقيقية . وقد جاء هذا صراحة ، فيما بعد ، على لسان الريحاني حيث قال ذات مرة وهو في صنعاء : « وبينا انا افكر ذات يوم في ما أقول لمولاي الامير في ماوية وقد سألني احسني انت أم حسيني ، وعرف بعدئذ اني مسيحي . »(٣٩) .

أيد هذا وأكده ختام هذه الجلسة ، كان ختامها مسك ، الصلاة ، حان وقت المغرب . فاستأذن ليغادر ورفيقه قسطنطين المجلس ، فما عجبه الامير ولا دهش لذلك، وفي هذا اشارة لمعرفته باختلاف الدين ، حيث لم يطلب منهما البقاء لمشاركتهم صلاة الجماعة . قال الريحاني : « ثم قلت وأنا أتوق الى الهواء : قد يريد الامير أن يصلي المغرب . فأذن لنا بالانصراف وأمر كاتب سره ورجاله أن يصحبونا الى المضيف، ويعتنوا بأمرنا . صافحناه مودعين فلم يقف لنا ولا وقف أحد من العلماء »(٤٠) .

غادر المجلس بعد أن أنعم عليه في أول الجلسة بلقب ما برح أن فقده في آخرها ولكنه فاز من الغنيمة بالاياب خلص من المجلس خلاصا عده فوزا مبينا . وغادر الى حيث قصر الضيافة ؛ قلعة أخرى ، شاهقة مظلمة . وناما فيها تلك الليلة .

هل أوقف الريحاني فعلا في ماوية ؟

هنا وقد أشرف على مغادرة ماوية يجدر مناقشة ما جاء في تقرير القنصل الذي قال فيه بأنه قد أوقف فيها .

بالقاء نظرة عليه في هذه البلدة وخلاصة ما حدث له فيها وانطباعاته عنها ، يلاحظ انه ما كان أبدا مرتاحا ، ولا هدأ منه البال ، بل كان منقبض النفس مضطرب الخاطر ، ولعل ذلك راجع الى سببين :

الاول – أنه عندما أشرف على ماوية ووصلهـا ، كان أصـلا مهيئـا نفسيا لأي اضطراب أو قلق ، كان مهيئا نظريا وواقعيا . نظريا ؛ مـن نيويورك مرورا بالقاهـرة وعدن وحتى لحج ، كلها نذير وتحذير ، عن اليمن وجبال اليمن ، حتى تشرب هـذه الافكار وتسللت الى أعماق نفسـه ، فتوقع أن يد المنون أقرب اليه من حبل الوريد .. واذا كان هذا عن اليمن عموما ، فقد كان يحمل فكرة سيئة سوداء عـن علي بن الوزير نفسه(٤١) . أما واقعيا ، فقد واجه الخطر أو ما اعتقد ، خطأ ، انه الخطر ، في بـلاد الحواشب ، وكان كما تقدم قد حذر كل التحذير منهم ومن ديارهم .

الثاني – احداث ماوية فبعد انتهاء مراسم الاستقبال خارج القصر ، وبمجرد أن دلف الى داخله ، بدأ الاضطراب والقلق يعود اليه ويزداد كلما توغل في صـعود ذلك الدرج المظلم حتى كانت طامة الختام في ذلك المجلس غـير المريح أبـدا ، والذي بـدا فيـه متوتـرا .

لا شـك أن هـذا المجلس المريـر ولد وحشة بينه وبين الامـير بل بينـه وبين البلـدة عموما .

بيد أن ما قالته الوثيقة عن أنه قـد أوقف أو حبس فيها أمر لا أساس له مـن الصحة ولا تؤيده أحداث اقامته التي بدأت وانتهت بشكل عادي وان شابها ، كمـا تقدم ، بعض المواقف المحرجة والالتباس ، فهناك عدة عوامل سـتذكر لاحقا ، تنقض ما جاء في هذه الوثيقة .

الريحاني . لماذا حسني أو حسيني ؟!

وبعد أن غادر تلك القلاع والحصون ، واصل الريحاني السير والتصعيد في جبال اليمن السعيد ميمما شطر مدينة قديمة عريقة ؛ مدينة اب .

ولكن قبل أن يوغل في السير والسرى يقتضي الامر التريث للنظر في الوثيقة التي قالت بتنكره بشخصية سيد ، هنا عند مغادرته ماوية .

وقبل هذا ، ولما يبدو بينهما من ارتباط وصلة ، قد يسأل المرء نفسـه لماذا سأل ابن الوزير ، الريحاني ذلك السؤال المحرج ، هل أنت حسـني أم حسـيني ؟ مع علمـه ومعرفته التامة به وبرحلته ؟

هل بدر منه ، مثلا ، قول أو عمل أوجب مثل هذا السؤال ؟ الريحاني ، كما تقدم ، أجاب بأن الامر التبس على ابن الوزير ، بعد أن قرأ خطاب توصية العرشي به والذي لقبه فيه ، اما خطأ أو تلطفا ، بـ « السيد » فظنه من أشراف المسلمين وأراد أن يعرف الى أي الفرعين ينتسب الى الحسن أم الحسين ، وهكذا كان . وهذا كلام معقول مقبول الى حد ما ، فالمرء أحيانا ، مهما كان عنده من معرفة واطلاع مسبق ، يتجاوب مع حاضره ، مع ما قد يباغته ، فلعله سؤال كان عفو الخاطر واللحظة عابرا ، معبرا عما تبادر الى ذهنه عندما قرأ هذه العبارة ، « السيد أمين الريحاني » فجاء سؤالا تلقائيا ما أعطاه عمقا لا في التفكير ولا التذكر ضاربا صفحا عما لديه من معلومات لعلها تشوشت بهذه المفاجأة ، ولعل كلمة « سيد » تفاعلت مع ما كان متخمرا ومترسخا في فكرة من عرف وتقليد .

نعم ألم يكن آنذاك ، جل كبار أهل اليمن ، بل وكل زعيم ، في أغلب الحالات ، سيد من السادات ؟ .

ثم ألم يكن أمين الريحاني ، في تلك المناسبة ، له شأن ومقام رفيع ، كيف لا . وهو الضيف والزائر لكبير السادات هناك ، لامام اليمن . ثم ها هو ذا سفيره وممثله في عدن يلقبه فوق بالسيد . فلعل ابن الوزير فهمه وأخذه مأخذا قريبا من تصوره وما اعتاد عليه ، سيد من السادات . ويزيد في هذا الالتباس غموضا كون الريحاني عربيا ، فما الفرق ؟ هذا ، بالاضافة الى احتمال آخر ، فلعل المعلومات التي وصلت الى ابن الوزير ، عن الريحاني ، لم تشر الى دينه ، وهو أمر عادي ، بل اشارت فقط الى فضله وريادته في حب العرب ووحدتهم ، وما جاء في خطاب توصية العرشي به الى الامام مثال على ذلك(٤٢) .

فهل يا ترى هذه الامور جميعا ، متداخلة ، حامت على رأس الامير في ساعة من مجلس القات ، فجادت قريحته بهذا السؤال ؟ وأنت سيد من السادات فالى أي منها يا فتى تنتسب ؟ وعادة الانتساب ، في الجزيرة العربية ، أمر معروف ومألوف ، فعادة ما يسأل المضيف ضيفه الى اي قبيلة أو فخذ ينتسب وأحيانا ينتسب الضيف من تلقاء نفسه ولا غضاضة في كلتا الحالتين . ولعل ابن الوزير في سؤاله ذهب هذا المذهب، فبعد أن تصور خطأ أنه سيد أراد أن يعرف ، فقط ، الى أي فرع يرجع . والريحاني، وهو بعد حديث عهد بالجزيرة العربية وطباع أهلها ، حيث كانت رحلته الاولى اليها ، ربما جهل هذه العادة فكبر عليه السؤال وضاق به ذرعا . فأتت برقية ابن الوزير ، التي قال الريحاني أنه تلقاها منه وهو في اب(٤٣) والتي أعلن فيها أسفه لفراقه ، مشيرة من طرف خفي الى أسفه أيضا عما بدر منه تجاه الريحاني في مجلس القات ذاك ، وسؤاله الذي كان في غير محله .

والخلاصة ، أن الريحاني خلص من ذلك المجلس ، بل من ماوية كلها بشخصيته الحقيقية ، التي لا لبس فيها ولا تنكر . أما ظن ابن الوزير ، وفهمه الخاطىء ، في أول المجلس ، أياً كان ، فهذا شأنه ، ولا دخل للريحاني فيه ، حيث لم يدعِ ، ولم ينتحل اي شخصية اخرى حتى الان .

في الدرب بعـد ماوية

أما حاله وهو يغادر ماوية حيث بدا بالتنكر طبقا للوثيقة ، فقـد كانت ، والحق يقال ، حال لا تسر الخاطر ، جللتها الكآبة ، وحف بها التعب والسأم من كل جانب، وهاكه يصف طرفا منها : « سافرنا في اليوم التالي عند الغروب راكبين البغال . . . مصحوبين بحرس مـن جنود الامير . . فتهنا في ضوء القمر سـاعة عادت فيهـا الي الاحلام ، وأناعلى ظهر الدابة شطران ، شطر نائم وشطر يقظان ، فكانت تدور الارض تحتي بما فيها وتمر بي الاشجار كأنها عرائس من الجن . وكنت اسمع القسطنطين يناديني فأظنه في قارة وانا في اخرى ، ثم رئيس القافلة : هده هي الطريق ، ثم احد الجنود : هداك الله يامقدم ،فيخيل الي اني في أرض غريبة الظل والسراب ، فيهـا اشباح تتكلم العربية »(٤٤) .

واصل فيلسوف الفريكة على حالـه البئيسة هذه ، السـير ، بل السرى حتى وصل الى قرية « الشيخ صلاح » في الساعة الثانية بعد منتصف الليل وقد أخذ منه التعب والجوع كل مأخذ،فنام ورفاقه ساعتين لاغير ثم أدلج ثانية حتى شروقالشمس. أشرق يوم جديد ، وكان يوم مشـرق على الريحاني وقافلته . أجل مـع اشراقة ذلك اليوم سار وربعه في اراض خضراء تفوحمن أدغالها روائح النباتات العطرة ، ومر بواد من أجمل الاودية وأخصبها ، يجري الماء النمير فيه سلسبيلا ، كيف لا ، وهو وادي الذهب . وعندما صعد من هذا الوادي في نقيل المحرس زاد الحسن والجمال ، فبعـد أن كانت ، بالامس مكفهرة عابسة ، أشرقت الدنيا في وجهه واخضرت ، وتموجت ربيعا طلقا ضـاحكا ، داعب مشاعر وأحاسيس فيلسوف الفريكـة فذكره بوادي الفريكـة ونسيمها ، ذكر ّه بلبنان وجبالها الخضر . فقال ، بعد ان وعي ما قال : « . . . فأشرفنا منه علىمشهد بهيج من السهول المزروعة،ومن القمم الخضر والجرد دون تلك السهول. ثم دخلنا في ما يدعى « نجد الاحمر » . . . وتعددت حولنا النباتات والرياحين التـي ذكرني بعضها بلبنان فهو ذا البيلسان وذاك اليانسون ، وفي تلك الادغال شجيرات من البطم والغار «(٤٥) .

على مشـارف اب

واجمل من هذا راي من على قنـة هذا النقيل ، « أب » تلك المدينـة الاصلية

الكريمة التي سعد فيها الريحاني وتنفس الصعداء . واذا كان يومــه هذا مشرقــا ، فقد كانت أيامــه في أب كلها سعد واشــراق ، أجل فقد اســتقبله اميرها في ساحــة الاستقبال وأكرم وفادته .

أقام الريحاني في ضيافته يومين اثنين ، قضاها ورفاقه في بحبوحة من العيش ويسر الامر ، وبعدها كان الوداع والرحيل . وكما كان لأب ساحة استقبال ، كان لها ساحة مغادرة ووداع . سار الريحاني وصحبه صوبها يصحبهم أمير البلــدة اسماعيل باسلامه، حيث ودعهم وزودهم بما يؤمنهم ويطمئنهم من وحشة الطريق، قال الريحاني مغتبطا : « . . . وأرفقنا الى ذمار بثلاثين من الجنود النظامية على رأسهم ضابط تركي فسرنا بعد استراحة يومين في نعيم ضيافته ونحن نخشى أن يزداد عدد الحرس كلمــا دنونا من صنعاء ».(٤٦) .

ايــن التــنكر ؟!

والآن وقد غادر اب ، قد يسأل المرء نفسه أين التنكر ؟ ونجيل النظر فيما مضى من الدرب ويرتد الطرف بالنفي المطلق .

ولكن بالرغم من هذا ، فالقنصل ، يصر على تنكره ، واستمراره بهذه الهيئــة التنكرية « . . ومع ذلك ، سافر كسيد ، حتى وصل صنعاء ، حيث كشف الامام حالا شخصيته الحقيقية » .

وبين عوامل النفي والاثبات ، لا يجد المرء بدا من الاستمرار في متابعة المشوار، وسبر غور هذا الامر حتى منتهاه :

يــريــم

واصل الريحاني رحلته في الجبال ، ميمما مدينة يريم مارا بوادي المرفد ،الذي يفوق وادي الذهب جمالا وخصبا ، أجل فقد شاهد فيه لاول مرة شــجرة البن . تلك الشجرة التي تغوص جدورها في أعماق يمن الماضي السعيد . ان شجرة البن هذه أو شجيرتها ، لا تذكر الا باليمن ، ومخا اليمن ، وغابرها التليد . ثم صعد الى أعلى نقيل ، نقيل جبل سمارة ، حيث شاهد تحته لوحة ربانية من الاودية والقيعــان الجميلة الخضراء والجرداء منها على السواء ، ومن بينها تبين يريم والتي فيها ، وعلى مشارفها ، كان له من التشريف فوق ما كان ، قال وقد وصــل المدينــة : « امــا استقبالنا في يريم التيكانت تدعى مريمة في عهد حمير فقد كان مثل استقبالنا في اب ، وذا مظهر ، فوق ذلك ، فريد . فقد خرج للاقاتنا أولاد المدرسة مع شيخهم الفقيــه فاصطفوا الى جانب الطريق ينشدونويهللون مرحبين »(٤٧) .

ذمـــــار

وفي اليوم التالي ، قبل الفجر ، غادر الى ذمار(٤٨) . حيث وصلها عنـد الظهر ، وكان يوم جمعة ، فلم يتمكن من مقابلة عبد الله بن الوزير(٤٩) أمير الجيش على لـواء صنعاء ، والذي ندب لاستقباله ، على مشارف المدينة ثلة من الجنود ، وبعض الاعيان، والفرسان الذين كانوا يمتطون صهوات جيادهم،وكان استقبالا فخما ، شعر الريحاني، وهو على بغله المتعب الواهن ، بالهون والصغار(٥٠) . دخل المدينة وقصد قصر الضيافة حيث استراح ، وفي المساء ذهب لمقابلة عبد الله بن الوزير في مجلسه ، وكما فعل ابـن عمه علي بن الوزير ، في ماوية فعل هو نفس الشيء اذ ظن الريحاني مسلماً ، ولكن هذه المرة ، دونما احراجات(٥١) .

وعلى كل فاقامته في ذمار ، لم تطل . فبعد هذا المجلس لم يذكر أي شيء آخر يتعلق باقامته فيها ، حيث غادر في صبيحة اليوم التالي .

واخيرا ... هاهي ذي صنعاء

واصل الريحاني رحلته ، منطلقا ، هذه المرة ، لا يلوي على شيء ولا يثنيه شيء ، صوب ربيبة الجبال ، وناطحة السحاب ؛ صنعاء .

في هذه المرحلة الاخيرة من الطريق ، لم يتوقف الا مرتين مرة في وعلان ، وهـي قرية صغيرة تبعد عن صنعاء خمسة عشر ميلا ، بات فيها(٥٢) ، وغادر في الصباح الباكر، حيث وصل حزيز ، وقت الضحى فاستراح فيها ورفاقه ، وتناولوا طعـام الفطور ، وحزيز هي المحطة الاخيرة على الطريق قبل صنعاء . وقد وصلها في الثامن عشر مـن شهر نيسان عام ١٩٢٢ ، وكان قد غادر عدن في الاول منه . ثمانية عشر يوما أمضاها في السفر ، ستة منها قضاها منعما ، مع الهم والكرب ، في لحج ، وما تبقى صحبته في شد وضعن ، وسير في بطون أودية متشعبة ، وتصعيد في جبال عالية وعرة ، للـه أنت يا فيلسوف الفريكة ! لا بد من صنعاء وان طال السفر(٥٣) .

اجل اثنا عشر يوما قضاها في رحلة ، كما قال : « مشقاتها تنسي المسافر مافيها من الحسنات والمستغربات»(٥٤) ولكن الامور كلها ، معقودة ومرهونة ، في النهاية ، بخواتمها ، ونتائجها . فبعد جهد ، وطول عناء ، ها هي ذي ، في الافق البعيد ، تتلألأ عاصمة اليمن كله قديمه وجديده مدينة صنعاء . فهل تنسى المشقات بهجة الظفر بما كان السبب فيها ؟ الظفر ببلوغ صـنعاء . وهل يذكر غمرة الفرح برؤيتها ما كـاد أن

ينساه فيلسوف الفريكة من الحسنات والمستغربات ؟ نعم ان تلك النفيسة الجديدة ، صنعاء قد أنسته جل غرائب الطريق ، كما أنسته كل وعثاء السفر وشدائده ... « اثنا عشر يوما في المشقات . وهذه صنعاء تنسيك اضعافها »(٥٥) .

وصل امين الريحاني ، ومن في معيته صنعاء ، في رائعة النهار ، وقت الظهر قال : « وصلنا الى صنعاء الظهر فلاقانا على مسافة ميل خارج السور رجال الامام وثلة من جنوده »(٥٦) .

وقد جرى له في صنعاء ، استقبال رسمي لائق ، في الابهة والفخامة يماثل ما سبقه من استقبالات أو يزيد عليها . كما أعد له نزلا كريما يناسب مقامه . وقد كان الامام عند وصول الريحاني الى صنعاء متغيبا عنها ، حيث ظل في نزله بضعة أيام ينتظر عودته(٥٧) .

الريحاني في مجلس الامـام

وبعد أن عاد الامام هيأ الريحاني نفسه للقاء المرتقب المهيب . فعلى أي صورة ياترى تهيأ ليمثل بين يدي هذا الامام ؟ أعلى صورة سيد مفضال ، كما قال القنصل الامريكي ؟ ان كان كذلك فسيكون يومه يوما عصيبا وحسابه فيه سيكون جدا عسيرا ، فسيكشفه الامام ، ويضيق به المكان ، ويكون حقا حديث الوثائق والركبان !.

أمين الريحاني أو قل في هذا المقام فيلسوف الفريكة ، وهو يخطو الخطوات الاخيرة نحو مواجهة الامر الذي كان من أجله ولاجله ، كل ما مضى من جهد وما تكبد من مشقات ، وهو يصعد العتبات الموصلة الى مجلس الامام ، واصل هذه الطريق القصير ، حيث كان نزله جناحا في نفس القصر(٥٨) ، قائلا أنه لم يشاهد أيا من تلك الابهة العسكرية التي شاهدها في طريقه الى صنعاء(٥٩) حاجب واحد فقط ، فتح له الباب فاذا هو وجها لوجه أمام إمام اليمن وحاكمها المتوكل على الله يحيى حميد الدين(٦٠) . قال يصف الامام ، وقد راه لاول مرة : « دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه قاتمه ، له فم كفم الطفل صغير بارز ، الا ان في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طورا منك وتارة تبعده »(٦١) .

اما عن المصافحة والسلام ، فقد كان ، رحم الله الامام ، دون قدر الضيف والمقام .. « صافحناه مسلمين فرد السلام مرحبا بنا دون ان يقف . جلسنا امامه على سجادة تحتها فراش .. »(٦٢) .

وهكذا كان قدر فيلسوف الفريكة لا قدره ، أن يعامل ضمن فئة الدرجة الثالثة في سلم الاستقبال ، كما سيأتي ، ولا فخر ولا تثريب عليه .

هو ذا اذن أمين الريحاني ، والامام يحيى حميد الدين وثالثهما قســطنطين ، في ايوان ، بل ديوان صنعاء جلوسا ، متقابلين . كــان في نيــة فيلسوف الفريكة ، عنــد المثول امام الحضرة الشريفة ، كما قال ، أن يصــول ويجول في خطبــة حماسية تليق بحرارة الاستقبال ، ولكنه ، وقد وجده بردا وسلاما ، عدل عن هذا ، فحدثه بهــا جالسا(٦٣) ، ومما قاله فيها : « فاني ، وان كان لبنان وطني الصغير ، وسوريا وطني الكبير ، انتسب الى البلاد العربية ، وطني الاكبر .. وأني ، وان كانت المسيحية ديني ودين أجدادي ، أدين بدين كل من أقام حقا وأزهق باطلا .. ولا غرو اذا جئت بــلاد اليمن حاجا .. وقد منعت عني تلك المقدسة كعبة الاسلام الاولى »(٦٤) .

ثم واصل خطبته أو كلمته مبينا شيئا من اغراض رحلته وذاكرا بعض الشيء، عن رفيق هذه الرحلة ، صديقه قسطنطين ، وختمها بشكر الامام على ما لاقاه مــن حفاوة وأكرام ، وهو في الطريق الى صنعاء ، فبادله الامام الشكر بالشكر ، ثم قــام قسطنطين ، والقى قصيدة عصماء قابلها الامام بالاستحسان والثناء (٦٥) ثم .. ثم ماذا ؟ ثم كانت فاتحة الكرب والصعاب ، حان دور تقديم الكتاب ، كتاب التوصيــة والتعريف بالريحاني من الملك حسين ، كتاب تعريف لله دره ! خلا من أهم ركن فيه.! قال الريحاني متحدثا عن سبب من أسباب نكبته ومحنته في صنعاء : « ثم قدمنــا لحضرته كتابا من جلالة الملك حسين ففضه وقرأه ثم قال : ولكن الكاتب أهمل الاسم فيه . فقلت : وقد يكون ذلك عرضا أو ذهولا . أما الحقيقة فان ناظر الخارجية في جدة كان قد كتب كتاب تعريف أحمله الى حضرة الامام ، فلم يستحسنه جلالة الملك، فأمر كاتبه الخاص ان يكتب كتابا آخر ؟ يعرف فيه الحضرة الامامية الشريفة بالاستاذ الفاضل والعربي الصميم الخ واغفل عمدا اسمي لاسباب لا يدركها الا من كان يدرك شيئا من غوامض السياسة الهاشمية .

لذلك ظل الامام على شيء من الريب والتحفظ ، ونحن ، لخاطر جال في ذهــن الملك فلم يذكر في كتاب توصية اسم الموصى به ، نقاسي ما سيجيء ذكره »(٦٦) .

وكتاب تعريف وتوصية كهذا ، لا شك سيكون من كتب من أجله لا محالــة ، مدعاة للشك والريب ، وهو الامر الذي حدث بالفعل ، كما سيأتي في نهاية المجلس. ولكن بالرغم من هذا فقد اتصــل الحديث بين الامام والريحاني ، وكأن شيئا لم يكن .

واصل حديثه عن العروبة والعرب قائلا : « واننا نحن المسيحيين في سوريا مثل العرب المسلمين تجمعنا القومية ، وهي التي حملتنا على التشرف بزيارتكم ، ولا يجمعنا الدين »(٦٧).

واستمر الحديث بينهما على هذا المنوال ، ثم بدأ الريحاني في الانتقال من البديهيات في القول ، الى الجوهر وبيت القصيد منه ،.. « ثم انتقلنا من التعميم الى التخصيص — من مجمل القضية الى اجزائها — فكان الامام أكثر اهتماما لذلك ... واني اذكر كلمته عندما اشرنا الى المهمة التي انتدبنا انفسنا لها فسألنا قائلا : هل عندكم كلام مضبوط ؟ »(٦٨) غير أن دخول الزائرين ، حيث كان الامام في مجلس عام ، قطع حبل الحديث ، كله المضبوط منه وغير المضبوط منه وذلك بعد مرور الامام يده على فمه ، مشيرا بالسكوت ، فتحول الريحاني الى المجلس ومن دخل المجلس متأملا الزائرين وهيئاتهم ، كما بين كيفية استقبال الامام لهؤلاء حيث كانت متفاوتة متباينة ، حسب الدرجة والمقام ، أجل فالناس مقامات ! فأحد فز الامام لمقدمه ، واستقبله استقبال الند للند واقفا ، وآخر كان استقباله بنصف وقفه ، وآخرون استقبلهم وهو مستوٍ على الطنافس بأرض الله قاعدا ، وآخرون بعد ذلك شرفوا ما أبه الامام لمقدمهم ولا التفت اليهم(٦٩) .

قال الريحاني ، وهو يعدد الزائرين الداخلين : « ... ثم ذلك الافرنجي اي النمساوي الموكل بمعمل الخرطوش ، أي (جرجي) المشهور في اليمن ، فقدمه الامام الينا قائلا : هذا منكم . »(٧٠) يعني مسيحي مثلهم ، حيث لم يكن عربيا . وهو الوحيد الذي قدمه الامام اليهم .

كان اليوم الاول من وصول الامام الى عاصمته ، وكان الوجهاء والاعيان يتوافدون عليه للتشرف بالسلام والتهنئة بالسلامة . وكان الامام ، وهو الممسك بزمام الحديث في المجلس ، يعرف الزوار بالغريبين فيه ، الريحاني ورفيقه قسطنطين قال : « غصت القاعة بالمهنئين ، وكان حضرته يعرفهم الينا فيقول : هذا امين ، وهذا قسطنطين ، مسيحيان من لبنان »(٧١) .

وان غص المجلس بالزوار والمهنئين ، وانقطع الحديث الخاص بين الامام وضيفه، فما انقطع العام منه .

تجاذب الامام والريحاني أطراف الحديث ، وكان ذا شجون ، تطرق الى اليمن وحدوده ، وسكانه ، ثم تدرج الى السياسة العربية ، وتطور أكثر ، فطال أوربا ، وعبر

المحيط الى السياسة الامريكية ، مستقرا في البيت الابيض ، حول رئيس امريكا الاول جورج واشنطن . كل هذا والامام يحيى حميـد الدين مطرق منصت ، لفيلسـوف الفريكة ، وهو يجيب على أسئلته في حديث شيـق رائع ، أو علـى رأي أهل اليمـن « باهي ناهي » أبرق لـه جبين الامام وأشـرق(٧٢) وما توقف أثنـاء ذلك ، كما قـال الريحاني ، عن تخزين القات ، وشرب الماء والنظر في الكتب والعرائض التي تقدم اليه، تلك التي كان من بينها واحدة كان انشؤم طالعها! ما استبشر الريحاني بها ولا بعرضها. قال ، وقد أوجس منها خيفة : « ومنها عريضة طويلة مسحت اللطف والبشاشة مـن وجهه . وكنت وهو ينعم النظر فيها أنظر اليه وأراقب عينيه ، وفيهما يبدأ الانفجار أو ما يشير اليه . انما الغريب أن قد تشهر العين الحرب عليك في حين أن الفم ، مثـل رسول السلم ، يبسم لك مطمئنا . كثيرا ما شاهدت هذه السيماء المتناقضة فيـه . ولكنه في ذلك الحين تغير تماما فساد الغضب في ناظريه ، وقلص العنف شفتيه فأستأذنا بعد أن فرغ من قراءة تلك العريضة ، وكانت قد طالت الزيارة ، فأشار بيده اشـارة سريعة جافية أن اذهبوا اذهبوا ، ولم يفه بكلمة سلام واحدة . خرجنا كالمطرودين ، وبقينا في أمر هذا الامام حائرين(٧٣) .

ختام المجلس كان مسكا ، ولا تنافس فيه ، بل كان أشد وقعا على فيلسـوف الفريكة من برودة الاستقبال في أوله . أجل غادره بحال لا تليق بمن طوى الليالي والايام في السير والسرى ، مصعدا في جبال اليمن من أجل الوصول اليه ؛ الى هذا المجلس ، وصاحب المجلس . ومرد هذه المغادرة غير السـارة ، كما هـو واضح ، أمران آخران لا علاقة لهما بالتنكر ولا المتنكرين ، فما كان هناك متنكرا ليكتشفه الامام ويكشـفه كما ادعت الوثيقة .

الـرد والتنفيـذ :

تابع القارىء أمين الريحاني حتى خروجه من هذا المجلس فما وقف على أثر لتنكر على الاطلاق . وبذا تكون هذه الرواية مجرد تهمة لا تثبت أبدا أمام الشواهد التاليـة التي تدحضها :

١ ــ باديء ذي بديء ما أبطن الريحاني التنكر ولا نواة أصلا ، والا فبأي صـفة أرسل من بور سودان برقيته التعريفية الى العرشي ؟!(٧٤) .

٢ ــ الهيئة والمظهر : اتجه من مدينة جدة ، هو في لبسه الافرنجي المعرب ؛ بدلة افرنجية وعلى رأسه غترة وعقال ، ورفيقه قسطنطين في زي ضابط رسمي . واستمر

على هذه الهيئة حتى صنعاء ، وبعدها في الجزيرة كلها(٧٥) . ويثبت هذا صوره العديدة ، ومن أهمها صورة له ، بهذا الهندام ، في مدينة اب مع أميرها باسلامه(٧٦). وهذه المدينة كما مر ، تقع في قلب المنطقة التي زعم تنكره فيها . وما لفت انتباه أطفال صنعاء الذين تجمهروا عليه في السوق الا هذه البدلة ، ولو كان مندسا بجلباب سيد فماذا سيشد انتباههم ، وهم كل يوم يشاهدون السادة في كل حي وزقاق(٧٧) .

٣ ــ التصرف قولا أو فعلا : مجلسا ابن الوزير والامام دخل وخرج منهما بشخصيته المعروفة لا تلبس فيها ولا انتحال ، لا قولا ولا عملا . وهكذا كان على طول الطريق .

٤ ــ رحلته ، عبر جبال اليمن وحتى صنعاء ، كانت بكل مقاييس ذلك العصر ، رحلة يسودها النظام والترتيب ، والاعداد المسبق والتنسيق فهناك المراسيل التي تسبق القافلة لاشعار أمراء وحكام البلدان على الطريق بقرب قدومها ، ثم هناك كانوا معه منذ بداية الرحلة ، كمرسول العرشي ، وبعض السادة اليمنيين الاخرين . الاستقبالات الرسمية التي لا تجرى الا لمعرف معروف(٧٨) .

٥ ــ يصعب التنكر بل ربما يستحيل مع وجود مرافقين رسميين وشبه رسميين بالاضافة الى هذا فقد كان بين حرسه بعض الجنود النابهين الذين لا يتوقع المرء لأي تنكر أن يمرّ بينهم بسلام . كما كان الريحاني ، في الطريق من ماوية الى صنعاء في قافلة تشبه الموكب هو كبيره ،وكل الانظار متجهة اليه فأنى له التنكر أو حتى التفكير فيه(٧٩).

٦ ــ عند استعراض بعض مؤلفات المؤرخين اليمنيين الهامين نجد مؤرخا مشهورا كالواسعي ، بالرغم من معاصرته لرحلة الريحاني ، وتطرقه لأخبارها خصوصا تلك المتعلقة بالامام يحيى ،الا أنه لم يأت على أي ذكر لقصة التنكر المزعومة(٨٠) .

وحكاية غريبة عجيبة كهذه لا يتوقع أن يجهلها أو يتجاهلها مؤرخ كالواسعي ولكن كيف يتأتى لمؤرخ صادق تدوين خبر حادثة ما حدثت قط ؟!

٧ ــ هناك نقاط ضعف تقبع في ثنايا الوثيقة نفسها ، فهي تتهم الريحاني بالتنكر مباشرة بعد مغادرته لماوية ، ولكنها أيضا تقول بأن ابن الوزير ، حاكم ماوية ، نصحه بأن لا يفعل ذلك ، وأن يسافر مظهرا شخصيته الحقيقية ، وهنا تناقض فكيف علم ابن الوزير بتنكر الريحاني الذي لم يقدم عليه الا بعد مغادرته البلدة ؟ وبالتالي كيف تمكن من نصحه ؟ وهذا يعني عدة افتراضات فأما أن يكون الريحاني ، وهو بعد في ماوية ،

تصرف قولا أو عملا أمام ابن الوزير أو علم به أو بدر منه ما ينبيء على التنكر مستقبلا، الامر الذي لم يحصل قط . او أن يكون ، قبل مغادرته أيضا ، أسر الى ابن الوزير بنية التنكر ، وهذا الى الاستحالة أقرب ، فكيف يثق به ، وما كان بينهما الا النفور والوحشة ؟! أما الاحتمال الاخير فلعل ابن الوزير رافق الريحاني الى خارج البلدة مسافة لوداعه ، وبذا يكون شاهد هذا الامر بنفسه وبالتالي نصحه ، ولكن المصادر لا تذكر انه ودعه ولا حتى داخل البلدة . وبذا تنتفي معرفة الامير لا بالتنكر المزعوم ، ولا بنية الاقدام عليه . والنتيجة تظهر نقطة ضعف وتناقض في الوثيقة .

ولكن هل كان الريحاني بحاجة الى أن يتنكر ؟ ومظهره وجوهره عربي يمني صميم لا يحتاج الى تغيير ولا استبدال ؟ والامن ، قطع العرشي على نفسه عهدا بايصاله الى صنعاء آمنا سالما ، وبر الرجل بوعده فزوده بالحرس الكافي ، الذي جلب اليه الامن والاطمئنان . ولا يمكن أن يفكر في التنكر أبدا من أمن مخاطر الطريق . فما من متنكر الا وكان الخوف يحدوه ، وعدم الامان .

أما منشأ التهمة ، فان المنطقة التي زعم تنكره فيها امتدت بين مجلسي ابن الوزير والامام ، وبذا فقد حامت اطيافها حولهما . ولعل أحداث مجلس ابن الوزير كانت الشرارة الاولى في التهمة وتلبيسه لقب سيد . وما جرى في مجلس الامام ، وخروجه غير السار كان سببا في القول بكشف تنكره ، خصوصا عند العامة وبسطاء الناس ، والذين ظنوه بالفعل « سيداً »(٨١) ، حيث كانت شخصيته وظروف زيارته ملائمة لظنهم وتصورهم هذا ، فقد كان عربيا والسادة عرب خلص ، وكان كبير القافلة والموكب ، وضيفا لكبير السادات عندهم ؛ فما عسى أن يتبادر الى اذهانهم ، وقد اعتادوا بأن لا يكون كل زعيم وكل كبير لديهم الا سيد من السادات . فلعل تهمة التنكر نمت بهذا الجو المهيأ لها ، بالاضافة الى دور بعض المناوئين للريحاني، والذين تربطهم علاقة مع البريطانيين ، الراغبين في النيل منه وتلطيخ سمعته .

اما مسألة ايقافه أو حجزه في ماويه ، فأمر ، كما تقدم ، غير صحيح وذلك للأسباب التالية :

١ ــ الوثيقة تروي بأن الريحاني ورفيقه احتجزا أو أوقفا في ماوية حتى أمر الامام ــ بعد أن تلقى خطابا من العرشي بشأن الريحاني ورحلته ــ بأطلاق سراحهما . وردا على هذا فان الريحاني لم يغادر لحج الا بعد أن تمت جميع ترتيبات الرحلة ، ومن بينها تسلمه ، عن طريق العرشي ، خطاب موافقة صريحة ، من الامام ، على زيارته له في صنعاء ، وما ذلك الا بعد أن زوده العرشي بالكافي من المعلومات المسبقة عنه

ورحلته(٨٢) . وبذا يكون قدم ماوية ليس كمسافر عادي ، وانما كأحد ضيوف الامام البارزين ، ولهذا أعد له استقبالا رسميا ، كما مر ، والذي يوضح معرفة ابن الوزير بأمر الرحالة ورحلته قبل وصوله اليه ، والا لما أعد له استقبالا رسميا على مشارف ماوية . والقنصل الامريكي ، القائل بايقافه ، يثبت معرفة ابن الوزير التامة بـه وبرحلته « يعرف كل شيء عن الريحاني ورحلته » وبذا يناقض نفسه فطالما انه يعرف كل شيء فلا شك انه يعرف أهم شيء ، وهو ان الريحاني كان ضيف الامام ووجهته اليه ، فهل يعقل ،مع هذا ، ان يوقفه أو يعرقل مسعاه ؟!.

٢ ــ ولو سلمنا جدلا ، بايقاف أو حجز كهذا ، فان الريحاني ، بالاضافة الى معرفة ابن الوزير السابقة ، كان يحمل خطابين زوده بهما العرشي ، الاول خطاب تعريف الى ابن الوزير نفسه ، والثاني خطاب توصية الى الامام ، فلو حس بمحاولة عرقلة أو ايقاف لابرزهما حالا ، لاسيما وأنه كان يعرف مضمونهما حيث تسلمها في لحج مفتوحين(٨٣) . بالاضافة الى مرسول العرشي المرافق له ، والذي لا شك ، سيكون له أثر وتأثير في موقف كهذا لو حصل فعلا(٨٤) .

٣ ــ وخير دليل يبرهن على أن اقامته في ماوية كانت عادية اختيارية ، لم يشبها شيء من الاجبار ، انه غادرها في الوقت الذي حدده هو لا قبلا ولا بعدا(٨٥) .

والآن وقد انتهينا من الرد على تهمة تنكره ، وزعم ايقافه نعود الى أمر قوي الصلة بهما ، وهو غضب الامام وخروج الريحاني من مجلسه كالمطرود . ولعل قضايا كهذه تكمن خلفها قضايا اكبر فعسى ان يكون حل هذه الالغاز أو بعضها باستكمال قصة الريحاني مع الانجليز في عدن . فعندما خوفوه من اليمن وجبالها ، هل كانت فعلا سلامته وحياته هما فقط ما أهم ما قلق هؤلاء . وعنوه بتحذيرهم اياه ؟ ان الخطر ، وان كان حقيقة موجودا ، الا انه حق أريد به باطل . فلا سلامة الريحاني ، ولا حياته بأمر ذي بال لدى الانجليز ، وبالتالي فلا الخطر كان معنيا لذاته ، ولا التحذير منه كان خالصا . ان الخطر كل الخطر عند الانجليز ، وعليهم ، هو تمكن هذا العربي المتأمرك من اتمام مهمته في زيارة صنعاء ، ولذا صوروا له الاخطار الجسام ، والموت الزؤام ان هو يمم شطرها . وهكذا مر الريحاني بتجربة عصبية معهم ، بدأت بالتخويف والتحذير ، وتدرجت الى المماطلة والتسويف ، وكاد أن يكون الرفض ختامها .

أما لماذا كان كل هذا الرفض لزيارة الريحاني لليمن ، فانه طبقا لما اثبتته الوثائق الامريكية فقد كان له ، عندما قام برحلته العربية ، علاقة وارتباط مع الخارجية

الامريكية . وكان من ضمن أهدافه الرئيســية الترويج والدعوة للامتيازات والشركات الامريكية ، وايجاد فرص لها في بلاد العرب(٨٦) ، وأمريكا ، تجاريا كان يربطها علاقات قديمة باليمن متمثلة بتجارة البن في مخا ، حيث أن بعض التجار الامريكيين النشطين من :«مساتشوستس» فيمطلع النصف الاول من القرن التاسععشر استطاعوا أن يصلوا بسفنهم الى جنوب البحر الاحمر ، وحتى ميناء مخا ، وتمكنوا من احتكار تجارة البن اليمني ، واستطاع الامريكيون بهذا منافسة البريطانيين ، تجاريا ، في اليمن . ولكن البريطانيين وقفوا ضد هذه المنافسة ، وتمكنوا في نهايــة المطاف من انهاء الاحتكـار الامريكي ؛ وذلك باحتلالهم لعدن سنة ١٨٣٩م ، وتشجيعهم لنقل تجارة البن من ميناء مخا الى عدن ، لتكون تحت سيطرتهم واحتكارهم المباشر(٨٧) .

وفترة مجيء الريحاني لليمن ، وما بعدها ، تمثل خروج أمريكا التدريجي مــن عزلتها التقليدية ، وبناء علاقات تجارية وسياسية مع بلدان المشرق العربي ، ومن بينها اليمــن . وكان الامــام يحيى حميــد الدين يعتمد على دول المحــور في صراعه مــع البريطانيين ، وبعد هزيمتها واختفائها في الحرب العالمية الثانية وجد في أمريكا البديل. وبريطانيا ، بالطبع ، لا يسرها أبدا هذا التقارب اليمني ــ الامريكي ، حيث يتناقض ، تماما ، مع مصالحها في مدّ واحكام طوقهـا الاحتكاري للمنطقة ، تجاريـا وسياسيا . خصوصا أن أمريكا ، بعد خروجها من عزلتها تلك ، حاولت جاهدة كسر هذا الطوق ، والمشاركة في الغرف من خيرات العرب(٨٨) . ومن هنا تفهم حقيقة معارضة بريطانيا في المنطقة لزيارة الريحاني لليمن .

وصل عدن فجبهته أولى بوادر الرفض البريطاني قــال : « وصلنا الى عــدن فاستقبلنا على الرصيف ضابط انكليزي وبعد أن اطلع على جوازاتنا احتفظ بها قائلا : بأمر من الحاكم فقلت : وهل هو أمر عام أو انه يختص بنا فقط ؟ فأجاب : هو عــام يا سيدي. ثم أخذ عنواننا ووعدنا بأن يعيد الجوازات الينا في ذاك اليوم ولكن ذاك اليوم والايام الثلاثة التالية شهدت على الانكليزي فتيقنا أنه لا يبر دائما بوعده »(٨٩) . ولم يعد البريطانيون الجوازات الا بعد تدخل القنصل الامريكي . وتجسسوا عليه في عدن ووضعوه تحت مراقبة الشرطة(٩٠) . وعندما تبينوا حتمية سفره الى صنعاء ، رضوا أم أبوا ، حاولوا ثنيه عن ذلك باقناعه ــ عن طريق بعض العرب الذين يتحدثون اللغــة الانجليزية ــ بأن السفر عن طريق الحديدة أسلم وأسهل وذلك حتى يزور الادريسي صديقهم أولا ، ويرى من تهامة اليمن ما قد يغنيه عن زيارة صنعاء(٩١) . ولكن الريحاني قطع عليهم حبل هذه الخطة ، بطلبه زيارة لحج ، حيث سافر الى هذه المحمية يرافقه القنصل الامريكي ، وحلوا ضيوفا على سلطانها عبد الكريم فضل ومكث الريحاني فيها

أسبوعا ، جرت خلاله ، بينه وتين الانجليز مراسلات ومكاتبات بشأن الاذن له بزيارة صنعاء ، وذلك بأرفاقه بالحرس اللازم حتى آخر حدود محمياتهم(٩٢) .

وقد قيد الانجليز اقامة الريحاني في لحج ، حيث حظروا عليه تجاوز حدودها قال : « واطلعني السلطان ذات ليلة على كتاب من الحاكم (البريطاني) : لا تأذنوا لفلان وفلان أن يتجاوزا الحدود قبل أن يجيئهم الاذن منا . . . وقد بقينا أسراء في القصر بلحج »(٩٣). بل وصل الانجليز في التعنت مع الريحاني الى الدرجة التي منعوه حتى من التجول خارج هذه المحمية ، اذ ذكر بأنه تسلم ، عن طريق القنصل الامريكي ، كتابا من الحاكم البريطاني جاء فيه : « أن التجول خارج حدود لحج محظور وممنوع »(٩٤) والذي يريده الريحاني ، بالتحديد ، من الانجليز ، هو ارفاقه بحرس من نهاية حدود لحج وحتى بلدة ماوية ، أي على امتداد بلاد الحواشب ، وهي منطقة خطرة لا يجرؤ الريحاني على اجتيازها بدون حرس(٩٥) ، لذا ماطله الانجليز ، وسوفوا عليه علهم يفتون في عضده،ويثنونه عن التوجه الى صنعاء .وقد بالغ الانجليز فيالتشدد والعناد ، مع انهم ، كما قال الريحاني ، لا يملكون الا خمس الامر(٩٦) وهو ارفاقه بالحرس عند عبوره بلاد الحواشب فقط ــ فما بالك لو ملكوا الامر كله ؟! ــ حتى هذا الخمس ، يبدو أنه ما كان ليحظى به لولا تدخل القنصل الامريكي بكل ثقله ونفوذه .

القنصلالامريكي ، على ما ظهر ، وطبقا لمجريات الوقائع والحوادث ، لعب دورا هاماً وبارزا في تمكين فيلسوف الفريكة من بلوغ صنعاء ، فجميع الاتصالات والمكاتبات بين الريحاني ولانجليز تمت عن طريق القنصلية الامريكية في عدن . ليس هذا فحسب، بل قام القنصل شخصيا بعدة زيارات للمفوضية البريطانية ، حيث اجتمع مع الحاكم العام ونائبه ، وذلك من أجل رحلة الريحاني . وهو الذي استعاد الجوازات من الانجليز ، كما مر . وأهم من هذا وذاك ، سافر هذا القنصل بنفسه مع الريحاني الى لحج ، وما ذلك الا زيادة في التأكد والحرص على تسهيل أموره وانجازها(٩٧) .

ولعل البريطانيين ، وهو أمر ربما كان مؤكدا ، لم يرضخوا ، وينصاعوا أخيرا لرغبة الريحاني ، لولا هذا القنصل والدولة التي تقف وراءه . قال الريحاني ملمحا الى ذلك : « . . . وانهم ، أي الانكليز اذا شاؤوا أن يمنعوني عن السفر فلا يفعلون مباشرة اكراما لقنصل أميركا ، ولكنهم يوعزون الى القاضي عبد الله (العرشي) بأن يقول لي ان الطريق الى صنعاء محفوفة بالاخطار ، فلا يستطيع أن يرفقني بالحرس ، اللازم ، . . . »(٩٨) وقد ثبت بالفعل زيارة العرشي للمفوضية البريطانية في عدن ، وشك الريحاني أنها من أجل هذا الامر(٩٩) .

مما ذكر يتضح مدى الدور والغرض الامريكي في زيـارة الريحاني لليمن ، ورد الفعل البريطاني عليه ومعارضتها . ولعل مـن نافلة القول ، التأكيد بأنه لولا خشـية « الجون بول » من « العم سام » لظلت زيارة فيلسوف الفريكة لصنعـاء حلم بعيد المنال !! . .

ولما فشل البريطانيون في منعه اتجهوا ، كعادتهم ، الـى حبـك الدسائس في الخفاء . تابعوه بالعيون والجواسيس ، واحد منهم ، على حد تعبير الريحاني ، تاب الى الله : « عندما صدر الاذن بسفرنا استخدمتالوكالة البريطانيةرجلا عربيا ليرافقنا سراً في رحلتنا الى صنعاء فيتجسس اخبارنا ، ويدون أحاديثنا كلها . . ولكن الرجل تاب في اخر ساعة الى ربه وأبى القيام بتلك المهمة »(١٠٠). ولعلها ما كانت توبة نصوحا بل كانت مصطنعة بظلها على اخرين وتخفيفهم . وما يدري الريحاني بأن ناقل أو ملفق تهمة تنكره كان واحدا من هؤلاء .

اما ماحدث في مجلس الامام فبالاضافة الى عزلة اليمن آنذاك ، وطبيعة الشك والحذر التي تميز بها الامام حتى قيل بأنه كان « أحذر من غراب »(١٠١) ، فان كتاب الشريف حسين كان بداية الشك ، والعريضة الطويلة كانت ذروته وقاصمة الظهـر فيه ، بل كانت على الريحاني ، في مجلسه المتفائل كأم قشعم ، ويقول بأنها كتبت مـن قبل أحد المداهنين أو المتواطئين مع المفوضية البريطانية في عدن ، والذي أرسلهـا من هناك الى صنعاء ، ليشوه سمعته لدى الامام(١٠٢) . وقوله هذا معقول ومقبول ، فقد وقف البريطانيون ، كما تقدم ، في وجه الريحاني ورحلته الى اليمن ، واتصاله بالامام ، كما تجسسوا عليه . وموقفهم هذا ـ لما تقدم من أسباب ـ ليس بغريب . بالاضافة الى مناوأتهم للريحاني ، لما اتصف به من ريادة ، وسعى لدعوة العرب وقادتهم الى الوحدة والاخذ بمعطيات الحضارة والعلم . والوثائق الامريكية تشير بجلاء الى عداء البريطانيين له ووقوفهم ضده(١٠٣) .

اما كتابالشريف حسين ، فبالاضافة لما تقدم ، يقـول الريحاني عنـه أيضا : « . . فاذا ، كان كتاب التوصية من صاحب الجلالة المنقذ الاكبر يجلب هذه الظنون والشجون فماذا عسى أن تكون نتيجة كتاب التحذير » (١٠٤). وكأنه أراد أن يقول رمزا أنه كتاب تحذير لا توصية ! ولكن لماذا ؟! ربما لان الشريف حسين ـ منـذ أن كاتب الريحاني ،من أمريكا ، قسطنطين لمرافقته في الرحلة ـ كانت رغبته حصرها في الحجاز ، ولعله ، وهو في خريف علاقته مع البريطانيين ، اراد أن يستأثر بالريحاني وبمن يمثلهم . ومن ناحية أخرى فالشريف حسين ، وقد وعدته بريطانيا ، خادعـة اياه بالطبع ، بالزعامة على العرب ، لازال يحلم بها ، ويخشى من أي تقارب امريكيمع

أي زعيم عربي آخر قد يقوى به ؟ ويبزه فيما تمناه . ولعل طلب الريحاني منه السماح لقسطنطين بمرافقته في الرحلة(١٠٥) ، وافق هوى ورغبة لديه ليكون الريحاني تحت ناظريه أين ماكان .

وهكذا يتضح أن عريضة الانجليز ، وكتاب الشريف حسين يصبان في مصب واحد ، وهدفهما واحد ، وهو افشال رحلة الريحاني لصنعاء ، وقد أديا بعض الغرض حيث شك الامام ، وخرج الريحاني كالمطرود من مجلسه . وظل في صنعاء أياما - شبهها بأدوار الحمى(١٠٦) - تحت طائلة هذا الشك ووطأته ، حتى تبين للامام حقيقة الامر ، قال البرت شقيق الريحاني : « أنزله سمو الامام يحى حميد الدين حاكم اليمن مع صديقه الشيخ قسطنطين يني في بيت حكومي وتركهما أسيري الرقابة لعشرة أيام ، وذلك لريبه وشكه بأغراض الريحاني . وبعد أن تبين عكس ما ظن . . »(١٠٧) وبذا يكون محتوى العريضة والكتاب ، وزعم الايقاف والتنكر كله زور وبهتان ، مصدره الانجليز وحلفائهم . وينجح الريحاني في مهمته ، وتجني ثمارها أمريكا ، فلعل ما قام به كان توطئة لمجيء رجل الاعمال والسياسي الامريكي (تشارلز كراين) لليمن فيما بعد(١٠٨) .

* * *

الحواشـــــي :

(١) عن ترجمة حياته انظر : البرت الريحاني ، **اين تجد أمين الريحاني** (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩م) ، ص‌ص ٢١ – ٦٣ ؛ خير الدين الزركلي ، الاعلام ، (بيروت : دار العلم للملايين ١٩٨٦م) ، جـ٢ ، ص‌ص ١٨–١٩ .

(٢) أنظر نص الخطاب الذي أرسله الملك عبد العزيز الى امين الريحاني بهذا الخصوص. أمين الريحاني ، **ملوك العرب** ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٦م) جـ٢ ، ص ٥١٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٤) The National Archives of The United States , Document No 032 . R 44 « Experiences of Amin Rehani in the Yemen » A Report written by Raymond Davis American Consul in Aden, Arabia , Dated November 21, 1922 .

(٥) ومن هؤلاء الرحالة على سبيل المثال : (دومنجو باديا اي لبلغ) الذي تسمي بـ علي بك العباسي ، والرحالة (نيبور)الذي كان يتنكر بلباس تركي ، والرحالة(بوركهارت) الذي ظهر كأحد علماء المسلمين وتسمى بالشيخ ابراهيم بن عبد الله الشامي وغير هؤلاء كثير . انظر :

Richard Trench , **Arabian Travellers : The European Discovery of Arabia (London :** Macmillan London Limited , 1986) pp. 52 - 53 , 59 , 60 - 61, 64,69 ; John Lewis Burckhardt, **Tarvels in Arabia** (London : Frank Cass and Company Limited , 1968) , p. vi ;

جوهان لودفيج بوركهارت ، **مواد لتاريخ الوهابيين** ، ترجمة الدكتور عبد اللهالصالح العثيمين، الطبعة الاولى،الرياض،١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م ، ص‌ص ٣–٥ ؛ جاكلين بيرين ، **اكتشاف جزيرة العرب « خمسة قرون من المغامرة والعلم »** ترجمة قدري قلعجي ، (بيروت ، دار الكاتب العربي ، د.ت) ، ص‌ص ١٥٥ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢١٦ – ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ .

(٦) كاتب وصحفي لبناني ، من أصل يوناني ، وقد كان رفيق الدرب لامين الريحاني في رحلته الى اليمن . عنه انظر :

الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ،ص١٧٣؛

Ameen Rihani , **Arabian Peak and Desert, «Travels in Yemen»,** (New York : Caravan Books , 1983) , pp. 3 , 28 , 40 , 44 ;

أمين الريحاني ، **رسائل أمين الريحاني** (١٨٩٦ – ١٩٤٠) ، الطبعة الثانية ، (بيروت : دار الجيل ، ١٩٩١)، ص‌ص ٤٧ ، ٤٠٣ .

(٧) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص‌ص ٧٧–٧٨ .

(٨) **المرجع نفسه** ، ص ٧٨ . ونعوم شقير هو: نعوم بك بن بشارة نقولا شغير ، (١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣ م – ١٣٤٠/١٩٢٢م) وهو مؤرخ لبناني ، وحديثه مع الريحاني عن اليمن لم يكن من فراغ فقد ذكر الزركلي أن له مؤلف عن تاريخ اليمن لم يتمه . **الاعلام** ،ج٨ ص ٣٩ ..

(٩) The National Archives of the U. S. A., Document No. 032. R 44«Movements of Ameen Rihani and Interior » Areport sent By R. Davis During Visit to Aden the American Consul in Aden, Arabia , July, 19, 1922 .

(١٠) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جا ، ص ص ٨٠ — ٨١ .

(١١) **المرجع نفسه** ، ص ٨١ .

(١٢) **المرجع نفسه** ، ص ٨٣ .

The National Archives of the U S.A. Document No. 532. R44 « a letter sent form the British Embassy in Washington State Department Concering Ameen Rihani, May, 6, 1922».

(١٣) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص٨٧ .

(١٤) **المرجع نفسه** ، ص ١١٦ .

(١٥) هـو :

(Ulrich Jasper Seetzen) (1768 - 1810)

عنـه انظـر :

Robin Bidwell, **Travellers in Arabia,** (London: The Hamlyn Publishihg Group Limited , 1976), pp. 120 - 121 ; Trench, **Arabian Travellers,** pp. 55-57 .

(١٦) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص ص٨٧ ؛

Rinani , **Arabian Peak and Desert,** p. 16 .

(١٧) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص ص ٨٧ — ٨٨ .

(١٨) **المرجع نفسه** ، ص ٨٨ ؛

Rihani, **Arabian Peak and Desert,** p. 17.

والقاضي عبد الله العرشي هو وكيل الامام ومعتمده في المفاوضات مع الانجليز في عدن . عينه عام ١٣٣٨ هـ ، وأعاده الى صنعاء في عام ١٣٤٠ هـ بعد فشل المفاوضات . عبـد الواسع الواسـعي اليماني ، **تاريخ اليمن فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن**، (صنعاء : الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) ، ص ٣٣٢ .

(١٩) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ص ص ٨٥ — ٨٦ ، ٨٩ .

(٢٠) **المرجع نفسه** ، ص ٨٥ .

(٢١) **المرجع نفسه** ، وقد غادر عدن بالتحديد بعد ظهر السبت الاول من نيسان (ابريل)١٩٢٢م؛

Rihani , **Arabian Peak and Desert,** p. 9.

(٢٢) National Archives of the U.S. A., Document No . 032 . R 44 « Ameen Rihani » A despatch Sent by P.Knabenshue, Consul in Charge, Beirut,Syria,August 14, 1922.

(٢٣) هو عبد الكريم بن فضل بن علي بن محسن العبـدلي ، أحد سلاطين لحـج في فتـرة الاستعمار البريطاني . عنه انظر الزركلي ، **الاعلام** ، جـ ٤ ، ص ٥٤ .

(٢٤) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص ٨٧ ؛
Rihani , **Arabian Peak and Desrt,** p, 16.

(٢٥) Ibid, pp. 17, 19 - 20, 26 ;
الريحاني ، **ملوك العـرب** ، جـ ١ ص ص

٨٨ ، ٩١ ، ٩٤ . وعن هذه القصة انظر : الصفحات ٩٦ ــ ٩٧ .

(٢٦) **المرجع نفسه** ، ص ٩٧ .

(٢٧) The National Archives of the U. S. A., Document No. 032. R 44 « Movements of Amin Rihani During Visit to Aden and Interior» A Report sent by American Consul in Aden, Arabia, July, 19, 1922 .

(٢٨) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ١ ص ٩٧ .

(٢٩) **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٩٧–٩٨ .

(٣٠) **المرجع نفسه** ، ص ٩٨ .

(٣١) هو ابن عم عبد الله بن الوزير ، الذي قاد ثورة عام ١٩٤٨ م ضد الامام يحيى حميد الدين، وقد سجن ثم أعدم بعد هذه الثورة . عنه وعن نهايته الاليمة : انظر : أحمد بن محمد الشامي ، **ريـاح التغيير في اليمن** ، الطبعة الاولى ، (جدة : المطبعة العربية ، ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٤ م) ص ص ٣٥٣ ، ٣٥٧ ــ ٣٥٨ ؛ محمود كامل ، **اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدوليـة** ، (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٨م) ، ص٢٧٣.

(٣٢) الريحاني ، **ملـوك العرب)** ، جـ١ ، ص ص ٩٩ ــ ١٠٠ .

(٣٣) **المرجع نفسه** ، ص ١٠٢ .

عن مجالس القات ، انظر : **المرجع نفسه** ، ص ٩٩ ــ ١٠٠ ؛ هانز هولفريتز ، **اليمن من الباب الخلفي** ، ترجمـة خيري حماد ، الطبعة الثانية ، (القاهرة : مكتبـة الانجلو المصرية ، ١٩٦٦ م) . ص‌ص ١٠٩ ــ ١١٧؛

Rihani , **Arabian Peak and Desert**, pp. 35-38 .

(٣٤) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص ١٠١ .

(٣٥) **المرجع نفسه** .

(٣٦) **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٠١–١٠٢ . والشاعر صاحب هذا البيت هو فؤاد الخطيب، صديق الريحاني ، عن ترجمتـه انظر : الزركلي ، **الاعلام** ، جـ ٥ ، ص ١٦٠ .

(٣٧) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ١ ، ص١٠٢ .

(٣٨) **المرجع نفسه** .

(٣٩) **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٢٣٠–٢٣١ .

(٤٠) **المرجع نفسه** ، ص ١٠٢ .

(٤١) Rihani , **Arabian Peak and Desert**, pp. 30-31 .

(٤٢) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ١ ، ص٨٦ .

(٤٣) **المرجع نفسه** ، ص ١٠٦ .

(٤٤) **المرجع نفسه** ، ص ١٠٤ ، وعن حاله هـذه أيضا انظر :

Rihani , **Aradian Peak and Desert**, pp. 43-44 .

(٤٥) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص ١٠٥ .

(٤٦) **المرجع نفسه** ، ص ١٠٨ . أيضا انظر :
Rihani , **Aradian Peak and Desert**, p. 54 .

(٤٧) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ١ ص ١٠٦ .

(٤٨) Rihani , **Aradian Peak and Desert**, p. 58.

وتقع مدينة ذمار في الجنوب الشرقي من صنعاء على بعد ١٠٠ كم تقريبا . سـميت باسـم (ذمار علي) الملك الحميري . وهي قاعـدة محافظة ذمار . أبو العباس أحمد الرازي ، **تاريخ مدينة صنعاء** ، تحقيق حسين العمري، ط ٣ ، (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٩ هـ ــ ١٩٨٩ م) ص ٦٦٩ .

(٤٩) هو عبد الله بن أحمد ابــن الوزير ، بعـد

واحدا من أكبر رجالات اليمن في السياسة والحكم والعلم أيضا . وقد تزعم ثورة عام ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨ م والتي أودت بحياة الامام يحيى ، وحياته هو أيضا . عن ترجمته . انظر : الزركلي ، **الاعلام** ، جـ ٤ ص ص ٧٠ — ٧١ — وعن نهايته الاليمة انظر : الشامي ، **رياح التغيير في اليمن** ، ص ص ٣٥٣ — ٣٥٤.

(٥٠) انظر :

Rihani , Arabian Peak and Desert, p. 60.

(٥١) Ibid., p. 62

(٥٢) **Ibid** , pp. 69 - 70 .

(٥٣) لا بد من صنعاء وان طال السفر ## لطيبها والشيخ فيها من دبر

بيت من الشعر تغنى به الححداة . والشيخ المقصود هنا هو ابراهيم ابن عباد الدبري ، كان من بلدة دبر بالقرب من صنعاء . الرازي، **تاريخ مدينة صنعاء** ، ص ٢٣٥ .

(٥٤) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ١ ص١١٨ .

(٥٥) **المرجع نفسه** ، ص ١١٩ .

(٥٦) **المرجع نفسه** ، ص ص ١٢٠—١٢١ أيضا انظر:

Rihani , Arabian Peak and Desert, p. 79.

(٥٧) **Ibid.,** pp. 80-81 , 83 ;

الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ١ ، ص ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٥٨) **Rihani , Arabian Peak and Desert,** pp. 89 , 92 ;

الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص١٢٧ .

(٥٩) **المرجع نفسه** ، ص ١٢٩ ، قارن مع وصف هانز هولفريتنز ، **اليمن من الباب الخلفي** ، ص ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٦٠) عن الامام يحيى حميد الدين انظر : الواسعي، **تاريخ اليمن**، ص ص ٣٠٠—٣٠١ ، ٤٢٨—٤٣٤.

(٦١) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ص ١٣٠ ، أيضا انظر :

Rihani , Arabian Peak and Desert, p. 93 .

(٦٢) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص ١٣٠ ؛

Rihani , Arabian Peak and Desert, p. 94.

قارن مع قول هانز هولفريتز ، **اليمن من الباب الخلفي** ، ص ١٥٦ .

(٦٣) **Rihani , Arabian Peak and Desert,** p. 94.

(٦٤) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص ص ١٣٠ — ١٣١ ، قارن مع :

Rihani , Arabian Peak and Desert, pp. 94-95.

(٦٥) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ١ ، ص١٣١ .

(٦٦) **المرجع نفسه** ، ص ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٦٧) **المرجع نفسه** ، ص ١٣٢ .

(٦٨) **المرجع نفسه** ،

(٦٩) **المرجع نفسه** ، ص ص ١٣٢—١٣٤ ؛

Rihani , Arabian Peak and Desert, pp. 96-98 .

(٧٠) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ص ١٣٣ ؛ أيضا انظر :

Rihani , Arabian Peak and Desert, p. 97 .

(٧١) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص١٣٤ ؛

Rihani , Arabian Peak and Desert, p. 97 .

(٧٢) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ١ ص ص ١٣٤ — ١٤٥ ، أيضا انظر :

Rihani , Arabian Peak and Desert, pp. 98 - 100.

(٧٣) الريحاني ، **ملـوك العـرب** ، جـ ١ ص‌ص ١٣٥ – ١٣٦ .

(٧٤) **المرجع نفسه** ، ص ٨٤ .

(٧٥) **المرجع نفسه** ، ص ٧٩ .

(٧٦) (ملحق الصور)

Rihani , **Arabian Peak and Desert,** p. 2 .

(٧٧) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص١٢٦ .

(٧٨) **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٩٣–٩٤ ، ١٠٦ ؛

Rihani , **Arabian Peak and Desert,** pp. 25, 56 .

(٧٩) الريحاني ، **ملـوك العرب** ، جـ١ ، ص‌ص ١١٢ ، ١١٤ ؛ الواسعي ، **تاريخ اليمن** ، ص ٢٩٤ ؛ فاروق أباظة ، **العلاقات البريطانيـة اليمنيـة بين الحربين العالميتين** (١٩١٩ – ١٩٣٩) ، (القاهرة : دار المعارف ، د.ت.) ص‌ص ٩٩ – ١٠٠ .

(٨٠) الواسعي ، **تاريخ اليمن** ، ص‌ص ٣٥ ، ٣٨، ١٢٩ . بدأ الواسعي في تدوين أحداث تاريخه عام ١٣٢٦ واستمر حتى بعد عام ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٨ م ، وبذا تكون رحلة الريحاني لليمن في قلـب هـذه الفـترة . ص‌ص ٨ ، ٢٨؛ وما بعدها .

Rihani , **Arabian Peak and Desert,** p. 63 .

(٨١) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص١١١ ؛

(٨٢) الريحاني، **ملوك العرب،** جـ١ ص‌ص٨٤–٨٦.

(٨٣) **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٨٥ ، ٨٩ .

(٨٤) **المرجع نفسه** ، ص ٨٥ .

(٨٥) **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٠٣ – ١٠٤ ؛

Rihani , **Arabian Peak and Desert,** p. 43 .

(٨٦) The National Archives of U.S. A ., Document No . 032 . R 44 « a Letter from Ameen Rihani, to H.P. Fletcher. Under Secretary of State, Concerning his trip to Arabia, October , 18 , 1921 ».

(٨٧) أباظـة ، **العلاقات البريطانيـة اليمنيـة** ، ص‌ص ١٤٧ – ١٤٨ .

(٨٨) **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٤٨ – ١٤٩ .

(٨٩) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص ٧٩ .

(٩٠) **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٨٢–٨٣ ، ٨٩–٩٠ .

(٩١) **المرجع نفسه** ، ص ٨٣ .

(٩٢) **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٨٢–٨٣ ، ٨٦–٨٧ .

(٩٣) **المرجع نفسه** ، ص ٨٦ .

(٩٤) **المرجع نفسه** ، ص ٨٢ .

(٩٥) **المرجع نفسه** ، ص ٨٨ .

(٩٦) **المرجع نفسه** ، ص ٨٦ .

(٩٧) **المرجع نفسه**، ص‌ص ٧٩–٨٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥.

(٩٨) **المرجع نفسه** ، ص ٨٥ .

(٩٩) **المرجع نفسه** ، ص ٨٥ ؛

Rihani , **Arabian Peak and Desert,** pp. 11-13 .

(١٠٠) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص‌ص ٨٩ – ٩٠ .

(١٠١) الدكتور حسين بن عبد الله العمري ، **المنار واليمـن (١٣١٥ – ١٣٥٤ هـ / ١٨٩٨ – ١٩٣٥ م) دراسة ونصوص** ، الطبعة الاولى ، **اليمن شماله وجنوبه** ، ص ٥٣ ؛ فتوح عبـد المحسن الخترش ، **تاريخ العلاقات السعودية اليمنية** ، الطبعة الاولى ، (الكويت : ذات السلاسل ، ١٩٨٣) ، ص ١٢١ .

(١٠٢) Rihani , **Arabian Peak and Desert,** p. 1100 .

(١٠٣) The National Archives of U.S. A. Document No. 032 . R 44 . « Movements of Amin Rihani During Visit to Aden and Interior» a Despatch sent by the American Consul in Aden , Arabia , July 19, 1922 .

(١٠٤) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص١٣٩، وقد كتبت « التحذير » في ملوك العرب ، خطأ « التحرير » انظر وقارن مع :

Rihani , **Arabian Peak and Desert,** p. 106.

(١٠٥) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ١ ، ص ٧٩ .

(١٠٦) **المرجع نفسه** ، ص ١٧٣ .

(١٠٧) البرت الريحاني ، **أين تجد أمين الريحاني** ، ص ٤٧ .

(١٠٨) حسين العمري ، **المنار واليمن** ، ص١١١ .



تاريخ غور الاردن الشمالي من خلال المسوحات والحفريات الاثرية الاخيرة

د. جمعة محمود كريم
مؤتة ص.ب ٧

تعني هذه الدراسة الجزء الشمالي من غور الاردن بشكل خاص ، الممتد من نهر اليرموك شمالا وحتى وادي راجب جنوبا وبمسافة يبلغ طولها ٤٥ كم (انظر الخارطة رقم ١) . كما سيستعرض الباحث تاريخ غور الاردن بشكل عام ، والممتد لمسافة ١٠٥ كم ، على محاذاة نهر الاردن ، من نهر اليرموك شمالا وحتى مصبه في البحر الميت جنوبا .

ويعتمد الباحث في دراسته على ما يلي :

١ ــ نتائج المسوحات الاثرية التي اشرف عليها الكاتب في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات (انظر الخارطة رقم ١ و ٢ و ٣) .

٢ ــ نتائج الحفريات الاثرية التي اشرف عليها الكاتب في موقعي تل قدسيه وذراع الخان (انظر الخارطة رقم ١ و ٥ و ٦) .

٣ ــ نتائج المسوحات الاثرية السابقة في غور الاردن .

٤ ــ نتائج الحفريات الاثرية السابقة في غور الاردن .

٥ ــ المصادر التاريخية والجغرافية بالاضافة الى ما نشر عن سجلات الطابو العثمانية .

٦ ــ ملاحظات الرحالة الاوروبيين ، الذين زاروا غور الاردن منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي .

يتفاوت عرض ارضية غور الاردن في ضفته الشرقية ، فنرى انه ضيق في الشمال (حوالي ٦ كم) ومتسع في الجنوب (حوالي ٢٠ كم) (١) . كما تتسم هذه

المنطقة بانخفاضها الشديد عن مستوى سطح البحر ، يزداد هـذا الانخفاض كلمـا اتجهنا جنوبا . فيبلغ انخفاض غور الاردن ٢١٢ مترا عند بحيرة طبريا ، و ٣٩٢ مترا عند البحر الميت(٢) .

ويعتقد فريق من الباحثين الجيولوجيين أن غور الاردن ، والممثل جـزءا مـن حفرة الانهدام ، قد تكون نتيجة لحركات تكتونية أفقية(٣) ، بينما يرى فريـق اخـر بأنه قد تكون نتيجة لحركات تكتونية راسية(٤) . ويمتد هذا الصدع من البقاع شمالا الى غور الاردن ووادي عربة والبحر الاحمر ووسط افريقيا جنوبا(٥) . كما يعتقد بعض الجيولوجيين بأن غور الاردن قد غطي بالمياه منذ نشأة تكوينه ، ثم بدأت هذه البحيرة الكبيرة بالجفاف ، وذلك منذ فترة البليستوسين (منذ مليون سنة من الآن)(٦) مخلفة وراءها بعض السبخات والبحيرات ، منها العذبة في الشمال ، كبحيرة طبريا ، والمالحة في الجنوب كالبحر الميت .

كما ان انخفاض نسبة الامطار الساقطة في جنوب غـور الاردن وارتفاع درجـة الحرارة فيه ، أدت الى ارتفاع نسبة الملوحة في تربته ، بينما أدى ارتفاع نسبة الامطار الساقطة وانخفاض درجة الحرارة في جزئـه الشمالي الى انخفاض نسـبة الملوحة في تربته(٧) . ويبدو أن الاختلاف في نسبة ملوحة التربة بين شمال غور الاردن وجنوبه، بالاضافة الى تواجد مواقع أثرية متمدنة كبيسان وطبقة فحـل وأم قيس في الجـزء الشمالي لغور الاردن ، وقرب هذا الجزء من طرق المواصلات الرئيسية ، الواصلة بين الحضارات القديمة في مصر وسورية وما بين النهرين ، أدت الى ارتفاع نسبة تواجـد مواقع الاستيطان البشري في شمال غور الاردن وانخفاضها في جنوبه .

يمكن تقسيم أرضية غور الاردن الى ثلاثة أجزاء ، الاول يمثل الجزء الملاصق لنهر الاردن ويدعى بالزور . يغطي هذا الجزء ـ وحتى وقت قريب ـ النباتات البرية ، كما أنه معرّض لفياضانات نهر الاردن في فصل الشتاء(٨) . أما الجزء الثاني فهو عبارة عن شريط ضيق من التلال تسمى الكتار ، ويلي هذا الشريط . الجـزء الثالث من غـور الاردن والمكون من أرض زراعية خصبة ومنحدرة باتجاه شرق ـ غرب ، ويدعى هذا الجزء بالغور ، وتتركز الزراعة المروية فيه منذ القدم ، حيث تسقى أراضيه من ميـاه العيون والاودية الجارية(٩) . وتكثر الاودية الدائمة الجريان في الجزء الشرقي من غور الاردن ، ويمكن ترتيبها من الشمال الى الجنوب كما يلي: وادي العرب ، ووادي زقلاب، ووادي الجرم ، ووادي اليابس ، ووادي كفرنجة ، ووادي الزرقاء ، ووادي شعيب ، ووادي الكفرين(١٠) . ويبدو أن صلاحية أراضي الجزئين الثاني والثالث من غور الاردن للزراعة المروية قد عكس اثره على أماكن الاستيطان البشري فيهما ، منذ أقدم العصور

وحتى الآن ، حيث تزداد نسبة تواجد المواقع الأثرية في هذين الجزئين ، وتقل في الجزء الاول ، مما دفع بعض الدارسين للتوزيع المكاني للمواقع الاثرية في غور الاردن الى الاعتقاد بوجود عدة بحيرات في منطقة الزور ، وذلك حتى فترة العصر الحجري الحديث ، نذكر منها بحيرة بيسان(١١) .

المسوحات الاثرية السابقة في غور الاردن :

يعتبر نلسون جلوك أول من اجرى مسوحات اثرية في منطقة شرق الاردن ،وذلك من الفترة الممتدة ما بين عام ١٩٣٩ و ١٩٤٠ م ، وما بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٧م . اهتم جلوك بدراسة وتوثيق المواقع الاثرية الكبيرة الحجم ، وخاصة تلك التي حملت على سطحها مخلفات اثرية عائدة لفترات زمنية مبكرة ، في حين أهمل كثيرا من المواقع الاثرية التي تعود للفترات الاسلامية ، وقد أشار الى المخلفات الحضارية التي تعود للفترات الاسلامية في مواقع أثرية استوطنت في فترات سابقة بمصطلح « العصور الوسطى » ، وهو تعبير أوروبي مأخوذ من كلمة Medieval . وقد سجل جلوك عدة مواقع اثرية في منطقة جسر الشيخ حسين هي : تل فندي ، وتل الاربعين ، وتل قدسية ، وخربة الشيخ محمد(١٢) . اما في منطقة سليخات فقد سجل جلوك المواقع الاثرية التالية : ظهرة ام المرار ، وخربة عين البيضا ، وتل هنيدة ، وخربة سليخات ، وتل العقارب ، وتل دحنون ، وتل حندقوق(١٣) . وقد بلغ مجموع المواقع الاثرية التي سجلها جلوك في المنطقة الممتدة بين نهر اليرموك شمالا ووادي راجب جنوبا ، (٥٨) موقعا . واعقبه ملارت عام ١٩٥٣ م بمسح ورصد المواقع الاثرية الواقعة في غور الاردن وحوض نهر اليرموك ، المهددة بالتدمير نتيجة لشق قناة الغور الشرقية والقنوات المتفرعة عنها . سجل ملارت في منطقة جسر الشيخ حسين موقعي تل الاربعين(١٤) وخربة الشيخ محمد(١٥) . أما في منطقة سليخات ، فلم يسجل ملارت اياً من المواقع الاثرية ، لانها تقع في منطقة تعلو منسوب قناة الغور الشرقية(١٦) . كما كتب دي كونتسون تقريرا لاحقا يستكمل فيه ذكر المواقع المهددة بالتدمير الناتج عن شق قناة الغور الشرقية . سجل هذا الباحث ثلاثة وعشرين موقعا أثريا ، وكان منها في منطقة جسر الشيخ حسين : تل الاربعين وتل ابو عرابي(١٧) . اما في منطقة سليخات فقد سجل دي كونتسون موقع تل حندقوق(١٨) .

ونظرا لما يشهده غور الاردن من ازدهار زراعي وعمراني منذ العقد السادس من هذا القرن ، وما قد ينجم عن ذلك من تدمير بعض المواقع الاثرية ، فقد أجري في هذه المنطقة في عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ م ، مسح أثري منظم ودقيق شمل المنطقة الممتدة من العدسية شمالا وحتى البحر الميت جنوبا . وقد أشرف على هذا المسح ، الاساتذة :

معاوية ابراهيم ، ممثلا لدائرة الآثار العامة ، وخير ياسين ، ممثلا للجامعة الاردنية ، وجيمس سور ، ممثلا للمركز الامريكي للابحاث الشرقية . وقد سجل أعضاء هـذه البعثة في منطقة جسر الشيخ حسين المواقع الاثرية التالية : تل فندي ، وتل الاربعين، وخربة الشيخ محمد وتل قدسية ، وخربة الشيخ حسين(١٩) . أما في منطقة سليخات فقد سجلت البعثة نفسها المواقع الاثرية التالية : أم البعر ، وظهرة أم المرار ، وخربة هجيجة ، وتل هجيجة ، وتل هنيدة ، ومقبرة سليخات ، وخربة سليخات ، وتل أبو العقارب ، وتل دحنون ، وتل حندقوق(٢٠) . وتجدر الاشارة الى أن هذه البعثة قـد سجلت ٢٢٤ موقعا أثريا في غور الاردن عامة ، غطت فترات زمنيـة تمتد مـن الالف السادس قبل الميلاد وحتى الوقت الحاضر دون انقطاع يذكر . أما المنحدرات المطلـة على غور الاردن فقد مسحت أثريا عام ١٩٨٥م باشراف د. مجاهد المحيسن . وقـد رصدت الكهوف والملاجىء وأماكن استقرار الانسان الذي عاش في العصور الحجرية على هذه السفوح ، والممتدة من وادي الجرم شمالا ووادي الكفرين جنوبا . وقـد سجلت المواقع التالية في منطقة سليخات : تـل حندقوق ، ومقابر تـل حندقوق ، ومنحدرات وادي سبيرة ، ومنحدرات سليخات ، ومقبرة سليخات ، وعين هنيـدة ، وهجيجة(٢١) .

كما قام كل من بلمبـو ومابري عام ١٩٨٧م بمسـح أثري لمنطقـة حوض وادي اليابس ، والواقعة ما بين منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات . وقد سجلت هذه البعثة موقعا أثريا واحدا يقع في حدود منطقة سليخات ، وهو خربة سبيرة(٢٢) . كما قام متمان بمسح أثري للمواقع الاثرية الواقعة في شمال الاردن عام ١٩٦٨ م وسُجل في هذا المسح موقع سبيرة ، حيث عثر على شقف فخارية تعود للعصر البيزنطي في الطرف الغربي لهذه الخربة وشقف فخارية أخرى أرجعها للعصر الحجري النحاسي، عثر عليها في الطرف الشرقي من الخربة(٢٣) .

كما اهتم هذا الباحث بدراسة طرق المواصلات المارة عبر غور الاردن ، وتمكن من دراسة النقوش على الشواهد الحجرية الدالة على هذه الطرق ، والتي عثر عليها في منطقة تل الاربعين وبالقرب من موقع طواحين السـكر ، والقرن ، ووادي كفرنجـة ، وعمتا . وقد دلت قراءة هذه النصوص على أن هذه الشواهد الحجرية قد وضعت في القرنين الثاني والثالث الميلاديين(٢٤) .

الحفريات الاثرية السـابقة في غور الاردن

كشفت المسوحات الاثرية السابقة الذكر في غور الاردن عن رصد مجموعة كبيرة من المواقع الاثرية الهامة ، التي تغطي فترات استيطان بشري عبر عصور مختلفة .

كما أوصى المساحون الاثريون السابقو الذكر ، باجراء حفريات أثرية في مناطق أثرية، اتصفت بأنها مواقع استيطان كبيرة الحجم وذات طابع مدني ، في حين ان المواقع الصغيرة الحجم ــ القرى الزراعية ــ بقيت مهملة حتى بداية العقد الثامن من هذا القرن . وتجدر الملاحظة أيضا بأن اهتمام المنقبين الاثريين في غور الاردن قد تركز على اختيار المواقع الاثرية القديمة ؛ تلك التي تعود الى ما بين الالف السادس قبل الميلاد والقرن السادس قبل الميلاد ، في حين ان المواقع الاثرية العائدة للفترات الكلاسيكية والاسلامية ، قد اهملت الى حد بعيد . كما أجريت تنقيبات أثرية منظمة في مواقع متعددة من غور الاردن ، وذلك منذ بداية العقد الرابع من هذا القرن . ويمكن ترتيب هذه المواقع الاثرية جغرافيا من الشمال الى الجنوب كما يلي(٢٥) :

تل الشونة الشمالي(٢٦) :

دلت الحفريات الاثرية بهذا الموقع على انه قد استوطنت في العصر الحجري الحديث ــ المرحلة اليرموكية (الالف الخامس قبل الميلاد) ، وفي العصر الحجري النحاسي (الالف الرابع قبل الميلاد) ، وفي العصر البرونزي المبكر بمراحله الثلاث الاولى (الالف الثالث قبل الميلاد) ، وفي العصر الهللنستي (٣٣٢ قبل الميلاد ــ ٦٣ ميلادي) ، وفي العصر الايوبي / المملوكي (١١٧١ ــ ١٥١٦ ميلادي) .

تل الحيات(٢٧) :

اشارت الحفريات الاثرية في هذا الموقع الى تواجد شقف فخارية عائدة للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر (٢٤٠٠ ــ ٢٠٠٠ قبل الميلاد) ، ولكن لم يعثر على بقايا معمارية ممثلة لهذه الفترة في هذا الموقع . وتمثل فترة العصر البرونزي الوسيط (النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد) ، مرحلة الاستيطان الرئيسة في هذا الموقع ، حيث أمكن التعرف على أربعة مراحل سكنية عائدة لنفس الفترة . واهم ما كشف عنه في الموقع ، معبد اعيد بناؤه أربع مرات ، وقورن مع معابد أخرى في فلسطين وابلا في سوريا . كما عثر على بقايا أثرية متنوعة على السطح، كحفر الخزين وشقف فخارية وقطع عملة يعود تاريخها الى ما بين العصر الفارسي والعصر البيزنطي.

تل ابو هابيل(٢٨) :

كشفت الحفريات الاثرية المبكرة في هذا الموقع عن حفر سكنية وادوات حجرية وآنية فخارية تعود للعصر الحجري النحاسي ، وقورنت بما عثر عليه سابقا في تليلات غسول وأريحا .

تل ابو حامـد(٢٩) :

اظهرت الحفريات الاثرية المنظمة والدقيقة في هذا الموقع ، تواجد ابنية سـكنية من الطوب الطيني على أساسات حجرية . كما عثر أمامها على ساحات مكشوفة ، مورست بها النشاطات اليومية . وقد أرخت جميع المكتشفات الاثرية في هذا الموقع الى العصر الحجري النحاسي (نهاية الالف الخامس ــ بداية الالف الرابع قبل الميلاد)، واعتبر هذا الموقع من القرى الزراعية الكبيرة العائدة لهذه الفترة .

تل أبو الـحزز(٣٠) :

عثر في هذا الموقع على مخلفات حضارية عائـدة للعصر الحجري النحاسـي ، والعصر البرونزي المبكر بمرحلتيه الاولى والثانية ، والعصر البرونزي الحديث(النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد) ، والعصر الحديدي بمرحلتيه الاولى والثانيـة ، والعصر الروماني .

تل ابو النعـاج(٣١) :

يعتبر هذا الموقع من المواقع الاثرية الهامة في غور الاردن، حيث كشفت الحفريات الاثرية فيه عام ١٩٨٥م ، على تواجد أبنية سكنية مبنية بالطوب الطيني تعود للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي القديم .

وادي اليابس(٣٢) :

كشفت الحفريات الاثرية المبكرة في هذا الموقع عن تواجـد مخلفات أثرية تعـود للعصر الحجري الحديث ــ المرحلة اليرموكية .

تل اسـعيدية(٣٣) :

اكدت الحفريات الاثرية المتتالية في هذا الموقع على تواجد مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي ، والعصر البرونزي المبكر ، والعصر البرونزي الوسـيط ، والعصر البرونزي المتأخر ، والعصر الحديدي ، والعصر الفارسي . كما عثر على منشأة معمارية كبيرة اعتقد بأنها استخدمت كخان في العصر الاموي .

تل المــزار(٣٤) :

أبدت الحفريات الاثرية المنظمة في هذا الموقع على انه استوطن في العصر الحديدي بمرحلتيه الاولى والثانية ، وفي العصر الفارسي . ويبدو أن هذا الموقع قد هجر مـع بداية غزو الاسكندر المقدوني للمنطقة عام ٣٣٢ قبل الميلاد .

تل ابو سربوط(٣٥) :

كشفت الحفريات الاثرية المتتالية في هذا الموقع على انــه قد استخدم كقريــة زراعية « العصرين الايوبي والملوكي » . فالى جانب الانشاءات المعمارية السكنية، فقد عثر في هذا الموقع على أعداد كبيرة من الشقف الفخارية التــي استخدمت في تصــنيع السكر في « العصر الايوبي والملوكي » كما دلت هده الحفريات على أن الطرف الشرقي من هذا الموقع قد استوطن في العصر البيزنطي .

تل ابو قعــدان(٣٦) :

واعتقد أن هذا التل الاثري قد هجر معبداية غزو الاسكندر المقدوني للمنطقة . كما عثر في قمةالتل على مجموعة مقابر تعود للعصر الايوبي/المملوكي . ويبدو أن هذا لكونه أحد المراكز الهامة لتصنيع السكر في العصر الايوبي / المملوكي . واعتقد فرانكن على أن هذا الموقع قد هجر في القرن السادس عشر الميلادي .

تل دير عــلا(٣٧) :

من خلال الحفريات الاثرية المتتالية في هذا الموقع ، ظهر وجود مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي ، والعصــر البرونزي الوسيط ، والعصــر البرونزي المتأخر ، والعصر الحديدي ، والعصر الفارسي (٥٣٩ ــ ٣٣٢ قبل الميلاد) .

واعتقد أن هذا التل الاثري قد هجر مع بداية غزو الاسكندر المقدوني للمنطة . كما عثر في قمة التل على مجموعة مقابر تعود للعصر الايوبي / المملوكي . ويبدو أن هذا الموقع الاثري قد ازدهر في نهاية العصر البرونزي المتأخر ، حيث عثر على معبد ارخ لهذهالفترة، وبداخله مجموعه من الآنية الفخارية والمرمرية المستوردة مــن موكناي ومصر ، ومن المكتشفات الهامة في هذا المعبد قارورة من المرمر تحمل اسم الملكة المصرية تاوسرت (١٢٠٥ ــ ١١٩٤ قبل الميلاد) ، زوجة الفرعون المصري سيتي الثاني . كما

عثر في هذا الموقع على كتابات بالخط الآرامي تذكر اسم الكاهن « بلعم » وارخت هذه الكتابات لما بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد .

كتـــارة الســـمرا(٣٨) :

كشف في هذا الموقـــع عن مخلفات حضاريـــة تعود للعصر الحجري النحاســـي ، وللمرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر (٣٢٠٠ ــ ٢٩٠٠ قبل الميلاد) ، وللعصر البرونزي الوسيط ، وللعصر البرونزي المتأخر . كما عثر في هذا الموقع على مجموعة من المقابر العائدة للعصر البرونزي المتأخر ، وبداخلهـــا مجموعة من الآنية الفخاريـــة المصنعة محليا واخرى مستوردة من جزر البحر الابيض المتوسط .

تل ام حمـــاد(٣٩) :

اظهرت الحفريات الاثرية في هذا الموقع عن مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي ، وللمرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر . وتكمن اهمية هذا الموقع في كونه يمثل احد مواقع الاستيطان القليلـــة ، والتي تعود للمرحلـــة الرابعة من العصـــر البرونزي المبكر في جنوبي بلاد الشام .

طوال الشرقي(٤٠) :

يقع على الجانب الجنوبي من موقع تل أم حماد . وكشف فيه عن مجموعة كبيرة من المقابر العائدة للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر .

تل نمرين :

عثر عام ١٩٨٠م على الطرف الغربي من هذا التل على كنيسة كسيت ارضيتها بالفسيفساء . ويعود تاريخ انشائها للقرن السادس الميلادي ، واستمر استعمالها مع بعض الاضافات المعمارية طيلة العصر الاموي(٤١) . كما اجريت في هذا الموقع اعمال تنقيب اثرية منظمة ، وذلك منذ عام ١٩٨٩م . تم التعرف مـــن خلالها على اســـوار دفاعية ، وبيوت سكنية تعود للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر . اما المنشآت المعمارية التي تعود الى ما بين العصر الروماني والعصر الاسلامي المتأخر فقد اصابهـــا التدمير نتيجة لأعمال التجريف على سطح هذا الموقع(٤٢) .

تـل إكتانـو(٤٣) :

كشفت الحفريات الاثرية في هذا الموقع عن قلعة تعود للعصر الحديدي ، وقـد أحيطت بجدران دفاعية ، يبلغ سمكها ١ م . الا أن أهم ما كشف عنه في هذا الموقع ، مجموعة انشاءات معمارية سكنية ، ومجموعة من الافران التـي استعملت لتصـنيع الآنيـة الفخارية ، وهي جميعا تعود للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر .

غروبـة(٤٤) :

أجريت في هذا الموقع الاثري حفريات أثرية من قبل ملارت ، وكشف عن مخلفات أثرية تعود للمرحلة الاخيرة من العصر الحجري الحديث (الحضارة اليرموكية) ، ومن العصر الحجري النحاسي .

سهل السرابيط(٤٥) :

أجريت في هذا الموقع حفرية أثرية ــ لموسم واحد ــ كشفت عن مخلفات أثريـة عائدة للعصر العباسي ، والعصر الايوبي/المملوكي . واعتمادا على كثرة الكسر الزجاجية التي عثر عليها في هذا الموقع ، اعتقد المنقبون انه قد استخدم لتصنيع الآنية الزجاجية في العصر الاسلامي الوسيط .

تليلات غسـول(٤٦) :

يغطي هـذا الموقع الاثري مسـاحة اجمالية مقدارها ثمانون دنمـا . وقد دلت الحفريات الاثرية المتتالية في هذا الموقع ، انه قد استوطن في فترتين متتاليتين ، هما : العصر الحجري الحديث « المرحلة اليرموكية » والعصر الحجـري النحاسي . وقـد مثلت المرحلة اليرموكية من العصر الحجري الحديث ببيوت سكنية جاءت على شـكل حفر ، ومجموعة من الادوات الحجرية والآنية الفخارية . وتعتبر هذه الآنية الفخارية الاقدم تاريخيا لنوعها في جنوب بلاد الشام . أما المرحلة اللاحقة ــ العصر الحجـري النحاسي فقد جاءت بيوتها السكنية مبنية من الطوب الطيني على أساسات حجرية . وقد دعيت المخلفات الحضارية الاتية من هذا الموقع بالحضارة الغسولية ، نسبة الى اسم هذا الموقع .

زيارات الرحالة الاوربيين لغور الاردن :

نشط الرحالة الاوروبيون بالتوافد الى بلاد الشام منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، وسجلوا ملاحظاتهم حول التعداد السكاني وأماكن الاستيطان والثـروات

الاقتصادية والطبيعية والجغرافية والبقايا الاثرية . وتعتبر مدونات الرحالة هذه هامة لاكمال حلقة التسلسل التاريخي لغور الاردن ، في ظل معرفتنا القليلة للبقايا الاثرية العائدة للفترة العثمانية ، ولقلة التاريخ المكتوب والمنشور عن هذه الفترة .

زار بيركهاردت عام ١٨١٢ م المنطقة الشمالية لغور الاردن وسجل تواجد قريتين اساسيتين في هذه المنطقة ، هما : معاذ ، وتل الاربعين(٤٧) . كما عبر بيركهاردت نهر الاردن في نفس العام قاصدا مدينة السلط ، وخلال مروره بغور الاردن سجل بعض المواقع مثل وادي الموز (وادي الجرم حاليا) ، روادي اليابس ، ومزار شرحبيل ، وتل قرن الحمار (القرن حاليا) ، وعمتا (قرية ابو عبيده حاليا) ، ومزار ابو عبيدة، حيث يتواجد حوله بعض البيوتالطينية (٤٨) . ومن الملاحظات الهامة التي سجلها ، ان منطقة غور الاردن توفر أرضا رعوية خصبة لعدد من القبائل البدوية ، بعضها استقر فيغور الاردن ، والبعض الاخر قادم من المرتفعات الشرقية أو الغربية ، كما شاهد هذا الرحالة بعض الحقول المزروعة بالقمح والشعير والذرة(٤٩) .

اما بكنغهام فقد زار غور الاردن عام ١٨١٦م وذكر مجموعة من المواقع وصفها بأنها قرى مهدمة أو مهجورة ، نذكر منها : تل الاربعين ، وخربة مرقعة ، وقبر الشيخ حسين ، وخربة هجيجة ، وفقارس (قرية كريمة حاليا) ، وعمتا(٥٠) . وفي عام ١٨٢٨م زار (ج.هـ) الجزء الجنوبي من غور الاردن (غور نمرين) وشاهد بعض الحقول المزروعة بالقمح(٥١) . كما زار روبنسون منطقة وادي اليابس وطبقة فحل في عام ١٨٣٨ . وشاهد أثناء مروره بمنطقة وادي اليابس مجموعة من الفلاحين ، الذين أتوا اليها من المنطقة الجبلية (من قرية فارة) ، وبنوا لانفسهم أكواخا منالقصب على الجانب الجنوبي من وادي اليابس (٥٢) . كما زار وارن الجزء الجنوبي من غور الاردن ، وشاهد حقول القمح ، التي زرعها السكان الاصليون للمنطقة (دعاهم بالفوارنة)(٥٣) . وفي عام ١٨٧١م زار نورثي المنطقة الجنوبية لغور الاردن ومنطقة عجلون ، وشاهد هذا الرحالة حقول القمح المزروعة في غور الشونة الجنوبية وفيمنطقة ابو عبيدة(٥٤) . وفي عام ١٨٨٢ زار الرحالة الالماني فان دي فلده غور الاردنالشمالي، وسجل وجود قرية صغيرة وحديثة في طبقة فحل(٥٥) . كما زار لو سترانج المنطقة الشمالية من غور الاردن عام١٨٨٤م ، وشاهد حقول القمح المزروعة في السهول الممتدة بين طبقة فحل وبيسان(٥٦) . أما شوماخر فقد زار الجزء الشمالي من غور الاردن عام ١٨٨٦م ، وسجل تواجد مجموعة من القرى الزراعية المأهولة بالسكان . ولقد تركز تواجد هذه القرى الزراعية في المنطقة الممتدة بين نهر اليرموك شمالا وطبقة فحل جنوبا(٥٧) . وأكد سميث ملاحظات شوماخر سابقة الذكر ، حيث زار هذا الرحالة غور الاردن عام ١٨٩١ وسجل وجود مجموعة من القرى الزراعية المتواجدة

على أرضية غور الاردن(٥٨) . أما شتوير ناجل فقد زار منطقة عجلون عام ١٨٩٨وسجل مجموعة من المواقع الاثرية في منطقة سليخات هي : خربة إهنيدة ، وخربة فلاح ، وخربة سبيرة ، وخربة القرن ، وسليخات ، وتل حندقوق ، وفقارس . كما سجل أن منطقة سليخات كانت تقصدها عائلات آتية من خربة الوهادنة في فصل الشتاء وترجع ثانية في فصل الصيف بعد ان تتم عملية الحصاد(٥٩) .

المسوحات الاثرية الاخيرة في غور الاردن :

١ ـ المسح الاثري لمنطقة جسر الشيخ حسين(٦٠) :

تقع منطقة جسر الشيخ حسين في الجزء الشمالي من غور الاردن ، على بعد ١١كم الى الشمال الغربي من مدينة طبقة فحل الاثرية ، وعلى بعد ١٣ كم الى الجنوب من بلدة الشونة الشمالية ، وعلى بعد ٤٥ كم الى الجنوب الغربي من مدينة اربد .

هدف العمل الميداني الاثري في هذه المنطقة الى الكشف عن استمرارية او عدم استمرارية الاستيطان ، وطبيعته فيها ، كجزء ممثل لغور الاردن ، كما رمى هذا العمل الميداني الى محاولة الربط بين المواقع الاثرية التي تم التعرفعليها في المنطقة مع موقع تل قدسية ، الذي أظهرت المسوحات الاثرية السابقة فيه، فترات‌الاستيطان الكلاسيكي والاسلامي . تكون العمل الميداني الاثري في هذه المنطقة من جزئين مكملين لبعضهما بعضا ، الاول : مسح اثري منظم ودقيق للمنطقة (بمساحة اجمالية تبلغ ١٦ كم٢) ، والثاني ، الحفر الرأسي في موقع تل قدسية ، بغرض اظهار التسلسل التاريخي لهذا الموقع ، وربطه مع المواقع الاثرية التي أمكن التعرف عليها في منطقة المسح .

يتميز العمل الميداني الاثري في مناطق محدودة المساحة ، كمنطقة جسر الشيخ حسين ، بدقة رصد المواقع الاثرية الصغيرة المساحة ، والتي تقل مساحتها عن خمسة دونمات ، ولذلك فقد أمكن التعرف على ثلاثة مواقع أثرية لاول مرة في هذه المنطقة، وهي : خربة الشيخ محمد صالح الغزاوي (وتسمى ايضا خربة سليم اليوسف) ، وتل ابو عرابي الشمالي ، وتل يرفا .

اما المواقع الاثرية التي تم تسجيلها في منطقة جسر الشيخ حسين (انظر الخارطة رقم ٢) ، والفترات التاريخية التي أظهرتها (شاهد اللوحة رقم ٣)، من خلال دراسة المخلفات الحضارية الظاهرة على سطحها ، فهي :

١ ـ تل فنـدي :

قَسِم هذا الموقع نظرا للاختلاف الواضح في تاريخ المخلفات الحضارية الظاهـرة على السطح ، الى قسمين هما :

أ ـ تل فندي الشمالي (الموقع A) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المخطط الشبكي (Grid Strategy) ١.٠٥٦ شقفة . ودلت دراسـة هـذه الشقف الفخارية والادوات الصوانية على ان هذا الموقع قد إستوطن بشكل اساسي في العصر الحجري النحاسي / المرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر (الالف الرابع قبل الميلاد) حيث مثلت هذه الفترة ٩٨٩ شقفة فخارية (بنسبة مئويـة ٩٣ر٦٥٪ من المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة) . اما الشقف الفخارية الباقية فقـد ارجعت للعصور التالية : العصر البيزنطي (٤٥ شقفة) ، والعصر الايوبي/المملـوكي (١٢ شقفة) : والوقت الحاضر (٥ شقف) .

ب ـ تل فندي الجنوبي (الموقع B) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح الموقع ، باستعمال طريقـة المخطط الشبكي ، ٤٦١ شقفة ، وقدأرخت جميعها للعصـر الايوبي/المملوكي . ومما يلاحظ أن جميع الكسر الفخارية الملتقطة ، وتلك الظاهرة على سطح الموقع ، هي مـن تلك الجرار التي استخدمت في عملية تصنيع السكر في العصر الايوبي / المملوكي .وفي ظل غياب المرفقات الانشائية الخاصة لهذا الغرض في هذا الموقع. وظهورها في موقـع آخر في منطقة البحث (موقع تل ابو عرابي الشمالي ! ، والعثور على طوب محروق في موقع تل فندي الجنوبي ، والذي يعتقد أنه استخدم في بناء الافران الخاصة لحرق الآنية الفخارية ، يرجح الباحث ان هذا الموقع استخدم لتصنيع الآنية الفخارية المعدة لتصنيع السـكر .

٢ ـ خربة الشيخ محمد صالح الغزاوي (خربة سليم اليوسف) :

لقد قَسم هذا الموقع نظراً لكبر مساحته والاختلاف الواضح في طبوغرافيته ، الى ثلاثة اقسام هي :

أ ــ خربة الشيخ محمد صالح الغزاوي (الموقع C) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المخطط الشبكي ، ٧٦٢ شقفة . وقد دلت دراسة هذه الشقف الفخارية على ان هذا الموقع قد استوطن في العصور التالية : العصر البرونزي المبكر (٤٣ شقفة)، والعصر الايوبي / المملوكي (٢١ شقفة) ، والعصر العباسي / الفاطمي (٤٣١ شقفة)، والعصر الايوبي / المملوكي (٢٦٧ شقفة) . ومن خلال استعراض عدد الشقف الفخارية الممثلة لكل فترة ، فانه يمكن القول ان هذا الموقع قد استوطن بشكل اساسي في الفترة الممتدة بين القرن التاسع والقرن السادس عشر الميلادي .

ب ــ خربة الشيخ محمد صالح الغزاوي (الموقع D) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف« Purposive Random Sampling » ٢٢٠ شقفة . وقد أرخت هذه الشقف الفخارية للعصور التالية : العصر البرونزي المبكر (١٠ شقف) ، والعصر البيزنطي (٣ شقف) ، والعصر العباسي / الفاطمي (١٠١ شقفة) ، والعصر الايوبي / المملوكي (١٦ شقفة) . كما أن هناك عشر شقف فخارية لم يتمكن من تحديد تاريخها ، لصغر حجمها .

جـ ــ خربة الشيخ محمد صالح الغزاوي (الموقع E) .

لقد جمعت ٣٧٣ شقفة فخارية عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف . وأرخت جميع هذه الشقف للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر (٢٣٠٠ ــ ٢٠٠٠ قبل الميلاد) . ويلاحظ أن جميع هذه الشقف هي من جرار كتلك التي عثر عليها في المقابر المنسوبة لهذه المرحلة ، الا انه لم يلاحظ وجود مثل هذه المقابر نظرا لأعمال التجريف الواسعة بالمنطقة ، لغايات استصلاح الاراضي للزراعة المروية .

٣ ــ تل الاربعين :

نظرا لمساحة هذا الموقع الكبيرة فقد قسم الى اربعة مواقع ، هي :

أ ــ تل الاربعين (الموقع F) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال

طريقة المخطط الشبكي ، ١٠٤٢ شقفة ، وأرخت هذه الشقف للعصور التالية : نهاية العصر الحجري الحديث (المرحلة اليرموكية) / العصر البرونزي المبكر (٨٢٩ شقفة)، والعصر البرونزي الوسيط (٥ شقف) ، والعصر البرونزي المتأخر / العصر الحديدي (١٩٧ شقفة) ، والعصر البيزنطي (٧ شقف) ، والعصر الايوبي/المملوكي (٥ شقف) والوقت الحاضر (٣ شقف) .

ب ــ تل الاربعين (الموقع G) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المخطط الشبكي ، ٤٩٦ شقفة . وقد مثلت هذه الشقف الفخارية العصور التالية : المرحلة اليرموكية من العصر الحجري الحديث / العصر البرونزي المبكر (٢٩٣ شقفة) ، والعصر البرونزي المتأخر / العصر الحديدي (١٨٠ شقفة) ، والعصر البيزنطي (١٢ شقفة) ، والعصر الايوبي / المملوكي (٥ شقف) والعصر العثماني (٣ شقف) ، والوقت الحاضر (٣ شقف) .

جـ ــ تل الاربعين (الموقع H) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتي المسح العشوائي الهادف والمسح العشوائي الثابت الحدود ، ١٦٣ شقفة . وقد أرخت هذه الشقف للعصور التالية : العصر البرونزي المبكر (٧شقف) ، والعصر العثماني / البيزنطي (٧ شقف) والعصر الايوبي/المملوكي (١٤ شقفة)، والعصر العثماني (٥ شقف) ، والوقت الحاضر (١٥ شقفة) . كما أنه لم يتمكن من تحديد تاريخ ٥٥ شقفة فخارية نظرا لصغر حجمها .

د ــ تل الاربعين (الموقع I) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتي المسح العشوائي الهادف والمسح العشوائي الثابت الحدود ، ٢٠٢ شقفة . وأرخت هذه الشقف للعصور التالية : العصر البرونزي المبكر (٧٤ شقفة) ، والعصر البيزنطي (٧ شقف) ، والعصر الايوبي / المملوكي (١٤ شقفة) ، والعصر العثماني (٣ شقف) ، والوقت الحاضر (٦٥ شقفة) ــ أما الشقف الفخارية الباقية فلم يتمكن من تأريخها لصغر حجمها . كما رصد في هذا الموقع أساسات لبيوت حجرية تعود للقرن التاسع عشر الميلادي ، ويعتقد أنها تلك التي سجلها الرحالة الاوروبيون مثل بكنغهام في ١٨١٧م(٦١) وشوماخر في عام ١٨٨٧م(٦٢) .

٤ ــ تل أبو عرابي الشمالي (الموقع J) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هـذا الموقع ، باستعمال طريقة المخطط الشبكي ، ٣٤٠ شقفة . أرخت جميع هذه الشقف للعصر الايوبي / المملوكي وهي جميعا من تلك الجرار المستخدمة في تصنيع السكر خلال تلك الفترة .

كما عثر في وادي زقلاب ، الواقع على الطرف الجنوبي لهذا الموقعالاثري ، على سـد حجري . ويعتقد بأنه أنشىء لتحديد مسار مياه هذا الوادي، وذلك لاستخدامها اما لسقاية الحقول المزروعة بقصب السكر في منطقة جسر الشيخ حسين ، أو لادارة طاحونة لاستخراج السكر. الا انه لم يُعثر على سطح هذا الموقع على المرفقاتالانشائية الاخرى المسـتعملة في تشييد مثل هذه الطواحين والمنتشرة في غور الاردن .

٥ ــ تل يرفـا (الموقع K) .

جمعت ٥٤ شقفة فخارية عن سطح هذا الموقع ، وذلك باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، وأرخت هذه الشقف الفخارية للعصور التالية : العصر البيزنطي (٥ شقف) ، والعصر الايوبي / المملوكي (٤٤ شقفة) ، واوقت الحاض (٥ شقف) .

٦ ــ خربة الشيخ محمد

قسم هذا الاثري ، نظرا لكبر مساحته ، الى قسمين هما :

أ ــ خربة الشيخ محمد (الموقع L) .

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقـع ، باستعمال طريقتي المخطط الشبكي والمسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الحجري الحديث /العصر الحجري النحاسي (١٠١١ شقفة) ، والعصر البرونزي الوسيط (٥٤ شقفة)، والعصر البيزنطي (٣ شقف) ، والوقت الحاضر (١٤ شقفة) .

ب ــ خربة الشيخ محمد (الموقع M) .

أرخت الشقف الفخاريـة الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتـي المخطط الشبكي والمسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الحجري الحديث / العصر الحجري انحاسي (٤٤٤ شقفة) ، والعصر البرونزي الوسيط (٣٦ شقفة)، والعصر البيزنطي (٣ شقف) ، والوقت الحاضر (٣ شقف) .

٧ ــ تل قدسية (الموقع N) .

جُمعت عن سطح هذا الموقع ٢٠٠٩ شقفة فخارية ، وذلك باستخدام طريقة المخطط الشبكي . وقد أرخت هذه الشقف للعصور التالية : العصر البيزنطي المتأخر (٩٦٢ شقفة) ، والعصر البيزنطي / الاموي (٥٧٧ شقفة) ، والعصر الاموي (٢١٩ شقفة) والعصر العباسي / الفاطمي (١٩١ شقفة) ، والعصر الايوبي / المملوكي (٥٧ شقفة) ، والعصر العثماني (٣ شقف) .

٨ ــ خربة الشيخ حسين الموقع O) .

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الايوبي / المملوكي (٢٣٩ شقفة) ، والعصر المملوكي / العثماني (١٤ شقفة) .

٢ ــ المسح الاثري في منطقة سليخات :

تقع منطقة سليخات في الجزء الجنوبي من غور الاردن الشمالي ، وعلى بعد ٧٢كم الى الجنوب الغربي من مدينة اربد ، وعلى بعد ١٦ كم الى الجنوب من مدينة طبقة فحل الاثرية ، وعلى بعد ١٧ كم الى الشمال الشرقي من موقع تل دير علا(٦٣) .

كان هدف العمل الميداني الاثري في هذه المنطقة تحديد المواقع الاثرية وتاريخ الاستيطان فيها ، والربط بين المواقع الاثرية الموجودة في هذه المنطقة ومصادر المياه . كما هدف هذا المسح ، كجزء من مشروع إثنو أثري ، الى توثيق المنشآت المعمارية وانظمة الري العائدة للفترات القديمة والحديثة على حد سواء .

اسفر المسح الاثري في هذه المنطقة عن تسجيل اربعة عشر موقعا اثريا ، منها ثلاثة مواقع امكن التعرف عليها لأول مرة ، وهي السفح الجنوبي الشرقي لقرية سليخات ، والسفح الشمالي الشرقي لقرية سليخات ، والسفح السفلي لتل هجيجة . اما المواقع الاثرية التي تم رصدها في منطقة البحث فهي(٦٤) :

١ ــ قرية سليخات .

نظرا لكبر مساحة هذه القرية والمنطقة المحيطة فيها ، فقد قسمت الى ثلاثة اقسام هي :

أ ـ السفح الشمالي الشرقي لقرية سليخات :

أرخت الشقف الفخاريـة الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتـي المسح العشوائي الهادف والمسـح الثابت الحدود ، للعصور التالية : العصر الحجري النحاسي (١١ شقفة) ، والعصر الحديدي (٣ شقف) ، والعصر البيزنطي (٧شقف)، والعصر الايوبي / المملوكي (٣٢ شقفة) ، والعصـر العثماني (٣ شقف ؟) . كمـا عثر في هذا الموقع على بقايا لمعصرة نبيذ ، نحتت بالصخر الطبيعي ، وتعود للعصـر البيزنطي . كما عثر في هذا الموقع على خمسة كهوف ، ويعتقد بنـاء على دراسـة الادوات الصوانية المنتشرة على سطح الموقع ، بأنها قد سـكنت في العصـر الحجري الحديث .

ب ـ السفح الجنوبي الشرقي لقرية سليخات :

أرخت الشقف الفخاريـة الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتـي المسح العشوائي الهادف والمسحالعشوائي الثابت الحدود ، للعصور التالية : العصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي (٨ شـقف) ، والعصـر الروماني / البيزنطي (٦ شقف) ، والعصر الايوبي المملوكي (١٧ شقفة) ، والوقت الحاضـر (٤ شقف) . وبناء على دراسة الادوات الصوانية الملتقطة عن سطح هذا الموقع،يعتقد بأن مجموعة الكهوف الصخرية المتواجدة به قد سكنت في العصر الحجري الحديث.

ج ـ قرية سليخات :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر البيزنطي (٨ شقف) ، والعصر الايوبي/ المملوكي (٧٢ شقفة) ، والعصر العثماني (٤ شقف) ، والوقت الحاضر (٤ شقف). كما عثر في واديسليخات ، الواقع في الطرف الشمالي بهذه القرية ، على ثلاث معاصر استخدمت في العصر الايوبي / المملوكي لعصر قصب السكر . ولم تستخدم الميـاه الجارية في وادي سليخات وتلك المجمعة من عيني هنيدة وهجيجة لادارة طواحين السكر هذه فقط ، وانما استخدمت لسقاية تلك الحقول المزروعة بقصب السكر في العصر الايوبي / المملوكي ، حيث عثر على قناة حجرية استخدمت لتجميع مياهعيني هجيجة وهنيدة في بركة اصطناعية ، وبعد استخدام هذه المياه لادارة هذهالطواحين، يعاد استخدامها عبر قناة حجرية اخرى لسقاية حقول قصب السكر في المنطقة .

٢ ــ موقع مقبرة سليخات :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصر الحجري النحاسي / العصر البرونزي المبكر ، وللمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر ، وللعصر البرونزي الوسيط . كما عثر على مجموعة من الادوات الحجرية تمثل اجزاء لاجران ومدقات وثقالات نسيج ، ارخت للعصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي .

٣ ــ تل ابو العقارب :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الحجري النحاسي / العصر البرونزي المبكر (٤ شقف) وللعصر الحديدي (٣٨ شقفة) . كما عثر على قمة هذا الموقع على اساسات حجرية لبيت مستطيل الشكل . ولقد حصن هذا البيت ببرجين مربعي الشكل ، يقع الاول على الجانب الشمالي للمدخل ، أما الاخر فيقع على الطرف الجنوبي الغربي . وبناء على دراسة الشقف الفخارية الملتقطة عن السطح ، والدراسة المقارنة بين التخطيط المعماري لهذا البيت المحصن وبيوت اخرى مشابهة عثر عليها في صحراء النقب(٦٥) ، يعتقد بأنه يعود للعصر الحديدي .

٤ ــ تل دحنــون :

لقد أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصر الحديدي (٢٥ شقفة) . كما يظهر على السطح اساسات حجرية لبيوت سكنية ، ويلف هذا الموقع جدار تحصيني بسماكة متر واحد ، تتخلله ابراج مربعة الشكل على الاطراف الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية . ومن أجل تدعيم الجدار التحصيني فقد بنيت دعامات استنادية على الجزء الاوسط من المنحدر الواقع على الطرف الغربي للموقع ، وقد أرخت هــذه المنشآت المعماريــة للعصــر الحديدي .

٥ ــ تل حندقوق :

أرخت جميع الشقف الفخارية (١٠٥ شقف) الملتقطة عن ســطح الموقــع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصــر الحجــري النحاســي / العصر البرونزي المبكر ، كما اجرى الباحث مابري(٦٦) مجسات اختبارية في هــذا الموقع ،

تم التعرف من خلالها على التسلسل التاريخي للاستيطان به، والتي شملت المرحلة الاخيرة من العصر الحجري النحاسي ، والعصر البرونزي المبكر بمراحله الاولى والثانية . كما يستدل من خلال دراسة آثار الاختام الاسطوانية التي عثر عليها مابري(٦٧) وكاتب هذا التقرير ، ان هذا الموقع ارتبط بعلاقات تجارية مع مواقع سورية كتل الجديدة، في العصر البرونزي المبكر .

٦ ـ خربة هجيجة :

نظرا لاتساع مساحة هذه الخربة والمنطقة المحيطة بها ، وللتباين الواضح في تأريخ البقايا الاثرية الظاهرة على السطح ، فقد قسمت الى ثلاثة اقسام هي :

أ ـ خربة هجيجة :

ارخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الروماني (٤ شقف) ، والعصر البيزنطي (٣٧ شقفة)، والعصر الاموي (١٦ شقفة) ، والعصر العباسي (شقفتان) ، والعصر الايوبي / المملوكي (٦ شقف)، والعصر العثماني (٤ شقف) ، والوقت الحاضر (شقفتان) .

امكن تأريخ بقايا جدران حجرية لمنشآت معمارية سكنية ، تقع اسفل البيوت الحديثة وفي ساحاتها ، الى العصر البيزنطي / الاموي ، وذلك من خلال دراسة الشقف الفخارية الملتقطة من المقاطع المجاورة لاساسات هذه الجدران .

كما كشف في هذا الموقع عن كنيسة ، رصفت أرضيتها بالفسيفساء ، والحقت بها حجرتان على الجانب الجنوبي . أما المنشآت المعمارية التي تعود للعصر المملوكي/ العثماني فقد جاءت على شكل ابنية كبيرة الحجم (١٠ × ٦ م) ، بنيت من الحجارة الكبيرة . واستخدم الملاط الطيني والحجارة الصغيرة في تثبيت مداميك هذه الجدران. وعثر على خزان للماء (القطر ٣م ، العمق ٥ر١م) يعود لهذه الفترة ، بنيت جدرانه من حجارة المرحلة السابقة . وتشير الوثائق العثمانية العائدة لعام ١٥٩٦م ، والمتعلقة بجمع الضرائب ، الى ان سكان هذا الموقع (دعيت تحت اسم مزرعة حجج) كانوا يدفعون الضرائب بمقدار (١٥٠٠) آقجة ، وهي ضمن تيمار(٦٨) يتبع اسماعيل بن عثمان وشريكه(٦٩) . ولعل ذكر الوثائق العثمانية لهذه الخربة يؤكد ما ذهبنا اليه من تأريخ هذه المنشآت المعمارية لنهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني .

أما المنشآت المعمارية التي تعود الى ما بين عام ١٩٠٠ وعام ١٩٥٠م فقد جاء تخطيطها المعماري على شكل جناحين ، الجناح الشرقي ، وقد استخدم للمعيشة ويتكون من حجرة واحدة أو حجرتين ، وأما الجناح الجنوبي فقد استخدم للتخزين (من قمح وشعير وتبن)، ويتكون هذا الجناح من حجرة واحدة تنتهي في طرفها الجنوبي بتجويف صخري (مغارة) . ويبدو أن هذا التخطيط المعماري يتناسب مع ما ذكره الرحالة الاوروبين من أن هذه الخربة لم تكن مأهولة بالسكان بشكل مستديم في مطلع هذا القرن ، حيث كانت تؤمها عائلات قليلة العدد في فصل الشتاء من خربة الوهادنة ، الواقعة على المرتفعات الجبلية ، للاشتغال بالزراعة أو الرعاية ، وتعود هذه العائلات مرة اخرى من حيث جاءت في فصل الصيف . وبالتالي يمكن القول ان التخطيط المعماري لهذه المساكن يتناسب وطبيعة الاستيطان الموسمي في هذه الخربة في مطلع هذا القرن .

ب ـ تل هجيجة :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع للعصور التالية : نهاية العصر الحجري النحاسي / العصر لبرونزي المبكر (٣٩ شقفة) ، والعصر الحديدي (٦٠ شقفة) ، والعصر البيزنطي (٤٢ شقفة) ، والعصر الاموي ، (٨ شقف) . كما عثر على أساسات حجرية لبناء مربع الشكل (١٠ × ١٠ م) يعلو قمة التل . ونظرا لكثرة الشقف الفخارية العائدة للعصر البيزنطي المنتشرة بالقرب من هذا المبنى ، يعتقد أنه أحد الحصون العسكرية العائدة لهذه الفترة . أما النظام التحصيني الذي عثر عليه في الاطراف الجنوبية والشرقية فهو مكون من جدار دفاعي (عرض ١٦٠سم) تدعمه دعامات مبنية من الحجارة(١٠ × ١٠م) ، كما دعمت الزوايا بدعامات حجرية أصغر حجما (٢ × ٢م) .

ج ـ سفح تل هجيجة السفلي :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة من سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الحديدي (٨ شقف) ، والعصر الروماني (٥ شقف)، والعصر البيزنطي (١٠١ شقفة) ، والعصر الايوبي / المملوكي (شقفة واحدة) . كما ظهر على سطح هذا الموقع أساسات حجرية لبناء مؤلف من حجرتين يتقدمها ساحة امامية مكشوفة ومسورة . وبناء على كثافة الشقف الفخارية العائدة للعصر البيزنطي ، يعتقد ان هذا المبنى يعود لهذه الفترة .

....

٧ ـ تل ابو البعر :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة من سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر البرونزي المبكر (شقفتان) ، والعصر لحديدي (٢٥ شقفة) ، والعصر الروماني (شقفتان) ، والعصر البيزنطي (شقفة واحدة) ، والعصر الايوبي / المملوكي (شقفتان) . وتظهر على سطح هذا الموقع أساسات لجدران حجرية تشكل مجموعة وحدات سكنية ، الا أنه لم يلاحظ وجود أسوار دفاعية حول الموقع . وبناء على كثافة الشقف الفخارية العائدة للعصر الحديدي بمرحلتيه الاولى والثانية ، يعتقد بأن هذه المساكن تعود لهذه الفترة .

٨ ـ تل مسوار :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر (١٨٠ شقفة) ، والعصر الروماني (٣ شقف) . كما عثر على جدران حجرية ، يعتقد بأنها تعود للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر .وتبين من خلال تفحص الحفر الواقعة على قمة التل ، ان الشقف الفخارية العائدة للعصر البرونزي المبكر ـ المرحلة الرابعة ـ قد تواجدت على أرضية التل البكر ، ليدل ذلك على أن هذا الموقع قد استوطن لأول مرة خلال تلك الفترة .

٩ ـ خربة عين البيضا (او خربة فلاح) :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر البيزنطي (٧٠ شقفة) ، والعصر الاموي (١٢ شقفة) ، والعصر الايوبي / المملوكي (شقفتان) ، والعصر العثماني (شقفتان) والوقت الحاضر (٣ شقف) . كما عثر على السطح جدران لبيوت سكنية طلي الوجه الداخلي لها بالقصارة . وبناء على ارتفاع نسبة الشقف الفخارية العائدة للعصر البيزنطي وقطع الحجارة المنتظم ، يعتقد بأنها تعود لهذا العصر .

١٠ ـ خربة سبيرة :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة من سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف وطريقة المسح العشوائي ذات الحدود الثابتة ، للعصور التالية :

العصر الحجري الحديث / اعصر الحجري النحاسي (٢٤ شقفة) ، والعصر البرونزي المتأخر (٧ شقف) ، والعصر الحديدي (١٩ شقفة) ، والعصر الروماني (٤ شقف)، والعصر البيزنطي (١٤ شقفة) ، والعصر الاموي (٥ شقف) ، والعصر الايوبي / المملوكي (٦ شقف) ، والعصر العثماني (٧ شقف) ، والوقت الحاضر (شقفتان) .

الحفريات الأثرية الأخيرة في شمال غور الاردن

أشرف كاتب هذا التقرير على حفريتين أثريتين في غور الاردن الشمالي ، همـا تل قدسية في منطقة جسر الشيخ حسين ، وموقـع ذراع الخان ، الواقع على بعـد ٥ر١ كـم الى الجنوب الشـرقي من بلـدة الشونة الشمالية ، وستسهم نتائـج هذه الحفريات الاثرية في تدعيم معرفتنا التاريخية عن منطقة البحث في الفترات الكلاسيكية المتأخرة والاسلامية .

١ ـ تل قدسية(٧٠) :

هدف الباحث من اعمال المسح الاثري في منطقة جسر الشيخ حسين ، والحفر الرأسي في موقع تل قدسية الى التعرف على كثافة وطبيعة الاستيطان في هذه المنطقة، المثلة لغور الاردن ، خلال العصور الاسلامية عامة والعصر الاموي خاصة . وتبين من خلال مسح هذه المنطقة أثريا ، ان موقعا واحدا فيها ، قد أظهر على سطحه مخلفات حضارية تعود للعصر الاموي ، وهو موقع تل قدسية . ولذلك اقتضت الحاجة الـى اجراء حفريات أثرية فيه ، أظهرت ان هذا الموقع قد استوطن في الفترات التالية :

أ ـ العصر العثماني : لقد اظهرت مخلفات هذه الفترة في السوية العلوية من هذا الموقع ، وهي تمثل اجزاء لجدران مبنية من الحجارة المتوسـطة الحجم ، وشـقف فخارية مزججة وأخرى بصناعة يدوية « Village Ware » . كما عثر على قطعة عملة فضية في هذه السوية تحمل اسـم السـلطان العثماني سليمان بن سـليم (٩٢٦ — ٩٧٤ هـ) .

ب ـ العصر الايوبي / المملوكي : لقد عثر على السوية المثلة لهذا العصر اسفل سوية العصر اللاحق . كما عثر عليها في جميع مربعات الحفر ، وفي المقاطع الراسـية المتواجدة في الموقع ، كنتيجة لتجريف أجزاء منه لأغراض الزراعة المروية . وبالرغم من عدم العثور على قطع عملة في هذه السوية ، تعود لهذه الفترة ، الا أن الدراسة المقارنة للشقف الفخارية المزججة ، وتلك المصنعة محليا « Village Ware » تثبت صـحة

تأريخها . أما المنشآت المعمارية الممثلة لهذه الفترة فقد جاءت على شكل اجزاء لجدران مبنية من الطوب الطيني .

جـ ـ العصر العباسي / الفاطمي : عثر على سوية هـذا العصر اسفل سوية المرحلة السابقة، في جميع مربعات الحفر . مثلت هذه الفترة بالقطع الفخارية المزججة واللامعة «Luster Ware» والشقف الفخارية المعروفة باسم «Raqqa Ware»

د ـ عثر على السوية الممثلة لهذه الفترة في المربعين ١ و ٢ . وقد مثلت هـذه الفترة منشآت معمارية بنيت بالطوب الطيني . كما يظهر من خلال دراسة مادة البناء المستعملة في المنشآت المعمارية أن هنالك فترة مبكرة لهذا العصر . استعملت فيها الحجارة كمادة بناء . ويبدو أن هذه الحجارة قد أعيد استخدامها من المرحلة السابقة ـ البيزنطية ـ . كما عثر على مجموعة كبيرة من الشقف الفخارية العائدة لهذه الفترة، قورنت مع مثيلات لها ، عثر عليها في عدة مواقع ، نذكر منها طبقة فحل وجرش . كما عثر على طابون في المربع رقم ١ ، يعود لهذه الفترة ، ليدل ذلك أن السوية الممثلة لهذه الفترة في هذا المربع تقع في ساحة احد البيوت السكنية .

هـ ـ العصر البيزنطي : لقد عثر على السوية الممثلة لهذه الفترة أسفل السوية الممثلة للمرحلة اللاحقةفي المربعين ١ و ٢ . ولقد مثلث هذه الفترة بجدران مبنية من الحجارة المشذبة وأرضيات من البلاستر ، ومجموعة كبيرة من الشقف الفخارية العائدة لهذا العصر .

وقد اقتضى الهدف من الحفريات الاثرية في هذا الموقع، توقف الباحث عن الحفر الراسي في جميع المربعات والمقاطع مع عثوره على المخلفات الحضارية المنسوبة للعصر البيزنطي ، ولذلك لم يتوصل الى أرضية الموقع البكر ، ولذلك تبقى معرفتنا عن فترات الاستيطان المبكرة بالموقع مجهولة .

٢ ـ ذراع الخان(٧١) :

يقع موقع ذراع الخان على بعد ٢ كم للجنوب الشرقي من تل الشونة الشمالي، وعلى بعد حوالي ١٥كم للشمال من موقع طبقة فحل وعلى بعد ٣٣كم الى الغرب من مدينة اربد . دلت المسوحات الاثرية السابقة على تواجد بقايا منشأة معمارية كبيرة، أعتقد على انها تمثل خانا يعود للعصر المملوكي أو العثماني(٧٢) .

رمت الحفريات الاثرية التي أجراها كاتب هــذا التقرير في هذا الموقع التوصل الى الاهداف التالية : ١ ــ الحصول على تأريخ دقيق لهذه المنشأة المعمارية وتوضيح وظيفتها ، ٢ ــ محاولة ايجاد مميزات دقيقة تفصل المخلفات الحضارية العائدةللعصر المملوكي عن تلك التي تعود للفترة السابقة أو اللاحقة لها ، ٣ ــ تحديد أثر خطوط التجارة على انظمة وكثافة الاستيطان القروي في غور الاردن . ومن أجل تحقيق هذه الاهداف ، اعتمد الباحث ثلاث طرق للحفر في هذا الموقع ، هي : ١ ــ طريقة الحفر الراسي في المربعات C1 ، C2 ، B6 ، B9 ، B10 ، ٢ــ طريقة الحفر الافقي فيالمربعات D1 ، D2 ، D3 ، D4 ، D5 ٣ ــ اعادة القطع الرأسي للمقاطع الموجودة بالموقع، وتشمل : B-Tr1 ، B-Tr 2 و C-Tr 2 ، C-Tt3 ، C-Tr4 .

وتم حفر ما مساحته ٣١٢م٢ والى عمق حوالي ٥ر٢م ، وذلك باستخدامطريقتي الحفر العمودي ، واعادة القطع الرأسي ، و ١١٠م٢ وذلك باستخدام طريقة الحفر الافقي .

لقد عثر الباحث في هــذا الموقع على ١٢٤ قطعة عملة ، التقطت ١٧ منهــا على السطح ، كان لها أهمية كبيرة في تأريخ المخلفات الحضاريــة الاخرى بدقــة كبيرة . وتراوح تأريخ قطع العملة التي عثر عليها في طبقات أثرية ما بين فترة حكم السلطان قلاوون (١٢٨٠ ــ ١٢٩٠م) والسلطان جقمق (١٤٣٨ ــ ١٤٥٣م) . أما قطع العملة التي تعود لفترات متأخرة ، كفترة حكم السلطان قانصوة الغوري (١٥٠١ ــ ١٥١٦م) والسلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ ــ ١٥٩٥م) فقد جاءت من سطح الموقع .

لقد جاء المخطط العام لهذه المنشأة المعمارية مستطيل الشكل (٦٤×٥٤م) . بنيت جدرانها بصفين من الحجارة المشذبة ، واستخدم الملاط الكلسي في تثبيتها . دُعمت هذه الجدران بدعامات حجرية مربعة أو مستطيلة الشكل أحيانا . ويستدل من خلال دراسة الشقف الفخارية ، استخدم الجناح الشمالي لهذه المنشأة لأغراض التخزين ، حيث عثر فيه على أعداد كبــيرة من الشقف الفخاريــة الخاصة بجــرار التخزين ، في حين عثر على الاطباق المزججة وجرار الطبخ في حجرات الجناح الشرقي، ليدل ذلك على أن هذا الجناح قد استخدم لأغراض السكن . وأما الجناحان الآخران الجنوبي والغربي ، فلم نتمكن من تحديد وظيفتهما ، ولعل الحفريات المستقبلية فيه توضح هذه الوظيفة .

ومن خلال دراسة قطع العملة التي وجدت على الارضيات ، ودراسة الاختلافات الموجودة في البناء ، من حيث الاضافات ، تبين أن هذه المنشأة (الخان) قد بنيت ،

او اعيد بناؤها ، في مرحلتين : تعود الاولى الى فترة حكم السلطان قلاوون (١٢٨٠ ـ ١٢٩٠م) والثانية الى الفترة الثالثة من حكم السلطان الناصر محمد (١٣١٠ـ١٣٤٠م). كما يبرز العثور على شقف فخارية مستوردة من سوريا ومصر والعثور على قطعتي عملة صليبية وقطعة عملة الخانية ، أهمية هذا الموقع على خطوط التجارة الواصلة بين دمشق والقاهرة في العصر المملوكي .

ومن الجدير ذكره أيضا ، أن المحطات التجارية ـ الخانات ـ الواقعة على الخط التجاري الواصل بين حاضرتي العالم الاسلامي في العصر المملوكي ، دمشق والقاهرة ، قد ذكرت من قبل بعض المؤرخين المسلمين كالقلقشندي(٧٣) وابن تغري بردي(٧٤) ، ومن هذه المحطات التي ذكرها هؤلاء المؤرخون على هذا الخط ، محطة القصير (الشونة الشمالية) . وبما انه لم ترصد لنا المسوحات الاثرية السابقة في منطقة الشونة الشمالية ، اواقعة على بعد ٥ر١كم للشمال الغربي من موقع ذراع الخان عن أي منشأة معمارية تعود لهذه الفترة يحتمل ان تكون خانا ، غير موقع ذراع الخان فانه يعتقد بأن محطة القصير هي نفسها موقع ذراع الخان . ولقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم بهذا الخط التجاري ، خاصة الامير الدمشقي سيف الدين تنكيز ، والذي يعتبر المؤسس الحقيقي لانشاء هذا الخط التجاري في عام ١٣٤٠م .

المعطيات التاريخية لغور الاردن الشمالي من خلال الاعمال الاثرية الميدانية

عثر على الادوات الحجرية التي صنعها انسان المرحلة الاولى من العصر الحجري القديم (٠٠٠ر٥٠٠ر١ ـ ٠٠٠ر١٠٠ سنة من الان) في عدة مواقع تقع على قمة المرتفعات المطلة على غور الاردن كموقع تل أبو هابيل(٧٥) الذي يقع على بعد ٥ر٣ كم الى الشمال من منطقة سليخات وفي موقع تل ابو الخس(٧٦) ، الذي يقع على بعد ١٧ كم الى الشمال من منطقة سليخات ، وعلى بعد حوالي ١٠ كم الى الجنوب الشرقي من منطقة جسر الشيخ حسين . اما الادوات الصوانية التي تعود للمرحلة الثانية من العصر الحجري القديم (٠٠٠ر١٠٠ ـ ٠٠٠ر٤٠ سنة من الان) فقد عثر عليها في عدة مواقع واقعة على المرتفعات المطلة على غور الاردن ، وبين منطقتي سليخات وجسر الشيخ حسين ، نذكر منها السخنة والمرزة الجنوبية ومنحدرات تل ابو علوبة(٧٧) . كما ظهرت الادوات الصوانية التي تعود للمرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم (٠٠٠ر٤٠ ـ ٥٠٠ر١٧ سنة من الان) في عدة مواقع تقع أيضا على المرتفعات المطلة على غور الاردن بين منطقتي سليخات وجسر الشيخ حسين ، نذكر منها وادي المرزة ووادي ابو علوبة(٧٨) ، كما ظهرت هذه الادوات بالقرب من طبقة فحل وعلى بعد حوالي ٧ كم للجنوب الشرقي من طبقة فحل كما في وادي الحمة، المواقع رقم ٣٢ و ٣٤(٧٩). تميزت المرحلة اللاحقة من العصر الحجري القديم (المرحلة الانتقالية بين الانسان

الصياد والانسان المنتج) ، (۰۰۰ر١٧ ــ ۰۰۰ر٨ ق.م) بظهور أدوات حجرية جديدة كالمناجل والسهام ، وأدوات ثقيلة للهرس والجرش ، بالاضافة الى أبنية حجرية تعكس لنا مدى تفاعل انسان هذه الفترة مع تغيرات جديدة في بيئته الطبيعية ، ومعطياتها ، بالاضافة الى انتهاء العصور الباردة(٨٠) . ولعل أشهر المواقع الاثرية المكتشفة على المرتفعات المطلة على غور الاردن ، التي تعود لهذه الفترة موقع وادي الحمة رقم ٢٦ . كشفت التنقيبات الاثرية في هذا الموقع عن بقايا لمنشآت معمارية دائرية وبيضاوية الشكل ومجموعة كبيرة من الادوات الصوانية والآنية البازلتية(٨١) .

لم تسجل لنا المسوحات الاثرية السابقة أو الحالية في منطقة البحث عن تواجد للادوات الصوانية التي صنعها انسان العصور الحجرية القديمة ، تلك التي تسبق الالف التاسعة قبل الميلاد . ولعل انسان هذه الفترة كان يرتاد أو يعيش في مناطق أكثر ارتفاعا ، أي تلك المناطق التي تعدت حدود المسح لأرضية غور الاردن . ومما يؤكد ذلك ، ان الادوات الحجرية التي صنعها انسان العصر الحجري القديم ، قد عثر عليها على قمة المرتفعات المطلة على غور الاردن ، حيث انه من المعتقد أن غور الاردن حتى نهاية هذه الفترة ، كانت تغطيه بحيرة ، دعيت ببحيرة اللسان(٨٢) .

تميزت فترة العصر الحجري الحديث (۰۰۰ر٨ ــ ۰۰۰ر٤ قبل الميلاد) بظهور القرى الزراعية في جنوب بلاد الشام . وطور انسان هذه الفترة أدواته الحجرية ومنشآته المعمارية لتتناسب ومعطيات حياته الاقتصادية الجديدة ، التي تعتمد بشكل رئيسي على الزراعة ــ كما صنع انسان المرحلة الاخيرة من هذا العصر ــ المرحلة اليرموكية ــ آنية فخارية ، تعتبر الاقدم تاريخا من نوعها في المنطقة(٨٣) . وقد بينت الحفريات الاثرية في غور الاردن ، أن انسان هذه الفترة قد سكن داخل حفر بيضاوية الشكل ، وقد عثر على هذه المساكن في مواقع عدة ، نذكر منها تل الشونة الشمالي(٨٤) وابو هابيل(٨٥) ، وغروبة(٨٦) ، وتليلات غسول(٨٧) . كما كشفت المسوحات الاثرية السابقة عن وجود نسبة استيطان مرتفعة تعود للعصر الحجري الحديث(٨٨) . ولقد سجل جلوك موقعا أثريا واحدا في منطقة البحث وقد ظهر على سطحه أدوات حجرية تعود للعصر الحجري الحديث(٨٩) ، بينما سجل معاوية ابراهيم ورفاقه ٣٣ موقعا اثريا (تمثل ما نسبته ٣ر٣١٪ من مجموع المواقع المسجلة في منطقة البحث) ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري الحديث/العصر الحجري النحاسي(٩٠). اما في منطقة جسر الشيخ حسين فقد عثر على المخلفات الحضارية العائدة لهذه الفترة في اربعة مواقع ، كما ظهرت هذه المخلفات في أربعة مواقع أيضا في منطقة سليخات(٩١).

يعزو دارسو فترات العصر الحجري القديم ــ المرحلة الاخيرة (۰۰۰ر١٩ ــ

۰۰۰ر۱۰ قبل الميلاد) ، والعصر الحجري الحديث ، تحركات الانسان من المناطق المرتفعة ـ الجبال المطلة على غور الاردن ـ الى المناطق المنخفضة ـ سهل الغور ـ الى الجفاف الذي صاحب هاتين الفترتين(٩٢) . ويظهر ذلك من خلال توزيع مواقع العصور الحجرية ، حيث وجد أن هناك تدرجا تنازليا في مواقع استيطان الانسان من المناطق المرتفعة الى المناطق المنخفضة . ان التوزيع المكاني للمواقع التي أظهرت مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري الحديث في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات ـ حيث ظهرت هذه المواقع على السفوح المطلة على قرية سليخات في منطقة سليخات ، وعلى التلال الواقعة في السهل الغوري في منطقة جسر الشيخ حسين ـ يتفق مع ما ذهب اليه كوكي وسميث(٩٢) من وجود بحيرة تغطي السهل الزوري في هذه الفترة ، أسمياها بحيرة بيسان ، التي أخذت تجف في الفترات اللاحقة ـ العصر الحجري النحاسي والعصر البرونزي المبكر ـ لتشكل مستنقعات مائية صغيرة الحجم . كما يستدل من كثرة المواقع الاثرية التي تعود للعصر الحجري الحديث في منطقة البحث عن ملاءمة هذه المنطقة مناخيا ووفرة المصادر الغذائيه اللازمة لاعاشة سكان مجموعة من القرى الصغيرة .

ظهر في الفترة التالية ـ العصر الحجري النحاسي ٤۰۰۰ ـ ۳۲۰۰ ق.م ـ توسع ملحوظ لقرى الالفين السابع والسادس قبل الميلاد ، ويتضح ذلك جليا من خلال استعراض المساحة الاجمالية لمواقعها ، كما هو عليه الحال في موقعي تل أبو حامد وتليلات غسول . وأخذت هذه المواقع ، وحسب موقعها الجغرافي ، ووفرة مصادرها المائية والزراعية والرعوية ، تشكل نواة لتكوين نظام دويلات المدن في الفترة اللاحقة ـ العصر البرونزي المبكر ، كما تميز انسان العصر الحجري النحاسي ، الذي عاش في غور الاردن ، بأنه بنى لنفسه بيوتا مستطيلة الشكل من اللبن الطيني المرفوع على أساسات حجرية ، وفوق مستوى سطح الارض ، بدلا من استعمال الحفر كبيوت سكنية في العصر السابق . كما عثر على ساحات مكشوفة أمام هذه البيوت ، مورست فيها النشاطات اليومية المتعددة . وكشف عن هذه البيوت في موقعي تل أبو حامد(٩٤) وتليلات غسول(٩٥) . كما لجأ انسان هذه الفترة للعيش داخل الكهوف ، حيث ظهرت المخلفات الحضارية العائدة لهذه الفترة في كهوف سحاب ، حيث عثر المنقب في هذه الكهوف على مجموعة سويات متتالية تعود لهذه الفترة ، واستدل الباحث من ذلك أن الاستيطان فيها كان موسميا(٩٦) .

سجلت المسوحات الاثرية السابقة لغور الاردن أعدادا كبيرة من المواقع التي اظهرت مخلفات حضارية تعودللعصر الحجري النحاسي . وجاءت هذه المواقع موزعة ما بين المرتفعات المطلة على غور الاردن وحتى التلال المنخفضة (الكتار) الموجودة أسفل

السهل الغوري والمشرفة على السهل الفيضي (الزور) المجاور لنهر الاردن . ولقد عثر جلوك على المخلفات الحضارية العائدة للعصر الحجري النحاسي على سطح ثمانية مواقع(٩٧) (تمثل ما نسبته ٨ر١٣٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث) . اما معاوية ابراهيم ورفاقه فقد سجلوا (٣٣) موقعا أثريا(٩٨) (تمثل ما نسبته ٣ر٣١٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث) وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي .

وتؤيد نتائج المسوحات الاثرية في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات ، ارتفاع نسبة المواقع المسجلة فيها ، والتي اظهرت مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي ، ففي منطقة جسر الشيخ حسين ، سجلت اربعة مواقع اثرية وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود لهذه الفترة(٩٩) ، في حين سجلت ثمانية مواقع أثرية في منطقة سليخات تعود لهذه الفترة(١٠٠) .

كما عثر على مجموعة من الكهوف على السفح الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي لقرية سليخات . ونظرا للعثور على ادوات حجرية وشقف فخارية تعود لهذه الفترة ، والفترة السابقة بالقرب من هذه الكهوف ، فانه يحتمل انها قد سكنت من قبل الانسان الذي عاش في العصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي .ان معرفتنا الحالية عن النمط المعيشي والحياة الاقتصادية للانسان الذي استخدم الكهوف للسكن في العصر الحجري النحاسي محدودة جدا ، فهل قام انسان هذه الكهوف في هذه الفترة بالزراعة أم أنه اعتمد في حياته الاقتصادية على الرعي ، وماهي العلاقة الاقتصادية بين ساكني الكهوف وساكني البيوت الطينية المستطيلة في هذه الفترة ؟ ، ان الدراسات التي تعالج مثل هذه الفرضيات لم تظهر بعد ، وعلى ذلك يقترح الكاتب اجراء حفريات أثرية في احد كهوف منطقة سليخات ، لاجراء المقارنة اللازمة مع موقع تل ابو حامد ، الذي يقع على بعد ٥ر٢كم الى الغرب من قرية سليخات .

سكن انسان المرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر (٣٢٠٠ — ٢٩٠٠ قبل الميلاد) في بيوت مبنية من الطوب او الحجر وفي مستوطنات صغيرة المساحة ، غير مسورة ، حيث جاءت هذه القرى بالقرب من المصادر المائية وفي أماكن يسهل الدفاع عنها . وتجدر الاشارة الى ان انسان هذه الفترة اعتمد في حياته الاقتصادية على الزراعة (١٠١) .

ظهرت المخلفات الحضارية العائدة للمرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر في عدة مواقع في منطقة البحث ، نذكر منها تل الشونة الشمالي(١٠٢) وتل السعيدية(١٠٣)

وتل حندقوق(١٠٤) كما أظهرت المسوحات الاثرية السابقة زيادة ملحوظة في نسبة الاستيطان في منطقة البحث خلال المرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر . فقد سجل جلوك أربعة عشر موقعاً(١٠٥)، تمثل ما نسبته ١ر٢٤٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات أثرية تعود لهذه المرحلة . أما بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م ، فقد سجلت ثمانية وأربعين موقعاً(١٠٦) ، تمثل ما نسبته ٨ر٤٥٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية عائدة للمرحلتين الاولى والثانية من العصر البرونزي المبكر . كما عثر على شقف فخارية عائدة للمرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر في موقعين ، تل فندي (الموقع A) وتل الاربعين (الموقعين F ، G) ، في منطقة جسر الشيخ حسين (١٠٧) . أما في منطقة سليخات فقد عثر على شقف فخارية عائدة للمرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر في موقع تل حندقوق(١٠٨) .

نمت بعض القرى التي ظهرت في المرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر لتصبح مدناً كبيرة في المرحلتين التاليتين من العصر البرونزي المبكر (٢٩٠٠–٢٣٠٠) قبل الميلاد . كما ظهرت في هاتين المرحلتين أنظمة سياسية واقتصادية متطورة شكلت النواة الاولى لنشوء ما يدعى بنظام « دول المدن » حيث يبدو ان هناك مجموعة عوامل سياسية واقتصادية ودينية وراء تطور مجتمع القرية في المرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر الى مجتمع المدينة في المرحلتين التاليتين لها(١٠٩) . بنيت حول هذه المدن أسوار حجرية عريضة ، تصل الى سبعة أمتار ، ويتخللها مجموعة ابراج دفاعية وتليها من الخارج جدران استنادية ، كما هو الحال في موقع الزيرقون ، الواقع على بعد ١٢كم للشرق من مدينة اربد(١١٠) . أجريت في غور الاردن حفريات اثرية في عدة مواقع تعود لهذه الفترة ، نذكر منها تل السعيدية(١١١) وتل ابو الخرز(١١٢) .

وقد كشفت المسوحات الاثرية السابقة عن تواجد المخلفات الحضارية العائدة للمرحلة الثانية من العصر البرونزي المبكر في مواقع عدة ، فقد سجل جلوك سبعة مواقع(١١٣) ، تمثل ما نسبته ١ر١٢٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية عائدة لهذه المرحلة . كما سجلت بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م(١١٤)، ثمانية وأربعين موقعاً، تمثل مانسبته ٨ر٤٥٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، تعود لهذه المرحلة . أما في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات فقد رصدت مواقع كبيرة الحجم تحيط بها مجموعة من المواقع الصغيرة ، التي تعود لهذه المرحلة . ان اكبر المواقع المسجلة في منطقة جسر الشيخ حسين هو تل الاربعين (لم تجر في هذا الموقع اية حفريات اثرية) وقد ظهر على سطحه كثافة واضحة للمخلفات الحضارية العائدة للعصر البرونزي

المبكر . يحيط بهذا الموقع عدة مواقع صغيرة ، تعود لهذا العصر ، هي : خربة سليم اليوسف ؟ المواقع C ، D ، E) وخربة الشيخ محمد (الموقع M) . اما في منطقة سليخات ، فقد ظهر تل حندقوق ، الموقع المحصن الوحيد ، والعائد لهذه المرحلة ، وتحيط به مجموعة من المواقع الصغيرة المساحة غير المحصنة . هي مقبرة سليخات، وتل أبو العقارب ، وتل هجيجة ، وتل أبـو البعر . جاءت المواقع الصغيرة (القرى الزراعية) في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات تحيط بالمدينة الام ، تل الاربعين وتل حندقوق ، لتزودها بالمنتوجات الزراعية والثروات الحيوانية .

إنهار نظام « دول المدن » في المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر (٢٣٠٠– ٢٠٠٠ قبل الميلاد) ، وانتقل الناس من الحياة داخل مدن مسورة الى مواقع أخرى اشبه ما تكون بالمخيمات . يرى بعض دارسي هذه الفترة ان تدمير المدن المسورة ناتج عن هجمات متتالية لقبائل بدوية على مراكز التمدن ، دعيت بالقبائل الامورية(١١٥). ويرى فريق آخر أن هذا التحـول في النمـط المعيشي راجع الى الاخـلال بالعلاقـة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين المجتمع الرعوي ومجتمع المدينة(١١٦) بينما يرى آخرون أن هذه الفترة شهدت كوارث طبيعية كالجفاف والزلازل ، الامر الذي ادى الى تحول في النمط المعيشي وهجرة المدن المسورة(١١٧) .

كما يرى فريق من المشتغلين بحقل الآثار وبناء على الدراسات المقارنة ، أن هناك مجموعات بشرية آتية من القوقاز عبر سوريا الى جنوب بلاد الشام خلال هذه الفترة ، حاملة معها تراثا حضاريا جديدا(١١٨) . كما درس براغ التوزيع المكاني لمواقع هـذه الفترة في جنوب بلاد الشام ، ووجد أن مواقع هذه الفترة قد جاءت في المناطق التي تسقط عليها الامطار وبمعدل سنوي ما بين ٣٠٠ – ٣٥٠ ملم . وبناء على ذلك ، يرى هذا الباحث أن المردود الزراعي مثل جزءا هامشيا من الحياة الاقتصادية لانسان هذه الفترة ، بينما مثلث الرعاية الجزء الاساسي لها(١١٩) .

أظهرت الحفريات الاثرية في غور الاردن ، المخلفات الحضارية العائدة لهذه المرحلة في عدة مواقع ، نذكر منها تل أبو النعاج(١٢٠) وطوال الشرقي(١٢١) وتل أم حماد(١٢٢) وتل اكتانو(١٢٣) . توزعت مواقع هـذه الفترة على المرتفعات المطلـة على غـور الاردن والهضاب (الكتـار) الموجودة على أرضية غور الاردن ، وبالقرب مـن مصادر الميـاه والاوديـة(١٢٤) . أظهرت المسوحات الاثرية السابقة في منطقة البحث انخفاضا في نسبة المواقع الممثلة لهذه الفترة. فقد سجل جلوك عشرة مواقع(١٢٥)، تمثل ما نسبته ١ر١٢٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، أما بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ ، فقد سجلت ٢٥ موقعا(١٢٦) ، تمثل ما نسبته ٦ر٢٣٪ مـن المجموع العـام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد أظهرت على سطحها مخلفات حضارية عائدة

لهذه المرحلة . ظهرت المخلفات الحضارية العائدة للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر في موقع واحد ، خربة سليم اليوسف (الموقع E) ، في منطقة جسر الشيخ حسين . كما ظهرت هذه المخلفات في موقعين بمنطقة سليخات هما : مقبرة سليخات ، وتل مرار(١٢٧) . كما يظهر من خلال تفحص المقاطع الراسية لبعض الخنادق الموجودة على سطح موقع تل مرار ، أن الشقف الفخارية ، العائدة للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر ، قد وجدت على الارضية البكر ، ليدل ذلك على ان هذا الموقع قد استوطن لأول مرة خلال هذه الفترة . ويبدو من البقايا المعمارية الظاهرة على السطح، ان سكان هذا الموقع، خلال هذه الفترة ، قد بنوا لأنفسهم بيوتا ذات أساسات حجرية، وبذلك يعتبر هذا الموقع من المواقع الهامة في غور الاردن .

شهدت الفترة التالية ــ العصر البرونزي الوسيط ٢٠٠٠ ــ ١٥٠٠ قبل الميلاد ــ توسعا لمفهوم دول المدن ، الذي ظهر في المرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي المبكر ، لما يدعى « بامارات الدول » . أرجع بعض دارسي هذه الفترة ظهور هذا النظام في جنوب بلاد الشام الى قدوم جماعات بشرية جديدة للمنطقة من الساحل السوري او عبر سوريا تدعى بالعموريين والهكسوس(١٢٨) . كما يعزى لهذه الجماعات ايجاد نظام تحصيني جديد مثل الاسوار الحجرية المحيطة بالمدن والبوابات ذات المداخل المتعددة والجدران الطينية الزلقة(١٢٩) . كما شهدت هذه الفترة في جنوب بلاد الشام، وجود علاقات تجارية واسعة مع ساحل بلاد الشام ومصر(١٣٠) . وظهرت في نهاية هذه الفترة حملات عسكرية مصرية منظمة الى جنوب بلاد الشام ، ادت الى القضاء على سلطة الهكسوس(١٣١) . ومن مصادر معرفتنا عن هذه الفترة ، النصوص المصرية المعروفة بنصوص اللعنات . يصف أحد هذه النصوص طبقة فحل والسهل الغوري المجاور لها من الناحية الغربية بما يلي « هي منطقة تلال رملية تشرف على منطقة زراعية خضراء »(١٣٢) وبذلك فان هذا النص يشير بشكل واضح الى النشاط الزراعي الواسع في غور الاردن خلال هذه الفترة .

اظهرت التنقيبات الاثرية في منطقة البحث عن المخلفات الحضارية العائدة للعصر البرونزي الوسيط في موقع تل الحيات(١٣٣) وتل السعيدية(١٣٤). كما بينت المسوحات الاثرية السابقة ان عدد المواقع الاثرية التي أظهرت مخلفات تعود للعصر البرونزي الوسيط في منطقة البحث تساوي تقريبا عدد المواقع العائدة للفترة السابقة . فقد سجل جلوك عشرة مواقع(١٣٥) ، تمثل ما نسبته ١٧٫٢٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات تعود لهذه الفترة . اما بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥(١٣٦) ، فقد سجلت في منطقة البحث ٢٤ موقعا ، تمثل ما نسبته ٢٢٫٦٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، تعود لهذه

الفترة . كما ظهرت المخلفات الحضارية العائدة للعصر البرونزي الوسيط في منطقة جسر الشيخ حسين في ثلاثة مواقع هي : تل الاربعين (الموقع F) ، وخربة الشيخ محمد (الموقع L) ، وخربة الشيخ محمد (الموقع M) وظهرت هذه المخلفات في منطقة سليخات في موقع واحد وهو مقبرة سليخات(١٢٧) . ولقد توزعت مواقع هذه الفترة ما بين المرتفعات المطلة على غور الاردن وحتى السهل الفيضي ـ الزور المجاور لنهر الاردن (١٢٨) . كما جاءت مواقع هذه الفترة في غور الاردن صغيرة الحجم وبدون اسوار دفاعية ، ليدل ذلك على أنها قرى زراعية .

خضعت منطقة جنوب بلاد الشام للسيطرة المصرية التامة خلال المرحلة الاولى من العصر البرونزي المتأخر (١٥٠٠ ــ ١٤٠٠ قبل الميلاد) ، وذلك نتيجة لحملات عسكرية متتالية على هذه المنطقة(١٣٩) . وبالرغم من عدم ذكر المصادر الكتابية المصرية لاعمال تدمير من قبل الجيش المصري في جنوب بلاد الشام(١٤٠) ، الا أن بعض الدارسين الاثريين يرون أن هذا الجيش اللاحق لفلول الهكسوس في المرحلة الاخيرة من العصر البرونزي الوسيط ، قد دمر بعض مدن هذه الفترة في جنوب بلاد الشام(١٤١) . اما في الفترة الثانية من العصر البرونزي المتأخر ، والمسماة في مصر بعصر العمارنة، (١٤٠٠ ــ ١٢٠٠ قبل الميلاد) فقد شهدت منطقة جنوب بلاد الشام ثورات متتالية ضد السلطة المصرية ، أو تلك المتعاونة معها . نذكر من هذه الثورات ، ثورة مدن الغور الشمالي ، المؤلفة من تحالف امراء مدن الحمة وبيسان وطبقة فحل ، ولكن تمكن الفرعون المصري سيتي الاول (١٢٩٤ ــ ١٢٧٩ قبل الميلاد) من القضاء على هذا التحالف ، وخلد انتصاره هذا على مسلة تذكارية عثر عليها في بيسان(١٤٢). ومن مصادر معرفتنا التاريخية عن هذه الفترة ، رسائل تل العمارنة ، التي توضح لنا ما آلت اليه منطقة جنوب بلاد الشام من دمار وخراب نتيجة للصراعات المحلية بين الامراء وغزوات القبائل البدوية على المناطق الزراعية والمدن في ظل غياب السلطة العسكرية المصرية او ارسال الامدادات العسكرية للمدن الموالية للسلطة المصرية(١٤٣).
وبالرغم من هذه المؤشرات السلبية ، تشير المخلفات الاثرية المكتشفة في كثير من المواقع الى أن هذه المنطقة شهدت نشاطا اقتصاديا وتجاريا ملحوظا ، وامتد الاتصال التجاري بين مدن جنوب بلاد الشام ليصل الاناضول وجزر بحر ايجه ومصر(١٤٤) . فقد عثر على بعض الصناعات المستوردة من هذه البلدان أو تلك المقلدة لها في عدة مواقع في منطقة البحث ، نذكر منها تل السعيدية(١٤٥) .

اظهرت المسوحات الاثرية السابقة في منطقة البحث انخفاضا ملموسا في عدد المواقع الاثرية الممثلة لهذه الفترة . فقد سجل جلوك ثمانية مواقع(١٤٦)، تمثل ما نسبته ١٤٫٨٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، تعود لهذه

....

الفترة . أما بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م (١٤٧) ، فقد سجلت ستة عشر موقعا ، في نفس المنطقة ، تمثل ما نسبته ١ر١٥٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة فيمنطقة البحث ، وقد أظهرت مخلفات حضارية تعود للعصر البرونزي المتأخر . كما عثر على شقف فخارية عائدة للعصر البرونزي المتأخر على سطح اربعة مواقع في منطقة جسر الشيخ حسين ، هي : تل الاربعين (الموقعين F ، G) ، وخربة الشيخ محمد (الموقعين L ، M)(١٤٨) . اما في منطقة سليخات ، فقد ظهرت هذه المخلفات فيموقع واحد ، هو : خربة سبيرة(١٤٩) .

يرى بعض دارسي فترة القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ان مواقع هذه الفترة، الممثلة لنهاية العصر البرونزي المتأخر وبداية المرحلة الاولى من العصر الحديدي ، اصبحت صغيرة المساحة كما قلت التحصينات الدفاعية المحيطة بها ، كما هو الحال في موقعي تل حسبان وتل العمري الواقعين للجنوب من عمان(١٥٠) . ورأى اخرون انه مع بداية العصر الحديد (١٢٠٠ – ١٠٠٠ قبل الميلاد) ظهرت تغيرات كبيرة في المنتجات الفخارية وقل ظهور الفخار المنسوب للعصر البرونزي المتأخر(١٥١) .

تعتبر التوراة من المصادر التاريخية الرئيسة التي تزودنا بمعلومات هامة عن فترة العصر الحديدي (١٢٠٠ – ٣٣٠ قبل الميلاد) ، حيث تصف المنازعاتوالحروب بين العبرانيين والسكان الاصليين لفلسطين – الكنعانيين – ومع ما تصفهمبالقادمين الجدد لفلسطين – الفلسطينيين – ومع ممالك شرق الاردن كالعمونيين والآدوميين والمؤابيين(١٥٢) .

ويعتبر نقش الملك المؤابي ميشع ، الذي عثر عليه في ذيبان ، مصدرا تاريخيا هاماً عن هذه الفترة ، حيث يروي هذا النقش علاقات الملك المؤابي – ميشع – مع مملكة الشمال العبرانية وعن منشآت معمارية له في المنطقة(١٥٣) .

ويبدو انه مع غياب السلطة العسكرية المصرية عن جنوب بلاد الشام مع بداية الالف الاول قبل الميلاد ، ظهرت فترة عسكرية جديدة تتركز في منطقة ما بين النهرين، متمثلة بالامبراطوريتين الآشورية والبابلية الحديثة . وأخذت هذه الدول ترسل حملات عسكرية متتالية الى بلاد الشام عامة . وتروي لنا الكتابات الآشورية والبابلية عن اخبار حملات عسكرية لملوك هاتين الدولتين ضد الممالك التي ظهرت في جنوب بلاد الشام ، وتلى ذلك حملات عسكرية فارسية على المنطقة(١٥٤) . وكنتيجة لذلك فقد تأثرت منطقة جنوب بلاد الشام بالتأثيرات الحضارية الآتية اليها من منطقة ما بين النهرين وبلاد فارس ، المتمثلة بالابنية التذكارية والقلاع العسكرية والمنتوجات

الفخارية(١٥٥) والاختام الاسطوانية التي عثر على مجموعة منها في حفريات تل المزار(١٥٦) الواقع في حدود منطقة البحث .

كشفت التنقيبات الاثرية في منطقة البحث عن تواجد المخلفات الحضارية العائدة للعصر الحديدي في عدة مواقع نذكر منها تل السعيديه(١٥٧) وتل أبو الخرز(١٥٨) كما كشفت المسوحات الاثرية السابقة في منطقة البحث عن زيادة كبيرة في نسبة الاستيطان خلال العصر الحديدي . فقد سجل جلوك(١٥٩) ٢١ موقعا ، تمثل ما نسبته ٢ر٢٦٪ من المواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية عائدة للعصر الحديدي . كما سجل فريق مسح غور الاردن عام ١٩٧٥(١٦٠) ، ثلاث وثلاثين موقعا ، تمثل ما نسبته ١ر٣١٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، تعود لهذه الفترة . كما ظهرت المخلفات الحضارية العائدة للعصر الحديدي في أربعة مواقع في منطقة جسر الشيخ حسين ، هي : تل الاربعين (الموقعين F ، G) ، وخربة الشيخ محمد (الموقعين L ، G)(١٦١) . أما في منطقة سليخات ، فقد ظهرت مخلفات هذه الفترة في سبعة مواقع هي : السفح الشمالي الشرقي لقرية سليخات ، وتل أبو العقارب ، وتل دحنون ، وتل هجيجة ، وسفح تل هجيجة السفلى ، وتل أبو البعر ، وخربة سبيرة(١٦٢) .

ويبدو أن حالة عدم الاستقرار السابقة الذكر ، قد انعكس تأثيرها على المنشآت المعمارية العائدة لهذه الفترة في منطقة سليخات . فجاءت مواقع هذه الفترة محاطة بالأسوار التحصينية والابراج المربعة والجدران الاستنادية المستعرضة ، كما هو عليه الحال في مواقع تل دحنون ، وتل أبو العقارب ، وتل هجيجة .

شهدت بلاد الشام ومصر منذ بداية العقد الرابع قبل الميلاد غزوا حضاريا وثقافيا جديدا أتيامن بلاد اليونان (١٦٣) . وقد ابتدأ هذا الغزو بقدوم الاسكندر المقدوني الى الشرق بحدود عام ٣٣٢ قبل الميلاد . انقسمت امبراطورية الاسكندر الكبير بعد وفاته بين قادته العسكريين ، فكان نصيب الاسرة السلوقية شمال سوريا واما مصر وفلسطين فكانت تحت سيطرة الاسرة البطلمية . الا ان هذه الحدود بين الاسرتين لم تكن ثابتة ، نتيجة لاستمرار الحروب بينها(١٦٤) ، وبذلك وقعت كل من فلسطين والاردن بين قوتين متناحرتين ، مما كان له اثر سلبيعلى سير خطوط التجارة والامن العام بالمنطقة . انتعشت منطقةجنوب بلاد الشامفي الفترة الهللنستية المتأخرة، منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، وتأسست فيها مجموعة من المدن دعيت بالمدن العشر ، نذكر منها في غور الاردن طبقة فحل وبيسان(١٦٥) . واستمر انتعاش هذهالمدن ــ المدن العشر ــ خلال المرحلة الاخيرة من العصر الهللنستي وخلال الفترة الرومانية (٦٣ ق.م

ـ ٣٣٠م). ونتيجة لذلك ، فقد ظهر هناك تمركز سكاني في هذه المدن ، وذلك نظرا لوجود ووفرة المرافق العامة فيها كالمعابد والحمامات والاسواق والملاعب ، كما هو عليه الحال في عمان (١٦٦) وجرش(١٦٧) .

كشفت التنقيبات الاثرية عن المخلفات الحضارية العائدة لهذه الفترة في عدد قليل من المواقع الاثرية ، نذكر منها موقع تل السعيدية(١٦٨) . الا أن التنقيبات الاثرية في مواقع اخرى بغور الاردن أكدت أن بعض المواقع الرئيسة قد هجرت مع بداية غزو الاسكندر المقدوني للمنطقة ، كما هو عليه الحال في موقعي تل المزار وتل دير علا. كما أن المسوحات الاثرية السابقة في منطقة البحث ، سجلت اعدادا قليلة تعود للعصر الهللنستي . فقد سجل جلوك(١٦٩) في منطقة البحث عشرة مواقع أثرية ، تمثل ما نسبته ٢ر١٧٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة ، تحمل مخلفات تعود للعصر الهللنستي . أما بعثة مسح غور الاردن(١٧٠) . فقد سجلت أربعة عشر موقعا ، تمثل ما نسبته ٢ر١٣٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة ، تحمل مخلفات ، تعود لهذا العصر . كما جاءت الانشاءات المعمارية العائدة لهذه الفترة ، والآتية من طبقة فحل ـ تل سبارطا ، على شكل قلعة عسكرية مستديرة(١٧١) . كما قسمت مواقع هذه الفترة ، التي سجلتها بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ ، الى قسمين : الاول تركز وجودها على المنحدرات المطلة على غور الاردن ، وأظهرت طابعا عسكريا ، ليستدل على انها مراكز لحاميات عسكرية ، كما في تل ابو علوبة الواقع على الطرف الجنوبي من بلدة المشارع ، اما القسم الثاني فيمثل مجموعة من المواقع الصغيرة الواقعة على ارضية الوادي ، لعلها تمثل قرى زراعية(١٧٢) . لم تسجل المسوحات الحالية في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات وجود المخلفات الحضارية العائدة للعصر الهللستي .

كما سجلت المسوحات الاثرية السابقة في منطقة البحث ، زيادة كبيرة في عدد المواقع التي اظهرت مخلفات حضارية عائدة للعصر الروماني ؟ ٦٣ ق.م ـ ٣٣٢م) . فقد سجل جلوك ثمان وثلاثون موقعاً(١٧٣) ، تمثل ما نسبته ٥ر٦٥٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، تحمل مخلفات تعود للعصر الروماني ، اما بعثة مسح غور الاردن لعام ١٩٧٥ ، فقد سجلت ٥٠ موقعا(١٧٤) ، تمثل ما نسبته ٧ر٤٧٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود لهذه الفترة ،وقد توزعت هذه المواقع على جميع أجزاء الوادي.

يبدو أن انتعاش المدن التي تأسست فيالفترة الهللنستية والتي استمر استيطانها في الفترة الرومانية ، قد صاحبها ظهور مجموعة كبيرة من القرى الزراعية التي تزودها

بمنتوجاتها الزراعية والحيوانية . اضافة الى انتعاش التجارة وطرق المواصلات التي تربط هذه المدن . ولم تكن منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات بعيدة عن هذه الطرق ، فقد عثر على الشواهد الحجرية الدالة على هذه الطرق ، على ارضية الغور في تل الاربعين وبالقرب من طواحين السكر والقرن وعلى وادي كفرنجةوعمتا (ابو عبيدة حاليا)(١٧٥) ، كما سجلت بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م الشواهد الحجرية الدالة على هذا الطريق بالقرب من موقع سليخات (الموقع رقم ٨٠) وفي موقع الحمرا (الموقع رقم ٩٨)(١٧٦) . تمكن متمان (Mittmann,S.) من قراءة النصوص المنقوشة على هذه الشواهد وأرجعها للقرنين الثاني والثالث الميلاديين(١٧٧) . وبالاضافة الى هذا الطريق التجاري ، المار عبر غور الاردن ، فقد رصدت شواهد حجرية اخرى على الطريق التجاري الواصل بين جرش وعجلون وطبقة فحل ، الذي يعود للقرن الاول الميلادي(١٧٨) . ان مرور طرق المواصلات عبر غور الاردن واستتباب الامن في الفترة الرومانية قد عكست أثرها على عدد القرى الزراعية في غور الاردن . وقد اكدت المسوحات الاثرية في منطقة سليخات ، هذه النتيجة ، حيث عثر على المخلفات العائدة للفترة الرومانية في ستة مواقع هي : السفح الجنوبي الشرقي لقرية سليخات ، وخربة هجيجة ، وسفح تل هجيجة السفلي ، وتل أبو البعر ، وتل مرار ، وخربة سبيرة . اما في منطقة جسر الشيخ حسين ، فقد عثر على مخلفات هذه الفترة في موقع واحد هو تل قدسية(١٧٩) .

واجهت الامبراطورية البيزنطية (٣٣٢-٦٣٦ ميلادي) مجموعة مخاطر خارجية، فقد واجهت خطر الامبراطورية الساسانية في الشرق ، حيث تمكنت هذه الاخيرة من احتلال سوريا والاردن وفلسطين في بداية القرن السابع الميلادي(١٨٠) . كما فقدت الامبراطورية البيزنطية سيطرتها على شمال افريقيا حيث احتلتها قبائل الفندال الالمانية منذ بداية القرن الخامس الميلادي(١٨١) . وتمكنت القبائل القوطية الالمانية من احتلال ايطاليا منذ بداية القرن الخامس الميلادي(١٨٢) . اضافة الى ذلك هاجمت القبائل السلافية والبلغاربة والهونية منطقة البلقان والعاصمة نفسها(١٨٣) .

وبالرغم من ذلك ، تشير المكتشفات الاثرية في الاردن ، زيادة كبيرة في عدد المواقع الاثرية التي تعود للفترة البيزنطية(١٨٤) . فقد استمر الاستيطان في المدن الرومانية واسست أعدادا كبيرة من الكنائس(١٨٥) . كما سجلت المسوحات الاثرية السابقة في غور الاردن ، زيادة كبيرة في عدد المواقع التي اظهرت مخلفات حضارية تعود للعصر البيزنطي . فقد سجل جلوك في منطقة البحث، ٤٩ موقعا(١٨٦)، تمثل ما نسبته ٨٤٫٥٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة ، وقد ظهر على سطحها مخلفات تعود للعصر البيزنطي . اما بعثة مسح غور الاردن ١٩٧٥م ، فقد سجلت في منطقة البحث ٦٣

موقعا(١٨٧) ، تمثل ما نسبته ٥٩٫٤٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة ، وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود للعصر البيزنطي . وايدت المسوحات الاثرية الاخيرة في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات هذه النتائج . حيث سجلت في منطقة جسر الشيخ حسين ، ثمانية مواقع ، وقد ظهر على سطحها مخلفات تعود لهذه الفترة(١٨٨). اما في منطقة سليخات فقد ظهرت المخلفات الحضارية العائدة للعصر البيزنطي على سطح تسعة مواقع(١٨٩) . ومن المكتشفات الهامة التي عثر عليها في منطقة سليخات ، معصرة للعنب وقد نحتت في الصخر الطبيعي ، في السفح الشمالي الشرقي لقرية سليخات . كما عثر الرحالة الالماني شتوير ناجل عام ١٨٩٨م(١٩٠) ، على بقايا معصرة زيتون في خربة هنيدة الواقعة على بعد ١٫٢ كم للشمال من قرية سليخات . ان العثور على مثل هذه المعاصر يدل بشكل واضح على أهمية شجرتي الزيتون والكرمة في الثروة الاقتصادية الزراعية لمنطقة سليخات خلال العصر البيزنطي . كما أن العثور على كنيسة في خربة هجيجة يعتبر من المكتشفات المعمارية الهامة في منطقة سليخات . وأرخت هذه الكنيسة ، اعتمادا على الشقف الفخارية وتخطيطها المعماري العام ، لنهاية الفترة البيزنطية (القرن السادس الميلادي) . كما يحتمل انها قد استخدمت خلال الفترة اللاحقة ــ الاموية ــ حيث عثر على شقف فخارية عائدة لهذه الفترة في المنطقة المحيطة بها . كما أن كثيرا من الكنائس البيزنطية قد استمر استخدامها في الفترة الاموية(١٩١)، نذكر منها في غور الاردن ، الكنيسة التي عثر عليها في الشونة الجنوبية(١٩٢) ، والتي تشبه في تخطيطها المعماري العام كنيسة هجيجة .

انتهى الحكم البيزنطي لغور الاردن على أثر هزيمة القوات البيزنطية في معركة فحل عام ١٣هـ / ٦٣٥م أمام قوات الفتح الاسلامي(١٩٣) ، كما دخلت فلسطين والاردن في الحكم الاسلامي بعد معركة اليرموك . ونتيجة لذلك فقد قسمت بلاد الشام الى خمس ولايات ، سميت كل واحدة منها باسم جند . دخل الجزء الشمالي لغور الاردن ضمن جند الاردن وعاصمته طبريا(١٩٤)، أما الجزء الجنوبي منه (الذي يقع الى الجنوب من البحر الميت) فقد دخل ضمن الاراضي التابعة لجند فلسطين . ويستدل من المعطيات الاثرية ــ التنقيبات والمسوحات الاثرية ــ الى استمرارية انتعاش جند الاردن خلال الفترة الاموية(١٩٥) . كما استمر استيطان المواقع الرئيسية للفترة السابقة ــ البيزنطية ــ في حين ظهر هناك انخفاض في عدد المواقع الصغيرة في الفترة الاموية عن تلك التي سكنت في الفترة البيزنطية ، ويظهر ذلك واضحا من خلال دراسة منطقة الكرك(١٩٦) .

ظهرت المخلفات الحضارية العائدة للعصر الاموي (٤٠–١٣٢هـ /٦٦١–٧٥٠م) في عدة مواقع في غور الاردن نذكر منها تل قدسيه(١٩٧) وتل أبو قعدان(١٩٨) . ولقد سجل

المشرفون على مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م ، تسعة عشر موقعا(١٩٩) ، وقد ظهر على سطها بقايا اثرية تعود للعصر الاموي ،وتوزع تواجدها على جميع اجزاء الوادي. كما ظهرت هذهالمخلفات في موقعواحد ،تل قدسيه، في منطقة جسر الشيخ حسين، فيحين ظهرت هذه المخلفات في اربعة مواقع فيمنطقة سليخات هي : قرية هجيجة ، وتل هجيجة ، وخربة عين البيضا ، وخربة سبيرة(٢٠٠) .

تمكن العباسيون من انهاء سلطة الامويين ونقل عاصمةالا خلافة الاسلامية من دمشق الى بغداد . اتصف العصر العباسي (١٣٢-٧١٥هـ /٧٥٠-١٢٥٨م) بسيطرة العناصر الاسلامية ، غير العربية ، على الدولة وضعف نفوذ السلطة منذ نهاية القرن التاسع الميلادي(٢٠١) وكنتيجة لذلك فقد تأسست مجموعة دويلات سيطرت على أجزاء متعددة من الدولةا لاسلامية ، نذكر منها الاغالبة والطولونية والسامانيةو الفاطمية والبويهية والسلاجقة(٢٠٢) .

دلت تقارير المسوحات والحفريات الاثرية في الاردن على تقلص واضح في المخلفات الاثرية المنسوبة الى الفترة العباسية. ودعا هذا الامر بعض المشتغلين في حقل الاثار الى وصف هذه الفترة في الاردن « بالفترة المظلمة » أو « عصر الانحطاط »(٢٠٣) ولكن اعتمادا على الحفريات الاثرية الاخيرة في مدينة طبقة فحل ثبث بطلان هذه النظرية(٢٠٤) .

وصف جفرافيو القرن العاشر الميلادي غور الاردن ، وذكروا كثرة قراه الزراعية(٢٠٥) ، كما وصفوا كثرة محاصيله الزراعية التي كانت تشكل جزءا هاما من صادرات بلاد الشام مثل النيلة والبلح والسكر والارز(٢٠٦) .

ظهرت المخلفات الاثرية العائدة للفترة العباسية في عدة مواقع بغور الاردن ،نذكر منها في منطقةالبحث موقعي تل قدسية(٢٠٧) وتل ابو قعدان(٢٠٨) . ويلاحظ من خلال نتائج المسوحات الاثرية السابقة انخفاضا شديدا في عدد المواقع المنسوبة للعصر العباسي . فقد سجل المشرفون على مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م(٢٠٩) ، سبعة مواقع ، تمثل ماذ سبته ٦ر٦٪ من المجموع العام لمواقع الاثرية المسجلة في منطقة البحث ، وقد أظهرت مخلفات حضارية عائدة لهذه الفترة . كما أمكن التعرف على المخلفات الحضارية العائدة للعصر العباسي / الفاطمي على سطح ثلاثة مواقع في منطقة جسر الشيخ حسين(٢١٠) . اما في منطقة سليخات فقد رصدت هذه المخلفات على سطح موقع واحد(٢١١) .

تمكن الصليبيون من تأسيس مجموعة ممالك في بلاد الشام ، وذلك منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي . وكانت المملكة اللاتينية في القدس من أشهرها ، حيث تمكنت من توسيع حدودها لتشمل الجزء الجنوبي من الاردن ، واقيمت فيه مجموعة من الحصون العسكرية(٢١٢) . وفي سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م أسس الايوبيون قلعةالربض في عجلون(٢١٣) . كما أسست مجموعة قلاع عسكرية صليبية على الممر الرئيسي الواصل بين دمشق والقاهرة عبر وادي الاردن ، نذكر منها قلعة طبريا وقلعة الطور وقلعة بيسان(١٢٤) كما أسست قلاع صليبية أخرى في الجزء الجنوبي من غور الاردن كقلعة أريحا وقلعة خربة المصرة(٢١٥) . وتتحدث بعض الوثائق الصليبية عن سيطرة المملكة اللاتينية على أجزاء مس شمال الاردن مثل السواد (الجزء الشمالي من غور الاردن) وأم قيس وحرثا وزحر وبيت راس وسال والغور(٢١٦) .

ويبدو واضحا من خلال استعراض هذه النبذة التاريخية عنا لفترة الصليبية ان غور الاردن قد خضع لسلطة المملكة اللاتينية في القدس . لكن لم يتمكن دارسو الاثار حتى الان من تمييز المخلفات الحضارية العائدة للفترة الصليبية عن تلك التي تعود للفترة التي سبقتها أو تلك التي لحقتها . وعلى ذلك لم تسجل لنا المسوحات الاثرية السابقة في غور الاردن تواجدا للمخلفات الحضارية العائدة لهذه الفترة كما لم يتمكن من تسجيل هذه المخلفات في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات .

يبدو ان النشاط الايوبي في تشييد القلاع العسكرية ، كقلعة الربض فيعجلون، قد ساهم في استتباب الامن في المنطقة المحيطةبها ، حيث كانت هذه المنطقة تحوي سبعة وعشرين خربة من ضمنها خربة عمتا (أبو عبيدة) . وقد ضمت هذه القرى ضمن اقطاع الامير عز الدين اسامة باني قلعة الربض(٢١٧) . ثم ازدهر غور الاردن بعد معركة حطين سنة ١١٨٧م ، ويتضح ذلك من كثرة المدن الادارية مثل بيسان وطبقة فحل والقصير (الشونة الشمالية) وعمتا (ابو عبيدة حاليا) ودامية واريحا وزغر (غور الصافي)(٢١٨) . وقد شهد غور الاردن خلال الفترة اللاحقة ـ العصر المملوكي (١٢٥ ـ ١٥١٦م) ازدهارا اقتصاديا ونموا سكانيا كبيرا نظرا لمرور طرق المواصلات الرئيسة في الدولة المملوكية والواصلة بين مدينتي دمشق والقاهرة خلاله(٢١٩) ، وهذا الامر ساعد على نقل المنتوجات الزراعية من غور الاردن الى مراكز التمدن وتقسيم غور الاردن الى مجموعة وحدات اقطاعية(٧٢٠) ، وانتعاش الزراعية الصناعية المتمثلة قصب السكر فيه(٢٢١) .

ان زراعة قصب السكر تتطلب جهودا بشرية منظمة ومدربة وكبيرة العدد ، لذلك فقد جلب الأمراءالايوبيون والمماليك أعدادا كبيرة للاشتغال بحقول قصب السكر

وبناء الطواحين ـ المعاصر ـ اللازمة لتصنيع السكر(٢٢٢) . ويستفاد من كثرة المكتشفات الاثرية التي تعود للفترة الايوبية / المملوكية على كثرة القرى الزراعية التي تعود لهذه الفترة ، فقد عثر على المخلفات الاثربة التي تعود لهذه الفترة في كثير من المواقع في غور الاردن ،نذكر منها ذراع الخان(٢٢٣) وتل ابو سربوط(٢٢٤) وتل قدسية(٢٢٥) وتل قعدان(٢٢٦) . كما سجلت بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م ، ٥٩ موقعا(٢٢٧) ، تمثل ما نسبته ٦ر٥٥٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات تعود للعصر الايوبي / المملوكي . ولقد توزعت هذه المواقع على جميع اجزاء غور الاردن ، كما وصفت بعضها على انها قد أسست لاغراض تصنيع السكر ، وذلك من خلال العثور على كميات كبيرة من الشقف الفخارية التي تخص أواني تصنيع السكر أو العثور على انشاءات معمارية استخدمت كمعاصر لقصب السكر(٢٢٨) . أما في منطقة جسر الشيخ حسين ، فقد عثر على المخلفات الحضارية العائدة للعصر الايوبي/المملوكي في ١١ موقعا(٢٢٩) . وقد قسمت هذه المواقع الى قسمين ، استخدم الاول منها لاغراض السكن كموقعي تل قدسية وخربة الشيخ حسين ، في حين استخدم القسم الثاني كمراكز لتصنيع السكر من قصب السكر ، كموقعي تل فندي (الموقع B) وتل أبو عراب الشمالي (الموقع L) (٢٣٠). كما عثر على ثمانية مواقع في منطقة سليخات وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية عائدة للعصر الايوبي / المملوكي(٢٣١) . وكشف في هذه المنطقة عن ثلاث معاصر استخدمت خلال هذه الفترة لاستخراج السكر من قصب السكر .

انضعف السلطة المركزية في العصر المملوكي ، خاصة منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ، أدى الى غزوات متكررة للقبائل البدوية على مراكز التمدن والقرى الزراعية في جنوب بلاد الشام ، ومنها القرى المتواجدة في غور الاردن(٢٣٢) . من العوامل الهامة الاخرى التي أدت الى تدمير أو انخفاض عدد القرى الزراعية في غور الاردن خلال هذه الفترة ـ نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلادي ـ انتشار وباء الطاعون والحميات وتكرار حدوثها في سنوات متلاحقة(٢٣٣) . نتج عن هذه الاوبئة وفاة عدد كبير من مزارعي غور الاردن ، بالاضافة الى موت أعداد كبيرة من الحيوانات المدربة لاغراض الحرث والنقل وادارة الطواحين(٢٣٤) ، الامر الذي أدى الى تدهور زراعة قصب السكر في غور الاردن(٢٣٥) . كما تحولت طرق المواصلات الواصلة بين دمشق والقاهرة ، والمارة عبر الجزء الشمالي من غور الاردن ، لتمر عبر هضبة الجولان في القرن السادس عشر(٢٣٦) ، مما ادى الى صعوبة كبيرة في تصدير منتوجات غور الاردن الزراعية الى مراكز التمدن .

شهدت بلاد الشام في بداية العصر العثماني ، استقرارا سياسيا وأمنيا ادى الى

انتعاش اقتصادي وزيادة سكانية(٢٣٧) . وقد تمكن الباحثون من رصد القرى الزراعية التي تعود للقرن السادس عشر الميلادي من خلال مراجعتهم للسجلات العثمانية(٢٣٨). ففي غور الاردن ، سجلت ستة عشرة قرية ، نذكر منها في منطقـة سليخات ، قريتي فقارس (قرية كريمة حاليا) وكرمة (خربة كركمة حاليا)(٢٣٩) . كما ذكرت مجموعة من القرى الزراعية ، الواقعة في غور الاردن ، في دفتر طابو عجلـون ، والعائدة لعـام ١٥٩٦م . ففي هذا الدفتر ذكرت القرى والمزارع التالية : قرية فقارس ، ومزرعة صلحات أو صليحات (قرية سليخات حاليا) ، ومزرعة حجج (خربة هجيجة حاليا) ومزرعة سبيرة (خربة سبيرة حاليا)(٢٤٠) . تبعت كلاً من مزرعة صلحات (سليخات) ومزرعة سبيرة ومزرعة حجج (هجيجة) لتيمار اسماعيل بن عثمان وشريكه(٢٤١) . بينما تبعت قرية فقارس (كريمة) لزعامة بنام خندان وكاتب ابراهيم(٢٤٢) . وعلاوة على ذلك ، فقد حدد دفتر طابو عجلون لسنة ١٥٩٦م ، عدد دافعي الضرائب في قرية فقارس ب ٤٧ خانة (اي ٤٧ رب أسرة) ، كما أن الضرائب في هذه القرية كانت تدفع على المحاصيل الزراعية المتمثلة بالحنطة والشعير والنيلة والسمسم وعن الحيوانات مثل الجاموس والماعز(٢٤٣) . الا أن هذا الدفتر لم يسجل فيه تعداد دافعي الضرائب أو المحاصيل التي دفعت عنها الضرائب لكل من خربة سليخات وخربة هجيجة وخربة سبيرة . ولكن يستدل من نسبة الضرائب المدفوعة من هذه القرى ، أن اكبرها كانت قرية سليخات ، حيث دفعت ٢٥٠٠ أقجة ، وتليها خربة هجيجة ، حيث دفعـت ١٥٠٠ اقجة ، واخيرا خربة سبيرة ، حيث دفعت ٥٠٠ أقجة(٢٤٤) .

ولعل ارتفاع نسبة الضرائب المدفوعة من قرية سليخات في القرن السادس عشر الميلادي راجع الى استمرارية نمو هذه القرية من الفترة السابقـة ـ المملوكيـة ـ عندما حولت اليها مياه عيني هجيجة وهنيدة، واعتبارها احد المراكز الرئيسـة لتصنيع السكر خلال الفترة المملوكية .

ومنذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ضعفت السلطة المركزيـة العثمانية ، مما ادى الى بروز ولاة محليين كظاهر العمر (١٧٥٠ ـ ١٧٧٥م) واحمد الجزار (١٧٧٧ـ١٨٠٤م) والذين استطاعوا ان يحكموا جنوب بلاد الشام باستقلالية جزئية عن الدولة العثمانية(٢٤٥) . واعتمد هؤلاء الولاة في مدخولاتهم الاقتصادية على الضرائب المدفوعة من القرى الزراعية أو تلك التي يدفعها التجار(٢٤٦) ، لذلك اتصفت سياسة هؤلاء الولاة بحرصهم على حماية القرى الزراعية وطرق المواصلات من غارات البدو والمتمركزين في غور الاردن ، كقبائل السردية ، والصقر ، وصخـور الغـور ، بالتحالف معهم أحيانا أو استعمال القوة العسكريـة ضدهم أحيانـا اخـرى(٢٤٧) . ويستفاد من ملاحظات الرحالة الاوروبيين الذين زاروا غور الاردن منذ بداية القـرن

التاسع عشر أن قرى ومزارع غور الاردن ، اضافة الى تلك التي ذكرتها الوثائق العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي ، مهدمة ومهجورة(٢٤٨) . ويبدو أن المنطقة الواقعة للشمال والجنوب من طبقة فحل قد انتعشت مرة أخرى ، وذلك منذ النصف الثاني من القرن الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث شاهد بعض الرحالة(٢٤٩) حقول القمح المزروعة في غور الاردن واعادة بناء القرى الزراعية . كما يستدل من ملاحظات الرحالة الالماني شتويرناجل ، الذي زار منطقة سليخات عام ١٨٩٨ ، أن الاستيطان في الاستيطان في قرى هذه المنطقة ، وقت زيارته لها ، كان استيطانا موسميا (خلال فصل الشتاء) تقوم به بعض هذه المنطقة ، وقت زيارته لها ، كان استيطانا موسميا (خلال فصل الشتاء) تقوم به بعض العائلات القادمة اليها من خربة الوهادنة وقرية فارة(٢٥٠) . أما الاستقرار الدائم في قرى منطقة البحث ، كما يشير الى ذلك التاريخ الشفوي ، فلم يتم قبل العقد الثالث من هذا القرن .

أسفر المسح الاثري في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات عن تسجيل خمسة عشر موقعا في المنطقة الاولى وأربعة عشر موقعا في المنطقة الثانية . وقد غطت هذه المواقع الاثرية حقبة تاريخية طويلة تمتد منذ الالف السادس قبل الميلاد حتى الوقت الحاضر ، وبدون انقطاع يذكر. ان منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات كانتا وما زالتا مناطق زراعية نشطة ، وذلك لخصوبة تربتها وتوفر المياه ، من وادي زقلاب ، ووادي سليخات فيها .ومما زاد من اهمية هاتين المنطقتين واستمرارية الاستيطان فيهما ، وموقعهما الجغرافي الهام ما بين السهل الغوري والمنطقة الجبلية، مما وفر تنوعا في المحاصيل الزراعية والى بعد نسبي عن المناطق المنخفضة ــ الزور ــ من غور الاردن ، حيث تزداد خطورة الاصابة بالملاريا . كما ساعد قرب هاتين المنطقتين من خطوط المواصلات الرئيسة على ازدهارهما اقتصاديا خلال الفترات الكلاسيكية والاسلامية الوسيطة .

كما أن منطقة البحث كجزء من غور الاردن ، والذي بدوره يمثل جزءا من منطقة اكبر ، بلاد الشام ، فقد تأثر ايجابيا أو سلبيا بالمؤثرات السياسية والامنية والاقتصادية والبيئية التي أثرت على بلاد الشام عامة وجنوبه خاصة ، وذلك منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى الان . ويتضح ذلك جليا من خلال تمثيل مختلف العصور، حيث نرى أن هنالك فترات يزداد فيها الاستيطان في أكثر من موقع ، كما هو الحال في العصر الحجري النحاسي ، والعصر الحديدي ، والعصر الروماني ، والعصر الاموي ، والعصر الايوبي / المملوكي ، بينما نرى أن هنالك فترات تمثلها مواقع محدودة ، كما هو الحال في المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر ، والعصر البرونزي المتأخر ، والعصر الهللنستي ، والعصر العباسي ، والعصر العثماني .

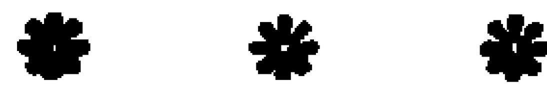
كما يتضح أثر المؤثرات السابقة الذكر ، على نمط الاستيطان في منطقة البحث ، حيث نرى انتشار القرى الزراعية بالقرب من المصادر المائية ، في العصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي ، في حين نرى انه يوجد هناك تركز سكاني في مواقع محدودة العدد ، وكبيرة الحجم ومحصنة دفاعيا ، في العصر البرونزي المبكر ، والعصر البرونزي الوسيط . ويبدو أن التأثيرات السياسية العسكرية التي شهدتها منطقة بلاد الشام في المرحلة الثانية من العصر الحديدي ، قد ادت هي الاخرى الى تواجد استيطان قروي محصن ، كما هو الحال في مواقع : دحنون ، وتل ابو العقارب ، وتل هجيجة ، الواقعة في في منطقة سليخات . ويبدو أن نزعة التوسع في النفوذ بين الاسرتين السلوقية والبطلمية ، هي الاخرى قد أثرت على نمط الاستيطان في ، منطقة البحث ، حيث يمكن تقسيم المواقع الممثلة لهذه الفترة الى قسمين هما : ١ - قلاع عسكرية تقع على المنحدارت المطلة على غور الاردن ، و ٢ - قرى زراعية تقع على أرضية غور الاردن. ويبدو أن استتباب الامن وانتشار المدن الادارية في الفترات الكلاسيكية والاسلامية المبكرة قد انعكس أثرها على نظام الاستيطان في غور الاردن ، حيث انتشرت في منطقة البحث القرى الزراعية ، والواقعة على جميع اجزاء الوادي.

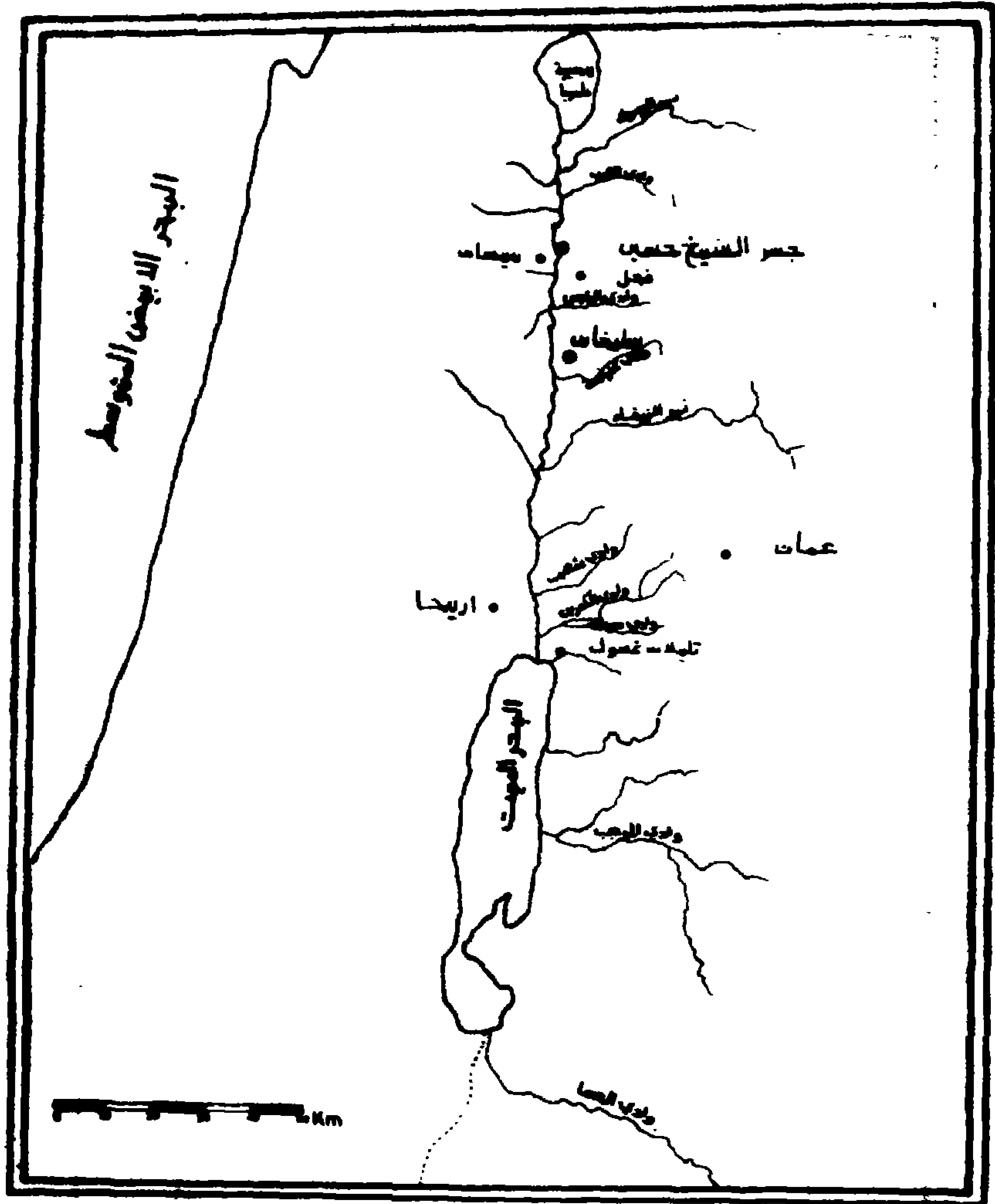
وازدهر غور الاردن في الفترة الايوبية / المملوكية ، فقد مثل الانتاج الزراعي العماد الاقتصادي لامراء هذه الفترة . ويستدل من خلال دراسة المعطيات التاريخية والاثرية ، ان منطقة البحث كانت تشتهر بزراعة قصب السكر خلال العصر الاسلامي الوسيط . وأمكن تقسيم المواقع الاثرية العائدة لهذه الفترة ، في منطقة البحث ، الى نوعين ، هما : ١ - قرى زراعية كبيرة الحجم و ٢ - مواقع صناعية استخدمت لاستخراج السكر من قصب السكر (طواحين السكر) ، أو مواقع استخدمت لتصنيع الانية الفخارية اللازمة لتصنيع السكر) .

ويبدو أن الزراعة الصناعية التي سادت في منطقة البحث خلال العصر الايوبي / المملوكي ، قد انتهى استخدامها في العصر اللاحق (العصر العثماني) ، وحلت محلها زراعة الاكتفاء الذاتي . ويتضح ذلك من خلال استخراض المحاصيل الزراعية التي دفعت عليها الضرائب للدولة العثمانية ، حيث لم يسجل في هذه السجلات قصب السكر كأحد المحاصيل الزراعية في غور الاردن . كما أن نظام الاستيطان ، في منطقة البحث ، قد تركز تواجده على أسفل المنحدرات المطلة على غور الاردن في القرن السادس عشر الميلادي . ولعل أهم الاسباب المؤدية الى ذلك ، هو الخلل السكاني في المنطقة ، نتيجة لانتشار الاوبئة والطاعون في العصر المملوكي المتأخر ، الامر الذي أدى الى انخفاض سكاني كبير ، ومن ثم اهمال أجزاء كبيرة من غور الاردن . وانتشار الملاريا في الاراضي المنخفضة .

ذهب كثير من الرحالة الاوربيين الى وصف قرى غور الاردن في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بأنها مهدمة ومهجورة . ويتضح جليا من خلال نتائج الاعمال الميدانية في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات ، ان نظام الاستيطان خلال هذين القرنين ، قد تحول من استيطان دائم الى استيطان موسمي . ويعني ذلك أن منطقة البحث لم تهجر نهائيا خلال العصر العثماني المتأخر ، كما ذهب اليه بعض الرحالة الاوربيين ، وانما ظهر نظام استيطان جديد ، يقوم أساسا على قدوم عائلات للاشتغال بالزراعة في غور الاردن من قرى كبيرة الحجم ، وواقعة في المنطقة الجلية ، في الشتاء ، وتعود هذه العائلات من حيث أتت في فصل الصيف . كما أن القبائل البدوية التي ذكرها الرحالة الاوربيون ، قد استقرت هي الاخرى في غور الاردن، واشتغلت بالزراعة لتكون المالكة لمعظم أراضي غور الاردن حاليا .

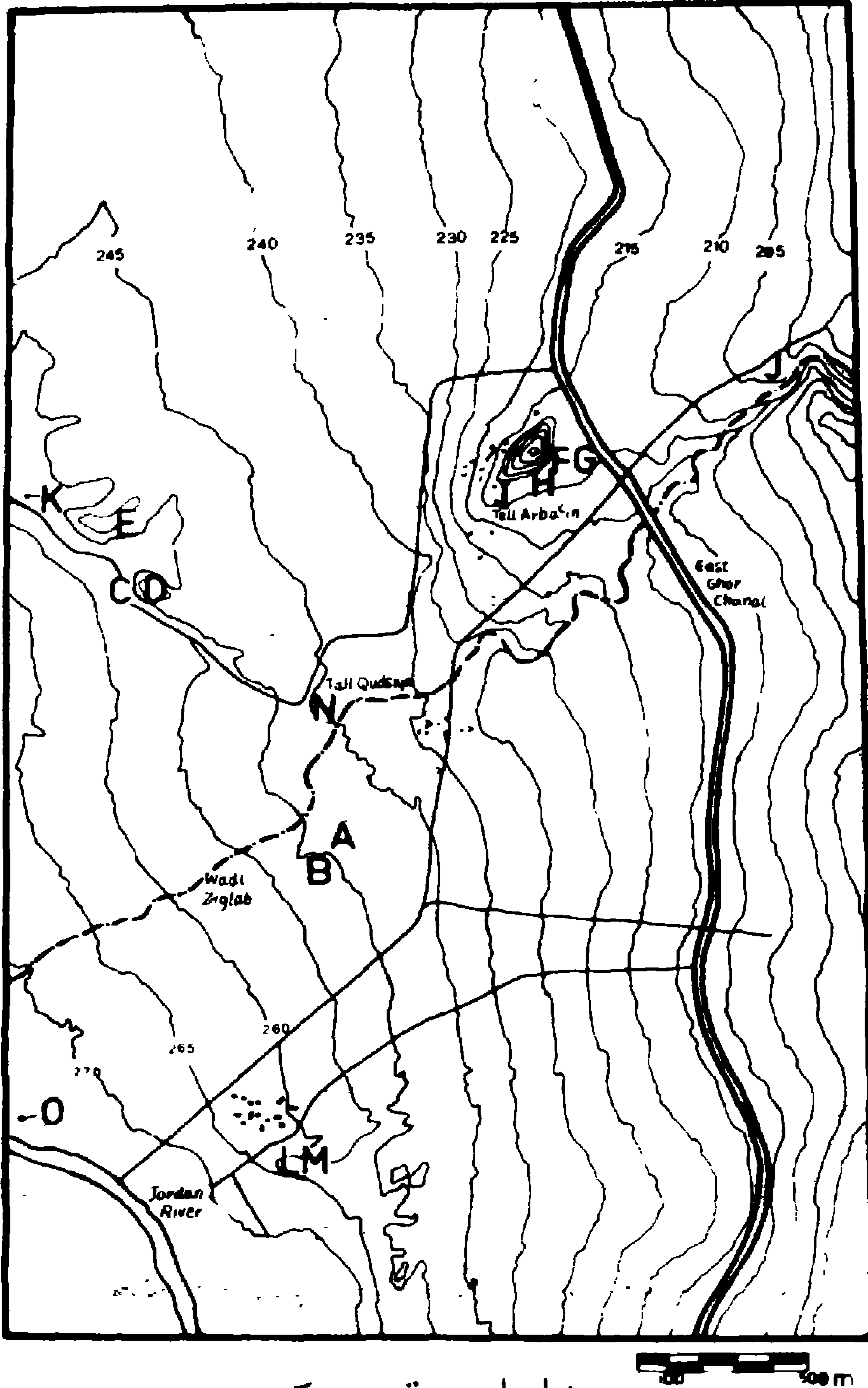
ويتضح جليا ، من خلال استعراض نتائج الاعمال الميدانية الاثرية في منطقة البحث ان الاستيطان البشري قد استمر ، مع بعض التغيرات في أنظمة الاستيطان ، وبدون انقطاع منذ آلاف السنين وحتى الان .





خارطه رقم -١-
موقع منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات

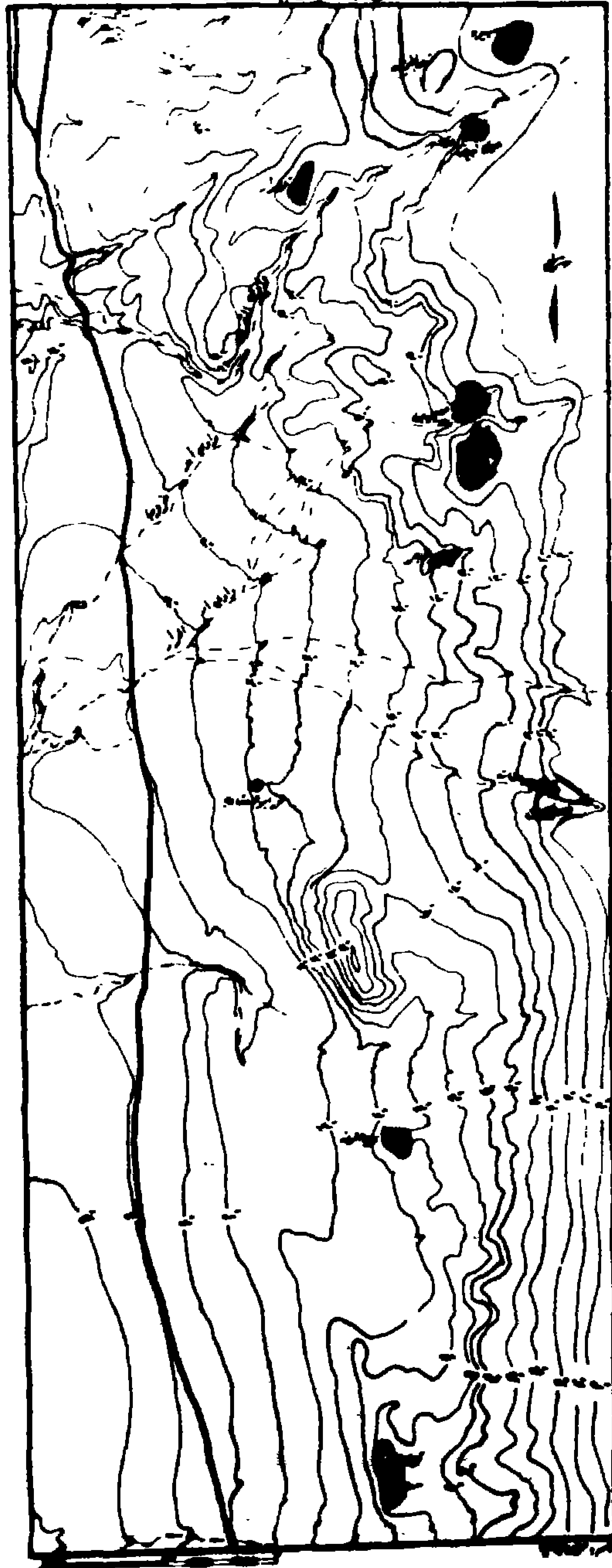
المسح الأثري لمنطقة جسر الشيخ حسين

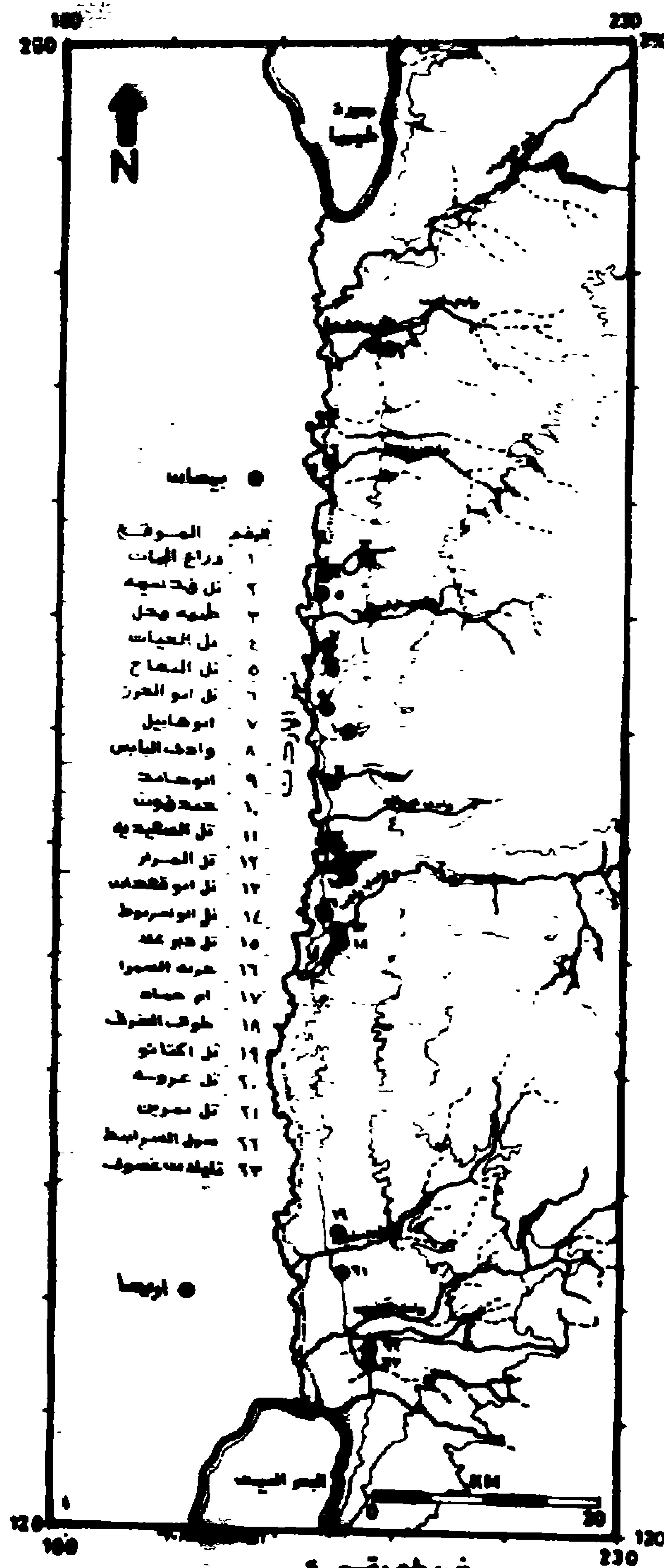


خارطة رقم -٢-

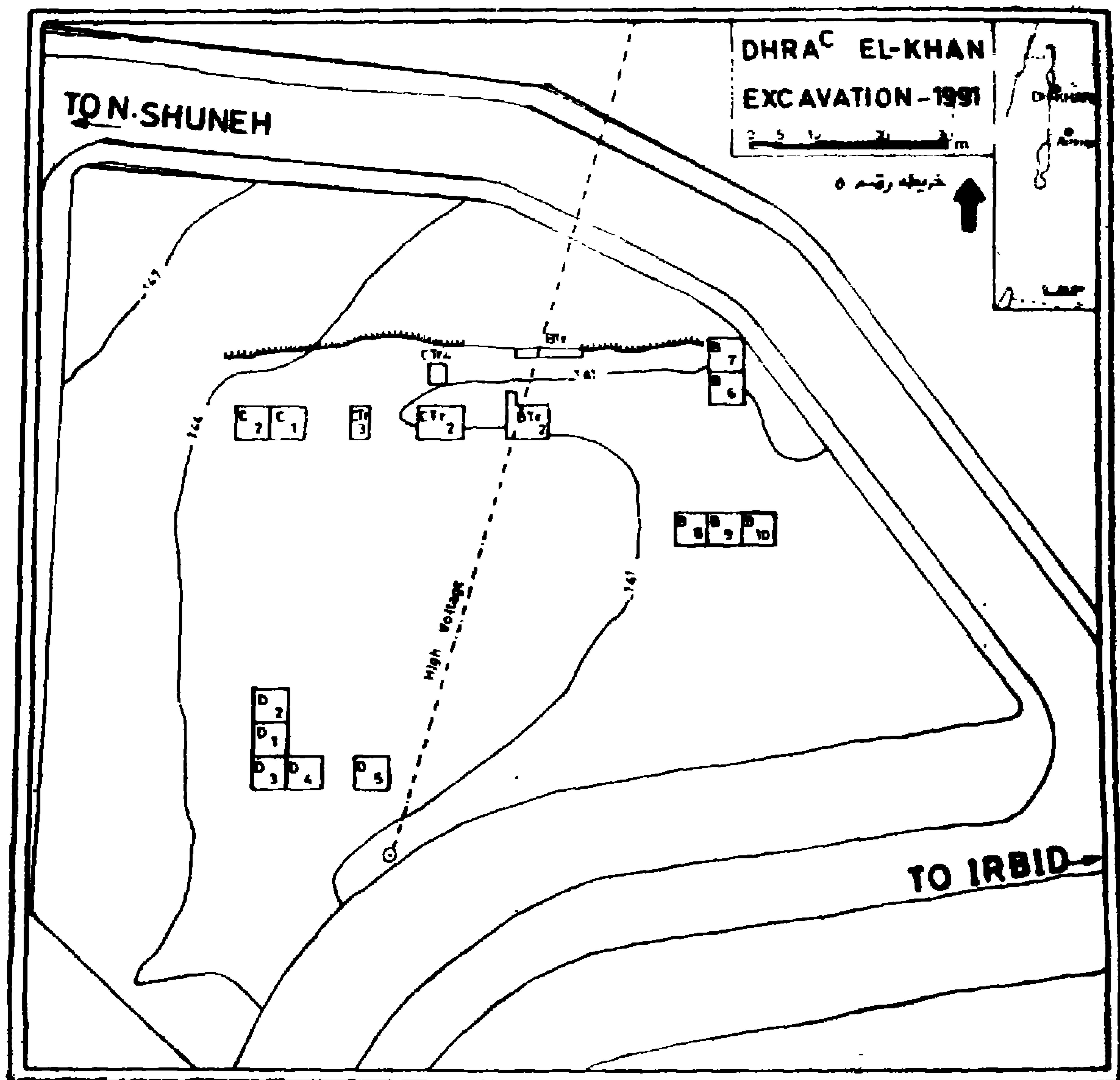
خارطة كنتوريه لمنطقة جسر الشيخ حسين

خارطة رقم ٣



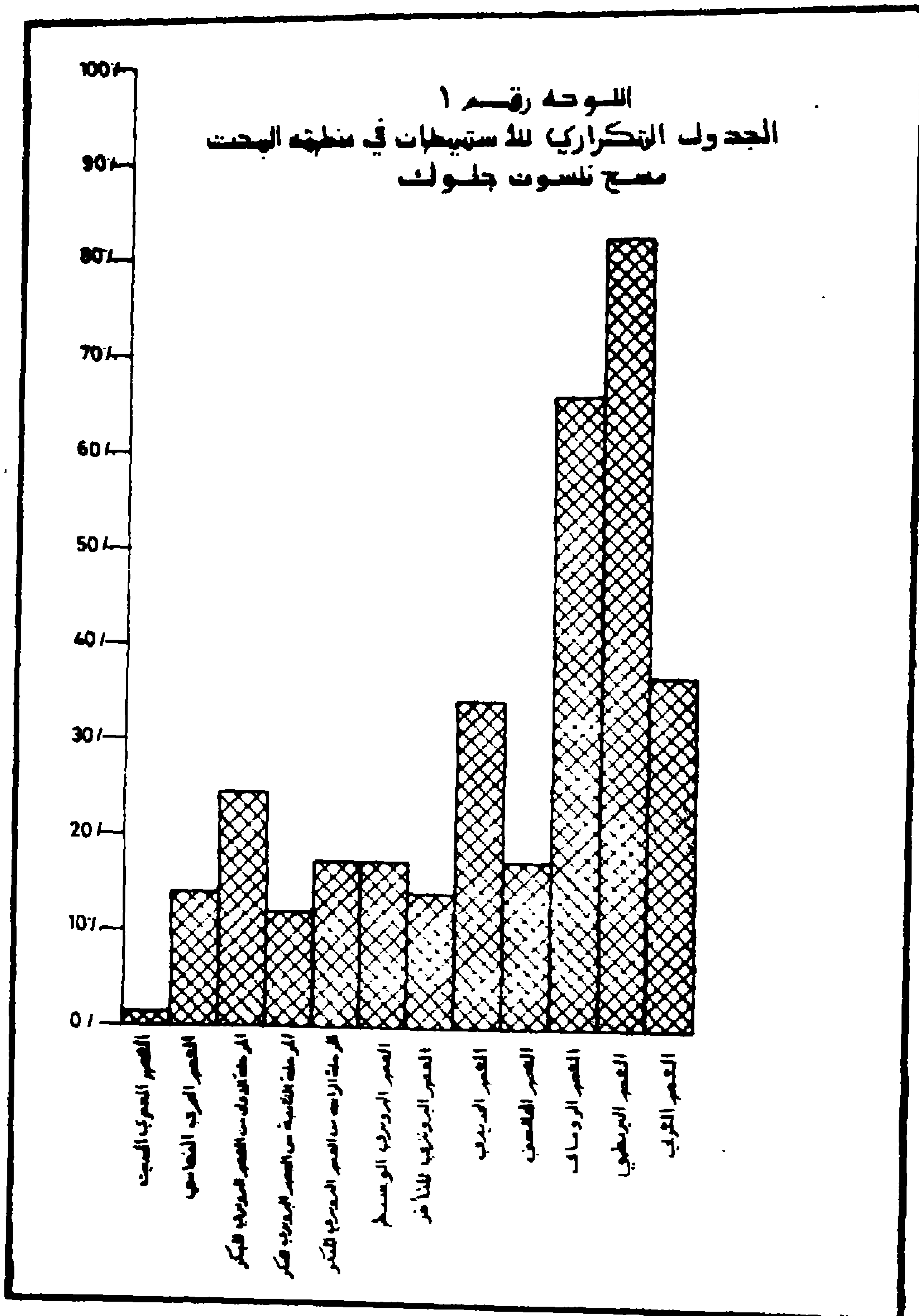


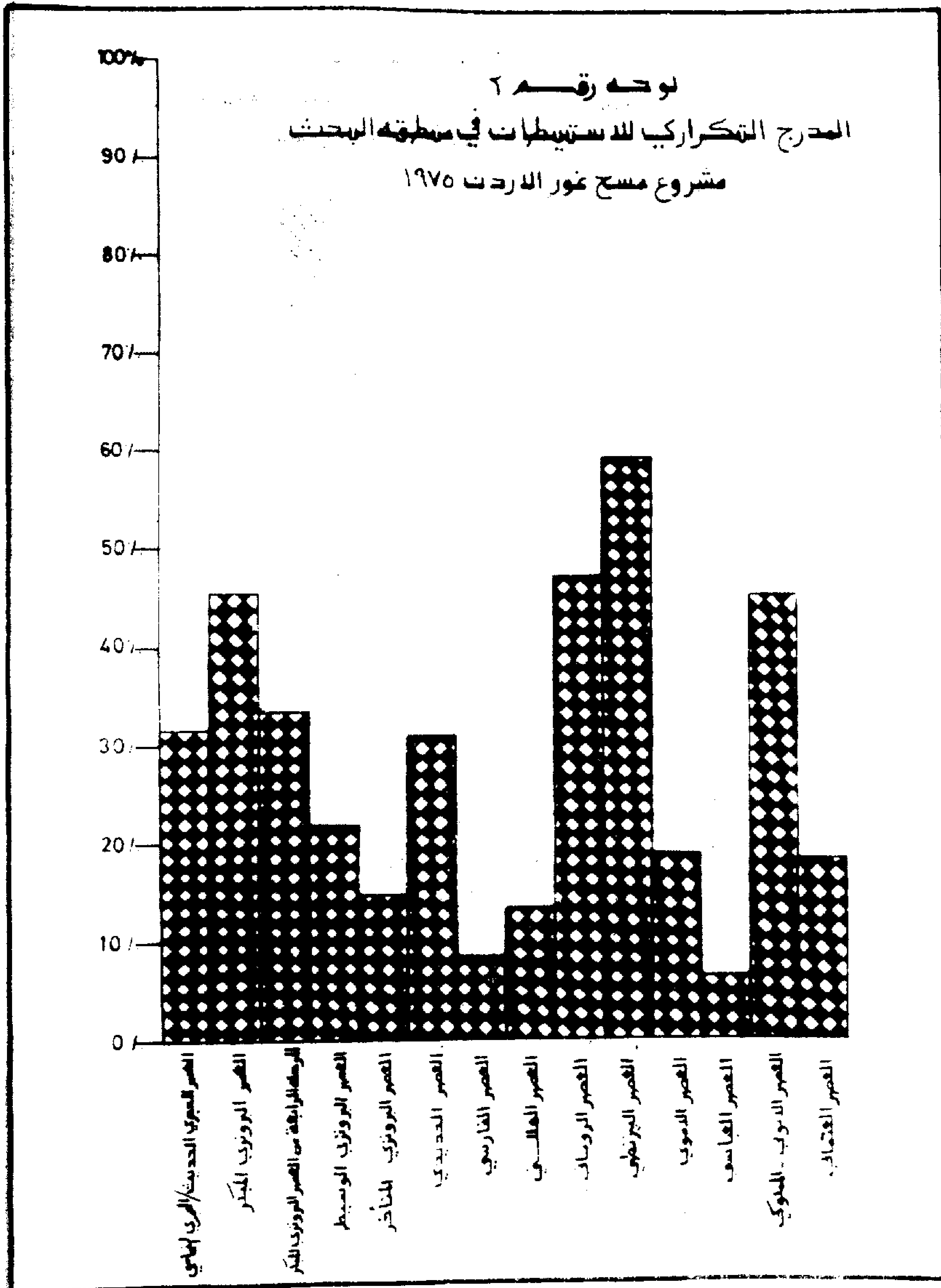
خريطة رقم - ٤ -
مواقع المخيمات الأثرية في غور الأردن


DHRA^C EL-KHAN
EXCAVATION - 1991
خريطه رقم ٥
TO N. SHUNEH
TO IRBID
High Voltage

خارطة رقم ٦

خارطة كنتورية لموقع تل قدسية - المخطط الشبكي و مربعات التنقيب


اللوحه رقم ١
الجدول التكراري للاستيطان في منطقه البحث
مسح نلسون جلوك
100٪
90٪
80٪
70٪
60٪
50٪
40٪
30٪
20٪
10٪
0٪
العصر الحجري الحديث
العصر الحجري النحاسي
المرحلة الأولى من العصر البرونزي المبكر
المرحلة الثانية من العصر البرونزي المبكر
المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر
العصر البرونزي الوسيط
العصر البرونزي المتأخر
العصر الحديدي
العصر الهلنستي
العصر الروماني
العصر البيزنطي
العصر العربي


لوحة رقم ٢
المدرج التكراري للاستيطانات في منطقة البحث
مشروع مسح غور الاردن ١٩٧٥
100%
90
80
70
60
50
40
30
20
10
0
العصر الحجري الحديث/
العصر البرونزي المبكر
المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر
العصر البرونزي الوسيط
العصر البرونزي المتأخر
العصر الحديدي
العصر الفارسي
العصر الهلنستي
العصر الروماني
العصر البيزنطي
العصر الأموي
العصر العباسي
العصر الأيوبي - المملوكي
العصر العثماني

	العصر الحجري الحديث/ العصر الحجري النحاسي	العصر البرونزي المبكر	العصر البرونزي الوسيط	العصر البرونزي المتأخر	العصر الحديدي	العصر الهلنستي	العصر الروماني	العصر البيزنطي	العصر الأموي	العصر العباسي	العصر الأيوبي/المملوكي	العصر العثماني	الوقت الحاضر
تل قمدي . الموقع A	●							●			●		
تل قمدي الموقع B											●		
خربة سليم اليوسف الموقع C		●						●		●	●		
خربة سليم اليوسف الموقع D		●						●		●	●		
خربة سليم اليوسف الموقع E		●											
تل الاربعين موقع F	●	●	●	●	●			●				●	●
تل الاربعين موقع G	●	●		●	●						●	●	●
تل الاربعين الموقع H		●						●			●	●	●
تل الاربعين الموقع I		●						●			●	●	●
تل ابو هرس شمالي ، موقع J											●		
تل بيرها الموقع K											●	●	●
خربة الشيخ محمد موقع L			●	●	●			●					
خربة الشيخ محمد الموقع M	●		●	●	●								
تل قدسيه الموقع N							●	●	●	●	●	●	●
خربة الشيخ حسين موقع O											●	●	

اللوحة رقم ٣

المواقع الاثرية في منطقة جسر الشيخ وتاريخ الاستيطان فيها

الموقع	العصر الحجري الحديث	العصر الحجري النحاسي	العصر البرونزي المبكر	المرحلة الانتقالية من العصر البرونزي المبكر	العصر البرونزي الوسيط	العصر البرونزي المتأخر	العصر الحديدي	العصر الهلنستي	العصر الروماني	العصر البيزنطي	العصر الأموي	العصر العباسي	العصر الأيوبي/المملوكي	العصر العثماني	الوقت الحاضر
السفح الشمالي الشرقي لقرية سليحات	•	•					•			•			•	•	•
السفح الجنوبي الشرقي لقرية سليحات	•	•							•	•			•		•
قرية سليحات										•			•	•	•
مقبرة سليحات	•	•	•	•	•										
تل ابو العقارب		•	•				•								
تل دحمون							•								
تل حمدقوق		•	•												
خربة هميمه									•	•	•	•	•	•	•
تل هميمة		•	•				•			•	•				
سفح تل هميمة السفلي							•		•	•			•		
تل ابو المصر		•					•		•	•			•		
تل مرار				•					•						
خربة عين البيضا										•	•		•	•	•
خربة سميرة	•	•				•	•		•	•	•		•	•	•

اللوحة رقم ٤

المواقع الاثرية في منطقة سليخات وتاريخ الاستيطان فيها

تنويـــــه

نعتذر من القارىء الكريم للقفز في الارقام

من : ١٤٠ ــ ١٤٤ وشكرا ٠

هيئة التحرير

1. عابد ،عبدالقادر٠جغرافية الاردن٠دار النهضة ،عمان ،١٩٨٢ ٠ ص١٣٢
Schattner, I. "The Lower Jordan Valley". Scripta Hierosolymitana, (SH) vol. XI. Jerusalem, 1962. P. 13.
Smith Adam. The Historical Geography of the Holy Land. London, 1897. P. 482.
2. Bender, F. Geology of Jordan. Berlin-Stuttgart. 1974. P. 11.
3. Schattner, I. "The Lower Jordan Valley". SH: XI. Jerusalem 1962. PP.14-21.
Bender, F. Geology of Jordan. Berlin-Stuttgart. 1974. PP. 123-124.
Linton, D. and Moseley, F. "The Geological Ages". Cambridge Ancient History (CAH), vol. 1, part 1. Cambridge, Cambridge University Press. 1970. P. 2.
عابد ،عبدالقادر ٠ ص٨١ـ٨٢
4. Blanckenhorn, M. "Entstehung und Geschichte des Totenmeers". Zeitschrift des Deutschen Palastina-Vereins (ZDPV), vol. 67. Leipzig, 1896. PP. 24-26.
5. Blanckenhorn, M. "Entstehung und Geschichte des Totenmeers". ZDPV: 67. Leipzig, 1896. P. 26.
Smith Adam. The Historical Geography of the Holy Land. London. 1897. P. 269.
6. عابد ، عبدالقادر ٠ ص٨١
7. Van Zeist, W. "Past and Present Environments of the Jordan Valley". Studies in the History and Archaeology of Jordan (SHAJ), vol. II. ed. Hadidi, A. Amman, 1985. Department of Antiquities-Jordan. P. 200.
8. Saunders Trelawney. An Introduction to the Survey of Western Palestine: Its Waterways, Plains and Highlands. London, 1881. P. 155.
Aharoni, Y. The Land of the Bible. Philadelphia: the Westminster Press, 1967. P.31.
Van Zeist, W. "Past and Present Environments of the Jordan Valley". SHAJ: II. ed. Hadidi, A. Amman, 1985. Department of Antiquities-Jordan. P. 199.
9. Saunders Trelawney. An Introduction to the Survey of Western Palestine: Its Waterways, Plains and Highland, London, 1881. P. 154.
Aharoni, Y. The Land of the Bible. Philadelphia: the Westminster Press, 1967. P. 31.
10. Ibid. P. 31-32.
11. Koucky, F. and Smith, R. "Lake Baisan and the Prehistoric Settlement of Northern Jordan Valley". Paleorient vol. 12/2. PP. 27-36.
12. Glueck Nelson. "Explorations in Eastern Palestine IV". Annual of the American Schools of Oriental Research (AASOR), vol. 25-28. New Haven, 1951. PP. 224-226.
13. Ibid. PP. 276-288.
14. Mellaart, J. "Preliminary Report of the Archaeological Survey in the Yarmuk and Jordan Valley for the Point Four Irrigation Scheme". Annual of the Department of Antiquities of Jordan (ADAJ), vol. 6-7. Amman, 1962.P.143.
15. Ibid. P. 145.
16. Ibid. PP. 126-157.
17. De Contenson, H. "The 1953 Survey in the Yarmouk and Jordan Valleys". ADAJ: 8-9. Amman, 1964. P. 35.
18. Ibid. P. 36.
19. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey 1975". Bulletin of the American School of Oriental Research (BASOR), vol. 222. Atlanta: Scholars Press. 1976. P. 50.

Yassine, K.; Ibrahim, M. and Sauer, J. "The East Jordan Valley Survey 1976, (second part)". Archaeology of Jordan: Assays and Reports. ed. Khair Yassine. Amman, 1988. PP. 187-206.

20. Ibrahim, M.; Sauer, Y. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey 1975". BASOR: 222. Atlanta: Scholars Press. P. 50.
Yassine, K.; Ibrahim, M. and Sauer, J. "The East Jordan Valley Survey, 1976, (second part), Archaeology of Jordan: Assays and Reports. Khair Yassine. Amman, 1988.PP. 187-206.

21. Muheisen, M. "A Survey of Prehistoric Sites in the Jordan Valley, 1985". British Archaeological Reports (BAR) 396 (i). ed. Andrew N. Garrard and Hans Georg Gebel. Oxford, 1988. PP. 503-523.

22. Mabry, J. and Palumbo, G. with a contribution by Ian Kuijt. "The 1987 Wadi el-Yabis Survey". ADAJ: 32. Amman, 1988. P.278.

23. Mittmann, S. Beitrage zur Siedlungs und Territorialgeschichte des Nordlichen Ostjordanlands. Wiesbaden: Harrassowitz. 1970. P. 62.

24. Ibid. PP. 139-143.

25. انظر الخارطة رقم ٤

26. De Contenson, H. "Three Soundings in the Jordan Valley". ADAJ: 4-5. Amman, 1960. PP. 12-57.
Mellaart, J."Preliminary Report of the Archaeological Survey in the Yarmuk and Jordan Valley for the Point Four Irrigation Scheme". ADAJ: 6-7. Amman, 1962. PP. 126-153.
Gustavson-Gaube, C. "Tell esh-Shuna North, 1984: A Preliminary Report". ADAJ: 29. Amman, 1985. PP. 43-87.
Gustavson-Gaube, C. "Tell esh-Shuna North, 1985: A Preliminary Report". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 69-114.

27. Falconer, S.; Magness-Gardiner, B. and Metzger, M. "The 1982 Excavations of the Tell el-Hayyat Project". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 87-104.
Falconer, S. and Magness-Gardiner. "Preliminary Report of the First Season of the Tell el-Hayyat Project". BASOR: 255. New Haven, 1984. PP. 49-74.

28. De Contenson, H. "Three Soundings in the Jordan Valley". ADAJ: 4-5. Amman, 1960. PP. 12-57.

29. Dollfus, G.; Kafafi, Z. Coqueugniot, E.; Desse, J. and Neef, R. "Preliminary Results of the First Season of the Joint Jordano-French Project at Abu Hamid". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 353-380.
Dollfus, G. and Kafafi, Z. "Abu Hamid, Jordanie: Premiers Resultats". Paleorient vol. 12/1. PP. 91-100.
Dollfus, G. and Kafafi, Z. "Tell Abu Hamid". SHAJ: III. Amman, 1987. PP. 231-236.
Dollfus, G. and Kafafi, Z. "Recent Researches at Abu Hamid". ADAJ: 25. Amman, 1993. PP. 241-256.

30. Fischer, P. "Tell Abu al-Kharaz: The Swedish Jordan Expedition 1989, First Preliminary Report from Trial Soundings". ADAJ: 35. Amman, 1989. PP. 67-104.
Fischer, P. "Tell Abu al-Kharaz: The Swedish Jordan expedition 1991, Second Season Preliminary Excavation Report". ADAJ: 37. Amman, 1993. PP. 279-306.

31. Falconer, S. "Village Pottery Production and Exchange: a Jordan Valley Perspective". SHAJ: III. Amman, 1987. P. 251.

32. Kirkbride, D. "A Neolithic Site at Wadi el-Yabis". ADAJ: 3. Amman, 1956. PP. 56-60.

33. De Contenson, H. "Three Soundings in the Jordan Valley, III: Tell es-

Saidiyeh el-Tahta". ADAJ: 4-5. Amman, 1960. PP.49-56.
Pritchard, J. "Excavations at Tell es-Sa'ideyeh". ADAJ: 8-9. Amman, 1964. PP. 95-98.
Pritchard, J. The Cemetery at Tell es-Sa'ideyeh, Jordan. University of Pennsylvania, 1980.
Tubb, J. "Preliminary Report on the 1985 Season of Excavations at Tell es-Sa'ideyeh, Jordan". ADAJ: 29. Amman, 1985. PP. 131-140.
Tubb, J. "Tell es-Sa'ideyeh 1986: Interim Report of the Second Season of Excavations". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 115-131.
Tubb, J. "Tell es-Sa'ideyeh". Archiv fur Orientforschung (AFO), vol. 33. Berlin-Graz, 1986. PP. 212-218.
Tubb, J. "Tell es-Sa'ideyeh: Preliminary Report on the first three Seasons of Renewed Excavations". Journal of the British School of Archaeology in Jerusalem (Levant), vol. 20. London, 1988. PP. 41-58.
Tubb, J. "Preliminary Report on the Fourth Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh in the Jordan Valley". Levant: 22. London, 1990. PP. 21-42.
Tubb, J. and Dorrell, P. "Tell es-Sa'idiyeh: Interim Report on the Fifth (1990) Season of Excavations. Levant: 23. London, 1991. PP. 67-86.
Tubb, J. "Preliminary Report on the Fifth (1990) Season of Excavations at Tell es-Sa'ideyeh". ADAJ: 35. Amman, 1991. PP. 181-194.
34. Yassine, K. "Tell el-Mazar, Field 1. Preliminary Report of Area G, H, L and M. The Summit". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 495-513.
Yassine, K. Tell el-Mazar 1, Cemetery A. Amman, 1984.
Yassine, K. "The Open Sanctuary of the Iron Age 1 Tell el-Mazar Mound A". ZDPV: 100. Stuttgart, 1984. PP. 108-115.
Yassine, K. "Ammonite Seals from Tell el-Mazar". SHAJ: 1. Amman, 1982. PP.189-194.
35. De Hass, H.; LaGro, H. and Steiner, M. "First Season of Excavation at Tell Abu Sarbut, 1988: A Preliminary Report". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP: 323-326.
LaGro, H. and De Hass, H. "Sugar Pots: A Preliminary Study of Technological Aspects of a Class of Medieval Industrial Pottery from Tell Abu Sarbut, Jordan". News Letter, Department of Pottery Technology, no.7/8. Leiden, 1989/1990. PP. 7-20.
36. Franken, H. and Kalsbeek, J. Poters of a Medieval Village in the Jordan Valley. New York: American Elsevier Press. 1975.
37. Franken, H. "The Excavations at Deir Alla in Jordan". Vetus Testamentum (VT), vol. 10. Leiden, 1960. PP. 386-393.
Franken, H. "The Excavations at Deir Alla in Jordan, 2nd Season". VT: 11. Leiden, 1961. PP. 361-372.
Franken, H. "The Excavations at Deir Alla in Jordan, 3rd Season". VT: 12. Leiden, 1962. PP. 379-382.
Franken, H. "Excavations at Deir Alla, Jordan. Preliminary Report". VT: 14. Leiden, 1964. PP. 417-422.
Franken, H. "Tell Deir Alla". Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land, vol. 1. Ed. Avi-Yonah. London: Oxford University Press, 1975. PP. 321-323.
Franken, H. and Ibrahim, M. "Two Seasons of Excavations at Tell Deir Alla, 1976-78". ADAJ: 22. Amman, 1977-78. PP. 57-80.
Ibrahim, M. and Van der Kooij, G. "Excavations at Tell Deir Alla, Season 1979". ADAJ: 23. Amman, 1979. PP. 41-50.
Ibrahim, M. and Van der Kooij, G. "Excavations at Tell Deir Alla, Season

1982". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 577-585.
Ibrahim, M. and Van der Kooij, G. "Tell Deir Alla". AFO:29-30. Berlin-Graz, 1983-84. PP. 260- 263.
Ibrahim, M. and Van der Kooij, G. "Excavations at Deir Alla, Season 1984". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 131-144.

38. Leonard, A. "Kataret es-Samra: A Late Bronze Age Cemetery in Transjordan". BASOR: 234. New Haven, 1979. PP. 253-265.
Leonard, A. "Kataret es-Samra: A Late Bronze Age Cemetery in Transjordan". ADAJ: 25. Amman, 1981. PP. 179-195.
Leonard, A. "The Kataret es-Samra Project: 1985". ADAJ: 29. Amman, 1985. PP. 289-290.
Leonard, A. "Kataret es-Samra". AFO: 33. Berlin-Graz, 1986. PP. 166-167.

39. Helms, S. "Excavations at Tell Umm Hammad esh-Sharqia in the Jordan Valley 1982". Levant: 16. London, 1984. PP. 35-54.
Helms, S. "Excavations at Tell Umm Hammad, 1984. Levant: 18. London, 1986. PP. 25-51.
Helms, S. "Tall Umm Hammad". AFO: 33. Berlin-Graz, 1986. PP. 228-231.

40. Helms, S. "The EBIV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi in the Jordan Valley, 1983". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 55-85.
Helms, S. "The EBIV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi in the Jordan Valley". Liber Annus,(LA), no. 33. Jerusalem, 1984. PP. 407-408.
Helms, S. "The EBIV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi in the Jordan Valley". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 55-86.
Tubb, J. and Wright, M. "Excavations in the Early Bronze Age Cemetery of the Tiwal esh-Sharqi: A Preliminary Report". ADAJ: 29. Amman, 1985. PP. 115-130.

41. Piccirillo, M. "A Church at Shunet Nimrin". ADAJ: 25. Amman,1982. PP. 335-342.
Piccirillo, M. "The Umayyad Churches of Jordan". ADAJ: 28. Amman, 1984. PP. 338-339.

42. Flanagan, J. and McCreery, D. "First Preliminary Report of the 1989 Tell Nimrin Project". ADAJ: 34. Amman, 1990. PP. 131-152.
Dornemann, R. "Preliminary Comments on the Pottery Traditions at Tell Nimrin, Illustrated from the 1989 Season of Excavations". ADAJ: 34. Amman, 1990. PP. 153-182.

43. Prag, K."Kilns of the Intermediate Early Bronze-Middle Bronze Age at Tell Iktanu: Preliminary Report, 1987 Season". ADAJ: 32. Amman, 1988. PP. 59-72.
Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu, Jordan, 1987". Levant: 21. London, 1989. PP. 33-46.
Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu, Jordan, 1989". ADAJ: 34. Amman, 1990. PP. 119-122.
Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu and Tell al-Hammam, Jordan, 1990". Levant: 23. London, 1991. PP. 55-66.

44. Mellaart, J. "The Neolithic Site of Ghrubba". ADAJ: 3. Amman, 1959. PP. 24-40.

45. Suleiman, E. and Betts, A. "Rescue Excavations at Sahl es-Sarabet 1978/79". ADAJ: 25. Amman, 1981. PP. 227-234.

46. Mallon, A.; Koeppel, R. and Neuville, R. Teleilat Ghassul 1. Rome, 1934.
Koeppel, R.; Senes, H.; Murphy, J. and Maham, G. Teleilat Ghassul II. Rome, 1940.
Hennessy, B. "Preliminary Report on a First Season of Excavations at

Teleilat Ghassul". Levant: 1. London, 1969. PP. 1-24.

47. Burckhardt, J. Travels in Syria and the Holy Land. London, 1822. P. 267.

48. Ibid. PP. 325-346.

49. Ibid. P. 346.

50. Buckingham, J. Reisen durch Syrien und Palastina. Weimar, 1828. PP. 9-14.

51. G. H. An Excursion from Jericho to the Ruins of Ancient Cities of Geraza and Amman. London, 1852. PP. 9-10.

52. Robinson, E. Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions, vol.III. Jerusalem, 1970. P. 317.

53. Warren, C. "Expedition East of Jordan". Palestine Exploration Fund Annual,(PEF), no. 1/6. London, 1870. P. 285.

54. Northy, A. "East of Jordan, Expedition". PEF. London, 1872. P. 71.

55. Van de Velde, C. Narrative of a Journey Through Syria and Palestine in 1851 and 1852. London, 1890. P. 356.

56. Le Strange, G. "A Ride Through 'Ajlun and the Belka during the Autumn of 1884". Across the Jordan: An Exploration and Survey of part of Hauran and Jaulan. ed. Schumacher Gottieb. London, 1886. PP. 270-273.

57. Schumacher, G. "Abila of the Decapolis". PEF. London, 1889. PP. 71-190.

58. Smith, A. The Historical Geography of the Holy Land. London, 1897. PP. 488-489.

59. Steuernagel, C. "Der 'Adschlun". ZDPV: 48. Leipzig, 1925. PP. 343-351.

60. انظر الخارطة رقم ٢

كريم ،جمعه٠المسح الاثري لمنطقة جسر الشيخ حسين:الاغوار الشماليه لعام١٩٨٦ ابحاث اليرموك ٠ المجلد السادس ،العدد الاول٠جامعة اليرموك ، ١٩٩٠٠ ص١١٥ــ١٥٠ ٠

Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheikh Hussien Region. MA Thesis. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University. 1987.

Lenzen, C.; Kareem, J. and Thorpe, S. "The Jisr Sheikh Hussein Project, 1986". ADAJ: 31. Amman, 1987. PP. 313-320.

Kareem, J. "Tell Fandi: Jisr Sheikh Hussein Project, 1986". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP. 97-110.

Kareem, J. "Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Djisr Shaykh Husayn Region". in Studies on the History of Bilad al-Sham During the Umayyad Period. ed. Muhammad A. Bakhit and Mohammad Y. Abbadi. Amman, 1990. PP. 33-50.

61. Buckingham, J. Reisen durch Syrien und Palastina. Weimar, 1828. PP. 10-14.

62. Schumacher, G. "Abila of the Decapolis". PEF. London, 1890. PP. 71-72.

63. انظر الخارطة رقم ٤

64. انظر الخارطة رقم ٣

65. Rudolph, C. "The Iron Age Fortresses in Central Negev". BASOR: 236. New Haven, 1979. PP. 68-75.

66. Mabry, J. "Investigations at Tell el-Handaquq, Jordan (1987-1988)". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP. 59-96.

67. Ibid. PP. 74-84.

68. التيمار هو اقطاع عسكري

69. البخيت ،محمد عدنان ،والحمود ،نوفان ،دفتر لواء عجلون ،طابو دفتر رقم١٨٥٠عمان١٩٩١٠ص١٩٠

70. Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheikh Hussein Region. Unpublished MA Thesis. Yarmouk University.

Kareem, J. "Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Djisr Shaykh Husayn Region". Studies on the History of Bilad al

انظر الخارطة رقم ٦

Sham During the Umayyad Period. ed. Muhammad A. Bakhit and Mohammad Y. Abbadi. Amman. 1990. PP. 40-45.

71. Kareem, J. The Settlement Patterns in the Jordan Valley in the Mid- to Late Islamic Period. Ph. D. Frei Universitat Berlin. PP. 105-180.
انظر الخارطة رقم ٥

72. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975." BASOR 222. New Haven, 1976. P. 63.

73. القلقشندى(ابو العباس احمد بن علي)صبح الاعشى فى صناعة الانشا ٠ج١٤٠ الهيئة العامة المصرية ، ١٩٧٣ ٠ص٠٣٧٠

74. ابن تغرى بردى(جمال الدين ابي المحاسن يوسف) ٠النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة٠ج١٦٠ تدقيق جمال محمد محرز وفهيم محمد شلتوت ٠القاهرة ، ١٩٧١ ٠ص٤٨٠

75. Muheisen, M. "A Survey of Prehistoric Sites in the Jordan Valley, 1985". BAR 396 (i). ed. Andrew N. Garrard and Hans Georg Gebel. Oxford, 1988. P. 520.

76. Villiers, L. "First Report on Palaeolithic Sampling at Abu el-Khas, Pella". ADAJ: 24. Amman, 1980. PP. 163-168.
Villiers, L. "Final Report on Palaeolithic Sampling at Abu al-Khas, North Jordan". ADAJ: 27. Amman, 1983. P. 40.

77. Muheisen, M. "A Survey of Prehistoric Sites in the Jordan Valley, 1985". BAR 396 (I). ed. Andrew N. Gerrard and Hans Georg Gebel. Oxford, 1988. P. 520.

78. Ibid. P. 520.

79. Edwards, P.; Brouke, S.; Colledge, S.; Head, J. and Macumber, P. "Late Pleistocene Prehistory in Wadi al-Hammeh, Jordan Valley". BAR: 396 (i), ed. Andrew N. Gerrard and Hans Georg Gebel. Oxford, 1988. PP. 530-534.
McNicoll, A.; Edwards, P.; Hosking, J.; Macumber, P.; Walmsley, A. and Watson, P. Preliminary Report on the University of Sydney's Seventh Season of Excavations at Pella (Tabaqat Fahl), 1985". ADAJ: 30. Amman, 1986. P. 158.
Potts, T.; Brouke, S.; Edwards, P.; Richards, F. and Wightman, G. "Preliminary Report on the Eighth and Ninth Seasons of Excavation by the University of Sydney at Pella (Tabaqat Fahl) 1986 and 1987". ADAJ: 32. Amman, 1988. PP. 116-119.

80. كعافي ،زيدان عبدالكافي٠الاردن في العصور الحجرية ،منشورات لجنة تاريخ الاردن ،١٩٩٠٠عمان ص١٠١٠

81. McNicoll, A.; Ball, W.; Bassett, S.; Edwards, P.; Macumber, P. ; Petocz, D.; Potts, T.; Randle, L.; Villiers, L. and Watson, P. "Preliminary Report on the University of Sydney's Fifth Season of Excavation at Pella in Jordan. ADAJ: 28. Amman, 1984. PP. 56-61.
McNicoll, A.; Edwards, P.; Hosking, J.; Macumber, P.; Walmsley, A. and Watson, P. " Preliminary Report on the University of Sydney's Seventh Season of Excavations at Pella (tabaqat Fahl), 1985". ADAJ: 30. Amman, 1986. P. 160.
Edwards, P.; Brouke, S.; Da Costa, K.; Tidmarsh, J.; Walmsley, A. and Watson, P. "Preliminary report on the University of Sydney's Tenth Season of Excavations at Pella (Tabaqat Fahl) in 1988". ADAJ: 34. Amman, 1990. PP. 58-60.
Edwards, P. "The Epipalaeolithic Period". Pella in Jordan 2. ed. McNicoll, A.; Edwards, P.; Hanbury-Tenison, J.; Hennessy, B.; Potts, T.; Smith, R.; Walmsley, A. and Watson, P. Sydney, 1992. PP. 2-6.

82. McNicoll, A.; Smith, R. and Hennessy, B. Pella in Jordan 1. Camberra, 1982. P. 26.

83. كفافي،ص ص١٢٥_١٢٦ ، ١٤٠٠.

84. De Contenson, H. "Three Soundings in the Jordan Valley". ADAJ: 4-5. Amman, 1960. PP. 12-57.

85. Ibid. PP. 12-57.

86. Mellaart, J. "The Neolithic Site of Grubba". ADAJ: 3. Amman, 1956. PP. 24-40.

87. Hennessy, J. "Preliminary Report on a First Season of Excavations at Teleilat Ghassul". Levant: 1. London, 1969. PP. 1-24.

88. Kafafi, Z. The Neolithic of Jordan (East Bank). Ph. D. Thesis. Frei Universitat Berlin. Berlin.

89. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven, Cambridge, 1951. P. 276.

وانظر اللوحة رقم ١

90. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.

وانظر اللوحة رقم ٢

91. انظر اللوحتين رقم ٣و٤

92. Koucky, F. and Smith, R. "Lake Baisan and the Prehistoric Settlement of the Northern Jordan Valley". Paleorient: 12/2. Paris, 1986. PP. 24-31.

93. Ibid. PP. 27-37.

94. Dollfus, G.; Kafafi, Z.; Coqueugnoit, E,; Desse, J. and Neef, R. "Preliminary Results of the First Season of the Joint Jordano-French Project at Abu Hamid". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 353-380.

Dollfus, G.; Kafafi, Z.; Rewerski, J.; Vaillant, N.; Coqueugoint, E.; Desse, J. and Neef, R. "Abu Hamid: An Early Fourth Millennium Site in the Jordan Valley, Preliminary Results. BAR: 396 (i). ed. Gerrard, E. and Gebel, H. Oxford, 1988. PP. 576-601.

95. Hennessy, J. "Preliminary Report on a First Season of Excavations at Teleilat Ghassul". Levant: 1. London, 1969. P. 5.

96. Ibrahim, M. "Archaeological Excavations at Sahab, 1972". ADAJ: 17. Amman, 1972. PP. 23-36.

Ibrahim, M. "Second Season of Excavations at Sahab, 1973". ADAJ: 18. Amman, 1974. PP. 55-61.

Ibrahim, M. "Third Season of Excavations at Sahab, 1975". ADAJ: 20. Amman, 1975. PP. 69-82.

97. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP.239-303.

98. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.

99. انظر اللوحة رقم ٣

100. انظر اللوحة رقم ٤

101. ياسين ،خير. جنوبي بلاد الشام-تاريخه وآثاره في العصور البرونزية.منشورات لجنة تاريخ الاردن . عمان ، ١٩٩١.ص٣٠.

102. De Contenson, H. "Three Soundings in the Jordan Valley". ADAJ: 4-5. Amman, 1960. PP: 12-31.

Gustavson-Gaube, C. "Tell esh-Shuna North, 1985: A Preliminary Report". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP: 69

103. Pritchard, J. The Cemetery at Tell es-Sa'idiyeh, Jordan. Penssylvania.

Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh: Preliminary Report on the First Three Seasons of Renewed Excavations". Levant: 20. London, 1988. P. 65.

104. Mabry, J. "Investigations at Tell el-Handaquq, Jordan (1987-1988)". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP. 59-96.
105. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
106. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
107. انظر اللوحة رقم ١
108. انظر اللوحة رقم ٢
109. Schaub, T. "The Origins of the Early Bronze Age Walled Towns Culture of Jordan". SHAJ: 1. Ed. Hadidi, A. Amman, 1982. P. 74.
ياسين ، ص٣٢.
110. Ibrahim, M. and Mittmann, S. "Tell el-Mughayyir and Khirbet Zeraqoun". News Letter no. 4. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1987. PP. 3-6.
Ibrahim, M. and Mittmann, S. "Excavations at Khirbet ez-Zeraqoun 1991". News Letter no. 12. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1991. PP. 3-5.
111. Tubb, J. "Preliminary Report on the 1985 Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh, Jordan". ADAJ: 29. Amman, 1985. P. 140.
Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh 1986: Interim Report of the Second Season of Excavations". ADAJ: 30. Amman, 1986. P. 123.
Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh: Preliminary Report on the First Three Seasons of Renewed Excavations". Levant: 20. London, 1988. P. 65.
Tubb, J. "Preliminary Report on the Fourth Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh in the Jordan Valley". Levant: 22. London, 1990. PP. 33, 37-38.
Tubb, J. "Preliminary Report on the Fifth (1990) Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh". ADAJ: 25. Amman, 1991. P. 189.
Tubb, J. and Dorrell, P. "Tell es-Sa'idiyeh: Interim Report on the Fifth (1990) Season of Excavations". Levant: 23. London, 1991. P. 83.
112. Fischer, P. "Tell Abu al-Kharaz: The Swedish Jordan Excavation 1989, First Season, Preliminary Report From Trial Soundings". ADAJ: 35. Amman, 1991. PP. 77-81.
Fischer, P. "Tell Abu al-Kharaz: The Swedish Jordan Expedition 1991, Second Season, Preliminary Excavation Report". ADAJ: 37. Amman, 1993. PP. 284-287.
113. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP.239-303.
انظر اللوحة رقم ١
114. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
انظر اللوحة رقم ٢
115. Albright, W. "Palestine in the Earliest Historical Period". Journal of Palestine Oriental Society ,(JPOS), 2. Jerusalem, 1922. PP. 110-139.
116. Edzard, D. Die Zweite Zwischenzeit Babyloniens. Wiesbaden, 1957.
117. ياسين ، ص٣٧.
118. Lapp, P. The Dhahr Mirzbaneh Tombs: Three Intermediate Bronze Age Cemeteries in Jordan. New Haven, 1966.
Richard, S. "Toward a Consensus of Opinion on the End of the Early Bronze Age in Palestine-Transjordan". BASOR: 237. New Haven, 1980. PP. 5-34.
119. Prag, K. "The Intermediate Early Bronze-Middle Bronze Age: An Interpretation of the Evidence from Transjordan, Syria and Lebanon".

Levant: 6. London, 1974. PP. 69-116.
120. Falconer, S. "Village Pottery Production and Exchange: A Jordan Valley Perspective". SHAJ: III. Amman, 1987. PP. 251-252.
121. Helms, S. The EB IV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi in the Jordan Valley, 1983". ADAJ: 27. Amman, Jordan. PP. 55-85.
Helms, S. "The EB IV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi". LA: 33. Jerusalem, 1984. PP. 407-408.
Helms, S. "The EB IV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi in the Jordan Valley". ADAJ: 28. Amman, 1984. PP. 55-86.
122. Helms, S. "Excavations at Tell Umm Hammad esh-Sharqia in the Jordan Valley, 1982". Levant: 16. London, 1984. PP. 35-54.
123. Prag, K. "Kilns of the Intermediate Early-Middle Bronze Age at Tell Iktanu. Preliminary Report, 1987 Season". ADAJ: 32. Amman, 1988. PP. 59-72.
Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu, Jordan, 1987". Levant: 21. London, 1989. PP. 33-46.
Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu, Jordan 1989". ADAJ: 34. Amman, 1990. PP. 119-130.
Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu and Tell al-Hammam, Jordan, 1990:. Levant: 23. London, 1991. PP. 55-66.
124. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. P. 51.
125. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
انظر اللوحة رقم ١
126. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50. انظر اللوحة رقم ٢
127. انظر اللوحتين رقم ٣ و ٤
128. Kenyon, K. "Palestine in the Middle Bronze Age". CAH: 2, part 1. Cambridge, 1973. PP. 77-116.
Dever, W. "The Beginning of the Middle Bronze Age. The Biblical Archaeologist ,(BA),: 15. New Haven, 1976. PP. 58-61.
Gerstenblith, P. "The Levant at the Beginning of the Middle Bronze Age". AASOR: 2-3. New Haven-Cambridge, 1983.
129. Parr, P. "The Origin of Rampart Fortification of the Middle Bronze Age, Palestine and Syria. ZDPV: 48. Leipzig, 1968. PP. 18-45.
130. Potts, T. "A Bronze Age Ivory-Decorated Box from Pella (Pahel) and its Foreign Relations. SHAJ III. ed. Hadidi, A. Amman, 1987. PP. 59-72.
131. Kenyon, K. Archaeology in the Holy Land. 4th edition. New York, 1979.
132. Smith, R. Pella of the Decapolis 1, the 1967 Season of the Colledge of Wooster Expedition to Pella. Wooster, 1973. P. 13.
133. Falconer, S.; Magness-Gardiner, B. and Metzger, M. "The 1982 Excavations of the Tell el-Hayyat Project". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 87-104.
Falconer, S.; Magness-Gardiner, B. and Metzger, M. "Preliminary Report of the First Season of the Tell el-Hayyat Project". BASOR: 255. New Haven, 1984. PP. 49-75.
134. Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh". Levant: 20. London, 1989. PP. 23-88.
135. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
انظر اللوحة رقم ١
136. Ibrahim, M.;Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
انظر اللوحة رقم ٢

137. انظر اللوحتين رقم ٣ و ٤

138. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New-Haven, 1976. P. 54.

139. Pritchard, J. Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. Princeton, 1950.
Weinstein, J. "The Egyptian Empire in Palestine". BASOR: 24. New Haven, 1981. PP. 1-23.

140. Hoffmeir, J. "Reconsidering Egypt's Part in the Termination of the Middle Bronze Age in Palestine". Levant, 21. London, 1989. PP. 181-193.
Hoffmeir, J. "Some Thoughts on William G. Dever's Hyksos, Egyptian Destructions, and the End of the Palestinian Middle Bronze Age". Levant: 22. London, 1990. PP. 83-89.

141. Shea, W. "The Conquest of Sharuhen and Megiddo Reconsidered". Israel Exploration Journal, (IEJ),: 29. Jerusalem, 1979. PP. 1-5.
Weinstein, J. "Egypt and the Middle Bronze IIC/Late Bronze IA Transition in Palestine". Levant: 23. London,1991. PP. 105-115.
Dever, W. "Hyksos, Egyptian Destructions and End of the Palestinian Middle Bronze Age". Levant: 22. London, 1990. PP. 75-82.

142. Pritchard, J. Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. Princeton, 1950. PP. 352-353.

143. Campbell, G. The Chronology of the Ammarna Letters. Baltimore, 1964.
Albright, W. "The Amarna Letters from Palestine". CAH: 2, part 1. Cambridge, 1975. PP. 88-116.

144. Nicolaaou, K. "The Mycenaeans in the East". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 121-126.

145. Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh: Preliminary Report on the First Three Seasons of Renewed Excavations". Levant: 20. London, 188. P. 65.

146. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
انظر اللوحة رقم ١

147. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
انظر اللوحة رقم ٢

148. انظر اللوحة رقم ٣

149. انظر اللوحة رقم ٤

150. Herr, L. "Shifts in Settlement Patterns of Late Bronze and Iron Age Ammon". SAHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 175-177.

151. Dornemann, R. "The Beginning of the Iron Age in Transjordan". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 135-140.

152. ابو طالب ،محمود.آثار الاردن في العصور القديمة ،اضواء حديدة.وزارة الثقافةوالشباب ،عمان ،١٩٧٨ ص٧٩.

153. ابو طالب ، ص٨٠.
طوقان ،فواز أحمد.مسلة ميشع ملك مؤاب" ترجمة حديدة " . حولية دائرة الاثار العامة ،العدد ١٥. عمان ، ١٩٧٠ .ص ص١٩-٥١.
Bernhardt, K. "The Political Situation in the East of Jordan During the Time of King Mesha'". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 163-167.

154. ابو طالب ، ص٨٠.

155. Bennett, C. "Neo-Assyrian Influence in Transjordan". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 181-186.

156. Yassine, K. "Ammonite Seals from Tell el-Mazar". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 189-194.

157. Tubb, J. "Preliminary Report on the 1985 Season of Excavations at Tell es-

Sa'idiyeh, Jordan". ADAJ: 29. Amman, 1985. PP. 135-139.
Tubb, J. "Tell es-Sa'diyeh, Interim Report of the Second Season of Excavations". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 118-119.
Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh: Preliminary Report on the First Three Seasons of Renewed Excavations". Levant: 20. London, 1988. P. 72.
Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh 1987: Third Season Interim Report". ADAJ: 32. Amman, 1988. PP. 43-48.
Tubb, J. "Preliminary Report on the Fourth Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh in the Jordan Valley". Levant: 22. London, 1990. PP. 24-25.
Tubb, J. "Preliminary Report on the Fifth (1990) Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh". ADAJ: 25. Amman, 1991. P. 183.
Tubb, J. and Dorrell, P. "Tell es-Sa'idiyeh: Interim Report on the Fifth (1990) Season of Excavations". Levant: 23. London, 1991. PP. 69-74.

158. Fischer, P. "Tell Abu al-Khraz: The Swedish Jordan Expedition 1989, First Season Preliminary Report from Trial Soundings". ADAJ: 35. Amman, 1991. PP. 73-76, 79, 81.
Fischer, P. "Tell Abu al-Kharaz: The Swedish Jordan Expedition 1991, Second Season Preliminary Excavation Report". ADAJ: 37. Amman, 1993. P. 281.

159. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
انظر اللوحة رقم ١

160. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
انظر اللوحة رقم ٢

161. انظر اللوحة رقم ٣

162. انظر اللوحة رقم ٤

163. جونز ،أ ·مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية ·ترجمة احسان عباس ،دار الشروق للنشر والتوزيع عمان ١٩٨٧ ·ص٢٩_٥٠·

164. Simith,R."The Southern Levant in the Hellenistic Period".Levant:22.London.1990.pp.122-124.

165. Smith, R. "The Southern Levant in the Hellenistic Period". Levant: 22. London, 1990. PP. 123-129.

166. Hadidi, A. "Amman-Philadelphia: Aspects of Roman Urbanism". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 295-298.

167. Barghouti, A. "Urbanization of Palestine and Jordan in Hellenistic and Roman Times". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 209-229.

168. Tubb, J. and Dorrell, P. "Tell es-Sa'idiyeh: Interim Report on the Fifth (1990) Season of Excavations". Levant: 23. London, 1991. P. 75.

169. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
انظر اللوحة رقم ١

170. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
انظر اللوحة رقم ٢

171. Smith, R. "Preliminary Report on the 1981 Season of the Sydney/Wooster Joint Expedition to Pella (Spring Season)". ADAJ: 26. Amman, 1982. PP. 331-332.

172. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. P. 58.

173. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
انظر اللوحة رقم ١

174. Ibrahim, M.;Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey,
انظر اللوحة رقم .

1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.

175. Mittmann, S. Beitrage zur Siedlungs und Territorialgeschichte des Nordlichen Ostjordanlandes. Wiesbaden, 1970. 139-143.
176. Ibrahim, M.;Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR, 222. New Haven, 1976. P. 59.
177. Mittmann, S. Beitrage zur Siedlungs und Territorialgeschichte des Nordlichen Ostjordanlandes. Wiesbaden, 1970. PP. 137-138.
178. Mabry, J. and Palumbo, G. "The Wadi el-Yabis Survey". ADAJ: 32. Amman, 1988. P. 291.
179. انظر اللوحة رقم ٣ و ٤
180. Ostrogorsky, G. History of the Byzantine State. Padstow, 1984. P. 95.
Vasiliev, A. History of the Byzantine Empire. London, 1958. P. 195.
181. Vasiliev, A. History of the Byzantine Empire. London, 1958. P. 104, 133, 136.
Ostrogorsky, G. History of the Byzantine State. Padstow, 1984. P. 58, 62, 70.
182. Vasiliev, A. History of the Byzantine Empire. London, 1958. P. 104, 114, 133.
Ostrogorsky, G. History of the Byzantine State. Padstow, 1984. P. 52, 54, 62.
183. Bury, J. History of the Later Roman Empire. London, 1958. P. 61.
Vasiliev, A. History of the Byzantine Empire. London, 1958. PP. 86-87, 103, 111, 113, 140, 171-172.
184. Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheikh Hussein Region. MA Thesis. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1987. PP. 32-34.
185. حوری ،ميسون.الارصيات العسيفسائية فى كنيسة المصيلة ،دراسة مقارنة مع بعض ارصيات الكنائس فى شمال الاردن.رسالة ماجستير .معهد الاثار والانثروبولوجيا ـ جامعة اليرموك ، ١٩٩٠.
186. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
انظر اللوحة رقم ١
187. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
انظر اللوحة رقم ٢
188. انظر اللوحة رقم ٣
189. انظر اللوحة رقم ٤
190. Steuernagel, C. "Der 'Adschlun". ZDPV: 48. Leipzig, 1925. P. 343.
191. Piccirillo, M. "The Umayyad Churches of Jordan". ADAJ: 28. Amman, 1984. P. 338.
192. Piccirillo, M. "A Church at Shunat Nimrin". ADAJ: 26. Amman, 1982. PP. 335-343.
193. الطبرى ،ابي جعفر محمد بن جرير . تاريخ الطبرى ،ج٣.القاهرة ،دار المعارف وبيروت ،دار سويدان ، ١٩٦٧ . ص٤٣٤.
ابن الاثير ،عز الدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد .الكامل في التاريخ ،ج٢.دار بيروت ،١٩٦٧. ص٤٢٩.
194. الطبرى ص١٨٦٦.
195. Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheikh Hussein Region. MA Thesis. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1987. PP. 36-38.
196. Johns, J. "Islamic Settlement in Ard el-Karak". SHAJ: IV. ed. Hadidi, A. Amman, 1992. PP. 366-367.

197. Kareem, J. <u>Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheik Hussein Region</u>. MA Thesis. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1987. PP. 446-447.
Kareem, J. "Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Djisr Shaykh Husayn Region". <u>Studies on the History of Bilad al-Sham During the Umayyad Period</u>. ed. Muhammad A. Bakhit and Mohammad Y. Abbadi. Amman, 1990. P. 133.

198. Franken, H. and Kalsbeek, J. <u>Poters of a Medieval Village in the Jordan Valley</u>. New York, 1975. PP. 67-105.

199. Ibrahim, M.;Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". <u>BASOR: 222</u>. New Haven, 1976. PP. 48-50.
اىطر اللوحة رقم ٢

200. انظر اللوحتىن ٣ و ٤

201. Brockelmann, C. <u>History of the Islamic Peoples</u>. London, 1982. P. 156.
Shaban, M. <u>Islamic History, A New Interpretation 2</u>. Cambridge, 1976. PP. 136-140.

202. Brockelmann, C. <u>History of the Islamic Peoples</u>. London, 1982. PP. 107-180.

203. Sauer, J. "The Pottery of Jordan in the Early Islamic Periods". <u>SHAJ: I</u>. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 32-33.
Smith, R. <u>Pella of the Decapolis I, the 1967 Season of the Colledge of Wooster Expedition to Pella</u>. Wooster, 1973.
De Vries, B. "Urbanization in the Basalt Region of North Jordan in Late Antiquity: The Case of Umm el-Jimal". <u>SHAJ: II</u>. ed. Hadidi, A. Amman, 1985. PP. 249-259.

204. Walmsley, A. "Fihl (Pella) and the Cities of North Jordan During the Umayyad and Abbasid Periods". <u>SHAJ</u>: <u>IV</u>. ed. Hadidi. Amman, 1992. PP. 377-384.
Walmsley, A. and Smith, R. "The Islamic Period". <u>Pella in Jordan 2</u>. ed. McNicoll, A.; Edwards, P.; Hanbury- Tenison, J.; Hennessy, J.;, Potts, T.; Smith, R.; Walmsley, A. and Watson, P. Sydney, 1992. PP. 182-198.

205. الاصطخري ،اسحق بن ابراهيم.المسالك والممالك.تحقيق محمد جابر عبدالعال الحيني.القاهرة ، ١٩٦١ ، ص٤٥.
ابن الفقيه ،ابو بكر احمد بن محمد الهمداني ،مختصر كتاب البلدان ،لندن، ١٩٦٧ ،ص٥٦.

206. المقدسي ،محمد بن احمد.احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ،لندن- بريل، ١٩٦٧.ص١٨٠.

207. Kareem, J. "Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Djisr Shaykh Husayn Region". <u>Studies on the History of Bilad al-Sham During the Umayyad Period</u>. ed. Muhammad, A. Bakhit and Mohammad Y. Abbadi. Amman, 1990. PP.40-45.

208. Franken, H. and Kalsbeek, J. <u>Poters of a Medieval Village in the Jordan Valley</u>. New York, 1975. PP. 107-162.

209. Ibrahim, M.;Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". <u>BASOR: 222</u>. New Haven, 1976. PP. 48-50.
انظر اللوحة رقم ٢

210. انظر اللوحة رقم ٣

211. انظر اللوحة رقم ٤

212. Beyer, G. "Civitas Ficum". <u>ZDPV: 69</u>. Wiesbaden, 1953. P. 76.
Smail, R. <u>The Crusaders in Syria and in the Holy Land</u>. Thames and Hudson, 1973. PP. 9-38.
Muller-Weiner, W. <u>Castles of the Crusaders</u>. New York, 1966.

213. القلقشندي ، ج٤ ،ص١٠٥.
ابن شداد ،عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم .الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة . دمشق ، ١٩٦٢ .ص٨٦.

214. Smail, R. The Crusaders in Syria and in the Holy Land. Thames and Hudson, 1973. P. 100.
Beyer, G. "Civitus Ficum". ZDPV: 69. Wiesbaden, 1953. P. 67.

215. Beyer, G. "Civitus Ficum". ZDPV: 69. Wiesbaden, 1953. P. 67.

216. Beyer, G. "Die Kreuzfahrergebiete Akko und Galilaea". ZDPV: 70. Wiesbaden, 1954. PP. 22-24.

217. ابن شداد ، ص٨٧٠

218. الدمشقي ،الانصاري،ابو عبدالله محمد٠نخبة الدهر في عجائب البر والبحر٠ليبزج ،١٩٢٢ ٠ص٢٠١٠

219. القلقشندى ،ج١٤ـ٣٨٠٠

220. ابن شداد ٠ ص٣٢٦٠

221. القزويني ،ابو زكريا محمد بن محمد ، آثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ،دار صادر ، ١٩٦٩ ،ص٩٥٠
ابن شداد ، ص١٣٦٠

222. Henninger, J. "Pariastamme in Arabien". Arabica Varia. Schweiz Orbis Biblicus Orientalis 901. Gottingen, 1989. PP. 244-246.

223. Kareem, J. The Settlement Patterns in the Jordan Valley in the Mid- to Late Islamic Period. Ph. D. Thesis. Frei Universitat Berlin, 1992. PP. 105-180.

224. De Hass, H.; LaGro, H. and Steiner, M. "First Season of Excavations at Tell Abu Sarbut, 1988". ADAJ: 33.Amman, 1989. PP. 323-326.
LaGro, H. "Abu Sarbut" AKKADICA: VII. PP. 118-119.

225. Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheikh Hussein Region. MA Thesis. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1987. PP. 92-123.

226. Franken, H. and Kalsbeek, J. Poters of a Medieval Village in the Jordan Valley. New York, 1975.

227. Ibrahim, M.;Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
انظر اللوحة رقم ٢

228. Ibid. P. 63.

229. انظر اللوحة رقم ٣

230. Kareem, J. "Tell Fendi: Jisr Sheikh Hussein Project, 1986". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP. 97-110.

231. انظر اللوحة رقم ٤

232. Sharon, M. "The Political Role of the Bedouins in Palestine in the Sixteenth and Seventeenth Centuries". Studies on Palestine During the Ottoman Period. ed. Ma'oz, M. Jerusalem, 1975. PP. 13-17.
Lapidus, I. Muslim Cities in the Later Middle Ages. Cambridge: Harvard University Press, 1967. PP. 27-28.
المقريزى ،احمد بن علي٠كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج٢ ٠ تحقيق محمد زيادة ، القاهرة ، ١٩٥٦ ٠ ص٤٠٨٠

233. المقريزى ،ج٢ ،ص٧٧٤٠
ابن تغري بردى ، ج١٠ ،ص٢٠٩٠

234. Dols, M. The Black Death in the Middle East. Princeton, 1977. P. 62.
المقريزى ،ج٢ ،ص٧٨٤٠

235. Ashtor, A. "Levantine Sugar Industry in the Late Middle Ages: An Example of Technological Decline". Israel Oriental Studies, (IOS), 226-280. Jerusalem, 1977. P. 236.

236. Hartmann, R. "Die Strasse von Damaskus nach Kairo". Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft,(ZDMG),: 64. Leipzig, 1910. PP. 694-702.

237. Lewis, B. Studies in Classical and Ottoman Islam (7th-16th century). London, 1976. PP. 465-476.
Hutteroth, W. and 'Abdulfattah, K. Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century. Erlangen, 1977. P. 55.
Al-Bakhit, M. "Jordan in Perspective: The Mamluk-Ottoman Period". SHAJ I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 361-362.
238. Hutteroth, W. and "Abdulfattah, K. Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century. Erlangen, 1977.
البخيت والحمود ، ١٩٩١م.
239. Hutteroth, W. and "Abdulfattah, K. Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century. Erlangen, 1977. Map no. 3.
240. البخيت والحمود ، ص٢٢٦.
241. المصدر السابق ص١٩.
242. المصدر السابق ، ص٢٤٧.
243. المصدر السابق ، ص٢٤١.
244. المصدر السابق ، ص٧٢.
245. Ma'oz, M. Ottoman Reform in Syria and Palestine During the Ottoman Period. Oxford, 1968. P. 31.
246. Cohen, A. Palestine in the 18th Century. Jerusalem, 1973. P. 31.
247. Rafeq, A. The Province of Damascus 1723-1783. Beirut, 1966. P. 130, 157, 285,
Cohen, A. Palestine in the 18th Century. Jerusalem, 1973. P. 92, 104-111.
248. Burckhardt, J. Travels in Syria and the Holy Land. London, 1822. PP. 325-346.
Buckingham, J. Reisen durch Syrie und Palastina. Zweiter Teil. Weimar, 1828. P. 9.
249. Robinson, E. Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions. Vol. III. Jerusalem, 1970. P. 317.
Warren, C. "Expedition East of Jordan". PEF. London, 1870. P. 285.
Northy, A. "East of Jordan, Expedition". PEF. London, 1872. P. 71.
Schumacher, G. "Dscherasch". ZDPV: 25. Leipzig, 1902. P. 114.
Smith, A. The Historical Geography of the Holy Land. London, 1897. PP. 488-489.
250. Steuernagel, C. "Der "Adschlun". ZDPV: 48. Leipzig, 1925. P. 341.

العناصر المعمارية لمساكن العصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب) في جنوب الاردن (دراسة تحليلية)

د. خالد محمود أبو غنيمة
استاذ مساعد
جامعة اليرموك/معهد الاثار والانثروبولوجيا
قسم الاثار

يعد العصر الحجري الحديث « النيوليث » من أهم الفترات التي مرت بالانسان خلال تاريخه الطويل ، اذ استطاع أن يحقق فيها لاول مرة اعتماده على نفسه في انتاج الطعام والغذاء والاكتفاء الذاتي . واعتبر العديد من العلماء توصل الانسان الى انتاج قوته بنفسه من أهم الانجازات التي أثرت في حياته ، وتطوره ، ورقيه فيما بعد، إذ وضع بعمله هذ نهاية لعهد طويل من الانتقال والترحال ، وأدى الى ارتباطه بالارض واقامته الدائمة بالقرب من مزروعاته وحيواناته المدجنة ، مما أدى الى اقامة اولى القرى والمستوطنات الدائمة في تاريخ البشرية . استخدم مصطلح « العصر الحجري الحديث » بشكل كبير للدلالة على نظام اقتصادي مميز ومنظم ونظام عمراني جديد(١) ، فامتازت هذه الفترة باعتماد الانسان في حياته الاقتصادية على الزراعة، والتي شملت أنواعا عدة من الحبوب ، والنباتات ، والصيد ، كمصدر أساسي للحصول على القوت ، كما أنه توصل الى تدجين الحيوانات واخيرا الى اكتشاف الفخار . وتميزت مباني المرحلة الاولى من العصر الحجري الحديث باتخاذ الشكل الدائري أو البيضوي غير المنتظم شكلا مميزا لها ، بينما اتخذت مباني المرحلة الثانية الشكل المستطيل نمطا معماريا . واستخدم في بنائها المواد المتوفرة في البيئة المحلية، فجاءت غالبا مبنيةمن الحجارة ، أو الطوب ، أو اللبن ، أو الاخشاب(٢) . وأبرز ما امتازت به مباني هذه المرحلة استخدام القصارة بشكل كبير في تغطية الارضيات التي جاءت مصقولة في أغلب الاحيان ، كما تم دهن هذه الارضيات – غالبا – باللون الاحمر . وتعتبر هذه الخصائص قاسما مشتركا في جميع مباني هذه المرحلةالمكتشفة في مواقع بلاد الشام(٣) . وعليه اطلقت كاثلين كنيون (K. Kenyon) على هذه المرحلة مصطلح « مرحلة الارضية المقصورة »(Plastered Floor Period) (٤) .

اخترت مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» في جنوب الاردن كموضوع لهذا البحث بسبب اكتشاف العديد من المواقع الممثلة لمراحل مختلفة لهذه الفترة في المنطقة . حيث نالت هذه المنطقة اهتماما وتركيزا كبيرين في مجال

دراسات تاريخية ، العددان ٥١ / ٥٢ ، كانون الثاني – نيسان ١٩٩٥

المسوحات والتقنيات الاثرية من قبل الباحثين المحليين والاجانب وللنتائج المهمة التي اسفرت عنها هذه التنقيبات .

وسيقتصر بحثنا على موضوع العمارة وما يتعلق بها من عناصر اساسية للمباني والمواد المستخدمة في انشاء هذه المباني . . وتهدف هذه الدراسة التعرف الى المواد الانشائية التي استخدمت في البناء وتأثيرها على تلك الاشكال والتعرف الى المقومات الاساسية لبناء المساكن والى محاولة استخراج الاشكال السكنية القديمة والاهتمام بالعناصر التي تتألف منها البيوت كالجدران ، والنوافذ ، والمداخل ، والارضيات والسقوف ، والاسطح وأماكن الخزين . وقد تم اختياري لموضوع العمارة في جنوب الاردن في هذه الفترة بسبب عدم وجود دراسة متكاملة للعمارة بكل عناصرها . اذ أن التركيز في التقارير على وصف المخطط وبعض العناصر الاخرى دون الالتفات الى بقية العناصر المعمارية الاخرى بالتفصيل ، اضافة الى أن القراء العرب ليسوا على اطلاع بخصوص هذهالفترة وما أظهرته المسوحات والتنقيبات الاثرية التي جرت في المنطقة من نتائج مهمة ، خاصة وأن أكثر ما كتب كان بلغات أجنبية لا يلم بها سوى القليل . أما ما كتب باللغة العربية في هذا الموضوع فليس أكثر من اشارات عابرة وردت هنا وهناك(٥) . اضافة الى قلة الابحاث المتعلقة بعمارة العصرا لحجري الحديث تلك التي كتبها ادوارد بانج وبراين بيرد (E. Banning and B. Byrd) حول عمارة عين غزال في العصر الحجريالحديث وكتاب البيوت القديمة في الشرق لاوليفيةاورنش (O Aurench) (٦) .

من المعلوم أن فن العمارة بشكل عام وفن عمارة البيوت على وجه الخصوص تطور بمرور الزمن ولا يزال تطوره مستمرا حتى الان شأنه في ذلك شأن سائر الفنون الاخرى . وعلى الرغم من هذا التطور فاننا نلاحظ أن بعض العناصر المعمارية احتفظت بطابعها القديم ، ولا سيما في المناطق الريفية في الوقت الحالي . هذا التطور في فن العمارة من ناحية الشكل وأنماط البناء ساهم بشكل كبير في دفع العلماء والباحثين الاثريين لاعتماد البقايا المعمارية كاحدى الاسس المتبعة في تمييز وتصنيف الفترات والمراحل الزمنية وخصوصا في فترات عصور ما قبل التاريخ . وتعتبر كاثلين كنيون (K. Kenyon) من أوائل علماء الاثار والباحثين الذين اعتمدوا على البقايا المعمارية كخصائص مميزة في تقسيم هذه المرحلة ، اذ اعتمدت على الاختلاف في شكل البقايا المعمارية ، بالاضافة الى الادوات الصوانية التي كشفت عنها في الطبقات التي احتوت على المرحلة السابقة لظهور الفخار في العصر الحجري الحديث في موقع أريحا في تقسيمها لهذه المرحلة الى مرحلتين فرعيتين ، فاطلقت على المرحلة الاولى التي احتوت على بقايا بيوت دائرية الشكلمصطلح مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «آ» (Pre-Pottery Neolithic A) او ما اصطلح على اختصاره « PPNA » ، واطلقت على

المرحلة الثانية التي احتوت على بيوت مستطيلة ذات ارضيات مقصورة اسم (مرحلة العصـر الحجـري الحديث قبـل الفخـاري «ب») (Pre-Pottery Neolithic B) ويختصر اسمها « PPNB » (٧) . واعتمد علماء آثار آخرون على هـذه الاختلافات كواحدة من الاسس التي اتخذوها في تقسيماتهم لهذه المرحلة (٨) .

ولا بد لنا قبل الحديث عن عمارة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » في جنوب الاردن من اعطاء فكرة سريعة عن تاريخ الاستيطان في المنطقة .

دلت نتائج المسوحات والتنقيبات الاثرية التي جرت في المنطقة على وجود الانسان منذ أقدم العصور ، اذ عثر على سطح العديد من المواقع على لقى اثريـة ، كالفؤوس اليدوية ، والشظايا ، والقواطع التي تعود الى مرحلة العصر الحجري القديم الادنى. وترك الانسان العديد من الشواهد والادلة على استخدام الملاجيء الصخرية بالاضافة الـى المواقع المكشـوفة في العـراء مثـل موقع طـور صبيحة (Tor Sabiheh) J8 ومواقع جبل كلخـة (J 405 , J 406 b , J 407) وانساب ، وملجأ المدمغ ، كمناطق سكن في المراحل اللاحقة وحتى بداية العصر الحجرجي الحديث .

وتم التعرف الى عدد كبير من مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» من خلال المسوحات والتنقيبات التي جرت في منطقة جنوب الاردن. ففي المسح الاثري الذي أجراه كل من اليك كيركبرايد و لانكستر هاردنج (A. Kirkbride and L. Harding) لمنطقة وادي رم عام ١٩٤٧ تم التعرف الى موقع عين ابو نخيلة الذي أرخ حينذاك على أنه معاصر لأريحا ، السوية الثامنة، بناء على دراسة موسى ستيكلس (M. Stekelis) للأدوات الصوانية(٩) ، الا ان دراسة نتائج الحفرية التي قامت بهـا ديانا كيركبرايـد (D. Kirkbride) في فترة لاحقة للموقع نبهت الى وجود خطأ في التأريخ ، وأشارت الى ان الموقـع يعود الـى العصـر الحجري الحديث قبـل الفخاري «ب»(١٠) . وقامت ديانـا كيركبرايد (D. Kirkbride) بالكشف والتنقيب عـن موقع البيضا في ثمانيـة مواسم من ١٩٥٨ ــ ١٩٦٧ وعام ١٩٨٣ ، فعثرت على ست قرى (سويات) تعود الى مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخـاري «ب» ، بالاضافة الى سوية نطوفيـة (Natufian) (١١) . ومع منتصف السبعينات ازداد الاهتمام بفترة عصور ما قبـل التاريخ وخصوصا فترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري في الاردن بشكل عـام وجنوبه بشكل خاص ، حيث قـام العديد مـن العلماء والباحثين باجـراء مسوحات وتنقيبات أثرية منظمة ومنهجية في مناطق مختلفة من جنوب الاردن .

ويعتبر المسح الاثري لمنطقة راس النقب باشراف دونالد هنري (D. Henry) اعتبارا من عام ١٩٧٩ من اوائل المسوحات المنظمة لمنطقة الجنوب . وعلى الرغم مـن

الكشف عن العديد من مواقع العصور الحجرية في منطقة رأس النقب والحسمى ، إلا أنه لم يعثر سوى على موقع واحد أرخ لفترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب »(١٢) . وابان المسح الاثري لوادي عربة وفيدان عام ١٩٧٧ باشراف ت. ريكس (T. Raikes) عن وجود بعض المواقع التي تعود الى العصر الحجري الحديث(١٣) . وقامت كريستال بنت (C. Bennet) سنة ١٩٧٩ بحفر بعض المجسات في موقع الذراع الذي أرخته الىمرحلة العصر الحجريالحديث الفخاري«ب»ويختصر [PNA] مع الاشارة الى وجود رؤوس سهام خيامية(١٤) . ويعتبر المسح الاثري لمنطقة وادي الحسا الذي بداه بيرتون ماك دونالد (B. Macdonald) من عام ١٩٧٩ ولغاية ١٩٨٣ ثم أكمله جيفري كلارك (G. Clarck) من عام ١٩٨٤ وحتى الان من أهم المسوحات التي أغنت معلوماتنا عن مواقع ما قبل التاريخ في الاردن عموما والجنوب بشكل خاص، اذ أكدت نتائج المسوحات عن وجود عشرات من مواقع العصر الحجري الحديث في تلك المنطقة(١٥) . واشار هانس جيبل (H. Gebel) الى وجود العديد من مواقع العصر الحجري قبل الفخاري [PPN] في منطقة البتراء وذلك من خلال المسح الاثري الذي اجراه لهذه المنطقة(١٦) . وتشير نتائج المسوحات التي جرت في مناطق الطفيلة ، ووادي فينان ، والحميمة ، ووادي رم ، والعقبة ، ووادي الموجب الى وجود مواقع تعود للعصر الحجري الحديث (خريطة رقم ١) .

ونستطيع من خلال النتائج التي حصلنا عليها من المسوحات والتنقيبات الاثرية استنتاج العديد من النقاط حول المواقع والعمارة في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » :

١ ــ ان الكثافة العددية لمواقع المرحلة «ب» يقابلها قلة واضحة في عدد مواقع المرحلة « أ » ، فلا يتجاوز مجموع عدد مواقع المرحلة « أ » عدد أصابع اليد الواحدة ، وهي بمجملها مواقع سطحية اعتبرت معسكرات، أو محطات صغيرة استخدمت لغايات الصيد ، ولم يتم العثور على أية بقايا عمائرية فيها ، وتم التعرف اليها من خلال وجود بعض رؤوس السهام الخيامية(١٧) .

٢ ــ على الرغم من أن العديد من مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري لم يتم استغلاله بشكل كامل ، لكن وجود هذه المواقع قريبة من بعضها بعضا ، وامتداد بعض هذه المواقع على مساحات واسعة يشير بشكل واضح الى الاستيطان المركز والكثيف لمنطقة جنوب الاردن في هذه المرحلة .

٣ ــ أوضحت النتائجالاولية للمسوحات والتنقيبات الاثرية وجود تعدد في أنماط الاستيطان في جنوب الاردن ، فجاءت بعض هذه المواقع على شكل معسكرات أو محطات

صغيرة احتوت على بعض الاكواخ ، واستوطنت لفترة قصيرة من سكان يعتمدون على الصيد ، ويعشون حياة شبه مستقرة ، كما هو الحال في موقع عين ابو نخيلة(١٨) ، وجاءت بعض هذه المواقع محطات صغيرة سكنت لفترة قصيرة من جماعات تعتمد على الصيد وجمع الطعام ،كما هو الحال في صبرا « ١ »(١٩) وموقع J24 (٢٠) ، وأخرى اعتبرت قرى زراعية سكنت دوما ، واحتوت على عدد كبير من البيوت ، وأماكن الخزين ، والاماكن العامة كموقعي البيضا والبسطة . والنمط الاخير هو المواقع التي تخصصت في صناعة الادوات الصوانية ، كموقع لذراع(٢١) .

٤ ــ تشير النتائج الاولية للتنقيبات الى ان معظم هذه المواقع يشتمل علىبقايا عمائرية واضحة المعالم ، حيث تحتوي على بيوت دائرية ، أو مستطيلة ، وارضيات مقصورة ، بعضها مدهون باللون الاحمر (خريطة رقم ٢) .

٥ ــ تشير الدلائل الاثرية الى تنوع النماذج المعمارية المكتشفة في هذهالمرحلة، حيث كشف النقاب عن وجود نماذج لبيوت سكنة مبنية حول ساحات (البيضا ، السويتان الثانية والثالثة) او بيوت ذات وحدات منفصلة (البيضا السوية الخامسة) أو وجود غرف صغيرة مبنية حول ممرات (البيضا ، السويتان الثانية والثالثة)(٢٢)، بالاضافة الى وجود مجمعات سكنية كبيرة (البسطة) ، كما وجدت نماذج لبيوت دائرية الشكل الى جانب البيوت المستطيلة في بعض المواقع (البيضا ، السويتان الخامسة والسادسة) وعين أبو نخيلة .

٦ ــ الامر اللافت للنظر في مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري في جنوب الاردن بشكل خاص والاردن بشكل عامأنه باستثناءالاشارة التي أوردها هانس جبل (H. Gebel) عن احتمال وجود تتابع زمني من المرحلة « أ » من العصر الحجري الحديث قبل الفخاري الى المرحلة « ب » في موقع صبرا « ١ »(٢٣)، فان غالبية مواقع هذه الفترة المكتشفة في جنوب الاردن بشكلعام لم تقدم أي تتابع زمني من مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » الى المرحلة «ب» من هذا العصر . فغالبية هذه المواقع انشئت اما مباشرة فوق الارض البكر (البسطه ، عين أبو نخيلة) أو احتوت على سوية نطوفية (البيضا)(٢٤) .

سيتم التركيز على ثلاثة مواقع تمثل مراحل مختلفة للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» افضل تمثيل وهي البيضا والبسطة وعين ابو نخيلة . علما بأن أعمال التنقيب في موقعين من المواقع الثلاثة قد توقفت نهائيا (البيضا وعين ابونخيلة)، بينما في الموقع الثالث ، فعمليات التنقيب ستستكمل في مواسم لاحقة (البسطة). هذه المواقع أرخت الى مرحلة العصر الحجري الحدبث قبل الفخاري «ب» . واستنادا

الى نتائج الكربون المشع فان موقع البيضا أقدم هذه المواقع .وتعتقد المنقبة بأن الموقع استوطن لفترة قصيرة لا تزيد عن ٥٠٠ سنة (٢٥) . اما موقع البسطة فالتواريخ التي تم الحصول عليها من عبنتين فترجعه الى قبل ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد (جدول رقم ١)(٢٦). اما موقع عين أبو نخيلة فلم يتم الحصول على أية تواريخ مطلقة وأرخ من قبل المنقبة الى نهاية الالف السابع وبداية الالف السادس قبل الميلاد(٢٧) .

مواد البنـــاء الاوليـــة :

استخدم بناؤو العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» جميع المواد الاولية المتوفـره في البيئة المحليـة أو التي أمكن توفيرهـا من المناطق المجـاورة في تشـييد المستوطنات في جنوب الاردن واقامتها . ويعتبر الحجر ، والطين ، والخشب والجص من أول المواد الاونية التي استخدمها تشييد مبانيه في المنطقـة الجنوبية وذلك لتوفر هذه المواد بكثرة في الطبيعة .

١ ـ الحجر : الاستخدام الواسـع النطاق للحجر في مواقع جنوب الاردن مـن السمات المميزة لعمارة الابنية في هذه المنطقة ، لتوفره بكثرة في المنطقة ، وخصوصـا الحجارة الكلسية ، والجيرية ، والبازلت ، والجرانيت . وهـو مؤشر على اسـتغلال الانسـان للبيئة المحلية . واستخدام الانسـان الحجارة بشكل عام دون تشذيب ، اي الحجارة الغفل في تشييد مباني مواقـع هذه المرحلـة . واستخدام الانســان القديم الحجارة بأشكال مختلفة حسب توافرها بالبيئة المحلية ، فاستخدام الحجارة الرملية، والجيرية بـدون تشذيب : أي الحجارة الغفـل بأحجام متوسطة في تشـييد مباني السويات الست في البيضا ، وخربة الحمام ، وشكارة مساعيد ، كما استخدم هـذا النوع من الحجارة في اقامة القنوات التي وجدت تحت ارضيات المباني في موقع البسـطة واستخدم الالواح العريضة (البلاطات) كمناضد أو طاولات في مباني الممرات في البيضا. واستخدم الالواح الحجرية العريضة كأساسات لبعض المباني ، كما هو الحال في بعض مباني السوية الرابعة في البيضا(٢٨) . أو كدرجة في الدرج الحجري الذي تميزت بـه مباني البيضا . واستخدم الحجارة على شكل رقائق مستطيلة استخرجها من طبقـات الصخور الكلسية الموجودة في المنطقة، وقام بتشذيبها وتشكيلها في تشييد بعض جدران مباني السوية الرابعة في البيضا ، وفي مباني المجمعات السكنية في البسطة . وتشـير بعض التقارير الاولية الى أن موقعي الضمان وبعجة «١» قد شيدا بحجارة مشذبة(٢٩).

٢ ـ الطـين : استخدم الطين كمادة رابطة بين حجارة الجدران ، كما استخدم في رصف بعض أرضـيات بعض الغرف في موقع البيضا وكـان الطين في هذه الحالـة مضغوطا . واستخدم كفرشةٍ لتغطية الاغصان التي كانت تغطي الاسقف .

٢ ـ **الخشب** : لم تظهر التنقيبات الاثرية أي أثر للمواد الخشبية بين انقاض المباني في القرى الاولى لكونها أكثر قابلية للتلف مع مرور الزمن . ومع ذلك فهناك ادلة مكنت الاثريين من معرفة أنواع الاخشاب واستخداماتها التـي استعملت في سـقف المباني ، أو كدعائم لحمل السقوف . وفي الواقع ليست لدينا أدلة أثرية مباشرة على استخدام الخشب في مباني هذه المرحلة باستثناء ما عثر عليه في السوية السادسة بموقع البيضا ، حيث عثر على تجاويف عمودية متوازيـة على مسافات متساويـة في جدران البيوت الدائرية الشكل(٣٠) . كما تم التعرف الى استخدام الانسان للبلوط مما يجعلنا نعتقد أنه استخدم كأعمدة في تلك التجاويف(٣١) والادلة الاخرى على استخدام الخشب معظمها افتراضات مستندة الى وجود آثار أخرى،خاصة المنافذ والشبابيك. ويعتقد بأن السكان استخدموا نوعـا من العوارض الخشبية لسـقف البيوت ، ولكننا لا نملك أي دليل يثبت ذلك ، باستثناء بقايا خشبية متفحمة في السوية السادسة في البيضـا(٣٢) .

٣ ـ **الجص** : مادة الجص من المواد البنائية التي اسـتخدمها الانسـان القديم في الاردن من بداية استقراره وحتى يومنا هذا ، وذلك بسبب توافرها في معظم انحاء الاردن ، وخاصة منطقة الوسط والجنوب ، ولسهولة الحصول عليها من مقالع قرب سطح الارض ، أو حتى على سطح الارض ، وكذلك استخدامهـا السهل ، وسرعـة جفافها ، ومقاومتها الجيدة للعوامل الطبيعية(٣٣) . ويظهر أن سـكان البيضا عرفـوا استخدام الجص منذ بداية استقرارهم ، فنلاحظ تطورا في مراحل استخدام الجص، اذ تشير المرحلة الاولى الى استخدامه مخلوطا بالطين الرملي وذلك في طبقات الاستقرار الاولى (السويات السادسة ـ الرابعة) ، بسبب عدم معرفة واتقان سكان البيضـا لتقنية استخراج الجص وتنقيته ، ولصعوبة الحصول على كميات كافية مـن الجص النقي . ولوحظ استخدام الاسلوب الثاني للجص في السويات (الثالثـة والثانية) فلوحظ ارتفاع نسبة الجص حتى وصلت أخيرا الى استخدام الجص النقي فقط في كسو الارضيات والجدران(٣٤) . وتذكر المنقبة ان امكانية حصول سكان البيضا على الجبص متوفرة من منطقتين، الاولى عن طريق الحصول عليه من طبقات الحجر الجيري الموجود في جبال الشراة التي تبعد حوالي الساعة مشيا على الاقدام ، أو من ترسبات الترافرتين الموجودة بالقرب من الموقع بمنطقة بير أبو رجا(٣٥) . كما نجد استخدامـا آخر للجص في هذه المرحلة ، وهو طلاء جمجمة الميت المفصولة عن الجسد بطبقة من الجص كنوع من اعادة تشكيل الوجه .

البقايا البنائية : (شكل ١ : ١ـ٢) (شكل ٢ : ١ـ٢)

تكونت البيوت الاولى من غرفة واحدة او غرفتين ، دائرية أو مستطيلة . وكان

يقتصر استخدام الغرف للمبيت ، ولاتقاء تقلبات المناخ ، وخطر الحيوان . ولعبت حاجة الانسان الى مرافق جديدة دورا مهما في تطور شكل التصميم . ومع ازدياد عدد أفراد العائلة ، وازدياد الحاجة الى مساحات أوسع من الارض للسكن ، وأماكن خاصة لتلبية الاحتياجات الجديدة التي اقتضتها ضرورات الحياة ، قام الانسان ببناء غرف اخرى استخدمها لاغراض جديدة ظهرت في حياته لاول مرة ، كالمخازن ،وزرائب الحيوانات . وقد يختلف شكل الغرف الجديدةعن الغرف القديمة، فمثلا تكون الغرف المستخدمة للتخزين في معظم الحالاتاصغر من الغرفالمخصصة للنوم. ويمكن تحديد وظيفة الغرف من حجم الغرفة ، ووجود المواقد ، والادوات المنزلية ، والمصاطب في داخلها ، ووجود مدخل لها أو خلوها منه وموقعها بالنسبة لتصميم المنزل .

ان من أهم مميزات العمارة في مرحلة العصر الحجري قبل الفخاري «ب»شيوع استخدام المباني المستطيلة التي انتشرت في جميع مواقع هذه المرحلة بالاضافة الى المباني الدائرية . ويمكننا تصنيف مباني هذه المرحلة من ناحية الشكل الى شكلين رئيسيين هما : ١ ــ المباني الدائرية ، ٢ ــ المباني المستطيلة .

١ ــ المباني الدائرية :

وهي مبان ذات مخطط أرضي دائري ، تتكون من غرفة واحدة ، وتتميز بكون جدرانها الخارجية دائرية وفيها فتحة صغيرة استخدمت مدخلا ولها سقف يحتمل انه كان على شكل قبة ، ربما صنع من الواح خشبية متشابكة تستند من وسطها على دعائم حشبية ويعتبر استخدام المباني الدائرية في هذه المرحلة مؤشرا لاستمرار وتوارث للتقنية المعماريةللفترات السابقة لهذه المرحلة . وظهر هذا الشكل من المباني في جنوب الاردن ، ومن أحسن الامثلة على هذا النوع بقايا بيوت اكتشفت في السوية السادسة في البيضا ، صفت الى جانب بعضها بعضا كخلية نحل . وتم الكشف عن خمسة بيوت دائرية متلاصقة وأرضياتها تحت مستوى سطح الارض بحوالي ٥٠ سم ، وينزل اليها بثلاث درجات . وكانت الجدران الدائرية تحتوي على تجاويف عمودية متوازية على مسافات متساوية . ووجد في اثنين من البيوت حفر في وسط الغرف كركيزة لحمل السقف. ويبلغ قطر هذه البيوت الدائرية ٤م تقريبا .واستخدم الجبص في كسو الجدران والارضيات(٢٦) . وتعتبر هذه المباني المشيدة تحت مستوى الارض أقدم المباني المشيدة في البيضا ، والمعروف ان المباني الدائرية كانت الصفة المميزة لعمارة مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » في الشرق ، وحيث انه لم يتم العثور على اية بقايا تعود الى مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » في البيضا ، فهذا يدعو الى الاعتقاد بان هناك استمرارية داخل جماعات العصر

الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» لتقليد بناء المرحلة السابقة قبل حدوث التغيرات التي جرت في الشرق . وظهر مبنى دائري اخر في عين ابو نخيلة . هذا المبنى لم يبق من جدرانه سوى عدة مداميك وهو مبني تحت مستوى الارض . الا انه لا يعتبر الاقدم حيث تشير المنقبة الى وجود المباني الدائرية بجانب المباني المستطيلة في نفس الطبقة. مما يشير الى احتمالية تزامن وجود مباني دائرية الى جانب المباني المستطيلة(٣٧). وذكر هذا الوضع سابقا في موقع المريبط (السوية الثالثة) والشيخ حسن في سوريا(٣٨) . كما ظهرت في السوية الخامسة من البيضا أيضا بيوت دائرية تختلف عن سابقتها بكونها منفردة ولا تشكل جزءا من المجموعة ، ولم تستخدم فيها التجاويف العمودية المتوازية . وتذكرنا ارضية الغرفة وجدرانها ببيوت مرحلة ما قبل الفخاري «أ» في أريحا ، ما عدا أنها كانت مطلية بالجص في البيضا . وظهرت نماذج مماثلة لهذه المباني في مواقع مختلفة ، ففي موقع نحال ايشارون [Nahal Issaron] في صحراء النقب ، يبعد ٦٠ كم من موقع البيضا ، عثر في الطبقة O على مبان دائرية تشبه مباني السوية السادسة في البيضا . شيدت المباني منفردة من الواح حجارة كلسية، لا تزال جدرانها قائمة على ارتفاع ٧٥ سم وتبلغ مساحة هذه المباني بين ٢ الى ٥ر٣م. ولا يقتصر التشابه على المخطط وانما ينسحب ايضا على المواد الانشائية المستخدمة (الحجارة والاخشاب) . ويعتقد المنقب أن الموقع استوطن موسميا ولفترة قصيرة (٣٩). وكشفت التنقيبات الاثرية عن مبان دائرية في موقع وادي الضباعي «ب» في المنطقة الشرقية من الاردن والذي يبعد ٦٠كم الى الشرق من عمان(٤٠) . أما بالنسبة لوظيفة هذه البيوت فقد استخدمت لاغراض سكنية وذلك بالاستناد الى حجم هذه الغرف وما عثر عليه بداخلها من مخلفات منزلية ، مثل المواقد ، والادوات الثقيلة، كالاجران ، والمدقات ، والادوات الصوانية .

٢ ــ البيوت المستطيلة :

وهي بيوت ذات مخطط ارضي مستطيل ويمكن تقسيمها حسب الابنية الملحقة بها الى مايلي :

١ ــ البيوت المستطيلة العادية ، ٢ ــ ابنية الممرات ، ٣ ــ ابنية المجمعات .

١ ــ البيوت المستطيلة العادية :

يتكون هذا النوع من المباني من غرفة أو أكثر مستطيلة متباينة المساحات ، وتتألف غرفها من اربعة جدران مستقيمة، ويمكن أن تكون بعض جدرانها منحنية قليلا. اكتشف هذا الشكل من المباني في معظم مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري

«ب» الى جانب اشكال البيوت الاخرى . وتدل المخلفات التي تم العثور عليها في هـذه المباني المتمثلة المواقد . والادوات الصوانية ، وغيرها الى انهـا كانت مباني سكنية اعتيادية . ففي البيضا ظهر هذا النوع اعتبارًا من السويةالرابعة حتى الثانية. وتمثلت مباني السوية الرابعةببيوت مستطيلة ذات زوايا دائرية ، مكونة من غرفة واحدة تحت مستوى الارض ينزل اليها بثلاث درجات حجرية (شكل ٢:٣) . وتبلغ ابعاد الغرفة ٥×٦ م وجدرانها محدبة قليلا . شيدت الجدران بحجارة رملية ، وطليت الارضيـة والجدران بملاط من الجص ، وخصص بعضها بموقد(٤١) . وأظهـرت مباني السوية الثالثة والثانية تطورا في أساليب البناء ، فاحتوت على بيـوت أكثر تعقيـدا . ففي السوية الثانية وجدت بيوت كبيرة الحجم وبلغت مساحـة الغرفة ٩×٧م ، ينـزل اليها بثلاث درجات حجرية وتحتوي موقدا كبيرا له حافة بارزة من الحجر . طليت الارضية والجدران بملاط من الجص ، وتظهر على بعض طبقاتها حزوز من الخطوط الحمراء على مسافة ٢٥ سم من الحائط ، ثم تمتد الى أسفله شريطا تزينيا تذكرنا ببيوت شاتال هيوك [Çatal Höyük] وهاجيلار (Hacilar) في الاناضول(٤٢).

وقد تم التعرف على مواقع أخرى في جنوب الاردن تحتوي على بقايا معماريةمستطيلة كموقع عين ابو نخيلة الذي عثر فيه علـى مبان مستطيلة بالاضافـة الـى المبـاني الدائرية(٤٣) . وأشار هانس جبل (H. Gebel) الى وجود مبان مستطيلة مبنية من الحجر الكلسي في موقع البعجة ، وذكر أن بعض الجدران كانت منحنية(٤٤) . وتم التعرف في خربة الحمام الى مبان مستطيلة مبنية من الحجارة ومقصورة ومدهونـة من الداخل باللون الاحمر (٤٥) . وهناك اشارة الى وجود مبان مستطيلة مبنية مـن الحجارة في الضمان(٤٦) .

٢ ــ أبنية الممرات :

تتكون هذه المباني من ممر طويل (٨×١ م) يفضي الى مجموعـة مـن الغرف الصغيرة المتقابلة . تبلغ مساحة الغرفة الواحدة (٥ر١×١ م) ، تفصلها عـن بعضها بعضا حواجز حجرية سماكتها متر وتتعداه أحيانا ، وطلي أعلاه بالجص . وقـد عثر على امثلة لهذا النوع في السوية الثانية من البيضا الى الجنوب والغرب من البيـت الكبير ووراء الساحات . وتقع هذه المباني تحت مستوى الارض ، وينزل اليها بثلاث درجات ومغطاة أرضياتها بالجص . وتحتوي بعض هذه الغرف على مصاطب حجريـة ونعتقد بأن هذه المباني استخدمت كمبان ذات وظائف عامة ، حيث يستدل من حجمها ومن محتوياتها على أنها كانت مراكز تجارية وصناعية لصناعة المنتوجات الصناعيـة وبيعها كالخرز ، والمدقات ، وأدوات الزينة ، والادوات الصوانية والعظمية(٤٧). وكشفت التنقيبات الأثرية فيالمنطقة الجنوبية في عين غزال عن وجود نموذج مماثـل

المباني الممرات أرخ الى فترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ج» PPNC ويشير جاري رولفسون (G. Rollefson) الى أن ارضيات مباني الممرات في عين غزال تحتوي على ارضيات مقصورة بالجبص (٤٨) .

٣ ـ أبنية المجمعات (شكل ٣:١) :

ظهر نموذج هذه المباني في المجمع البنائي في المنطقة «ب» في البسطة . يتألف هذا النوع من وحدات سكنية مكررة بنيت بتخطيط مسبق ، فكل وحدة سكنية تحتوي على ساحة مركزية محاطة بثلاثة أو أربعة صفوف من الغرف صغيرة المساحة على ثلاث جهات ، بينما احتوت الجهة الرابعة صفين من الغرف الصغيرةمتعاكسة الاتجاه. ويبدو أن المدخل الى الساحة كان في الجهة الجنوبية للمبنى . وتبلغ مساحة الساحة المركزية ٦x٥ر٣ م ، بينما لا تتعدى مساحة الغرف الصغيرة المتر المربع الواحد . وتتصل هذه الغرف بالساحة المركزية عن طريق نوافذ صغيرة في الجدار المواجه للساحة ، ترتفع حوالي ٦٠ سم عن أرضية الغرف . وعثر بالقرب من أحد الاعمدة في أحد اركان الساحة على مكان لايقاد النار ، كما عثر بالقرب من نفس العمود على اناء مصنوع من الطين غير المشوي ، الجزء الاسفل منه كامل ، ولا ينقصه سوى القبة والحافة . وقد استخدمت في بناء هذه المباني الحجارة الكلسية التي استخرجت من المنطقه بشكل رقائق تم تشذيبها ، ووجدت بحالة جيدة وحافظت تقريبا على ارتفاعها الاصلي حيث عثر على جدران بارتفاع ١٩٠ سم(٤٩) . وقد طليت جدران وأرضيات الغرف والساحة المركزية بالجص حيث عثر على قطع كبيرة من القصارة تحمل تشكيلات هندسية ملونة بالاحمر والاسود على خلفية ذات لون بيج فاتح(٥٠) . ويبدو أن وظيفة هذه المباني كانت عامة ، حيث استخدمت للخزين بدليل العثور على أدوات الطحن ، والجرش ، والمدقات بكثرة بالاضافة الى حجم المباني(٥١) .

نلاحظ مما سبق ذكره عن وجود تعدد في انماط المباني في المواقع المختلفة في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » . ومهما كان مدلول مباني الممرات أو مبنى الحرم في البيضا أو مباني المجمع « ب » في البسطة ، فاننا نستطيع التحدث منذ الان عن وجود تعدد في النمط العمائري في فترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» في الموقع الواحد . حيث نلاحظ في هذه الفترة عن تشييد مبان ـ وللمرة الاولى ـ تختلف عن المباني السكنية في حجمها أو في وظيفتها . وأن كان من الصعوبة التحدث عن وظائف دينية أو اجتماعية لهذه المباني . الا أن هذا الاختلاف يجعلنا نتحدث عن امكانية وجود تطور اجتماعي في فترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» . هذا التطور ادى بالتالي الى وجود طبقات اجتماعية مختلفة . ومن خلال هذا السياق نستطيع القول بان مواقع جنوب الاردن لعبت دور هاما وحاسما في هذا الموضوع .

الخصائص المعمارية :

لابد أن الانسان استعان في تصميم البيوت التي شيدها بعد هجره لمناطق سكناه التقليدية وبداية استقراره بما اختزنته ذاكرته وما انطبع في ذهنه من العناصر الاساسية للكهوف والملاجىء الصخرية . احتوت هذه البيوت على العناصر التي تتألف منها الكهف وهي : المدخل ، والجدران ، والسقف . ومع مرور الزمن ، وتطور خبرة الانسان ، وازدياد تجاربه في إنشاء المباني وتشييدها ازداد عدد العناصر التي احتواها بيته ، وذلك لازدياد حاجة الانسان ومتطلباته . وتتمثل العناصر المعمارية التي عثر عليها في مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» في جنوب الاردن بما يلي : ١ ـ المداخل، ٢ ـ المرافق السكنية، ٣ ـ الجدران والدعائم، ٤ ـ النوافذ، ٥ ـ الكوات [الحنايا]، ٦ ـ الارضيات ، ٧ ـ السلالم والدرج ، ٨ ـ السقوف والاسطح .

١ ـ المداخل :

على الرغم من أن بعض المواقع الاثرية كشفت عن بقايا لمخلفات عمائرية اشتملت على اسس أو جدران قليلة الارتفاع ولا تظهر فيها المداخل ، الا اننا نعتقد بأن المدخل كان من أقدم العناصر التي ظهرت في تصميم البيوت الاولى التي شيدها الانسان . فالغرض من وجود المدخل والدور الكبير الذي يؤديه يجعل وجوده ضروريا ومرافقا للبيت منذ البداية . ومثل هذا الدور يلاحظ في تحديد سعة فتحته التي لا بد ان تكون كافية لدخول الانسان . لقد كشفت التنقيبات الاثرية النقاب عن وجود جزء من المدخل في معظم المواقع الاثرية . أما موقع المدخل بالنسبة للبيت فقد حددته الظروف الطبيعية أو العلاقات الاجتماعية التي عاصرها ذلك الانسان ، فقد يطل المدخل على ساحات مكشوفة أو شوارع ضيقة ، ولهذا يكون موقعه مختلفا من بيت لآخر . وتعتبر مداخل مباني السوية الثانية والسادسة في موقع البيضا من أفضل الامثلة على اختلاف وتعدد مواقع مداخل البيوت(٥٢) . وعلى الرغم من أن البقايا العمائرية المكتشفة في السويات الست في موقع البيضا تختلف في هندستها وبنائها الواحدة عن الاخرى ، الا أنها تشترك جميعها بصفة عامة مشتركة وهي انها دون مستوى الارض ويتم النزول اليها بثلاث درجات حجرية (٥٣) .

يتألف المدخل من عتبة عليا وجانبين وعتبة سفلى ، ويعتبر العنصران الاول والثاني ضروريين لبناء المدخل ، في حين يمكن الاستغناء عن العنصر الثالث عند بناء مدخل البيت ، حيث يمكن بناء المدخل بدون عتبة سفلى ولكن لا نستطيع بناء مدخل الا بتشييد الجانبين والعتبة العليا . أما في ما يتعلق بالعتبات العليا للمداخل فلم تكشف التنقيبات الاثرية في أي موقع من مواقع جنوب الاردن عن أية مداخل تشتمل

على عتبات عليا ، وذلك بسبب قلة ارتفاع الجدران المتبقية . ولكننا ومن خلال ما لاحظناه في العتبات العليا لنوافذ المجمع البنائي بالمنطقة «ب» في البسطة وفي الحنية المكتشفة في البيضا ، نستطيع ان نفترض بأن عتبات المداخل لا تختلف كثيرا عن تلك العتبات ، حيث تكونت من ألواح حجرية طويلة أو مجموعة من الحجارة .

أما بالنسبة لجانبي المدخل فقد كانا بشكل عام عموديين ومشيدين من عدة صفوف من الحجارة . وعلى الرغم من صعوبة التحدث عن استخدام الانسان للالواح الخشبية لتغطية جانبي المدخلبالشكل الذي نلاحظه في وقتنا الحاضر بسبب عدم اكتشاف أية دلائل أثرية مباشرة تدل على هذا ، الا أن معرفة الانسان القديم للخشب وأهميته واستخدامه له في السقف ، والاعمدة ، وغيرها يجعلنا نعتقد أنه ربما استخدمه أيضا في تغطية جوانب المدخل وعمل الابواب . وقد شيد الانسان أحيانا جانبي المدخل بلوح حجري ، كما هو الحال في أحد بيوت السوية الخامسة المكتشفة في البيضا ، حيث يبلغ ارتفاع اللوح الحجري حوالي ٥ر١ م(٥٤) . وكشفت التنقيبات الاثرية في مواقع جنوب الاردن عن بناء مداخل بدون عتبة سفلى . وتلاحظ هذه الظاهرة في بيوت البيضا وعين أبو نخيلة حيث ظهر أن معظم مداخلها لا تحتوي على عتبات سفلى ، كما هو الحال في أحد بيوت السوية الرابعة(٥٥) وكذلك في بيوت السوية الثانية ومداخل الغرف الصغيرة في مباني المرات(٥٦) . وفي البيت رقم ٤ في عين أبو نخيلة يبدو مدخل البيت الدائري بدون عتبة سفلى أيضا(٥٧) .

كما كشفت التنقيبات الاثرية عن وجود عدد غير قليل من المداخل التي تظهر بها العتبات السفلى المرتفعة فوق مستوى الارض . ففي أحد بيوت السوية الخامسة المكتشفة في البيضا ظهر مدخل يحتوي على عتبة سفلى مبنية من الحجر ترتفع قليلا عن مستوى الارض(٥٨) وفي الغرفة رقم ١٨ في المجمع البنائي في المنطقة «ب» في موقع البسطة، ظهر مدخل يحتوي على عتبة سفلى ترتفع عن سطحالارض بحوالي ٦٠سم(٥٩) كما وجدت عتبة سفلى في الغرفتين رقم ١٩ و ٢٠ في المجمع البنائي في المنطقة «ب» في البسطة ، مرتفعة عن مستوى سطح الارض(٦٠) .

ويعتبر الباب الذي يسد فتحة المدخل من العناصر الاساسية التي تؤلف جزءا مهما من المدخل . الا اننا لا نعرف بالضبط اشكال وتفاصيل الابواب التي استخدمها الانسان القديم لسد مداخل بيته ، اذ لم تظهر أية مخلفات لأبواب البيوت القديمة ، أو أية دلائل تشير الى نوعية وشكل هذه الابواب باستثناء الجرن الحجري الذي أعيد استعماله كمثبت للباب في البيضا(٦١) .

ولا بد أن الانسان اهتم باغلاق فتحة المدخل الرئيسي للبيت أكثر من اهتمامه بالمداخل الثانوية والداخلية ، خصوصا بعد أن ازداد عدد الغرف في البيوت الاولى ، وربما استخدم الانسان القديم الجلود لاغلاق فتحات المداخل الثانوية كما هو الحال في غرف مباني المرات في السوية الثانية في البيضا(٦٢) .

٢ ـ المرافق السكنية :

٢ ـ ١ غرف النوم

استخدم سكان البيضا الغرف الكبيرة نسبيا للمبيت ، فالسويات الست التي اكتشفت بالموقع استخدمت ، على الاغلب ، للمبيت لكبر حجمها ، وربما استخدم بعضها للطبخ او التخزين بدليل اكتشاف قطع عديدة من مجارش الحبوب على أرضية الغرفة . أما في عين أبو نخيلة فقد استخدمت الغرفة الدائرية للمبيت وللطبخ في نفس الوقت . ويبدو أن الانسان في البسطة فصل مناطق السكن عن مناطق الخزين ، حيث يحتمل أن المنطقة « أ » كانت منطقة السكن بسبب كبر حجم الغرف ، في حين استخدمت المنطقة «ب» للخزن ، وذلك بسبب صغر حجم تلك الغرف .

٢ ـ ٢ المخازن

احتاج الانسان بعد ازدياد خبراته والتطور الذي حصل في حياته الى أماكن خاصه لحفظ محاصيله الزراعية وتخزين الفائض منها الى الاته وأدواته التي قد تتعرض للتلف ان لم تحفظ في مكان أمين . فشيد غرفا صغيرة استخدمها لخزن المحاصيل الزراعية والالات والادوات ، وتلاحظ هذه الظاهرة في معظم المواقع الاثرية، حيث خصصت غرفة صغيرة او غرف عديدة صغيرة المساحة للخزن . ونستطيع أن نميز نوعين من المخازن التي استخدمها الانسان في هذه المرحلة :

النوع الاول : غرف صغيرة تابعة لاحد البيوت استخدمت كمخزن لخزن المحاصيل الزراعية ، كما هو الحال في موقع البيضا ، حيث وجد في السوية السادسة عدة حجيرات تنحشر في الفراغات الضيقة التي تفصل الجدار الخارجي عن الغرف السكنية . ويحتمل ان يكون سكان البيضا قد استخدموا بعض الغرف للخزين بدليل اكتشاف ثلاثة جواريش في أحد بيوت السوية الرابعة وضعت على حدة .

النوع الثاني : مجموعة من الغرف صغيرة المساحة ، كما هو الحال في البسطة، حيث عثر في المنطقة «ب» على مجموعة من المباني التي تتألف من ساحة مركزية تحيط بها ثلاث أو أربع غرف صغيرة الحجم من كل جانب . ويستدل على أن هذه الغرف استخدمت كمخازن عن طريق :

١ ـ مساحتها الصغيرة التي لا تكفي للسكن فيها : اذ أن مساحتها لا تكفي لشخص واحد ، اذ تبلغ ١ر٠ × ١ م .

٢ ـ عدم وجود فتحات المداخل في أغلبها ، وكان الدخول اليها يتم من خلال فتحات صغيرة في الجدران . وافترض المنقبون مخازن بدليل اكتشافهم كميات كبيرة من أدوات الطحن والجرش في هذه المنطقة . ونستطيع الافتراض ان سكان البسطة كانوا يخزنون محاصيلهم عن طريق اقترابهم من فوق حاجز منخفض أو من سطح البناء والقاء المحاصيل المراد تخزينها في تلك الغرف .

٢ ـ ٣ الساحات :

تعتبر الساحة احدى المرافق الهامة التي اضافها الانسان القديم الى مرافق بيته بعد ان ازدادت احتياجاته ، فمارس فيها أعماله اليومية . واظهرت دراسة نتائج التنقيبات الاثرية في مواقع هذه المرحلة في جنوب الاردن تميز عدة انواع من الساحات وهي : آ ـ ساحة تحيط بها عدة بيوت بدون انتظام . ب ـ ساحة خاصة بالبيت مسيجة الاطراف . جـ ـ محاطة من الجهات الاربع . د ـ ساحة خارجية لكل بيت.

ظهر النوع الاول ـ أي الساحة التي تحيط بها عدة بيوت بدون انتظام ـ متمثلا في بيوت السوية السادسة في البيضا . وظهر نموذج النوع الثاني المتمثل بساحة خاصة بالبيت مسيجة الاطراف في السوية الثانية في البيضا فيها ساحات عديدة محددة من بعض اطرافها(٦٣) . أما النوع الثالث الذي يتميز بأنه ساحة تحيط بها مجموعة من الغرف من بيوت ومباني القرية الواحدة ، فلم يظهر الا في موقع البسطة . ففي المجمع البنائي في المنطقة«ب» اكتشفت ساحات تحيط بها الغرف الصغيرة من جميع الاطراف . أما النوع الرابع فقد تمثل في السوية الرابعة في البيضا حيث احيطت كل غرفة من الغرف المستطيلة ذات الجدران المنحنية المبنية بألواح من الحجارة الرملية السميكة بساحة خاصة بها(٦٤) .

٢ ـ ٤ المواقد :

شيد الانسان القديم الموقد في قرى ومخيمات الصيادين التي اقامها في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم حيث عثر على بقايا هذه المواقد في معظم مواقع هذه الفترة ، مثل الخزانة ٤ ، ووادي الحمة ٢٧ ، ووادي الحسا ١٠٦٥ ، والسوية النطوفية في البيضا . وعندما شيد الانسان بيوته في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» حافظ على تقاليده ، فشيد الموقد داخل الغرف . وعندما ازدادت غرف البيت الواحد وازدحمت القرية بالبيوت بنى الانسان المواقد في الساحات

أو شيد لها غرفاً خاصة . وظيفياً ، لعب الموقد عند وجوده داخل الغرفـدورا مزدوجا حيث استخدم للتدفئة وللطبخ ، بينما اقتصر دور الموقد في الساحات الخارجية على عملية الطبخ .

٢ ـ ٥ زريبة الحيوانات :

اهتم الانسان بالحيوانات التياستطاع تدجينها للاستفادة من منتوجاتها اضافة الى لحومها وجلودها ، فسعى الى ايوائها في ساحات قريبة من بيته ، أو في أماكـن مسيجة لحفظها وحمايتها من مخاطر الظواهر الطبيعية ، أو من الحيواناتالمفترسة. ففي البيضا استخدم سكان السوية الثانية الساحة المسيجة الملحقة بالبيت لحفظ حيواناتهم المدجنة(٦٥)، وفي فترة متأخرة حفظ سكان السوية الثانيـة دواجنهم في اوكار مبنية من الحجارة ، حيث عثر في الساحة المسيجة على قن مشيد من الحجارة استخدم لحفظ الطيور أو الدواجن(٦٦) .

٣ ـ الجدران والدعائم :

المواد التي استعملها الانسان في بناء الجدران كانت تحدد شكلها . فاستعمال الحجارة غير المشذبة في بناء الجدار يجعل سمكه يتفاوت من منطقةالى أخرى مما يجعل الثقل الساقط من السـقف على الجـدران يختلف مقداره مـن منطقة الى أخـرى ، بالاضافة الى ذلك فان الجدار لايبدو منتظما لتفاوت الحجارة في الطول ، والعرض ، والسمك . ولا بد أن الانسان القديم قام باجراء تجارب عديدة قبل معرفة أن طـول الجدار وارتفاعه يؤثران في مقاومته وعدم سقوطه وخصوصا اذا كان من غير دعائم . وعرف الانسان أن الجدران الخارجية للبيوت يجبأن تكون أعرض من بقية الجدران. والغاية من قيام الانسان ببناء الجدران كانت تقسـيم المباني الى مساحات قابلـة للاستخدام لغايات محددة ولمنع الاتربة والمياه من الدخول اليها ،وأخيرا للمساعدة في حمل ثقل السقف .

والدعائم حاملات أو ركائز ، ويكون العمود من الخشب أو من الحجر بأنواعـه المختلفة ، مثل الكلسي ، أو الرملي الخ. ويتألف من قطعة واحدة أو من عدة قطـع تركب الواحدة فوق الاخرى باحكام ، ويكون له قاعدة مربعة أو دائرية . اما وظيفة العمود فهي إما رفع السقوف ، أو دعم الجدران ، أو واجهات البناء .

واتاحت لنا دراسة نتائج التنقيبات في مواقع جنوب الاردن تمييـز استخدام الانسان لاربعة انماط رئيسـة من الدعائم لغايات حمل السقف . وتتمثل هذه الانماط

بالدعائم الملتصقة والمغروسة داخل الجدران ، والدعائم المرتكزة داخل الارضيات ، والدعائم الافقية ، والدعائم المرتبطة بالجدران الداخلية . وتجدر الاشارة الى ان الانسان استخدم هذه الانماط اما بشكل منفرد أحيانا أو استخدم اكثر من نمط من الدعائم في نفس الوقت في احيان اخرى .

وكشفت التنقيبات في السوية السادسة في البيضا عن غرف دائرية ملاصقة لبعضها البعض مما دعا المنقبة لتشبيهها بخلية النحل، وكان فيها دعائم خشبية مغروسة داخل الجدران الداخلية للغرف بشكل عمودي (شكل ١:٣) . وكانت تجاويف الاعمدة ذات فسحات منتظمة ما بين ٣٠ ــ ٥٠ سم ، وكانت أرضيات الغرف ووجه الحائط مكسوة بملاط من الجص(٦٧) كما عثر في نفس السوية على حفر أعمدة في وسط الغرف(٦٨) .

والنمط الثاني هو الدعائم المرتكزة والمغروسة في الارضيات . وباستثناء الاشارة التي أوردتها ديانا كيركبرايد (D. Kirkbride) عن وجود حفر أعمدة في احدى الارضيات الطينية التي لم يعثر على جدران مصاحبة لها(٦٩) ، فلم يعثر على أمثلة اخرى له في مواقع جنوب الاردن بالرغم من استخدام هذا النمط من الدعائم بكثرة في مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» . ويتمثل هذا النمط باستخدام اعمدة خشبية مغروزة داخل حفر في مناطق مختلفة في أرضيات الغرف . وهناك نوع آخر ، وهو دعامة حجرية تقع في منتصف الغرفة ، عثر عليها في المجمع البنائي المكتشف في المنطقة «ب II » ويبلغ حجمها ٨٠×٩٠ سم (٧٠).

اما النمط الثالث فهو الدعائم الافقية أو العوارض الطويلة . وهناك بعض الصعوبة في التحدث عن هذا النمط ، لان الادلة المادية المباشرة معدومة تقريباً . ان الجدران المكتشفة في المواقع الاثرية بعلوها الحالي لا تعطينا فكرة عن طريقة وضع السقف ، ولكن عدم الكشف في بعض غرف السويات المختلفة عن انخفاض في الارضيات أو ثقوب في الارضيات المكسوة بالجص لاعمدة داعمة للسقف تجعلنا نستنتج استخدام بنائي القرية لدعائم أفقية او عوارض طويلة في أعلى الجدران لغايات حمل السقف . كما هو مستخدم في أيامنا هذه في بيوت المنطقة(٧١) .

والنمط الرابع هو الدعائم المرتبطة بالجدران الداخلية (شكل ١ : ٢) . ولعل مهمة هذه الدعائم تقوية الجدران الطويلة والمساهمة مع الجدران في حمل ثقل السقف. ظهر هذا النمط في موقع البسطة ، حيث كشف النقاب في المجمع البنائي في المنطقة « ب » عن أربعة أعمدة حجرية عريضة مرتبطة بالجدران الداخلية الشمالية والشرقية والغربية للغرفة التي يبلغ طولها ٦×٥ر٣ م ومحاطة من ثلاث جهات بصفوف من

الغرف صغيرة المساحة ومرتبطة معها عن طريق ممر ضيق . وبما أن هذه الدعائم كانت تتصل مع الجدران الداخلية للغرف الصغرة فقد اختلف بعد المسافة بين دعامة واخرى مما جعل ترتيبهما غير منتظم وأحجامهما غير متساوية . فبلغ الحجم ٩٢ x ٥٤ x ٣١ سم ، و ٦٨x ٦٩x ٦٢ سم أحيانا ، وكان بعضها أصغر حجما فبلغ ٣٨ x ٣١ x ٣٢ سم (٧٢) . كما عثر في موسم ١٩٨٨ في المجمع البنائي في المنطقة « ب V » على عمود حجري مرتبط بالجدار الداخلي للغرفة ويبلغ طوله ٨٠ سم وعرضه ٨٠ سم(٧٣) (شكل ٣:١) .

اما النوع الخامس من الدعائم فهو قريب الشبه من النمط الرابع . هذا النوع عبارة عن حواجز من الحجارة مرتبطة بالجدران الداخلية وظيفتها تقسيم الغرفة الى قسمين أصغر حجما بالاضافة الى مساعدة الجدران في حمل ثقل السقف . ومثالنا على هذا النوع ما عثر عليه في السوية الثانية بمباني الممرات في البيضا ، حيث عثر على حاجز مبني من الحجارة ، بلغ سمكه المتر وأكثر أحيانا ، وطلي قسمه الاعلى بالجص ، ويرتفع حوالي المترين(٧٤) . والمثال الاخر لهذا النوع هو الحاجز الحجري المكتشف في المنطقة « ب V » في البسطة (شكل ٣ : ١) ، والذي يفصل بين الغرفتين ١٩ و ٢٠ ويتراوح سمكه بين ٧٠ و ٨٠ سم وارتفاعه الحالي يزيد على المتر ، بينما تبلغ مساحة المدخل حوالي ٥٦ سم(٧٥) .

٤ ـ النوافذ : (شكل ٣:١)

لابد أن الانسان عرف النافذة وأهميتها لمسكنه في وقت متأخر عن الزمن الذي عرف فيه العناصر الاساسية الاولى لتصميم المنزل ، وذلك بعد أن ازدادت تجاربه وخبراته في مجال البناء وتشييد المباني ، وأصبح أكثر اتقانا ودقة في تشييد بيوته . وبالرغم من صعوبة معرفة أصل النافذة بالضبط ، الا اننا نستطيع الافتراض أن النافذة الاولى نشأت بطريقة غير مقصودة من قبل الانسان . فمن المحتمل أن النافذة الاولى جاءت على شكل فتحة صغيرة نتيجة لتصدع جدار المنزل فقام الانسان بتوسيع هذه الفتحة لملاحظته دخول الهواء والضوء من خلالها ، وربما كانت النافذة نتيجة لمحاولة الانسان ايجاد منفذ لاخراج الدخان المتصاعد من المواقد وحفر النيران داخل المنازل . أو ربما توصل الانسان الى معرفة النافذة بعد بنائه الحنايا في جدران المنازل الداخلية ، وذلك لأن التجويف الناتج من الحنايا يأخذ قدرا من سمك الجدار . وكشفت الحفريات الاثرية عن بقايا ومخلفات معمارية كثيرة في العديد من المواقع ، الا أن القليل منها كشف عن وجود نوافذ فيها ، وربما يعود السبب في ذلك الى أن العديد من الجدران التي كشف النقاب عنها كانت قليلة الارتفاع ، بحيث لا يتبين المرء وجود نوافذ فيها . ويعتبر موقع البسطة أحد المواقع النادرة التي أبرزت التنقيبات فيها

وجود فتحات تشكل نوافذ في جدران الغرف الصغيرة التي تحيط بالنوافذ الكبيرة في المجمع البنائي في المنطقة «ب»(٧٦) . وظهرت خمس نوافذ ، ثلاث منها كاملة واثنتان متهدمتان ، وبلغت أطوال النافذة في الغرفة رقم «١٠» ٣٣×٥٤ سم ، بينما بلغت اطوال النافذة في الغرفة رقم «١١» ٤٤×٦٢ سم ، أما نافذة الغرفة رقم «٩» ، فلم يكن بالامكان تحديد طولها لكونها تقع في أقصى الجدار ، حيث تشكل زاوية مع جدار الغرفة رقم «١٠» ، ويبلغ عرض النافذة ٧٢ سم . أما بالنسبة للنافذتين الرابعة والخامسة ، واللتين وجدتا في الغرف « ١٢ ، ١٣ » فهما ناقصتان بسبب تداعي الجدران . ويبلغ عرض النافذة الرابعة ٢٧ سم ، ويرتفع جانبها الايمن حوالي ٥٦ سم ، بينما عرض نافذة الغرفة «١٣» فبلغ ٣٨ سم(٧٧) . كما ظهرت نوافذ اخرى داخل الجدران الداخلية للغرف « ١٠ و ١١ »(٧٨) . وقد كشفت تنقيبات موسم ١٩٩١ عن وجود نوافذ أخرى في الغرف الصغيرة المطلة على الغرفة الكبيرة في المجمع البنائي في المنطقة «ب» في البسطة .

وقد بنيت النوافذ على نمط المداخل أي ببناء عتبة عليا وجانبين وعتبة سفلى . كانت العتبة السفلى في الغالب لوح حجري مستطيل على امتداد عرض النافذة بينما جوانب النوافذ في الغالب من خمسة صفوف من الحجارة مختلفة الاحجام. أما بالنسبة للعتبة العليا فتتكون من حجر طويل مستطيل او من حجرين ، وتمتد داخل جوانب النافذة(٧٩) .

٥ ـ الكوات (الحنايا) :

الكوة تجويف يبنى عادة في الجهة الداخلية من الجدران، وتستخدم في استعمالات متعددة كوضع الطعام ، أو التماثيل . ان الادلة على وجود كوى أو حنايا في جدران المنازل قليلة جدا ، كما هو الحال في النوافذ ، وذلك لقلة ارتفاع الجدران الباقية في المخلفات الاثرية . ومن الادلة القليلة التي كشفت النقاب عنها في المواقع تلك الكوة التي عثر عليها في السوية الثانية في البيضا ، وذلك في احد الابنية المبنية حول ممر ضيق بلغت أطواله ٨×١م ، وبلغت أبعاد الغرفة الواحدة ١×٥ر١ م ، والتي أطلقت عليها المنقبة اسم المشاغل لاعتقادها بأنها استخدمت لأغراض عامة(٨٠) . تقع هذه الكوة في أقصى طرف أحد الجدران التي يبلغ ارتفاعها حوالي المترين وهي مربعة تقريبا، ومبنية من الحجارة(٨١) . شيدت العتبة السفلى من لوح حجري، بينما شيدت الجوانب بثلاثة صفوف أو أكثر من الحجارة الغشيمة ، وكانت العتبة العليا لوحاً حجريا طويلا امتد قليلا نحو الجوانب .

٦ ـ الأرضيات :

أبدى الانسان القديم اهتماما شديدا بأرضية البيوت التي شيدها ، حيث قام بتنظيفها من الحجارة والصخور وتسويتها ، ثم مد هذه الارضيات في بداية الامر بطبقة من الطين أو التراب المدكوك ، وتطورتمع مرور الزمن الى تغطية الارضيات بطبقة من الجص . ويعتبر الاستخدام الواسع للجبص في طلاء الارضيات احدى السمات المميزة لعمارة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» . حيث عثر في جميع مواقع هذا العصر على أرضيات غرف مطلية بالجص والمدهونة في اغلب الاحيان ، مما دعا بعض العلماء الى تسمية هذه المرحلة باسم مرحلة الارضيات الجصية أو الكلسية [Plastered floor period] . وتشير الادلة الاثرية الى أن الانسان القديم في البيضا استخدام الجص في جميع السويات الاثرية لمرحلة ما قبل الفخاري «ب» ، حيث استخدمه في تغطية الارضيات والجدران والتي جاءت غالبا مدهونة بالالوان الاحمر ، والبني ، والزهري(٨٢) ، ففي السوية الثانية مدت أرضية الساحة الكبيرة بالجص كغطاء نهائي بسماكة ٢٥ سم بعد مد الارضية بطبقة من الحصى الصغيرة ، والكلس ، والرماد ، كما تم طلاء أرضية ساحة اخرى في نفس السوية بالجص بعد فرشها بطبقة من الرمل والكلس(٨٣) . ونجد كذلك أن استعمال الجبص في ملاط أرضيات وجدران الغرف الداخلية كان شائعا في هذه الفترة ، كما هو الحال في غرف مبنى المرات حيث اشارت المنقبة الى أن معظم الارضيات كانت مكسية بالجص وملاصقةلجدران الغرف، وفي الغالب كانت تغطي الجدران من الداخل بملاط من الجبص . وتشير الدلائل الى وجود هذه الظاهرة في موقع خربة الحمام ، حيث عثر على أرضيات مقصورة ومدهونة باللون الاحمر ، ومن المحتمل أن الجدران طليت أيضا بهذا اللون(٨٤) . ومن السمات الشائعة في أغلب أرضيات المباني في مواقع جنوب الاردن في هذه المرحلة استخدام الالوان المختلفة كالاحمر ، والبني والزهري وغيرها ، وان كان الاحمر هو اللون الاكثر استعمالا في طلاء هذه الارضيات المصقولة غالبا . ويشير هانس جبل (H. Gebel) الى وجود هذه الظاهرة في موقع البعجة(٨٥) . أما في موقع البسطة فقد جاءت أغلب المباني التي عثر عليها بأرضيات وجدران مطلية بالجص ومدهونة بألوان مختلفة كالاحمر والبني(٨٦) . واستخدم الانسان مواد أخرى لتغطية الارضيات في البيضا ، كما هو الحال في المربع T2 في منطقة الحرم [Sanctuary] ، حيث استخدمت الحجارة في رصف الارضية بالحجر اللوحي بطريقة متقنة(٨٧) . كما وجد خارج أحد منازل السوية الرابعة على رصفة من الحجارة اللوحية الضخمة بشكل نصف دائري(٨٨) . كما استخدموا الحصى أيضا في تغطية احدى أرضيات مباني الحرم(٨٩). واستخدموا الطين كذلك حيث عثر في عين أبو نخيلة على أرضيات صلبة(٩٠) .

٧ ـ السلالم والدرج :

ليس لدينا أية أدلة مادية على الوسائل التي استخدمها سكان البيضا للصعود الى الاسطح ، اذ لم تكشف التنقيبات الاثرية عن أية بقايا أو مخلفات لسلالم أو درجات في المباني التي تم الكشف عنها في السويات الست في البيضا . الا أننا نعتقد بأن عملية الصعود الى الاسطح ـ أو الى الطابق الثاني في مباني الممرات المكتشفة في السوية الثانية في البيضا ، والتي افترضت المنقبة أنها كانت مخصصة للسكن ـ كانت تتم بواسطة سلالم أو أدراج خشبية . كما يمكن الافتراض أن عملية الصعود كانت تتم بالتسلق على الجدران الخارجية من خلال أماكن خاصة لوضع القدمين ، اذ كان مستوى الجدران الخارجية أقل ارتفاعا من الجدران الداخلية ، وذلك لأن أرضيات البيوت كانت تحت مستوى الارض بحوالي ٥٠ سم .

واللافت للنظر أن سكان البيضا لم يقوموا بتشييد درج حجري يؤدي الى السطح رغم معرفتهم بتقنية بناء الدرج ، حيث تميزت مباني السويات الست بكونها تحت مستوى الارض وينزل اليها بثلاث درجات حجرية (شكل ٣ : ٢) . وظهر أيضا درج حجري في الجدار الذي عثر عليه في المنطقة الجنوبية الشرقية للقرية(٩١) . وفي البسطة عثر في المجمع البنائي « أ » على درج يربط بين المصطبة الشمالية والمصطبة الجنوبية اللتين وجدتا في احدى الغرف الكبيرة التي تبلغ مساحتها ٥ر٢٤ × ٩م(٩٢) .

٨ ـ السقوف والاسطح :

أشرنا سابقا الى تنوع النماذج المعمارية المكتشفة في هذه المرحلة ، فمنها الدائري والمستطيل ، والمربع ، أو البيوت متعددة الغرف . ولابد أن تنوع هذه النماذج قد أثر على تصميم سقوفها ، فربما كان سقف البيوت الدائرية على شكل قبة غالبا ، أو مخروطيا . أما البيوت المستطيلة والمربعة او البيوت متعددة الغرف ، فربما كانت ذات سقوف مستوية أو مائلة قليلا . والتحدث عن اشكال السقوف التي استخدمها الانسان في سقف بيوته في غاية الصعوبة لغياب الادلة المادية المباشرة التي توضح شكل هذه السقوف . فالسقف ربما تألف من العوارض الرئيسية ، تعارضها جذوع معاكسة فوقها ، ويوضع فوقها طبقة رقيقة من أغصان الاشجار والقصب ، ثم تفرش بطبقة من الطين . وفي الواقع ليس لدينا أية أدلة أثرية مباشرة على طريقة صنع السقف في مباني هذه المرحلة باستثناء ما عثر عليه في المخلفات الاثرية من بقايا مواد محترقة في أحد بيوت السوية السادسة بموقع البيضا ، حيث افترضت المنقبة استخدام الخشب في عملية سقف الغرف . أما الدليل الثاني ، فهو وجود حفر الاعمدة

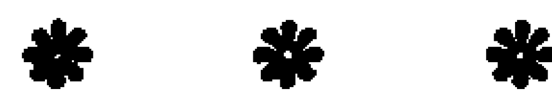
الملتصقة داخل جدران غرف السوية السادسة مع وجود عمود مركزي في وسط الغرف ، اذ افترضت المنقبة أن السقف اقيم بايصال الاعمدة الخشبية الملتصقة داخل الجدران مع العمود الخشبي المركزي بعوارض خشبية أفقية، ثم وضع فوقها القصب والعليق ، واخيرا غطيت بطبقة سميكة من الطين(٩٣) . وتشير المنقبة الى ان السقف كان مطليا بطبقة من الجص . أما سقوف البيوت التي لم تحتو على أية بقايا لحفر اعمدة أو انخفاضات في الارضيات فنعتقد بأن سقوفها اقيمت بعوارض خشبية أفقية كما نشاهد في قرانا اليوم . اما السطح ، فلم تكشف التنقيبات الاثرية في جميع المواقع عن أي أثر له . ونفترض أن الانواع التالية من أشكال السطوح يمكن أن تكون استخدمت في هذه المرحلة :

١ ـ السطح المستوي : يستخدم هذا الشكل في الوقت الحاضر في معظم القرى في جنوب الاردن . وهذا الشكل يبنى على الشكل التالي : بعد ان يسقف البيت بالعوارض الخشبية ، وتوضع فوقها الاغصان ، تغطى بطبقة من الطين ، وتدك بالاقدام أو بأداة خاصة تستخدم لهذا الغرض . ويتم اضافة الطين سنويا الى السطح لترميمه .

٢ ـ السطح المقبب : ربما كان هذا الشكل هو الاكثر ملاءمة للمنازل الدائرية ، كالمباني التي وجدت في البيضا ، وعين ابو نخيلة ، ويحتمل أيضا أن يكون السطح المستوي هو الذي استخدم في المباني الدائرية خصوصا اذا استخدم الخشب في ذلك ، لان بناءه يحتاج وقتا اقل من بناء السقوف المقببة .

٣ ـ السطح المائل : وهو سطح يماثل السطح المستوي ، ولكن درجة ميلانه تكون أكبر ، لضمان عدم تراكم مياه الامطار فوق الاسطح .

٤ ـ السطح الجملوني : ويتكون من سطحين مائلين ، حيث يتم بناء هيكل خشبي مرتفع من المنطقة الوسطى ومنخفض من الاسفل ، بحيث لو قسم السطح الجملوني الى قسمين لكون كل قسم سطحا مائلا .



Glossary معجـم الكلمـــات

انجليزي	فرنسي	عربي
floor	sol	الارضـية
flagestone	dalle	البلاطة
house	maison	البيت
gypsum	plâtre	الجص
wall	mur	الجــدار
saddleroof	toit en batière	الجملوني
saddleback roof		
stone	pierre	الحجـــر
lime stone	calcaire	الحجر الكلـسي
cupboard	placard	الخزانة
wood	bois	الخشـب
stairway	escalier	الدرج
pillar	pilier	الدعامة
post	Poteau	الركيزة
courtyard	court	السـاحة
roof	toit	السـطح
roof	Plafond	السـقف
ladder	échelle	السـلم
silo	silo	الصومعة
clay	mud	الطين
doorstep	seuil	العتبة السـفلي
lintel	linteau	العتبة العليا
room	pièce	الغرفــة

lime	chaux	الكلس
niche	niche	الكـوة
slope	pente	مائـل
magazine	magasin	المخزن
entrence	entrée	المدخـل
flat	plat	مسـتو
platform	plateforme	المسطبة
benche	banquette	المصطبة
gypsum –lastered	Plâtre	مطلي بالجبص
mortar	mortier	الملاط
agglutinant	agglutnative	ملتصق
coridor	passage	الممر
free - standing	isolé	منعزل
hearth	foyer	الموقـد
window	fenêtre	النافذة

* * *

جدول رقم ١ : تواريخ الكربون المشع لموقع البيضا والبسطة

البيضــا :

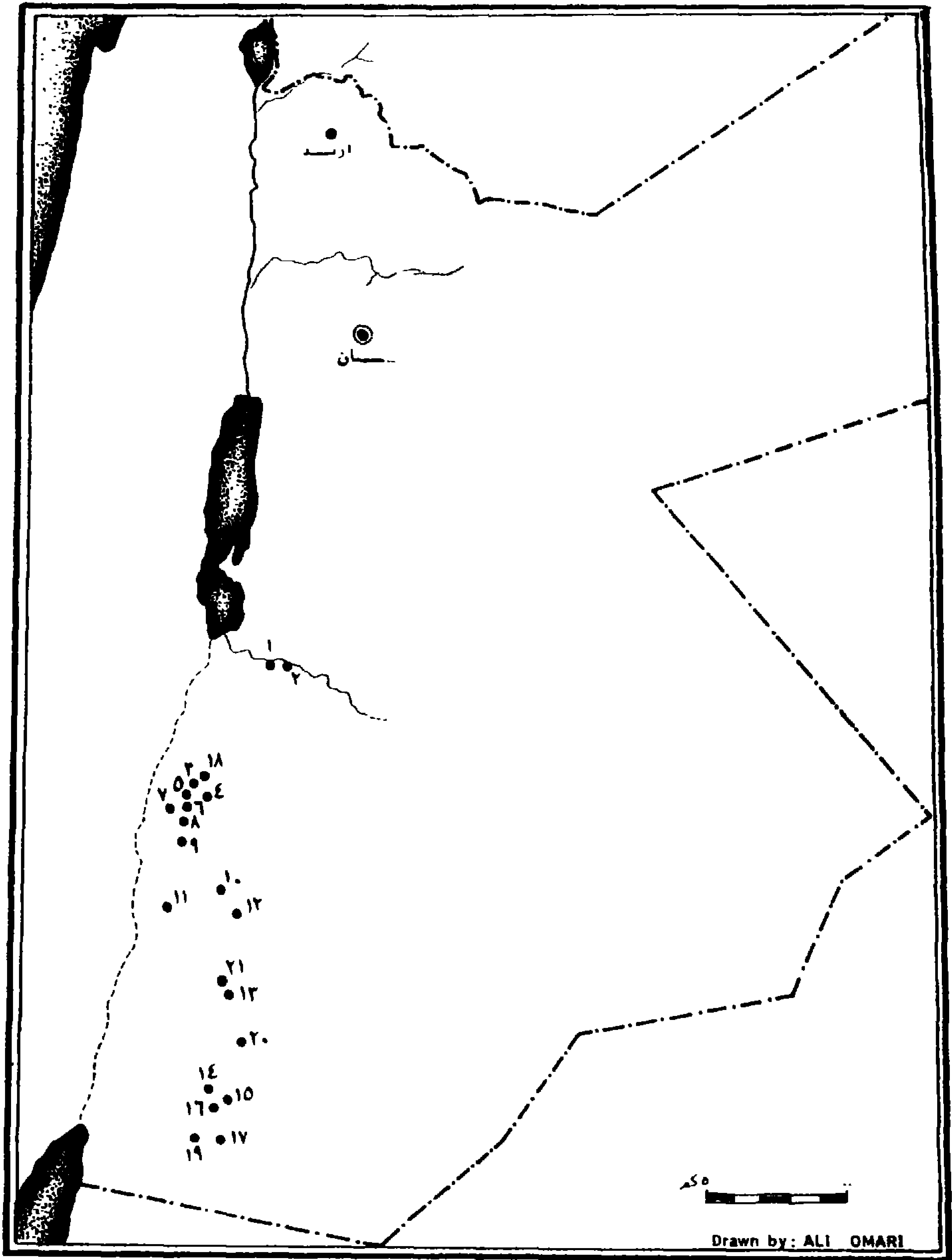
السوية السادسة	٦٦٩٠ ± ٥٠ ق.م	٥٠٦٣	GrN —
	٦٩٠٠ ± ١٥٠ ق.م	١٤١٠	K —
	٦٨٢٠ ± ١٥٠ ق.م	١٤١١	K —
	٦٨١٥ ± ١٠٢ ق.م	١٣٨١	P —
	٦٧٧٠ ± ١٥٠ ق.م	١٤١٢	K —
	٦٧٦٥ ± ١٠٠ ق.م	١٣٧٨	P —
	٦٧٠٠ ± ١٣٠ ق.م	١٠٨٢	K —
	٦٥٩٦ ± ١٠٠ ق.م	١٣٧٩	P —
السوية الخامسة	٦٦٩٠ ± ١٦٠ ق.م	١٠٨٣	K —
السوية الرابعة	٧١٧٨ ± ٢٠٠ ق.م	١٣٨٠	P —
	٦٨٤٠ ± ١٠٣ ق.م	١١١	BM —
	٦٨١٥ ± ١٠٢ ق.م	١٣٨١	P —
	٦٧٨٠ ± ١٦٠ ق.م	١٠٨٤	K —
السوية الثانية	٦٩٤٢ ± ١١٥ ق.م	١٣٨٢	P —
	٦٦٠٠ ± ١٦٠ ق.م	١٠٨٥	K —
	٧٠٨٠ ± ٥٠ ق.م	٥٠٦٢	GrN —

نلاحظ ان التواريخ المعطاة أعلاه حدثت بين ٧٠٠٠ و ٦٦٠٠ ق.م ، مما يؤكد راي المنقبة بأن الموقع قد استوطن لفترة قصيرة (Kirkbride, 1967 : 12) .

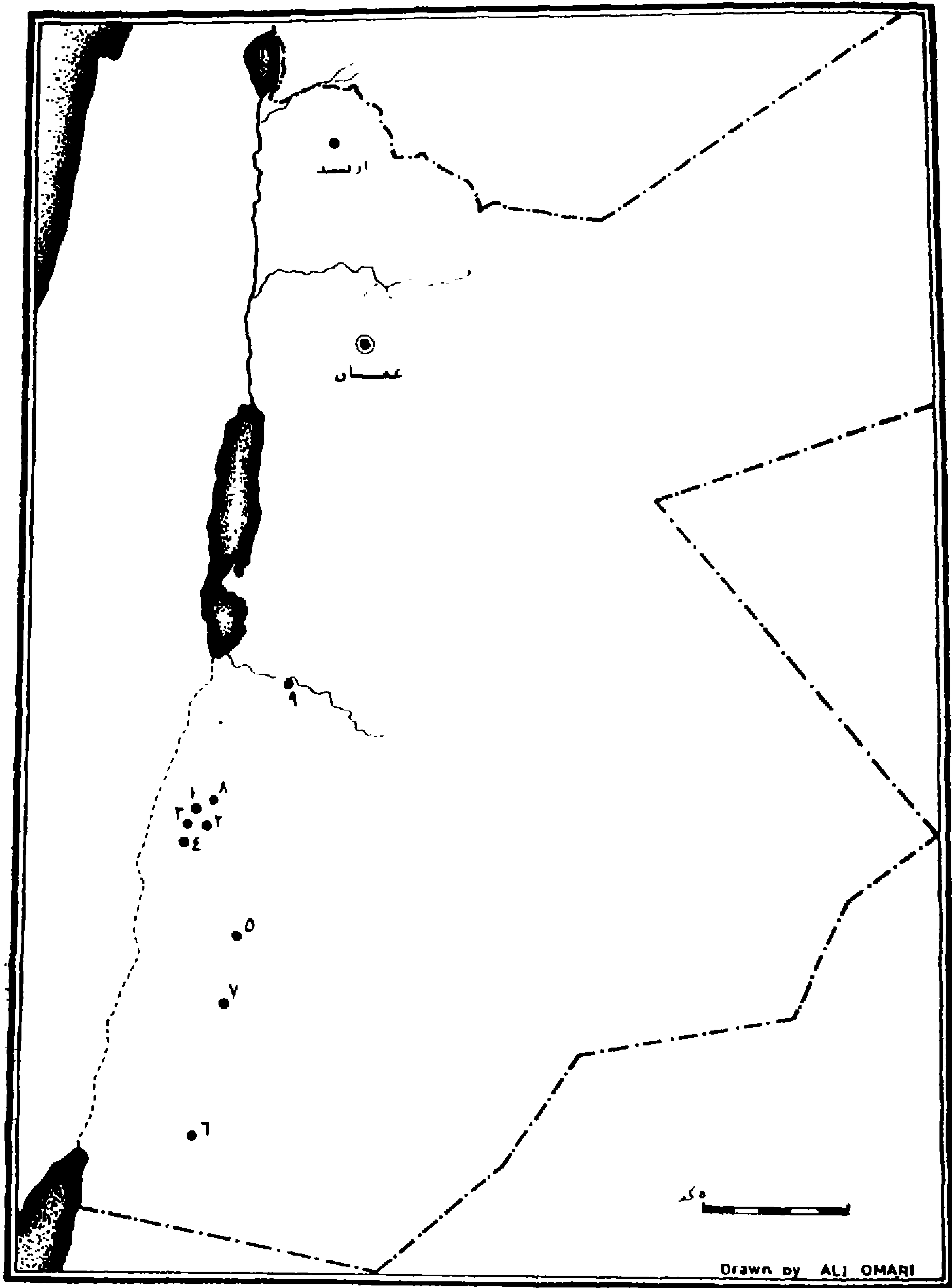
البســطة :

٥٠٠ شمال/٦٨٥ غرب ٢٣٠٤٦٠٣٣م ٨٣٨٠+١٠٠ من الوقت الحاضر ٤٥٣٨—GrN

٥٠٠ شمال/٦٩٠ غرب (د) سوية ٧ ٨١٥٥+٥٠ من الوقت الحاضر ١٤٥٣٨—GrN

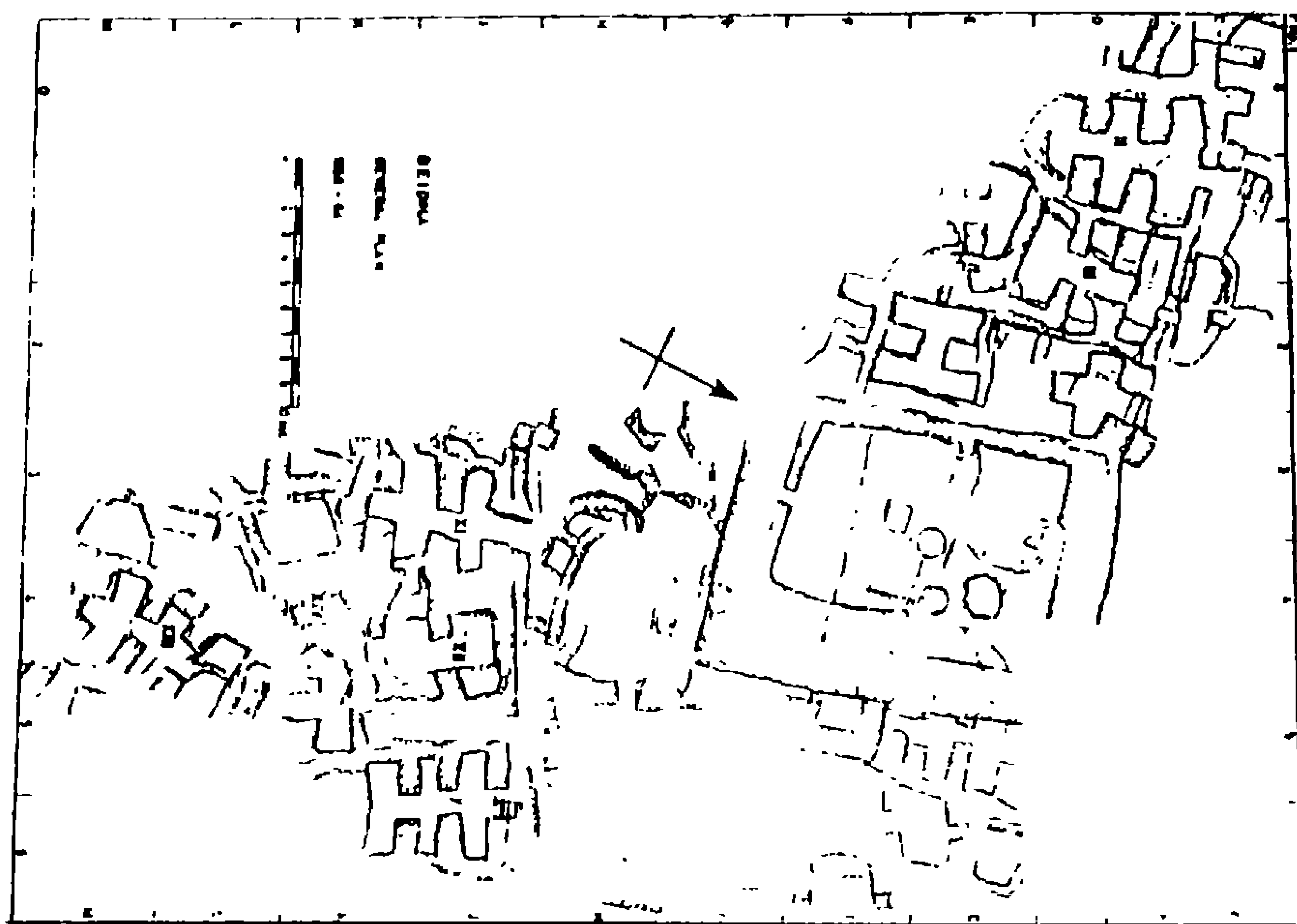


خريطة (١). مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» في جنوب الأردن.
١- وادي الحسا ٢- خربة الحمام ٣- شكارة مساعيد ٤- بعجة «١» ٥- جابو «١» ٦- البيضا ٧- بير الطيب ٨- الضمان ٩- كات شبيب ١٠- صبرا «١» ١١- ابو برقة ١٢-البسطة ١٣-J24 ١٤-القصير ١٥- عين القطار ١٦- عين أبو نخيلة ١٧-ام الرصال ١٨- وادي فينان ١٩-ام الموقور ٢٠- جبل رايغ ٢١- ام الجمام.



خريطة (٢) مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» في جنوب الأردن المحتوية على بقايا عمائرية

١- شكارة مساعيد ٢- بعجة «١» ٣- البيضا ٤- الصمان ٥- ام الجمام ٦- عين أبو نخيلة ٧- البسطة ٨- وادي فينان ٩- خربة الحمام.



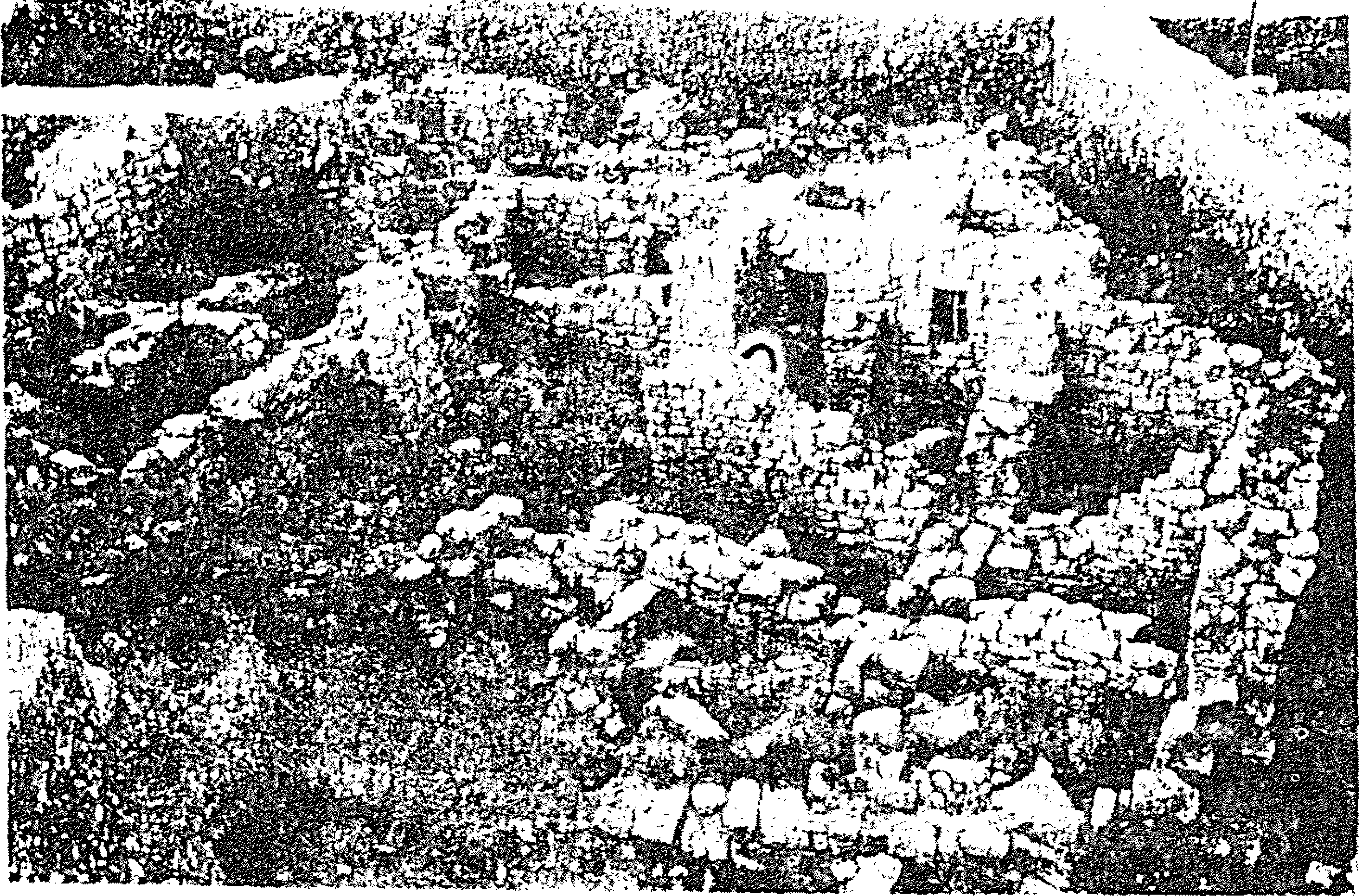
شكل (١) : ٢ ـ مخطط عام للمجمع البنائي «ب» في البسطة .



شكل (٢): ١- منظر عام لمباني السويات الست في البيضا.



شكل (٢): ٢- منظر عام للغرف الدائرية في السوية السادسة في البيضا. - ٣٩ -



كل (٣) ١ - منظر عام للمجمع البنائي «ب» في البسطة.



شكل (٣) : ٢ ـ منظر لاحد البيوت المستطيلة في السوية الرابعة في البيضـا

الهوامش:

١- Moore, A., "The Neolithic of the Levant, 1&ii." Unpublished Ph.D. Thesis Submitted for the Degree of Doctor of Philosophy. Oxford University. University College. 1978: 84

٢- Moore, A., ibid 1978: 86

٣- Cauvin, J. " Chronologie Relative et Chronologie Absolue dans Le Neolithique du Levant Nord et d'Anatolie entre 10000-8000 B.P" Lyon, Colleque International du CNRS. Chronologie du Proche-Orient. BAR International Series 379 (i) (1987): 333

٤- Kenyon, K., " Excavation at Jerico, 1956". Palestine Exploration Quarterly , 1956: 72

٥-أبو طالب، محمود اثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة (أضواء جديدة). ١٩٧٨. ٤٣-٤٤.

كفافي، زيدان القرى الزراعية في الأردن خلال العصر الحجري الحديث حوالي (٨٠٠٠-٤٥٠٠ ق م). مجلة ابحاث اليرموك مجلد ٢ (١٩٨٦):٧٤-٧٥

كفافي، زيدان الاردن في العصور الحجرية. ١٩٨٩ ١٣٧-١٣٩.

٦- Banning, E., and Byrd, B., "The Architecture of PPNB Ain Ghazal," Jordan. Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 1984, 255: 15-20

Banning, E., and Byrd, B., "House and the Changing Residential Unit: Domestic Architecture at PPNB, Ain Ghazal, Jordan ." Procceedings of the Prehistoric Society 1987, 53: 309-325.

Aurenche, O. "La Maison Oriental: L'Architecture du Proche-Orient Ancien des Origines au Milieu-du Quatrième Millenaire. Tome 1&2". Paris. Librairie Orientaliste Paul Geuthner S.A.1980

٧- Kenyon, K., "Excavation at Jericho, 1953". Palestine Exploration Quarterly , 1953 : 83

٨- Moore, A., "The Neolithic in the Levant". 1978: 86.

وانظر Moore, A., "A Four Stage Sequence for the Levantine Neolithic, ca. 8500-3750 B. C". Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 1982, 258: 1.

٩- Kirkbride, A., and Harding, L., "Hasma". Palestine Exploration Quarterly , 79 (1947): 7-27.

Stekelis, M., "Hasma, Note on the Flint". Palestine Exploration Quarterly, 79 (1947): 26.

Kirkbride, D., "The Neolithic in the Wadi Rumm: Ain Abu Nekheileh". 1-10. in; Archaeology in- ١٠.
the Levant, Essays for Kathleen Kenyon. edited by Roger Moory and Peter Parr, Warminster: Aris and Philips Ltd.

Kirkbride, D., "Five Seasons at the Neolithic Village of Beidha in Jordan". Palestine Exploration- ١١
Quarterly 1966 (98): 56

Henry, D., "Summary of Prehistoric and Palaeoenvironmental Research in the Northern Hisma".- ١٢
in: Garrard, A., and G. Gebel,H. G., (eds.). The Prehistory of Jordan. 1986. BAR, Intrnational Series, 396: 32. 1988

Raikes, T. D., "Note on Some Neolithic and Later Sites in Wadi Araba and the Dead Sea -١٣
Valley. Levant, 1980, XII: 40-60.

Bennet, C. M. "Soundings at Dhra; Jordan."Levant 1980: 39 -١٤

Macdonald, B., "The Wadi el Hasa Survey, 1980, A Preliminary Report". Annual of the- ١٥
Department of Antiquities of Jordan 24 (1980): 169-183.

Clarck, G. A., Lindly, J. M., Donaldson, M., Garrard, A., Coinman, N. R., Schuldenrein, J., Fish S., S., & Olszewsk, D. "Paleolithic Archaeology in Southern Levant: A Preliminary Report of Excavations at Middle, Upper & Epi-Paleolithic Sites in Wadi el Hasa West-Central Jordan". Annual of the Department of Antiquities of Jordan, 1987, 31: 19-78.

Clarck, G. A, Majchrowicz, D. and Coinman, N. "A Typological Study of Upper Palaeolithic وانظر
Collections from the Wadi al-Hasa Survey with Observations on Adjacent Time-Stratigraphic Units. 87-127 in B. Macdonald (ed.), The Wadi al-Hasa Archaeological Survey (1979-1983), West Central Jordan Waterloo. Wilfridlaurier University Press 1988.

Clarck, G. A., Neely, M. P., Macdonald, B., Schuldenrein, J., & Amre, K. "Wadi al Hasa وانظر
Paleolithic Project 1992: Preliminary Report. "Annual of the Department of Antiquities of Jordan, 1992, 36: 13-23.

Gebel, H. G. "Late Epipalaeolithic-Aceramic Neolithic Sites in Petra". in Garrard, A & Gebel, -١٦
H. G. (eds.)The Prehistory of Jordan, 1986. BAR International Series 396 (i) (1988): 67-100.

Gebel, G., & Strack, J. M., "Investigations in to The Stone Age of The Petra Area (Early وانظر
Holocene Research). A Preliminary Report on the 1984 Campaigns". Annual of the Department of

Antiquities of Jordan, 1985, 29: 89-114

Bennet, C. M., "Soundings" Levant, 1980, 12: 39. -١٧

Henry, D."The Prehistory & Paleoenvironment of Jordan: an Overview". Paléorient 1986, 12/2: 20.

Gebel, H. G., "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 78.

Kirkbride, D., "The Neolithic". Archaeology in the Levant. 1978: 8-9. -١٨

Gebel, H. G., "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 78 -١٩

Henry, D., "Summary of Prehistoric and Palaeoenvironmental Research in the Northern Hisma". -٢٠
in: Garrard, A., and Gebel, H.G., (eds.). The Prehistory of Jordan. BAR, IS, 396 (1988): 32.

Raikes, T. D. "Note on Some Neolithic and Later Site in Wadi Araba and the Dead Sea Valley".-٢١
Levant, 1980, 12: 40-60.

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 4. -٢٢

Gebel, H. G., "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 83. -٢٣

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966,98: 47. -٢٤

Kirkbride, D., "Beidha 1965: An Interim Report". PEQ, 1967, 99: 12. -٢٥

Gebel, H. G., Muheisen, M., & Nissen, H., "Preliminary Report on The First Season of -٢٦
Excavations at Basta" In Garrard, A. and Gebel, H. (eds.). The Prehistory of Jordan. 1986.BAR IS 396 (i) 1988 :131.

Kirkbride, D., "The Neolithic". Archaeoloy in the Levant 1978: 9 -٢٧

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ ,1966,98: 19, pl.XA. -٢٨

Gebel et al "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 81-86. -٢٩

Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: 8. -٣٠

Kirkbride, D., "Seyl Aqlat, Beidha, Près de Petra". Revue Biblique, 1963, 72: 252. -٣١

Kirkbride, D., "Beidha: Early Neolithic Village, Life Southe of the Dead Sea". Antiquity, XLII ,-٣٢
(1968b): p. 266.

٣٣- عابد، عبد القادر "جيولوجيا الاردن". منشورات مكتبة النهضة الاسلامية. عمان-الاردن. ١٩٨٢. ص. ١٨٠.

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966,98: 22-23. ٢٤-

Kirkbride, D., Ibid : 23. ٢٥-

Kirkbride, D., Ibid : 6. ٢٦-

Kirkbride, D., "The Neolithic". The Archaeology in the Levant. 1978: 8. ٢٧-

Cauvin, J., "Les Premiers Villages de Syrie-Palestine de IXème au VIIème Millénaire avant J. C." Lyon. Maison de L' Orient.: 38-43. ٢٨-

Goring-Morris, A. N., "From Foraging to Herding in the Negev and Sinai: The Early to Late Neolithic Transition". Paléorient, 1993, 19/1: 68. ٢٩-

Waechter, J., and Seton-Williams, V., "The Excavations at Wadi Dhobai 1937-1938 and the Dhobanian Industry". Journal of the Palestine Oriental Society, 18 (1938): 172-186. ٤٠-

Kirkbride, D., "Beidha. 1965". PEQ, 1967, 99: 8. ٤١-

Kirkbride, D., "Beidha. An Early Neolithic Village. Jordan". Archaeology, 1966, 19: 201. ٤٢-

Kirkbride, D., "The Neolithic". The Archaeology in the Levant. 1978: 8-9. ٤٣-

Gebel, H. G., and Starck, J. M.,"Investigations". ADAJ, 1985, 29: 97. ٤٤-

Rollefson, G., and Kafafi, Z., "Khirbet Hammam: A PPNB Village in the Wadi el Hasa, Southern Jordan". Bulletin of the American Schools of Oriental Research 1985, 258: 66. ٤٥-

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 55. ٤٦-

Gebel, H. G., "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 81

Kirkbride, D., "Beidha. 1965". PEQ, 1967, 99: 203-204. ٤٧-

Rollefson, G., Simmons, A., and Kafafi, Z., " Neolithic Cultures at Ain Ghazal, Jordan". Journal of Field Archaeology, 1992, 19: 50. ٤٨-

Nissen, H., Muheisen, M., and Gebel, H. G., "Report on the Excavation at Basta 1988". Annual of the Department of Antiquities of Jordan, 35 (1991): Pp. 15-16. fig. I. ٤٩-

٥٠- محيسن، مجاهد و نيسن هانز الموسم الرابع للحفريات الاثرية في بسطه ١٩٨٩". أنباء المعهد ٧-٨ (١٩٨٩): ٩-١٠.

Nissen et al., ibid. ADAJ, 1991, 35: 15-16. ٥١-

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 12. fig. 2. ٥٢-

Kirkbride, D., "Beidha. 1965". PEQ, 1967, 99: 7. fig. 8.

Kirkbride, D., "Seyl Aqlat, Beidha". Revue Biblique, 1962, 69: 89. ٥٢-

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: pl. VIIIa ٥٤-

Kirkbride, D., Ibid : 12. fig. 2. ٥٥-

Kirkbride, D., "The Neolithic". Archaeology in the Levant. 1978: 6. pl. 1b. ٥٦-

Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: 8. pl. III A. ٥٧-

Nissen, H., Muheisen, M., and Gebel, H. G., "Report on the First Two Seasons of ٥٨-
Excavations at Basta 1986-1987". ADAJ, 1987, 31: 93.. fig. 8b.

Nissen et al., "Report on the Excavation". ADAJ, 1991, 35: pl 42. fig. 1. ٥٩-

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 21. ٦٠-

Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: pl. IIIA.

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98:16. ٦١-

Kirkbride, D., Ibid: 16. ٦٢-

Kirkbride, D., Ibid : 12. fig. 2. ٦٣-

Kirkbride, D., "Beidha". Archaeology, 1966, 19: 202.

Kirkbride, D., "Excavation of the Pre-Pottery Neolithic at Seyl Aqlat, Beidha". Annual of the ٦٤-
Department of Antiquities of Jordan, 1962, 6-7: 11.

Kirkbride, D., "Beidha". Archaeology, 1966, 19: 199, 201. ٦٥-

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 14. pl. Va. ٦٦-

Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: 6. pl. IB. ٦٧-

Kirkbride, D., "Beidha Près de Petra". Revue Biblique, 1966, 73: 554-555. ٦٨-

Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: 6. pl. IA. ٦٩-

Kirkbride, D., "Beidha 1967: An Interim Report". PEQ, 1968, 100: 92. pl. XXIIIA.

Nissen et al.. "Report on the Excavation". ADAJ, 1991, 35: 16. fig. 1 ٧٠-

Kirkbride, D., "Seyl Aqlat, Beidha". Revue Biblique, 1964, 71: 249. ٧١-

Nissen et al.. "Report on the First Two Seasons". ADAJ, 1987, 31: 93. fig. 7. ٧٢-

Nissen et al ., "Report on the Excavation". ADAJ , 1991, 35: 16. fig. 1. -٧٣

Kirkbride, D., "The Excavation of a Neolithic Village at Seyl Aqlat near Petra". Palestine -٧٤
Exploration Quarterly, 1960, 92: pl. XXVIA.
Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ , 1966, 98: 15. pl. IIB.

Nissen et al ., "Report on the Excavation". ADAJ , 1991, 35: 15-16. fig. 1. -٧٥

Nissen et al ., "Report on the First Two Seasons". ADAJ , 1987, 31: 91-93. fig. 7. -٧٦

Nissen et al , Ibid: 93. fig. 8. -٧٧

Nissen et al ., Ibid, pl. IV:2. -٧٨

Nissen et al ., Ibid: 94. fig. 8. -٧٩
Nissen et al ., "Report on the Excavation". ADAJ , 1991, 35: 36. pl. II2.

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ , 1966, 98: 15. -٨٠

Kirkbride, D., "A Short Account of the Excavations at Petra in 1955-56" ADAJ , 1960, 4-5: 139. -٨١
Kirkbride, D., "Seyl Aqlat". Revue Biblique , 1960, 67: 238.

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ , 1966, 98: 23. -٨٢

Kirkbride, D., "Seyl Aqlat, Beidha". Revue Biblique , 1962b, 69: 89. -٨٣

Rollefson, G., and Kafafi, Z., Ibid: 66. -٨٤

Gebel, H. G., "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 86. -٨٥

Gebel et al ., "Report on the First Season". The Prehistory of Jordan. 1988: 109-110. -٨٦

Kirkbride, D. "Beidha 1967". PEQ, , 1968, 100: 93 -٨٧

Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ , 1967, 99: 9. -٨٨

Kirkbride, D., "Beidha 1967". PEQ , 1968,100: 95. -٨٩

Kirkbride, D., "The Neolithic". Archaeology in the Levant. 1978: 2. -٩٠

Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ , 1968, 100: 92. -٩١

Nissen et al ., "Report on the First Two Seasons". ADAJ, 1987, 31: 88-89. -٩٢

Kirkbride, D., "Beidha". Revue Biblique , 1966, 73: 552. -٩٣

معطيات جديدة عـن دمشق
في منتصـف القـرن السـادس عشـر
(وقفيـة أحمـد باشـا)

د. محمـد م. الارناؤوط

جامعـة آل البيـت

يتميز القرن السادس عشر بأهمية خاصة بالنسبة لدمشق وبلاد الشام بشكل عام . ففي مطلع هذاالقرن (١٥١٦) انهار الحكم المملوكي في بلاد الشام أمام الجيش العثماني وأصبحت بلاد الشام في اطار دولة عالمية كبرى تمتد من حدود المجر الى حدود اليمن بعد ان كانت في اطار دولة اقليمية (الدولة المملوكية) . وقد تزامن القرن السادس عشر مع التوسعات والانتصارات التي وصلت فيها الدولة العثمانية الى ذروتها ، مما انعكس أيضا على الولايات الاخرى وخاصة دمشق وبلاد الشام بغامةلما أصبحت تعنيه بالنسبة للدولة العثمانية بسبب الاهمية المتزايدة لقافلة الحج الشامي وللموارد الاقتصادية التي موّلت فتوحها بها ، وهكذا فقد تجسد هذا الاهتمام المتزايد بدمشق وبلاد الشام بقيام السلاطين (سليم الاول ، سليمان القانوني) والولاة الكبار مثل (أحمد باشا مصطفى باشا ، مراد باشا ، سنان باشا ، وغيرهم) ببناء المنشآت الاقتصادية والاجتماعية الثقافية المختلفة التيأدت الى بروز ملامح جديدة لدمشق في القرن السادس عشر . ويأتي هذا البحث ليكشف بعض المعطيات الجديدة عن دمشق في منتصف القرن السادس عشر بالاستناد الى وقفية مهمة عثرنا عليها مؤخرا .

مقدمـة :

شهدت دمشق في القرن الاول في الحكم العثماني تطورا عمرانيا ملحوظا يتمثل في سلسلة من المنشآت الدينية والاقتصادية والاجتماعية الكبيرة التي اعطت المدينة ملامح جديدة سواء لجهة الطابع المعماري الجديد (العثماني) أو لجهة التوسعالعمراني للمدينة باتجاه الجنوب ــ طريق الحج، وهو ما كان يعكس الاهمية المتزايدة لدمشق كمركز لتجمع وانطلاق قافلة الحج التي أصبحت تعني الكثير سواء بالنسبة الى دمشق

دراسـات تاريخيـة ، العددان ٥١ / ٥٢ ، كانون الثاني ــ نيسان ١٩٩٥

أو للدولة العثمانية(١) . ويلاحظ هنا أن هذا التطور العمراني قد ارتبط بأبرز السلاطين (السلطان سليم الاول ١٥١٢ ــ ١٥٢٠ والسلطان سليمان القانوني ١٥٢٠ــ ١٥٦٦) وكبار الوزراء المقربين منهم الذين خدموا كولاة بدمشق في ذلك القرن (لطفي باشا ، أحمد باشا ، مصطفى باشا ، مراد باشا ، سنان باشا وغيرهم) . وفي هذا الاطار يلاحظ أن المنشآت السلطانية ، سواء تلك التي تعود الى السلطان سليم الاول (جامع الشيخ محي الدين والتكية السليمية)(٢) أو الى السلطان سليمان القانوني (المدرسة والتكية السليمانية)(٣) ، إنما بنيت خارج أسوار مدينة دمشق المعروفة في ذلك الوقت بينما قام ولاة دمشق ببناء منشأتهم داخل مدينة دمشق أو في أطرافها ، ولذلك يعود اليهم الفضل في التطور العمراني الجديد لدمشق(٤) .

وهكذا اذا استثنينا المنشآت السلطانية الكبيرة المبنية خارج دمشق والترميمات الحاصلة داخل دمشق ، بالاضافة الى المنشآت المفردة (قبة ، ضريح ، مدرسة ، حمام ، مسجد) ، نجد أن أول تطور عمراني يلفت الانتباه في دمشق ، يرتبط باسم الوالي أحمد باشا ، الذي بنى مجموعة من المنشآت الدينية والاقتصادية والاجتماعية (سوق ، خان ، جامع ، مدرسة ، خانقاه وتكية) . وعلى الرغم من الفترة الطويلة نسبيا التي قضاها هذا الوالي في دمشق، والمعاملة الحسنة التي قربته من الدمشقيين، والسمعة الجيدة له كشاعر على مستوى الدولة العثمانية ، والمنشآت المهمة التي بناها في دمشق ، إلا ان الباحثين الرواد (كرد علي ، المنجد ، طلس) اكتفوا باشارات عابرة أو عامة عن كل ذلك ،وكررالباحثون اللاحقون (ريحاوي ، نعيسة ، علبي وغيرهم) تلك الاشارات مع ما فيها من اختزال وتناقض أحيانا ، دون أن يضيفوا شيئا يذكر اليها . والاستثناء الوحيد هنا نجده لدى الباحث الفرنسي جان بول باسكوال J.P. Pascual في كتابه المهم عن تطور دمشق في نهاية القرن السادس عشر ، حيث قدم معلومة جديدة تتعلق بالسوق الذي أنشأه أحمد باشا(٥). وفي الواقع لقد اصبح في الامكان الان ، بعد أن عثرنا اخيرا على وقفية احمد باشا ، أن نطرح بعض المعطيات الجديدة عن تطور دمشق العمراني في منتصف القرن السادس عشر . ومع هذه الوقفية المكتشفة لدينا حالة اخرى تؤكد مدى أهمية الوقفيات ، والوثائق الوقفية بشكل عام ، في التعرف على التاريخ العمراني والاقتصادي والاجتماعي للمنطقة خلال الحكم العثماني(٦) .

الواقف ــ الوالي احمد باشا :

ينحدر الواقف من أسرة اسفنديار العريقة التي كانت تحكم واحدة من الامارات التركية في الأناضول (قسطموني) التي ضمتها اليها الدولة العثمانية بالتدريج ، مع

ان هناك من ينسبه الى أصل عربي قديم ينتهي الى خالد بن الوليد(٧) . وبعبارة أخرى كان الواقف من بقايا النبالة التركية القديمة التي اندثرت بالتدريج خلال القرنين ١٥–١٦ مع تشكل نخبة حاكمة جديدة من ابناء الدفشرمة(٨) . وقد التحق منذ طفولته بخدمة السلطان سليم الاول (١٥١٢ – ١٥٢٠) حيث تدرج في المناصب من أوجي باشي وبلوك آغاسي الى ان اصبح آغا السباهية ، وتولى في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦) عدة ولايات في الشام والاناضول والروملي ، واصبح وزيرا ومصاحبا للسلطان سليم الثاني (١٥٦٦ – ١٥٧٤) مستشارا ومصاحبا للسلطان مراد الثالث (١٥٧٤–١٥٩٥) ، الى أن توفي في سنة ٩٨٨هـ (تبدأ في ١٧ شباط ١٥٨٠م) ودفن في اسكدار باستنبول في جوار الجامع والمدرسة اللذين بناهما هناك . وخلال هذه السنوات اشتهر أحمد باشا كشاعر مجيد وخاصة بديوانه « عنوان السعادة » ، كما يقال بأنه قد ترجم شعرا كتاب « الوقاية في فقه الامام الاعظم ابي حنيفة » من العربية الى التركية (٩) . وقد اتخذ أحمد باشا على عادة الشعراء الاتراك في ذلك الوقت لقباً شعرياً هو « شمسي »، ولذلك فقد أصبح اسمه يرد مركباً « أحمد شمسي باشا » لتمييزه عن الولاة الآخرين الذين حكموا دمشق وحملوا الاسم ذاته – أحمد باشا(١٠) .

وفيما يتعلق بولايته على الشام لدينا اختلاف في المصادر حول السنة التي جاء بها الى دمشق والفترة التي قضاها في الولاية. فالمؤرخ الدمشقي المعاصر البوريني لم يحدد في ترجمته السنة التي وصل فيها الى دمشق إلا انه اكتفى بالقول انه «طالت مدته بدمشق »(١١) . وبعد حوالي قرن من الزمن نجد محمد بن جمعة المقار يذكر في مؤلفه « الباشات والقضاة بدمشق المحمية » ان أحمد باشا تولى سنة ٩٥٩ هـ (تبدأ في ٢٩ كانون الاول ١٥٥١م) بعد الوالي محمد باشا وبقي فيها أربع سنوات ، وبالتحديد حتى سنة ٩٦٢ هـ (تبدأ في ٢٦ تشرين الثاني ١٥٥٤ م) حين جاءها الوالي الجديد خضر باشا(١٢) . أما في « سالنامة ولاية سورية » الصادرة في ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٦ م فيضطرب الوضع نظراً لأن فترة الوالي محمد باشا المذكور تمتد خلال ٩٥٨ – ٩٦٢ هـ ، وفترة الوالي أحمد باشا تستمر خلال ٩٦٢ – ٩٦٨هـ وتحدد بدقة (٦ سنوات وشهران و٢٤ يوماً) ، بينما تقتصر فترة الوالي اللاحق خضر باشا على سنة واحدة ٩٦٨ – ٩٦٩هـ (١٣) . وبعد عدة سنوات من صدور السالنامة نجد أن المؤرخ محمد ثريا في كتابه المرجعي « سجل عثماني » الصادر في سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٥ م يحدد الفترة التي قضاها أحمد باشا في ولاية الشام خلال ٩٥٨–٩٦٢ هـ(١٤)، وهي ما سنأخذ بها هنا .

ومن بين هؤلاء ينفرد البوريني المعاصر بتقديم بعض المعطيات المهمة عن السنوات

التي قضاها أحمد باشا في دمشق . وهكذا بعد أن يبرز مكانته الشعرية بكونه « من محاسن شعراء الروم ، وله ديوان شعر مشهور بينهم يتداولونه ويحفظونه » يذكر أنه « جاء الى دمشق وسار في الناس سيرة حسنة ، وكان كريم الطباع ، قليل الضرر ،كثيرالنفع للرعايا والاتباع » ، حتى يصل به القول الى أنه كان من الذين يفتخر بهم الزمان (١٥) . ومن ناحية أخرى يشير البوريني الى ما بناه أحمد باشا قبالة قلعة دمشق (الخانقاه) حيث يعتبر ذلك « من محاسن دمشق الجديدة » ، دون تفاصيل أخرى عن تلك المنشأة(١٦) .

الوقف ـ منشآت أحمد باشا :

على عادة الولاة الكبار في القرن السادس عشر أنشأ أحمد باشا وقفاً ضخماً في دمشق تتضمن منشآت دينية واقتصادية واجتماعية ، وفي الحقيقة لقد كان عصب الوقف يتمثل في المدرسة ـ الخانقاه التي بناها في الطرف الغربي لدمشق ، والتي الحق بها تكية لتقديم الوجبات المجانية ، لأجل تغطية مصاريف هذه المنشآت بنى أحمد باشا بالقرب منها خاناً كبيراً (خان الجوخية) وأنشأ سوقاً مهماً في الجوار (سوق السيباهية ـ الأروام) . ونظراً لأهمية هذه المنشآت في تطور دمشق العمراني فنركز بالتفصيل كل واحدة منها :

١ ـ جامع ومدرسة وخانقاه وتكية الاحمدية :

تتردد في المصادر المعاصرة ، وفي المراجع الحديثة التي تعتمد عليها تعابير مختلفة للاشارة الى ما بناه أحمد باشا في دمشق . وهكذا نجد أن البوريني المعاصر يتحدث عن « خانقاه » أحمد باشا(١٧) بينما ترد هذه لدى ابن كنان اللاحق باسم « الخانقاه الأحمدية»)١٨(، ثم نجد بين الباحثين المتأخرين من يختزل ذلك باسم « جامع الأحمدية »(١٩) «ومدرسة أحمد باشا»(٢٠) «وتكية أحمد باشا »(٢١)الخ. وفي الحقيقة ان كل هذه التعابير تتعلق بأقسام لمنشأة واحدة . وفي هذه الحالة تمثل لنا الوقفية أفضل مصدر للتعرف على هذه المنشأة من الداخل ، وبالتحديد على الهدف الذي أقيمت له وحتى على التفاصيل العمرانية التي يندر أن نجدها في أي مصدر آخر . وهكذا بالاستناد الى الوقفية الملحقة يتضح أن المنشأة الضخمة التي أقامها أحمد باشا داخل السور الجنوبي لقلعة دمشق كانت تتألف من أربعة أقسام متباينة :

آ ـ « مسجد » في الطرف الشمالي الشرقي « يصلى فيه الأوقات الخمسة الصلوات المفروضات وسننها ، ويقام فيه الذكر والعبادات « .

ب ــ « مكتب للاولاد الواردين لتعلم القرآن » في الطرف الشمالي الغربي .

جـ ــ خانقاه في الطرف الجنوبي تتألف من عشر حجرات بالاضافة الى خمس حجرات في الطرف الشمالي لـ « يسكن فيها الرجال الآفاقية المتجردين لطلب العلم الشريف على مذهب.. أبي حنيفة النعمان ».

د ــ « مطبخ » في الطرف الشرقي « يطبخ فيه الطعام ويفرق » على النازلين في الحجرات (الخانقاه) وعلى الفقراء الواردين .

ويلاحظ هنا أن الوقفية ، كأية وقفية ، تحفل بالتفاصيل التي تتعلق بتحديد الموقع أو بالحدود الاربع . وهكذا تحدد الوقفية موقع هذا البناء المتعدد الأغراض في « مدينة دمشق المحروسة داخل باب النصر ، بالقرب من المدرسة القجماسية ، تجاه القلعة المنصورة من جهة الغرب » ، كما تذكر لاحقا الحدود الاربع له حيث يجاوره من جهة الشرق «دار أصلان بك »، ومن جهة الجنوب « دار بيري جلبي وبيت أصلان بك المشار اليه » ، بينما يحده من جهة الشمال الطريق الافقي الفاصل بينه وبين القلعة ، وكذلك الامر من جهة الغرب . وفي الحقيقة ان هذه الجهة (الغربية) تهمنا بشكل خاص ، اذ يبدو أنه لم يكن فيها شيء يستحق الذكر في ذلك الوقت ، ولذلك اكتفت الوقفية بذكر « الطريق » . كما أن الوقفية حين حاولت تحديد الموقع لم تجد في الجوار معلماً يستحق الذكر سوى « المدرسة القجماسية » التي كانت تقع الى الشمال الغربي من البناء الذياقامه أحمد باشا . وبعبارة اخرى أن هذا ينسجم مع تصور كارل ولتسينجر وكارل واتسينجر (اللذان لم يطلعا على الوقفية بطبيعة الحال) لسور دمشق في هذه النقطة حيث يبدو في المخطط الذي وضعاه لدمشق في ١٩١٧ هذا البناء المتعدد الاغراض في طريق دمشق الغربي المواجهة للقلعة ، حيث يمتد السور باتجاه الجنوب(٢٢) . ومما يؤكد ذلك ان الواقف قد اختار لاحقاً هذه الجهة (الغربية) لبناء السوق المهم (سوق السيباهية أو الاروام) ، وهو ما جعل دمشق تمتد الآن باتجاه الغرب في هذه النقطة حتى تتوازى تقريباً مع نهاية القلعة باتجاه الغرب .

من ناحية اخرى تحفل الوقفية بتفاصيل اخرى تتعلق بالاقسام المختلفة لهذه المنشأة . فقد عين الواقف إماماً ومؤذناً وخطيباً وفراشاً للجامع المذكور ، كما عين معلما ومعيدا للمدرسة المذكورة . اما فيما يتعلق بالخانقاه المؤلفة من خمس عشرة حجرة فيلاحظ أنها لم تكن من النوع الذي شاع في الاذهان . فالوقفية تذكر بوضوح

ان الحجرات المذكورة معدة لاقامة الاشخاص الوافدين الى دمشق لدراسة الفقه الحنفي ، وان هؤلاء كان عليهم « الاجتماع في أوقات الصلاة بالمسجد المشار اليه أعلاه والصلاة به خلف الامام مع الجماعة . وتعلم العلم (الفقه) والأدب من الشيخ المشار إليه ، وطريق الذكر والعبادات وما يتقربون اليه الى الله تعالى » وفيما يتعلق بـ «التكية» تجدر الاشارة هنا الى أن هذا التعبير المحلي الدمشقي قد استعمله ابن طولون لأول مرة في وصف « العمارة » التي بناها السلطان سليم الاول في قرية الصالحية بجوار الجامع الذي أنشأه هناك(٢٣) ، والتي كانت مفخرة حضارية للعثمانيين في المناطق التي حكموها(٢٤) . ففي كل مدينة أقيمت « عمارة » أو أكثر لتقديم الوجبات المجانية للطلاب والفقراء وأبناء السبيل ، حيث كانت تتألف الوجبة من رغيف وصحن من الشوربة وقطعة لحم حسب المقدار الذي يحدده الوقف(٢٥) . وفي هذه الحالة نجد أن الوقفية تحدد للتكية توزيع « رغيف خبز وقطعة لحم ومغرفة من الطعام » على العاملين فيها (الطباخ والبواب وغيرهم) وعلى النازلين في « الخانقاه » وعلى « الفقراء الواردين » الى هذه التكية من سكان دمشق .

وتجدر الاشارة هنا الى أن هذه المنشأة العمرانية الجديدة التي اقامها احمد باشا أصبحت تعتبر « من محاسن دمشق » منذ ذلك الوقت ، وذلك على حد تعبير المؤرخ المعاصر البوريني الذي رآها « على وضع لطيف » وخاصة بما تميزت به من « بركة عظيمة وبستان لطيف واقع في وسطها »(٢٦) . ومن المثير هنا أن البوريني كان أول من أطلق على هذه المنشأة المتعددة الاغراض اسم « الخانقاه » ، مع انها ليست كذلك ، وتابعه في ذلك المؤرخ ابن كنان (توفي ١١٥١هـ / ١٧٣٨) الذي أوردها باسم « الخانقاه الاحمدية »(٢٧) . بينما أطلق المؤرخ المعاصر المحبي (توفي ١٠٨٢هـ/١٦٧١م) تعبير « التكية » تارة وتعبير « العمارة » تارة أخرى على هذه المنشأة(٢٨) . ويبدو أن الجامع المذكور في اطار هذه المنشأة العمرانية ، الذي اصبح يسمى « جامع الاحمدية» قد تعرض الى ترميم في ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م كما ذكر الباحثان الالمانيان ولستينجر وواتسينسجر اللذان زاراه في مطلع القرن العشرين (١٩١٧)(٢٩) . وقد أضاف الباحثان جملة تفيد أن هذا الجامع « قد تحول الى مطبخ عسكري خلال الحرب العالمية الاولى »(٣٠) ، ولعل هذا يشير الى » التكية » التي انشئت في الاصل ضمن هذه المنشأة والتي تشير اليها الوقفية بتعبير « المطبخ » . وفي ذلك الوقت (١٩٢٥) كان قد صدر بدمشق كتاب « خطط الشام » لمحمد كرد علي الذي تحدث فيه عن بعض « المدارس المندثرة » في دمشق كـ « مدرسة أحمد شمسي باشا » وغيرها(٣١) ، بينما كانت هذه المدرسة لا تزال قائمة ضمن المنشأة المذكورة . وهكذا فقد عاصر المدرسة في أيامها الاخيرة (١٩٤١) الباحث محمد أسعد طلس ، الذي وصفها بأنها « مدرسة عظيمة لها باب بقنطرة من الحجر الاسود والابيض ، مزخرفة على النمط التركي ،

ولكنهاشوهت اليوم بالاصبغة »(٣٢) . وبالاضافة الى هذا فقد وجد طلس في «الخانقاه» عشرين غرفة للمجاورين ، بينما كان في الاصل خمس عشرة غرفة ، ولكنه لم يشر بشيء الى « التكية » . ومن المثير هنا أن هذه المنشأة التي تعود الى السنوات الاولى للحكم العثماني هدمت بعد عدة شهور (١٩٤٢) مـن زيارة طلس وتوثيقه لما رآه ، دون أي اعتبار لقيمتها الاثرية ، حيث أقامت دائرة الاوقـاف جامعا عاديا لا يمت للأصل إلا بالاسم ـ « جامع الاحمدية »(٣٣) .

٢ ـ خان الجوخية (خان الخياطين) :

ان أي وقف خيري من هذا النوع يحتاج الى دخل دائم لتغطية النفقات المختلفة (مستحقات العاملين ، مستحضرات الوجبات المجانية اليومية ، الترميم الخ) ، ولذلك فقد كان الواقف يلجأ عادة الى انشاء خانات وأسواق تؤمن باستثمارها الدخل الدائم لمثل هذا الوقف . وهكذا فقد عمد أحمد باشا أيضا الى انشاء خان عرف حينئذ باسم « خان الجوخ » أو « خان الجوخية » نظرا لموقعه فيما كان يعرف وقتئذ بـ « سـوق الجوخ »(٣٤) ، بينما أصبح يعرف في نهايـة العهد العثماني باسم « خـان الخياطين » بعد أن تغير اسم السـوق الى « سوق الخياطين »(٣٥) . ويتمتع هـذا الخـان ، الذي لا يزال موجودا ، بقيمة تاريخية اذ أنه أول خان عثماني بني في دمشق . وفيما يتعلق بهذا الخان تفيدنا الوقفية الملحقة بمعطيات جديدة عنه . وهكذا تشير الوقفية بوضوح الى أن هذا الخان ، القاسارية كما تسميه بالعرف الشائع عند الدمشـقيين في ذلك الوقت ، كان يعرف في السابق بـ « العشر » ثم تعرض الـى تجديـد وتوسيع حتى أصبح يعرف بالواقف المومى اليه وبانشائه . وتضيف الوقفية هنا التفاصيل المعمارية للخان كما أصبح عليه الان ، اذ أصبح يتألف من طابقين ، وبالتحديد من « أرضيـة مبلطة بالبلاط الاسود بوسطها بركة يجري اليها الماء من نهر القنوات » ، و « مخازن سفلية مستديرة بها بكل واحد منها باب خاص يفتح على ساحة القاسارية المذكورة وشباك حديد لطيف مطل الى أرض القاسارية » ، و « مخازن علوية مستديرة بها .. بكل واحد باب خاص وشباك لطيف بحديد » . وقد اهتم بهذا الخان خلال الستينات الباحث عبد القادر ريحاوي ، ضمن دراسته عن خانات دمشق ، ووثق لحسن الحظ الواجهة الحجرية الأصلية لهذا الخان بما في ذلك النقش المثبت على الباب الذي يحدد تاريخ بنائه سنة : ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م(٣٦) .

٣ ـ سوق السيباهية (سوق الاروام) :

بالمقارنة مع المجمع العمراني (الجامع والمدرسة والخانقـاه والتكيـة) والخان اللذين بنيا خلال وجود أحمد باشا في دمشق كوالٍ على الشـام (٩٥٨ ـ ٩٦٢ هـ /

١٥٥١ ــ ١٥٥٥م) ، نجد أن هذا المجمع التجاري المهم (سوق السيباهية أو سوق الاروام) قد بني في وقت لاحق . فقد ضم هذا المجمع كملحق الى الوقفية التي بين ايدينا والتي تعود الى سنة ٩٨٣هـ / ١٥٧٤م ، أي في الوقت الذي كان فيه الواقف قد عاد الى استنبول ليستقر فيها بعد أن تنقل في أكثر من ولاية . وفي الحقيقة تعتبر الوقفية الملحقة مصدرا مهما لانها تكشف عن عدة تفاصيل مهمة بالنسبة الى تطور هذه المساحة من دمشق ، بعد ان انتقلت منها « دار السعادة » الموروثة من العهد المملوكي وأصبحت تضم الان دكاكين السوق الجديد (السيباهية) الذي ستأخذ شكله الحالي (الحميدية) لاحقاً . وهكذا تمثل لنا الوقفية المصدر الوحيد الذي يسمح بما يتضمنه من تفاصيل مثيرة باعادة تصور هذا السوق الجديد . فقد كان هذا السوق أو المجمع التجاري على شكل مربع تتوسطه « ساحة سماوية لطيفة بها بحرة ماء مثمنة يجري اليها الماء من نهر بانياس » ، تمتد حولها « بالجهات الاربع حوانيت عدتها ثمانية وثلاثون حانوتا : وفي الجانب الشرقي سبعة عشر ، وفي الجانب الشرقي أربعة ، وفي الجانب الغربي ستة ، وفي الجانب الجنوبي عشرة . وبالاضافة الى ذلك فقد كان في الجانب الغربي مسجد و « مكان معد لطبخ القهوة »، أي ما يمكن أن نعتبره أقدم مقهى معروف في دمشق (٣٧) . ومن ناحية أخرى تكشف لنا الوقفية عن وجود « طريق عام يشق السوق من الشرق الى الغرب » ويفصل معه الجانب الشمالي عن الجانب الجنوبي ، الا أنه كانت له بوابة في كل طرف مما كان يحفظ للسوق وحدته .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن الوقفية تثير بعض القضايا لدى تحديدها الجهات الأربع لهذا السوق ، فهي تذكر أن خندق القلعة كان يشكل الحد الشمالي ، أي أن الجانب الشمالي من هذا السوق (١٧ حانوت) كان لا يفصله عن السور الغربي للقلعة الا الخندق المشار اليه ، والذي توثق الوقفية وجوده حتى ذلك الحين . ومن ناحية اخرى تشير الوقفية الى السوق المجاور من الشرق (سوق لا لا مصطفى باشا) الذي كان قد بني في ذلك الوقت أيضا(٣٨) ، بينما يذكر أن الحد الغربي للسوق كان يتمثل في « الدخلة الآخذة الى (المدرسة) القجماسية » ، أي أن المدرسة القجماسية كانت توجد الى الغرب من السوق(٣٩) . وبالنسبة الى الحد الجنوبي لدينا معلومة تشير الى وجود خان آخرانشأه وكيل الوقف « حضرة مولانا مثلا آغا » ، ولا زال تنقصنا المعطيات عنه .

ومع أن الوقفية تنسب هذا السوق الى الواقف ، دون أن تسميه باسم معين ، الا انه في نهاية القرن السادس عشر كان قد اشتهر باسم « سوق الاسباهية » . وهكذا نجد أن وقفية سنان باشا الموثقة في سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٦م تشير الى تجديد سنان باشا للمسجد الموجود في « السوق المعروف بسيباهي بازراي »(٤٠) . وفي الوقت

نفسه نجد أن المؤلف الدمشقي المعاصر موسى الانصاري (توفي بعد ٩٤٦هـ/١٠٠٢م) حين يتحدث عن أحمد باشا يذكر أنه « عمر السوق المعروف بسوق الاسباهية تجاه القلعة قبلها » (٤١) . ولكن في نهاية القرن اللاحق (السابع عشر) اخذ هذا السوق يحمل اسماً آخر ـ « سوق الاروام » . فقد ذكره بهذا الاسم (سوق الاروام) المحبي في معرض حديثه عن الوالي أحمد باشا(٤٢) .

ومن المثير ان المؤرخ الدمشقي ابن كنان كان قد ذكر في مسودته الاولى لـ « المواكب الاسلامية » التي انجزها في سنة ١١٢٧ هـ / ١٧١٤م « باب النصر » ضمن حديثه عن ابواب دمشق ، بينما أضاف في النسخة المصححة التي أنجزها في ١١٥٢ هـ /١٧٣٨ عبارة « باب سوق الاروام الآن »(٤٣) مما يوحي بشهرة السوق في ذلك الوقت ومما يؤكد ذلك أن البديري الحلاق قد ذكره أيضا بهذا الاسم (سوق الاروام) في حوادث سنة ١١٦٥هـ/١٧٥١(٤٤) . ومع هذا فقد بقيت المصادر خلال القرن الثامن عشر تشير أحيانا الى هذا السوق باسم مركب يجمع بين القديم والحديث « سوق السباهية والاروام لآ(٤٥) ، بينما تلاشى الاسم القديم وبقي الاسم الجديد للسوق خلال القرن التاسع عشر . وحين زاره الباحثان واتسينجر وولستسينجر في أوائل القرن العشرين (١٩١٧) وجداه بسقف حديث العهد ، وفي حالة متهدمة الا انه مع ذلك كان يقوم بالخدمات(٤٦) . وقد ادخلت بعض التعديلات ـ الترميمات على هذا السوق بعد نهاية الحكم العثماني ، حيث تحول الى فرع لسوق الحميدية متخصص في بيع المفروشات والسجاد القديم كشأنه الآن(٤٧) .

الوقفيــة :

تحتفظ المكتبة الوطنية في باريس بالوقفية الاصلية تحت رمز Supp. ar. No. 473 ولدينا الآن نسخة مصورة عنها في مركز الوثائق والمخطوطات للجامعة الاردنية(٤٨) . وتتضمن هذه الوقفية ١٥ ورقة مكتوبة بخط نسخي حسن القراءة ، ولكن تتضمن بعض الاخطاء النحوية والاملائية . وفي الواقع ان ما نورده هنا يمكن اعتباره الوقفية الثانية التي حررت ووثقت في سنة ٩٨٣هـ/١٥٧٤م بعد أن اكتمل الوقف المذكور باضافة سوق السيباهية ـ الاروام ، بينما كانت الوقفية الاولى قد حررت ووثقت في سنة ٩٦٤هـ/١٥٥٦م كما يتضح منها .

وبالاضافة الى ما مر معنا من معطيات مهمةتتعلق بالمنشآتالمذكورة تمدنا الوقفية بمعطيات أخرى تستحق التنويه هنا :

١ ـ كشف للعاملين في بعض المنشآت كالتكية مثلا ، والاجور التي كانوا يتقاضونها ، مما يساعد على تصور المستوى المعيشي للسكان في دمشق خلال ذلك الوقت .

٢ ـ وصف دقيق لما كانت تشتمل عليه بعض المنشآت من أدوات وخدمات كالفرن الذي كان يقوم مقابل حمام الناصري والطاحون المجاور له .

٣ ـ ذكر لمجموعة من قضاة دمشق في ذلك الحين ممن يصعب أن نجد معطيات عنهم في المصادر الاخرى .

٤ ـ الكشف عن بعض المعالم المجاورة لدمشق التي كان يعتقد انها « مندثرة » ك « دير الباليسي » حيث تساعدنا هذه الوقفية على تحديد موقعه بشكل تقريبي .

هوامش :

(١) حول قافلة الحج الشامي وأهميتها بالنسبة لدمشق وبلاد الشام انظر :

جان سوفاجيه ، دمشق الشام ، تعريب فؤاد افرام البستاني ، دمشق ١٩٨٩ ، ص٩٩-١٠٢ .
د. عبد الكريم رافق ، « قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني » ، دراسات تاريخية عدد ٦ ، دمشق ١٩٨١ ، ص ٥-٢٨ .

Karl K. Barbir, Ottoman Rule in Damascus 1708 - 1758 . Princeton 1980, pp. 108 - 110 .

(٢) للمزيد من التفاصيل حول هذه انظر :
عبد القادر الريحاوي ، « التكية السليمية في الصالحية » ، الحوليات الاثرية مجلد ٨-٩ ، ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ، ص ٦٧-٧٤ .

(٣) حول هاتين المنشأتين انظر :
عبد القادر الريحاوي ، « التكية والمدرسة السليمانتان بدمشق » ، الحوليات الاثرية السورية ، مجلد ٧ ج ١-٢ ، دمشق١٩٥٧ ، ص ١٢٥ ـ ١٣٤ .

(٤) حول هذه المنشات انظر :

صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق في العصر العثماني ، دمشق ١٩٤٩ ، ص ٤-٦ من القدمة .

Jean - Paul Pascual , Damas à la fin du XVI^e siecle , Damas 1983 , pp. 16-19 .

د. محمد م. الارناؤوط ، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر ، دمشق ١٩٩٣ ، ص ٥٦ ـ ٥٨ .

(٥) Pascual , Damas , p. 107 .

(٦) انظر على سبيل المثال كتاب باسكوال «دمشق في نهاية القرن ١٦ » الذي يعتمد على ثلاث وقفيات ، وكتاب الارناؤوط « معطيات عن دمشق » الذي يعتمد على وقفية واحدة .

(٧) الحسن بن محمد البوريني ، تراجم الاعيان من أبناء الزمان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ج١ ، دمشق ١٩٥ ، ص ١٨٨ .

(٨) حول مغزى هذا التحول الذي حدث حينئذ في الدولة العثمانية انظر :
د. محمد م. الارناؤوط ، دراسات ووثائق حول الدفترية ، اربد ١٩٩١ ، ص ٧-١١ .

(٩) البوريني ، تراجم الاعيان ، ج١ ، ص ١٨٨ - ١٩٠ ، اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين من اسماء العارفين واثار المصنفين، ج٥ ، بيروت ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م ، ص ١٤٨، محمد ثريا ، سجل عثماني، جلد ٣،استنبول ١٣١١ ص ١٧٠

(١٠) في القرن السادس‌عشر لوحده لدينا ثلاث ولاة في دمشق يحملون الاسم ذاته : احمد باشا الذي تولى منصبه في ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٧ ميلادي ، والثاني الحاج‌أحمد باشا في ٩٧٨هـ /١٥٦٩ ميلادي ، والثالث أحمد باشا ، صاحب الوقف . انظر المنجد ، ولاة دمشق. ص١٣-١٦ .

(١١) البوريني ، تراجم الاعيان ، ج١ ، ص ١٨٨.

(١٢) المنجد ، ولاة دمشق ، ص ١٤ .

(١٣) سالنامة ولايت سورية ، اون التنجي دفعة، شام شريف ١٣٠٣ هـ ، ص ٣٠-٣١ .

(١٤) محمد ثريا ، سجل عثماني ، جلد ٣ ص ١٧٠ .

(١٥) البوريني ، تراجم الاعيان ، ج١، ص ١٨٨.

(١٦) المصدر السابق ، ص ١٨٨-١٨٩ .

(١٧) المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

(١٨) محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي المواكب‌الاسلامية‌في الممالك والمحاسن الشامية تحقيق ودراسة د. حكمت اسماعيل ، ج١، دمشق ١٩٩٢ ، ص ٣٤٧ .

(١٩) اكرم حسن العلبي ، خطط دمشق ، دمشق ١٤١٠هـ / ١٩٨٩ ، ص ٣٠٦ .

(٢٠) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج٦ ،دمشق ١٩٦٩ ، ص٩٩ ، وتجدر الاشارة هنا ان ع. ابراهيم يعلق على نص الانصاري ، حين يشير الى هذه المدرسة التي بناها احمد باشا بالقول « لم نعثر على تحديد مكانها »: شرف الدين موسى بن يوسف الانصاري ، نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، تحقيق عدنان محمد ابراهيم ، دمشق ١٩٩١ ، ج٢ ،ص ١٧٠ ، هامش ١٠ .

(٢١) د. يوسف جميل نعيسة ، مجتمع مدينة دمشق ١١٨٦ - ١٢٥٦هـ / ١٧٧٢ - ١٨٤٠م، ج١ ، دمشق ١٩٨٦ ، ص ١٦٢.

(٢٢) كارل ولتسينجر - كارل واتسينجر ،الاثار الاسلامية في مدينة دمشق ، تعريف قاسم طوير ، دمشق ١٩٨٤ ، ص ١٣٦ .

(٢٣) ابن طولون ، مفاكهة الخلان‌في حوادث‌الزمان، تحقيق محمد مصطفى ، ج٢ ، القاهرة١٩٦٤، ص ٧٩-٨٠ ، ٨٥ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، ج٢ دمشق ١٩٨٠، ص ١٢٣.

(٢٤) E. Ca. « Imaret » , Enciklope - dija Jugoslavije, novo izdanje, Vol. 5, Zagreb 1988, s. 548 .

(٢٥) Ibid ; Enciklopedija likovnih umetnosti, Vol. 2, Zagreb 1962, s. 674 ; K. Oto-Dorm, Islamska umetnost, Novi Sad 1971, s. 190

(٢٦) البوريني ، تراجم الاعيان ، ج١ ، ص ١٨٨.

(٢٧) ابن كنان ، المواكب الاسلامية ، ج١ ، ص ٣٤٧ .

(٢٨) المحبي ، خلاصة الاثر في‌اعيان القرن الحادي عشر ، بيروت ١٩٦٦ ، ج١ ، ص ١٨ ،٢٠٩

(٢٩) ولتسينجر - واتسينجر ، الاثار الاسلامية، ص ١٣٦ .

(٣٠) المصدر السابق .

(٣١)(٣١) كرد علي ، خطط الشام ، ج٦ ، ص٩٩.

(٣٢) يوسف بن عبد الهادي ، ثمار المقاصد في ذكر المساجد ، تحقيق محمد اسعد طلس ، بيروت ١٩٤٣ ، ص ١٩١ من الذيل .

(٣٣) المصدر السابق .

(٣٤) يرد هذا الاسم عند ابن الهادي في نهاية العهد المملوكي باسم « سوق الجوخيين »: يوسف بن عبد الهادي ، نزهة الرفاق عن شرح حال الاسواق ، تحقيق حبيب زيات ، المشرق مجلد ٣٧ ، بيروت ١٩٣٩ ، ص٢٢.

(٣٥) عبد القادر ريحاوي ، « خانات مدينة دمشق » ، الحوليات الاثرية العربيةالسورية مجلد ٢٥ ، ج١-٢ ، دمشق ١٩٧٥ ،ص٦١ . ومع ان الباحثين اللاحقين استفادوا من هذا البحث الرائد الا ان د. نعيسة (ج١ ، ص ١٧٩) يتحدث عن « خان الجوخ » و « خان الخياطين » كخانين مختلفين ، بينما يذكر العلبي (ص ٤٨٠) الاسم الاول (خان الجوخية) والثاني (خان الخياطين)كاسمين لخان واحد الا انه يضيف « ويقال انه من بناء والي دمشق أحمد شمسي باشا» ،دون ان يسوق ما يدفعه الى هذا التشكيك .

(٣٦) انظر البحث المذكور في هامش ٣٥ . وتجدر الاشارة الى ان الباحثين الالمانيين ولسينجر و واتسينجر (ص ١٦٠) كانا قد اشارا الى وجود هذا النقش ، ولكن دون ان يسجلا ما فيه من كتابة .

ومن المثير ان التاريخ الذي سجله الريحاوي من النقش ظهر كاملا في الهجري (٩٦٠)وناقصا في الميلادي (١٥٥) ، ولذلك فقد اجتهد الباحثون اللاحقون في تحديد التاريخ الذي بني فيه هذا الخان . وهكذا فقد ظهر تاريخ بناء الخان ١٥٥٠ م لدى د. نعيسة (ج١، ص ١٧٩) ، و ١١٥٢ م لدى طوير (ص١٦٠) وهو دون شك خطأ مطبعي ، بينما اكتفى العلبي (ص ٤٨٠) بتثبيت التاريخ الهجري فقط .

(٣٧) لدينا قبل ذلك عند ابن طولون اشارات الى وجود « حوانيت للقهوة » ثم « بيوتللقهوة»، كما كانت تسمى حينئذ ، خلال النصف الاول للقرن السادس عشر قبل ان تمنع القهوة وتغلق المقاهي في منتصف القرن (٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) . وفي عهد الوالي لالا مصطفى باشا (٩٧١ - ٩٧٦هـ/١٥٦٣-١٥٦٨م) سمح بشرب القهوة ثانية واخذت « بيوت القهوة » تفتح من جديد . وهنا لدينا أول مقهى محدد الموقع من هذه الفترة . للمزيد حول هذا انظر :

د. محمد م. الارناؤوط ، «بدايات انتشار القهوة والمقاهي في بلاد الشام الجنوبية » ، اليرموك عدد ٣٥ ، اربد١٩٩٢ ، ص ٣٠-٣٣، الارناؤوط ، معطيات عن دمشق ، ص ١٠١ - ١٠٣ .

(٣٨) من الواضح هنا ان هذا السوق الجديد بني في الفترة الفاصلة ما بين انجاز « خان الجوخية » وانشاء « سوق السباهية »، أي خلال وجود الوالي لالا مصطفى باشا في دمشق (٩٧١ - ٩٧٦هـ/١٥٦٣-١٥٦٨م) . للمزيد عن هذا السوق انظر التفاصيل الواردة في وقفيته :
كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا ، وقف على طبعه خليل مردم بك ، دمشق ١٩٢٥ ، ص ١٩-٢٠ .

(٣٩) بنى المدرسة القجماسية نائب الشام قجماس الاسحاقي خلال فترة وجوده في دمشق ٨٨٦-٨٩٢ هـ / ١٤٨٠ - ١٤٨٦ م . ويذكر المؤرخ الدمشقي المعاصر النعيمي (توفي ٩٧٨هـ / ١٥٧٤م) ان موقعها كان « داخل باب النصر وباب السعادة » دون ان يضيف اية تفاصيل اخرى . وقد لحقها في السنة الاخيرة لوجودها (١٩١٦)الباحثان الالمانيانولتسينجر

وواتسينجر ، الا انهما حددا موقعها الى الشمال الغربي من باب النصر في المربع C 3 . وفيما بعد حدد الباحث ريحاوي موقعها الى الشرق من « دار السعادة »، وبالتحديد ما بين المدرسة التي بناها احمد باشا و « سوق السباهية » (الاروام) ،بينما يتردد العلبي في تحديد موقع المدرسة مابين « لصيق دار السعادة من الشرق تماما » وما بين البناء رقم ٤ في مربع D4 لدى ولتسينجر ـ واتسينجر . وعلى كل حال تأتي الان هذه الوقفية لتثير من جديد لغز المدرسة القجماسية :

عبد القادر بن محمد النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ، بيروت ١٩٩٠ ، ص ٤٣٤ ، ولتسينجر ـ واتسينجر ، الاثار الاسلامية، ص ١١٢، عبد القادر الريحاوي، « قصور الحكام في دمشق » ، الحوليات الاثرية العربية السورية مجلد ٢٢، ج١-٢، ص ٧١ (الخريطة) ، العلبي ، خطط دمشق، ص ٢٠٨ .

(٤٠) الارناؤوط ، معطيات عن دمشق ، ص٥٦ـ٥٧ .

(٤١) الانصاري ، نزهة الخاطر ، ج٢ ، ص ١٧٠ـ ١٧١ .

(٤٢) المحبي ، خلاصة الاثر ، ج١ ، ص ١٨ .

(٤٣) ابن كنان ، المواكب الاسلامية ، ج١ ، ص ٢١٢ .

(٤٤) احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ ـ ١١٧٥هـ / ١٧٤١ـ١٧٦٢م، تنقيح محمد سعيد القاسمي وتحقيق د.احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٦٨

Pascual , Damas , p. 107 .

(٤٦) ابن عبد الهادي ، ثمار المقاصد ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ من الذيل .

(٤٧) د. قتيبة الشهابي ، دمشق تاريخ وصور ، دمشق ١٩٨٦، ص ٢٣٣ .

(٤٨) الجامعة الاردنية ـ مركز الوثائق والمخطوطات، رقم الفيلم ١٧٢ ، الرقم المتسلسل ١١١٩ .

* * *

(وقفية احمد باشا)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي (هو) مثيب الواقف على بابه ثواباً جزيلاً ، ومنيل القاعد في ساحة أحبابه نيلا جليلا ، مجزي المتصدق ابتغاء وجه ربه الكريم جزاء حسنا جميلا ، واشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له إله ، قبل الصدقة من عباده وهو غني عنها، وضاعف لهم ثوابها في الآخرة أحسن منها ، وأشهد أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ، سيد الأولين والآخرين وحبيبه وخليله ، أعظم الزاهدين والمتصدقين ، بعثه الله تعالى آمراً بالبر والايثار والصدقة والاحسان ، فتصدق صلى الله عليه وسلم بأرضه المختصة به صدقةً مؤبدةً على مرّ الزمان فعامل الخلق أجمعين باللين وحسن الخلق والرفق والشفقة ، ومات صلى الله عليه وسلم ولم يترك ديناراً ولا درهماً ولا عبدا ولا أمة ولا شيئاً سوى بغلته البيضاء وسلاحه وأرضه جعلها صدقة ، فصلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً دائماً الى يوم الدين ، وبعد . .

فلما كانت الصدقة منأعظم القربات وأجلّ المثوبات وأفضل العبادات ، وتذهب عن واقفها السيئات وتجلب له الحسنات ، خصوصاً صدقة الأوقاف المحبسة الجاري ثوابها لواقفها بعد موته وانقضاء أجله ، المكبّت أجرها في صحائفه(١) بعد اندراس أثره وانقطاع عمله ، ووفق الله تعالى سعداء الدارينلاكتسابها سابقوا اليها وعلموا ان الدنيا فانية والآخرة باقية ، واجتهدوا عليها وقدموها بين أيديهم من خالص مالهم الحلال الطيب المصون لينالوا بها البر ويدخلوا في قوله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »(٧) . ولما كانت هذه المزية العظمى والدرجة العلية التي تتضاعف بها الخيرات وتتنمى رغب في اجراء هذه الصدقة العظمى حضرة من خصه الله تعالى بالنفس القدسية ، والرئاسة(٢) الانسية ، المخدوم الاعظم دستور أعاظم الوزراء في العالم : صاحب السيف والقلم ، سباق الغايات في نصب رايات السعادات ، البالغ في العدل أقصى النهايات ، ناطورة ديوان الوزارة ، عين أعيان الامارة ، اللائح(٤) في غرته الغراء لوائح(٥) السعادة الابدية ، الفائح(٦) في همته العليا روائح(٧) العناية السرمدية ، ممهد قواعد الملة الربانية ، مؤسس مباني الدولة السلطانية ، من علت رتبته مراتب الدنيا والدين ، سيد الاسلام ومرشد المسلمين ، الحفوف بعون الملك العلام ، أحمد باشا بولاية الشام(٨) لا زالت أعلام العدل في أيام دولته عالية ، وقيمة العلم في آثار رتبته غالية ، وأياديه على أهل الحق فائضة(٩) ، وأعاديه من بين الخلق غائضة(١٠) . وقد

....

استخار الله تعالى الذي لا يخيب مستخيره ، واستجار بحرم كرمه الذي لا يخاف مستجيره ، وأشهد على نفسه الزكية الكريمة الرضية المرضية ، حرسها الله تعالى من كل سوء ووقاها وصانها من الغير ، ورعاها في صحة ذاته الشريفة وسلامة حضرته العلية المنيفة ، أعلى الله تعالى شأنها ووالى برها واحسانها وقدرها على فعل الخير وأعانها ، انه وقف وحبس وسبل وتصدق تقربا الى ربه الكريم وتقديما بين يديه للقاء خالقه العظيم ، يوم يجزي الله تعالى المتصدقين ولا يضيع أجر العاملين ، بما هو في ملكه السعيد وبيده الكريمة وحيازته الشريفة المستقرة المستمرة الى حين هذا الوقف المبرور . ويشهد له بملك ذلك المستندات الشرعية الآتي ذكرها فيه : وذلك جميع المكان أرضا وعمارة الكائن(١١) ذلك باطن مدينة دمشق المحروسة داخل باب النصر(١٢) بالقرب من المدرسة القجماسية ، المجاور لدار المرحوم أرسلان بك المدعو أصلان من جهة الغرب ، تجاه القلعة المنصورة(١٣) من جهة القبلة ، المشتمل على ساحة سماوية كبيرة بوسطها بحرة مربعة كبيرة يجري اليها الماء والى بقية حقوق هذا المكان المذكور من نهر القنوات(١٤) ، من الطالع الذي هو وراء قناة السبيل الكائنة(١٥) شرقي باب العدل قبلي الخندق ، بحق صحيح وشرعي واجب مستمر من فرض(١٦) مساحته خمسة أصابع وربع ، مفروض ذلك بالجانب الشرقي من الجرن المركب على الطالع المذكور بحق شرعي .

وقبين شماليتين مرصعتين من ظاهرها ، كل واحدة منهما معقودة البناء على أربعة قناطر من حجارة البلقاء(١٧) ، منحوتة باولى منها وهي الشرقية محراب قبلي بواجهة من الحجارة البلقاء المنحوتة ، ومن حوله شباكين بحديد قبلين الى مصلى سماوي وهو مرتفع من جملة الساحة المذكورة . وبالقبة خرستانان(١٨) شرقي وغربي ، وثلاث شبابيك بحديد شمالية مطلة الى الطريق والى القلعة المزبورة بواجهة من حجارة البلقاء المنحوتة(١٩) . وبداخل القبة المذكورة أبراج من الخشب المدهون ، وباب غربي يتوصل منه الى الساحة المذكورة في دركاة(٢٠) لطيفة . وتشتمل القبة الثانية وهي الغربية على ثلاثة شبابيك بحديد بواجهة من حجارة(٢١) البلقاء المنحوتة ، مطلة الى الطريق والى القلعة المذكورة ، وخرستانين بواجهة من الخشب المدهون شرقي وغربي قبلي وباب يتوصل الى ساحة سماوية لطيفة بفسقية لطيفة يجري اليها الماء المذكور بحق شرعي وثلاث مرتفعات احداها تختص بالقبة المذكورة وباقيها تختص بالساحة الكبرى المذكورة وما اشتملت عليه . ولهذه(٢٢) القبة المذكورة باب خاص من جهة الغرب . وبالجدار الغربي من المرتفعات المذكورة طالع(٢٣) الماء الذي هو من حقوق ذلك . وما بين هاتين القبتين المذكورتين اعلاه خمسة حجر معقودة البناء بالحجارة واللات(٢٤) الجديدة والمؤن ، لكل واحدة منها باب خاص يفتح الى جهة القبلة وشباك لطيف بخشب مطل الى الساحة المذكورة والى بقية حقوقها . وبالجهة القبلية من

الساحة المذكورة اعلاه عشرة حجر قبلية معقودة البناء . لكل واحدة منها باب خاص يفتح الى جهة الشمال وشباك لطيف بخشب مطل الى الساحة المذكـورة اعـلاه . وشرقي هذه الحجر العشرة المذكورة اعلاه دار لطيفة يدخل اليها من الساحة المذكورة في باب خاص من جهة الشرق، معدة لسكن(٢٥) الامام الآتي ذكره فيه . وتشتمل هذه الدار المذكورة على ساحة سماوية لطيفة وبيتين ومطبخ ومرتفـق وبئر ماء معين(٢٦) ومنافع ومرافق وحقوق شرعية . بالجانب الغربي من الحجر العشرة القبلية المذكورة اعلاه بيت معدة للحطب ، بداخلها(٢٧) بيت الكيلار ويدخل اليها من الساحة المذكـورة من باب غربي ، ولذلك منافع ومرافق وحقوق شرعية . وللساحة المذكورة اعلاه باب غربي مقنطر بواجهة من الحجارة البيض المنحوتة يدخل منه الى الساحة المذكورة أعلاه والى بقية ما اشتملت عليه في دهليز ، عن يساره(٢٨) باب يدخل منه الى المرتفقـين الذين هما من جملة المرتفقات الثلاثة المبنية غربي الساحة المذكورة اعـلاه . ولذلك جميعه منافع ومرافق وحقوق شرعية وحدود أربعة : من القبلة دار بيري جلبي وتمامه بيد أربابه(٢٩) وبيت أصلان بك المشـار اليه ، ومن الشرق دار أصلان بك المزبور ، ومن الشمال الطريق وفيه البا بالكبير الذي هو بالواجهـة البلقائية(٣٠) المذكورة واليـه شبابيك(٣١) الحديد المذكورة أعلاه ، ومن الغرب الطريق وفيه الباب الغربي المذكور أعلاه وباب المكتب المذكور أعلاه . ويشهد للواقف المومى اليـه بجريان قرار أرض ذلك في ملكه بالابتياع الصحيح الشرعي من محمد جلبي ابن اصلان بـك المذكور بالثمـن الحال المقبوض حاله المستند بالبيع الصحيح الشـرعي ، المـؤرخ بثاني عشر(٣٢) ذي القعدة الحرام من شهور سنة ثلاث وستين وتسعماية الثابتة ، المحكوم فيـه من قبـل مفخر قضاة الاسلام اشرف ولاة الانام مولانا نجاتي بن سليمان الحنفي الحاكم خلافة بدمشق المحروسة(٣٣) ، ادام الله تعالى تأييده . ويشهد له أيضا بحق هـذا المكان المذكور اعلاه من الماء المعين اعلاه ، المبين مقداره أعلاه وقدر ذلك خمسة أصابع وربع على الوجه المشروح أعلاه ، المستند الشرعي المؤرخ برابع عشر شهر رمضان المعظم قدره من شهور سنة أربع وستين وتسعمائة الثابتة ، المحكوم من قبل مفخر الخلفاء المتمدين مولانا محمد بن مراد الحنفي(٣٤) ، أيده الله تعالى ، المتصل ذلك ثبوتا وتنفيذا شرعيا آخر بمولانا وسيدنا الحاكم الذي سيشار اليه فيه ، أحسن الله تعالى اليه .

وجميع القاسارية المعروفة قديما بالعشر ، ويومئذ تعرف(٣٥) بالواقف المومى اليه(٣٦) دامت النعم عليه وبانشائه ، الكائنة باطن مدينة دمشق المحروسة بالصـف الشرقي من سوق الجوخ، والطوابق المستجدة البناء أرضا وعمارة ، والبعض مـن أرضها محتكر يأتي ذكره وبيانه فيه على حكم التفصيل الذي سيبين . وتشتمل هذه القاسارية المذكورة اعلاه على أرضية مبلطة بالبلاط الاسود ، بوسطها بركة يجري الماء اليها والى بقية حقوق القاسارية المذكورة من نهر القنوات بحق صحيح شرعي مستمر،

واجب الجريان اليها دائما أبدا ما دام الماء جاريا في النهر المذكور أعلاه بالطريق الشرعي ، ومخازن سفلية مستديرة بها بكل واحد منها باب خاص يفتح الى ساحة القاسارية المذكورة وشباك حديد لطيف مطل الى أرض القاسارية المذكورة وميبطاة(٣٧) من جهة الشرق ، ومخازن علوية مستديرة بها معقودة البناء جميعها بكل واحد منها باب خاص وشباك لطيف بحديد . ويعلو ذلك قبتان كبيرتان (٣٨) كل واحدة منها معقودة البناء على أربعة قناطر من الحجارة البيض المنحوتة . وبين القبتين اعلاه قنطرة من حجارة البلقاء(٣٩) ، ممتدة البناء قبلة بشمال محمول البناء العلوي المذكور المطل الى ارض القسارية المذكورة على احد عشر عضادة مبنية بالحجارة البيض المنحوتة ، وعمودين من الحجارة البيض من جهة الغرب ، وباب كبير غربي بواجهة من حجارة البلقاء المنحوتة(٤٠) يدخل منه الى القاسارية المذكورة في دركات بها سلمين من الحجارة يصعد منها الى المخازن العلوية المذكورة اعلاه . وعلى كل ركن من ركني الباب المذكور فسقية لطيفة من حجر ابيض ، يجري اليها من الماء المذكور وبحق شرعي . ولذلك جميعه منافع ومرافق وحقوق شرعية منتقلة(٤١) . وأرض تلك القاسارية(٤٢) المعروفة بالعشر التي حدها من القبلة قاسارية ابن مزلق المعروفة بالساعات وتمامه من جهة الشرق القاسارية(٤٣) الخراب التي أضيفت الآن الى ذلك الاتي ذكر انتقالها فيه ، ومن الشرق الدار المعروفة بابن بكار وتمامه الدخلة وفيها الباب الشرقي المسدود يومئذ ، ومن الشمال دار المرحوم القاضي تاج الدين ، ومن الغرب السوق المذكور أعلاه وفيه الباب الشرقي المذكور أعلاه .

(و) قطع(٤٤) الارض التي هي محتكرة واضيفت(٤٥) الى القاسارية(٤٦) المذكورة أعلاه . منها قطعة وهي الخرابة التي حدها من القبلة الحوانيت وقف القويضي وتمامه سوق الخواصين(٤٧) ، ومن الشرق الزقاق وفيه الباب الكبير والبابان كذلك اللذان كانا للمخزنين فيها(٤٨) ، ومن الشمال بيد أربابه ، ومن الغرب قاسارية ابن المزلق جارية في استئجار الواقف المشار اليه للبناء والتعلي وللبقاء والاحترام على الدوام ممن له ولاية ايجارها وقبض اجورها بالطريق الشرعي ، بمقتضى حجة شرعية مؤرخة بخامس عشر شهر شوال سنة اثنين وستين وتسعمائة . وقطعة أرض من جهة الشمال جارية في استئجاره أيضا للبناء والتعلي والبقاء والاحترام على الدوام ممن له ولاية ايجارها وقبض أجورها بالطريق الشرعي ، حدها من القبلة القاسارية الجديدة المذكورة أعلاه ، ومن الشرق وقف ابن المزلق ، ومن الشمال قيمها ، ومن الغرب القاسارية المذكورة وتمامه قبة ايوان الدار المعروفة بوقف القاضي تاج الدين(٤٩) ، الشاهد بذلك الحجة الشرعية المؤرخة(٥٠) بعشري المحرم الحرام من شهور سنة ثلاث وستين وتسعمائة ، الثابت المحكوم فيها من قبل فخر القضاة والنواب مولانا القاضي ابو اليسر محمد بن جريل الغرب المالكي الحاكم خلافة سابقا بدمشق المحروسة(٥١) .

وروس الجدر(٥٢) المشتملة على حوانيت من جملة حوانيت السوق المذكور المعروف بالخواصين من جهة الغرب ، الملاصق كذلك ذرعها قبلة بشمال من باب القاسارية ستة عشر ذراعا ، جار ذلك أيضا في استئجار(٥٢) الواقف المومى اليه أحسن الله اليه للبناء والتعلي والبقاء والاحترام ممن له ولاية وقبض أجوره بالطريق الشرعي بمقتضى الحجة اشرعية المؤرخة(٥٤) في ثامن عشر شهر شوال المبارك من شهور سنة اثنين وستين وتسعمائة ، الثابت المحكوم فيها من قبل سيدنا القاضي أبو اليسر المالكي المشار اليه أعلاه .

وقطعة أرض من جهة الشمال حدها من القبلة القاسارية المذكورة ، ومن الشرق وقف ابن المزلق ، ومن الشمال قسيمها ، ومن الغرب القاسارية المذكورة ، جارية في استئجار(٥٥) الواقف المومى اليه للبناء والتعلي وللبقاء والاحترام كما عين أعلاه ممن له ولاية ايجارها وقبض أجورها بالطريق الشرعي بمقتضى الحجة الشرعية المؤرخ بتاريخين، اولهما عشر المحرم من شهور سنة ثلاث وستين وتسعمائة وثانيها سابع عشرى الشهر المذكور من السنة المذكورة ، الثابتة المحكوم فيها سيدنا القاضي ابو اليسر المالكي المشار اليه أعلاه .

وقطعة أرض من جهة الغرب ذرعها قبلة بشمال ثمانية وعشرون ذراعا ، وشرقا بغرب ذراعان ونصف ذراع من الحائط(٥٦) الشرقي ، منتقلة اليه بمقتضى الحجة الشرعي المؤرخة في مستهل ذي الحجة الحرام من شهور سنة اثنين وستين وتسعماية، الثابت المحكوم فيها من قبل مفخرة القضاة والنواب مولانا محمود بن احمد الحنفي الحاكم خلافة سابقا(٥٧) بمحكمة الباب(٥٨) بدمشق المحروسة .

وقطعتين أرض من جهة الشرق حدهما من القبلة والشرق والشمال قسيمها بيد زيد الدين بن ابراهيم الحريري ، ومن الغرب وهو القاسارية المذكورة ، منتقلتين بالاستئجار(٥٩) الشرعي لحضرة الواقف المشار اليه دامت النعم عليه للبناء والتعلي، كما عين أعلاه من زين الدين المذكور أعلاه ، بمقتضى الحجة الشرعية المؤرخة برابع عشرين ذي الحجة الحرام من شهور سنة اثنين وستين وتسعماية ، الثابت المحكوم فيها من قبل سيدنا القاضي ابي اليسر المالكي المشار اليه اعلاه .

وقد ضمت هذه الاراضي المذكورة اعلاه واضيفت الى القاسارية المذكورة اعلاه، واستقر ما بها من البناء المستجد من جملة حقوق هذه القاسارية المحدودة ، الموصوفة أعلاه بالطريق الشرعي .

وجميع عمارة الفرن الكائن ظاهر دمشق المحروسة تجاه حمـام الناصري(٦٠) ، بالقرب من محلة تحت القلعة ، المشتمل على داخل به بيت نـار وكوشةوأنزال ومعاجن بيت وبيت للرقيد ، وساحة سماوية بها بركة تجري الماء اليها من نهر بانياس (٦١) بحق شرعي واجب مستمر ، حده من القبلة ملك الحاج علي ، ومـن الشرق الزقاق غير النافذ(٦٢) ، ومن الشمال الطريق وفيه الباب والشباك ، المنتقل ذلك الى ذلـك الواقف المشار اليه بالبيع الشرعي من الشيخ عبد الرحمن بن يونس ، خادم المقصورة بالجامع الاموي ، بالثمن الحال المقبوض حالة البيع بمقتضى الحجة الشرعية المؤرخة بسادس عشرين شهر رجب من شهور سنة اثنين وستين وتسعمائة ، الثابت المحكوم فيها من قبل مولانا القاضي محمود بن احمد الحنفي المشار اليه اعلاه .

وجميع الطاحون المجاورة للفرن المذكور من جهة الغرب ، المشتملة على حجرين مطبقين لطحن الغلال وبيت بقنطرة به سلم حجارة يصعد منه الى طبقة منافع ومرافق وحقوق شرعي ، ويتوصل من بيت الطحن المذكور الى ساحة سماوية قبلية لطيفة جار فيها الماء من نهر بانياس والقنوات ، الذي منه دوران الحجرين المذكورين بحق صحيح شرعي واجب مستمر ، الساقط ذلك على فراشها . ويعلو المسقطين بها سقيفة علوية ولها منافع ومرافق وحقوق شرعية وحدود أربعة : من القبلة بيت الحاج(٦٣) علي بن مصطفى الرومي ، ومن الشرق الفرن المذكور ، ومن الشمال الطريق فيه الباب ، ومن الغرب بيت بالي جلبي كاتب المرج .

وجميع عمارة الطاحون المعروفة بالعراة ، لارض دير البالسي(٦٤) من غوطـة دمشق المحروسة ، المشتمل على حجرين لطحن الغلال واسـطبل ومنافع ومرافـق وحقوق وحدود اربعة : من القبلة الطريق ، من الشرق النهر الخارج من تحتها وتمامه الطريق وفيه الباب ، ومن الشمال ارض دير البالسي المذكورة ، ومن الغرب نهـر عقربا(٦٥) الساقط عليها الذي منه دوران حجريها ، المنتقلة هذه الطاحون المذكورة الى ملك الواقف المرمي اليه اعلاه بالبيع الشرعي من فخر الزعماء علي بك بن عبد الله بن عبد الله أحد الزعماء بدمشق المحروسة ، بالثمن الحال المقبوض بيده منه حالة البيـع بمقتضى كتاب البائع(٦٦) الشرعي المتقدم التاريخ على تاريخه بحق ذلك كله وطرقـه ومنافعه ومرافقه وأوصافه ، وبجميع ما اشتمل عليه من الحقوق الشرعية الداخلة فيه والخارجة عنه والمعرفة به المنسوبة اليه العلم الشرعي .

(قد وقف كل ذلك) وقفا صحيحا شرعيا وايقافا صريحا مرعيا وصدقة جارية على الدوام لا ينقطع حكمها ولا يندر رسمها ، بل يستمر على ممر الشهور والاعوام . (و) انشأ الواقف المومى اليه ، تقبل اللهتعالى منه بره وصدقته وأدام عزه ورفعته ،

وقفه هذا منجرا على ما يفصل ويتبين(٦٧) فيه . فاما القبة الشرقية التي بها المحراب المذكور اعلاه فانه جعلها مسجدا لله تعالى يصلى فيه الأوقات الخمس الصلوات المفروضات وسننها ، ويقام فيه الذكر والعبادات . والقبة الثانية ، وهي الغربية ، فانها جعلها مكتبا للاولاد الواردين لتعلم القرآن . والحجرات المذكورات ليسكن فيها من الرجال الافاقية المتجردين لطلب العلم الشريف على مذهب امام الأئمة وسراج هذه الامة الاعظم ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه . والبيت الذي هو شرقي الساحة المذكورة اعلاه فانه جعلها تكية ومطبخا يطبخ فيه الطعام ويفرق على من يذكر فيه على ما سيشرح ويبين فيه . وباقي الاماكن المحدودة الموصوفة بالعالية جعلها وقفا صحيحا شرعيا يصرف ريعها ومتحصلها وأجورها ومنافعها وغلاتها على مصالح المسجد والتكية والمكتب المبين ذلك جميعه بأعلاه ، وعلى مصارفه الشرعية على ما يتبين(٦٨) فيه . وعين لها شيخا يكون اماما وناظرا على ذلك كله ، ومتوليا ، وكاتبا ، ومعلما يعلم القرآن بالمكتب المذكور ، وخليفة له ، ومؤذنا ، وقارئاً(٦٩) يقرأ ما تيسر قراءته على الكرسي بالمصحف الشريف بالمسجد المشار اليه بعد صلاة (٧٠) الظهر ، وطباخا ، وكيلارجيا(٧٠ب) ، وبوابا ، وشغالا ، ومستحفظا للزبادي والصحون يسمى جنقجي(٧١) ، وبازاره كيدن(٧٢) .

وشرط ان يبدأ من له النظر والتولية عليه بعمارة الموقف المعين أعلاه وترميمه واصلاحه وصلاحه ، وما فيه البقاء لعينة والمزيد لاجوره وغلاته ، ودفع ما على بعضه من الحكر لمستحقيه. وما يفضل بعد ذلك يصرف في كل ستة دراهم عثمانية للشيخ الامام الناظر على ذلك ، ويصرف في كل يوم خمسة دراهم عثمانية للمتولي على ذلك ، ويصرف في كل يوم أربعة دراهم للشيخ المعلم بالمكتب المذكور ، ويصرف أيضا في كل يوم ثلاثة(٧٣) دراهم عثمانية للكاتب المذكور ، ويصرف في كل يوم درهمان عثمانيان للقارىء على الكرسي المذكور ، ويصرف في كل يوم درهمان عثمانيان للمؤذن ، ويصرف في كل يوم ثلاثة (٧٤) دراهم عثمانية للطباخ المذكور أعلاه ، ويصرف في كل يوم للكيلارحجي النقيب درهمان عثمانيان ، ويصرف في كل يوم درهمان عثمانيان للبواب الفراش ، ويصرف في كل يوم درهمان عثمانيان للجنقجي وبازاركيدن ، ويصرف أيضا في كل يوم درهمان عثمانيان للشغال .

ويصرف أيضا في كل يوم مبلغ أربعين درهما عثمانيا يشرى منه بعشرين عثمانيا من اللحم الضان ، ويشرى بعشرين درهما من الخبز الطيب من خبز الحنطة ، ويصرف في كل يوم عشرة دراهم(٧٥) عثمانية يشتري بها من الرز الطيب ويصرف أيضا في كل يوم ثمانية دراهم عثمانية يشتري بها من الحطب والملح والبصل وبقية ما يحتاج اليه الطعام الذي يطبخ بالمطبخ المذكور . ويصرف أيضا في كل يوم أربعة دراهم عثمانية

في ثمن شمع وحصر وقناديل . ويطبخ اللحم مع الارز في كل يوم بالمطبخ المذكـور ، ويفرق منه كل يوم للشيخ الامام الناظر رغيفيان وقطعتان(٧٦) من اللحم ومغرفتان(٧٧) من الطعام ، وللمتولى على ذلك في كل يوم رغيف وقطعة لحم ومغرفة طعام ، وللطباخ رغيف وقطعة لحم ومغرفة طعام ، وللكيلارجي النقيب رغيف وقطعة لحم ومغرفـة طعـام ، وللبواب الفراش رغيف وقطعـة لحم ومغرفة طعـام ، للجنقجي بازاره كيده رغيف وقطعة لحم ومغرفة طعام . ويفرق ذلك في كل يوم بمعرفـة الشيخ المشـار اليه أعلاه . ولكل واحد من السكان بالحجرة المذكورة رغيف وقطعة لحم ومغرفة من الطعام ، وما يفضل من الطعام المذكور يفرق على الفقراء الواردين الى المكان المذكور أعـلاه .

وعلى سكان(٧٨) الحجرات المذكورة الاجتماع في أوقات الصلوة بالمسجد المشـار اليه اعلاه والصلاة(٧٩) به خلف الامام مع الجماعة ، وتعلم العلم والادب من الشـيخ المشار اليه وطريق الذكر والعبادات وما يتقربون به الى الله تعالى ، وقراءة ما تيسر من القرآن العظيم مع التكبير والتهليل والصلوة والسلام ، على خير الانام سيدنا محمد عليه الصلوة والسلام ، واهداء ذلك الى الحضرة الشريفة(٨٠) النبويـة ، والى روح سيدي بلال الحبشي رضي الله عنه تعالى ، وفي صحائف(٨١) الواقف الموصـى اليـه وامواته وأموات المسلمين . وكل من حصل منه تكاسل وتقصير فيعزله الشيخ المشار اليه أعلاه وتقرير مكانه من هو في اهليته لذلك .

وعلى البواب المذكور ان يباشر فرش المسجد المذكور والمكتب ، وتنظيف ذلـك وكنسه وسائر(٨٢) ما يحتاج اليه اسوة امثاله . وعلى الشغال المذكور ان يشعل في كل ليلة شمعتين عند المحرب ، واربعة قناديل بداخل المسجد المشار اليه ، وقنديلا بباب الحرم من داخله ، وقنديلا بالمرتفقات المذكورة اعلاه . وعلى كل واحد من بقية ارباب الوظائف(٨٣) المذكورة اعلاه مباشرة وظيفة المعينة أعلاه في ذلك ، من غـير تهـاون ولا تكاسل ولا تقصير أسوة امثاله في مثل ذلك كما عين وبين فيه .

وما يفضل بعد ذلك جميعه من ريع الموقوف المذكور بعد المصاريف المعنية اعلاه على المشروح أعلاه يشتري به من ثياب الخام ويفصل ذلك قمصانا وترسل الى الحرم الشريف ، على الحال به افضل الصلوة واتم السلام ، صحبة أحد من الاتقياء المتوجـه صحبة الركب الشريف الشامي ، يفرق ذلك على الفقراء المجاوريـن بالحرم الشريف المشار اليه أعلاه ، ويكتب بذلك حجة شرعية بتفرقة ذلك ويحضرها الى الناظر المشار اليه وهو مفخر العلماء والمدرسين مولانا مصلح الديـن بن محمـد بن الحنفي زيـد فضله(٨٤) ، الذي قرره في ذلك مولانا الواقف المشار اليه اعلاه .

وقرر في التولية على ذلك فخر الصالحين حاجي علي بن مصطفى، وأن لايتصرف في شيء من ذلك الا بمعرفة الناظر المشار اليه أعلاه. وعلى الناظر والمتولي المشار اليهما أعلاه تفقد المكان المذكور أعلاه ، والتردد الى المسجد والمكتب والمطبخ المذكور أعلاه، والاشراف على ذلك وعلى بقية الاماكن المذكورة أعلاه ، والنظر في أمر ذلك كله والقيام بمصالح ذلك ومصالح ما هو موقوف عليه ، ومباشرتهما لسائر(٨٥) ما يحتاج ذلك اليه من غير تكاسل فيه ولا تقصير ، والسعي في تحصيل غرض الواقف المومى اليه فيه بحيث ان يستمر احكام ذلك جارية على قواعد الشرعية والمناهج الصحيحة المرضية.

وأخرج الواقف المومى اليه ، خلد الله نعم السعادة عليه وأقبل بوجهه الكريم اليه ، وقفه هذا عن ملكه الصحيح ، تقبل الله تعالى منه ذلك وأثابه عليه الجنة ، وأبانه عن حيازته الشرعية ورفع عنه يد ملكه الكريمة ، وجعله وقفا صحيحا شرعيا على الوجه اعلاه «فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم »(٨٦) . وسلم للمتولى المشار اليه اعلاه أمر التسجيل فيه بعدما قرره في التولية عليه ، فتسلمه منه تسلما حاويا لشرائطة(٨٧) الشرعية المحررة المرضية ، وثبت ذلك لدى الصدر العالي ، عنبر السادة العظام الموالي ، حسنة الايام والليالي ، شيخ مشايخ الاسلام ، الامام قطب دائرة الانام ، حبر الامة ، بحر السنة ، مجمع الافتاء والارشاد ، حجة الله على العباد ، كاشف الدقائق(٨٨) ، مبين الحقائق(٨٩) ، سلطان علماء الشرق والصين ، وارث علوم الانبياء والمرسلين ، المحفوف بعناية الملك المعين، مولانا وسيدنا حسن افندي بن عبد المحسن القاضي بدمشق الشام(٩٠) ، أمتع الله بوجوده الانام وأفاض عليه من جلابيب الكرم والانعام ، أعلى الله تعالى شأنه ورفع الى العليا مكانه ، بشهادة شهوده آخره ثم بصريح اعترافه بذلك لديه ثبوتا شرعيا معتبرا مجردا مرعيا بطريقه الشرعي .

ثم بعد تمام ذلك ولزومه ، واستقراره على الوجه المشروح ونفوذه، اراد الواقف المومى اليه ــ أحسن الله تعالى اليه ــ أن يرجع عن الوقف المشار اليه ويرده الى ملكه السعيد كما كان قبل الواقف عليه ، متمسكا بعدم اللزوم فيه على قول امام الائمة وسراج هذه الامة الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، رضي الله عنه تعالى وارضاه وجعل الجنة مأواه (٩١) ، فعارضه المتولى المزبور فيه ونازعه في ذلك بين يدي مولانا وسيدنا الحاكم المشار اليه ، أحسن الله تعالى اليه واقبل بوجهه الكريم المتولى المشار اليه في ذلك بصحته ولزومه واستقراره على شروط وسائر أحكامه على قول الامامين(٩٢) الجليلين المعظمين المكرمين أبي يوسف ومحمد ، رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما وجعل الجنة مثواهما . فنظر بينهما مولانا الحاكم المومى اليه ، دامت النعم عليه ، في ذلك كله نظرا أنيقا وتأمله تأملا شافيا حقيقيا ، وكان نظره

السعيد الموفق السديد في محل النزاع ، وشاهد في جانب المتولى رحجانا قويا ، وأن العمل بالقول الصريح على قول الامامين السعيدين أعلاه ، وتحرر صحة ذلك عنده واتضح ، وصح لديه لزوم هذا الوقف المبرور ، فحكم أيد الله تعالى أحكامه بموجب ما ثبت عنده من ذلك بصحة الوقف(٩٣) المشار اليه ولزومه ونفوذه ، والعمل بسائر(٩٤) أعماله وشروطه ، وسجله تسجيلا حاويا لساير مقدماته ومسوغاته الرعية ، وأجاز ذلك وامضاه وقضى(٩٥) به وارتضاه ، وألزم العمل بمقتضاه على قاعدة مذهبه الشريف ومعتقده الظاهر المنيف ، عالما باذلا فيما هو فيه من ذلك ، حكما صحيحا شرعيا مرعيا مستوفيا لشرائطه(٩٦) الشرعية لا واجباته المحررة المرعية ، بعد ثبوت مقدماته وجميع مسوغاته وما يعتبر شرعا .

وجرى أو حرر في تاريخين أولهما في أوائل شهر رمضان المبارك سنة أربع وستين وتسعمائة ، وثانيهما ثامن عشر شوال من السنة المذكورة ، حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل .

هذا ما وجد بصورة أصل كتاب الوقف المنقولة باذن مولانا شاه محمد بن أيوب الحنفي(٩٧) حيثما وقع أعلاه الصورة المذكورة : « الذي قراته أعلى(٩٨) هذه صورة ما وجد في السجل المحفوظ ، نقلت عن أصلها بلا زيادة ولا نقصان ، حرره الفقير شاه محمد بن أيوب المولى بدمشق المحمية خلافة عفى الله عنها ، وباذن علامة الحاكم(٩٩) ختم على العادة وباذني ذلك » وشهود الحال مكتتبة أسمائهم(١٠٠) بخط كاتب الصورة: فالاول شاكري جلبي بن اسحاق ، والثاني الحاج عبد القادر الترجمان والحاج حمزة ابن نصوح الترجمان وعامر جاوش بن اسحق ، وكاتب السجل محمد بن الزرعي وغيرهم من الحاضرين ، وذلك بعد تقديم الاذن الكريم العالي من قبل عين أعيان السادة ، المولى شيخ مشايخ الاسلام العلماء الاعلام ، مميز الحلال من الحرام ، خادم شريعة سيد الانام عليه أفضل الصلاة(١٠١) وأتم السلام ، الحاكم(١٠٢) العادل ، الفاصل بين الحق والباطل ، المختص بمزيد عون عناية المعين ، مولانا محي الدين جلبي أفندي قاضي القضاة بدمشق الشام(١٠٣) ، الذي سيضع خطه الكريم بآخر هذه الصريح المبارك في نقل ذلك من الصورة المذكورة ، وثبوت المقابلة لديه بشهادة من سيضع خطه في هذا الصرح المبارك الثبوت الشرعي ، وصار معمولا به لصحته وموافقته للاصل المذكور واعتبار ما وجب شرعا .

ثم بعد تمام ذلك أشهد عليه الوكيل الشرعي(١٠٤) عن حضرة مولانا الواقف الومى(١٠٥) اليه ، خلدت السعادة عليه ، وهو قدوة الاكابر والاعاظم ، مستجمع جميع

المحامد والمكارم ، حضرة مولانا منلا آغا دام مجده ورفعته ، الثابت توكيله عنه في ذلك بشهادة مولانا محي جلبي بن علي ، وفخر الاكابر المعتبرين عين أعيان الجاوشية بالباب العالي ابراهيم بك بن البدر بن حسن الشهير نسبه الكريم بابن طالو ، وفخر الاكابر مستجمع المحامد مولانا عبد الجبار بن عمر الثبوت الشرعي ، اشهادا شرعيا بأنه الحق بوقفه المتقدم ذكره في هذا الصريح المسطور جميع السوق الكائن(١٠٦) باطن دمشق المحروسة بالقرب من مدرسة القجماسية المعروف بانشاء الواقف الموكل المومى اليه ، دامت النعم عليه ، المشتمل كاملة على ساحة سماوية لطيفة بها بحرة ماء مثمنة ، يجري اليها الماء من نهر بانياس بحق واجب معلوم ، وبالجهات الاربع حوانيت عدتها ثمانية وثلاثون دكانا : منها بالجانب القبلي عشرة حوانيت ، وبالجانب الشمالي سبعة عشر حانوتا ، وبالجانب الشرقي أربعة حوانيت ، وبه باب يتوصل منه الى أربعة طباق راكبة على الحوانيت الشرقية ولكل واحد منها منافع ومرافق وحقوق شرعية ، وبالجانب الشمالي ستة حوانيت وبه مكان معد لطبخ القهوة ذات منافع شرعية، وبالجانب الغربي خزانة ذات منافع شرعية . ولكل من الحوانيت المذكورة فناء ، واغلاق ، ومنافع شرعية . وبالسوق المذكور مسجد لأجل اقامة الصلوات(١٠٧) الخمسة من جهة الغرب. ويفصل بين الحوانيت الشمالية والقبلية طريق عام آخذ شرقا بغرب ، يتوصل منه الطريق السلطاني تجاه دار السعادة(١٠٨) ، ويغلق على ذلك بوابتان لكل منهما قوس من الحجارة البيض المنحوتة(١٠٩) . ويحصر ذلك جميعه من القبلة الخان الذي هو من انشاء الموكل المومى اليه خلدت السعادة عليه ، ومن الشرق السوق المعروف بانشاء حضرة(١١٠) مولانا مصطفى باشا ، يسر الله له من الخيرات ما يشاء ، وتمامه الطريق السلطاني المتقدم ذكره ، ومن الشمال الخندق ومن الغرب الدخلة الآخذة الى المدرسة القجماسية وتمامه الى الطريق الآخذ الى تكية الواقف المومى اليه ، خلدت السعادة عليه ، بحق ذلك وهو لذلك من الحقوق الشرعية الواجبة لذلك شرعا ، الحق كل ذلك الحاقا شرعيا وجعله وقفا شرعيا على مقتضى شرط وقف الموكل المومى اليه ، دامت النعم عليه ، في الحال والمال والتعذر والامكان . والنظر والاستحقاق بالطريق الشرعي .

وشرط الوكيل أيضا بالوكالة عن موكله المومى اليه ، خلدت النعم عليه ، أن يبدأ من له النظر في أمر وقفه السابق وهذا اللاحق باصلاحه وصلاحه ، وما فيه النماء والمزيده لأجوره وغلاته . ومهما فضل بعد ذلك يصرف منه في ثمن أرطال خبز من خبز الحنطة ثلاثة قطع فضة ، وفي شراء رطلان لحم من اللحم الضان خمسة قطع ، مضاف ذلك الى ما هو معين بالوقف السابق المحكي في هذا الصريح المزبور . وأن يصرف ايضا لشيخ الطعام في كل يوم قطعة واحدة زيادة على ما هو مقرر له بالوقف السابق المشروح فيه ، وللجابي في كل يوم قطعة فضة ، وللبواب عثماني زيادة عن ما مقرر لهما بوقفه

السابق المزبور . وما فضل بعد ذلك جميعه من ريع الموقوف المذكور ، بعد المصارف المشروحة فيه ، يشترى من ثياب الخام ريفصل مائة قميص وترسل الى الحرمين الشريفين على الحال ، بهما افضل الصلاة(١١١) والسلام ، لمكة المشرفة والمدينة المنورة(١١٢) صحبة أحد من الاتقياء المتوجه صحبة الركب الشريف الشامي ، ويفرق ذلك على الفقراء المجاورين ، وتكتب بذلك حجة شرعية ويحضرها الى المتولي على ذلك، زيادة عن ما هو معين بوقفه السابق المشروح في هذا الصريح المزبور .

ثم بعد تمام ذلك كله ولزومه وابرامه(١١٣) على شرح ما فيه ، اراد وكيل الواقف(١١٤) المومى اليه أن يرجع عما وقفه محتجا بعدم اللزوم عندما أتم شروط الوقف المذكور على النسق المسطور والنمط المذكور ، وسلمه لفخر الاعيان المعتبرين عمر جلبي الذي جعله شريكا في التولية الى أن يتم أمر التسجيل في هذا الوقف ، وفوضه اليه فقابله المتولي بالامتناع عن رده اليه محتجا بلزومه على قول كثير العلماء عليهم رضوان خالق الارض والسماء ، فتنازعا وتخاصما حتى ترافعا في هذا الامر الى عين أعيان السادة الموالي ، سلطان العلماء المحققين ، برهان الفضلاء المدققين ، ينبوع الفضل واليقين ، وناصر ارباب الشريعة الغراء ، مظهر آيات الملة الحنفية البيضاء ، الذي بيده العقد والتنفيذ والامضاء ، وهو الحاكم الموقع بخطه بذيل هذا الصريح الشريف الميمون المستطاب ، لا زال باباً لأولي الالباب . فنظر حضرة مولانا وسيدنا الحاكم المومى اليه ، خلدت السعادة عليه ، في هذه المسألة(١١٥) المختلف فيها تاملا جزيلا . فلما كان جانب الوقف راجحا عنده على جانب الملك حكم ــ أدام الله احكامه ــ على وجه الوكيل بصحة الوقف الملحق على ما عين وبيّن بلزومه على قول من جوز لهذا القدر من الشرائط(١١٦) من الائمة المجتهدين ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، عالما بالخلاف الجاري في مسالة(١١٧) الوقف بين أهل الاجتهاد الذين هم أشرف خواص العباد ، حكما صحيحا شرعيا جامعا لشرائطه(١١٨) المعتبرة اللازمة شرعا ، وحاويا لضوابطه المهمة الواجبة اصلا وفرعا ، وسجله بتسجيل شرعي فصار الوقف المزبور وقفاً لازماً ، مسجلا متفقا عليه بلحوق حكم الحاكم المومى اليه ، بحيث لا يباع ولا يرهن ولا يبدل ولا يغير ، بل يجري على أصله المؤبد(١١٩) ويقام على شرطه المخلد ولا يحل لأحد ممن يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ، ويعلم انه الى ربه الكريم سائر(١٢٠) ، نقض هذا الوقف المزبور ، ومن بدله بعد ماسمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم ، واعتبار ذلك بعد ما وجب اعتباره شرعا .

تحريرا في شهر من شهور سنة ثلاثة وثمانين

وتسعمائة ، حسبنا الله تعالى

ونعم الوكيل

مطابق لفرعه ممضي مختوم ، حرره الفقير احمد الصديقي

القسام العسكري بمدينة الشام

عفى عنه

(الخاتم)

* * *

هوامش :

(١) في الاصل : صحايفه .

(٢) القرآن الكريم ، آل عمران ٩٢ .

(٣) في الاصل : الرياسة .

(٤) في الاصل : اللايح .

(٥) في الاصل : لوايح .

(٦) في الاصل : القايح

(٧) في الاصل : روايح .

(٨) في الاصل : شام .

(٩) في الاصل : فايضة .

(١٠) في الاصل : غايضة .

(١١) في الاصل : الكاين .

(١٢) أحد أبواب دمشق المحدثة ، فتحه الملك الناصر من الجهة الغربية للسور المحيط بدمشق القديمة ، ولا يزال يسمى باسمه الشارع الرئيسي المواجه لمدخل سوق الحميدية : ابن كنان ، المواكب الاسلامية ، ج١ ، ص ٢١٢ ، صلاح الدين المنجد ، دمشق القديمة (اسوارها ، ابراجها ، ابوابها)، دمشق ١٩٤٥ ، ص ٦١ .

(١٣) المقصود هنا قلعة دمشق التي لا تزال قائمة في مكانها . حول هذه القلعة انظر : عبد القادر ريحاوي ، قلعة دمشق : تاريخها وآثارها وفنونها المعمارية ، دمشق ١٩٧٩.

(١٤) احد فروع نهر بردى السبعة الذي يتفرع عنه في الشادروان ، ويعتبر من أهم الفروع التي تروي مدينة دمشق بالمياه :
د. صفوح خير ، مدينة دمشق ـ دراسة في جغرافية المدن ، دمشق ١٩٦٩، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(١٥) في الاصل : الكاينة .

(١٧) في الاصل : حجارة بلقا ، وهي نسبة الى منطقة البلقاء المشهورة بحجارتها .

(١٨) « الخرستان » أو « الخرستانة » في القاموس الدمشقي هي واحدة من خزائن المطبخ وتجمع على « خراستين » ، بينما تدل هنا عن المكان (ستان) الذي يأتي منه الضوء (الشمس) .

(١٩) في الاصل : الحجارة البلقاء المنحوتة .

(٢٠) تعبير فارسي بمعنى السدة وهو مركب من « در » (باب) وكاه (محل) : السيد ادى شير ، معجم الالفاظ الفارسية المعربة، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٦٢.

(٢١) في الاصل : الحجارة .

(٢٢) في الاصل : ولهذا .

(٢٣) الطالع في القاموس الدمشقي هو موزع الماء، ويكون على شكل مربع حجري يوزع الماء الوارد اليه من أحد فروع بردى الى عدة اتجاهات : رضا مرتضى ، « تطور توزيع المياه في مدينة دمشق »، العمران عدد ١٣ـ١٤ـ١٥ ، دمشق ١٩٦٧ ، ص ٧١ـ١٨ .

(٢٤) في « القاموس المحيط » يرد من معاني « بلت » الخلط ، ولذلك قد تعني « اللات » الخليط الذي يستعمل ما بين الحجارة أو على الحجارة : الفيروز بادى ، القاموس المحيط ، ج١ ، بيروت د.ت ، ص ١٦٢.

(٢٥) في الاصل : يسكن .

(٢٦) في الاصل : معير .

(٢٧) في الاصل : بداخله .

(٢٨) في الاصل : عن يسرته .

(٢٩) هامش زائد .

(٣٠) في الاصل : البلقاء .

(٣١) في الاصل : الشبابيك .

(٣٢) في الاصل : العشر .

(٣٣) لم نعثر له على ترجمة .

(٣٤) لم نعثر له على ترجمة .

(٣٥) في الاصل : يعرف .

(٣٦) في الاصل : مومى اليه .

(٣٧) المتيطاة .

(٣٨) في الاصل : قبتين كبيرتين .

(٣٩) في الاصل : الحجارة البلقا .

(٤٠) في الاصل : حجارة بلقا منحوتة .

(٤١) في الاصل : المنتقل .

(٤٢) في الاصل : ذلك .

(٤٣) في الاصل : القاسرية .

(٤٤) في الاصل : القطع الارض .

(٤٥) في الاصل : واضيف .

(٤٦) في الاصل : القسارية .

(٤٧) من المؤكد انه كان أحد فروع « سوق الجوخ » حيث لدينا في هذا السوق ما يسمى « خط الخواصين» . والخواصون هم الذين يطرزون الملابس بخيوط من الذهب : العلبي ، خطط دمشق ، ص ٤٣٨ .

(٤٨) في الاصل : والبابين كذالذين كانا للمخزنين بهـا .

(٤٩) في الاصل : التاج الدين .

(٥٠) في الاصل : المؤرخ .

(٥١) قد يكون لدينا هنا خطأ في النسخ ، اذ وجد في ذلك الوقت محمد بن أحمد المغربي المالكي الذي تتلمذ على الفقيـه والقاضي المعروف بدمشق علاء الدين المالكي وناب عنه في القضاء بعد سفره شيخه : الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الاولى من القرن الحـادي عشـر ، تحقيق محمود الشيخ ، ج١ ، ص ٩٥ ــ ٩٨ .

(٥٢) قد توحي للوهلة الاولى انها جمـع جدار ، وربما تكون تحريفا في النسـخ لـ « جدك »وهو ما يضاف من ملحقات وأبنية على الوقـف الاصلي ويعطى صاحبه حقا خاصا : محمد ابو زهرة ، محاضرات في الوقف ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١١٠ ــ ١١١ .

(٥٣) في الاصل : استيجار .

(٥٤) في الصل : المؤرخ .

(٥٥) في الاصل : استيجار .

(٥٦) في الاصل : الحايط .

(٥٧) لم نعثر له على ترجمة .

(٥٨) احدى محاكم دمشـق السـتة في العهد العثماني ، التي كانت الاهم نظرا لكونها مقر القاضي الحنفي ، حيث كانت تقع مقابـل المدرسة النورية الكبرى ولذلـك كانت تسمى احيانا بـ « محكمة النورية الكبرى»: A. K. Rafeq, The Province of Damascus 1723 - 1783, Bejrut 1966, p.

(٥٩) في الاصل : الاستيجار .

(٦٠) حمـام الناصـري البراني بني في منطقة السنجقدار المجاورة للقلعة من قبـل نائب الشام تنكز الناصري سنة ٧٢١هـ / ١٣٢٠م، وجعله وقفا على جامعة . جدده حفيده صلاح الدين سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢م . هدم سـنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م :
العلبي ، خطط دمشق .

(٦١) احد فروع نهر بردى ، يتفرع عنه في الربوة ويمر من شارع النصر ليدخلفي قلعة دمشق، حيث يتفرع هناك بدوره الى عدة فروع : خير ، مدينة دمشق، ص ١٠٠ــ١٠١ .

(٦٢) في الاصل: الغير نافذ .

(٦٣) في الاصل : بين حاج .

(٦٤) اعتبر كرد علي دير البالسي من الديـور المندثرة التي لم يعد لها ذكر في الكتب ، ولذلك تفيدنا هذه الوقفية في تحديد تقريبي

له إذ يفترض ان يكون خارج باب توما على امتداد نهر عقربا : محمد كرد علي ، غوطة دمشق ، دمشق ١٩٨٤ ، ص ٥٧ـ٥٨ .

(٦٥) نهر عقربا او العقرباني ، نسبة الى قرية عقربا ، احد فروع نهر بردى ، وهو يتفرع عنه في ساحة المرجة ليسير بمحاذاة السور الشمالي لقلعة دمشق حتى يخرج من باب توما ليروي بعض بساتين الغوطة : خير ، مدينة دمشق ، ص ١٠٣

(٦٦) في الاصل : البايع .

(٦٧) في الاصل : وتبين .

(٦٨) في الاصل : وتبين .

(٦٩) في الاصل : وقارءا

(٧٠) في الاصل : صلوة .

(٧١) تعبير مركب يوناني ــ تركي ، اذ ان «الكيلار» من أصل يوناني وتعني غرفةالمؤونة، والحقب بها « جي » التركية التي تتعلق بالمهنة.وقد استعمل حينئذ في الوقفيات تعبير اخر مركب (كيلاردار) بالمعنى ذاته : الارنـــاؤوط ، معطيات عن دمشق ، ص ١٩٢ .

(٧١) جنقجي çanakci تتألف من « جنـــق » çanak أي الصحن و « جي »الدالة عـلى المهنـــة ، وهـــي تعني ما أراده الواقـــف « المستحفظ على الصحون والزبادي ».

(٧٢) بازاره كيدن Pazara giden تعني حرفيا « الذي يذهب الى السوق »، ويراد بهـا هنا « المتسوق » أي الذي يكلف بشــــراء الحاجات الضرورة للوقف من السوق .

(٧٣) في الاصل : ثلث .

(٧٤) في الاصل : ثلث .

(٧٥) في الاصلل : عشر درهما .

(٧٦) في الاصل : رغيفين وقطعتين .

(٧٧) في الاصل : مغرفتين .

(٧٨) في الاصل : السكان .

(٧٩) في الاصل : الصلوة .

(٨٠) في الاصل : الشريف .

(٨١) في الاصل : صحايف .

(٨٢) في الاصل : ساير .

(٨٣) في الاصل : وظايف .

(٨٤) لم نعثر له على ترجمة .

(٨٥) في الاصل : لساير .

(٨٦) القرآن الكريم ، سورة البقرة ١٨.

(٨٧) في الاصل : لشرايطة .

(٨٨) في الاصل :الدقايق .

(٨٩) في الاصل : الحقايق .

(٩٠) لم نعثر له على ترجمة .

(٩١) في الاصل : مأوية .

(٩٢) في الاصل : امامين .

(٩٣) في الاصل : الواقف .

(٩٤) في الاصل : بساير .

(٩٥) في الاصل : وقضا .

(٩٦) في الاصل : لشرايطه .

(٩٧) لم نعثر له على ترجمة .

(٩٨) في الاصل : أعلا .

(٩٩) في الاصل : للحاكم .

(١٠٠) في الاصل : اسماهم .

(١٠١) في الاصل : الصلوة .

(١٠٢) فيالاصل : للحاكم .

(١٠٣) لم نعثر له على ترجمة .

(١٠٤) في الاصل : وكيل شرعي .

(١٠٥) في الاصل : مومى .

(١٠٦) في الاصل : الكاين .

(١٠٧) في الاصل : الصلوة .

(١٠٨) « دار السعادة » أو دار الامارة التي كانت مقرا للنواب في العهد المملوكي وللولاة في مطلع العهد العثماني . للمزيد من التفاصيل انظر : ريحاوي ، قصور الحكام في دمشق ، ص ٦٠ - ٧٠ .

(١٠٩) في الاصل : نحيت .

(١١٠) في الاصل : حضرت .

(١١١) في الاصل : الصلوة

(١١٢) في الاصل : المنور .

(١١٣) في الاصل : وانبرامه .

(١١٤) في الاصل : الوكيل الواقف .

(١١٥) في الاصل : المسئلة .

(١١٦) في الاصل : الشرايط .

(١١٧) في الاصل : مسئلة

(١١٨) في الاصل : لشرايطه .

(١١٩) في الاصل : المؤيد .

(١٢٠) في الاصل : ساير .

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يثيب الواقف على بابه ثوابا جزيلا ويُنيل القاعد
في ساحة احبابه نيلا جليلا ويجزي المتصدق ابتغاء وجه
ربه الكريم جزاء حسنا جميلا واشهد ان لا اله الا الله
وحده لا شريك له اله قبل الصدقة من عباده وهو غني عنها
وضاعف لهم ثوابها في الآخرة احسن منها واشهد ان
سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله سيد
الاولين والآخرين وحبيبه وخليله اعظم الزاهدين
والمتصدقين بعثه الله تعالى آمرا بالبر والايثار والصدقة
والاحسان فتصدق صلى الله عليه وسلم بارضه المختصة
برصدقة مؤبدة على مر الزمان فعامل الخلق اجمعين باللين وحسن
الخلق والرفق والشفقة ومات صلى الله عليه وسلم ولم يترك دينارا
ولا درهما ولا عبدا ولا امة ولا شيئا سوى بغلته البيضاء وسلاحه

الصفحة الاولى من الوقفية

Directeur de la Revue	Abdul Gani Ma' Al Bared Recteur de l' Université de Damas
Directeur de la Rédaction	Mouhammad Mouhaffel
Rédacteur en Chef Adjoint	Abdul Karim Ali

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكّمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب ـ جامعة دمشق

السنة السادسة عشرة، العددان ٥٣ و٥٤ تموز ـ كانون الاول ـ ١٩٩٥

الاشتراكات	للافراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر العربي السوري	(٢٠٠) ل.س.	(٤٠٠) ل.س.	(١٠٠) ل.س.
في الاقطار العربية	(٢٠) دولار امريكي	(٤٠) دولار امريكي	
في البلاد الاجنبية	(٣٠) دولار امريكي	(٦٠) دولار امريكي	

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق
المكاتب: جامعة دمشق، هاتف /٢٢٢٢٤٦١/.

شروط النشر في المجلة

ان مجلة دراسـات تاريخية هي جـزء من مشروع كتابـة تاريخ العرب، وخطـوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعهـا الغرض الاساسي، وهو كتابة تاريـخ العرب من منطلق وحدوي، وضمن منظـوري الفهم الحضاري للتاريـخ والتقيد بأسلوب البحـث العلمي، تحاول طرح الجديد في ميـدان البحث في التاريخ العربي، وتسليـط الضوء على التيارات العامة التـي حركت تاريـخ الامة العربية واعطتـه خط مساره الخاص، وايضاح مـالفه الغموض، وتصحيح مـاشوه وكشف الزيـف ان وقع، وكل مايمكـن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلـة ترحـب بكل قلـم يشارك في اغنـاء فكـرتها وبكل مقترحـا ورأي يساعـد في مسيرتها، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب ومـايتصل به، على ان يراعى فيها مايلي:

أ: ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي.

ب – ان لايكون البحث منشورا من قبل.

جـ – ان يكون مطبوعا على الآلة، خاليا من الاخطاء الطباعية.

د – تعرض البحـوث، في حال قبـولها مبدئيـا، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتهـا للنشر، وفق المعايير المذكورة اعلاه، والتعـديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال، بما يتوافق مع اغراض الصياغة.

ولاتنشر المجلة قوائم المصـادر والمراجع، ولذلك يحسن ان يتقيد السـادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:

أ – في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى):

ذكر اسم المؤلف كـاملا وتاريخ وفاته بين قوسين (   ) ان كـان متوفى، اسم المصدر او المرجع وتحته خـط، عد د المجلدات أو الاجزاء، اسم المحقق ان وجـد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ب – في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم البـاحث كاملا، عنوان الـدراسة كاملا بين قـوسين مزدوجين «   »، عنوان الكتاب كاملا، اسم المحرر او المحرريـن، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

جـ – في المجلات:

اسم البـاحث كامـلا، عنوان البحث بين قوسين مـزدوجين «   » اسم المجلة كـاملا وتحته خط، رقم المجلد او السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.

ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية:

د – في المخطوطات (للمرة الاولى):

اسم المؤلف كـاملا، عنوان المخطوط كامـلا، الجهة التي تحتفظ به، تـاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الـورقة من الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب). ثم ذكـر مايشـار به الى المخطوط في المرات التالية.

وتكتـب الاسماء الاجنبيـة بـالعـربيـة والـلاتينيـة بين قـوسين (   )، ويشـار الى الملاحظات الهامشيـة بنجمة *. وتـرقم الحواشي بارقـام تتسلسل مـن اول البحث الى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح البـاحث نسخـة من العدد الـذي نشر فيه بحثه والاعـداد الصادر خـلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.

محتويات العدد

تنويه:

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

الى قرائنا الاعزاء:

يتزامن صدور العدد الثالث والخمسين من مجلة دراسات تاريخية التي تصدر باشراف لجنة كتابة تاريخ العرب وذكرى العيد الفضي لقيام الحركة التصحيحية في القطر العربي السوري التي قامت بها جماهير شعبنا بقيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.

ونحن نعلم ان من حق كل الشعوب ان تفخر بأمجادها وان تعتز بانجازاتها وشعب سورية العربية يؤكد للعالم ككل ان هذه الحركة المباركة شكلت نقطة انعطاف كبرى في التاريخ المعاصر ليس بالنسبة للقطر العربي السوري وحده وانما في التاريخ العربي وحتى العالمي ايضا من خلال تأثيرها وفعاليتها في مسيرة الاحداث وفي صنع القرارات.

وأهمية هذه الحركة تأتي بالدرجة الاولى من خلال حملها لرسالة الامة العربية تلك الرسالة الانسانية الحضارية التي حملها العرب عبر تاريخهم والتي تتمحور حول الحب والخير للانسان اينما وجد الانسان وايماناً من سورية بهذا الدور الحضاري. اخذت على عاتقها متابعة حمل رسالة الامة العربية رسالة الخير لشعبها ولشعوب العالم أجمع

وقد كرس لها السيد الرئيس حافظ الأسد كل امكاناته وأعطى لهذا الامر كل حياته سواء في الدفاع عن وطنه وأمته أو في ترسيخ أسس السلام والعدل في العالم. فالسلم والحرب في فكر وسلوك القائد الأسد مكرسان لخدمة السلام والعدل، ونحن اذا نغتنم هذه المناسبة التاريخية المجيدة فاننا نوجه الى شعبنا العربي والى شعوب العالم بشكل عام والى قرائنا الاعزاء بشكل خاص بطاقة حب وتحية من سورية ومن شعب سورية ومن لجنة كتابة تاريخ العرب آملين أن يتحقق السلام وأن تتوطد عرى الصداقة والتعاون بين الشعوب وأن يحقق المجتمع الانساني المزيدمن التقدم والازدهار

رئيس لجنة كتابة التاريخ العرب
الاستاذ الدكتور عبد الغني ماء البارد
رئيس جامعة دمشق

في تصنيف
لغة إبلا

في تصنيف لغة إبلا

ف.فون زودن*

ترجمة: د. فاروق إسماعيل
جامعة حلب

لم يُتفق بَعْدُ بشكل تام على وجود أسرة لغوية خاصة هي «السامية الشمالية» ضمن إطار فصيلة «اللغات السامية».

لقد كان ب. لندس برجر B.LANDBERGER ـ قبل ستين عاماً ـ أول من رأى أننا لا نستطيع تقسيم أسماء الأعلام السامية التي كانت شائعة في العهد البابلي القديم إلى أسماء أكدية وأمورية ـ أو حسب اصطلاحه كنعانية شرقية ـ فحسب. وقد أظهر رأيه هذا تأثيراً واضحاً في كتاب ت. باور TH.Bauer المعنون بـ «الكنعانيون الشرقيون» (١).

لقد عرض الكتاب المذكور (ص ٤٢ ومابعدها) مجموعتين من الأسماء الكنعانية الشرقية التي يمكن أن تصنف في قسمها الأكبر كأسماء أكدية وأمورية في آن واحد. وهي الأسماء المنتهية باللاحقة (آنوم) والمبينة بالتكرار نحو بوز بوز (م)، ديج ديج (م) وغيرهما. ولم يزعم آنذاك أن جميع أسماء تلك المجموعتين ذات أصل واحد.

بعد ذلك بزمن قصير أكد م. نوت (٢) M.Noth مع اختلاف في التفاصيل الجزئية ـ أن المرء يميز بين الأسماء السامية العائدة إلى الألف الثاني ق.م أكثر من مجموعتين مختلفتي الأصل. وقد استخدم آنذاك مصطلح «الآرامية الأولى» الذي تبناه فيما بعد ي ليفي Lewy J ولا مجال هنا لمناقشته وأكتفي بالاشارة والتوجيه إلى دراسة د.و ادزارد D.O.EDZRD «ماري والآراميون» (٣).

لقد طرحت كثير من الأسئلة الجديدة عندما اتضح وجود أسماء كثيرة أقدم تعود إلى العهد الأكدي القديم. ونحن مدينون بالشكر لـ ي. جلب I.J.Gelb لجمعه إياها في كتابه «مسرد اللغة الأكدية القديمة» (٤).

دراسات تاريخية، العددان ٥٣ / ٥٤، تموز ـ كانون الاول ١٩٩٥

لقد بينت الدراسة الأولية لكتابه هذا أننا لانستطيع بأي شكل من الأشكال عدّ جميع الأسماء السامية العائدة إلى العهد الأكدي وعهد سلالة أور الثالثة أسماءً أكدية، بل يجب النظر إلى كثير منها على أنها شواهد لغة سامية أخرى.

لقد أشرت إلى ذلك في مقالتي«حول تصنيف اللغات السامية»(٥) ، وبينت اعتراضي على تحديد ثلاث أسر لغوية فقط ضمن اللغات السامية، واقترحت تسمية الأسرة اللغوية التي أضفتها بـ(الأمورية القديمة)، لكني تراجعت عن اقتراحي ذاك فيما بعد لأنه شاع مع الزمن إطلاق تسمية (الأمورية)على اللغة الكنعانية المبكرة العائدة إلى عهد حمورابي)(٧).

إنني أفضل تسمية (الكنعانية المبكرة) على (الأمورية)أو (الكنعانية الشرقية)، لأنها تعبر بوضوح أكثر عن حقيقة انتماء هذه اللغة. ولكن ذلك ـ كما يبدو ـ لايلقى قبولاً.

لقد اقترحت تسمية (السامية الشمالية) للأسرة اللغوية السامية الثانية التي ظهرت في الألف الثالث ق.م ـ لأول مرة ـ في دراستي حول اسم الإله(يهوه)(٧)، ولكن ليس المهم في الأمر هو تسمية المجموعة لغوية؛ وإنما التساؤل المطروح: هل من الضروري حقاً تحديد لغة أو أسرة لغوية سامية أخرى بين لغات الشرق الأدنى القديم؟

لايمكن تقديم إجابة مفصلة تسلط الضوء على جميع جوانب المسألة إلا في دراسة تفصيلية معمقة. ولكن يمكن ـ ضمن إطار هذه الندوة ـ تقديم تقرير قصير يبين بعض النقاط الأساسية بإيجاز.

في البدء ، تجب الإشارة باختصار شديد إلى الصعوبات المرتبطة بمصطلح«أسرة لغوية» لأنه لايوجد على حد علمي تحديد تام له.

لقد قسمت المجموعات اللغوية الأساسية الكبرى كالسامية والهندوجرمانية منذ زمن بعيد إلى أسر لغوية، ولكن اكتشاف لغات مجهولة ميته في هذا القرن دفع إلى التفكير بوجود أسر لغوية أخرى وإلى ضرورة التفكير بوجود أسر لغوية أخرى وإلى ضرورة التفكير بتصنيف عام جديد. وقد استغرق الاتفاق على أسر لغوية جديدة كـ(اللغات الحثية) زمناً طويلاً.

ثمة تساؤل تردّد ويجب أن يستمر هو: ماهي الحالات التي تتطلب بالضرورة تحديد أسرة لغوية جديدة للغة ماحديثة الاكتشاف؟

إن صعوبات الأمر قليلة جداً فيما يتعلق باللغات الهندو جرمانية لأنها وفيرة العدد ومنتشرة جغرافياً بشكل أوسع ومتمايزة عن بعضها بوضوح. ولكن كيف وعلامَ نعتمد في تحديد أسرة لغوية جديدة من ا للغات السامية؟ هل تكفي الفروق الكبيرة بين صيغ الضمائر أو أنماط بناء الاسم أو صيغ الجمع أو البناء الفعلي أو ا لتصريف؟ وأية أهمية نوليها للثروة اللغوية المعجمية؟ وهل لها حقاً أهمية قليلة بسبب كثرة الكلمات المستعارة منها إلى اللغات المجاورة بشكل خاص؟

أخشى ألا نصل إلى الاتفاق على جواب محدد على هذه التساؤلات؛ ولاسيما إذا كانت

النصوص المتوافرة لاتسمح بإنجاز دراسة نحوية مفصلة ومعجم شامل يجمع القسم الأكبر من الثروة اللغوية. وعندها ربما يكون من واجب المرء الاكتفاء بمجرد طرح آراء ذرائعية واقعية.

قبل أن تدخل لغة إبلا دائرة معارفنا قبل سنوات كانت هناك ـــ خلال المئة والثمانين سنة الأخيرة ـ على الأقل اثنتا عشرة لغة مختلفة معروفة ـ إذا صح تعدادي لها ـ مكتشفة ضمن الإطار الجغرافي المحصور بين فلسطين وايران، وتعود تاريخياً إلى ماقبل العهد الهلنستي.

لقد بقيت تلك اللغات قروناً كثيرة ميتة مجهولة تماماً للغرب والشرق على السواء، وهي لغات مدونة غالباً بالكتابة المسمارية. ونشير إلى أن تلك اللغات الاثنتي عشرة لاتشمل لهجات كثيرة ـ ولاسيما الأكدية ـ، وتتطلب بعضها دراسات استنتاجية جديدة لها.

خلال هذا الزمن الطويل استطاع العلم أن يجني تجارب متنوعة عدة من دراسة لغات أمكن إعادة فهمها وإحياؤها رغم عدم تواصلها مع تراث لغوي حي. وهي تجارب مختلفة؛ فقد لقي بعضها النجاح وأخرى النجاح الجزئي، وأخفقت بعضها. وفي جميع الحالات تطلب الأمر ربطها مع لغات معروفة جيداً، مستخدمة أو غير مستخدمة، وذلك لإيجاد مدخل لفهمها.

لقد تجلّى مراراً أن الاستفادة من اللغات المعروفة لم تَقُد بالضرورة إلى معرفة صحيحة كثيرة. بل أدت أحياناً إلى أخطاء لم تميز بسرعة. وغالباً ماميزت بشكل خاص وأبعدت عنها بسرعة التفسيرات الدلالية الخاطئة للكلمات. وغالباً مالاحظ المرء بشكل متأخر أن الفروق بين اللغات المستخدمة أكبر مما هو ظاهر ولاسيما اذا كان ذلك متعلقاً بلغات من فصيلة واحدة ولكن من أسرتين مختلفتين مثل الأكدية والعبرية أو الحثية واللاتينية، هنا يجب علينا الابتعاد عن ذكر الأمثلة لانها تحتاج عادة إلى شروح. ولكن ماذا تعني هذه التصورات بالنسبة للغة إبلا التي ستطول الدراسات الأولية حول تصنيفها بالتأكيد سنوات أخرى؟

ماأقصده هو أن بعض التجارب ذات الأساليب الخاطئة التي جرت عند تصنيف لغات مسمارية أخرى يجب أن تدفعنا إلى التحذير من السرعة في ضم لغة إبلا إلى أسرة لغوية محددة من فصيلة (اللغات السامية). وهذا يعني ـــ بشكل محدد ـ أنه يتوجب علينا ألا نحدد الآن انتماء لغة إبلا إلى الأسرة الشمالية الغربية وقربها الشديد من اللغة الكنعانية، كما يفعل ج.بيتيناتو G.Pettinato معتمداً على رأي ج.جاربيني G.Garbini الوارد في الصفحة (٦٤) من كتابه عن إبلا، رغم وجود مظاهر لغوية وفيرة قد تدفع إلى ذلك.

وسيكون أيضاً من مخاطر التقدير المتسرع غير المحكم للمظاهر اللغوية إذا ماعتمدنا على سمات لغوية أخرى، وصنفنا بسرعة لغة إبلا في أسرة اللغات السامية الشمالية الشرقية، وعددناها شكلا من أشكال الأكدية الغربية.

وإذا ماحاولنا تفسير كلمات لغة إبلا فيمكن لنا الاستعانة بالمعجم العبري، ولكن من ناحية ثانية قد يكون المعجم الأكدي أيضاً مصدراً مفيداً لاغبار عليه. أما إذا تحاشينا الآن تصنيف

لغة إبلا على أنها سامية شمالية غربية أو سامية شمالية شرقية فإننا نربح بذلك المسافة النقدية الضرورية تجاه جميع معاجم اللغات السامية الأخرى. إنه من الممكن لنا بل الواجب علينا أن نستفيد منها جميعها، ولكن بدون مجازفة تقود إلى التأثر بإحداها دون تروٍّ وتمحيص.

ماعلاقة هذه التصورات المنهجية مع التساؤل المطروح: هل وجدت أسرة لغوية سامية شمالية إلى جانب الأسر اللغوية السامية المعروفة؟

أنا أقصد من ذلك الكثير، لأن مسألة نسب لغة إبلا إلى الأسرة السامية الشمالية يجب أن تعرض للنقاش مادمنا نفكر في مواجهة تصنيفها في الأسرة الشمالية الغربية أو الشمالية الشرقية.

سيبرز بالتأكيد مباشرة الاعتراض التالي: ألا تسري التصورات التي اعتمدناها في إنكار وصف لغة إبلا بـ(الكنعانية الأولى؛ أو (الأكدية الغربية) أيضاً ضد تصنيفها في أسرة اللغات السامية الشمالية؟ وصحيح أنها قد لاتسري بعد بقوة، ولكن السبب في ذلك هو أن السامية الشمالية ـ بالنسبة لنا ـ مازالت ذات مساحة واسعة غير محددة الأطر!

إنني إذ أرحب بهذا الاعتراض أذكر أمرين أساسين متعلقين به، هما:

١ـ إن احتمال ألاّ تشكل لغة إبلا مع لغة الأسماء العائدة إلى الألف الثالث وبداية الثاني ق.م المسماة مبدئياً بالسامية الشمالية أسرة لغوية واحدة احتمالٌ قائم. ولكنه في الوقت نفسه ليس مرجحاً وجود أسرة لغوية رابعة ـ إلى جانب الأسر الثلاث التي أشرنا إليها ـ في الإطار الجغرافي نفسه وفي الفترة التاريخية نفسها تقريباً.

٢ـ لايوجد حتى الآن معجم لغوي أو مسرد ألفاظ يضم جميع الأسماء(الشمالية الغربية) يمكن أن يحثنا على الإسراع في عملية تحديد معاني مفردات لغة إبلا بالاستفادة من تلك الأسماء.

إننا إذا ماأردنا صياغة منطلق عمل نظري ـ رغم كل الضوابط التي عرضناها ـ على نحو: «تشكل لغة إبلا مع لهجات لغة أو عدة لغات يمكن استخلاصها من أسماء ومفردات معينة وأساليب بنائية ضمن الأكدية المبكرة، وعلى الأرجح مع اللغة الأُجَريتية(الأوغاريتية) أسرة لغوية مستقلة ضمن اللغات السامية القديمة» فإننا لانفعل بذلك شيئاً إطلاقاً، بل يمكن أن يضر بشكل جدي تصميمنا على معالجة أمر لغة إبلا.

لدينا تصور معين عن الفروع المتأخرة لهذه الأسرة اللغوية وكذلك عن الأجريتية، ولكننا لانريد أن نستمد من الأُجريتية نتائج عميقة واسعة تتصل باللغات السامية الشمالية الأقدم بكثير، لأنها(أي الأُجريتية) تأثرت بالكنعانية في مجال البناء اللغوي والثروة المعجمية، وذلك بسبب العلاقات المتنوعة لسكان أجرت مع المجموعات الكنعانية. إنه ليس مستبعداً أن تكون لغة إبلا مرحلة لغوية مبكرة من الأجريتية، ولكن يجب ـ في اعتقادي ـ ألا يكون ذلك منطلقاً

للبحث.

لم أتفق أبداًمع رأي كثير من الباحثين في أن الأجريتية لغة كنعانية، فرغم الاشتراك في البناء اللغوي والثروة اللغوية هناك أيضاً اختلافات كثيرة جداً. وأود الإشارة هنا إلى أمر واحد يتعلق بـالمعجم، وهـو أن الأجـريتيـة لاتستخدم لأداء معنـى (يـرى) المفـردة الكنعانيـة(رأى) ولا الأكديـة(أَمارُ«م») ولاالآرامية (حَزا)؛ وإنما فعـلاً مختلفاً تماماً هو (فُـوه ـ بتشديد الفـاء ـ). بالمقابل تجدر ملاحظـة أن جميع اللغات السامية ـ على خلاف ماسبـق ـ تتفق في امتلاك جذر لغوي واحد لفعل(يسمع) هو (ش م ع).

لقد قلـت في البدايـة أن ت. باور قام قبـل أكثر مـن خمسين عاماً في كتـابه عـن الكنعانيين الشرقيين بتحليل مجمـوعات من أسماء الأعـلام في ا لعهد البـابلي القديم وهــي أسماء لم يكن ممكناً تفسيرها بالإعتماد على اللغة الأكدية ولا الكنعانية .

سأتعرض الآن إلى الأسماء المنتهيـة باللاحقة(آنـوم) لأنها لافتة للنظر من بينهـا، وسنرى إلى أية درجة صار واقع المشكلة معقداً.

لنقارن قائمة بـاور وبعض مسارد الأسماء الواردة في المؤلفات التي تتضمـن نشراً لوثائق بابلية قديمة مع الأسماء المفهرسة في الجزء الثالث من كتاب جلب الذي يختصر بـ MAD (٨) ـ وهي أسماء تعود إلى العهـد الأكدي وعهد سلالة أور الثالثـة ـ والأسماء الواردة في نصوص إبلا حسب المصنـف الذي نشره ج. بيتيناتو(٩)، وكـذلك مع أسماء واردة في نصوص أجـريت مماثلة في طـريقة بنائها (١٠) وسـوف نلاحظ بوضـوح فروقاً كبيرة بينها مــن حيث كميتها العددية ونماذج بنائها(١١).

كانـت تلك الأسماء مازالـت قليلة في إبلا وبـابل خلال العهـد الأكدي، ولم تكن متنـوعة في نماذجها، وغالباً ماكانت اللاحقة(آنوم) مسبوقة بجذر لغوي مكون من مقطع واحد. ولم أعثر على شواهد أخرى مماثلة تماماً لأسماء إبلا وبابل تلك.

في عهد سلالة أور الثالثة تزداد الأسماء المنتهية بـ(آنوم)، وتُظهر نماذج بناء متشابهة مع نماذج العهد البابلي القديم، وثمة عدد من تلك الأسماء نعرفها سابقاً في نصوص العهد الأكدي، نذكر منها على سبيل المثال(شَرْخانوم).

لقد كانـت الجذور اللغوية المكونـة من مقطع واحد والسـابقة للاّحقة شـائعة في عهد أور الثالثة، ولكن المكونة من مقطعين لم تكن نادرة أيضاً

وممـا يجدر مـلاحظته ــ اعتماداً على كتـاب جلـب MAD ــ إن أغلبية الأسماء المنتهيـة باللاحقة (آنـوم) هي أسماء أناس من الـ(مارتو)؛ أي غالباً أسماء أناس مـن سورية. لم أعثر على أسماء نساء تنتهي بـ(آنتوم، أي صيغة التأنيث من الـلاحقة)، ولكني لاأريد أن أزعم بذلك أنها لم تكن موجودة البتة.

توجد أيضـاًأسماء أكدية منتهية بـــ(آنوم) مثل قَقَّدانوم«أي: ذو الـرأس الضـخم»، ولكنها

ليست كثيرة العدد، أما التساؤل: كم من هـذه الأسماء المنتهية بـ(آنوم) تحتمل الأصل اللغوي الكنعاني؟ فمازال بحاجة إلى دراسة.

إذا ماتأمل المرء أسماء الأعلام في إبلا وفي بابل قبـل العهد البابلي القديم بشكل عام فسوف يلاحظ ـ رغم عدم وجود دراسة مفصلة بعد ـ تنوع نماذج بنائها.

واعتماداً على ذلـك ثمة افتراض يطـرح نفسـه ويتلخـص في أن تلك الأسماء لاتمثـل اللغـة الأكدية ــ التي تراجع استخدامها في إبـلا ـ ولالغة أو لغتين كنعانيتين مبكرتين أو لغـة سامية شمالية معينة فحسب؛ وإنما تشير إلى تنوع لغوي كبير.

لقد تعرّضت اللغـات السامية الشمالية لتبدلات عبر تعاقب القرون بـدءاً من أواسط الألف الثالث ق. م ، وامتازت إلى عدة لغات، ولانستطيع التعمـق أكثر في هذه المسألة قبل أن يتم نشر القسم الأكبر من نصوص إبلا.

في إبلا وبـابل وكـذلك في النصوص الآشـورية القديمـة، نجد أسماء كثير ة تبـدأ بـ(إنّام، إنّوم)، وتكتب في إبـلا بصيغة مقطعية(إن، نا) ــ حسب مصنف بيتيناتـو المذكور في الحاشية (٩) ـ، ولأن العنصر (إنّـام، إنّوم) يبـدو غريبـاً دخيلاً في الأكـدية فـربما يكون مستعـاراً من السامية الشمالية.

الأمر نفسه يسري على كلمة(مُشْكينم) التي جرى حولها نقاش طويل. فالأصل فيها حسب الأساليب الكتـابية الرمزية السـومرية هو (مَشكاّإنـوم)؛ أي أنها كانت مبنية بالسـابقة (مَـ) الدالة على ا لفـاعلية والغريبة على الأكدية. أمـا الحكم بأن الفعل(شوكينـوم) والأفعال الأخرى المصبوغة على وزن المتعـدي بالشين، نحو:شوقَلُّـوم«يعلّق»، شوبَرُّوم«يـوسّـع»... إلخ(١٢) أفعال غير أكدية الأصل فمازال بحاجة إلى دراسة.

ولكن إذا مـاطرح التسـاؤل: هل يفيد لغـة إبلا حقـاً التسليم بأن مجمـوعات أسماء بـابل وماري المشار إليهـا واللغة الأجريتية تشكل أسرة لغويـة خاصة، يمكن للمرء أن يـدعوها الآن (السامية الشمالية)أو غير ذلك؟ فأعتقد أنه لايمكن تقديم جواب مرضٍ عنه في جمل قليلة.

إنني أقصد من ذلـك الإشارة إلى أن الملاحظات النحوية التي عرضـها ج. بيتينـاتو في كتابه عن إبلا(ص ٦٧ ومابعـدها) تظهر اختلافات واضحة بين لغة إبلا واللغتين الكنعـانية والأكدية في آن واحد، وتستدعي لذلك ضرورة تحديد أسرة لغوية خاصة بها.

لاأود الحديث مبدئيـاً عن المظاهر الصوتية، لأن بعضـاً منها مازالت غامضـة بسبب عدم اطراد نظام الكتـابة المسمارية وعدم معـرفتنا الكافية ببعـض القيم الصوتية الخاصـة في لغة إبلا. أما فيما يتعلق بالصيغ النحوية فأرغـب في ذكر الضمير(أَنْتَنُ) أي: أنتم... ـ ويلاحظ أنه يرد بنون بدل الميم على خلاف الصيغة العبرية أَتّم ـ.

إنه يرد بشكل متقابل لافت للنظـر مع اللاحقة الضميرية الخاصة بالمثنى(ـ كُما) (١٣) في رسالة من إبلا غير منشورة بعد(١٤).

أما أحـرف الجر فنفتقد بينها عدداً مـن أحرف الجر السـاميـة الغربية مثل(لـِ ، بـِـ ، من)، ويجد مقابلها حروفاً أخرى معادلة محورة عن الأكدية مثل: (ي نا ويقرؤها بيتيناتو:لِي نا، إِن، أَشْتُ أو أَشْـتَ) . كما نجد صيغـة (شين) المماثلة جزئيـاً لظرف الزمـان في الأكديـة، وصيغة (إِشْكي) المشابهة للحرف الاثيوبي (إِسْك) بمعنى «حتى».

فيما يتعلق بالفعل نجد أن عدد ا لصيغ التي تـأكد تفسيرها مازال قليلاً، وذلك بسبب كثرة استخدام الرمـوز السومرية بدلاً عـن المقطعية. ومما يجدر ملاحظته هـو أن القوائم المعجمية تستخدم صيغة المصدر الأكدي(أكالوم: يأكـل)، كما ظهرت فيها شواهد على أفعال مصوغة في وزن المزيد بالشين والتاء(١٥).

ثمة ضرورة لإنجاز أبحاث خاصـة ليست غريبـة حول السابقة الفعلية(تـِ..) التي تظهر في صيغ الغائب، لأنها ليست غريبة عن الأُجريتيـة والعبرية. أما السابقة(يـَ..) فكانت قد تطورت سابقاً إلى يـاء ساكنة (يـْ...) كما في الأكدية. وبما أن الكنعـانية احتفظت قروناً عـدة بالصيغة المفتوحة (يـَ...) فلا يمكن أن تكون لغة إبلا لغة سامية شمالية غربية.

تظهر القوائم المعجميـة أن الكلمات الدالة على أكثر الأفعـال والمفاهيم استعمالاً هي غـالباً كلمات ليست أكـدية ولاكنعـانية. أمـا الرسائل والـوثائق والنصـوص الأخرى فسـوف تقلل بالتأكيد صعوبات الفهم الكثيرة التي نقابلهـا فيها إذا مالجأنا إلى الكنعانية والأكدية في تفسير معاني مفرداتها.

وفي الختام أشير إلى أنني لم استطع في بحثـي الموجز هذا تقديم أكثر مـن بعض الملاحظات التي يمكن ان تغني أعمال البحـث التالية. وأود أخيراً الإشارة باختصار شـديد إلى أنه لايمكن مناقشـة مسألة الأسر اللغويـة ضمن(اللغات الساميـة) بعيداً عن التصورات التـاريخية، كما سبق أن ألمحـت عام١٩٦٠في دراسة لي(١٦) وفي مـواضع أخرى. فمـن الواجب التحقـق من أصل مـؤسسي مملكة إبلا، ألم يـؤسسها ساميون يشكلـون موجة بشريـة ناطقةبـ(السامية الشمالية؟) أليســوا هم أنفسهم صاروا فيما بعـد ذوي مكانة تـاريخية متميزة في بلاد بـابل، وأوجدوا الأسس الممهدة لقيام مملكة سرجون في أكد؟.

إضافة:

اعتماداً على عدد من الأبحاث التي ألقيت في ا لندوة؛ ولاسيما بحث ج.بيتيناتو حول القوائم ثنائية اللغة في إبـلا ومعلوماته المثيرة حول الكلمات المترادفة وجدت نفسي ـــ مع غيري ـ أعتقد بأن لغة إبلا مـن خلال نصوصها وصلتنا بلهجات عدة تظهر اختـلافات لافتة للنظر؛ ولاسيما في مجال الضبط الصوتي ولفظ الأصوات الصفيرية.

وقد قادني هذا إلى التفكير بأن كثـرة استخدام الرموز السومرية في الكتابـة ـ وهي مزعجة لنا، وكنـا نتمنى بدلاً عنهـا استخدام الكتابـة المقطعية ـــ له أسباب مبرر ة على الأرجـح. فتلك الرموز تستـوعب الاختلافات اللهجـوية، وتعين القارىء الابلائي على أن يقـرأ أو يلفظ حسب

لهجته، ويبقى المعنـى مفهوماً موحداً بين كـل اللهجات. وهذه مفيدة إذا مـاعلمنا أن استخدام الكتابة المقطعيـة في لهجة ما، كالتي تستخدم أحيـاناً الضم في موضـع الفتـح، يمكن أن تعرض القارىء في البداية لصعوبات جمّة (١٧).

إن الافتراضات التـي قدمناهـا هناتحتاج إلى صيـاغة محددة دقيقة وربما إلى تصـويبات. ولكن لايمكن تحقيق ذلـك ريثما تتوافر بين أيدينا بشكل مفصـل جميع الكلمات المترادفة التي ظهرت في النصوص، وترتب حسب موضوعاتها ودلالاتها.

ومـن اللافـت للنظر أيضـاً وجـود أشكال كتـابيـة متنوعـة لأسماء الأعلام (الأشخـاص والأماكـن)، وفي الحقيقة لم يتـح لي الوقـت للاستفـادة من كتـاب جلب الضـخـم عن الأسماء الأمورية الصادرة مؤخراً(١٨).

* * *

الحواشي

* المؤلف W.von Soden من شيوخ علماء اللغات الشرقية(السامية) القديمة، يبلغ من العمر /٨٧/ مواليد/١٩٠٨/. أستاذ متقاعد في معهد الدراسات الشرقية القديمة بجامعة مونستر MUNSTER (ألمانية). له كتب وأبحاث كثيرة جداً في لغات الشرق القديم ولاسيما(المسمارية) وآدابه ومعتقداته الدينية.

ألقى هذا البحث في ندوة عالمية حول لغة إبلا نظمت في نابولي بايطالية (نيسان ١٩٨٠)، ثم نشر ضمن أعمال الندوة في:

L.Cagni (ed.):La Iingua di Ebla. Naples 1981,pp.533-361.

والعنوان الأصلي للبحث هو: اللغات السامية الشمالية في بلاد بابل وسورية.(المترجم)

١ـ Th.Bauer: Die OSTKANAANAER. Leipzig 1926

٢ـ M.Noth:Die israelitischen Personennamen im Rahmen der gemeinsemitischen Namengebung. Stuttgart 1928

٣ـ D.O. Edzard:Mari und ARAMAER?. ZA54(1964)142ff

٤ـ I.J.Gelb:Glossary of Old Akkadian(Materials for the Assyrian Dictionary,No.3,Chicago 1957.

٥ـ W.von Soden:Zur Einteilung der semitischen Sprachen. WZKM 56(1960)177ff

٦ـ انظر بشكل خاص:

H.B.Huffmon:Amorite Personal Names in the Mari Texts. Baltimore 1965

٧ـ W.von SODEN : JAHWE "Er ist,-ER ERWEIST SICH".WO3(1966)177ff

٨ـ مختصر الكتاب المذكور في الحاشية /٤/. (المترجم).

٩ـ G.Pettinnato:Catalogo dei testi cuneformi di Tell Mardikh-Ebla.Napoli 1979

١٠ـ Fr. Grondahl :Die Personennamen der Texte aus Ugarit. Roma 1967.

١١ـ لايمكن تحديد عدد الأسماء الأكدية القديمة الإبلائية المنتهية باللاحقة (آنوم) تحديداً تاماً، لأننا لانعرف بالضبط كيفية قراءة العلامة Lum في الأسماء المنتهية بها، فهي تقبل القراءتين Lum وnum. ومما يزيد الأمر

صعوبة هو أن الكتابة المقطعية المفصلة لها(-Lu-um)أو (-nu-um) نادرة في تلك النصوص.

فيما يتعلق بأسماء ابلا أيضاً فقد لاحظت أن بيتيناتو يقرأ العلامة دائماً Lum، ولكن توجد بينها أيضاً أسماء تنتهي بـ(-a-nu)أو (-an)، وهي على الغالب ليست سامية.

أيضاً هناك شك في أسماء الأماكن المنتهية بـ (-a-nu)أو (a-Lum)أو (-an)، ولايمكن الجزم بأنها سامية أو من أصل آخر.

١٢ـ انظر كتاب فون زودن الأساس في قواعد اللغة الأكدية. ويختصر بـ GAG، الفقرة / ١٠٩/.

١٣ـ كما في العربية تماماً(المترجم).

١٤ـ معلومة أخوية شفهية من ج. بيتيناتو.

١٥ـ انظر كتاب فون زودن GAG، الفقرة / ٩٤/.

١٦ـ راجع. WZKM 56,183 ff.

١٧ـ قدم فون زودن بحثاً مفصلاً عن«القوائم ثنائية اللغة في إبلا وفي العهد البابلي القديم، في نـــدوة عالمية تالية حول(الثنائية في نصوص إبلا) ، نابولي ، نيسان ١٩٨٢، وقد نشر في

L.Cagi(ed):Il Bilinguismo a Ebla . pp. 51-64.

١٨ـ I.J.Gelb:Computer-Adid Analysis of Amorite. As 21,1980.

طرز العمارة والبناء

في الأردن وفلسطين

خلال الفترة الفارسية والفترة الهلنستية

طرز العمارة والبناء في الأردن وفلسطين خلال الفترة الفارسية والفترة الهلنستية

الدكتور زيدون المحيسين
أستاذ مشارك - جامعة آل البيت
معهد العمارة والفنون المفرق - الأردن

مقدمـــة

تبدو المعلـومات التاريخيـة المتعلقة بالفترة الفـارسية ضئيلـة مقارنة بـالفترات الأخرى . وبالمقابـل نجد الشواهد الأثرية مـن المواقع الممثلة لهذه الفترة متفاوتة في مـرافقها المعمارية ، فالبعض يمثل مظهـراً جيداً والآخر يعتريه كثير من التدمير ، والسبب في ذلـك يعود إلى العوامل الطبيعية والبشرية .

جاء استعـراض المواقع العائدة لهذه الفترة في الأردن محدوداً ، والمواقع الممثلـة لها قليلة ، بعكس المواقع الفلسطينية ، التي أمكن تتبع العـديد من العناصر المعمارية في كثير من المواقع ، وأمكن التوصـل إلى مخطط عام يظهر المرافـق المعمارية للفترة الفارسية . ومـن خلال دراسة العناصر المعماريـة يتضح بعض التقنيـات المستخدمـة في البناء ، سواء في المواقـع الأردنية أو الفلسطينيـة ، والتي تظهـر اتصالاً مـع الساحـل السـوري والفينيقي مـن جهة ، والأصـول السابقة من جهة أخرى .

أما في الفترة الهلنستيـة ، فإن المواقـع الممثلة لهذه الفترة في الأردن ، جـاءت محددة بسبب الاستيطان الذي طرأ على تلك المواقع ، في الفترات اللاحقـة ، مما حال دون ابقائها على مخططها الأصلي ، ولكـن ذلك لايعنـي عدم الاستقـرار في الأردن خلال هـذه الفترة ، كما اعتقد البعـض ولمدة طويلة ، إلى أن أظهرت الاكتشافات الجديدة أهميـة تلك الفترة ، وخاصة التنقيبات الأثرية في مواقع عراق الأمير ، جرش ، طبقة فحل ، البصيلة وأم قيس .

الفترة الفارسية

شهد الشرق الأدنى في منتصف القرن السادس قبل الميلاد تحولات سياسية جديدة، نتيجة انتهاء السيطرة البابلية، على يد الملك الفارسي (كورش - CYRUS) عام ٥٣٩ قبل الميلاد. (١) والذي أسس امبراطورية عظيمة ومترامية الاطراف، امتدت من مرتفعات ايران. إلى حدود مصر التي ضمت فيما بعد إلى الامبراطورية عام ٥٢٥ قبل الميلاد على يد الملك قمبيز (٢) وادعى كورش بانه ملك العالم، وملك بابل، وسومر، واكاد، وملك الحواف الأربع للأرض(٣)

لقد تميز الحكم الفارسي بالتسامح، واحترام التقاليد الدينية للشعوب المسيطر عليها بهدف كسب تأييدهم .(٤)

ولكن تجدر الاشارة بان العديد من اليهود، قد فضلوا البقاء في بابل، حيث تمتعوا بالحضارة هنالك، في حين اظهر اليهود المحليّون عداءاً شديداً تجاه اليهود العائدين الذين اتهموا بانهم من دماء مختلطة (٥).

وفي ما يتعلق بتاريخ الأردن وفلسطين في الفترة التي تلت سقوط الدولة البابلية، وخصوصاً في الفترة الفارسية فهي ضئيلة (٦) رغم وجود المصادر الكلاسيكية المتعلقة بتاريخ المنطقة، مثل اعمال هيرودوت وسترابو وديودوروس الصقلي ويوسفوس وبعض النقوش والكتابات من القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، ومَن سفري (نحميا NE-HEMIAH وعزرا EZRA) (٧).

وقد ضمت سورية والأردن، وفلسطين إلى الامبراطورية الفارسية، دون ابداء مقاومة بعد أخضاع الامبراطورية البابلية حيث لاتوجد مصادر مكتوبة تذكر حدوث معارك في فلسطين ضد الفرس (٨).

لقد اتبع الفرس النظام الاشوري والبابلي، من الناحية الادارية، في تقسيم المناطق إلى ولايات (المرزبانية) ولي عليها احد النبلاء من الفرس. وقسمت هذه الولايات إلى مقاطعات اصغر، نصب عليها حاكم فارسي والبعض منها ولي عليها احد النبلاء المحليين (٩)فيذكر هيرودوت بان الامبراطورية قسمت إلى عشرين مقاطعة، في عهد (داريوس الأول، DARIUS 1) الذي حكم من عام ٥٢٢ — ٤٨٦ قبل الميلاد (١٠) وكانت مقاطعة « خلف النهر» المقاطعة الخامسة في الامبراطورية، وحدودها من البسيط في شمال سورية، إلى حدود مصر، ويقع ضمنها كل من الأردن وفلسطين (١١).

لقد كشفت الحفريات الاثرية التي اجريت في العديد من مواقع هذه الفترة، عن تدهور في الحياة العمرانية، فاصبحت المدن تفتقر إلى التنظيم، كما أن المباني العامة والتحصينات المتعلقة بالنظامين الاداري والعسكري قليلة حيث غلب الطابع الريفي على هذه المواقع (١٢)

انتهت الفترة الفارسية عام ٣٣٢ قبل الميلاد بمجيء الاسكندر الأكبر، الذي انهى السيطرة

السياسيـة الفارسيـة على المنطقة لتحـل محلها السيطـرة اليونـانية وبـدأ ما يعـرف بالعصر الهلنستي (١٣)

لقد دأب العديد من الآثاريين على دمج الفترة الفارسية ضمن العصر الحديدي ، فقد اطلق (البرايت ALBRIGHT) على الطبقة الممثلة لهذه الفترة ، في الطبقة الأولى في (بيتيل BETHEL) العصر (الحديدي الثـالث IRON III) من عـام ٥٥٠ — ٣٣٠ قبل الميـلاد (١٤) في حين حددهـا (رايت WRIGHT) ضمن الفترة الـزمنية ، الـواقعة بين الاعـوام ٥٣٩ — ٣٣٠ قبل الميلاد ، واطلق عليهـا اسم الدور الثالـث (الفارسي) ، اما (فردريـك وفرانكن FREDERICQ AND FRANKEN) فاتبعا في دراسة الفخار التقسيم من عام ٥٣٩ — ٣٣١ قبل الميلاد ، وهو التقسيم الاكثر شيوعاً (١٥)

مواقع الفترة الفارسية :

أ)الاردن: (خارطة رقم١)

انحصرت المواقع الفـارسية في الاردن في عدد محدود مـن المواقع التـي عثر فيها على بقـايا معمارية واضحة ومكتملة. وبالرغم من تحديد عـدد كبير منها ضمن المسوحات الاثرية، كتلك التي أجـريت في وادي الاردن، مثل مـواقع تـل ابو كامـل، وتل الصوان، وخـربة المركـع، وتل الحيات، وغيرها(١٦) وتمثلـت المواقع الفارسية ضمـن طبقات بعض المواقع غير المترافقـة مع بقايا معمارية، والبعـض الآخر وجدت ضمن المدافن، العائدة لهذه الفترة، مثـل موقع المقابلين والتـي أرخـت الى منتصـف القرن السـادس قبـل الميـلاد،(١٧) وتـل المزار المقبرةA، وأم اذينة.(١٩).

يعتبر موقعـا تل السعيدية الطبقـة الثالثة(٢٠)وتـل المزار الطبقة الثانية(٢١)مـن أفضل المواقع الفارسية المترافقة مع بقايا معمارية، بالاضافة إلى مواقع اخرى تمثلت البقايا المعمارية فيهـا بأجـزاء محددة، مثـل تل الخليفـة بالقـرب مـن خليج العقبـة(٢٢) وديـر علا الطبقـة الرابعةوالخامسة،(٢٣) ومواقع اخرى مثل عمان، وحسبان، وتل المغير، وطبقة فحل.

ومن أبرز المواقع الاثرية التي تمثل الفترة الفارسية في الاردن:

١ـ تل السعيدية:

تتمثل الفترة الفارسية في الموقع في الطبقة الثالثـة التي تقع في الجزء العلوي من التل، حوالي ٢٠متراً الى الشرق، حيث عثر في هذه البقعـة على مبنى مربع يتألف من سبـع غرف بنيت حول ساحة مبلطة.(٢٤) تخطيط المبنى مربع الشكل تقريباً، حيث يبلغ محوره الشمالي ـ الجنوبي ٢١,٩٥ متراً والمحور الشرقي الغربي ٢٢,٠٥متراً. استخدم الطـوب في بناء الجزء العلوي منه، باللـونين الرمادي المخضر والبنـي، بقياس(٤٥×٤٥×١٤سنتيمتراً) وتم استخـدام الاخشاب لتطويق الجدران الطوبية عند المدخل، والجهة الداخلية من عتبة الباب الغربية.(٢٥)

يتكون المبنى في مخططه من الحجرات التالية : —

الغرفة — ١٥١ — : ساحة مستطيلة الشكل ، مبلطة بحجارة كبيرة ، ومتوسطة الحجم ، اصطفت بشكل منتظم ، وتم ملء المسافات بينها بالحجارة الصغيرة والحصى ، ويتم الدخول إلى الساحة عبر مدخلين ، الأول من الجهة الجنوبية ويؤدي إلى الساحة عبر الغرفة — ١٠٢ — ، والثاني عبر الغرفة — ١٠٩ — ، (٢٦) وتحتوي الساحة على قناة لتصريف المياه في الزاوية الجنوبية الشرقية ، وتمتد اسفل الأرضية عبر الغرفة — ١٠٩ — ، فالجدار الشرقي ، وتنتهي خارج البناء على بعد ٣١٥ متراً . وغطيت القناة بحجارة على نفس مستوى الحجارة التي تغطي اساسات الجدران الشرقية والغربية للغرفة — ١٠٩ — (٢٧)

وتتميز جدران الساحة الغربية والشمالية والجنوبية بكونها متجانسة ، حيث بلغ سمك كل منهم حوالي ١,٢٥ متراً ، وبنيت بصفين ونصف من الطوب أما الجدار الجنوبي فتبلغ سماكته ١,٦ متراً ، وبني من ثلاثة صفوف ونصف من الطوب ، وربما كان هذا الجدار لدعم المبنى العلوي في الجهة الجنوبية.(٢٨)

الغرفة — ١٠٢ — : المدخل الرئيسي لهذه الغرفة عبر الساحة في الجهة الشمالية ، وترتفع أرضية الساحة ١٤ سنتمتراً عن أرضية هذه الغرفة المبلطة بحجارة صغيرة ، ووجدت بالأرضية أربعة أفران طينية ، ويبدو أن هذه الغرفة كانت مسقوفة لعدم العثور على تصريف للمياه فيها أما الجدار البارز شمالاً في الزاوية الشرقية ، فربما يمثل جزءاً من بناء لبرج أو جداراً يقسم الغرفة إلى وحدة أخرى صغيرة (٢٩) .

الغرفة — ١٠٣ — : تمتاز هذه الغرفة بكونها مرصوفة جيداً ، وتلعب دور رواق يؤدي إلى الغرف والساحة الرئيسية ويفضي هذا الرواق إلى الغرفة — ١٠٤ — بمدخل بعرض أقل من الرواق نفسه . وتمثلت عتبة الباب بحجر اساس للجدار الرئيسي الشرقي — الغربي أما المدخل الثاني يفضي من الرواق إلى الغرفة — ١٠٢ — وعتبة هذا المدخل هي استمرارية للأرضية المرصوفة ، وأهم ما يميزه استخدام الأعمدة الخشبية . (٣٠) .

الغرفة — ١٠٤ — : يتم الدخول إليها عبر الغرفة — ١٠٣ — من الجهة الجنوبية ، وأرضيتها من الطين المضغوط ، ويحمل الجزء المتبقي من الجدار الشرقي للغرفة آثاراً للجص ، وقد تعرضت الغرفة للتدمير نتيجة لحريق ، وجدت آثاره في الرماد والفحم ، وكذلك لون الجص الأسود (٣١) .

أما الغرفة — ١٠٥ — : فهي صغيرة الحجم ومستطيلة الشكل ، استخدمت الحجارة الكبيرة في تبليطها ويتم الدخول إليها عبر مدخل من الغرفة — ١٠٤ — وعثر في الجزء الشمالي — الشرقي من الغرفة على مخزن مخروطي الشكل ، شيد من الطين ، وتحتوي على بعض الكسر الفخارية وعظام الحيوانات والأصداف . (٣٢) وتحتوي هذه الغرفة كذلك على مدخل يفضي للغرفة — ١٠٦ — التي لم تبن ضمن المخطط الأصلي للبناء .

الغرفة — ١٠٧ — : غـرفة طويلة وضيقة ، لها مـدخل من الغرفـة — ١٠٨ — عتبته من التراب المضغوط وكذلـك أرضيتها أما الغرفة — ١٠٩ — فتحتـوي على مدخلين ، الأول يؤدي إلى الغرفـة — ١٠٨ — والثاني إلى السـاحة — ١٠١ — أرضيـة الغرفـة مبلطة بـالحجارة ، باستثنـاء المساحـة الملاصقة للجدار الغـربي ، والأرجح أنها تمثل اسـاسات لـدرج يؤدي إلى البرج في الجهة الجنوبية من الداخل ، ولكن هذا الرواق ضيق جداً لهذه الغاية فاعتقد بأنه يمثل مقعداً(٣٣) .

الغرفة — ١١٠ — : تقع في الجنوب الشرقي من المبنـى ، وتم تقوية الجدار الجنوبي ببناء جدار بنفس السماكـة من الداخل ، وتميزت الغـرفة أيضاً باحتوائهـا على جدار جنوبي شمالي اعتقد بأن هذا يمثل برج يرتفع عن اجزاء البناء الأُخرى ، يصعد إليه عن طريق درجات داخلية من الغرفة — ١٠٩ — (٣٤)

وظيفة المبنى وتاريخه :

يبدو أن البناء الضخم قد صمم بهدف دفاعـي ، لأن المدينة لم تكن محاطة بسور دفاعي ، فكان تصميم هـذا المبنى كحماية ذاتية مـن أي هجوم، أما نمط البنـاء حول ساحة مكشـوفة ومحاطـة بالغـرف فيعـرف باسـم (Open - court building) الذي عـرف في الفترة الفارسية بعدد مـن المواقع ، فاعتمد تاريخه على التشابه المعماري مـع المواقع الأخرى ، وذلك لقلة المخلفات التي عثر عليها بداخله ، وبـالمقابل اعتمد في تاريخه على المذبح الذي احتوى على كتابات آرامية مشابهة للخط السائد ، في القرن السادس — الـرابع قبل الميلاد ، وهذا ما اكدته ايضا العينات التـي ارخت بطريقة (الكـربون المشع ١٤ C 14) ، واعطت نفس التـاريخ مما يشير إلى أن البناء يعود إلى الفترة الفارسية . (٣٥) .

٢ — تل المزار :

يقع تـل المزار في وسط وادي الأردن في وادي راجـب الشمالي ، ويبلغ حجـم التل ٣٠٠ متر مربع ، ويرتفع ٢٤ متراً عن السهول المحيطة به . ويقع بالقرب من التل عدد من التلال الأثرية مثل تل دير علا (٢ كيلو متر إلى الجنوب) وتل السعيدية (٦,٥ كيلو متر إلى الشمال) (٣٦)

بدأت المراحل الاستيطانية في التل منـذ العصر البرونزي المتأخر الفترة الثانية (L B II) واستمرت إلى الفترة الهلنستيـة أي منذ النصـف الثاني مـن القرن الثـالث عشر إلى منتصـف القرن الرابع قبل الميلاد (٣٧) .

جاءت مباني الفترة الفارسية من الطبقة الثانية (القرن الخامس) . والمتمثلة بمبنى يتألف من سـاحة مركـزية مكشوفـة ، محاطة بـوحدات معمارية — غـرف — في الجهتين الشمالية والشرقية ، وبسبب عـوامل الانجراف التي تعرض لها الجزء الجنـوبي ، فيمكن الافتراض بأن هذا الجزء احتوى ايضا على صـف من الغرف(٣٨) تم تحديد ثلاث وحـدات سكنية في الجهة الشمالية هــي (أ) ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، (ب) ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، (ج)

٢١٠ ، ٢١١ . (٣٩)

لقد استخدمت الحجارة المشذبة في بناء الوحدة المعمارية الأولى ، ولكن من الصعب تحديد المادة المستخدمة في الجزء العلوي منها ، وكذلك الحال في اساسات الجدار الغربي للغرفة — ٢٠٧ — هذا وقد عثر في الغرفة — ٢٠٩ — على طابونين بجانب الجدار الشرقي وكذلك في الغرفة — ٢١١ — (٤٠).

وبالرغم من عمليات الانجراف، الا ان مخطط البناء يبدو منتظما، فالساحة المركزية يبدو ان ارضيتها كانت مبلطة بالحجارة، واستخدم الطوب الرديء الصنع الدي حضر باستخدام التبن والاتربة من التراكمات السكنية السابقة، في بناء الجدران، من جهة اخرى استخدم القصب كأرضية تحت الجدران قبل بنائها، لتجنب هبوطها وتصدعها، فهي تعمل كأساسات وتقوي السطح المراد البناء فوقه، (٤١) تبدو وظيفة البناء انها صناعية لحفظ الاواني والمخلفات المصنعة، حيث عثر على العديد منها بداخله كاملة.(٤٢)

فالبناء في مخططة يتكون من ساحة مركزية مكشوفة ومحاطة من الجهات الاربع بالغرف.

ب) فلسطين: (خارطه رقم١)

كشفت الحفريات الاثرية عن العديد من المواقع الفارسية في فلسطين، والتي اعتمد في تأريخها على الفخار المستورد من اثينا والمسكوكات كذلك.(٤٣) واهم هذه المواقع(تل الدوير Lachish) الطبقة الأولى،(٤٤) وتل أبو حوام الطبقة الثانية،(٤٥) وتل المبارك(مفراك Mevorak) الطبقات الرابعة والخامسة والسادسة،(٤٦) وعين جدي الطبقة الرابعة،(٤٧) وتل القصيلة الطبقة السادسة،(٤٨) و(سبسطية Samaria)،(٤٩) والعديد من المواقع الاخرى مثل تل القدح، تل المتسلم، تل جمعة وغيرها من المواقع.

ان دراسة البقايا المعمارية من الاردن جاءت من تل السعيدية وتل المزار، في حين اعتمد على العديد من المواقع الفلسطينية لدراسة نمط تخطيط المدن الفارسية، للحصول على تصور عام عن مرافق المدينة الفارسية وعناصرها.

تخطيط المدينة الفارسية في فلسطين:

بالرغم من العثور على العديد من البقايا المعمارية، العائدة لهذه الفترة في فلسطين، الا انها لاتعطي صورة كافية عن تخطيط المدينة في هذه الفترة، مما دعى العديد من الآثاريين امثال(البرايت Albright، فاتزنجر Watzinger وKenyin) للاعتقاد بأن انقطاعاً قد طرأ على الحياة المدينية، وحلت محلها الحياة الريفية القروية.(٥٠)

ولكن يجب الاخذ بعين الاعتبار العوامل التي تعرضت لها البقايا المعمارية الفارسية مثل عوامل التعرية، والانجرافات او اعادة استيطان بعض المواقع في الفترات اللاحقة، فتعرضت البقايا المعمارية للدمار، فتلك العوامل مجتمعة تبين الاسباب لعدم تكوين صورة واضحة عن المدينة الفارسية في المواقع التي تم التنقيب فيها.(٥١)

بالمقابل يمكن تتبع بعض الأمثلة على نمط تخطيط المدينة من بعض المواقع الفلسطينية التي حافظت على بقايا معمارية جيدة، ففي موقع تل ابو حوام الطبقة الثانية تطل واجهات المباني على ممر يسير بشكل مماثل لمحور المدينة الطولي،(٥٢) وفي تل السمك (شكمونShiqmona)، فان الحي السكني،يقع بين طرفين متقاطعين مع بعضهما البعض في الزاوية اليمنى، وتُظهر المنازل تماثلاً كبيراً فيما بينها.(٥٣) وفي تل (مجديم Megdim) يقع الربع السكني بشكل متقاطع مع الطريق المستقيمة والواسعة، فالمنازل الكبيرة تقع على جانبي الطريق وتتخللها ممرات تقع بشكل عمودي مع الطريق الرئيسي. وقسمت المباني نفسها إلى العديد من الوحدات المعمارية المتجانسة(٥٤) كالذي كان شائعاً في اليونان في هذه الفترة مثل مخطط مدينة(اولينثوس Olynthus) ـ مخطط رقم١ـ التي شيدت عام ٤٣٠ قبل الميلاد.(٥٥)

العناصر المعمارية للمدينة الفارسية:

١ـ التحصينات

الشواهد المعمارية التي تمثل نمط التحصينات في هذه الفترة، جاءت من المواقع الساحلية، فالسهل الساحلي، مثل موقع أبو حوام، حيث يتمثل النمط التحصيني بسور المدينة، والمحتوي على زوايا متعددة تتمثل بشكل واضح في الجزء الجنوبي، وبقي من ارتفاع السور مدماكان، ويظهر استقامة في امتداده مع وجود بعض التغير الطفيف، حيث استخدمت الحجار الطويلة لدمجها مع الدبش، للحصول على التماسك بينها،(٥٦) ويظهر ذلك بشكل واضح في ثلاث نقاط، حيث يغير السور اتجاهه، فاستخدمت الحجارة المربعة الطويلة والمتصلة مع الدبش في البناء.(٥٧)

وفي تل (مجديم Megadim)حصن الموقع بسور يحيط بمنطقة مستطيلة، مساحتها /١٥/ دنم بني من الطوب فوق اساسات من الحجارة، تم الكشف عن ثلاثة اجزاء من السور في الجهات الغربية والشمالية و الجنوبية، دلت على نمط السور المنيع المؤلف من جدارين داخلي وخارجي، وعلى طول الجدار من الداخل اصطفت العديد من الغرف السكنية وغرف الخزين(٥٨).

٢ـ البوابات

اهم النماذج للنمط المعماري للبوابات جاءت من تل الدوير ـ مخطط رقم٢ـ (السوية الاولى)، حيث بنيت البوابة العائدة لهذه الفترة فوق نفس مخطط البوابة العائدة للسوية الثانية. وتتكون البوابة من بوابة خارجية بقي منها العتبة فقط والبوابة الداخلية، اما الجدران التي تصل بين البوابة الداخلية والخارجية فقد دمرت أيضاً وتم توسيع البوابة الداخلية الخارجية، واصبحتا تشكلان برجين بداخلهما ادراج بقي منها خمسة إلى الجنوب من البوابة.(٥٩)

٣ـ العمائر المنزلية

ان معظم المباني الفارسية تظهر نمطاً تخطيطياً موحداً، سواء في العمائر العامة او الخاصة. وتميز هذا النمط في المنزل ذي الساحة المكشوفة، والذي يتألف من ساحة مكشوفة محاطة من عدة جوانب او جميعها بالغرف،(٦٠) ان هذا النمط المعماري كان محوراً للعديد من الدراسات المتعلقة بأصله، حيث اتفق على كونه رافدي الاصل(اشوري، بابلي)، ادخل الى فلسطين في نهاية الفترة الآشورية، واستمر استخدامه بعد ذلك في الفترتين البابلية والفارسية.(٦١) جاءت الامثلة على هذا النمط المعماري من العديد من المواقع الفلسطينية، ففي عين جدي(السوية الرابعة) تم العثور على مبنى ضخم مكون من ـ ٢٣ـ غرفة تحيط بساحة مركزية، بالاضافة إلى غرف الخزين وباحجام مختلفة وساحة خارجية، فيبدو المبنى بتخطيطه كأنه وحدة واحدة، ولكن يمكن تمييز ثلاثة أجزاء منفصلة:

أـ الجزء الغربي يتضمن الغرف ٢٣٦،٢٣٥،٢٣٤ بالاضافة إلى الغرفة المستطيلة الواسعةـ٢٣١ـ التي تنخفض بشكل قليل عن باقي الغرف. اما الغرفة ـ٢٢٩ـ فقد بنيت بارتفاع نصف طابق اعلى، وقسمت الى وحدتين منفصلتين تم بناء جدار بينهما. اما مدخل هذه الغرفة فيقع عبر الساحة الصغيرة التي تقع الى الغرب.(٦٢) .

ب ـ الجزء الشرقي يتكون من العديد من الغرف تحيط بغرفة مستطيلة واسعة رقم ـ٢٤٨ـ، تميزت الغرف الجنوبية منها(٤غرف) بمستوى مرتفع لحوالي الطابق.(٦٣) .

جـ ـ الجزء الشمالي يتكون من ساحة مغلقة، وثلاث غرف مستطيلة، وممر يصل بين الساحة المغلقة والثلاث غرف والجزء الشرقي من المبنى.اما المدخل الرئيسي فقد كان عبر الساحة الخارجية، ثم خلال الغرفةـ٢٥٤ـ ومنها إلى الساحة المغلقة، (٦٤) وغطيت ارضيات البناء والجدران وجزء من السقوف، بطبقة سميكة من الجص واستخدمت جذوع شجر البلوط لتدعيم السقف، وفي الدرجات والسلالم، وتميز البناء بحجارته البنائية الصلبة.(٦٥)

أرخ المبنى اعتماداً على الكسر الفخارية الآتيكية(Attic sherds) الى القرن الخامس قبل الميلاد، حيث وصلت المدينة إلى قمة ازدهارها زمن (ارتاكسركس الاول Artaxerxes I) عام ٤٦٥ـ٤٢٤قبل الميلاد، وفي زمن داريوس الثاني عام ٤٢٤ـ٤٠٥ قبل الميلاد، وتراجعت حوالي عام ٤٠٠قبل الميلاد(٦٦)

وفي تل الدوير شيد المبنى العائد لهذه الفترة، على انقاض السويتين الثانية والثالثة، ويتمثل البناء بمبنى مستطيل ضخم، ربما يشير إلى كونه مركزاً ادارياً وشيد بحجارة كلسية وجدت متراكمة في منطقة الساحة، وحمل بعضها آثار لتشذيب مقوس، وهي تختلف عن الحجارة المستخدمة في بناء الجدران الداخلية والخارجية، التي يشير موضعها إلى استخدامها في بناء قناطر برميلية الشكل ذات مداميك مائلة.(٦٧) اما حجارة السقف فكانت بحجمين (٥×٢٥×١٥سنتيمتراً) و(٧٠×٣٥×١٥سنتمتراً) واستخدم الطين المضغوط في ملء الفراغات

بين الحجارة. ويتبع البنـاء في مخططه المباني المؤلفة من سـاحة مركزية، احيطـت من الجهات الاربع بغـرف مقنطرة. فقد احيطت السـاحة في الجهة الجنوبيـة والغربية بدرجـات تؤدي الى الغرف المختلفة، وعلى عرض الساحة في الجهة الغربية وجـدت قاعدتا عمودين مربعتا الشكل، بقي من العمود الجنوبي قاعدته.(٦٨) وخلف الرواق المعمد(Portico)يوجد غرفتان كبيرتان تحويان على غرفتين صغيرتين أيضاً(٦٩)

استخدمت الحجارة النـارية المشذبة في بناء الجدران وغطيت بـالجص، وثبتت مع بعضـها بواسطة المونـة. اما الارضيات فكانت مـن الجص الذي استخدم في تجصيص قـواعد الاعمدة ايضاً.(٧٠) وقد امكن عمل مجسم منظوري للمبنى، يظهر كيفية بنائه بالقناطر. وأرخ المبنى اعتماداً على الفخار الذي يعود إلى الفترة الواقعة بين عام ٤٥٠ـ٣٥٠قبل الميلاد.(٧١)

ومن النماذج المعمارية السكنية الاخرى تل القصيلـة، حيث بلغ الاستيطان في الموقع أوجه في الفترتين الحديدية والفارسيـة. وتمثلت البقايا الفارسية في الطبقة السادسـة بمبنى وساحة خارجية(G6)في الجزء الجنوبي للتل.(٧٢)يتألف المبنى من ساحة داخلية محاطة بالغرف من ثلاثة جوانب، غرفة مربعة في الزاوية الشمالية(G4) وغرفة مستطيلة بينهما(G3). اما المدخل الرئيسي للسـاحة الـداخلية(G1)و(G2)فكانـت من الجهـة الغربيـة. وتم الكشــف في الجهة الشرقية عن اساسـات للساحة الخارجية(G6)المبنية من الدبــش، وعثر في ارضيتها على كسر فخاريـة وجرار فـارسية وأرخ البنـاء بناء على ذلـك وبناء على الكسر الفخـارية التـي تعود إلى الفترة الفارسية (القرن الخامس قبل الميلاد). (٧٣)

الموقــع الأخير ممثـل ببنــاء ضخـم عثــر عليـه في الطبقــة الـرابعــة في تـل المبــارك (مفراكMevorakh) ـ مخطط رقم٢ـ حيث قسم الى ثلاثة مرافق معمارية:

١ـ الجدار في ا لجهة الشمالية من المبنى تم بناؤه من الحجارة المربعة.

٢ـ الجزء المتاخم للجدار المنيع ويتكون من الغرف ٢٧،٢٨،٣،٢،١،٢٩،٢٦٥ .

٣ـ الجزء الرئيسي في المبنى والمؤلف من ١٦ غرفة.(٧٤)

يتضح مـن البقايـا المعمارية ان المبنى قـد شيد ضمن مخطـط محدد احيط بجـدار منيع مستطيل الشكـل، اما بالنسبـة للتقسيمات الداخلية فيبـدو أنه قد طـرأ عليها التعديـل حسب اعتبارات وظيفية.(٧٥)

فيما يتعلـق بالارضيـات فقـد استخـدمت الحجـارة في رصفهـا كما هـو واضـح في البقــع المتواجـدة في موضـع ـ١٠٢ـ ومـوضـع ـ ٢١٤ــ التي ربما كانـت تشكل جزءاً من الســاحة الرئيسية وباقي الارضيات كانت من التراب المضغوط.(٧٦)

وعلى مايبدو ان الغرفتين ـ٢٧ـ٢٨ـ كانت نواة لبرجين تــدعمان غرفة السلم او كانتا جزءاً من بيت السلــم فقط وإذا صح ذلك فمن المحتمـل وجود طابق ثان في الجزء الغـربي من المبنى على الأقل.(٧٧) وباختصــار، يمثل المبنى النمط الشــائع في الفترة الفارسية، والمتمثل بســاحة

مكشوفة محاطة بالعديد من الغرف ويبدو ان المبنى عبارة عن عزبة زراعية كبيرة.

أرخ المبنى الى القرن الرابع عام ٣٣٢ قبل الميلاد، اعتماداً على الكسر الفخارية.(٧٨)

٤ـ المعابد

تم تحديد ثلاثة مبانٍ تعود للفترة الفارسية، وفسرت من قبل المنقبين بكونها معابد في تل الدوير، يافا، ومكميش. وافضل هذه النماذج جاءت من تل الدوير السوية الأولى التي اطلق عليها اسم معبد شمس ـمخطط رقم ٤ـــ ويقع المعبد الى الشمال الشرقي من المباني السكنية، وهو مبنى صغير ابعاده(٢٧×١٧متراً) ومحوره الاساسي باتجاه شرق ـ غرب.(٧٩) ويتكون المعبد في مخططه من ساحة مربعة تحتل نصف مساحة المبنى، ويتفرع عنها في الجزء الشرقي صف من الغرف الصغيرة (٥غرف)، وفي الجهة الغربية يقع ا لجزء الرئيسي للمعبد، اما المدخل فيقع في النهاية الشرقية للجدارالشمالي.(٨٠)

يخترق المعبد بشكل عرضي ضمن منطقة الساحة خمس درجات، ربما امتدت على عرض الساحة تؤدي إلى غرفة مستطيلة رقمـ ١٠٥ـ وتقع على مستوى مرتفع عن باقي اجزاء المعبد، وخلف هذه الغرفة يوجد ثلاث درجات تؤدي الى غرفة قدس الاقداس رقمـ١٠٢ـ (٨١)

غطيت جدران المبنى بطبقة سميكة من الجص، وحملت بعض الاجزاء اثاراً لجص ملون. اما الارضيات فقد استخدم الجص في تغطيتها. ومن جهة اخرى فان وجود الحجارة الطباشيرية المربعة تشير الى ا ن سقف المبنى كان معقوداً او مقنطراً(Vaulted) .(٨٢)

تأريخ المبنى محط جدل العديد من الآثاريين، فمنهم من يؤرخه للفترة الفارسية اعتماداً على الكسر الفخارية التي وجدت بداخله،(٨٣) بينما (اهاروني‌Aharoni) الذي اعاد التنقيب فيه أرخه للفترة الهلنستية.(٨٤) وبينت حفرياته مخطط البناء بشكل واضح، فكشف عن عتبة الباب في الجدار الشرقي للغرفة ـ ١١٠ـ بالإضافة للكشف عن مجموعة من الحجارة خارج الجدار، ربما كانت اساسات للدرجات أو ممراً مرصوفاً يؤدي للبوابة .(٨٥) وفي الجدار الغربي للغرفةـ١٠١ـــ كشف عن مدخل بعرض ١,٣ متراً تم اغلاقه في فترة لاحقة. وعلى طول الجدار الغربي للغرفتين ـ ١٠٩ـ١١٠ـــ يوجد مقاعد أو رفوف صخرية، يفصل بينها جدار. وبينما حددت (تفنل Thafnell)مدخل البناء في النهاية الشرقية للجدار الشمالي، في حين وجد(أهاروني‌Aharoni) بأن مدخل البناء يقع في ا لجهة الشرقيةوعبر الغرفتين ـ١٠٩ـ١١٠ ـــ حيث يوجد ممر ضيق في الزاوية الغربية للغرفةـ١١٠ـ يؤدي إلى الساحة.(٨٦) وباختصار فإن تاريخ البناء كان محط جدل من قبل (تفنل Thafnell وستاركي‌STARCKY$)اللذين أرخا البناء للفترة الفارسية، بينما أرخه أهاروني اعتماداً على آنية الطبخ التي عثر عليها اسفل الجدار، والمؤرخة للفترة الفارسية، مما دعا الى تأريخ المبنى للفترة الهلنستية.(٨٧) ولكن المخلفات العديدة التي عثر عليها في المبنى مثل الاواني الدينية، والمذبح الكلسي، والمصباح البرونزي أرخت جميعها للفترة الفارسية، مما يشير بأن المبنى من

حيث الـوظيفة هـو معبد اســس في الفترة الفارسيـة في منتصف القـرن الخامس قبـل الميلاد واستمر استخدامه في الفترة الهلنستية.(٨٨)

والمعبـد الآخر يقـع في (مكميـش Makmish)ويتكـون من غـرفتين احــــداهما كبيرة إلى الجنوب، واخرى صغيرة الى الشمال، ومحور البناء باتجاه شمال ــ جنوب ويبلغ طو ل المبنى ١٥×٦,٥متراً.(٨٩)

تقنية المباني الفارسية:

استخدم في العمارة الفارسيـة تقنية البناء المعروفة بـاسم(حجر طولي يتبعـه حجر عرضي Heaker-stretcher)، حيث استخدمت في بناء المباني الكبيرة، فالجدار الخارجي مبني بهذه الطـريقة في تـل المبارك(مفـراك Mevorakh)(٩٠) امـا الشبائح الحجـرية الكلسيــــة المستخدمـة، فكانـت محددة الاطراف ونـاتئة في الوسـط، وتم بنـاء جدران الحجـرات المنيعة بخليط من الحجارة المشذبة وحجارة الدبش.(٩١)

اما تقنية الدعائم فكانت باستخدام الشبائح الحجرية، وملء المسافة بين الدعائم بالدبش. وهذه الطـريقة وجـدت في العصر الحديدي الثـاني، في كل مـن فلسطين، والساحـل الفينيقي، واستمر استخـدامها في البناء حتى الفترة الهلنستيـة.(٩٢) ويعتقد البعض ان استخـدام هذه الطريقـة كان لاسباب جماليـة، كما اعتبرها (برتشـارد)، والآخر يعتبرها لتقـوية الجدران، في حين يعتقد (دوثان) بان هذه التقنية في البناء هو ذات اصل فينيقي.(٩٣)

اما الأرضيات فـاستخدم في رصفها الشبائح الحجـرية، وهذا الاسلوب مـن اصل فينيقي، بقي استخدامـه معروفاً حتى الفترة الهلنستيـة، في حين حملت بعض الارضيات اثـاراً للجص عليها.(٩٤)

تأريخ المباني الفارسية:

اعتمد في تأريخ المبانـي العائدة لهذه الفترة على فخار(اتيكي Attic)المستورد من اليونان، والذي شاع استيراده في القـرن الخامس قبل الميلاد، بالاضافـة الى الكسر الفخارية او الاواني الكاملة المحدد تأريخها للفترة الفارسية.(٩٥)

ولكن غالبية المواقـع حدد تأريخها لفترة واحدة غطت العصر الفـارسي جميعه. في حين نجد انه في موقع ابو حوام، تـم تمييز مرحلتين فيه عائدتين لهذه الفترة، المرحلة الاولى A أرخت من نهاية القـرن السادس حتـى بداية القـرن الرابع قبـل الميلاد، اعتماداً على فخـار اتيكا في حين المرحلـة B اعيـد فيهـا تجديـد البنـاء، ودام حتـــى مجيء الاسكنـدر الكبير عـام ٣٣٢ قبــل الميلاد(٩٦) وحدد في تـأريخ بعض المواقع، الاواني الكـاملة والمؤرخة للفترة الفارسيـة، كالتي عثر عليهـا في حفر(Pits)في المناطـق المحيطة في بيسـان.(٩٧) وفي وادي الـدالية حدد تــأريخ

الفخـار الذي عثـر عليه في الكهـف رقم ١ بـدقـة الى الفترة الفارسيـة المتأخـرة وبدايـة الفترة الهلنستية، استنادا الى قطع المسكوكات المترافقة مـع هذه الاواني، فأصبحت دراستها مهمة في تحديد تأريخ المواقع الاخرى.(٩٨)

الفترة الهلنستية:

تبـدأ الفترة الهلنستية في الاردن وفلسطين، بـاحتلال الاغـريـق على يد الاسكنـدر الكبير للمنطقـة، والـذي انهى السيطـرة الفـارسيـة عـام ٣٣٢قبـل الميـلاد.(٩٩) وبـاخضـاعـه للامبراطوريـة الفارسية، نُصِّبَ الاسكنـدر حاكماً للعالم، واصبح الغـرب مهيمناً على الشرق. وسهل هـذا الاخضاع انتشـار الثقافة الاغـريقية في الشرق، فـأصبحت اللغة اليـونانيـة اللغة الرسمية في ارجاء الامبراطـورية، ولغة التجارة والثقافة ولغة الديـن.(١٠٠) وبوفاة الاسكندر الكبير قسمت المنطقـة بين البطالمة والسلـوقيين، فسيطر البطـالمة في الفترة مابين عـام ٣٠١ـ ١٩٨ قبل الميلاد على جنوب سورية والاردن وفلسطين ومصر. امـا السلوقيين فحكموا المناطق الآسيوية المتبقية،(١٠١) ويعاصر هذه الفترة ظهـور الانباط كقوة مستقلة، بقيت محافظة على استقلالها ونشـاطها التجاري المنطلـق من عاصمتهم البتراء، رغـم مهاجمتهم عـام ٣١٢قبل الميلاد من قبل (انتيغونوسAntigonus).(١٠٢)

وزالت السيطرة البطلميـة عن الاردن وفلسطين في حوالي عام ٢٠٠ـ١٩٨قبـل الميلاد، بعد هزيمة بطليموس الخامس في معركة (بانيونPanion)، بقيادة انطوخيوس الثالث وهو تأريخ تدشين العهد الهلنستي المتأخر. وبهذا سيطـر السلوقيون على الاردن وفلسطين، في حين نالت بعض المدن استقلالها في جنـوب بلاد الشام.(١٠٣) فتمكنت سـلالة طوبيا مـن المحافظة على استقلالها في حين خضع اقليم عمان الى سيطرة (يهوذا المكابيJudas Macabeus).(١٠٤)

الشـواهد التـاريخيـة المتعلقة بهذه الفترة، جـاءت مـن المؤرخ (يوسفـوسJosephus) والوثائق التـاريخية اليونانيـة، التي احتوت على معلومـات تاريخية عن المنطقـة، في فترة حكم البطالمة في القرن الثالث قبل الميلاد.(١٠٥) وكـذلك من المؤرخ (بولوبيوسPolubius) الذي تحدث عـن العديـد من المدن والاقـاليـم في الاردن وفلسطين، او سجلات (زينـونZenon)، و(سترابوStrabo) والمؤرخ(اقثارخيدسAgtharchides) الذي اشار بأن خلفاء الاسكندر اخذوا بالتنازع على الممالك وكانت النتيجة نشوب العديد من الحروب.(١٠٦)

تقسم الفترة الهلنستية بدورها الى الهلنستي المبكر، والهلنستـي المتأخر، أو مايطلق عليها فترة البطـالمة، وفترة السلـوقيين والحشمـونيين.(١٠٧) هـذا التقسيـم انتهجـه (لابLapp)وقسمه الى الهلنستي المبكر(البطالمة) من عام ٣٣٠ـ١٩٨قبل الميلاد، والهلنستي المتـأخـر(السلـوقيون)مـن عـام ١٩٨ـ١٦٥ قبـل الميـلاد، والحشمـونية المبكـرة مـن عـام ١٦٥ـ١٠٠قبل الميلاد، والحشمونية المتأخرة من عام ١٠٠ـ٦٣قبل الميلاد.(١٠٨)

انتهت الفترة الهلنستية في الاردن وفلسطين عام ٦٤-٦٣قبل الميلاد، على يد القائد الروماني بومبيوس، نتيجة لانقسام المملكة السلوقية وانشغالها بالصرعات الداخلية.(١٠٩)

مواقع الفترة الهلنستية:

تتميز المعلومات الأثرية عن الفترة الهلنستية المبكرة، بكونها قليلة في كل من الاردن وفلسطين، وبينما تأخذ المعلومات بالاطراد في الفترة المتأخرة. والسبب يرجع من الناحية التاريخية الى الحروب والمشاكل، التي كانت قائمة بين البطالمة والسلوقيين بعد موت الاسكندر الكبير.(١١٠)

أ)الاردن:(خارطة رقم)«٢»

تمثلت مواقع هذه الفترة في الاردن في عراق الامير،(١١١) وتل السعيدية الطبقة الثانية،(١١٢) وفي جبل(سرطبةSartabe)على بعد ٢,٢كيومتراً الى الجنوب الشرقي من طبقة فحل،(١١٣) وفي ام قيس، وجرش، وعمان، واليصيلة، وتل الذهب، وحسبان، وتل الخليفة، وتل المزار والعديد من المواقع التي تم الكشف عنها اثناء المسوحات الاثرية في وادي الاردن، مثل ابو علوية، وتل ابو كامل، وتل عماتا، وتل ابو هابيل، وخربة الحمة، وتل الاربعين وغيرها من المواقع.(١١٤)

من أبرز المواقع الاثرية التي تمثل الفترة الهلنستية في الاردن:

١ـ عراق الامير:

يقع موقع عراق الامير في منطقة وادي السير بالقرب من عمان، وعلى بعد ٢٠كليومتراً باتجاه نهر الاردن، تم اكتشاف الموقع والمباني الهامة فيه في القرن التاسع عشر من قبل(أربي ومانغليسIrby,Mangles)، وتم تحديد مبنى قصر العبد من قبل (بانكوBanko)، وفي عام ١٨٦٢ميلادي قام الفرنسي(ديفوكDavoque)بدراسة القصر بصورة منفصلة، وأرخه للفترة الهلنستية، وحدد وظيفة المبنى كقصر. في حين اعتقد (سولسيSaulcy)بأن المبنى كان يشغل وظيفة دينية وبالتحديد معبداً اعتماداً على وجود تمثيل الاسود، واستنتج بأن المبنى مقدم للآلهين(مولوخ وكاموشMoloch,Qamos)وأرخه بذلك للفترة الفارسية،(١١٥) ولكن الحفريات التي اجريت عام ١٩٧٦ميلادية، من قبل(فيل ولارشيهWill,Larche)بينت ان البناء يعود للفترة الهلنستية، وان وظيفة البناء كانت قصراً وليس معبداً كما ذكر يوسفوس،(١١٦) أمّا البقايا المعمارية في الموقع تمثلت بـ:

أـ قصر العبد:

يذكر يوسيفوس بأن القصر تم بناؤه على يد(هركانوسHurcanus)واستخدمت الحجارة البيضاء في ذلك، وزخرف بتماثيل الاسود، ولكن (ديسوDUSSAUD) اعتقد بأن المبنى معبد عموني، ولكن المبنى لايشير الى كونه كذلك. اما الاسم الحالي فيرجع الى اسطورة متداولة بين

السكان المحليين مفادها بـأنه كان لأمير المنطقة بنت، تركها في عهدة احـد العبيد، والذي احبها وطلبت الفتاة منه بناء قصر لها، وسمي بذلك قصر العبد.(١١٧).

تبلغ مسـاحة القصر(٣٧×١٨,٥متراً) ـ مخطـط رقم٥ـ، تـم بناؤه من الحجـارة الكلسية البيضاء، المستخرجة من المناطق المجاورة، والقصر بني وسط منخفض كانت تحيط به بحيرة اصطنـاعية. وأرخ القصر الى الفترة الهلنستيـة، اعتماداً على النظـام الكـورنثي، المستخـدم في زخرفتـه، وكذلك البروز المستطيـل في الافريز المشيد على الطـراز الدوري، والعتبة الكـورنثية والكورنيش. ودلـت التحاليل المعمارية، على أن البنـاء شيد في وقت واحد، وانـه لم يتم الانتهاء من تنفيذه، فتبع البناء صاحبه حيث كلاهما تبعا نهاية قاسية عام ١٧٥قبل الميلاد.(١١٨)

يتكون البناء في مخططه من وحدة مركزيـة محاطة بممر على شكل حدوة الفرس، يؤدي الى الحجـرات في الجهتين الشرقيـة والغربيـة، والى ثـلاث حجـرات اخـرى في الجهة الجنـوبيـة، بالاضافة الى حجرات للخزين في الزاوية الجنوبية ، والشرقية والجنوبية الغربية.(١١٩) يضم المبنى طابقين ذات ارتفاعات متساوية، الطـابق الارضي ويضم ممراً ذا اعمدة في الشمال، يقوم على جانبيه بئر، ودرج من الشرق يؤدي للطابق العلوي، وحجرة صغيرة في الغرب. ويؤدي هذا المر الى ممـر آخر داخلي يقوم على جـانبيه حـوضان يفرغـان ماءهما خارجـاً بواسطـة افواه فهديـن ضخمين في قاعـدة الجدران، وفي الجهة الشرقيـة والغربيـة من القصر، تـوجد سبـع حجرات كبيرة(مخازن للحبوب) مقسمة بواسطة الاعمدة للسماح بدخول الضوء.(١٢٠)

اما الطابق الثاني او العلوي، فكان يتم الصعود اليه عبر سلم، ومخططه متصل مع جدران الطابق السفلي، ويحوي على العـديد من الحجرات المزخـرفة. ولعدم استكمال البناء ـــ يتضح ذلك مـن الزخارف غير المكتملة ـــ مايدعـو للاعتقاد بـأن المبنى لم يسكن، وذلك لعـدم وجود النوافـذ، وحلقات الابواب. ويحوي البناء في الجهـة الجنوبية على ممر وهمي ذي اعمـدة يقوم على جـانبيه حجـرتان صغيرتـان، ويبلغ ارتفـاع المبنى ١٤متراً، ويشبـه في تصميمه المبـاني الشرقية.(١٢١)

ب ـ البوابة التذكارية:

تقع على بعـد ١٥٠متراً الى الشمال من القصر، وبقـي منها اربعـة مداميـك، وامكن تـرميم البوابة لارتفاع ٩أمتار. من على مستوى الارض فان البناء يتكون من ركيزتين محاطتين ببوابة بعرض ٣,٧متراً تفتح البوابة على سياج تشكل جدرانه من الخارج منحني بزاوية يمنى. وليس هنالك علاقـة بين اتجاه البوابة واتجاه القصر، وتتصل البوابة مع محور الطـريق الممتد بشكل مستقيـم لمسافـة تقـارب ١٠٠متر، ومحاذيـة للجدار المحيـط بـالبركـة الاصطناعيـة حـول القصر.(١٢٢)

امكـن التعرف على تقنيتين في بنـاء البوابـة، حيث استخـدمت الحجـارة الضخمة في بنـاء الواجهة، فهـي متميزة من حيث حجمها وكذلـك في معالجتها عند الحواف، مما يمنحهـا طابع

القوة وكـذلك للحفاظ على المبنى. كما استخـدمت تقنية (التثبيـت بالتلسين Mortises and tensons) في البناء، وخصوصاً في الحجارة الضخمة لتماسكها مع بعضها البعض. وهذا الاسلوب المعماري معـروف في العمارة اليونـانية ويظهـر بشكل خـاص في المواقع المتـأثرة في الاسلوب المعماري الشرقـي.(١٢٣) التقنية الثـانية المستخـدمة، تتكـون من مـداميك قليلـة الارتفاع(٥٨سنتمتراً)، فالارتفـاع المحدد للحجارة اللوحيـة يجعلها اكثر ثباتـاً دون الحاجة الى استخدام المعدن المصهور لتثبيتها مع بعضها البعض.(١٢٤)

اما طريقة البناء واختيار المواد اللازمة في بناء البـوابة، فتدلان على مكانة وقوة مالكها، فقد زخرفـت البوابة بالمنحـوتات الحيوانية، مثـل الحيوانات البريـة، (النسور) التي تحتل مكـانة بارزة في زخـرفة القصر ايضـاً. اما زخـرفة الحيـوانين (السنوري Feline) فقد تم وضعهما بشكل متناسق متجهين باتجاه البوابة، ممـا يشير الى كونهما حاميان للممر، اما الاسد والنسر فيشيران الى القوة الملكية او المقدسة للتغلب على الاعداء.(١٢٥)

واستخـدم الجص الملون والابيـض في زخرفـة جدران القصر، والمبـاني السكنية في عـراق الامير، مما اعطـى اهمية في التعـرف على اهمية البناء الـذي وجدت عليه، وكـذلك فهـم اسلوب الحياة في الموقع؛ فالجص الابيض استخدم في زخرفة الجدار الداخلي، المكون من طبقة سميكة بنيّة اللون، ممزوجة بحصى صغيرة الحجم ثم تغطى بطبقة رقيقة من رمل الكوارتز.(١٢٦)

ولم تقتصر المرافـق على المبـاني العـامـة، بـل تعدى ذلـك الى وجـود المرافـق الـزراعيـة، كالمصاطب والجدران الاستنادية، وقنوات الـري، فقد لعب جدول المياه الدائم في وادي السير، الى جذب الاستيطان في الموقع، فعلى مـايبدو ان الموقع جذب هركانوس للاستيطـان فيه لمكانته الاقتصادية.(١٢٧)

٢ـ تل السعيدية:

تحتوي الطبقة الثانية في التل على بناء مستطيل الشكـل، بنيت اجزاء منه فوق البناء العائد للفترة الفـارسيـة، وتبلـغ ابعـاد المبنـى٣،١٣×٢١،٢ متراً، ويتراوح سمـك جـدرانـه الخارجية(٩٠سنتمتراً)، في حين يبلـغ سمك الجدران الداخليـة(٦٠سنتمتراً)، وبنيت الجدران فوق اسـاسات مـن الحجارة، واستخدم الطـوب في بناء الجزء العلـوي منه. والملفـت للنظر في تقنية البناء استخدام القصـب في البناء، فبعد الانتهاء من وضـع اساسات البنـاء الحجرية، قام المعماري بوضـع طبقة مـن القصب بشكـل تقاطعـي على طول الجدار، ثـم غطيت بطبقـة من البلاستر(الجص)، ثم يستكمل البناء باستخدام الطوب فوق طبقة القصب.(١٢٨)

الطـــوب المستخـــدم في البنـــاء كـــان بحجمين، الاول كبير بقياس(٤٠×٤٠×١٥سنتمتراً)والثاني صغير بقيـاس(٢٠×٤٠×١٥×سنتمتراً). اما الجدران الداخليـة(٦٠سنتمتراً) فقد بنيـت بصف مـن الطوب الكبير، اصطـف بجانـب صف آخـر من الطوب الصغير الحجم، اما الجدران الخارجية فيبلغ سمكها(٩٠سنتمتراً)، وقد بنيت بمداميك

اختلفت بين صفين من الطوب الكبير، ومدماك من طوبتين صغيرتين، وطوبة كبيرة في المركز، وقد استخدم الجص في تغطية الجدران الداخلية للمبنى.(١٢٩)

البناء في مخططه يتكون من ساحة-٢٠١- يتم الدخول اليها عبر مدخل عريض(١,٦متر) في الجهة الشمالية. ويحوي ايضاً على مدخلين، الاول يفضي الى الرواق -٢٠٢- والثاني للغرفة -٢٠٣- ويستدل من العوارض الخشبية المتفحمة التي وجدت في أماكن مختلفة على الارضية، وعند مدخل الغرفة في الجزء الشمالي، ان المبنى كان مسقوفاً.(١٣٠) ويتم الدخول عبر الساحة -٢٠١- الى رواق يؤدي الى خمس غرف في الجهة الغربية، باستثناء الغرفة -٢٠٦- التي يتم الدخول اليها عبر الغرفة -٢٠٧- اما الغرفة -٢٠٣- فتحوي على مدخلين، الاول من الجهة الشرقية عبر الغرفة - ٢٠١-، والآخر عبر الرواق -٢٠٢-، وتعتبر هذه الغرفة من افضل الامثلة التي تحوي على أرضية مرصوفة بالحجارة. اما الغرفة -٢٠٤- وهي اصغر الغر ف الموجودة، فيتم الدخول اليها عبر الرواق - ٢٠٢- الذي يؤدي ايضاً الى الغرفة - ٢٠٥-.(١٣١)

يمتاز الجدار الشمالي للغرف -٢٠٦ الى٢٠٨- كونه سميكاً(٩٠سنتمتراً)، بعكس الجدران الداخلية الاخرى، ولذلك ربما يشير الى وجود طابق ثان للمبنى.(١٣٢) وبشكل عام يتكون البناء من ساحة تقابلها من جهة واحدة ست غرف.

٣- طبقة فحل(Pella):

تم الكشف خلال موسم التنقيب عام ١٩٨١ ، عن بناء مستطيل ابعاده ٩×٥,٥متراً، أرخ الى الفترة الهلنستية(القرن الثاني قبل الميلاد)، وبنيت جدران المبنى من الطوب المجفف فوق اساسات من الحصى، ترتفع حوالي المتر عن مستوى الارضية.(١٣٣)

قُسِّم المبنى من الداخل بجدارين الاول يتصل مع الجدار الشرقي وهو ضمن مخطط البناء الاصلي، لكونه يحتوي على طبقة من الجص في الجزء الشمالي، وكذلك مبنى بشكل قوي وثابت، فلهذا قُسِّم البناء الى جزئين: غرفة داخلية واخرى خارجية، اما الجدار الداخلي الثاني فتم اضافته في فترة لاحقة، ويقسم الغرفة الخارجية الى قسمين. وعلى مايبدو ان وظيفة الغرفة الخارجية مخالفة للداخلية، لكون الاخيرة مبلطة ببلاطات حجرية، مما يشير الى نفس وظيفة الساحة المجصصة في الجهة الغربية.(١٣٤)

لقد ساعدت قطعتا العملة في تأريخ المبنى، فقد أُرِّخت القطعة الاولى الى النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، والثانية تعود الى الفترة الحشمونية.(١٣٥)

وعلى بعد ٣,٢٠٠كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من طبقة فحل، عثر في جبل سرطبة على تحصينات مؤرخة للفترة الهلنستية، فموقع التل مميز بكونه يشرف على الطرقات سواء القديمة ام الحديثة، ويمتاز ايضاً بصعوبة الوصول اليه، مما حفظ حجارته المبنية من العبث.(١٣٦)المبنى في مخططه مربع الشكل يبلغ طول كل جانب حوالي ٦٠متراً، ويتكون السور من ثمانية ابراج تتوزع كالتالي: برج في كل زاوية وفي منتصف الجدار، وتظهر الابراج

عدم تماثل فيما بينها، فقد تراوحت الغرف الداخلية المكونة للابراج من غرفة الى ثلاث غرف داخلية. ويتم الدخول عبر السور خلال اربع بوابات، واحدة في كل جانب، وتقع البوابات بالقرب من البرج(١٣٧) وفي داخل الحصن يوجد بئران تم حفرهما في الصخر الطبيعي، ويشير حجمهما الى عدم كفاية استخدامهما لفترة طويلة، وبالمقابل فان سماكة الترسبات الموجودة في قاع البئر، تشير الى استخدامه لفترة قصيرة، لعدم استخدامهما بشكل حقيقي.(١٣٨)

ان سبب بناء الحصن غير محدد بالضبط، لأنه من غير المعقول بناؤه من قبل سكان طبقة فحل، لكونه لايشكل عاملاً مهماً في حماية مدينتهم، ولكن ربما تم بناؤه من قبل أحد القادة السلوقيين وربما(انطيوخس الثالثAntiochusIII) حيث تذكر المصادر اهتمامه بأقليم طبقة فحل،(١٣٩) وأكثر الاحتمالات تشير الى انشائه في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، حيث يذكر(يوسيفوسJosephus) بأن انطيوخس الثالث كان له نشاط عسكري في الاردن في ذلك الوقت(نهاية القرن الثالث قبل الميلاد). وفي المقابل فان الاسبار التجريبية داخل الحصن اظهرت عدم استيطانه، فأرخ المبنى اعتماداً على الكسر الفخارية الى الفترة الهلنستية، وعلى بعد ٦٠متراً الى الجنوب الشرقي من الحصن عثر على برج منعزل يعاصر فترة بناء الحصن.(١٤٠)

٤ـ اليصيلية:

المبنى الاداري

بدأ العمل في المنطقة ـ ب ـ من موقع اليصيلية الأثري في الموسم الثاني عام ١٩٨٩، واستمر العمل في موسم عام ١٩٩٠،وفي الموسم الرابع عام ١٩٩١، كشف عن المبنى الإداري في هذه المنطقة بالكامل. بني هذا المبنى بشكل مستطيل طوله ١٩متراً وعرضه ٩,٥امتار ـ مخطط رقم ٦ـ. ويبلغ ارتفاع بعض الجدران الداخلية حوالي مترين. يحتوي هذا البناء على خمس حجرات، ثلاث كبيرة تقع في الجهة الغربية، وتتصل ببعضها بعضاً عن طريق بوابات، وحجرتان تقعان في الجهة الشرقية.

وصف الحجرات

الحجرة الأولى: أطول هذه الحجرات٥,٧×٥,٧أمتار، فهي أكبر الحجرات مساحة، وتفضي بوابة البناء الرئيسة اليها مباشرة، وتقع البوابة في جدارها الجنوبي، أما الجدار الغربي فقد بني معظمه على شكل نصف دائري منحن بارز الى الخارج. وتوجد في الجدار الشمالي بوابة تتصل مع الحجرة المجاورة الشمالية، ويبدو ان هذه الحجرة كانت صالة الاستقبال الرئيسة لهذا المبنى.

الحجرة الثانية: تقع الى الجهة الشمالية من الحجرة الأولى، وتتصل معها عن طريق بوابة داخلية في جدارها الجنوبي. وهذه الحجرة ثانية من حيث المساحة بعد الحجرة الأولى، اذ تبلغ مساحتها٤,٧×٣,٨امتار. وتتميز بوجود مدخل او بوابة على شكل قوس خماسي يقع في

الجدار الغربي ويفضي الى خارج البناء، كما توجد بوابة في الجدار الشمالي لهذه الحجرة تتصل مع الحجرة الثالثة المجاورة.

الحجرة الثـالثة: بنيت على شكـل شبه منحرف أطـوالها ٣,٨٥×٣,٤أمتار. وقد تعـرضت معظم جـدران هذه الحجرة للتهـديم، ونقلت حجـارتها الى أماكـن اخرى في الموقع وخـارجه، وأعيد استعمالها.

الحجرة الرابعة: حجرة مستطيلة أطوالها٣,٨٥×٢,٤أمتار. مايميز هذه الحجرة خلوها من البوابـات، ولعلها استخدمـت عن طريق فتحـة في سقفها تصلها بـالطابق الاول العلـوي من المبنى. ويمكـن ان يكون هنـاك درج(سلم)، ربما كان مصنـوعاً مـن الخشب، يـؤدي الى هذه الحجرة التي كانت تستعمل للخزن او لحفظ المياه.

الحجرة الخامسة: بنيت بشكل شبه منحـرف أطوالها٤,٧٥×١,٧امتار. تخلو هذه الحجرة كذلـك من البوابات، فقـد تكون استعملت بنفـس الطريقة التـي كانت تستخدم فيهـا الحجرة الرابعة.

يتضح من خـلال الدراسات الأولية ان هـذا المبنى لم يستعمل للسكن، اذ لم يعثـر فيه على مخلفات مـادية تشير الى استعمالات منـزلية، بل كـان يستعمل مقـراً إدارياً او رسميـاً. وقبل تشييد هذا المبنى حفر المكان، وأزيلت الاتربة حتى وصل الى الطبقة الصخرية التي أزيلت منها بعض الاجزاء ايضاً، وخـاصة في الجهتين الغربية والجنوبية ليصبح المكـان مستوياً. وشيدت حجارة هذا المبنى فـوق أساسات على شكل بلاطات ضخمة وضعت فـوق الارضية الصخرية المستويـة، وقد بـرزت أجزاء هـذه البلاطات بطـول ١٠سنتمترات من داخـل المبنى وخـارجه. وحجارة هذا المبنى مقطوعة من الصخور الجيرية الموجودة بكثرة في هذا الموقع. وكانت طريقة البناء بـاستعمال حجر عريـض يليه حجر طـويل بصورة متـوالية(Header-Strecher)، وكانت الحجـارة تثبت بعضها ببعض بواسطة مـونة«إسمنت» مازالت محافظـة على متانتها. وكـانت الفتحـات الموجودة بين الحجـارة تعبأ بحجـارة صغيرة مخلـوطة مـع هذه المونـة او الاسمنت. وتشير ضخامـة حجارة البناء، والوصـول الى الأرضية الصخرية لقطـع الاساسات الحجرية عليها، وطبيعة بناء الحجرات الخمس سالفة الذكر تشير الى وجود طابق آخر أو أكثر فوق حجرات التسوية مما يدل على أهمية هـذا البناء. ويعزز افتراض وجود طابق او أكثر .وتم العثور على العديد من حجارة هذا المبنى التي اعيد استعمالها في بناء جدران الكنائس الموجودة في الموقع، حيث استدل على هذه الحجارة من الحروف اليـونانية التي نحتت على معظم حجارة هذا المبنـى. ونقلت اعـداد كبيرة من حجارة اليصيليـة الى القرى المجـاورة كحوارة، وبشرى ، وسال، واستعملت في بناء المنازل حتى فترة قريبة. وقـد حصر نوعان من الارضيات داخل هذا المبنى، ارضيـة اقيمت فوق الصخور مبـاشرة، وأرضية علويـة كانت على مستوى البـلاطات الضخمـة التي تشكـل اساس المبنـى، ويتراوح سمـك الارضيات مـابين ٥ الى ١٠سنتمترات،

وتتكون مـن خلطة اسمنتية مـن الجير المطحون والمحـروق، والرماد، وبعـض كسر الحجارة الصغيرة، والرمل.

تعود طـريقة بناء حجارة هـذا المبنى الى الفترة الهلنستية، كما ان العثـور على كسر ا لفخار التي تعود الى الفترة الهلنستية، قـرب الاساسات يؤكد انه بنـي في هذه الفترة. واستخدم البناء في الفترة الرومانيـة. وربما رممت القصارة«المونة الاسمنتيـة» الداخلية في الفترتين الرومـانية المبكرة والمتأخرة، وعثر على الكسر الفخاريةالرومانية المتأخرة والبيزنطية في الطبقات العلوية من البناء. كما اظهرت ا المربعـات التي حفرت في الجهة الشمالية من المبنـى بناء آخر يعود الى الفترة البيزنطية مكوناً من حجرات صغيرة استعملت للسكن.(١٤١)

ذـ تل المزار:

ارخت الطبقة الأولى من التـل الى النصف الأول من القرن الرابع قبـل الميلاد، وتمثلت بهذه الطبقة العـديد من الحفـر الدائرية والعميقـة، بالاضـافة الى مخازن العلف، وقـد اتخذت هذه الحفر عدة اشكـال واحجام، واختلفت طرق بنائهـا والمواد المستخدمة في ذلك، فـالبعض منها استخدم الطوب في تشييدها، وفي حالات قليلة استخـدمت الحجارة في المداميك السفلى وأحياناً الطوب، ومن ثم ا لحجارة في المداميك العليا. ومن حيث الشكل فتعدد بين الاسطواني والبرميلي والمخروطي، وخصـوصاً تلك التي لم تستخـدم الحجارة او الطوب في بنائهـا. كما استخدمت الشبائح الحجرية في رصف ارضيات بعض الحفـر والبعض الآخر استخدم الطوب في ذلك، او الطين المضغوط.(١٤٢)

وتشير المخلفات التـي وجدت في مخازن العلـف، الى استخدامهـا لخزن كميات كبيرة مـن الحبوب والتبن كنوع من الـوقاية خلال اوقات الجفاف، او استخدامه لتـزويد قوات عسكرية، فيبدو ان الموقع كـان على اتصال مع موقـع (عماتاAmmata) الذي يبعد حوالي٣كيلومترات الى الشرق من تل المزار في الفترة الهلنستية.(١٤٣)

ب ـ فلسطين:(خارطة رقم٢)

هنـــالــك العـديــد مــن المواقــع التــي تعـود للفترة الهلنستيــة في فلسطين ومنهــا تل(عنـافاAnafa)،(١٤٤) و (ماريســاMarisa)التي كشـف فيها عـن مدينــــة هلنستية مكتملـة التخطيط،(١٤٥) و(بيتيـلBethel)التـي عثـر فيها على بقـايـا معماريــــة،(١٤٦) وسبسطيـة ــمخطط رقـم٧ــ، وتـل بـلاطـة، وتـل النصبـة وعتليـت، وتـل اسـدود، وتــل السمك(شكمـونا Shiqmona)، وتل ابـو شوشــه، و(رامات رحيـلRAHEL-RAMAT)، وغيرها من المواقع.(١٤٧)

ابرز المواقع التــي تمثل الفترة الهلنستية في فلسطين، جاءت من موقــع(ماريساMarisa) على بعد ٣٠كليومتر ا الى الجنوب الشرقي من عسقلان، فقد حلت المدينة في هذه الفترة محل تل الـدويــر كمـدينــة رئيسـة، وخـــلال الحروب الحشمـونيــة كـانــت قـاعــدة للهجـوم

على(اليهودية Judea) وبقيت المدينة تحت السيطرة الحشمونية حتى مجيء (بومبيوس POMPEIUS) عام ٦٣ قبل الميلاد.(١٤٨)

جرت الحفريات الأولى في الموقع على يد كل من (بليس وماكليستر Macalister and Bliss) عام ١٩٠٠ ميلادي، تم خلالها تحديد ثلاث طبقات، طبقتان أُرِخَتَا للفترة الهلنستية، وواحدة للعصر الحديدي. المدينة العائدة للفترة الهلنستية كانت في تخطيطها مربعة الشكل ١٥٨×١٥٢ متر تغطي مساحة حوالي ٢٤ دونماً، ومحاطة بسور يتخلله عدد من الابراج المستطيلة والمربعة موزعة: ثلاث في الجدار الغربي، وثلاثة في الجدار الجنوبي، وواحد في الجدار الشرقي.(١٤٩)

بنيت جدران المدينة على اساسات من الحجارة الضخمة ، وجزء منها مبني من الحجارة الكلسية، قطعت على شكل الطوب وبنيت بتقنية(حجر طولي يتبعه حجر عرضي Header-Stretcher). مخطط المدينة يتكون من شارعين متماثلين، يتجهان من الشرق الى الغرب، وثلاثة شوارع متعامدة من الشمال الى الجنوب، تتقاطع مع الشارعين الرئيسيين في الزاوية اليمنى. تدل بعض الشوارع على أنها كانت مبلطة وتحتوي على بقايا صرف المياه، يحيط بالشوارع اثنا عشر مبنى، احداها يقع بالقرب من الجدار الشرقي. وتمثلت المباني بمبنى ديني، واداري، وعسكري. اما المركز التجاري فمخططه مربع الشكل، ويحوي في المركز قاعة محاطة بعددمن الغرف والقاعات باحجام مختلفة، والى ا لغرب يوجد صف من ست غرف باحجام متساوية، وتطل على الشارع، ومبنى مربع في تخطيطه ويتألف من قاعتين احداهما تمتد على طول الشارع وكانت مبلطة بالحجارة، والاخرى تقع الى الجنوب من القاعة الاولى، تم التعرف على نمطين من المباني في المدنية من المباني الكبيرة، وتتكون من قاعدة محاطة بالعديد من الغرف، والنمط ا لثاني يتكون من مبان صغيرة تتكون من غرف منتظمة في تخطيطها.(١٥٠)

تم تحديد مرحلتين تاريخيتين في المدينة، الاولى تؤرخ الى الفترة الهلنستية المبكرة(الطبقة الوسطى)، والطبقة العليا للفترة السلوقية.(١٥١) لقد شجع الحكام في الفترة الهلنستية سواء المبكرة او المتأخرة، على بناء التحصينات واسوار المدن والحصون. ففي سبسطية سور المدينة العليا(الفترة الهلنستية المبكرة)بقي محافظاً على حاله وتتخلله ثلاثة ابراج دائرية سميكة شيدت في زمن(بيرديكاس Perdikkas عام ٣٢١ قبل الميلاد، او زمن(بطليموس الاول PTOLEMAIOS I) عام ١٣٢ قبل الميلاد.(١٥٢) وفي تل دور استعيض عن الابراج الدائرية باخرى مربعة الشكل. اما خربة الكرك فيحيطها سور طويل مبني على اساسات من الحجارة البازلتية، وفي تل عنافا في الجليل الأعلى،تم تمييز ثلاث مراحل معمارية في التل، تعاصر الفترة من عام ٢٢٠-٧٥ قبل الميلاد، عندما سقطت على يد (اسكندر يانيوس Janneus). واحيطت المدينة بسور بلغ سمكه حوالي مترين، وأرخ الى النصف الثاني

من القـرن الثالث قبـل الميلاد، وفي المرحلة الهلنستيـة المتأخـرة استخدمت الحجـارة المغطاة بطبقة من الجص، في تشييد المباني السكنية، التي كانت ارضيتها من الطين، وجزء من الساحة مرصوف بالحجارة .(١٥٣)

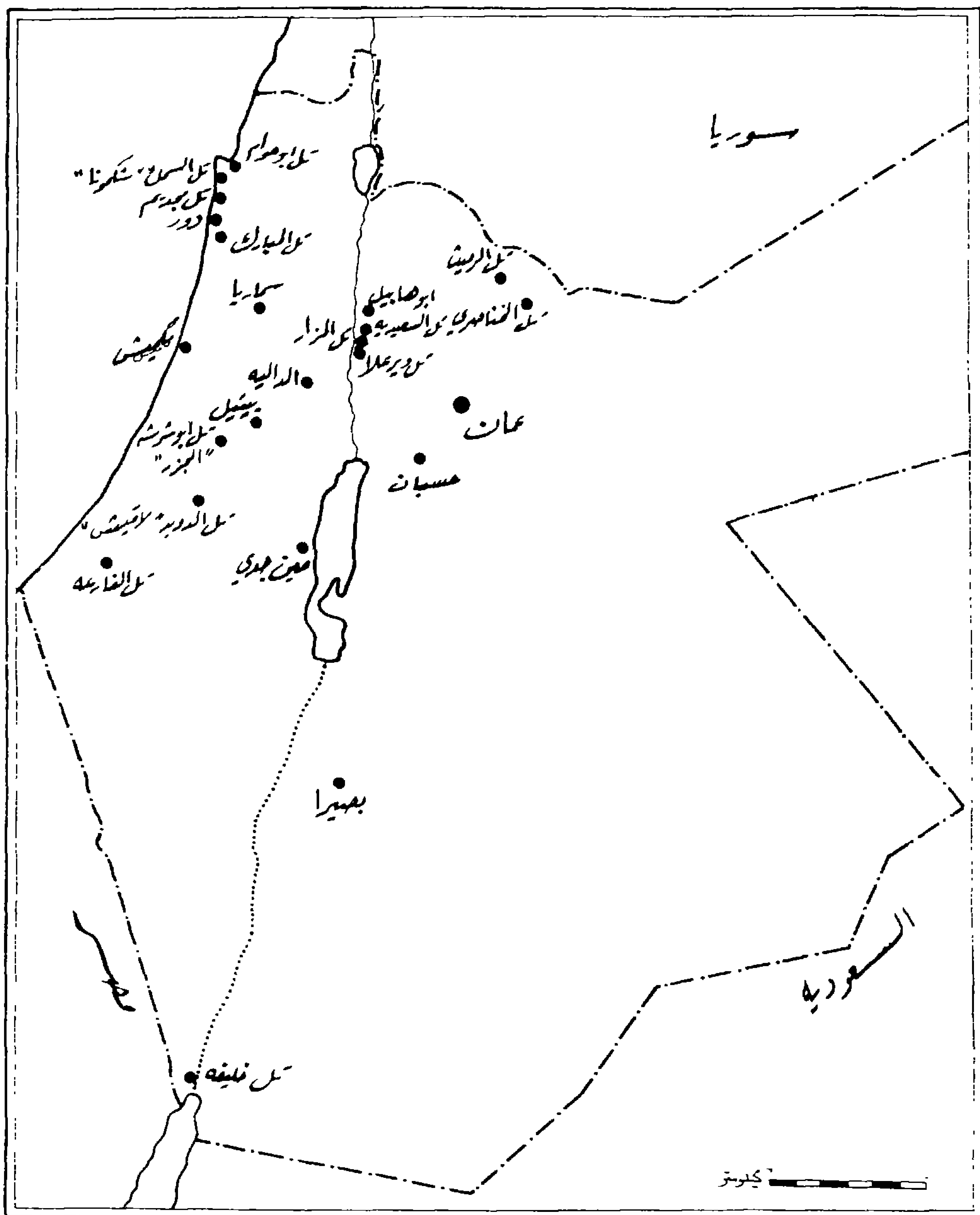
يتضح مـن خلال استعـراض دراسة العمائر الفـارسية والهلنستيـة في الاردن وفلسطين، المكانة الحضارية التي كانت تتمتع بها منطقتنا، رغم قلـة معلوماتنا من الناحية التاريخية عن هاتين الفترتين، الا ان الشواهد المعمارية، اصبحت تلقـي مزيداً من الضوء على هاتين الفترتين. فقد اتبع في تخطيـط المنازل في الفترة الفارسية، نظام الساحـة المكشوفة المحاطة بالعـديد من الجهات بالغرف، وهذا النمط المعماري وجد له سابقة في الفترة الآشورية والبابلية، فقد كشف في العديدمن المواقـع الاردنية والفلسطينية، عن مثل هذا النمـط المعماري، وتجلى ذلك بوضـوح في موقـع تل السعيدية، وعين جـدي، وتل الدوير، وتـل المزار، وغيرها من المواقع. ومـن خلال دراسة تقنية المباني تم التعرف على استخدام تقنيـة(حجر طولي يتبعه حجر عرضي-Header stretcher) في المباني التي تعود للفترة الهلنستية، وكذلك رصف الارضيات بالبلاطات الحجريـة، كما ويظهر في الفترة الهلنستيـة نمط بنـاء المنازل، حول سـاحة مـركزيـة محاطة بالعديد من الغرف.

امـا تخطيط ا لمدن في الفترة الفـارسية، فقـد جـاء من خـلال دراسـة العديـد من المرافـق المعمارية في فلسطين، والتي امكن تتبع بعض المخططـات المعمارية فيها، وكيفية تمركز المباني بالقرب من سور المدينة.

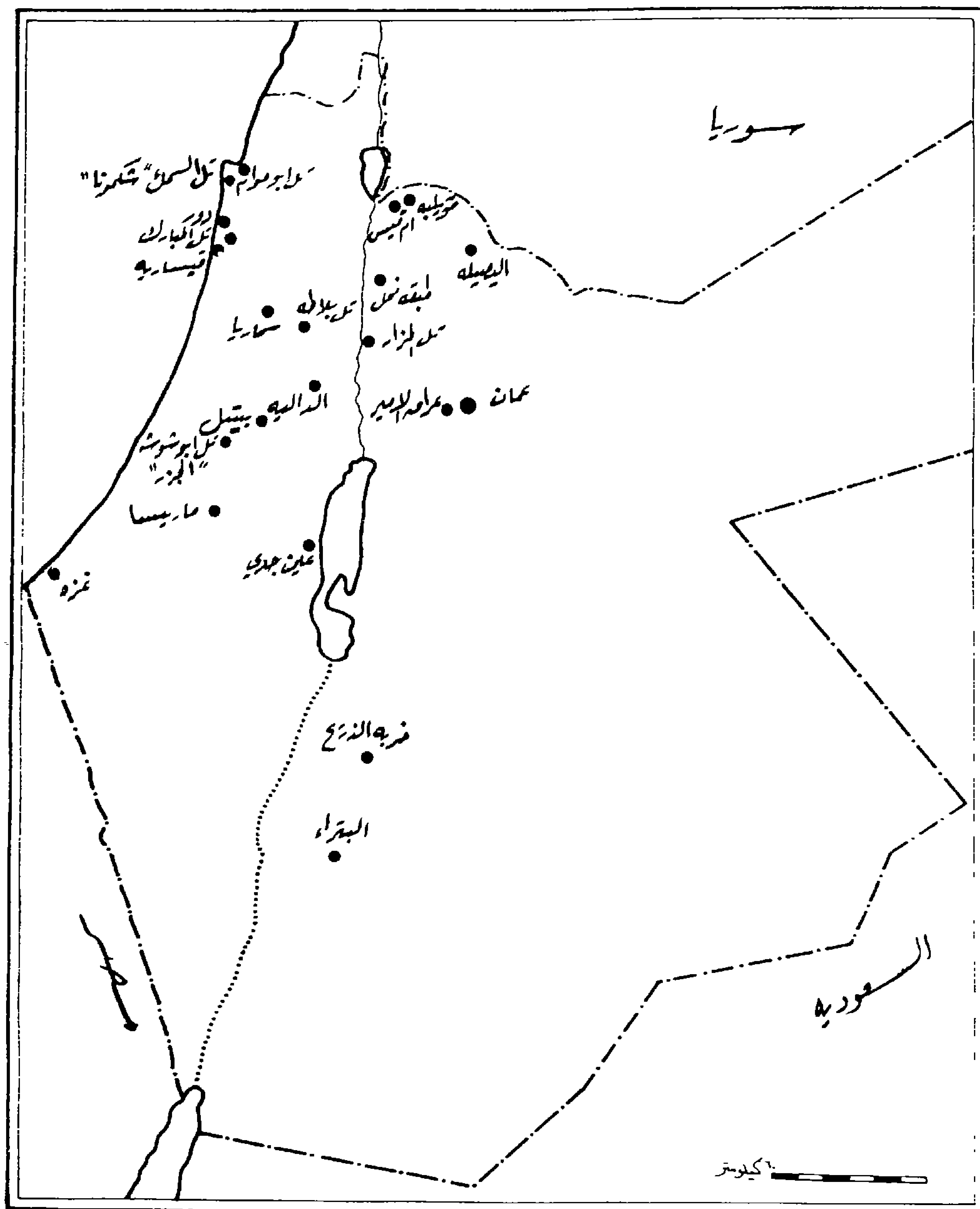
وفي الفترة الهلنستية نجـد موقع(مـاريسـاMarisa)يمثل نمطاً معماريـــاً كاملاً، يشير الى نظام تخطيط المدن في هـذه الفترة، والمتمثل بالنظام الشطرنجي، وتمثلـت الانظمة التحصينية ببناء الاسوار والابراج المستديرة والمربعة.

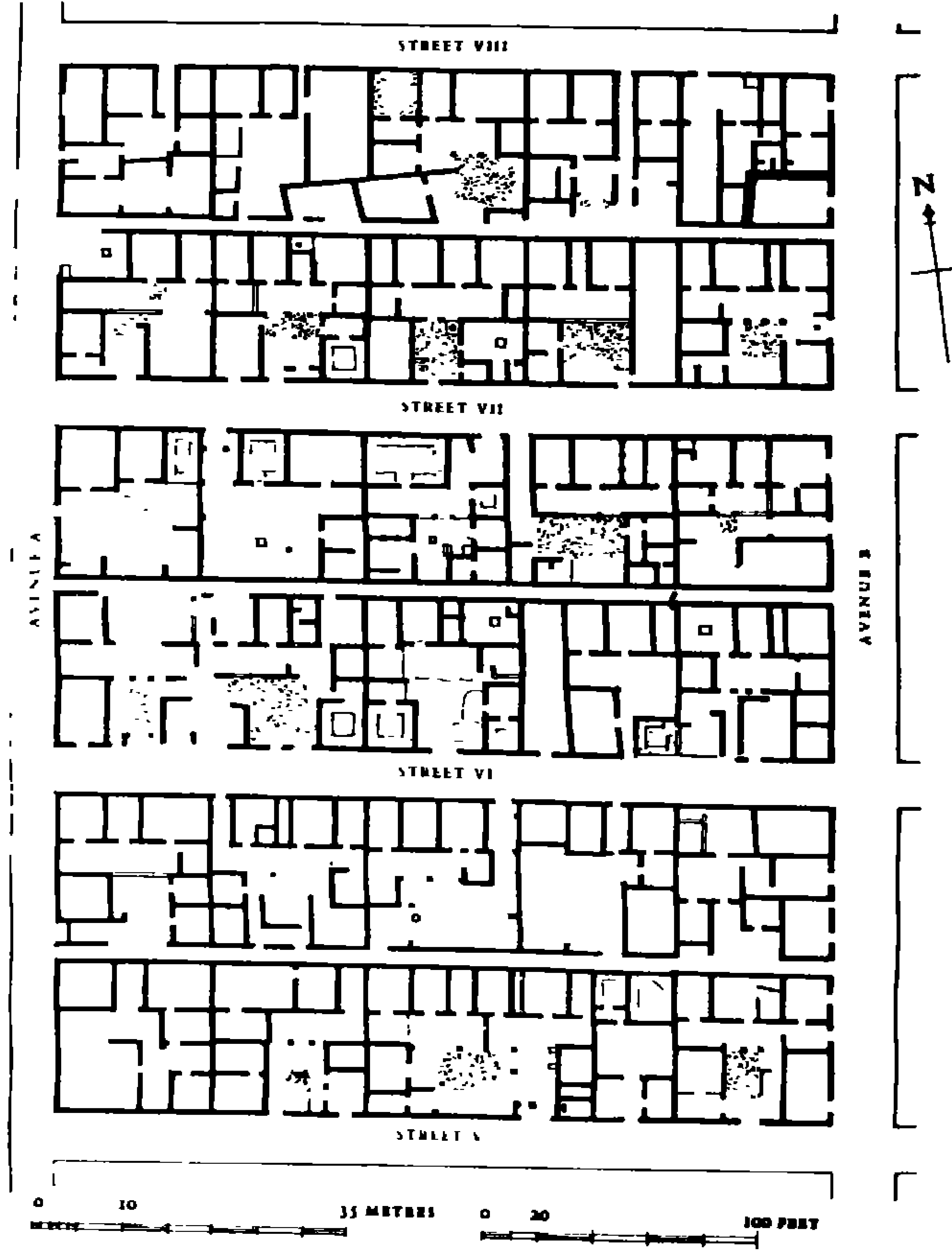
(خارطة رقم ١)

خارطة تبين اهم المواقع في الفترة الفارسية في كل من الاردن وفلسطين

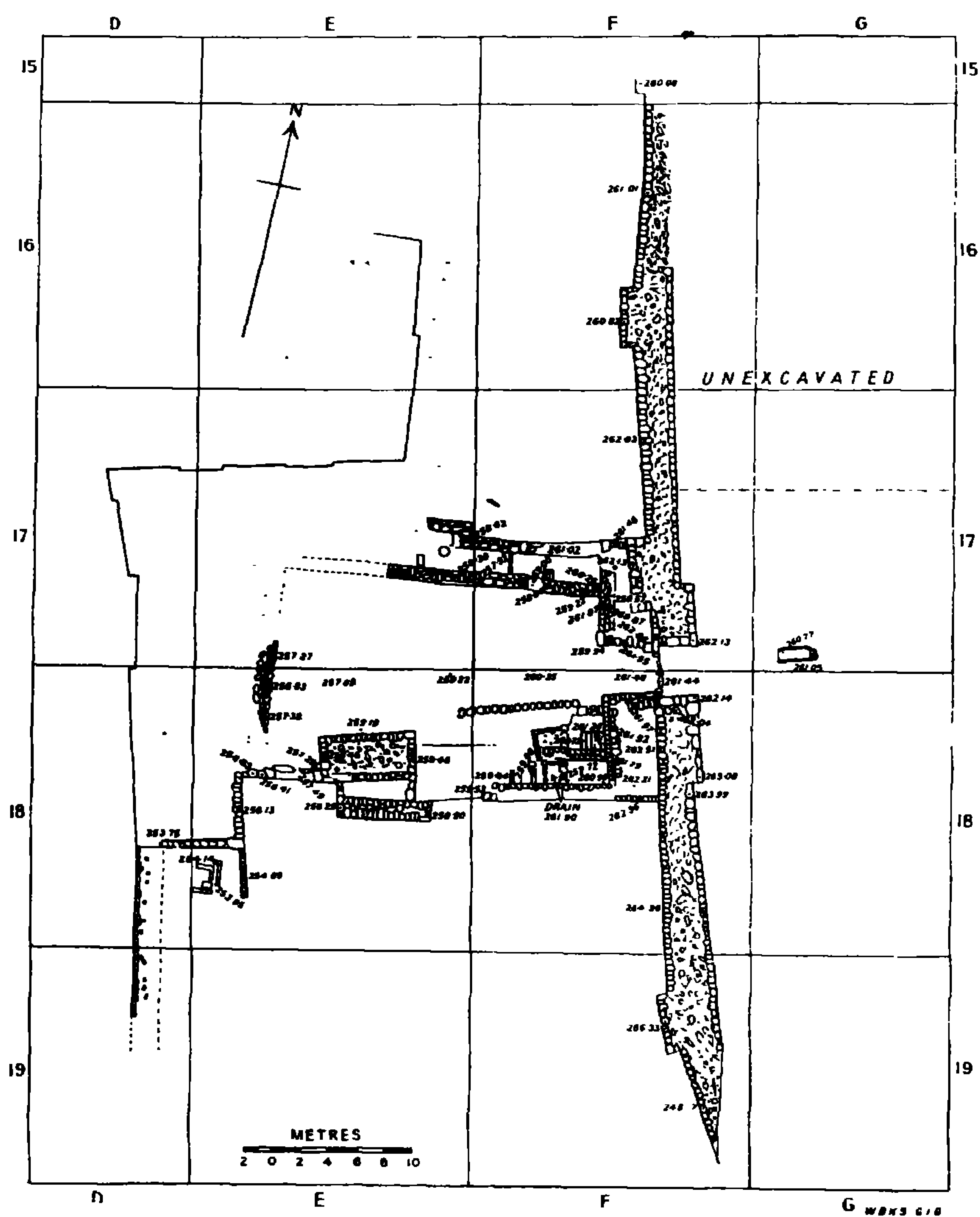


خارطة تبين اهم المواقع في الفترة الهلنستية في كل من الاردن وفلسطين

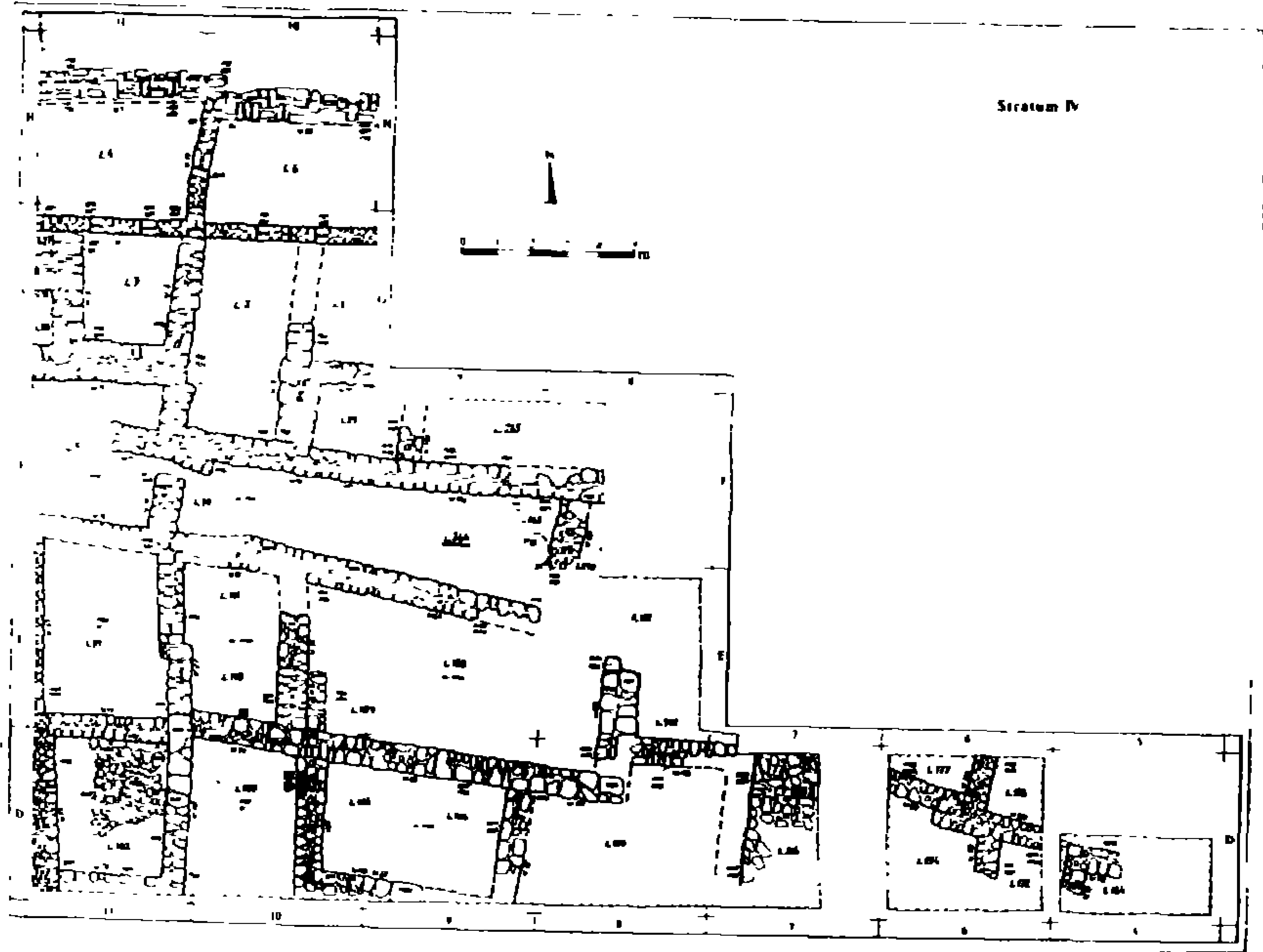




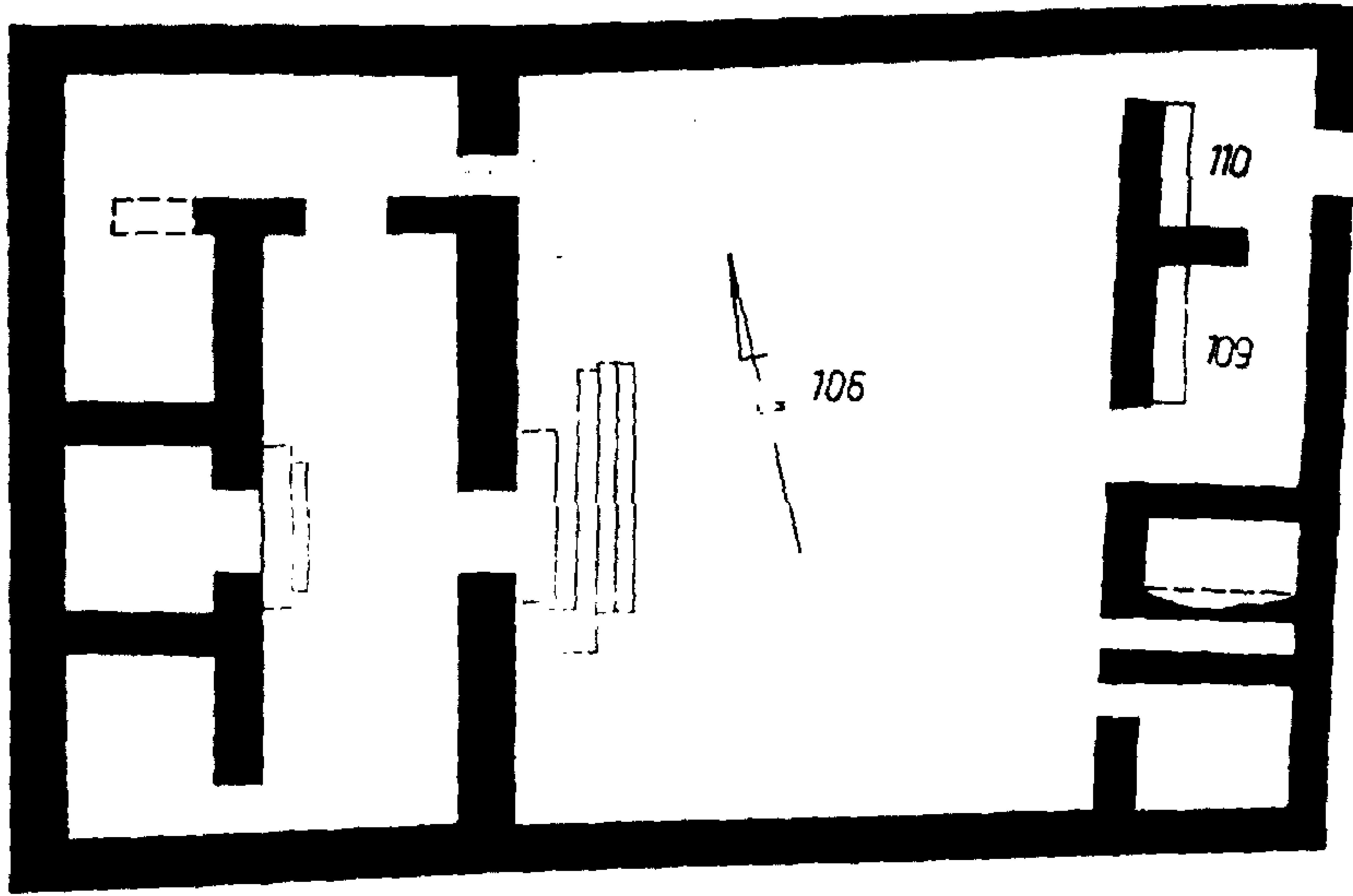
مخطط رقم (١)   مخطط لمدينة اولينثوس (Olynthus) عام ٤٣٠ قبل الميلاد
(Lawrence 1983: Fig 312)



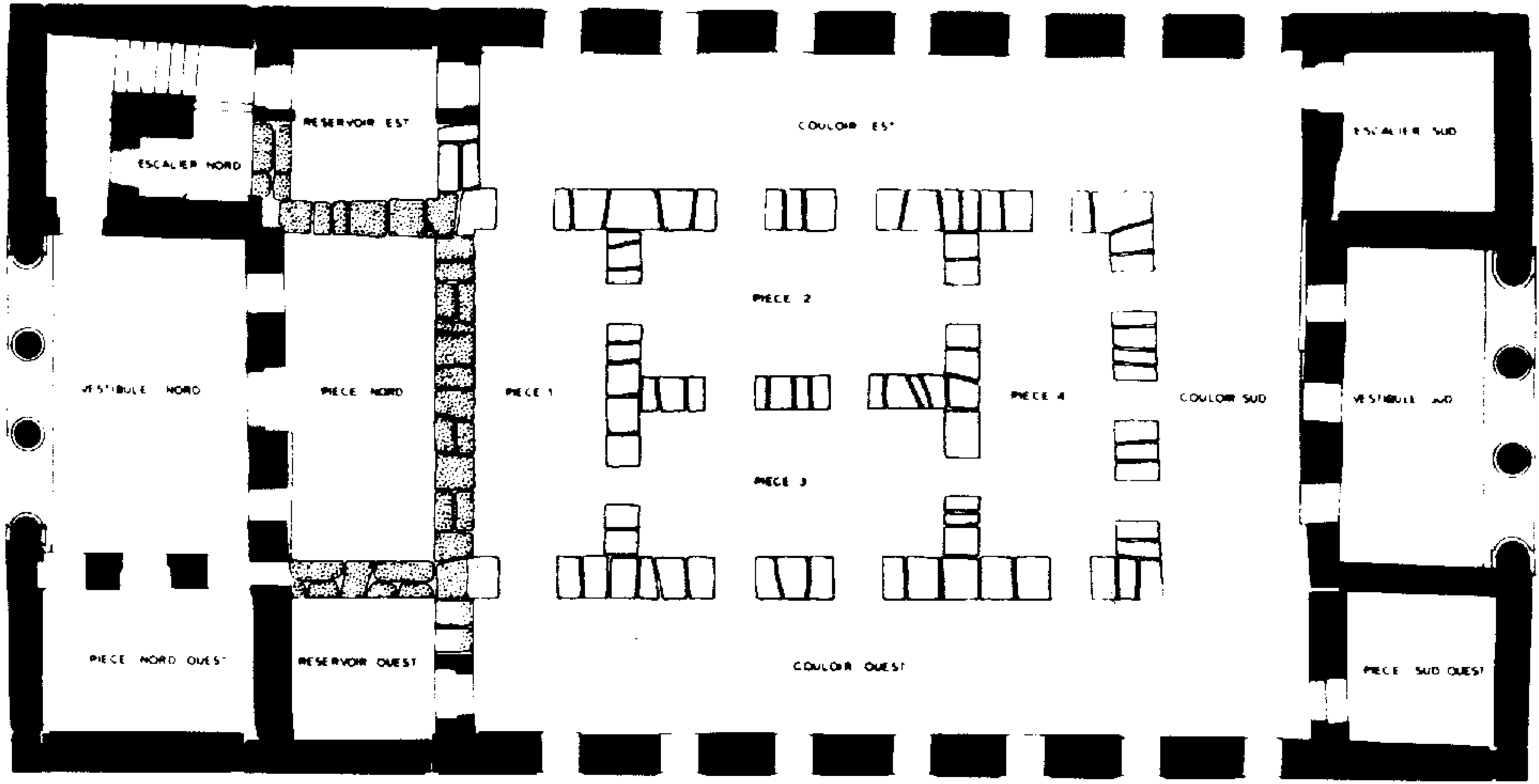
مخطط رقم (٢) : مخطط لمدينة تل الدوير في الفترة الفارسية.
(Tufnell 1953: 116)



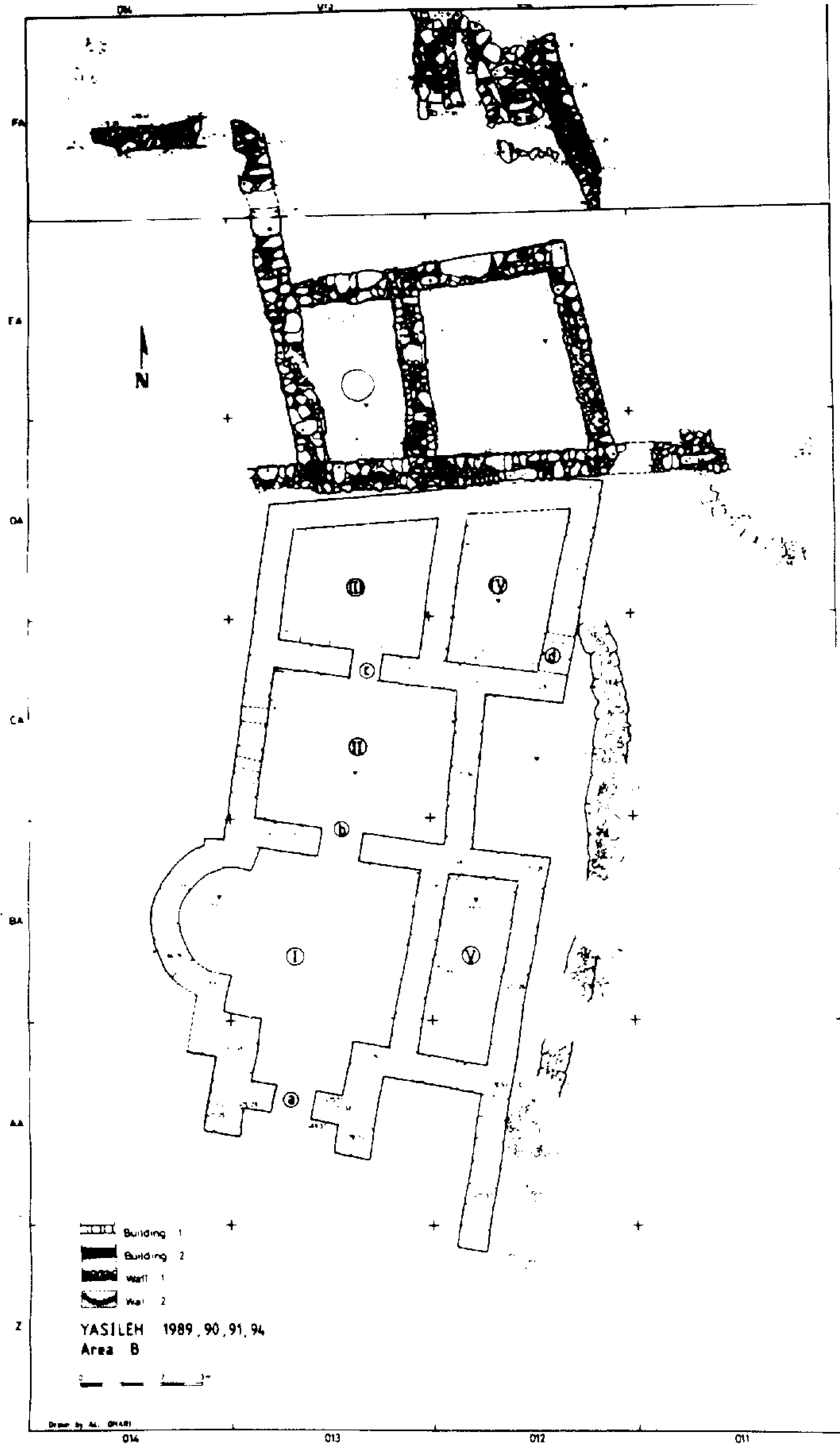
مخطط رقم (٣) · مخطط لمبنى تل المبارك (مفراك Mevorakh) يعود للفترة الفارسية
(Stern 1978: Fig 261)



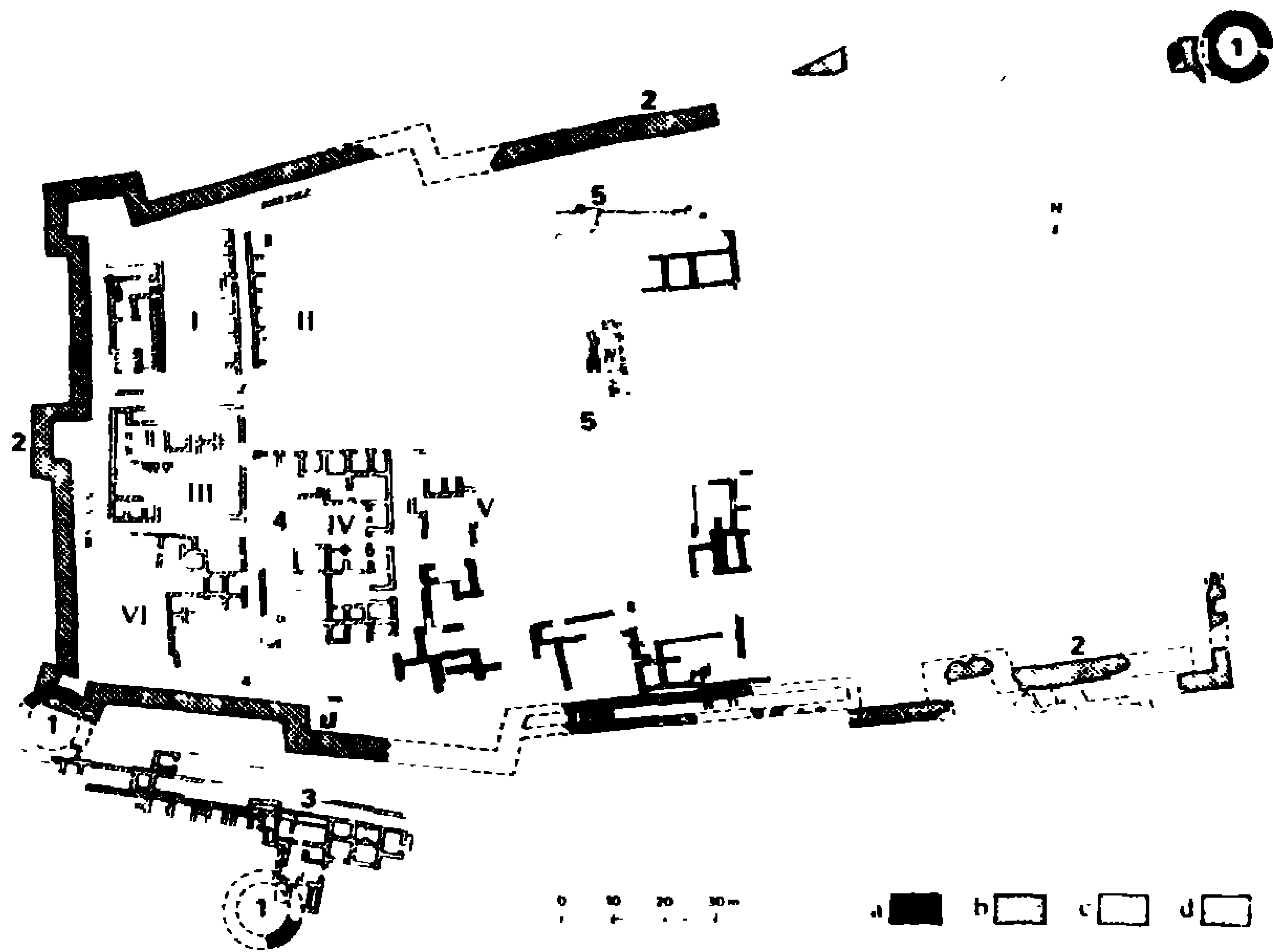
مخطط رقم (٤): مخطط معبد الشمس في تل الدوير يعود للفترة الهلنستية.
(Aharoni 1968: Fig 19)



مخطط رقم (٥) : مخطط للمبنى الهلنستي في ودي السير -قصر العبد-.
(Will and Larché 1991: II, 8, Fig 2)



مخطط رقم (٦) :   مخطط للمبنى الهلنستي في موقع اليصيلة.



مخطط رقم (٧) :   مخطط لمدينة سبسطية في الفترة الهلنستية.
(Kuhnen 1990: Fig 2)

الحواشي

(١) Fredericq , D and Franken , H ., Pottery and Potters - Past and present : 7000 years of Ceramic art in Jordan , Atempto verlag , Tubingen , 1986 , P . 174 .

(٢) Aharoni , V ., The land of the Bible , London , 1979 , P . 411 .

(٣) Pritchard , J ., Ancient Near Eastern texts relating to the Old TESTAMENT Princeton , 1969 , P . 316 .

(٤) Fredericq , D ., OP . Cit . 1986 , P . 174 .

(٥) Kenyon , K ., Archaeology in the Holy Land , London , 1979 , P . 306 .

(٦) أبو طالب ، محمود ، آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة ، أضواء جديدة (١٩٥٢ — ١٩٧٧) ، منشورات وزارة الثقافة ، عمان ، ١٩٧٨ ، ص ٨ .

(٧) Miller , J . M . and Hayes , J . H , A HISTORY of Ancient Israel And Judah, Philadelphia , 1986 . P . 437 .

(٨) Aharoni , V ., OP . Cit , 1979 , P . 411 .

(٩) Ibid , P . 411 .

(١٠) Miller , J . M ., OP . Cit . 1986 , P . 463 .

(١١) Aharoni , V ., OP . Cit . 1979 , P . 412 .

(١٢) Stern , E ., " Material Culture of the Land of the Bible in the Persian Period " , Exploration Society , 1985 , P . 47 .

(١٣) AIBRIGHT , W ., The Archaeology of Palestine , Penguin , 1971 , P . 146 .

(١٤) Ibid , P . 143 .

(١٥) Fredericq , D ., OP . Cit . 1986 , P . 174 .

(١٦) Ibrahim , M . Sauer , J . and Yassine , Kh ., " The East Jordan Valley Survey " , BASOR , 249 , 1983 , P . 56 .

(١٧) Harding , G . L ., " An Iron - Age Tomb at MEQABELEIN" , QDAP , Vol . XIV , Oxford , 1950 , P . 45 .

(١٨) Yassine , Kh , Tell el - Mazar 1 : Cemetery A . Amman , 1984 , P . 50

(١٩) Hadidi , A ., " An Ammonite Tomb at Amman " , LEVANT , Vol . X1X , London , 1987 . P . 101 .

(٢٠) Pritchard , J ., Tell Es - Sa'idiayeh . Excavations on the Tell . 1964 - 1966 Philadelphia , 1985 , P . 60 .

(٢١) Yassine , Kh ., " Tell el - Mazar , field I . Preliminary Report of Area G " , ADAJ , 27 ,

AMMAN , 1983 , P . 501 .

(٢٢) Glueck , N . , " The First Campaign at Tell el - Kheleifeh " , BASOR , 17 , 1938 , P . 4 .

(٢٣) Kooij , V . , and Ibrahim , M . , Picking up the Threads , A continuing review of excavations at Deir Alla . Jordan , Leiden , 1989 , P . 90

(٢٤) Pritchard , J . , OP . Cit . 1985 , P . 60

(٢٥) Ibid , P . 60

(٢٦) Ibid , P . 61 .

(٢٧) Ibid , P . 61 .

(٢٨) Ibid , P . 61 .

(٢٩) Ibid , P . 61 .

(٣٠) Ibid , P . 62 .

(٣١)Ibid , P . 63 .

(٣٢) Ibid , P . 63 .

(٣٣) Ibid , P . 64 .

(٣٤) Ibid , P . 64 .

(٣٥) Ibid , P . 66 .

(٣٦) Yassine , Kh. , Op . Cit . 1983 , P . 491 .

(٣٧) Ibid , P . 497 .

(٣٨) Ibid , P . 501 .

(٣٩) Ibid , P . 501 .

(٤٠) Ibid , P . 501 .

(٤١) Ibid , P . 503 .

(٤٢) Ibid , P . 503 .

(٤٣) Stern , E . , Op . Cit . 1985 , PLXVIII .

(٤٤) Tufnell , O . , Lachish III . The Iron AGe , London , 1953 , P . 44 .

(٤٥) Hamilton , R . W . , " Excavations at Tell Abu Hawam " , ODAP , Vol . IV , Oxford , 1934 , P . I .

(٤٦) Stern , E . , " Tell Mevorakh ,

(٤٧) Mazar , B . , and Dunayevsky , I . , " En - Gedi , Third Season of Excavatiin , Preliminary Report " .

(٤٨) Maisler,B, "The Excavations at Tell Qasile:Preliminary Report-1"

(٤٩) Crowfool,J. Kenyon, K.and Sukenik,E.,Samaria-Sebaste 1:The Buildings, London, 1942,p.123.

(٥٠) Stern,E, .Op.Cit. 1985,p.47.

(٥١) Ibid,p.48.

(٥٢) Hamilton,R.W,.Op.Cit.1934.p.2.
(٥٣) STERN,E.,Op.Cit.1995,p.48
(٥٤) Ibid,p.48.
(٥٥) Lawrence,A.W.,Greek ARCHITECTURE, London,1983,p.3,
(٥٦) Hamilton,R.W,.Op.Cit.1934.p.2.
(٥٧) Ibid,p.3.
(٥٨) Stern,E, .Op.Cit. 1985,p.50
(٥٩) Tufnell,O.,Op. Cit.1953,p.150.
(٦٠) Stern,E, .Op.Cit. 1985,p.54
(٦١) Amiran,B.K.and Dunayevsky,I.,"The Assyrian Open-Court Building and its Palestinian Derivatives",BASOR,149,1958,pp31-32.
(٦٢) Mazar , B . , and Dunayevsky , I . , " En - Gedi , FOURTH of EXCAVATION , Preliminary Report " .
(٦٣) Ibid,p.135.
(٦٤) Ibid,p.136.
(٦٥) Ibid,p.137.
(٦٦) Mazar,B.,Op.Cit.1964.p.126.
(٦٧) Tufnell,O.,Op. Cit.1953,p.131.
(٦٨) Ibid,p.132.
(٦٩) Ibid,p.132-133
(٧٠) Ibid,p.131.
(٧١) Ibid,p.135
(٧٢) Maisler,B.,Cit.1950-51,p69.
(٧٣) Maisler,B.,"Report-II"
(٧٤) Stern,E.,"The Excavations at Tell Mevorakh I, the Hellenistic, Persian and early strata",QEDEM,9,1978,p.26.
(٧٥) Ibid,p.26.
(٧٦) Ibid,p.26.
(٧٧) Ibid,p.27.
(٧٨) Ibid,p.27-28.
(٧٩) Tufnell,O.,Op. Cit.1953,p.141.
(٨٠) Ibid,p.141.
(٨١) Ibid,p.141.
(٨٢) Ibid,p.143.
(٨٣) Ibid,p.143.
(٨٤) Aharoni,Y.,"Trial EXCAVATION in the Solar Shrine at Lachish", Preliniary Report.

(٨٥) Ibid,p.159.

(٨٦) Ibid,p.159.

(٨٧) Ibid,p.160.

(٨٨) St ern,E.,Op.Cit.1958,p.36

(٨٩) Avigad, N., "Excavations at Makmish,1958, Preliminary Report"

(٩٠) St ern,E.,Op.Cit.1978,p.29

(٩١) Stern .E,."The PHOENICIAN Architecural Elements , in Palestine during the late Iron Age and the Persian period",Exploration Society, 1992,p.302.

(٩٢) Ibid,p.303.

(٩٣) Ibid,p.304

(٩٤) Ibid,p.308.

(٩٥) Albright, W., Op.Cit. 1971,p.143.

(٩٦) Stern,E. "the dating of statum II at Tell Abu Hawam

(٩٧) Tsori, N.,"A contribution to the problem of the Persian period at Bethshan",PEQ, 1977,p,105.

(٩٨) Lapp,N.,"The Late Persian Pottery, discoveries in the Wadi Eddaliyeh"AASOR, XLI,1974,p.30.

(٩٩) Albright ,W.,Op.Cit.1971,p.146.

(١٠٠) Van ELDEREN, B.,Hellenistic Period, In the Archaelogical periods and Site(East Bank) ,Vol.1. Department of Antiquities, Jordan,1973,p.30.

(١٠١) Kuhnen, H.P.,PALASTINA in Griechisch-romischer Zeit, Band2,Munchen,1990,pp,32-33.

(١٠٢) Fredericq, D.,Op.Cit.1986,p.178.

(١٠٣) Smith , R . H . , " The Southern Levant in the Hellenistic period , LEVANT , VolXXII , 1990 , P . 123 .

(١٠٤) Fredericq , D . , OP . Cit , 1986 , P . 178 .

(١٠٥) Aibright , W . , Op . Cit . 1971 , P . 146 .

(١٠٦) Smith , R . H . , OP . Cit , 1990 , P . 123 .

(١٠٧) Kuhnen , H , P . , OP . cit , 1990 , P . 38 .

(١٠٨) Lapp , P . , " Palestinian Ceramic Chronology 200 B . C - 70 A . D " . AASOR III , NewHaven , 1961 , P . 40 .

(١٠٩) Smith , R . H . , OP . cit . 1990 , P . 124 .

(١١٠) Ibid , P . 123 .

(١١١) Will , E . , " The Recent French Work at Araq el - Emir , The Qasr el - Abd Rediscoversd , " The Excavations at Araq el - Emir , Vol. 1 , AASOR 47 - 48 , 1980 - 81 , P . 149 .

لمزيد من المعلومات عن هذا الموقع انظر : —

Will , E. and Larche , F . Iraq al Amir , B . A . H . T.CXXXII , Paris , 1991 .

(١١٢) Pritchard , J . , Op . Cit . 1985 , P . 69 .

(١١٣) Smith , R . H . McNicoll , A . W . and Hennessy , J . B . , " The 1980 Season at Pella of the Decapolis " , BASOR , 249 , 1983 , P . 71 .

(١١٤) Ibrahim , M . Sauer , J . and Yassine , Kh . , " The East Jordan Valley Survey , 1975 " , BASOR , 222 , 1976 , P . 58 .

(١١٥) Will , E . , Op . Cit , 1980 - 81 , PP . 44 - 50 .

(١١٦) Ibid , P . 151 .

(١١٧) Conder , C . , The Survey of eastern Palestine I . London , 1889 , P . 78 .

(١١٨) Will , E . , Op. Cit . 1980 - 81 , P . 152 .

(١١٩) Ibid , P . 152 .

(١٢٠) Ibid , P . 152 .

(١٢١) نيف . فرانسوا . « عراق الأمير » الهيئة المشاركة الفـرنسية للآثار ، المعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأدنى ، عمان ، ١٩٨٤ ، ص ٩ .

(١٢٢) Dentzer , J . , Villeneuve , F . and Larche , F . , " The Monumental Gateway and the princely Estate of Araq el - Emir " , The Excavations at Araq el-Emir , Vol . 1 , AASOR , 47-48 , 1980 , PP . 132-146 .

(١٢٣) Ibid , P . 137 .

(١٢٤) Ibid , P . 138 .

(١٢٥) Ibid , PP . 147 - 148 .

(١٢٦) Groot , J . , " Wall Decoration " , The Excavations at Araq el-Emir , vol. I, AASOR , 47 - 48 , 1980 , PP . 76 - 77 .

(١٢٧) Dentzer , J . , Op , Cit . 1980- 81 p . 147 .

(١٢٨) Pritchard , J . , Op , Cit . 1985 , P . 69 .

(١٢٩) Ibid , p . 69 .

(١٣٠) Ibid , p . 70 .

(١٣١) Ibid , P . 70 .

(١٣٢) Ibid , p . 71 .

(١٣٣) Smith , R . H . McNicoll , A . W . and Hennessy , J . B , " The 1981 Season at Pella of the Decapolis " , BASOR , 243 , 1983 , p . 71 .

(١٣٤) Ibid , p . 7 - 8 .

(١٣٥) Ibid , p . 8 .

(١٣٦) Smith , R . H . , Op. Cit , 1983 , p . 71 .

(١٣٧) Ibid , pp . 71 - 72 .

(١٣٨) Ibid , p . 71 .

(١٣٩) Ibid , p . 71 - 73 .

(١٤٠) Ibid , p . 73 - 74 .

(١٤١) Al - Muheisen , Z . , "L'archeologie de la periode Hellenistique dans le Nord de La Jordanie : problemes et perspectives " , TRANS , 8 , Paris , 1994 , pp . 29 - 34 , pls . I-V .

لمزيد من المعلومات عن هذا الموقع انظر : —
Al- Muheisen , Z . , " Yasileh , A New site in Northern jordan " , ADAJ , XXXV , Amman , 1991 , pp . 341 - 346 .
Tarrier , D. and Al-Muheisen , Z . , " La Necropole de Yasileh et les Tombeaux du Nord de la JORDANIE " , ARAM , Vol . 4 . No . 1 - 2 , 1992 , Oxford , pp . 229 - 244 .

(١٤٢) Yassine , Kh . , Op . Cit . 1983 , pp . 497 - 498 .

(١٤٣) Ibid , p . 498 .

(١٤٤) Weinberg , S . , " Tell Anafa , The Hellenistic Town " .

(١٤٥) Avi-Yonah , W . , " Mareshak (Marisa) , in Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land , Vol . 111 , 1977 , p . 782 .

(١٤٦) Albright , W . and Kelso , J . , " Bethel in the Persian and Hellenistic periods " , The Excavations of Bethel (1934 - 60) , ASOR , XXXIX , 1968 . p . 39 .

(١٤٧) Kuhnen , H . P . , Op . Cit , 1990 , pp . 40 - 42 .

(١٤٨) Avi-Yonah , W ., Op . Cit , 1977 , p . 782 .

(١٤٩) Ibid , p . 783 .

(١٥٠) Ibid , p . 783 .

(١٥١) Ibid , p . 788

(١٥٢) Kuhnen , H . P . , Op . Cit , 1990 , p . 43 .

(١٥٣) Weinberg , S . , Op . Cit . 1971 , pp . 89 - 91 .

مختصرات أسماء المراجع والمصادر

AASOR : Annual of the American Schools of Oriental Research .
ADAJ : Annual of the Department of Antiquities of Jordan .
B . A . H : Bibliotheque Archeologique et Historique .
BASOR : Bulletin of the American Schools of Oriental Research .
PEQ : Palestine Exploration Quarterly .
QDAP : Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine .
TRANS : Transeuphratene .

القضاة الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشـــام في عصر المماليك

القضاة الأندلسيون والمغاربة
في بلاد الشام في عصر المماليك

الدكتور ابراهيم زعرور
قسم التاريخ ـ جامعة دمشق

مقدمة:

منذ اتمام عملية فتح المغرب والاندلس، قامت علاقات بينها وبين بلاد الشام على أكثر من صعيد، وقد تفاوتت هذه العلاقات من حيث أهميتها ونشاطها، فكانت ذات زخم كبير ووتيرة عالية في الميدانين الاقتصادي والثقافي؛ ففي الميدان الاقتصادي ؛ازدهرت التجارة بكل أنواعها وتفرعاتها ؛بين بلاد الشام والمغرب والاندلس، وكذلك الأمر في الميدان الزراعي والصناعي، حيث تبودلت الخبرات والعلوم والمعارف حول ذلك، فنقلت إلى الاندلس زراعات شامية ومشرقية كثيرة، مثل الحمضيات والرمان والارز والباذنجان والارضي شوكي والقطن والسكر وغيرها، كما أن عدداً من الصناعات تبودلت بين البلدين، مثال ذلك صناعة الحرير وصناعة الخزف والطواحين المائية وغيرها، حتى أن بعض هذه الصناعات نقل فيما بعد إلى أوروبة كما هومعروف.

وفي الميدان الثقافي، نشطت حركة قوية بين البلدين، ذلك لأن الاندلس والمغرب كانتا بحاجة ماسة إلى ثقافة وعلوم المشرق، وظلت هذه الحاجة قائمة حتى وقت متأخر من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، عندما استقل المغاربة والاندلسيون، وراحوا يشقون طريقهم معتمدين على أنفسهم. وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد ،وتفوقوا على المشارقة في عدد من الأمور الثقافية، وعلى الرغم من أنهم ظلوا ينظرون إلى المشرق نظرة احترام واعجاب وتقدير.

أما في الميدان السياسي، فلم يكن الامر كذلك، فقد كانت القطيعة بين البلدين شبه كاملة، باستثناء فترة قصيرة سيطر خلالها الفاطميون على المغرب العربي، وعلى الرغم من هذا الواقع المحزن، فقد كانت تتم في السر عمليات اتصال بين البلدين، هدفها السيطرة على المشرق وضمه إلى الاندلس.

ومن المقرر، أن العلاقات بين بلاد الشام والمغرب والاندلس كانت طيبة وطبيعية خلال

دراسات تاريخية ، العددان٥٣ / ٥٤ ، تموز ـ كانون الاول ١٩٩٥

فترة ماقبل القـرن الخامس الهجري أو القرن السـادس ، واستقبل المغاربة والانـدلسيون في بلاد الشـام على هيئة طلبـة علم وتجار وزائريـن خلال هـذه الفترة، لتختلف الصـورة خلال الفترة التـاليـة، وتصبـح بلاد الشـام مـن أهـم أقطـار المشرق العـربي بالنسبـة للمغـاربـة والاندلسيين الذين قصدوها، واستقروا فيها وأصبحوا من رعاياها بلا معارضة أو قيود.

فما الذي حدث على الساحـة الاندلسية والمغربية، حتى لجأت فئـة من سكانها إلى المشرق، خاصة إلى بلاد الشام، وما العوامل التي شجعت على ذلك؟

للاجابـة عن ذلك، يمكن القول أن ماحـدث وبخاصة في الاندلس، كان بفعـل عدد كبير من العوامل القاهرة، التي كان أقساهـا على الاطلاق ،فقدان الاندلسيين لاوطانهم ومدنهم من جراء التقدم الاسباني ،الذي سيطر على رقعة واسعة من الاندلس ؛فلم تأت سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٣م حتى كانـت معظم معاقل العرب في الاندلـس ،تحت السيطرة الاسبانية بشكل أو بـآخر، الامر الذي أجبر الغـالبية العظمى مـن العرب إلى هجر بلـدانهم والتوجه إلى بـلاد متعددة في المشرق والمغرب، وكـانت بـلاد الشام مـن ضمنها، وكان قـدوم المغاربـة والاندلسيين إليهـا نشيطاً ومميزاً، لانها كانـت تتوافق مع أوضاعهم العـامة ؛فمن الناحية السياسيـة ، وافقت السلطات الشامية على مقدم الاندلسيين والمغاربة، وكذلك بالنسبة للأمور الاقتصادية والطبيعية وماإلى ذلك، حتـى أنه يمكن القـول في هذا الصـدد، أن بلاد الشام كـانت البديـل المناسـب لكثير من الاندلسيين والمغاربـة، الذين فقدوا أوطانهم أو حـق الاقامة فيها لسبب أو لآخـر، وقد اشتغلوا بحرية تـامة في كل المجالات العامـة ،دون أن يواجهوا أدنى عقبة، حتـى أنهم فضلوا في أحيان كثيرة على الشاميين أنفسهم، وسنقتصر في بحثنـا على العاملين الاندلسيين والمغاربـة في ميدان القضـاء.

١ ـ القضاء على المذهب المالكي:

لم يكن منصب القضاء على المذهب المالكي قد عـرف في وقت مبكر في بلاد الشام، كما كان الحال بالنسبة لبعض المذاهب الاخرى ؛ ولعل مرد ذلك يعود إلى ندرة العاملين في هذا المذهب في الشـام. وقـد ظهـر هـذا المنصـب، بعد أن بـدأ الانـدلسيـون والمغـاربـة يفـدون إلى الأرض الجديدة(بلاد الشـام) بقصد الاستقرار والاستيطان، وكـانت الغالبية العظمـى من هؤلاء على المذهب المالكي ،في الفترة الأولى من وصولهم.

لكن الشيء المؤكـد ،أن اعتماد قاضٍ مالكي، لم يـؤخذ بصورة رسمية إلا في النصـف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميـلادي. وأول ما بوشر باعتماد هذا المنصب، كان في مدينة دمشق سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م. ففي هذه السنة جعل بدمشق أربعة قضاة لأول مرة في تاريخها، هـم القاضي الشـافعي والحنفـي والمالكي والحنبلي(٢) وهكذا فقد بـدأت هذه العادة

بالانتشــار تباعا في بقيــة المدن الشامية الاخرى. ففــي مدينة حلــب، أول مااعتمد فيهــا قاضٍ مــالكي، كــان في سنــة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٧م، حيـث عين لهذا المنصب شهــاب الـدين بـــن أحمد الرياحي(٣).

أما بقية المدن الشامية الاخرى، فسنأتي على ذكر سنة استحداث هذا المنصب فيها، ضمن الحديث عن القضاة. لكن وقبل البدء في ترجمة الاندلسيين المغاربة، الذين شغلوا منصب قاضي القضاة في بلاد الشام، فان من الجدير التنـويه ببعض الملاحظات الهامة في هذا المجال، تتجلى احداها ،بأنه خلال فترة حكم الزنكيين والايوبيين، لم يكن هناك مايسمى بالقاضي المالكي، كما ذكرت قبـل قليل، ولايستبعـد أن يكون سبـب ذلك قد عـاد إلى أن الجالية الانـدلسية، كـانت ماتزال قليلة العدد، وبالتالي لم يشتهر أمرهــم، وذلك إذا ماقورنوا بالفترة التي تلت، وهي فترة حكم المماليـك، التي شهـدت هجرة أنـدلسية مغـربية كثيفـة إلى بلاد الشـام، بفعل الاحـداث والكوارث المؤثرة، التي نزلت بالعرب في الجناح الغـربي من الدولة العربية الاسلامية. ويمكن طرح ســؤال مفاده، كيف كـان الاندلسيون والمغـاربة يحلّون مشــاكلهم الخاصة والعــامة؟ فــالقول بــأنهم كـانوا يلجــأون إلى قضاة المذاهـب الأخـرى، قول لايخلـو مـن الصحة أبـداً، باعتبارهم مسلمين، لكن ربما كان ذلك عند حـدوث مشاكل تمس الحياة العامة، بحيث لايمكن لاحد الفصل فيها إلا القاضي. أما في المسائل العاديــة، كالفتوى والامور الفقهية الاخرى، فربما كان الانـدلسيون والمغاربــة يلجأون إلى حلهــا عن طريـق الاكابر منهــم والمعهود لهم بــالعلم والمعرفة، وبخاصة الذين تسّموا بـ(شيخ المالكية).

الملاحظة الاخرى التي يمكن الاشارة إليها حول هـذا الموضـوع، تتلخص بالقول، ان الذين تـولوا هـذا المنصب الهام، لم يكـونوا متســاويـن في ا لكفاءة والاهليــة، انما حدث في كثير مـن الاوقات، أن تسلمّه كثيرون منهم، مع أنهم كانوا يفتقرون إلى أدنى الشروط التي يجب توفرها، بمن يتصدى لهذه المهمة الصعبة.

وقد شغل الحكام دوراً رئيسـاً في هذا المجال تمشيــاً مع الظروف السـائدة، فكانوا يصيبون أ حيانــاً ويخطئون أحيــانا أخـرى. ومهما يكن مــن أمر، فــإنه لم يكـن هناك قـواعد ثـابتة أو بالاحرى شروط معينــة ومتبّعة يجب أن تتوفر بــا لمرشح لهذا المنصب، وان كان مــن الملاحظ، أنه من الواجب تـوفر المعرفة المعمقة والواسعة بالشريعة الاسلاميــة، وبمذهبه بشكل خاص، الأمر الذي لم يتـوفر بكل الذيـن تسلموا القضاء في الشام، فتبـاينوا من حيث الأهليّــة العلمية والسلوكية الاخلاقية، وانقسموا من هذه الناحية إلى فريقين : الفريق الأول، توفرت برجاله كل الشروط الواجب تـوفرها بالقــاضي من علم وأخلاق، وإن كـان الامر لايخلو من بعـض حالات شاذة ،فكــان أفراده أمثلة صــالحة، عملوا من خلال منــاصبهم القضـائيــة على تحري الاحكام العــادلة المنصفــة وتطبيقها دون خـوف ولاحرج. كما بـرهنوا مــن جهة أخـرى، على احترام منصــب القضاء وجعلــه مستقلا عـن ارادة الحكام ومشيئتهـم، يحدوهم في ذلـك، معرفتهـم

الشرعية العالية في المذهب المالكي. وتشاء الظروف، أن يكون أول قاضٍ مالكي في بلاد الشام من هذه الفئة، والذي تمثل بزين الدين محمدعبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي، المولود بمدية بجاية سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م أو التي قبلها. قدم مصر سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٩م حيث درس علم القراءات وغيرها ، ومن مدينة الاسكندرية انتقل إلى الشام، فاستقر بمدينة دمشق سنة٦١٦هـ/ ١٢٢٠م، وتصدر مشيخة التدريس بتربة أم الصالح بالصالحية، وبالجامع الأموي الكبير، وعندما استحدثت مناصب القضاة الاربعة بدمشق، أكره على تسلم منصب قاضي قضاة المالكية، فظل يقوم بهذه الوظيفة على مضض فترة تسع سنوات متتالية، بدءاً من سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م. عاد بعدها إلى مهنة التدريس، حتى وافته المنية سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٣م(٤) ودفن في مقابر الباب الصغير، وكانت جنازته حافلة، شارك في تشييعه نائب الشام نفسه. ويقول ابن قاضي شهبة، ان قبره مقصود بالزيارة، وهذا دليل ثقة الناس به لمكانته الكبيرة؛(٥) ويعد الزواوي هذا من الشخصيات النادرة والفريدة تقريباً ممن تسلم قضاء الشام من المالكية، لرفضه تقاضي أي راتب لقاء عمله كقاضي قضاة المالكية(٦). واذا كان عبد السلام هذا رفض تسلم منصب قاضي القضاة في البداية، فان ابن عمه جمال الدين يوسف بن عبد الله بن عمر أبو يعقوب الزواوي، كان على العكس تماما. فقد بذل جهداً كبيراً في حياة عبد السلام، كي يحل محله، ذلك انه كان يعمل نائباً له في القضاء. وتحققت ارادة جمال الدين هذا، بان اسفرت جهوده عن الفوز بمنصب قاضي قضاة مدينة دمشق على المذهب المالكي، حتى وافته المنية وهو بطريق الحج سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م (٧). وتتالت الشخصيات القضائية من آل الزواوي بدمشق، حيث خلف القاضي متقدم الذكر قاض آخر، هو محمد بن سليمان، الملقب بجمال الدين أيضاً. ولد سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م. قدم الاسكندرية ودرس على بعض علمائها، لينتقل بعد ذلك مابين القاهرة ومدينتي الشرقية والغربية، يعمل نائباً لقاضي المالكية، حين عين قاضي قضاة القاهرة فترة لابأس بها. ولظروف غير معروفة على وجه الدقة، غادر مصر قاصداً مدينة دمشق، وفيها تسلم منصب قاضي قضاتها منذ سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م. وقد ضرب رقما قياسياً في ا لفترة الزمنية التي أمضاها في القضاء، فوصلت إلى نحو ثلاثين سنة، قضاها دون كلل ولاملل. وقد عرف بصراحته وصلابته، لايتراجع عن قراراته واحكامه.

وفي آخر أيامه ،اعتراه مرض اقعده الفراش ومنعه عن الكلام فقام بعزل نفسه قبل وفاته بأيام قليلة من سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٨م بدمشق، ودفن بمقابر الباب الصغير، وكانت جنازته حافلة ،شارك فيها العامة والخاصة(٨) ولاأدل على مكانته المرموقة، من أن غالبية الذين ترجموا له وصفوه بالاستقامة والعدل وانفرد عن كل أفراد هذه الفئة، بأن اقدم على تجديد عمارة مدرستين في مدينة دمشق،هما المدرسة الصمصامية والمدرسة النورية.

وكما ذكرنا في مستهل هذا البحث، أنه بعد استحداث منصب قاضي المالكية بدمشق سنة

٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م، بدأت هذه العادة، تعتمد في المدن الشامية الاخرى . وكانت مدينة حلب هي أول المدن الشاميــة بعد دمشق، التي استحـدث فيها هذا المنصب في سنــة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م ،(٩) فكان أول قــاضٍ مالكـي في مدينة حلـب، من الـذين امتثلوا الاستقـامة والعفـــة، وتحلوا بحسن الاخلاق، ولين العـريكة، ونشدان الحق في جميع احكامـه ،هو أحمد بن عبد الظـاهر بن محمد الـدميري المالكي ،الملقـب بصدر الـدين ،ولي القضـاء بحلب بعـد عزل شهـاب الديـن الرياحي فترة من الزمن، وقبل وصولـه إلى حلب كان يعمل نائباً للقاضي المالكي بمصر، وظل في قضاء المالكية بحلـب سبع سنوات متتاليـة من سنة٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م حتـى نهاية ٧٦٩هـ/ ١٣٦٨م(١٠).

أما النمــوذج الآخر مــن هؤلاء القضـاة، فقـد تمثل بشخـص ابراهيم بـن عبد الله ابـن عمر الصنهاجي المالكي، وهو يختلف عن الذين مر ذكرهم حتى الآن، بأنه من مواليد مدينة دمشق سنة ٧١٧هـــ/ ١٣١٨ أو ٧١٨هـ/ ١٣١٩م، وفيها نشـأ وتلقى علومــه على علماء، معظمهم من الاندلسيين.

وكان من ا لحافظين لموطـأ الامام مالك. ويبدو أنــه كان من الشخصيات المالكيـة المعروفة بدمشق، ودليل ذلك أنه كلف بتوقيـــع رسمي سنة٧٨٣هـ/ ١٣٨٢م لان يتسلم منصب قاضي قضاة دمشق على المذهب المالكي، فلم يقبل. وحدث أن تكرر تكليفه في سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م فامتنع أيضـــاً ؛ وعلى الرغم من حـالة الرفض هذه، فقـد بقي الحكّام يلحون عليـه، حتى وافق بتسلم قاضي قضاة المالكية بدمشق لمدة ثلاث سنـوات ؛توفي بمدينة دمشق على حين غرة سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م ،حيث دفن با لمزة(١١).

ومن هؤلاء القضاة من تنقل في أكثر من مدينـة شامية، كقاضٍ لقضـاة المالكية، وكنائب له. كان منهم القــاضي ابراهيم بن محمد بـن على التادلي، المدعو أبو سـالم، الـذي تنقل بين دمشق وحلب.ويختلف عن القضـاة متقدمي الذكر، أنه تكرر عزله واعادته بشكل لافت للنظر. فقد ولي قضاء حلب أول مرة سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م ،كقاضي قضـــاة، علما بأنه كان ينوب عن القاضي فيها قبـل هذه السنة. وتكـرر عزله واعــادته خـلال الفترة التي تلت هـذا التاريخ. ففــي سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٦م ، استقر في قضاء حلـب عوضاً عن ناصر الدين أبـو عبد الله محمد بن سرى الديـن المعروف بابـن هانىء الاندلسي، (١٢) ثـم انتقل في السنة التــي تلت إلى مدينـــة دمشق وتسلم قضاءهــا عوضاً عن زيـن الدين أبي بكر المازوني، لكنـه لم يستقر سوى فترة قصيرة عزل بعدها عن القضـاء، وحل محله علم الديـن أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين القفصي، الذي بقي حتى سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م ،ثم عزل وأعيد مرات عديدة.

وهكذا، فان الفترة التي أمضاها في القضـاء في كل مــن حلب ودمشق، بلغت بمجموعها نحو ثلاثة عشر عــاما ونصف العام. وكان خلال هــذه الفترة نموذجاً للقضـاة ، الذين تـوفرت فيهم القوة والتصميـم والجد في العمل، اضـــافة إلى الشجاعـة والجرأة في اصدار الاحكـام، وامتثال

العدالــة والمسـاواة بين الناس. ويظهـر هذا بشكل مـؤكد ،من خـلال قصيدة أرسلها إليـه أحد أعيان حلب المعروف بـالبدر أبي محمد بن حبيب، عندما كان يستعـد لمغادرة حلب إلى دمشق. يقول مخاطباً القاضي المذكور:

سر إلى جنة الشام دمشق

حاكماً عادلاً رفيع المقام

رامت القرب منك فادخل إليها

ياأبا سالم بأذكى سلام

توفي بدمشق سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م وهو قاض(١٣).

أيضاً وفي مـدينة دمشــق، يمكن أن نضع قـاضيين اثنين ضمن هـذه الفئة، تبـاينت فترات استلامهما لمنصـب القضاء، هما القاضي يحيــى المعروف بمحي الـدين المغربي، المتـوفي سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٩م (١٤)، والقـاضي يعقوب بـن يوسف المعـروف بالشرف القــرشي المغربي، الـذي عزل وأعيـد إلى القضــاء منذ سنــة ٨٤٢هـــ/ ١٤٣٩ حتى وفـاتـه في سنة ٨٥٧هـــ/ ١٤٥٤م. وقد ذكر السخاوي في كتابه (الضوء اللامــع) أنه كان يعرفه جيداً، واطلع على بعض احكامه في سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٣م(١٥).

وعلى الرغم من أهمية بيت المقدس، فـان منصب قاضي المالكية ظل دون استحداث إلى فترة متــأخـرة إلى حــد مــا. ومــن المحتمـل أنـه استحـدث في السنين الاخيرة مـن القـرن الثـامـن الهجري/الرابع عشر الميــلادي، وذلك بالاعتماد على بعض القضاة، الذيـن شغلوا هذا المنصب فيها في الفترة الأولى.

والذين سنـذكرهم في سياق الحديـث عن الفئة الثانية مـن القضاة. أما الذيـن برهنوا على أهليتهم وصلاحيتهـم للقضاء في بيت المقدس، كانوا قـلائل جداً اذا ماقيسوا بالذيـن لم يرعوا للقضاء حرمة .ففــي سنة ٨٤٧هـــ/ ١٤٤٤م قيض الله لمدينة القدس قاضيــا مالكيا، لم تعرف مثيلاً له، منـذ أن استحدث فيها هذا المنصب، هـو عيسى بن محمد المغـربي الشحمني الملقب بشرف الديــن ابي الروح، الذي بقي على رأس منصبــه بصورة مستمرة حتى سنــة ٨٥٤هـــ/ ١٤٥١م، ومــارس الحكم خـلال هذه الفترة، بكـل اخـلاص وعفة واستقـامة، لايحابي أحــداً، ولايخاف في الله لومة لائم. ويدعمه في ذلك قوة شخصيته وصلابة مواقفه، وعدم التراجع عنها، اضافة إلى علمه ومعرفته بشؤون المذهب المالكي والشريعة الاسلامية.

ومن مواقفه الرائعة ،ماحدث له مع نـائب القدس مبارك شاه، الذي كان قد قرّر قتل أربعة من الفلاحين، وكلّفه بشنقهم بتهمة السرقة واللصوصيــة، فسأله القاضي المذكور عما اذا كانت السرقة قد ثبتت عليهم بطـريقة شرعية؟ فأجابه النائب نحن لانحتاج إلى اثبـات شرعي. فأجابه لايمكن تنفيذ ماأمرت، إلا بعد أت تثبت الادانة، لكن النائب شدّد من تصلبه والح على قتلهم.

فأجابه القاضي بقوله:«والله لوقتلتهم بحضوري، لكنت أقتلك بيدي، وأعلقك إلى جانبهم كما

أنت بخلعة السلطان»فتراجع النائب عن اصراره». (١٦).

ويبدو أن عدد الجالية الاندلسية المغربية تكاثرت في مدن فلسطين الكبرى إلى حد دفع إلى نشوء منصب القضاء فيها، وهكذا ظهر في الرملة أواسط القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وتولاه محمد بن سعيد المغراوي المالكي الملقب بشمس الدين. ولد سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م، وحفظ القرآن الكريم، واستطاع أن يتوصل إلى مرتبة قاضي القضاة في هذه المدينة، وبقي فيها فترة طويلة من الزمن انتقل بعدها إلى مدينة بيت المقدس في سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥١م ،وتسلم قضاءها بعد وفاة قاضيها النـزيه عيسى بن محمد المغربي الشحمني الآنف الذكر. ومنذ ذلك الحين استقر بالقدس الشريف، يتولى قضاءها حينا ويعزل حيناً آخر، حتى وافته المنية سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٩م وهو قاضيها(١٧).

ومن هؤلاء القضاة، من تنقل بين كل من دمشق وبيت المقدس. كسالم بن ابراهيم المغربي الصنهاجي، الملقب بأمين الدين المالكي. ولد بعد سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م ودرس الفقه وعلوم الدين في بلاده، ووصف بأنه من أهل العلم والفضل. وقد أسر سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣١م عندما كان في طريقه إلى الشام، وظل في الأسر مدة طويلة، قصد بعدها مدينة دمشق، ليتحول بعد قليل إلى بيت المقدس، حيث شغل منصب قاضي القضاة سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م. وبعد فترة قصيرة، أعيد إلى دمشق مرة أخرى، وتسلم قضاءها، ولكن المدة التي أمضاها في هذا المنصب غير معروفة على وجه التحديد، وان كان من الثابت، انه لم يغادر دمشق بعد ذلك، وتوفي سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٩م.

وقد برهن خلال ممارسته القضاء، على عفة نفسه واستقامة احكامه ونزاهتها(١٨).

وبعد ظهور هذا المنصب بمدينة الخليل، كان أول من تسلمه فيها القاضي حميد الدين محمد بدر الدين المعروف بابن المغربي، وقد اشتهر بأنه كان من حفظة القرآن الكريم، وعارفاً بالروايات، الأمر الذي ساعده، لان يتولى قضاء عدة مدن شامية اضافة إلى الخليل، الذي تسلمه فيها لاول مرة سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م، نقل خلالها إلى قضاء مدينة بيت المقدس، دون أن يتخلى عن قضاء الخليل، وهو أول قاضٍ من الاندلسيين المغاربة، جمع بين قضاء مدينتين في وقت واحد. لكن مدته لم تدم وقتاً طويلاً في هاتين المدينتين، فقد عزل في أواخر السنة المذكورة عن قضائهما نهائياً، وتوجه إلى القاهرة ، ومنها أرسل إلى طرابلس الشام، حيث ولي قضاءها. وتوفي سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٤م(١٩).

وربما كان آخر القضاة الاندلسيين في مدينة بيت المقدس، العلامة الغرناطي شمس الدين محمد بن على الازرق المغربي المالكي، الذي اختلف عن جميع القضاة الاندلسيين في الشام في ناحية واحدة، تجلت بأنه كان قاضياً للجماعة في كل من مالقة وغرناطة بجنوب الاندلس، قبل أن يأتي إلى الشام. وقد اشتهر عنه التبحر في العلم وحسن المنظر ووقار الهيئة. خرج من غرناطة ، على أثر سقوطها بيد فرناندو وايزابيلا، خرج منها يستنفر حكام المسلمين، فتوجّه

إلى المغرب وطلب من ملوكها نجدة بلاده، ولكـن محاولته هذه باءت بالاخفاق، فتوجّه إلى مصر، حيث التقى بـالسلطان الاشرف قايتباي وكـان منشغلا بمحادثة الاتـراك، فحج و جاور ريثما انتهى، وطلـب منه نصرة المسلمين في غرناطـة، لكن الثابـت أيضاً أن هذا الطلب لم يسفـر عن نتيجة ايجابية كما حصل في المغرب. عند ذلك آثر البقاء في المشرق، وطلب من السلطان المذكور تأمين عمل له، فـولاه قضاء المالكية ببيت المقدس بدلا من القاضي محمـد ما زن الغزي، وباشر عمله في السـادس من شـوال سنة٨٩٦هـ/ ١٤٩١م وظل فيـه حتى السـابع عشر مـن ذي الحجة من السنة نفسهـا. وبذلك تكون ولايته، أقصر ولاية أمضاهـا أندلسي مغربي في منصب القضاء، بحيـث لم يتجاوز واحـدا وستين يومـا، توفي بعدهـا بمرض مفـاجيء ألم بـه، ودفن بماملا ببيت المقدس. وقد كان مثال العفة والنزاهة(٢٠).

ولم يكن كل هؤلاء القضاة بالمستوى نفسه من العلـم والمعرفة في شؤون الدين، وبخاصة على المذهب المالكـي، فقد حدث أن تـوصل بعضهم إلى هـذا المنصب، على الـرغم من قلـة علمه ومعرفته، التي غطـت عليهما سمعته الطيبة وسلوكه القويم. مثال هـؤلاء، مثل القاضي المالكي أحمد بن محمد المريني المغربي، الذي حل بـدمشق في الفترة التي تلت سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٦م واشتغل باديء الامـر في البيمارستان النوري كإداري على أغلـب الظن، فظهرت أمانتـه وشدة تعلقه بالدين، الامـر الذي حدا بالمسؤولين لانتدابه للعمل كنـائب لقاضي قضاة المالكية شهاب الدين التلمساني منذ سنة ٨٧٩هـ/ ١٤٧٥م ، واستمر حتى سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م ثم عزل. وفي سنة ٨٩٠هــ ١٤٨٥/م ، ولي قاضي قضـاة المالكية بدمشـق، وبقي بشكـل مستمر دون عزل حتى وافته المنية سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م ودفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق(٢١).

أما الفريق الثـاني من هؤلاء القضاة، فكان على النقيض تماما من الفـريق الاول. فقد افتقر أفراده في كثير مـن الاحيان إلى الاهليـة الشرعية والسلـوكية الاخـلاقية على حـد سواء. فعمـل بعضهم أوبـالاحرى معظمهـم بتأثير مصالحهـم الشخصية البحتـة. فأسـأؤوا لهذا المنصب الجليل، بالتهافت على الرشـاوي والتلاعب في الاحكام، دون وازع من ضمير ولارادع من شرع أو دين.

والشيء الذي يظهـر بوضـوح ان هذا الفريـق من القضـاة، كان أكثر مـن حيث العـدد من الفريـق الأول. وهذا أمـر طبيعي جدا ، يتجلى أثـره من خلال سيرة القضـاة المذكوريـن آنفاً، حيـث أن الاقطاب منهـم، لم يتسلموا القضـاء الا بالقسر والاجبـار، لانهم يعرفـون أكثر مـن غيرهم حساسية هذا المنصب وخطورته، وهو الـذي يوجب على صاحبه أن يكون من المتحرين للعدالة والانصاف في كل أحكامه وتصرفاته القضائية، وبالتالي يوجب الابتعاد عن كل مايسيء لهذا المنصب، من تقبل الاغـراءات والرشاوى وغير ذلك من أوجه استغـلاله للصالـح الشخصي المحض، الامـر الذي ظهر واضحـاً عند الكثيرين مـن أفراد الفريـق الثاني، الذيـن سآتي على ذكرهم تباعاً. فأول هؤلاء القضاة، كان عمـربن سعيد التلمسـاني، الذي خلف القاضي أحمد بن

ياسين بن محمد الريـاحي بمدينة حلب، والذي بقي فترة أربع سنوات متتـالية ابتداء من سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م وهـو مثال للقـاضي الجاهل في أمور الشريعـة والديـن والقضاء، ممـا أثار تعجب وحيرة أهل حلب، عندما أصبح قاضيا، بعد سعي طويل لدى السلطان في مصر(٢٢).

ومن سجلماسة بـا لمغرب الغربي، وصل إلى حلب عبـد الرحمن بن محمد بـن عبد الرحمن المعروف بابن الحفيد المالكي. ولدسنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م ،قدم من بلاده فأدى فريضة الحج، وتابـع إلى مصر فحل بالقـاهرة مدة، تـابع بعدها إلى بـلاد الشام، فدخـل مدينة حلـب، حيث اشتغل بالتجارة التي أجبرته على التنقل بين بغداد والقـاهرة، ومكث فترة من الزمن، ليعود مرة أخرى إلى حلب، حيث استطاع أن يصل إلى منصب قاضي القضاة المالكية لفترة لابأس بها، كان آخرها سنـة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م حيث عزل وحل محلـه، القاضي جمال الدين النحـريري. وهو نموذج للقاضي الجاهـل، وهذا ماحدا بالبعض لان يقـول عنه:«أن كلامه أكثر مـن علمه» وقد امتزجت قلة العلم عنده وضحالته بما هو أقسـى من حدة الخلق وعدم اللين والروية واحتقاره للناس، حيث كان لايقيم قدراً لاحد(٢٣). بينما وصفه البعـض الآخر، بأنه كان راويا للحديث، وله معـرفة ضليعة بمـذهب مالـك، أصوله وفروعـه، اضافة إلى معـرفة جيدة ببعـض العلوم الاخرى (٢٤). وبعد عزله عن قضاء المالكيـة بحلب سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م، توجه إلى دمشق، ومنها إلى غزة ثم إلى بيت المقدس، حيث توفي سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م (٢٥).

أما القـاضي المالكي محمـد بن يحيى بـن سليمان المغربي، الملقب بجمال الـدين، فـانه لم يعرف الاستقـرار، فقد تنقـل بين كل مـن حماه وطرابلـس ودمشق، وعـرف بتضلعه ببعـض العلوم العقلية، وعـدم معرفته بالعلوم الشرعيـة، وخاصة على المذهب المالكي، وعلى الـرغم من ذلك، فانه استطـاع ان يتسلم منصب قاضي القضاة المالكية في مـدينة حماه لفترة قصيرة عزل بعدهـا، فتوجه إلى دمشـق واتصل بحاكمهـا طالباً منه أن يـوليه قضاءهـا فأجيب طلبـه هذا، وتصدر لقضاء المالكية، لكن طريقته لم تكن مقبولة، حيث تصدى لايذاء الناس واطلاق لسانه في الاكابـر والاعيان. يضـاف إلى ذلك، أنه بـرهن في منـاسبات عديـدة على عدم اتـزانه العقلي، وفجوره وفسقه وقلة دينه، الامـر الذي يتنافى بشدة مع مركز القضاء، فحكـم عليه بالعزل من منصبه كقاض غير صـالح فذهب إلى مصر، وتـوسط لدى السلطان، لكنـه لم ينجح، ونفاه إلى الشام سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م ، فتوفي بالرملة في السنة التالية (٢٦).

وقد تمثلـت صورة الجهل المطبق وعـدم السلوكية الاخلاقيـة في قاض آخر هو محمـد بن محمد الدمشقي المالكـي الملقب بعلم الدين القفصي، وهو يعـد أيضاً من النماذج غير الصالحة لمنصب القضاء.

ويختلف عن رفاقـه السابقين الذين هم من فئته، بـأنه من مواليد مدينـة دمشق، كان جده والد أبيه يسكـن بدمشق منذ سنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م، وخلال فترة وجوده فيها عمـل نائبا في القضاء.

أما والـد قاضينا علـم الدين القفصي، فقـد كان جنـديا في الجيش المملـوكي، وكذلـك الامر بالنسبة له، فانه انخرط في صفوف الجيش لفترة غير قصيرة على مايبدو، انطلاقا من كونه، لم يركز على الدراسة والتحصيل إلا بعد ا ن أصبح في سن متقدمة، بعكس معظم الذن سبقوه من القضاة. وعلى الرغم مما عرف عنه من الجهل وعدم الاتزان العقلي وسوء الاخلاق والسيرة، فقد استطاع أن يتوصل إلى منصب قاضي القضاة في ثـلاث مدن شامية، هي حلب وحماه ودمشق، وأمضى فترة خمس وعشرين سنـة يعمل في القضاء بالمدن المذكورة، بين معـزول عن القضاء وشاغـل له، مثال ذلـك، أنه ولى قضاء دمشـق احدى عشرة مـرة، وكذلك في حماه وحلـب عدة مرات. توفي وهو قاض بدمشق سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م(٢٧).

وفيما يلي نموذج آخر من القضاة المالكية، الذين عـرف عنهم الجهل وعدم الاستقامة، وهو القاضي محمـد بن اسماعيـل بن هـانيء اللخمي الغـرناطـي المالكي، ولـد بمدينـة حماه سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م أو بعدها بقليـل. وقد كان صورة عكسية لوالده، الذي اشتهـر بالاستقامة وعدالة الاحكـام والمعرفة الشرعية الواسعة. اشتغـل نائبا عن والده في قضـاء حماه فترة توليه هذا المنصب(٢٨). فبينما كان والده مثالا للقاضي العـادل العارف الى حد، جعل بعض من كتب عنه، يضعه في مقدمـة القضاة المالكيين الذين عملوا في هذا المجال في مختلـف مدن الشام. كان سيء السيرة غير محمود، ضيق الأفق قليل المعرفة لى درجة أساء لوالده الشيء الكثير. تنقل بين عدة مدن شامية، يعمل قاضيا لقضاء المالكيـة، ففي مدينة حماه أصبح قاضي القضاة على أثر وفاة والده، حتـى كانت سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م حيـث نقل إلى قضاء مدينـة حلب، وحل محل القاضي التادلي، ومنذ ذلك الحين، ظل يتنقل بين كل من حلب وحماه وطرابلس، حتى كانت سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٤م نقل خلالها إلى دمشق وتسلم قضاءهـا، ولسوء سيرته بشكل ظاهر، أقصي عن قضاء المالكيـة بدمشق، وأرسل إلى مدينـة طرابلس في سنة ٨٤٧هــ/ ١٤١٥م، حيث بقي فيها يمارس القضاء عدة سنين، وفيها كانت وفاته سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥ (٢٩).

ولم يكن جميع أفراد هـذه الفئة من القضاة، يفتقرون إلى الأهلية العلميـة والمعرفة بشؤون القضاء، بـل حدث أن وجد بعضهم، لايقلـون من هذه النـاحية عن قضاة الفئـة الأولى، لكنهم خالفـوهم في أنهم لم يسيروا على منهجهـم في تطبيق معرفتهـم على صعيد القضـاء، وكان على رأس هؤلاء القـاضي أحمد بن سليمان بن عمـر بن عبد الـرحمن المعرو ف بـابن عوجـان، فقد تسلم هذا ا لقاضي مهمتـه في بيت المقدس لاول مرة سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٣م ،فكـان ثاني قاضٍ مالكـي فيها(٣٠). وقـد عرف عنه الفضـل والتعمق في العلـوم الشرعية على المذهــب المالكي، واتقانه لصناعة القضــاء على أتم وجه. وهو مثال للقاضي الذي يعرف خطـر مهمته وجسامتها وتأثيرها على النــاس، ولايعمل لتحقيقها وتنفيذها. حيـث افتقر إلى السلوكية الاخـلاقية، التي تعد مـن الشروط الواجـب توفـرها، بمـن يتصدى لهذه المهمـة الصعبة. فقـد عرف عنـه حبه وتهافته على استلام الرشاوى، الامر الذي اضفى على أحكـامه صفة الظلم الباطل، مما أدى إلى

عزله عن القضاء فترةمن الزمن، لايعرف ان كانت طويلة أم قصيرة. لكن الشيء المؤكد، أنه أعيد في سنة٨٣٨هـ/ ١٤٣٥م ليخلفه بعد فترة قصيرة أحد أبنائه، الذي لم يكن بأفضل منه، بل زاد عليه سوءا بأنه كان يعتقد بأن الشمس تستحق أن يعبدها البشر(٣١). وربما استمر في منصبه هذا برغم سوء سيرته حتى سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٤م وقد عرفت مدينة دمشق واحداً من هؤلاء، كان يحل محل القاضي يعقوب بن يوسف المعروف بالشرف القرشي المغربي(٣٢) في أثناء عزله عن منصب القضاء وهو شهاب الدين التلمساني، الذي كان يتولى قضاء دمشق سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م، والذي عزل بالسنة نفسها وعين بدلا عنه القاضي أبو عبد الله البيدمري المغربي العروف بالبريكي(٣٣) واذا كان القضاة المالكيون، الذين عرفتهم الشام خلال فترة هذا البحث، قد ألفوا فريقين متباينين من حيث الاهلية العلمية والثقافية من جهة، والسلوكية الاخلاقية من جهة اخرى ،فانهم التقوا في عدة نواح ادارية محضة لايمكن الخروج عنها، وان كان الامر لايخلو من بعض الحالات ا لشاذة. فبالنسبة لتعيين القضاة، كان يأتي بتوقيع رسمي على مايبدو من السلطان المقيم في مصر، انطلاقاً من أهمية وجلالة هذا المنصب، ولكن تعيين القضاة، لم تكن كلها طبيعية، كثيراً ماشغلت الوساطات والمصالح السياسية، وبذل الرشاوى من قبل القضاة الطامعين في الحكم، شغلت دورا فاعلاً في هذا المجال.

حيث أن الحكام كثيراً ماتأثروا إلى حد كبير بمواقف وآراء المقربين منهم، فكانوا يتوسطون لدى السلطان ويستميلونه بالرشاوى المالية فيصدر أمرا بتعيين قاض عوضا عن قاض آ خر، وذلك دون النظر إلى أ خلاقه وعلمه، أو صلاحيته للقضاء كما أنه لم ينظر أو بالاحرى لم يحسب حسابا للنتائج التي ستتمخض عن مثل هذا التعيين. والامثلة كثيرة في هذا المضمار، منها ماأشار إليه صاحب كتاب(النجوم الزاهرة) عندما كان في صدد الحديث عن القاضي جمال الدين يوسف بن موسى بن محمد الملطي، الذي خلف القاضي الحنفي شمس الدين أبا عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الطرابلسي المتوفى سنة٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م فقد ذكر أن السلطان هو الذي طلب القاضي الملطي ببريد رسمي، وعلق على ذلك بالقول:«هكذا تكون ولاية قضاة الشرع الشريف بعزة وطلب واحترام، لا كمن يسعى فيها من بيت المال، والامير الكبير إلى والي القاهرة، حتى تلبى با لمال والبذل من غير تستر في ذلك، حتى انه يعرف ولايته بالبرطيل كل أحد من المسلمين حتى النصارى واليهود فلاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم) (٣٤) ويؤكد على ذلك صاحب كتاب(الدارس في تاريخ المدارس) بصورة أوضح ، إلى درجة أنه يذكر ،مقدار المبلغ الذ ي دفعه أحد القضاة ،وهو شهاب الدين التلمساني من أجل أن يعود إلى منصب القضاء في مدينة دمشق سنة٨٥٩هـ/ ١٤٥٥م ،بدلا من القاضي زين الدين عبد الرحمن ابن محمد السعيدي المغربي المالكي. وقد وصل مقدار المبلغ الذي دفعه إلى خمسمئة دينار(٣٥).

أما بخصوص الراتب الذي كان يتقاضاه صاحب المنصب ونوابه، فلايعرف عنه شيئاً.

ولم اتمكن من العثور على اشارة، تتعلق بهذا الشأن في جميع المصادر والمراجع التي اعتمدتها في هذا البحث.

وكل مايمكن قوله في هذا الصدد، أن الراتب كان متساويا لجميع القضاة دون تميز بين قاضي مدينة أو أخرى، يضاف إلى ذلك أن هذا الراتب كان مغريا إلى حد كبير، ودليل ذلك، أن كثيراً ممن توصل إلى تسلّم هذا المنصب في بلاد الشام خلال فترة هذا البحث، عرفوا بسعيهم الحثيث والمتلاحق من أ جل الوصول إليه والاستئثار به، فكان من هؤلاء من عمل بالتجارة، فتركها وعمل في مجال القضاء.

أما من ناحية تسمية كبير القضاة، فإن الامر اختلف في بلاد الشام عماكان عليه بالاندلس، وان كان المضمون واحدا. ففي الوقت الذي اطلق على كبير القضاة بالاندلس تسمية(قاضي الجماعة) ،فقد اطلق عليه في الشام تسمية(قاضي القضاة). وكان يساعده عدد من الاشخاص على المذهب المالكي، لم يكن عددهم محددا في أغلب الاحيان، اطلق على كل واحد منهم تسمية(نائب القاضي المالكي). والجدير بالذكر، أن الذين تسلموا منصب قاضي قضاة المالكيه في بلاد الشام في فترة الحكم المملوكي، لم يكونوا جميعًاً من أصل أندلسي مغربي، ان ماحدث في كثير من الاحيان، أن عين لهذا المنصب، قضاة مالكيون من أصل شامي أو مصري أو غير ذلك. فعلى سبيل المثال لاالحصر، يمكن أن اذكر واحداً من هؤلاء، هو القاضي المالكي بدمشق محمد بن أبي بكر الهمداني، الملقب بشرف الدين المتوفى سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٧م، لكن هذا الأمر لم يكن مقبولا أو مرغوبا به على مايبدو من قبل الاندلسيين المغاربة نزلاء بلاد الشام، فكثيراً ماوقفوا موقف المعارض لهذه التصرفات، مثال ذلك ماحدث سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م بمدينة بيت المقدس، عندما عين محمد بن احمد بن شداد المعروف بشمس الدين لقضاء المالكية فيها. حيث لم يبق سوى فترة قصيرة جدا، عزل بتأثير تعصب ومعارضة الجالية الاندلسية المغربية له(٣٧).

وقد انفرد القضاة المالكيون بكل فئاتهم عن قضاة المذاهب الاخرى، بأنهم أعطوا الحق والصلاحية التامة للمساعدة والاحسان إلى كل مالديهم من غرباء أهل مذهبهم، وبصورة خاصة أولئك الدين جاؤا من الاندلس والمغرب لكنهم غابوا من جهة أخرى عن قضاء العسكر، الذي اقتصر على قاضيين واحد من الشافعية وآخر من الحنفية(٣٩).

واذا كان هؤلاء القضاة قد تساووا على صعيد الصلاحية في اصدار الاحكام، وعلى صعيد الراتب وغير ذلك من الامور المهمة الاخرى، فإنهم اختلفوا بعض الشيء من الناحية المعنوية، بحيث كان ارفعهم مكانة في نظر الحكام والشعب، قضاة مدينة دمشق، الذين عدوا بالمرتبة الاولى، من حيث دلالة الالفاظ التي يخاطبون بها عندما توجه إليهم المكاتبات، مثال ذلك، كان يكتب:«المقر الشريف العالي المولوي القضائي الكبيري الامامي العالمي الصلاحي...»بينما كان يكتب لقاضي حلب وغيرها من المدن الشامية الاخرى:«المقر الكريم العالي المولوي القاضوي

الكبير العالمي القدوي المفيدين...»(٤٠).

ومن ناحية أخرى، فقد التقى القضاة الاندلسيـون المغاربة جميعا على صعيد قضية هامة جدا تجلت بأنهم كانـوا مصدر كل حكم تقريبا على الذين كانوا يتركـون دينهم ويتحولون من دين إلى آخر، أو أولئـك الذين كانـوا يتعرضون للرسـول (ص) والانبياء والصحابة بـالشتم والسب وغير ذلـك. فقد حدث في كثير مـن الاحيان، ومنـذ أن اعتمد منصب قضـاء المالكية في بلاد الشام، ان القضاة على المذاهب الاخرى، كانـوا لايبتون في قضايا الخروج على الدين، انما كـانوا يحولـون المارقين إلى القاضي المالكـي، لينظر في قضـايـاهم ويصـدر بحقهم الاحكـام المناسبة، انطلاقا من أن المذهب المالكي يعد مـن المذاهب الوحيدة تقريبا، التي لاترى غير حكم القتل والموت لكل مـن يخرج عن الدين الاسلامي، والـذي يسمى في هذا المذهب (بالـزنديق). ومثل هذا الامر الهام لابد من دراسته بشكل مستفيض في بحث مستقل.

القضاة على المذهب الشافعي:

لم يعمل الاندلسيـون والمغاربة في القضاء على المذهب المالكي فحسـب، انما حول بعضـهم من مذهب المالكيـة إلى مذهب الشافعية، وعملوا قضاة على هذا المذهـب، كما كان حال الكثيرين من الاندلسيين، الـذين عملوا في مجالات متعددة في الشام. لكن الشيءالملفـت للنظر، أن القضـاة الشافعيـة من الاندلسيين المغـاربة، كانـوا قليلي العدد إذا ماقـورنوا بالقضـاة المالكية وربما يعودسبب ذلك بكـل بساطة، إلى ان العلماء الشافعية، أو بالاحرى أصحـاب المذهب الشافعي، شكلوا الاكثـرية الساحقـة لسكان بلاد الشـام، الامر الـذي جعل فرصـة الوصول بـالنسبة للاندلسيين المغـاربة إلى منصب القضاء مـن الفرص الصعبة المنال في كثير مـن الاحيان: وان كان قد وصـل بعضـهم إلى تسلم هذا المنصب الهام، فإن ذلـك لم يحدث الا في مدن صـغيرة مع بعض استثناءات لاقيمة لها.

والذين اشتـهروا بالقضـاء على المذهب، كانوا من الذين ولدوا بـالشـام ونشـأؤا فيها، بحيث تتلمذوا ودرسوا الفقه الشـافعي منذ سن مبكرة. مثل ذلك، مثل القـاضي الشافعي سليمان بن عمر بن سـالم، الذي ولد بأزرع من أعمال مدينة درعا سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٨م، وقدم إلى مدينة دمشق في سن الشباب، وفيها انكبّ على الدراسة والتحصيل. فكان أهم العلوم التي ركز عليها بشكل خـاص، علم الحديـث، الذي سمعه عـن جلة من علماء دمشـق، أمثال أحمد ابـن عبد الدائم، والكمال أحمد بن نعمة، ويحيى بـن الصيرفي، والبرازلي وغيرهم. ويظهر أن هذا القاضي، حاز على ثقافة عالية المستوى، الامر الذي ســاعده لان يتوصل إلى منصب القضاء في عدة مدن شاميـة، كأزرع وشيـزر ودمشق، فكان أول تعيين لـه في هذا المنصب بمـدينة دمشـق سنة ٧١٠هـ/ ١٣١١م وهو في سن متقدمة سبيا، وذلك على أثر عزل القاضي الشافعي ابن جماعة. وتنقل بعد ذلك إلى تسلم قضاء شيزر وأزرع، وأمضـى في كل مدينة فترة تختلف عن الاخرى، فالشيء الثابـت عنه، أنه أمضى فترة طويلـة في القضـاء، فقد بلغ عدد سنـي هذه الفترة عشرين

سنة، سبع سنوات منها في دمشق، وثلاث عشرة سنة في أزرع، والباقي وهي فترة وجيزة في شيزر.

وكانت هذه السنون الطويلة كافية لتقويمه من الناحية السلوكية، التي اتبعها خلال ممارسة عمله كقاضي قضاة الشافعية. فقد وصف بالعفة والترفع عن قبول الرشاوى، وبالحزم والصرامة في تطبيق الاحكام بحسب تعاليم مذهبة التي كان يعرفها جيدا. توفي سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م، بعد عمر دام أكثر من قرن من الزمان(٤١).

أما النموذج الآخر، الذي احتوته كتب التراجم، فلم يكن في مستواه الثقافي على المذهب الشافعي، الذي تفقه عليه بعد وصوله إلى الشام، كما أنه لم يتوصل إلى قضاء عدة مدن كسابقه.

هذا القاضي هو محمد بن أحمد القرياني نسبه إلى قريانة، التي تقع بين قفصة ويبشة بتونس. عرف في بلاد الشام(بالمغربي) وصل الشام وهو على المذهب المالكي، الذي تحول عنه الى المذهب الشافعي، املا في الوصول إلى مرتبة مناسبة تكون مصدر رزقه وعيشه على مايبدو.

فكان له ذلك، بأن توصل إلى قضاء نابلس لفترة من الزمن، لاتعرف على وجه التحديد. والنقطة التي التقى بها مع القاضي المذكور، تمثلت بمسلكه الشخصي على صعيد القضاء، فكان عفيفا، توخى في احكامه العدل والمساواة حسب مايقتضيه الشرع. ولد سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م، اما وفاته فمختلف فيها، بعضهم يجعلها سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٥م. بعضهم يجعلها في سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م، وآخرون في سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م وغيرهم في سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥١م (٤٢).

وفيما عدا هذين القاضيين، لم نعثر على ترجمة لاندلسي مغربي، عمل في هذا المجال. وبهذا لايمكن الاعتماد عليها، من أجل المقارنة بين قضاة المالكية،وقضاة الشافعية من الاندلسيين والمغاربة في بلاد الشام، سواء أكان ذلك من حيث السلوكية العامة، أو من حيث الصلاحيات الاخرى. وبالجملة فان المغاربة والاندلسيين الذي عملوا في مجال القضاء، لم يتميزوا عن غيرهم من القضاة على المذاهب الاخرى، الا في مسألة تصديهم للحكم على القضايا، التي كانت تمس بعض مسائل العقيدة الاسلامية، كالاقدام على شتم الرسول(ص) أو الصحابة، أو التعرض للقرآن الكريم أو الاستهزاء بالاسلام أو الارتداد عنه إلى غير ذلك من هذه المسائل.

ولم يكن هؤلاء القضاة، هم الذين يطالبون بالحكم على مثل هذه القضايا كما يخيل للوهلة الاولى، انما الذي كان يحدث هو أن القضاة على المذاهب الاخرى، كانوا يحولون جميع مرتكبي هذه الجرائم الى قضاة المالكية، الذين اعتادوا عدم التساهل فيها، وذلك بالاعتماد على تعاليم

المذهب المالكي نفسه، هـذه التعاليم التي يبدو على انها متشددة اذا ماقورنـت بتعاليم المذاهب الاخرى، التي كانت تقبل التوبة من صاحب الجريمة اذا أراد ذلك.

بينما قضاة المالكية لايبرئون المتهمين حتى ولو أعلنوا توبتهم وعودتهم عن جرائمهم التي اقترفوها عن قصد أو غير قصد.

حتى أن القاضي المالكـي، اذا حضر مجلسا قضائيا مشتركا بين المذاهـب على سبيل المثال، فانه كان يظهر عن غيره بتشدده في أحكامه ، دون النظر إلى أي اعتبار آخر وكثيرا ماكان رأيه هو الذي يفوز ويؤخذ به، لكن ذلك لم يكن سنة أوقاعدة يجب أن تطبق على الدوام.

يتضح لنـا من خلال هذا العـرض عمق العلاقات بين مشرق الـوطن ومغربه حيـث سادت روح التعاون والتعاضد وانتقال الخبرات والتجارب والمعارف والعلوم عبر انتقال اصحابها... ومن المقرر أنهم والحالـة هذه ينتقلون في إطار الوطن الـواحد دون حاجة للوقـوف والتوقف للتدقيـق والتفتيش عـن هوياتهم وشخصيـاتهم والأمثلة بهذا المجـال كثيرة جداً جـداً... فهل يتطلع العـرب في الوطن العـربي الواحد مـن مشرق الوطـن إلى مغربه إلى تعـزيز رسالـة الامة واسهاماتها السامية في رسالة الانسانية والبشرية جمعاء.

مصادر البحث

١ـ ابن كثير«أبو الفداء الدمشقي»، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف، بيروت بدون تاريخ.

٢ـ الصقاعي، «فضل الله»، تالي كتاب وفيات الاعيان ، تحقيق جاكلين سوبله، طبعة دمشق ١٩٧٤ .

٣ـ أبو الفداء، «اسماعيل الملك المؤيد»، المختصر في أخبار البشر.

٤ـاليونيني،«،موسى بن محمد»، ذيل مرآة الزمان ،طبعة أولى ،حيدر آباد الدكن ١٩٦١ .

٥ـ ابن الجزري«محمد بن محمد،»، غاية النهاية في طبقات القراء»، عني بنشره ج ـ برجستراير»، طبعة اولى القاهرة ١٩٣٢ .

٦ـ النعيمي ا لدمشقي«عبد القادر»، الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسيني، طبعة دمشق ١٩٤٨ .

٧ـ ابن تغري بردي، «يوسف الاتابكي»،«النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة»، مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر، بدون تاريخ.

٨ـ ابن حجر العسقلاني«، أحمد بن علي،»الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ طبعة أولى ـ حيد آباد الكل ١٣٤٨هـ .

٩ـ ابن العماد الجنلي الحنبلي«عبد الحي»شذرات الذهب في أخبار من ذهب طبعة بيروت بدون تاريخ.

١٠ـ ابن قاضي شهبة،«تقي الدين أحمد»، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧م .

١١ـ المقريزي«أحمد بن علي» السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور طبعة القاهرة ١٩٧٠م

١٢ـ السخاوي«محمد بن عبد الرحمن»، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، طبعة بيروت بدون تاريخ.

١٣ـ الجنلي«محيي الدين»، الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل، بدون ذكر اسم الطبعة وتاريخها .

١٤ـ ابن حجر أنباء الغمر.

١٥ـ القلقشندي«أحمد بن علي»صبحي الاعشى في صناعة الانشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية، وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٣م

الحواشي:

١ـ تمت عملية فتـح المغرب خلال الفترة من ٢١ــ ٩٠هـ وتمت عملية فتح الانـدلس خلال الفترة من ٩٠ـ ٩٢هـ.

٢ـ ابن كثير(ابو الفداء الدمشقى) ، البـداية والنهاية ،ج /١٣/ ،طبعةمكتبة المعارف بيروت بدون تا ،ص ٢٤٦ . الصقاعي، (فضل الله)، تالي كتاب وفيات الاعيان، تحقيق جاكلين سوبلة، طبعة دمشق ١٩٧٦٣ص ١٠٦ .

٣ــ أبــو الفـداء(اسماعيــل الملـك المؤيــد)، المختصر في أخبـار البشر، ج/٤/، دون ت ص/١٤٧/.

٤ـ الصقاعي، المصدر السابق ص ١٠٥ـ١٠٦.

ـ المصدر السابق ص ٢٣٥ـ١٣٦

ـ اليونينــي(موسى بن محمد) ، ذيل مـرآة الزمان ،ج/٤/طبعة أولى ، حيدر آبــا د الدكن ١٩٦١ ،ص١٧٣ـ ١٧٤.

٥ــ ابن الجزري(محمــد بن محمــد) ،غايــة النهـاية في طبقـات القراء، ج١ عنــي بنشره ج برجستراير ـ طبعة أولى القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٣٨٧.

٦ـ الصقاعي ـ المصدر السابق، ص ١٠٦.

٧ـ اليونيني، المصدر السابق، ج٤ ص ٢٣٩.

٨ـ ابـن كثير ، المصدر الســابق ، ج ١٤ص ٨٤ ـ٨٥ . النعيمــي الدمشقــي(عبد القــادر)، الدارس في تاريخ المدارس ،ج٣ ، تحقيق جعفر الحسيني، طبعة دمشق ١٩٤٨ ص ١٢ـ١٣.

٩ـ ابن تغـري بردى(يوسف الاتابكـي) ، النجوم الزاهرة في أخبــار مصر والقاهرة، ج١٠، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ،وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر بدون تا ،ص ١٩٠.

١٠ـ ابـن حجر العسقلاني(احمد بـن علي)، الدرر الكـامنة في أعيان المائة ا لثــامنة، ج١ ، طبعة أولى ، حيدر اباد الدكن ١٣٤٩هـ ، ص ١٧٢ـ١٧٣

١١ـ ابن العماد الحنبلي(عبد الحي)، شذرات الذهــب في أخبار من ذهب، ج٦ ، طبعة بيروت بدوت تــا ،ص ٣٤٥؛ ابن حجـر، الدرر الكـامنة ، ج١١ص ٣؛ ابـن قاضي شهبـه (تقي الـدين أحمد)، تاريخ ابــن قاضي شهبة، مجلد ١ ج٣، تحقيـق عدنان درويش، طبعـة دمشق ١٩٧٧، ص٥٢٤ ـ ٥٢٥.

١٢ـ المقريزي(أحمد بن علي)، السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج٣ق١ تحقيق سعيد عبد ا لفتاح عاشور، طبعة القاهرة ١٩٧٠ص ٢٥٧.

١٣ـ السخاوي(محمــد بن عبد الرحمن)، الضوء الـلامع لاهل القرن التــاسع، ج١، طبعة

بيروت بدون تا ، ص ١٥٥ـ١٥٦المقريزي المصدر السابق، ج٣ .ق ١، ص ٢٩٤ .
١٤ـ السخاوي ،المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٧ .
١٥ـ السخاوي ، المصدر السابق، ج ١٠ ،ص ٢٨٧ .
١٦ـ الحنبلي(محيي الدين)،الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج٢، بدون ذكر اسم الطبعة ولاتاريخها ص ٥٨٥ .
١٧ـ الحنبلي ،المصدر السابق، ج٢ ،ص ٥٨٦ .
١٨ـ الحنبلي ، الانس الجليل ،ج٢ ،ص ٥٨٤ .
١٩ـ الحنبلي ،الانس الجليل ،ج٢ ،ص ٥٨٨ .
٢٠ـ الحنبلي ، المصدر السابق ،ج٢، ص ٥٩٢ .
٢١ـ النعيمي الدمشقي ،المصدر السابق، ج٢ ص ٢٣ السخاوي المصدر السابق. ج٢ص ٢١٨ـ ابن طولون(محمد) ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ،القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى ، طبعة مصر ١٩٦٢ ، ص ٩٥ .
٢٢ـ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣،ص ١٦٧ .
٢٣ـ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ،ص ٣٤٣ .
٢٤ـ تاريخ ابن قاضي شهبة، مجلد١، ص ٢٣٠ .
٢٥ـ ابن حجر،الدرر الكامنة ،ج٢ ،ص ٣٤٣، تاريخ ابن قاضي شهبة، مجلد ١ ،ص ٣٠ .
٢٦ـ ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء الغمر ،ج١ ،طبعة أولى، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٨هـ . ص ٢٦٤ـ٤٩٦ .
٢٧ـ ابن العماد، شذرات الذهب ،ج٧ ،ص ٥٣؛ ابن حجر، انباء الغمر ،ج٢،ص ٢٥٢تاريخ ابن قاضي شهبة ،مجلد ١ ،ص ٥٩،السخاوي ،الضوء اللامع، ج١٠،ص ١٣ .
٢٨ـ المقريزي ،السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ ق١، ص ٢٥٧ .
٢٩ـ السخاوي ،الضوء اللامع، ج٧،ص ١٤٢ .
٣٠ـ لقد أمضيت وقتا طويلا في البحث عن أول قاض مالكي لبيت المقدس فلم أوفق في الحصول عليه حتى في الصق المصادر التي تؤرخ لمدينة المقدس وهو (الانس الجليل لابن الحنبلي).
٣١ـ السخاوي ،الضوء اللامع ج١ص ٣٠٧ .
٣٢ـ السخاوي ،الضوء اللامع، ج١٠،ص ٣٨٧ .
٣٣ـ السخاوي ،التبر المسبوك في ذيل الملوك ،طبعة بولاق، مصر ،١٨٩٦،ص ٢١٠ .
٣٤ـ اين تغري بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٢ ،ص ١٥٧ـ١٥٨ .
٣٥ـ النعيمي الدمشقي ،الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ٢١ـ٢٢ .
٣٦ـ تاريخ أبي الفداء،ج٤ ،ص ١٤٧ .

....

٣٧ـ الحنبلي ،الانس الجليل ،ج٢، ص ٩٥ .
٣٨ـ القلقشندي(أحمد بن علي) ،صبحي الاعشى في صناعة الانشاء، ج١١، النسخة المصورة عن الطبعة الاميرية ،وزارة الثقافة بمصر ١٩٣ ص ٩٥ .
٣٩ـ القلقشندي ، صبح الاعشى، ج٤ ،ص ١٩٢ .
٤٠ـ القلقشندي ، صبح الاعشى ،ج١٢ ،ص ٢٩٠ـ٢٩١ .
٤١ـ ابن حجر،الدر ر الكامنة ، ج٢ ،ص ١٥٩، ومابعدها .
٤٢ـ ابن حجر ،انباء ا ل غمر، ج٣ ص ٥١٧ .

* * *

انتقال العلوم العربية
من الشرق الى الغرب
وتـــأثيرها في أوربـــا

انتقال العلوم العربية من الشرق الى الغرب وتأثيرها في أوربا

الدكتور علي دياب
كلية الآداب ـ جامعة دمشق

قبل الشروع في الحديث عن انتقال العلوم العربية من الشرق إلى الغرب وتأثيرها في أوربا تجدر الاشارة الى تلك العلاقة بين الشرق والغرب أو بالأحرى إلى فهمنا لهذه العلاقة عند الحديث عن الاندلس؟ وبالتالي بيان ما كان لها من فضل في تطور العلوم وتقدمها.

إن من أبرز مايستوقف أي مطّلع على الثقافة العربية الأندلسية، ولاسيما في بداياتها الأولى، تأثر هذه الثقافة بنظيرتها الثقافة العربية المشرقية بشكل ملفت للنظر وفي مختلف مجالات الحياة، سواء السياسية أم الاجتماعية أم الفكرية بشتى فروعها العلمية والفنية، وربما كان قول ابن بسام في هذا الصدد خير شاهد على ذلك: «الا أن أهل هذا الافق، ابوا إلاَّ متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوطنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب، بحثوا على هذا صنما، وتَلَوْا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصيَّة، ومناخ الرذية، لايعمر بها جنانٌ ولاخلد، ولايُصرَّفُ فيها لسان ولايد. فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ماوجدت من حسنات دهري، ويتتَّبع محاسن أهل بلدي وعصري، غَيْرةً لهذا الافق الغريب أن تعود بدوره أهلة، وتصبح بحارة ثمادا مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديما ضيَّعوا العلم وأهله، ويارُبَّ محسن مات احسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وَخَصَّ أهل المشرق بالاحسان؟»(١)

والتأمل في قول ابن بسام، يؤكد ماقلناه عن تلك العلاقة ولاسيما اذا اخذنا بعين الاعتبار، الفترة الزمنية التي جاء فيها قوله، حيث عاصر فترة اواخر القرن الخامس الهجري، وفترة لابأس بها من القرن السادس الهجري، إذ كانت وفاته عام ٥٤٢هـ(٢)

لقد كان هذا موقف ابن بسام الذي كاد كتابه الذخيرة وبعد مرور قرابة خمسة قرون على

تلك العلاقة بين المشرق والمغرب أن يكون بمثابة رد على هذه النقطة، الا وهي تأثر المغرب بالمشرق، ساعيا إلى تنبيه أهل بلاده على أن عندهم مايعتزون به، ويفاخرون غيرهم. وربما يوافق المرء ابن بسام الى حد ما، على ماذهب اليه، وخاصة عندما يكون الحديث متصلا بالفترة المتأخرة من عمر الثقافة العربية في الاندلس التي نضجت وتكاملت، وأضحت ذات سمات أندلسية خالصة. وهذا مايدفعنا الى القول: ان ابن بسام ربما كان متعصبا لمغربيته التي دفعته إلى تناسي الحقائق التاريخية. ومن الطبيعي أن يكون هناك تأثر وتأثير فتلك الديار قد وطئت باديء ذي بدء من قبل القادمين من المشرق الذين قاموا بدورهم بنشر لغتهم ودينهم وثقافتهم العربية الاسلامية، لقد كانوا الاداة المنفذة لعملية النشر هذه، ولذا فمن الطبيعي أن يكون هذا النشر مطبوعا بالطابع المشرقي، الذي تضاءل تدريجيا فيما بعد. وهاهو الاديب الفرنسي المشهور هنري بيريز يقول وفي السياق اياه:

«يتطلع الأُمَوِيُّونَ في اسبانيا دائما نحو العباسيين في بغداد. والادب الذي تَكَوَّن في قرطبة وفي تلك القصور الصغيرة حول الحكام في المحافظات ماهو الا محاكاة».

وتقليدا لما حدث في العراق كان خلفاء قرطبة يستميلون أدباء بغداد امثال: أبي علي القالي وهو عالم لغوي أكثر من أنه شاعر، وصاعد اللغوي الشاعر الحاذق واللغوي الشجاع الذي وصلتنا اخباره حديثا. لقد قام أمير اشبيلية ابراهيم بن الحجاج بتقريب اللغوي أبو محمد العذري وإبقائه إلى جانبه وهو من الحجاز، ولكن تأثيره لم يكن أقل قوة من الذي مورس من قبل الجواري المغنيات المتدربات في الشرق، في المدينة كما في بغداد، حيث تم شراؤهن من قبل الامراء والحكام في إسبانيا، الذين كانوا يدفعون في بعض الاحيان اثمانا باهظة لانتزاعهن من بلاط بغداد»(٣)

وهنا نود الاشارة الى ماذكره المقري في نفح الطيب وهو بصدد الحديث عمن رحل من المشرق الى بلاد الاندلس.

«اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق قوم كثيرون لاتحصر الأعيان منهم فضلا عن غيرهم، ومنهم من اتخذها وطنا، وصيرها مسكنا، إلى ان وافته منيته، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد ان قضيت بالأندلس منيته»(٤).

هكذا يقوم المقري باحصاء المعروف منهم إذ بلغ عددهم قرابة /٨٦/ ستة وثمانين شخصا، ومنهم عدد من النساء المشهورات.

ومما يجدر ذكره ان معظم الذين دخلوا بلاد الاندلس من المشرق لم يدخلوها للغرض نفسه الذي ذهب من أجله الاندلسيون إلى بلاد المشرق، وانما جاؤوا الاندلس كفاتحين ومبشرين، سواء منهم المقاتلون والقادة العسكريون، أم المثقفون الذين سيسند إليهم التوجيه والإرشاد، فضلا عن تعليم اللغة العربية، ونشر الدين الاسلامي في تلك الأصقاع.

وإذا مارغب المرء في عرض بعض الاسماء اللامعة على سبيل المثال لا الحصر، وذكر من

قدم من المغـرب إلى المشرق، وما كان له من تـأثير بشكل عام في الغرب فـإنه يمكن أن يشير في مقدمـة هؤلاء إلى زرياب(٥). لقـد كان زرياب مولى أمير المؤمنين المهـدي العباسي وكان كـذلك تلميذا لاسحـق الموصلي في بغداد فتلقف مـن أغاني استاذه وهـدي إلى فهم الصناعـة، وصدق العقل مـع طيب الصـورة، وصورة الطبـع الى ماكـان به اسحـق نفسه، وقـد غنى مـرة لامير المؤمنين الرشيد:

يـا أيـهـا الملك الميـمون طائـره

هارون راح اليـك النـاس وابتـكـروا(٦)

وطرب له، وأعرب الرشيد لاستاذه اسحق عن رضاه واعجابه بهذا المغني الشاب وعن لومه له لعـدم إعلامه بشـأن هذا المغنـي وطلب منه رعـايته والاهتمام به، ونتيجـة ذلك خـاف منه استاذه ودب الحسد فيه، فجاءه وصارحه تاركا له ان يختار بين أمرين اثنين:

إما أن يهجـر تلك البلاد، وإما ان يمـوت اغتيالا وكان زريـاب عارفا بقدرة استـاذه فتركه وقصد بلاد الاندلس مع عائلته، لقد استقبـل زرياب في قرطبة استقبالا مرضيا، وأمر له الأمير عبد الرحمن بـن الحكم براتب جيد، وانزلـه مسكنا لابأس به وطلب إلى عمالـه ان يحسنوا اليه وكان ذلك سنة ست ومائتين للهجرة(٧).

بعد ان استقر المقام بزرياب في مكان إقامته الجديـد، قام بزيادة اوتار عوده وترا خامسا، أحمر متوسطا فـاكتسب به عوده الطـف معنى واكمل فائدة، وقـد اخترع ايضا مضراب العود من قـوادم النسر معتاضا بـه عن مرهف الخشـب، فَأَبْدَعَ في ذلـك للطف قشر الريشـة ونقائه وخفته على الاصابع، وكان زرياب ايضا عالما بالنجوم، وقد جمع الى خصاله كفنان وموسيقي كثيرا مـن ضروب الظرف وفنـون الأدب ولطـف المعاشرة، حتـى اتخذه ملـوك أهـل الاندلـس وخواصهم قدوة لهم فيما سنه من آداب، ومما أخذ عنـه الأندلسيون تعليمه لهم كيف يفرقون شعرهم وسـط الرأس، ويعقصونها من الخلـف حتى يظهر العنق ويبـدو الجبين، في حال أنهم كانـوا يتركونها تُغَطِّي كل هـذه الاماكن الجميلة مـن الانسان، وهناك الكثير من العـادات التي اخذها عنه الاندلسيون ولامجال لحصرها في مثل هذه الدراسة(٨).

وخلاصة القول: إن زريـاب أنشـأ أول مدرسة في الأندلس لتعليـم الموسيقى والغناء، وكان عماد هذه المدرسـة أبناؤه وبناته وجـواريه، وماتبعهـا من مدارس أخرى في إشبيليـة وطليطلة وبلنسية وغـرناطـة كان استمـرارا لمدرسته، ويعتبر واضـع حجر الاسـاس في فن الموسيقـى الاسباني. كما كـان من نتائج مجيئه لـلأندلس وانتشـار مستحدثاته الاجتماعيـة والفنية، ان شاع في المجتمـع الأندلسي حب الترف والتأنـق والأخذ بمتع الحيـاة، وقد وضـع زرياب نظـاما للزي يقضي بأن يلبـس الابيض منذ مطلع حزيـران حتى نهاية تشرين وان الربيـع هو الفصل الذي تلبس فيـه الناس الحرير والألبسـة الخفيفـة وذات الألوان المتعددة، أما في فصـل الشتاء فتلبس الفراء والمعاطف المبطنة.

«وكـان النـاس يلتمسـون آراءه فيطبقـونها نصا وروحـا»(٩) كما شـاع ايضـا الشغـف بالموسيقى والتعلق بالغناء، مما ادى إلى التورط احيانـا باللهو والمجون، والذي ساعد على ذلك تحرر بعض الامراء الذيـن حكموا في تلك الفترة مثل عبد الرحمن الاوسـط، ومع نهاية فترة عبد الرحمن هذا ينتهي زرياب بانتقاله إلى العالم الآخر وذلك عام /٢٣٨/هـ(١٠).

وكان لزرياب أثـر بالغ في بعث النهضة الفنية في أوروبـا، وهناك شبه أجماع بين المؤرخين والباحثين يشير إلى ان فـن التروبا دور قـد نبع مـن أصول عـربية وأنـدلسية. ومـن الأعلام المشهورين أيضـا الذين قدمـوا الأندلس من المشرق أبـو علي القالي صاحب الأمـالي والنوادر، وكان أحفظ أهـل زمانه باللغة والشعر ونحـو البصريين، وكان يسمى بالبغدادي لـوصوله إلى الأندلس من بغداد، ويقال:

إن الناصر هو الذي استـدعاه من بغداد لولائه لهم(١١).ونذكر أيضـا من هؤلاء العلماء ابا العلاء صاعـد البغدادي(١٢) اللغوي وأصله من الموصـل، دخل قرطبة ايـام المنصور بن أبي عامر، وظـن المنصور انه سيناهض به ابـا علي القالي الوافد على بني أميـة، ولكنه لم يجد عنده مايرتضيه، وأعرض عنه أهل العلم، وكان له نوادر عديدة مع المنصور، وقد أعجب مرة بما بدر منه، واراه كتاب النـوادر لابي علي القالي، وطلب صاعـد من المنصور انه إذا أراد فبـإمكانه ان يعد كتابـا ارفع من النوادر وأجـل منه، وانه لايورد خبراً ممـا يورده أبو علي، ثم ذهـب وجلس بجامـع مدينة الـزهراء وانجز كتـابه «الفصوص» وبعـد أن اطلع عليه أدبـاء ذلك الوقـت امر المنصور بقذفه في النهر، حيث قال فيه بعض الشعراء:

قد غـاص في النـهـر كـتاب الفـصـوص
وهكـذا كـل ثـقـيل يـغـوص

فأجابه صاعد:

عـاد إلـى معدنـه، انمـا
توجـد في قعـر البحـار الفصوص(١٣)

ومن الذين دخلوا الانـدلس أيضا أبو الحسن الأنطاكي وفيه يقول أبـو الوليد ابن الفرضي: «أَدْخَلَ الانطاكي الأنـدلس علما جما، وكان بصيرا بالعربية والحساب وله حـظ من الفقه، قرأ الناس عليه، وسمعت انـا منه، وكان رأسا في القراءات لايتقدمه احد في معـرفتها في وقته، وكان مولده في انطاكية سنة ٢٩٩هـ ومات بقرطبة سنة ٣٧٧هـ رحمه الله تعالى»(١٤).

ومن الذيـن وفدوا ايضا الى الاندلس من المشرق، عبـد الملك بن عمر بن مـروان ابن الحكم الاموي، إذ فر من الشام خوفا من أعدائه، فمـر بمصر ومضى الى الاندلس فأكرمه عبد الرحمن الداخـل وولاه اشبيلية، وكان يحن دائما لـوطنه، ولاسيما انـه لم يأت الاندلـس راضيا كغيره، وإنما أتاها فـارا من خصومه في المشرق، ويـروي لنا المقري انه رأى نخلـة منفردة في اشبيلية فتذكر وطنه بالشام وقال:

يـــانخــل انــت فــريـــدة مثـــلي
فــي الارض نـــائيـــة عن الأهـــل
تبكـــي وهـــل تبكـــي مكممـة
عجمـــاء لـــم تجبـل على جبلـي(١٥)

ومـن الذيـن قـدموا الانـدلـس ايضا احـد الاوليـاء الصالحين واسمـه سيـدي يوسـف الدمشقي(١٦) وهو شاذلي الطريقة، كان يأتي مـدينة وادي آش الكرة بعد الكرة لزيارة بعض معارفه، وكان من الذين اخفاهم الله لايعرف به الا من تعرف له.

كما قدم الاندلس ايضا عدد من النساء نذكـر منهن: عابدة المدنية(١٧؛ ام ولـد حبيب ابن الوليد المرواني المعروف بدحون، وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة.

ونذكر ايضا فضل المدنية(١٨) وهي حاذقة بـالغناء كاملة الخصال، واصلها لاحدى بنات هارون الـرشيد، نشـأت وتعلمت ببغداد، ومنهـن ايضا قمـر جارية ابـراهيم حجـاج اللخمي وكانت من اهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الالحان ولها في مولاها:

مــا فــي المغـارب من كـريـم يـرتجـــى
الا حليـف الجـود ابـــراهيـــم
إننـــي حللــت لـــديـه منـــزل نعمـــة
كـــل المنـــازل مـــاعـداه ذميـم(١٩)

ومن النساء اللـواتي دخلن الأندلس ايضـا الجارية العفراء ويصفها الارقمـي انها لم تكن حسنة المظهر ولاجميلته، الا انها كانت مغنية بارعة ولها:

يـــاطـــول ليـلـــي اعـالـــج الســـقما
إذ حَـــلَّ كـــلُّ الاحبـــة الحـــرمـا
مـــاكـــنـت اخـشـــى فـــراقكـم ابـدا
فاليـــوم امســـى فراقكـــم غــرمـــا(٢٠)

وهكذا نجـد انه كـان لمجموع الوافـدين إلى ديار الأنـدلس تـأثير كبير في مختلف مجالات الحياة وقـد ظل الأنـدلسيون يحاكون أهـل المشرق في كل شيء وفي هـذا الصدد يقـول هنري بيريز:

«إن الثقافة الأدبية التي رأينـاها هكذا، بدأت في اسبانية بالشعر المشرقـي وفرضت طريقة استبـدادية على ذهـن جميع الانـدلسيين، فإذا ارادوا ان يميّـزوا اديبـاً اوشخصية مـا كانـوا يعودون مبـاشرة الى مايقابلها في ذاكـرتهم المشرقية. فالمعتضـد قورن بالخليفة العبـاسي أبو جعفر المنصـور، والمعتمد قـورن بالـواثق بـالله وذلـك بسبب حـدة ذكائه واتسـاع معرفتـه الأدبية»(٢١).

وفي هذا الاطار نفسه يقول شوقي ضيف:

«ارتبطت الاندلس في علمهـا وفلسفتها با لمشرق فقد كانت تستورد منــه نماذجها الثقافية، تارة يذهب أهله اليه ليتعلموا على يديه، وتـارة يرسل هو إليه علماءه كأبي علي القالي على سبيل المثال»(٢٢).

وفضلا عـن الفنون والآداب، كانـت العلوم في البدايـة ذات أصل مشرقي، فقـد انتقلت كما ذكرنا إلى المغرب عامـة والاندلس خاصة، وبغض النظر عن تقليدية هـذه العلوم في البداية فقد غدت فيما بعد أصيلة واضحة السمات والهوية، وحققت في مجالات عديدة السبق، وانتقلت من هذا الموقف الجديد إلى بقية أنحـاء أوروبة، وكان ماكان من صدى لإنتاج ابـن حزم وابن رشد وابن سينـا والفارابي وغيرهـم. وربما كان مـن المفيد قبـل أن نذكـر بعض الامثلـة لنماذج تم انتقال هذه العلوم عبرها، ان نشير الى تلك المكانة التي كانت تمثلها اللغة العربية في ذلك الوقت، وكيف انصرف اليهـا الجميع، لما تمتعت بـه من أهميـة وعلى مختلف الصعد الفلسفيـة والفنية والادبية وغير ذلك، واقبال الكثيرين على تعلم هذه اللغة، وخير شـاهد على ذلك هو ماقاله الفرو القرطبي (ALVARO CORDOBE) عندما خاطب ابناء الإسبان مبـديا تخوفه من انتشار العربية وتحول معظم ابناء بلده إلى العربية، ويعرب عن تأسفه حيال ذلك فيقول من جملة مايقول:

«إن إخواني في الـدين يجدون لـذة كبرى في قراءة شعر العـرب وحكايـاتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب اهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلـك اسلوبا عربيـا جميلا صحيحا. وأيـن تجد الآن واحدا ـ مـن غير رجال الدين ـــ يقرأ الشروح اللاتينية التـي كتبت على الأناجيل المقـدسة؟ ومن سوى ـــ رجال الدين ـــ يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسـل؟ ياللحسرة إن الموهوبين من شبان النصارى لايعرفـون اليوم إلا لغة العـرب وآدابها، ويؤمنـون بها ويقبلون عليها في نهم. وهـم ينفقون اموالا طـائلة في جمع كتبها، ويصرحون في كـل مكان بأن هـذه الآداب جديرة بالاعجـاب. فإذا حدثتهم عـن الكتب النصرانية اجابوك في ازدراء بـأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليهـا انتباههم ياللألم لقد نسي النصـارى حتى لغتهم، فـلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع ان يكتب إلى صاحـب له كتابا سليما مـن الخطأ. فأما عـن الكتابة في لغة العـرب فإنك واجد فيهـم عددا عظيما يجيدونها في أسلـوب منمق، بل هـم ينظمون من الشعر العـربي مايفوق شعـر العرب أنفسهم فنا وجمالا»(٢٣).

ودون الخوض في منـاقشة مفصلـة لقـول الفـرو يمكن القـول: إن ذيـوع اللغـة العربيـة وانتشارها كان كسريان النار في الهشيم أما في المناطق التي لم تصلها اللغة العربية، أو كان من الصعوبة بمكان ان يتعلم أبناؤها هذه اللغة الجديدة فقد دفعت جودة الانتاج وسُمُوُّه الباحثين والمفكرين إلى ترجمة هذه الآثار الرائعة إلى اللغات الاخرى وكانت اللاتينية في مقدمتها بل وعلى رأسها، ومـن خلال هذه الترجمات وصلـت هذه الآثـار إلى أنحاء المعمورة الاوروبيـة، قبل ان نذكر بعض الامثلة كشواهد حية على انتقال العلوم العربية وانتشارها في اوروبة، نود أن نذكر

مانقله زكريا هاشــم زكريا عن برفو (BRIFFAUT) في كتاب: «تكوين البشرية في القرن التاسع عشر»: (إن رئيس دير كلوني (CLUNY)كان يأسف أثناء إقامته بـــالأندلس، لما كان يشاهد من تهافت الطلبة مــن فرنسة والمانية وانكلترة على مراكـز العلم العربية، كما يضيف بـرفو ايضا: (العلم هبــة عظيمة الشــأن جادت بها الحضارة العــربية على العــالم الحاضر) كما ويذكـر لنا السيد بلقاســم مولود في بحثه الذي قـدمه لندوة الثقافـة العربية ـ الاسبانيــة عبر التاريخ في دمشق عام ١٩٩٠ :

(ان الاستاذ الكبيريانبيلافسكي (JAN BIELAWSKI) رئيس قسم الدراسات الاسلامية في جامعة وارســو قد قال لهم أثناء انعقاد الملتقــى العاشر للفكر الإسـلامي في عنــابة بالجزائر عام ١٩٧٦: [ان كتاب «الكليـات في الطب لابن رشد» كــان يُدّرس في جامعة كـراكوفيا (-CRA COVIمسقط رأس البــابا الحالي ـ حتى القــرن الثامن عشر]. وجــاء في مداخلة السيد بلقــاسم ايضا ان الاستاذ الـدكتور هيرمان لاي (HERMMANN LEY) الاستاذ بجامعة هــومبولدت في برلين قال لهم:

«ان نفس الكتاب كان يُــدّرس في جامعة يينا (JENA) في المانية حتى بدايــة القرن التاسع عشر» ويضيــف السيد بلقــاســم ايضا: ان المؤرخ الاسبــاني المعــاصر الكبير خوان فيرنييـت (JUAN VERNET) يقول في كتابه الاخير: «الثقافة الاسبانية العربية في الشرق والغرب»: (إذا كان القــرن الحادي عشر الميلادي عصر علماء الفلك الكبار في الانـدلس، فالقــرن الثاني عشر أعطى هــذه الاسبقية للاطبــاء والفلاسفة ففــي كلا الميـدانين تميز ابن رشــد، بأن مؤلفــاته في الميدانين، قد كان لها مــن التأثير في العالم الغربي (اوروبا) بحيث أصبــح هذا العالم في القرن الخامس عشر، لم يعد يؤمن بأن النور يبزغ من الشرق، بـل من اسبانية (الاندلس) ولقد ذكره (الشاعر الايطالي الكبير) دانتي في ديوانه الجحيم)(٢٥) ويضيف المؤلف نفسه:

«إن ابن رشد هــو ربما الإسباني الذي كان لــه اكبر تـأثير على طول التاريــخ كله على الفكر البشري»(٢٦).

هذا ويخبرنا الفيلسوف الفرنسي رِنان عن ابن رشد ايضا:

«ان ابن رشد، خاصـــة قد عظم في نظري، وباختصـار فـالتطور العقلي الذي احرزه العلماء العــرب ظل حتــى نهاية القــرن الثاني عشر الميــلادي اعلى من مقــام العالم المسيحــي»(٢٧) ويضيف كذلـك المؤلف نفسه وهو في اطار الحديث عـن ابن رشد مجملا حديثــه عن الفلسفة الاسلامية من خلال رأيه بابن رشد: «إنــه لحق، وصحيح جدا، ان الفلسفة العربية منطلقة من أساس تقليدي قد وصلت خاصـــة في القرنين الحادي عشروالثاني عشر (الميلاديين) الى اصالة حقيقية»(٢٨).

ويعلمنا رِنان في مؤلفة إياه:

«وعندما قَرر الملـك الفرنسي لويس الحادي عشر تنظيم التعليم الفلسفــي سنة ١٤٧٣ كان

المذهب الذي اوصى به هو مذهب ارسطو وابن رشد»(٢٩)

ونود الاشـارة ايضا إلى ان ابـن رشد كـان أول من قـال: ان بعض الامـراض المعديـة مثل الجدري الاسود، قد تمنح الجسم حصانة مدى الحياة. وبذلك يتجلى لنا مدى تأثير فلسفة ابن رشد، وماتركته من بصمات بيّنة، واضحـة المرتسمات في الفكر الاوروبي عامة. والمثال الثاني الذي يحضرنا هنا بعد الحديـث عن ابن رشد هو ابن حزم القرطبي وهو سـابق لابن رشد وما كان له من دور في انتقـال العلوم الى الغرب وسنقتصر في حديثنا عن ابـن حزم على مثال واحد هو شيوع مؤلفه الهام في الحب / طوق الحمامة / الـذي سرت أفكاره في الحب وماهيته وأنواعه في الحياة العاطفية الأوروبيـة، وخير مايؤيد قولنا هنـا ماذكره السيد غومس غـارسيا وهو في اطار رده على الذين انكروا اثر العذرية العربية في الادب الاوروبي يقول:

«ان شعراء الإسلام، مـن بغداد إلى مرسية، أقامـوا قرونا ثلاثة يتفننـون بالحب العذري، ويحللونـه، ويرسمون لـه المناهج، وتلـك هي الحركة التـي انتقلت من قـرطبة إلى بروفـانس (جنوب فرنسة) لتلهـم البروفنسيين ماسموه (بالعلم البهيج) والتي أوحـت الى جويدا جينزلي (GUINIDA GUINZELI) استاذ «دانتي» اسلـوبه العذب الجميل ، ومـع هذا فعندما أخـرجت مطابـع فلورنسة النـص الاغريقي لكلام «افـلاطون» رمى النـاس العرب بالحسيـة الجافية، ومضوا من ذلـك الحين يصفونهم بذلك»(٣٠) لانريـد ان نسهب هنا في الرد على الـذين انكروا العذرية على العرب، فتاريخ الادب العربي حافـل بها لايحتاج إلى اثبات وبراهين وذلك بدءا من عنترة بن شداد ومـرورا بجميل بثينة إلى ابن حزم الـذي قيد الحب في طوقه، عارضـا خلاصة تجربتـه في الحب والاشكال المتعـددة لـه بحلوهـا ومـرهـا، هذه الاشكـال التـي جاء الشعـر البروفانسي الاوروبي وبعـد قرن مـن الزمـن ليتعرض اليهـا، وان ماتضمنـه هذا الشعـر من تمجيد للمـرأة وخضوع لها ليس له أي جـذور في الشعر الغنائي الاوربي الذي لم يعـرف قبل القرن الثـاني عشر الميلادي ولم يبق امـام النقاد والمؤرخين الا ان تـرد هذه الجذور الى الآدب العربي عامة والاندلسي خاصة، والتي كان يشكّل فيها غرض الغزل جوهره ومركز تطوره.

ونود ان نذكر هنا قول ستندال للتدليل على ذلك:

«يجب ان يبحث عن الحب الحقيقي ووطنه تحت خيمة الأعراب القاتمة»(٣١)

وخير مانختم به حـديثنا من انتقال آثار ابن حزم الى الغرب، مـاأشارت إليه د.البغدادي في تقديمها لكتاب هـوسا(٣٢) ـ الذي قامت بتعـريبه ـ من مقارنة بين طـوق الحمامة لابن حزم ومؤلفـات اخرى مثل: فـن الحب لاندريـه لوشابيـلان، وكذلك فـن الحب العفيف لانـدرياس كابلانوس.

حيث ظهر هذان الكتابان في القرنين الثـاني عشر والثالث عشر الميلاديين مع ظهور الشعر الغنائي الاوروبي في اسبانية جنوب فرنسة قبل انتقـاله الى ارجاء اوروبة الغربية، مع الاشارة الى ان آراء كثيرين ممـن تعرض لهم هوسافي كتـابه: شعراء التروبادور ومجالـس الحب مثل:

دي سانت ديـديه، ودي كابستان، وارنـودي ماري، ولابازول وغيرهم جـاءت صدى وتكرارا بشكل أو بآخر لما تعرض له ابن حزم ونأتي بمثالين على سبيل الذكر لا الحصر مؤكدين ذلك:

المثال الاول: يقول ابن حزم في باب طي السر:

«ومن بعـض صفات الحب الكتمان باللسـان، وجحود المحـب ان سئل، والتصنع بـاظهار الصبر، وربما كان سبـب الكتمان ابقاء المحـب على محبوبـه، وانّ هذا لمن دلائل الـوفاء وكـرم الطبع. وفي ذلك اقول:

درى الـنـاس أنــي فــتى عـاشــق
كئيب معــنّىً ولــكــن بمــن
اذا عــاينــوا حـالتــي ايقنــوا
وان فتشــوا رجعــوا في الظنن

وفي كتمان السر اقول قطعة منها:

للـســر عنــدي مكان لــو يحـل به
حــي إذا لاهتــدى ريــب المنــون له
أميتـه وحيـــاة الســـــر مِيتَتَــــهُ
كمـا سرور المعنى في الهوى الوله(٣٣)

وفي المقابل يقول ارنودي ماري مخاطبا حبيبته:

«اذا تفضلت بمنحى بعـض الاحسان، آه ياأعز النســاء، فاعلمي انني ســأتحمل الموت اولى من ان ارتكب اقل خطأ بافشاء السرّ، آه انني اطلـب من الله ان يقضي على أيامي في اللحظة التي ارتكب فيها خطأ خيانة سر الطافكم»(٣٤)

أما المثال الثاني: فهو عندما يقول ابن حزم في باب علامات الحب:

«ومنها بهتٌ يقــع وروعة تبدو على المحـب عند رؤية من يحب فجـأة وطلوعه بغتـة، ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه او عند سماع اسمه فجأة وفي ذلك اقول قطعة منها:

إذا مــا رآت عينــاي لابـس حمـرة
تقطع قلبــي حـسرة وتفـطرا
غدا لدماء الناس باللحظ ســافكـا
وضرّج منها ثوبه فتعصفرا(٣٥)

وفي المقابل يقول لـوشابيلان: (في قوانين الحب. القانون الخامــس عشر (على كل عاشق ان يمتقع لونـه بحضور حبيبته) القانون الســادس عشر: (على العاشق ان يرتعش قلبـه في حالة رؤية محبوبته فجأة)(٣٦).

يقول بالنثيا في كتـابه المشهور: [ويذكر ابن حزم صورا متعـددة للهوى العذري.. ويقول:

«إن هناك وجوها كثيرة للقنـوع بالحب، منها الاطمئنان على سلامة الحبيـب (وهو أمر سيرده دانتي عندما يتحـدث عن سلامة بياتريـس) ويذكر حينا آخر كيف يقنـع المحب بتقبيل التراب الذي وطئـه قدم الحبيب ويقـول: «واخبرني بعض إخواني عـن سليمان بن احمد الشاعـر انه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كـان غاية في الجمال، فشاهده يوما في بعض المنتزهات ماشيا وامرأة خلفه تنظر اليه، فلما بَعُدَ اتت إلى المكان الذي قد اثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثـم الارض التي فيها اثـر رجله» وهو أمر سيفعلـه فيما بعد شاعـرنا المبدع مـاثياس (MACIAS)](٣٧).

ونورد هنـا بعض الابيات التـي أنشدها ابن حـزم على لسان تلك التـي قبلت موطـىء قدم الحبيب:

«يلومونني في موطىء خفه خطا
ولو علموا عاد الذي لام يحسد
فيا اهل ارض لاتجود سحابها
خذوا بوصاتي تستقلوا وتحمدوا
خذوا من تراب فيه موضع وطئه
واضمن ان المحل عندكم يبعد»(٣٨)

وإذا ماغادر المرء ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، فـإنه يستطيع ان يذكر مالايحصى من الإسهامات العـربية التي كانت وراء وجـوه كثيرة من النهضة الاوروبية فقـد سبق العرب إلى الكثير من الاكتشافات التي اقتبسها الاوروبيون عنهم ودانوا لهم بها.

ففي مجال العلـوم والطبيعة يمكننا الاشـارة إلى ماذكـره د.عبد الحليم منتصر في بحـث له نشر ضمن مؤلف يتحدث عن أثر العرب والإسلام في النهضة الاوروبية إذ يقول:

«ويدلنـا تتبع تطـور الفكر العلمي على مـر العصور، كيـف أثر العلماء العـرب في النهضة الاوروبية، وكيف تأثر علماء اوروبة بأعمال العلماء العـرب، فقد بينا مثلا اثر العرب في ابتكار نظام الترقيـم والصفر والنظـام العشري، وكيف نـادى ابن مسكـويه وابـن خلدون واخـوان الصفاء، بنظرية التطـور قبل داروين بمئات السنين، وكيف عرف ابن النفيس الـدورة الدموية الصغرى قبل هـارفي بثلاثة قرون، وكيـف قال الادريسي وابن جزم والخازن بـالجاذبية قبل نيوتـن بقرون طويلة بـل كيف ربط الخازن بين الثقل والسرعـة والمسافة مما جعـل كثيرا من المحققين يقولـون إن صاحب كتـاب ميزان الحكمة أي الخازن كان يعـرف هذه العلاقـة التي وضعها نيـوتن على هيئة قـوانين ومعادلات، وكيف أجرى ابـن الهيثم التجارب لقيـاس سرعة الضوء، وتقـدير زوايا الانعكـاس والانكسار وكيف قدر بنـوموس محيط الأرض وكيـف قاس فلكيو الغرب أبعاد الاجرام السماوية وكيف ابتكـروا الآلات الفلكية، وعرفنا ان ابن ماجد الملاح العربي، كان ربان سفينة فاسكودي جاما في رحـلاته الاستكشافية في أعالي البحار، وأن جابر

بن حيان هو أول مـن أسس علم الكيمياء على دعائم قوية، وخلّصه مـن التشويه والاضطراب فنقله من صورته المشوبة بالشعوذة والسحر، إلى علم له قواعده وتجاربه وأصوله، حتى قال عنه سارتون بحق، إن علماء العصر الحالي لم يقدروا أن هذه أعمال رجل عاش في القرن الثاني للهجـرة لوفـرة مـا بها من مـادة علمية صحيحـة، وشهـد له «هـو لميـارد» العالم الكيميـائي المعاصر»(٣٩) وفي مجال الطب يمكن ان نذكر بما أكده د.محمـد كامل حسين من ان العرب قد بلغوا بالتنسيق الفكري للخبرة الطبية غايته على يـد الرازي وابن سينا، وان الطب العربي كان قمة الطب الـوسيط حيث اعتمد على الطب القديـم وبلغ به ارقى مايمكـن ان يسمح به العصر، وانتقل بحكم هذا الرقي الى البلاد الغربية بجملته علما وعملا(٤٠).

ويمكن كـذلك الاشارة الى الـرازي صاحب كتـاب الحاوي وهو موسـوعة في الطب تعـالج الموضوعات الطبية من عهد ابقراط حتى عصر المؤلف. وكـذلك ابن النفيس الذي امتاز بالشكل وقوة النقـد وكان اول من اكتشـف الدورة الدمـوية واكد وجـودها. وابن زهـر الاشبيلي الذي اكتشف حشرة الجرب وهو اول مـن شخص امراض الالتهابـات الجلدية ولايمكن لاحـد ايضا ان يتجاهل ابن سينا الذي سمي بالرئيس وكـان اول من جعل الادوية حبوبا، ولبسـها بالسكر ليسهل تنـاولها، وهو أول مـن لاحظ ان السرطان الموضعـي هو عبارة عـن مرض بـالسرطان للعضو، وقد اهتم بالمعالجة النفسية بالاضافة الى العلاج بالادوية.

وكـذلك ابـو القاسـم الـزهراوي الـذي ابتـدع الخياطـات الجراحية، والكثير مـن الآلات الجراحيـة واستخدام الخطـاف لاستئصـال الزوائد الانفيـة واليـه يعـود أيضا ابتـداع المرآة المهبلية.

لقد كان العرب اول من أسس الصيدليات العامة، وقد تم تأسيس أول صيدلية في عهد ابي جعفر المنصور في القرن الثامن الميلادي، وظل تأثير العرب على اوروبة في الصيدلة قائما حتى القرن التاسع عشر وكان العرب قد اكتشفوا طريقة حـديثة في التخدير، وهو التخدير الشامل، لتسهيل مهمة الطبيب وتخفيف آلام المريض، وبذلك خالفـوا الهنود والرومان واليونان، الذين كانوا يسكرون المريض لتخفيف آلامه. ولقد ابـدى العرب عبقرية خاصة في البصريات، ويعتبر هذا العلـم بحق انه علـم عربي، وقـد ساعد التقـدم في هذا العلم عنـد العرب على تقـدم في طب العيون وكانوا اول من اهتم بهذا الطب، حيث يعتبر كتاب حنين اسحق اول كتاب لطب العيون.

والخلاصة أن هناك كثيرا من المكتشفات والاختراعـات التي تنسب ظلما وخطأ الى الانكليز والفرنسيين، ولكـن التاريخ يثبـت ويؤكد أن العـرب بمؤلفاتهم العظيمـة، هم اساتـذة اوروبة الحقيقيون، وقد اخذت اوروبة عنهم كتبهم التي امتـازت على ذلك الخليط المشوش الذي تركه اليونان(٤١).

والمثال الاخير الذي نسوقـه هنا ماجاء في كتاب تزفيتان تودوروف (فتـح امريكا) ففيه ان كولـومبس قد استفاد في رحـلاته الاستكشافية مـن بعض معلومـات الفلك التي استقاهـا من

بعض العلماء العرب، فقد كان هناك اعتقـاد سائد في عصره ان الارض كروية وان لم يكن هناك من دليل يـؤكد ذلك. وقد استنـد كولومبس الى رأي الفـرغاني الفلكي العربي الـذي الف كتاب المدخل الى علـم هيئة الافـلاك المترجم إلى اللاتينيـة قبل ظهور كـولومبـس وتفكيره في رحلته بحـوالي ثلاثمائة عـام. كمايشير في كتابـه بشكـل صحيح الى حـد ما إلى طـول دائرة الارض. وعندمـا ترجم كـولومبس طـول الاميال البحريـة العربية التـي وضعها الفرغـاني إلى الأميال البحرية الايطالية، وجد انه يستطيع القيام بهذه الـرحلة. كما انه استفاد من علم الفلك العربي عندما حـوصر من قبل الهنود الحمر على ساحـل جامايكة مدة ثمانية اشهـر، ولم ينج منها الا عندمـا لجأ الى حيلة وهـي الزعـم بانه سـوف يسرق القمر وذلـك عندمـا عرف بقـرب وقوع خسوفه(٤٢).

وهكذا نجـد ان البون شـاسع بين اسهـامنا الحضـاري وفضل السبـق الذي حققنـاه في مختلف ميادين الحياة في الوقت الذي كانـت فيه اوروبة متخلفة عن الركـب الحضاري الذي عاشته امتنا العربية والاسلامية، وفي هذا الاطار نستشهد بقول باحثة اوربية منصفة، توضح لنا الفـارق الكبير الذي كان بين اوروبة والعـالم الاسلامي عـامة والاندلسي خاصــة اذ تقول: (كان التعليـم في العالم الاســلامي ميسرا لجميع النـاس، وكان الاطفـال من جميـع الطبقات، يقصدون المدارس الاولية، لقاء نفقـات ضئيلة جدا، وفي اسبانية المسلمة كـان التعليم مجانيا، وقد كانت توجد في قرطبة وحدها ثمانـون مدرسة لاولاد الفقراء، وبينما كانت الغالبية العظمى من المسلمين متعلمين، كانت اوروبة بين القرنين التاسع والثـاني عشر موطنا للأمية وقد بلغت نسبتها ٩٥٪ وكـان شارلمان ملك فـرنسة العظيم اميًّـا ولم يحاول تعلم القراءة والكتـابة الا وهو في سـن متقدمـة. حتى رجال الـدين في الاديـرة لم تكن بينهم غير قلـة قليلة جـدا، تعرف القراءة والكتابة...؛(٤٣).

وفي ذلك يتبين لنا بشكل جليّ الإسهام الحضاري العظيم الـذي قدمته حضارتنا للحضارة العالميـة وهذا خلاف مـايريده اعداؤنـا ولحسن حظ العـرب والمسلمين انه وجد في الغـرب من انصف هذه الحضارة ورد على المغرضين الذين ارادوا النيل من تراثنا وتاريخنا. ويخطرنا هنا ماذكره في السياق إياه جوزيف ماك كيب في مـؤلف هام له عن مكتشفات العرب وانجازاتهم في مختلف مجالات العلوم والصناعات والفلك والرياضيات والفيزياء والطب... فيقول:

- «إن هذه الاخبـار وان كانت مختصرة جـدا فانها كافيـة للدلالـة على ان عرب الاندلـس هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة في أهم نواحيها»(٤٤).

وفي النهاية يمكن ان نجمل القول: ان اللقـاءات الاولى بين العرب والغرب كانت عبر المعارك العسكرية وغير العسكريـة التي شهدتها شبه الجزيرة الايبرية، ومـن ثم حصل التمازج وكان التأثـر والتأثير في مجال الثقـافة والعلـوم عامة، قـد توطـد، وقوي الاتصـال بين الطرفين عبر قرون عدة حيث لانزال نشهـد حتى يومنا آثار الحضارة العربية بـاقية لاتمحي ولاتزول، على

الرغم من كل ماحيك من أعداء العرب للقضاء عليها، كما كان لوجود العرب هذه الفترة الطويلة في تلك الاصقاع اثر بالغ مما ادى الى تنبيه الاوروبيين وجذبهم تجاه المؤلفات العربية في العلوم كافة: الفلسفية منها والطبية والفنية والرياضية والفلكية وغيرها، متوجهين نحو العواصم العربية التي كانت تزخر بامهات الكتب لينهلوا منها، سواء بالاخذ منها مباشرة او بترجمتها إلى لغاتهم الحية. كما نود الاشارة إلى اننا إذا اردنا الاسهاب في هذا المجال، فان الحديث يطول ويستغرق مجلدات عدة، وانما نعتبر ان ماذكرناه ليس الا اشارات سريعة غايتها تسليط الضوء على هذه الجوانب كافة، ومن ثم يمكن افراد ابحاث خاصة لكل فرع من هذه العلوم، والسير معها منذ ولادتها سواء في المشرق او الأندلس ومن ثمّ انتقالها من خلال الجسر الاسباني إلى أوروبة.

اشارات :

١ ـ ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الاول، المجلد الاول: ١٢ .
٢ ـ ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ١/٢١٧ .
٣ ـ PE'RE'S H. LA POE'SIE ANDALOUSE EN ARABE CLASSIQUE P.40
٤ ـ المقري، نفح الطيب ٣/ ٥ .
٥ ـ اسمه: ابـو الحسن علي بن نافـع الملقب بزرياب وهـو لقب غلب عليه ببـلاده من اجل سواد لـونه مع فصاحـة لسانه، وحلاوة شمائلـه ولذا فشبه بطـائر اسود غرد عندهـم اسمه زرياب.
٦ ـ المقري ـ نفح الطيب ٣/ ١٢٣ .
٧ ـ المصدر السابق ـ ١/ ٣٤٤ .
٨ ـ للمزيد من التفصيل انظر المصدر السابق ـ ٣/ ١٢٢ ـ ٣٢٢ .
٩ ـ ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الاندلس: ٥٧ .
١٠ ـ المقري ـ نفح الطيب ١/٣٤٧ .
١١ ـ المقري، نفح الطيب ٣/ ٧٠ ـ ٧٥ .
١٢ ـ المصدر نفسه: ٧٥ ـ ٧٨ .
١٣ ـ المصدر نفسه: ٧٨ .
١٤ ـ المصدر نفسه: ١٤٤ .
١٥ ـ المصدر نفسه: ٥٩ ـ ٦٠ .
١٦ ـ المصدر نفسه: ١٤٨ .
١٧ ـ المصدر نفسه: ١٣٩ .
١٨ ـ المصدر نفسه: ١٤٠ .
١٩ ـ المصدر نفسه: ١٤١ .
٢٠ ـ المصدر نفسه: ١٤٢ .

٢١ ـ Pérès; H. Op. cit. P. 116
٢٢ ـ شوقي ضيف ـ ابن زيدون: ٩ ـ ١٠ .
٢٣ ـ بالنثيا ـ تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس: ٤٨٥ ـ ٤٨٦ .
٢٤ ـ زكريا هاشم زكريا ـ فضل الحضارة الاسلامية العربية على العلوم، ص٣١٤ .
٢٥ ـ الثقافة العربية ـ الاسبانية عبر التاريخ، دراسات وابحاث: ١٨٢ .
٢٦ ـ المصدر نفسه.
٢٧ ـ ارنست رنان ـ ابن رشد والرشدية: ١٢ ـ ١٣ .
٢٨ ـ المصدر نفسه .
٢٩ ـ المصدر نفسه: ٢٤٥ .
٣٠ ـ غومس غارسيا ـ الشعر الاندلسي ـ ترجمة د. حسين مؤنس: ٨٢ .
٣١ ـ حيدر بامات مجابي الاسلام، تـرجمة عادل زعيتر، ص٣١١ ـ ٣١٢ نقلا عن ستندال «حول الحب» باريس ١٨٨٢ .
٣٢ ـ هوسا، جاك لايت، شعراء التروبادور ومجالس الحب، انظر مقدمة الترجمة.
٣٣ ـ ابن حزم، طوق الحمامة: ٣٦ـ٣٨ .
٣٤ ـ هوسا، شعراء التروبادور ومجالس الحب: ١٠٨ .
٣٥ ـ ابن حزم، طوق الحمامة: ١٢ .
٣٦ ـ هوسا، شعراء التروبادور ومجالس الحب: ٧٥ .
٣٧ ـ بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة د. مؤنس: ٢٣٣ .
٣٨ ـ ابن حزم، طوق الحمامة: ٩٧ .
٣٩ ـ القلماوي وآخرون: ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .
٤٠ ـ المرجع نفسه: ٣٠٤ .
٤١ ـ حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس: ٤٠٢ ـ ٤٠٤ .
٤٢ ـ تودوروف، تزفيان، فتح امريكة ـ مسألة الآخر: ٢٥ ـ ٣٦ .
٤٣ ـ د. هونكه، فضل العرب على اوروبة، ترجمة د. فؤاد حسنين علي: ٢٩٧ .
٤٤ ـ ماك كيب، جوزيف، مدنية العرب في الاندلس، ترجمة د.تقي الدين الهلالي: ٥٦ .

* * *

مراجع البحث :

١ـ ابـن بسام، الـذخيرة في مجاسن أهل الجزيـرة، تحقيق د. احســان عباس، دار الثقــافة بيروت ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ .

٢ـ ابـن حزم القـرطبي، طـوق الحمامة في الألفـة والألاف، تحقيق حســن كامــل الصيرفي وتقديم ابراهيم الابياري، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٦٤ .

٣ـ ابـن سعيد المغربي، المغـرب في حلى المغرب، تحقيـق د. شوقي ضيــف، دار المعارف في مصر القاهرة ١٩٦٤ .

٤ـ ارنســت رُنان، ابـن رشد والـرشدية، تـرجمة عادل زعيتر، دار احيـاء الكتب العــربية، القاهرة ١٩٥٧ .

٥ـ بالنثيا آنخل غـونثالث، تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة د. حسين مــؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٥ .

٦ـ تودوروف، تزفيتان، فتح امريكة ـــ مسألة الآخر، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٢.

٧ـــ حيدر بـامات، مجابي الاســلام، ترجمة عـادل زعيتر، مطبعة عيســى البابي الحلبـــي وشركاه، القاهرة ١٩٥٦.

٨ـ د. حـومد أسعد، محنــة العرب في الاندلس، طبعــة ثانية، المؤسســة العربية للــدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٨ .

٩ـ زكريا هاشم زكريا، فضل الحضارة الاسلامية العربية على العلوم، القاهرة ١٩٧٠ .

١٠ـ د. ضيف شوقي، ابن زيدون، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣ .

١١ـ غومس غارسيا، الشعر الاندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية.

١٢ـــ القلماوي د.سهير وآخـرون، أثـر العرب والإسـلام في النهضــة الأوروبيـة، الهيئـة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ .

١٣ـ ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الاندلس، ترجمة د. ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.

١٤ـ المقري ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨.

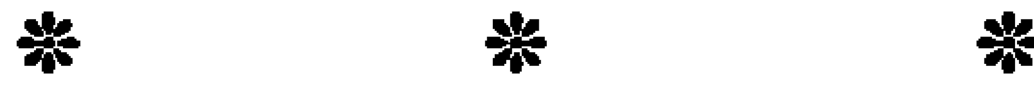
١٥ـ مـاك كيب جوزيـف، مدنية العـرب في الاندلس، تـرجمة د. تقي الديـن الهلالي، بغداد ١٩٥٠.

١٦ـ هوسا جاك لافيت، شعراء التروبادور ومجالس الحب، ترجمة د. مريم البغدادي، دار تهامة، جدة ١٩٨١ .

١٧ـ د. هونكه سيجريد، فضل العرب على اوروبة،تعريب د. فؤاد حسين علي، دار النهضة العربية بمصر ١٩٦٤ .

١٨ـ الثقـافة العربية ــ الاسبانية عبر التاريـخ، دراسات وابحاث وزارة الثقافـة والارشاد القومي، دمشق ١٩٩١ .

١٩ـ PE'RE'S , H.,La POSIE andalouse en arabe classique au x SIECLE. ADRIEN - Maisonneuve. PARIS 1953 .



تاريخ الدراسات الأدبية المقارنة
في سورية

تاريخ الدراسات الأدبية المقارنة في سورية

الدكتور غسان بديع السيد
جامعة دمشق ـ كلية الاداب
قسم اللغة العربية

على الرغم من الإشكاليات الكثيرة التي أثارها ظهور الأدب المقارن كفرع مستقل من فروع المعرفة التي تتيح الدخول إلى مجاهل النصوص الأدبية، فإنه أثبت أهميته، ومازال يكسب مناطق نفوذ جديدة. ولايختلف اثنان اليوم على أهمية الأدب المقارن خاصة في عصر تقلصت فيه المسافات، وأصبح من الصعب على أي أمة أن تتقوقع على ذاتها وتكتفي بما عندها من علم وأدب وثقافة وأفكار.

ومن هنا جاء الاهتمام بدراسة التأثيرات المتبادلة بين الأمم. وعلى الرغم من أن الاهتمام بهذا الموضوع ليس حديثاً فإنه قد بلغ أوجه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة لعدد من العوامل المتعلقة بالأوضاع العامة السائدة في العالم حينذاك، مثل ازدهار حركات الكشف الجغرافي والرحلات إلى مناطق نائية ومجهولة من العالم، واتساع حروب الاستعمار التي ساعدت في التعرف على حضارات وثقافات ونظم جديدة(١).

وكان طبيعيا إذن أن تنشأ هذه الدراسات في أوروبة الغربية التي كانت تحاول في كل يوم كسب مناطق نفوذ جديدة. فبدأ الحديث عن القانون المقارن، والتشريع المقارن، واللغويات المقارنة، والادب المقارن.

وكل هذه العلوم المقارنة كانت تنطلق من مبدأ واحد هو التسليم بوجود علاقة بين الشعوب والمجتمعات التي يتم المقارنة بين نظمها وثقافاتها، ثم البحث بعد ذلك عن طبيعة هذه العلاقة وأوجه التأثير المتبادل.

دراسات تاريخية ، العددان٥٣ / ٥٤ ، تموز ـ كانون الاول ١٩٩٥

وما يهمنا في بحثنا هو الأدب المقارن الذي يُجْمِعُ النقادُ على أن نشأته كانت في فرنسة عندما ألقى فرانسوانويل وبعض مساعديه محاضرات في الأدب المقارن في السوربون بين عامي ١٨١٦ ــ ١٨٢٥ تركزت في معظمها على الآداب الفرنسية واللاتينية والإنكليزية والايطالية. بعد ذلك بعامين جاء من يعده النقاد رائد الأدب المقارن آبيل فيلمان الذي حاضر في جامعة السوربون صيف عام ١٨٢٧ .

ومنذ أن بدأ فيلمان محاضراته ارتسمت خطوط عامة سار عليها كثير من المقارنين الفرنسيين من أمثال فان تييغم وفرانسواغويار وغيرهم. وأول مايميز المدرسة الفرنسية هو أنها تعد العامل التاريخي شرطا ضروريا لاقامة الدراسة المقارنة. يقول فانتييغم: «الادب المقارن الحقيقي يحاول، ككل علم تاريخي، ان يشمل اكبر عدد ممكن من الوقائع المختلفة الاصل، حتى يزداد فهمه وتعليله لكل واحدة منها على حدة، فهو يوسع أسس المعرفة كيما يجد أسباب أكبر عدد ممكن من الوقائع»(٢).

ولكن هذا التعريف لم يَلْقَ الترحاب المناسب، فحاول المقارنون الفرنسيون الجدد تطوير تعريف المدرسة كما جاء في كتاب «ما الادب المقارن» الادب المقارن: وصف تحليلي، ومقارنة منهجية تفاضلية، وتفسير مركب لظواهر أدبية مختلفة بين اللغات، أو الثقافات، من خلال التاريخ والنقد والفلسفة، من أجل الوصول إلى فهم جيد للادب، بوصفه وظيفة خاصة بالعقل البشري»(٣).

وإذا كان الجيل الجديد من المقارنين الفرنسيين قد اكتفى بادخال بعض التعديلات في المفهوم الفرنسي، فإن رينيه ويليك قد نسف هذا المفهوم من أساسه في المحاضرة التي ألقاها في مؤتمر الرابطة الدولية للادب المقارن الذي عقد عام ١٩٥٨، وعنوانها «ازمة الادب المقارن».

وكانت هذه المحاضرة أساس المفهوم الامريكي في الأدب المقارن. ويقوم هذا المفهوم على أن الادب المقارن هو العلم الذي لايقتصر في دراسته للادب على إنتاج دولة معينة دون غيرها من سائر دول العالم، بل يكسر الحدود الإقليمية الضيقة ويخترقها وهو العلم الذي يدرس العلاقة بين الأدب من ناحية وبين ميادين المعرفة الأخرى. باختصار، يتصدى الادب المقارن، في المفهوم الامريكي، للمفاضلة بين التعبير الادبي وصور التعبير الاخرى.

هذا يعني أن المدرسة الامريكية ترفض مبدأ الصلات التاريخية بوصفها شرطا أساسيا للدراسة المقارنة. وبعد المدرسة الامريكية جاءت المدرسة السلافية أو الماركسية التي تطالب بدراسة العلاقات بين الآداب انطلاقا من وجهة نظر الماركسية التي تقول: إن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع مايفرز نمطا معينا من الادب وهو مااصطلح على تسميته بالبناء الفوقي. فإذا تشابهت هذه الاوضاع في مجتمعين مختلفين أو أكثر فإن البناء الفوقي «الأدب» سيتناول موضوعات متشابهة. وهذا مايتيح لنا دراسة هذه الآداب المختلفة من باب رؤية، كيف أن مجتمعات مختلفة يجمعها الأدب تحت

ظروف اجتماعية واقتصادية متشابهة.

وبعد أن ازداد الاهتمام ببحث العلاقات بين الآداب المختلفة ونجاح هذا الفرع المعرفي الجديد في اكتساب مناطق نفوذ جديدة، بدأ العرب الاهتمام به. وعلى كل حال، العرب هم أكثر من يعرف فائدة الانفتاح الثقافي على العالم خاصة بعد مجيء الاسلام واختلاط العرب بالامم المجاورة، واطلاعهم على ما في ثقافاتهم من قيم جديدة، كما استفادت هذه الأمم مما لدى العرب فتمازجت الثقافات إلى درجة جعل من المستحيل العودة إلى أصولها. هكذا كان حال العرب مع الفرس الذين أسهموا في الثقافة العربية الإسلامية.

يقول الدكتور أحمد أمين في «ضحى الاسلام»: «فلعلك تقرّ معي في هذا، أن الادب الفارسي صبغ الأدب العربي صبغة جديدة، وربما كان أدق من ذلك أن تقول إنهما تفاعلا»(٤).

من الخطأ إذن القول إن العرب والمسلمين جميعا كانوا بمعزل عما حولهم من الثقافات، وإن أراءهم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية من غير أن تتأثر بغيرها. ولايقلل هذا من قيمة ما تركه العرب، فالعلم ملك شائع ومنبع مباح يغترف منه الناس جميعا وليس له حدود فاصلة كالتي ترسمها السياسة الدولية. وإنما الذي يقدح في الأمة حقا أن تغمض عيونها، وتسد آذانها عما حولها من نظريات وأفكار، أو أن يدفعها التعصب الأعمى أن تنسب لنفسها ماليس لها، وتعزو إليها خلق مالم تخلق، وابتداع مالم تبتدع. وانطلاقا من هذا الفهم القائم على وحدة الثقافة الانسانية وشيوعها وعلى ضرورة الاتصال بالامم الاخرى، شارك الرواد من المقارنين العرب في مد جسور الاتصال مع الثقافات الاخرى، خاصة الاوربية منها.

لقد أتاح الاتصال المبكر بالثقافة الاوربية عن طريق البعثات العلمية والحروب الاستعمارية، الاطلاع على نمط جديد من الحياة الثقافية استوجب نظرة متفحصة مزدوجة على الذات والآخر.

ويحدد الدكتور محمد غنيمي هلال تاريخ ولادة الدراسات الأدبية المقارنة، بغزوة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨، ولكن الدرس المقارن الحقيقي تطور في الربع الثاني من هذا القرن.

فيقول: «إذا تتبعنا محاولات نشأة الادب المقارن عندنا في الربع الثاني من هذا القرن وجدنا أن نشأته لم تكن نتيجة لحركة فكرية واتجاهات فلسفية، ومنحى علمي، ومنهج نقدي عميق»(٥).

ونلاحظ هنا أن الدكتور هلال حدد ولادة الادب المقارن في الوطن العربي في الربع الثاني من القرن العشرين، ولم تكن الدراسات المقارنة في هذه الحقبة من الأدب المقارن في شيء لان اصحابها قد أساؤوا فهم الادب المقارن ونفروا منه وشككوا في جدواه. ويربط الدكتور هلال ولادة الدراسات العربية المقارنة بالبحث الاكاديمي في الجامعات المصرية التي أوفدت عددا من الباحثين إلى أوربة عامة وإلى فرنسة خاصة للتخصص في هذا المجال. والدكتور هلال نفسه كان أحد أولئك الذين أوفدوا إلى فرنسة وتتلمذ على يدي أحد أشهر المقارنين الفرنسيين وهو

فرانسوا غويار.

والحقيقة إن الدراسات المقارنة في الوطن العربي بدأت قبل هذا التاريخ، ومن هذه الدراسات دراسة الناقد السوري قسطاكي الحمصي (١٨٥٨ ـ ١٩٤١)، «منهل الوَّراد في علم الانتقاد». ويتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء في تسعمئة صفحة، وبدأت طباعته في مصر سنة ١٩٠٧، وانتهت عام ١٩٣٥ .

والمهم بالنسبة لبحثنا هو الجزء الثالث من هذا الكتاب، الذي قسمه صاحبه إلى ثمانية عشر بابا، وخص الباب الاخير بالموازنة بين الالعوبة الالهية (الكوميديا الالهية) للشاعر الايطالي دانتي ورسالة الغفران لابي العلاء المعري.

وتعد دراسة الحمصي من الدراسات المقارنة التطبيقية الرائدة ليس في سورية فحسب بل في الوطن العربي على رأي الدكتور حسام الخطيب في كتابه «الادب المقارن»، ج١ ، ص١٣١ .

والمهم في هذه الدراسة هو إقامة المقارنة بين هذين العملين على أساس تأثيرات رسالة الغفران في الكوميديا الالهية. وقد عد الناقد قسطاكي الحمصي الشاعر الايطالي دانتي سارقا لفكرة الرحلة الخيالية من رسالة الغفران، ولهذا لايعد دانتي مبدعا وإنما نقل ماوجده في رسالة الغفران، وتصرف في بعض المسروقات تصرفا بعيدا وفي بعضه الآخر، غير الاسماء والاماكن. ويؤكد قسطاكي الحمصي على أن الاشارات التي وردت حول علوم الهندسة والتاريخ واللاهوت وآيات التوراة والانجيل جاء ليستر السرقة عن النقاد. ثم ينتقل الباحثإلى المقارنة بين العملين ويعدد المشاهد المتشابهة والتي تبرهن على اطلاع دانتي على رسالة الغفران حسب رأيه.

ونحن إذ نورد كتاب قسطاكي الحمصي لأهميته التاريخية في مجال الدراسات الادبية المقارنة، فإننا نعارضه في ماذهب إليه من تأثر دانتي برسالة الغفران، وفي اطلاعه عليها قبل كتابته للكوميديا الالهية. ونظن ان قسطاكي الحمصي أخذ ماقاله المستشرق الاسباني آسين بلاسيوس (١٨٧١ ــ ١٩٤٤) في المجمع الملكي الاسباني في جلسة ٢٦/١/١٩١٩ حول «الاصول الاسلامية والكوميديا الالهية».

فإذا عرفنا ان الحمصي قد نشر مقالته الاولى في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٢٧، ثم نشر الجزء الثالث من كتابه والذي هو موضوع حديثنا سنة ١٩٣٥، فإننا ندرك علاقته بالباحث الاسباني. وكان الدافع وراء تبني أفكار بلاسيوس هو إظهار ماللعرب من أثر في الحضارة والثقافة الغربيتين.

فيقول: «ليس قصدنا في هذه الموازنة الحط من قدر دانتي ببيان سرقته الموضوع من شعر المعري، فقد سرق شعراؤنا وغيرهم قبل دانتي وبعده، وسيسرقون إلى يوم الدين... ولكن لنعلم نفرا يجهلون مدى آداب لغتنا ويكفرون بنوابغنا»(٦).

والمجال هنا ليس للحديث عن مدى تأثر دانتي برسالة الغفران ولكن ينبغي الانتباه إلى أن

تأثر الشاعر الايطالي برسالة الغفـران لايعلي من قدر الأدب العربي، كما لايقلل من قيمته عدم تأثره بها(٧).

ويظهر هنا أن دراسـة الحمصي ابتعدت عن المنهج العلمـي، وقفزت إلى إطلاق أحكام عـامة كلية لاتستند إلى مقـدمات سليمة، أو إلى أدلة وبيانـات كافية تبرر هذه الأحكـام. كما أن الناقد اكتفى بوجود تشابه في موضوع الرحلة الخيالية إلى العالم الآخر ليبرر تأثير رسالة الغفران في الكوميديا الإلهية دون أن يقدم الدليل القاطع على ذلـك. قد يكون دانتي قد تأثر بقصة المعراج التي ترجمت إلى اللغة القشتالية سنة ١٢٦٣ هـ، ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللاتينية. ومن الممكن أن يكون دانتـي قد اطلـع على هذه الترجمة، وإن كان هـذا لايكفي للجـزم بتأثـره بها، ولكنها فرضية قابلة للنقاش أكثر من تأثير رسالة الغفران. وعلى الرغم من ذلك، يبقى الناقد قسطاكي الحمصي من رواد الدراسـات التطبيقية في الادب المقارن في سورية وفي الوطـن العربي ويكفيه ذلك فخـرا. وإذا كان قسطـاكي الحمصي مـن رواد الدراسـات التطبيقية في الادب المقـارن في الوطن العربي، فإنه لم يشر، في دراسته، إلى مفهوم الادب المقارن ولم يستخدم هذا المصطلح.

لقد تناولت دراسته نقاط التشابه بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية، دون الاعتماد على نظريـة الأدب المقارن التي تهتـم بدراسـة الأدب القومي في عـلاقاته التـاريخية مـع غيره من الآداب خارج حدود اللغة القـومية التي كتب بها. أما أول من استخـدم مصطلح الادب المقارن في الوطن العربي فهو خليل هنداوي(٨).

والحقيقة إن الدكتور حسام الخطيب يصحح في كتابـه «آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا» ماتناولته المصادر المعـروفة حول تاريخ الادب المقارن العربي، حيث تـؤكد هذه المصادر على أن فخري أبو السعود هو أول من أستخدم مصطلح الادب المقارن في سلسلة مقالات نشرها في «الرسالة» عام ١٩٣٦ .

أما الـدكتور حسـام فيعيد الريـادة في هذا المجال إلى الاديـب السوري خليـل هنداوي(٩) فيقول: «خلافا لكل مـانشر سابقا في هذا الموضـوع، يتبين من مراجعة الـدوريات العربية ذات الاتجاه الأدبي منذ أوائل القـرن العشرين إلى منتصفـه أن أول استعمال محدد لمصطلح الادب المقارن ظهر بقلم خليل هنـداوي (حلب سورية) على صفحات مجلة الرسالـة المصرية بتاريخ ١٩٣٦/٦/٨(١٠).

وكان عنوان المقال هو «اشتغال العرب بالأدب المقارن»(١١)

ويبدو من خلال المقالات التي نشرها خليل هنداوي على صفحـات مجلة الرسالة القاهرية، أن الكاتـب كان واعيـا لطبيعة مصطلح الادب المقـارن ومعناه لأنه يميـزه عن الموازنـات التي كانـت تقوم بين شـاعريـن أو كاتبين عربيين كما فعـل الآمدي في «الموازنـة» لابل إنـه يتجاوز المفهوم الفـرنسي القائم على مبـدأ التأثر والتـأثير، ويتحدث عن نـوع من الأدب العـالمي الذي لايعرف الحدود، ويحمـل رسالـة إنسانيـة تسمو فـوق التعصب الفكـري والنظرة الضيقـة.

«ولكن الأدب ـ كما يبدو له ـ سلطان قاهر، يرمي بالحواجز التي تفصل بين الحدود الصناعية ويقتحم في عوالم الفكر والخيال دون أن يصد اقتحامه شيء لأنه أدب....

وهكذا نشأت الصلات الأدبية بين الأمم... وربطت بين المفكرين ربطا لايقوم على مصالح سياسية أو مطامع مادية، وإنما يقوم على رفع الفكر وإعلاء كلمة الفكر»(١٢).

وهكذا نرى أن خليل هنداوي يبشر بالرسالة الانسانية للادب المقارن الذي يعمل على تهديم الحدود المصطنعة بين ثقافات شعوب الارض. إنَّ روح الكاتب الانسانية جعلته يستشرف آفاق المستقبل في دراسة الآداب المختلفة، ويبتعد عن التعصب القومي الذي يحد الرؤيا، ويسيء إلى الفكر. إن الأدب عطاء وإبداع، فكيف يمكن حصره في زاوية ضيقة تحجب عنه أشعة الشمس؟

هذه النظرة الانسانية الشمولية جعلته ينطلق في الأدب العربي إلى فضاء رحب يقع على حدود الآداب العالمية ليستمد منها وتستمد منه، فيقول: إن دراستنا اليوم للأدب الأجنبي أكثر ضرورة منها بالأمس بعد أن امتزجت عوالم الفكر واتحدت مناهج الأدب، وأصبح لايليق بنا أن نترك الأدب العربي محصورا في عزلته بحجة صيانته ووقايته. وما الذي يُخْشَى عليه؟ وأنما صيانته ووقايته في تعريضه للهواء والنور لا في حجبهما عنه وفي تقريبه من الآداب العالمية»(١٣).

ماأحوج الأدب المقارن إلى هذا الفكر الذي يسمو إلى أفق إنساني لاتشوبه شائبة ولاتحده حدود، ولايخضع لاعتبارات آنية مؤقتة تفصل الانسان عن أخيه الانسان.

تعد مقالة خليل هنداوي ردا على أولئك الذين يريدون توظيف الادب المقارن لاغراض شخصية او قومية ضيقة. بعد قسطاكي الحمصي وخليل هنداوي شهدت الساحة السورية غيابا للدراسات الأدبية المقارنة، على الرغم من النجاحات التي بدأت تحققها على امتداد الوطن العربي خاصة في القاهرة وبيروت وبغداد، بعد عودة عدد من الموفدين إلى الجامعات الاوربية الذين درسوا الادب المقارن وتخصصوا فيه. ومن هؤلاء الدكتور محمد غنيمي هلال الذي تتلمذ على يدي المقارن الفرنسي الشهير فرانسوا غويار.

وكان لكتبه في حقل الادب المقارن تأثير كبير على الدراسات المقارنة في الوطن العربي. وبقي الجمود مسيطرا على الساحة السورية، ماعدا بعض المقالات، حتى عام ١٩٧١ حيث أدخل مقرر الأدب المقارن إلى قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، وقام بتدريس هذا المقرر الدكتور حسام الخطيب الذي أسهم بصورة كبيرة في نشر هذا الفرع المعرفي في سورية، من خلال التدريس والتأليف. فظهر له أول كتاب يحمل عنوانا من صلب الادب المقارن «سبل المؤثرات الاجنبية اشكالها في القصة السورية: دراسة تطبيقية في الأدب المقارن»(١٤).

وقد وجد هذا الكتاب اهتماما من الباحثين لأنه شكل قفزة في تاريخ تطور الدراسات الأدبية المقارنة في سورية، كما أن المعلومات المهمة الموجودة في هذا الكتاب أسهمت في تنبيه الدارسين

إلى العلاقة بين الأدب العربي في سورية وبين الآداب الأوربية، هذه العلاقة التي أنتجت اجناسا ادبية جديدة لم تكن موجودة في الادب العربي القـديم مثل المسرحية والقصة والرواية. ويحمل عنوان الكتاب دلالة مهمة إذ يشير إلى منهج الكاتب في تبني المفهوم الفرنسي الذي كان مسيطراً ليس في سورية فحسب ولكن في الوطن العـربي، وخاصة أنَّ الرواد الأوائل مِنَ المقارنين العرب تتلمذوا في الجامعات الفرنسية.

ويشير الدكتور عبد النبي اصطيف في مقالته التي تقدمت الطبعة الخامسة من الكتاب عام ١٩٩١ إلى هذه المسألـة، ويؤكد على أن مسألـة التأثر والتأثير هـي مسوغ الدراسة المقـارنة. وعلى الرغـم من أهمية عقـد السبعينيات بالنسبـة للادب المقارن في سـورية، بعد إدخـاله إلى الجامعة وظهـور كتاب الـدكتور حسـام الخطيب فإنـه لم يشهد انطـلاقة حقيقيـة إلا في عقد الثمانينيات.

وكان الأمر مقتصرا قبل عام ١٩٨٠، بالإضافة إلى الكتـاب سابق الذكر، على بعض المقالات في مجلة المعرفة السـورية، حيث نشر الدكتور حسام الخطيب عام ١٩٧٦ عـرضا مفصلاً عن مشاركتـه في المؤتمر الثامن للـرابطة الدوليـة للأدب المقارن الـذي عقد في بودابسـت في العام نفسه، كما نشر ثـلاث مقالات في المجلـة نفسها عام ١٩٧٩ حـول «الأدب المقارن بين التـزمت المنهجي والانفتاح الانسـاني» بالاضافة إلى مقـالات الدكتور حسام الخطيـب خصصت مجلة المعرفة بعـض الأعداد للدراسات المقارنـة من الناحيتين النظرية والتطبيقيـة. واشترك في كتابة هذه المقـالات مجموعـة من البـاحثين المشتغلين في مجال الأدب المقارن، ومـن هؤلاء الـدكتور جمال شحيد الذي نشر عام ١٩٧٧ مقالا بعنوان «الأدب المقارن بين التقليد والحداثة»(١٥).

وخصص العـددان ١٩١ ـ ١٩٢ لعـام ١٩٧٨ بصورة كاملـة للدراسـات الأدبية المقـارنة خـاصة التطبيقيـة منهـا(١٦). ويأتي هـذان العددان في حقبـة ازداد فيهـا الوعـي بضرورة الاستفادة من منـاهج الأدب المقارن من أجـل معرفة موقعنـا بالنسبة للآداب العـالمية. ولهذا قامت وزارة الثقافة بطباعة كتابين مترجمين. الأول ترجمة عن الانكليزية عبد الكريم محفوض عام ١٩٨٠، وهو من تأليف هاري ليفـن بعنوان «انكسارات، مقالات في الأدب المقارن». وأكثر مايركز هذا الكتاب على الدراسات التطبيقيـة المقارنة في الآداب الغربية. ولايبتعد الكتاب الثاني عن الكتاب الأول، وهو من تأليف ايغريم كـارانفيلوف، وعنوانه «ابطال وطباع، مقالات في النقد والنقد المقارن»، قام بترجمتـه ميخائيل عيد عن البلغارية وصـدر عام ١٩٨٢. وفي هذا الاطار يمكن الاشارة إلى كتاب كاتـرينا مومسن «غوتة وألف ليلة وليلة». الـذي قام بترجمته الدكتور أحمد حمو وأصدرته وزارة التعليـم العالي عام ١٩٨٠. ويظهر هـذا الكتاب أثر ألف ليلـة وليلة في شاعر المانية الكبير غوتـه الذي تربى منذ نعومة اظفاره على سماع حكـايات أعظم قاصة في التاريخ «شهـرزاد» وهذا دليل على أن التأثير لايمكـن أن يكون في اتجاه واحد. على الرغـم من عظمة غـوته ومكـانته كـواحد مـن القمم الكبرى في الأدب الغـربي فإنـه اعترف بفضل الأدب

العربي عليه بالأضافة إلى القرآن الكريم الـذي كان له أكبر الأثر في ظهور بعض أعمال الشاعر إلى الوجود(١٧).

إلى جانب هذه الكتب المترجمة ظهر في دمشق لأول مرة كتاب يحمل عنوان «الأدب المقارن» للدكتور حسام الخطيـب. وصدر هذا الكتاب عام ١٩٨١، في جزأين عـن جامعة دمشق. الجزء الأول مخصـص للحديـث عن النظـرية والمنهـج، إذ يعمـد المؤلف إلى التعـريف بـا لمفهومـات الرئيسيـة للادب المقـارن مع طـرح المعضلات التـي تواجهـه. ولاينسى الحديـث عن الأدب المقارن عند العرب منـذ بداية عصر النهضة حتى تاريخ صدور هـذا الكتاب. أما الجزء الثاني فيحتـوي على كـل الموضوعـات التـي وردت في كتـابـه «سبـل المؤثرات الأجنبيـة في القصـة السـوريـة» فيقف أولا عنـد عـلاقـة الادب العربي الحديـث بـالآداب الأوربيـة خاصـة بعـد الاتصالات الكثيرة التي قامـت بين هذه الآداب بفعل عوامل عديدة. لينتقـل بعد ذلك إلى القصة السورية والمؤثرات الأجنبية التي أسهمت بصورة مباشرة في ولادتها. اما الفصول الاخيرة من الجزء الثاني فقـد خصصت للـدراسات التطبيقيـة حيث يقـف المؤلف خـاصة عنـد التأثيرات الوجودية في القصة والرواية في سورية.

ومعروف الآن فائدة هذه الطـريقة من التأليف التي تساعد على فهـم الجانب النظري، فإذا تـم للقارىء ذلـك انتقـل بـه المؤلف إلى الجانـب التطبيقـي الذي يثبـت المعلـومـات النظريـة ويوضـحها.

مما لاشك فيه أن هذا الكتاب جاء تتويجا لمرحلة كاملة من البحث المقارن في سورية وأسهم في إغناء الثقـافة المقـارنية وتنشيـط الدراسـات النقديـة إزاء مشكلات نـوعية متخصصـة في ميادين الأدب المقارن وظهـر في هذه المرحلة كتاب الدكتور محمـد ألتونجي «دراسات في الأدب المقارن» وهومن منشورات اتحاد الكتاب العـرب عام ١٩٨٢. وكما جرت عليه العادة في الكتب السابقة، قرن المؤلـف النظرية بالتطبيق، ولكنه يعتمـد اعتمادا كبيرا على كثير من الموضوعات، وعدد من الكتب المختصة في الأدب المقارن. وهذا مايعترف به المؤلف نفسه. إن هذه الكتب التي ظهرت في السنوات الأولى مـن مرحلة الثمانينيات تعـد مؤشرا على الاهتمام المتزايد في الظـاهرة المقارنية، توجت با لمؤتمر الثاني للرابطة العربية للادب المقارن الذي عقد في رحاب كلية الآداب بدعوة من جامعة دمشق بين ٦ـ٩/٧/١٩٨٦(١٨).

وشارك في المؤتمر بـاحثون من عدد مـن الأقطار العربيـة بالإضافة إلى بعـض الباحثين العالميين. وكـان الموضوع المركزي لهذا المؤتمر هو مجالات الأدب المقـارن عند العرب نظـريا وتطبيقا، وانقسم إلى ثلاثة محاور. المحور الأول تنـاول الأدب العربي المقارن، والمحور الثاني دار حـول علاقـة الأدب العربي المقـارن بالعـالم، أمـا المحور الثـالث فخصـص للدراسـات التطبيقية. وعلى الرغم من كـل مايمكن أن يقال عن هذا المؤتمر، فإنه يمثـل ظاهرة متطورة على طريق تـرسيخ دعائم الدراسـات الأدبية المقارنة في سـورية وفي الوطن العـربي. لأنه أسهم في

إثارة قضية الأدب المقارن ونشر الوعي المقارني كما يقول الدكتور حسام الخطيب رئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر «إن قضية الأدب المقارن، إذ تبدأ بطرح نفسها على جمهرة المثقفين والقراء إلى جانب المتخصصين، إنما تبعث في النفس أملا وتفتح أبوابا ومجالات من البحث كفيلة بأن ترفد الأدب العربي المعاصر بدم جديد، وأن تسهم في تسهيل طريق تحقيق طموحه القومي العصري وتطلعه الانساني الشامل»(١٩).

وعقب المؤتمر شهدت المجلات السورية حركة نشطة في نشر المقالات الأدبية المقارنة، وخصصت أعداد كاملة من مجلات المعرفة والموقف الأدبي والآداب الأجنبية لنشر المقالات التي ألقيت في المؤتمر والتي ألقت أضواء جديدة على مواضع مظلمة، وساعدت على رؤية الأدب العربي من خلال المقارنة والمقابلة بالآداب الأجنبية. فنشرت مجلة المعرفة في عددها / ٢٩٥/ الصادرة عام ١٩٨٦ مقالات لكتاب سوريين وعرب، ومن هذه المقالات «حول الأدب العربي وامتحان العالمية» للدكتور حسام الخطيب، و«أسطورة أورفيوس بين الآداب الغربية والشعر العربي المعاصر» للدكتور علي الشرع من جامعة اليرموك في الأردن، و«الموشح الاندلسي بين التأثر والتأثير» للدكتور رضوان الداية، و«في نظرية الأدب المقارن» للدكتور فؤاد مرعي. أما مجلة الموقف الادبي الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق فقد تناولت في عددها / ١٨٦/ عام ١٩٨٦، ملف الأدب العربي في علاقاته مع الآداب الاخرى وافتتح العدد الدكتور عبد الله أبو هيف في «قصة الأدب العربي المقارن».

تلاه رأي الدكتور حسام الخطيب في المؤتمر الثاني للرابطة العربية للادب المقارن.

بعد ذلك حاولت المجلة أن تقدم دراسات تطبيقية قائمة على النماذج الأدبية المقارنة التي تطرح كثيرا من الأسئلة المثيرة للاهتمام. فقدم الدكتور جمال شحيد بحثه حول «رواية عصر التنوير الفرنسية والحضارة العربية»، أما الدكتور عادل عبد الله فتحدث عن «ألف ليلة وليلة وفن البرلسك الانكليزي».

وبقيت الدكتورة بثينة شعبان في إطار الادب الانكليزي لتطرح قضية مهمة جدا هي «الأدب النسائي العربي والأدب النسائي الانجليزي».

وكما فعلت مجلتا الموقف الادبي والمعرفة، فعلت مجلة الآداب الأجنبية في عددها المزدوج / ٥٠ ــ ٥١/ الصادر عام ١٩٨٧. ومن المقالات التي قدمها الباحثون السوريون مقال الدكتور عبد النبي اصطيف بعنوان «دعوة إلى المنهج المقارن في دراسة الأدب العربي الحديث ونقده».

وقدم الدكتور سليمان محمد أحمد بحثا بعنوان «هاردي والعقاد». على أن المجال لايتسع هنا لاستعراض كل البحوث التي نشرت عل صفحات هذه المجلات، وإبداء الرأي فيها، ولكنها تثبت الاهتمام المتزايد الذي أولاه الباحثون السوريون والعرب لهذا الفرع المعرفي المفيد في فهم النصوص الأدبية.

ولايفوتنا الإشـارة هنا إلى ترجمة عارف حـديفه لكتاب أس.أس.براور «الـدراسات الأدبية المقارنة ـ مدخل» الصادر في دمشق عام ١٩٨٦ عن وزارة الثقافة.

خلال السنوات القليلة التي تلت المؤتمر عاد بعض الموفدين الدارسين في الجامعات الغربية في مجال الأدب المقارن، إلى سورية وعملوا بالتدريـس في الجامعات السورية الأربع. مما لاشك فيه أن سيـاسة الايفاد التـي اتبعتها الجامعات السـورية، أسهمت في تـوسيع أفق الـدراسات المقارنـة بسبب تعـدد الجامعات وتنوعهـا، وامتلاك الموفـدين للغات مختلفـة تساعـدهم على الاطلاع على وجهات النظر المتعددة والفنية. وهكذا نرى التنوع في التأليف، كما يظهر من كتاب الدكتـور عبده عبود «الأدب المقـارن»، الصادر عن جامعـة البعث عام ١٩٩١، حيـث استفاد الباحـث من دراستـه في المانية ومعرفتـه للغة الالمانيـة. ولهذا احتوى كتابـه على موضـوعات جديـدة تتعلق باستقبـال الرواية الالمانيـة في العالم العـربي. كما أن توزيع الموضـوعات على فصول الكتاب التسعـة أسهم في إعطاء صورة شـاملة للقارىء عن الأدب المقـارن في المجالين النظري والتطبيقـي، محاولا في الوقت نفســه استخدام مفاهيم جـديدة في دراساتـه التطبيقية فيقول: «وقد انطلقنا في هذا الكتاب من منحى نظري رئيسي شكل منعطفا حادا في نظرية الادب وكان له أكبر الاثر على تطور الادب المقارن وبحـوثه ألا وهو نظرية الاستقبال الادبي، دون ان يقودنا ذلك إلى إغفال الاتجاهات والتيارات النظرية الاخرى، أو تجاهلها»(٢٠).

ويسجل لمؤلف هذا الكتاب مشاركته النشطة في التعريف بالأدب المقارن عن طريق التأليف والترجمة وكتابة المقالات وإلقـاء المحاضرات، مما يبشر بالمحافظة على الحماس الـذي لابد منه من أجل تـرسيخ دعائم هذا الفرع المعرفي. وإذا كنـا لانستطيع الاشارة إلى كل ذلك، فـإنه لابد من التذكير بكتـابه «الرواية الالمانية الحديثة ـــ دراسة استقبالية مقارنـة» الصادر عن وزارة الثقافة في دمشق عام ١٩٩٣ ضمن سلسلة «دراسات نقدية عربية».

بالإضافـة إلى الطريقة العلمية والاكـاديمية التي يتبعها الكـاتب في رصد الظواهـر الأدبية، فإنه يقدم أيضا طريقة جديدة في التعامل مع الظاهرة الأدبية من خلال تتبع سيرورتها من بلد المنشأ حتى تلقيها من قبل القارىء العربي.

وقبل صـدور هذا الكتـاب بنحو عام، صـدر كتاب الدكتـور حسام الخطيـب «آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا» عن دار الفكر في سورية ولبنان عام ١٩٩٢. وعلى الرغم من التشابه بين هـذا الكتاب والكتـاب الذي صـدر عن جـامعة دمشـق في جزأيـن عام ١٩٨١، بعنـوان الأدب المقارن، فإن الدكتـور حسام الخطيب يحاول أن يقدم هنا نظرة متكـاملة تعتمد على خبرته في مجالات التأليف والتـدريس وحضور المؤتمرات العربية والـدولية، مستفيدا من الـوثائق التي حصل عليها في إعادة تصحيح بعض الحقائق، خاصة المتعلقـة منها بتاريخ الدراسات المقارنة في الوطن العربي.

قبل أن أختم بحثي هذا أريد أن أشير إلى أن كاتب هـذه السطور قام بجهد متواضع في هذا

الإطار.

وكـان الكتاب الأول «إشكـالية الموت في الأدب» الـذي صـدر في دمشق عـن دار معد عـام ١٩٩٣ محاولة جادة لـرصد موضوع إشكـالية الموت في أدب الكاتب السـوري جورج سـالم، وعلاقة ذلك بفكر غابرييل مارسيل وألبيركامو.

والكتاب الثاني بعنـوان «الحرية الوجوديـة بين الفكر والواقع، دراسـة في الأدب المقارن»، ونشر في دمشق عـام ١٩٩٤، وإذا كان الكتاب الأول قد كـرس للجانب التطبيقي، فـإن الكتاب الثاني قد بدأ بفصل عن تاريخ الأدب المقـارن ومدارسه في حين أن الفصلين الثاني والثالث قد خصصا للحديث عن الحرية عند بعـض الكتاب السوريين والفرنسيين الوجوديين لأن الحرية هي جوهر الانسان بالنسبة إلى الفكر الوجودي لابل هـي الوجود الانساني ذاته.

بالإضافة إلى ذلك قمت بنشر بعض المقالات في مجلات سورية وعربية(٢١).

وفي هذا المجال لم يتوقف نشاط الباحثين السوريين كما يتبدى من خلال الأبحاث المختلفة التي تنشر في مجلات سورية وعربية.

في نهاية هذا العرض السريع، يحق لنا أن نتساءل ماذا قـدمت كل هذه الدراسات من فائدة للادب في سورية، ومـا هي آفاق تطورها؟ على الرغـم من الجهد الواضح الذي بـذله الباحثون السوريون، فـإن النتائج لم تكن في مستوى الطمـوح. ولو ألقينا نظرة سريعـة على عدد الكتب المؤلفة أو المترجمة لوجدناها لاتتجاوز عدد أصابع اليدين.

إن نشـأة الأدب المقـارن في سورية قـد تأخر عـن نظيره في البلاد الغـربية بنحو قـرن من الزمن. وهذه الولادة مرتبطة باتصال المقارنين السوريين الاوائل بالثقافة الغربية واستفادتهم من مناهجها الحديثة. ولكن هذه الاستفادة انحصرت في الجانب التطبيقي لا في الجانب النظري وكما يعاني الادب المقـارن من أزمـة في البلدان العـربية كـذلك الامـر في سوريـة، ولم تستطع الجهـود الكبيرة في نقلـه مـن مجرد مقـرر هـامشي في الجامعـات يهم عـدداً محدوداً مـن المتخصصين إلى فرع معـرفي من بين فروع المعرفـة المختلفة. وإذا كان المستقبـل يبشر بالخير نتيجة عـدد من العـوامل التي تشجـع على إطلاق مثـل هذا الحكم، فـإننا يجب أن نتعهـد هذه الانطلاقة المبشرة بالرعاية اللازمة عن طريق رسم خطط مستقبلية تكفل نشر الثقافة المقارنية وتشجع المقارنين السوريين وترعاهم.

كما أنـه يجب إعادة النظـر في المقـررات الجامعية وطـرق التدريـس، إن ذلـك يعد اللبنـة الاساسيـة في تطوير البحث المقـارن. وهذا يتطلب التواصـل المستمر مع المقارنين العـرب من جهة ومـع المقارنين العالميين من جهـة أخرى عن طريـق عقد اللقاءات والندوات التـي تشجع البحـث وترعـاه. ويبقى الاسـاس في كـل عملية تطـوير الإنسـان نفسـه، فإذا تـوفرت النيـة والامكانية أمكن للبحث المقارن في سورية أن يحقق انطلاقة مهمة. أمنية صعبة التحقيق لكنها ليست مستحيلة.

الحواشي :

١ـ أحمد أبو زيد، «الأدب المقارن»، عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث (١٩٨٠) ص٣ .

٢ ـ بول فان تييغم، الأدب المقارن٧ القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٦، ص٢٠ .

٣ P.Brunel, Claude Pichois, A,M,Rousseau, Qu est-ce_ que la litterature comparée, Paris, Armand Colin, 1983/ P.15/.

٤ ـ أحمد أمين، ضحى الاسلام، ط٢، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥، ص١٣٣ .

٥ ـ محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط٣، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٧ ، ص٨٥ .

٦ ـ قسطاكي الحمصي، منهل الوراد في علم الانتقاد، ج٢، حلب، مطبعة العصر الجديد ١٩٣٥، ص١٩٧ .

٧ ـ للمزيد من المعلومات، راجع كتاب، الياس سعد غالي، رسالة الغفران والكوميديا الالهية دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨ .

٨ ـ حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، بيروت، دار الفكر المعاصر في لبنان، ودار الفكر في سورية، ١٩٩٢ ، ص١٥٤ .

٩ ـ ولد خليل هنداوي في صيدا في جنوب لبنان عام ١٩٠٦، انتقل إلى سورية عام ١٩٢٨، وعمل مدرسا في مدارس دير الزور وحلب إلى أن عين رئيسا للمكتب الفرعي لاتحاد الكتاب العرب في حلب حتى وفاته سنة ١٩٧٦ .

١٠ ـ حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، بيروت، ١٩٩٢، ص١٥٣ ـ ١٥٤ .

١١ ـ ظهر المقال على صفحات مجلة الرسالة القاهرية عام ١٩٣٦، الاعداد: ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ ١٥٦ .

١٢ ـ خليل هنداوي. «اشتغال العرب بالادب المقارن! ، الرسالة، المجلد الأول، العدد ١٥٣، ١٩٣٦/٦/٨د ص١٩٣٨ .

١٣ ـ المصدر السابق، ص٩٣٩ .

١٤ ــ صدرت الطبعة الاولى من الكتاب في القاهرة عام ١٩٧٣ عن معهد البحوث والدراسات العربية، ثم أعيد طبعه في دمشق عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٥ (اتحاد الكتاب العرب). وأخيرا ظهرت طبعة منقحة ومعدلة بدمشق عام١٩٩١ تتقدمها مقالة الدكتور عبد النبي اصطيف «سبل المؤثرات من منظور مقارني».

١٥ ــ جمال شحيد، «الأدب المقارن بين التقليد والحداثة»، مجلة المعرفة، العدد ١٨٢، ١٩٧٧ ص٥٩ـ٧٢ .

١٦ ـ خصص العدد المزدوج ١٩١ ـ ١٩٢، عام ١٩٧٨، بصورة كاملة للدراسات المقارنة ولذلك استحال علينا ذكر كل الموضوعات، وننصح بالعودة إلى هذا العدد من مجلة المعرفة.

١٧ ـ من المفيد العودة إلى كتاب، كاترينا مومزن، غوته والعالم العربي، ترجمة عدنان عباس علي الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٩٤، عام ١٩٩٥ .

١٨ ـ لمزيد من المعلومات، راجع، حسام الخطيب، «حول المؤتمر الثاني للرابطة العربية للادب المقارن»، الموقف الادبي، العدد ١٨٦ ، ١٩٨٦، ص٧ ـ ١٤ .

١٩ ـ المصدر السابق، ص١٤ .

٢٠ ـ عبده عبود، الأدب المقارن، حمص، جامعة البعث، ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ .

٢١ ـ من هذه المقالات، «في الأدب المقارن» مجلة علامات، السعودية، جدة، المجلد الرابع، الجزء الرابع عشر، (١٩٩٤)، ص٢٠١ .

* * *

المصادر والمراجع في اللغة العربية :

ــ أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط٢، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤ .

ـ براور، اس. اس الدراسات الأدبية المقارنة. ترجمة عارف حديفة. دمشق وزارة الثقافة ١٩٨٦

ـ التونجي، محمد، قسطاكي الحمصي شاعرا وناقدا وفيلسوفا. بيروت: دار الانوار، ١٩٦٩ .

ـ دراسات في الأدب المقارن، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٢ .

ـ تييغم، بول فان. الأدب المقارن. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٦.

ـ الحمصي، قسطاكي. منهل الوراد في علم الانتقاد، ج٣ حلب: مطبعة العصر الجديدة، ١٩٣٥.

ـ الخطيب، حسام. سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية، ط٥ . دمشق: مكتبة الادب القصصي في سورية، ١٩٩١.

ـ الأدب المقارن، ج١ـ٢ دمشق: دار الانشاء، ١٩٨٢

ـ آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، دار الفكر في سورية ولبنان، ١٩٩٢ .

ـ عبود، عبده. الأدب المقارن. حمص: منشورات جامعة البعث، ١٩٩١ .

الرواية الالمانية الحديثة، دراسة استقبالية مقارنة. دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٣ .

ـ علوش، سعيد. مدارس الأدب المقارن، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧ .

ـ غالي، الياس سعد. رسالة الغفران والكوميديا الالهية. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨ .

ـ ليفين، هاري، انكسارات، مقالات في الأدب المقارن، ترجمة عبد الكريم محفوض. دمشق:

وزارة الثقافة، ١٩٨٠ .
ـ ويليك، رينيه. مفاهيم نقدية. ترجمة محمد عصفور، الكويت، عالم المعرفة العدد ١٩٨٧/١١٠ .
ـ هلال، محمد غنيمي، الأدب المقارن، ط٢ . القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٧ .

المصادر والمراجع في اللغة الفرنسية

- Brunel, P.Pichois, Claude, Roussau, A.M.Qu est-ce que la littérature comparée. Paris: Armand Colin, 1983
- Guyard, Marius- Francois. La littérature comparée. Paris: P.U.F. 1969.

الدوريات العربية

ـ الآداب الأجنبية، دمشق، العدد المزدوج، ٥٠ ـ ٥١ ، ١٩٨٧ .
ـ الرسالة، القاهرة، المجلد الأول، الأعداد، ١٥٣ ـ ١٥٤ ، ١٥٥، ١٥٦د ١٩٣٦ .
ـ عالم الفكر، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث، ١٩٨٠ .
ـ علامات، السعودية، المجلد الرابع، الجزء الرابع، ١٩٩٤ .
ـ المعرفة، دمشق، الاعداد ١٨٢، ١٩٧٧ . ١٩١ ـ ١٩٢، ١٩٧٨ . ٢٩٥، ١٩٨٦ .
ـ الموقف الأدبي، العدد ١٨٦ ، ١٩٨٦ .



ملخص البحث

يرتبط مصطلح الأدب المقارن بالنصف الأول من القرن التاسع عشر، بعد محاضرات آبيل فيلمان التي ألقاها صيف عام ١٨٢٧ ونشر قسم منها عام ١٨٢٨ و١٨٢٩ .

كسب الأدب المقارن بعد «فيلمان» مناطق نفوذ جديدة، أو بالأحرى كسب شعبية في فرنسة وفي كل مكان من العالم، بما في ذلك سورية حيث نشر قسطاكي الحمصي دراسته «منهل الوراد في علم الانتقاد» عام ١٩٣٥. في السنة التالية، كتب خليل هنداوي عدة مقالات في مجلة الرسالة حيث استخدم، للمرة الاولى، مصطلح الادب المقارن.

في جامعة دمشق بدأ الدكتور حسام الخطيب عام ١٩٧١، بإعطاء محاضرات في الأدب المقارن. وخلال هذه السنوات، بدأ الأدب المقارن يعرف كعلم مستقل في سورية.

اشكالية (اللفظ)
في النقوش
والكتـــابـات القـــديمـــة

اشكالية [اللفظ] في النقوش والكتابات القديمة

محمد بهجت قبيسي
محاضر في جامعة حلب

١ ـ إن مباحثات طابا، بين الوفد الفلسطيني والاسرائيلي، في شهر كانون الثاني ١٩٩٤ قررت: أن مسؤولية الآثار المسيحية والاسلامية تكون للفلسطينيين، أما الآثار اليهودية فتكون لاسرائيل(١).

هكذا يصادر التاريخ القديم في المنطقة ليصبح إسرائيلياً يهودياً لاغراض سياسية.

٢ـ وقبلها، يصادر الصهيوني درايفر نقوش الأرض وكلماتها ليضيفها إلى قاموس جيزنيوس القديم ١٨١٥، ويعطيه نفس الاسم (قاموس جيزنيوس) عبري ـ إنكليزي بلعبة ذكية في الاخراج (٢) عام ١٩٥٣.

٣ـ والآن فإن اكثر جامعات العالم تذهب إلى لفظ النصوص بكلماتها، حسب اللفظ العبري، الذي حققه الماسوريون في القرن العاشر الميلادي [نعم في القرن العاشر الميلادي] (٣).*

---

*فمثلاً يلفظون: كلمة يادي يا ؤودي (مملكة آرامية عاصمتها شمأل)، وكلمة فعل: فيعال ف ـ ع ـ ل، وكلمة ملك أو مالك يلفظونها: ميليك بأحرفها م ـ ل ـ ك، وكلمة آية يلفظونها إيت ويقولون ليس لها محل من الاعراب (٤)، وكلمة [أنا، كه] بمعنى أنا: يلفظونها أنوك او أناكو بأحرف ا ن ك، وأهل مدينة حلب يقولون كهنه: بمعنى إكهنها، ها هي، او [كه] بنفس المعنى، وهي لا تزال مستعملة لفظاً، لكن الهاء لا تكاد تسمعها، فإن قلت (أنا، كه) إختلف الموضوع والمعنى كما اختلف اللفظ، ويلفظون جبيل جبلا وهلك هوليخ، وكلمة قرأ تلفظ قرا بمعنى نادى، وكلمة بت نعم قرأوها بتنو عام بأحرفها ب ت ن ع م وبت تعني بنت، أي بنت نعم وهو إسم أم ملك في الساحل الكنعاني الشامي تعطي صفة لنفسها.

وكلمة عز بعل إسم علم يلفظها عزي بعل بأحرفها ع ز ب ع ل. وجملة محسم حارص لـ فيّ أي ـ علبة حمرة شفاه ترعى وتحرس فمي (٥) ـ يقرؤوها محسم حاروس لفّي أي علبة حمرة ذهبية لفميّ. كان الكنعانيون يعتقدون ان الميت بحاجة لتزيين الفم ليكون راعياً أو حارساً من الشياطين [وقد وجدت هذه العادة في قرطاجة وبحر ايجه بالإضافة إلى وضع قطع معدنية مع الميت في قبره أيضاً].

ويلفظون كلمة حوي. حفيبا بالأحرف ح و ي.

وكلمة مفلت يلفظونها مفلات بمعنى أحجار فلتانة أي أنقاض (٦). و [مزرمه]= ماذا رماه(٧).

فمشكلة اللفظ تتجلى بأمرين:
١ـ غياب اللفظ لغياب الاحرف التي تمثل الصوتيات وهي الالف والواو والياء.
٢ـ الاعتماد على ٢٢ حرف فقط لتمثل ٢٩ صوتاً.

أولاً: غياب الأحرف الصوتية:

إن أكثر النقوش القديمة (عدا المسمارية وشيئاً من الكتابة المقدسة المصرية) كتبت بإسلوب مختزل من الأحرف الصوتية: الالف والواو والياء، بالاضافة إلى حركاتها الخفيفة الفتحة والضمة والكسرة (وإمالاتها)، وترك تقديرها للقارىء آنذاك.

وكان القارىء معاصراً لما كتب فاشتركت لديه حواس:
السمع بالأذن والرؤية بالعين واللفظ أخيراً باللسان، ولذلك وبهذه الحواس كان اللفظ سليماً.

يقول ابن جني [العبرة في اثبات الحرف بالنطق لا بالخط، لوجود اللفظ قبل الخط] (٨) حيث ان الكتابة ليست من جوهر اللغة فقد تكلم الناس قبل ان يعرفوا الكتابة طريقاً.

أما المشكلة اليوم أننا نملك الرؤية ولا شيء سواها، وفاتنا السمع وبالتالي فقدنا اللفظ السليم.

وقبل البحث بالوسائل المقترحة للفظ، فلا بد من التذكير بالثوابت التالية:
١ـ إن أنظمة الكتابة منذ فجر التاريخ وحتى اليوم عاجزة عن تلبية متطلبات الصوت (فلا يمكننا تعلم الانكليزية إعتماداً على الكتاب فقط بدون معلم).
٢ـ لابد لمتعلم القراءة السليمة من شيخ يعلمه، لذا وجدنا دائماً عبر التاريخ العربي العدناني هذه الجملة الجميلة: لقد قرأ فلان عن فلان.
٣ـ إن اختلاف نمط الخط لا يعني إختلاف اللغة، فقد كتبت العربية العدنانية على سبيل المثال:
آـ بالحرف الآرامي المربع: كتب به ورقة بن نوفل (٩).
ب ـ بالحرف المسند: رسالة النبي (ص) إلى أهل اليمن (١٠).
ج ـ الحر ف السرياني وسميت بالكرشونية نسبةً إلى قريش(١١).
د ـ وكتبت بحرف الجزم: وهو المستعمل حالياً أو ما دعي بالحرف العربي مجازاً.
هـ ـ كذلك كتبت بخليط من المسند والجزم والهيروغليفية (الكتابة المصرية المقدسة) نقش رم [٢] بجبل رم شمال خليج العقبة(١٢).

كما كتبت الآرامية بالحرف الكنعاني وبالخط المسماري والمصري واليوناني والمربع(١٣).
بهذا نجد أن اختلاف نمط الخط لا يدل على اختلاف اللغة.
ونورد مثالاً آخر معاصراً، فاللغة التركية تركت حرف الجزم العدناني سنة ١٩٢٩

واستبدلته بالحرف اللاتيني، فالسؤال المطروح:

هل تغيير نمط الخط بالتركية أدى إلى اختلاف اللغة؟ بالطبع لا.

٤ـ الثابت الرابع هو ان وحدة الخط لا تدل على وحدة اللغة، فبالمسمارية كتبت كل من السومرية والاكادية والحورية والآرامية وغيرها من اللغات القديمة.

وبالتاريخ الحديث نجد أن الحرف اللاتيني حوى كلا من الجرمانيات واللاتينيات.

٥ـ الثابت الخامس والهام: نود أن نذكر بـ عالم الآرميات الفرنسي دوبون سُوْمر حيث يذكر في كتابه [الآراميون]:

رغم أن الآرامية تتميز بخصائص كثيرة (مثل أداة التعريف فهي ألف في آخر الكلمة) فإنها قريبة الصلة باللغتين (اللهجتين) الكنعانية والعبرية، وتشترك معهما بمصطلحات إلى حد ما. ولكنها أقرب إلى اللغة العربية (العدنانية) من غيرها ولهما مصطلحات لغوية وألفاظاً مشتركة.

أي ان الآرامية قريبة الصلة بالعبرية لكنها وثيقة الصلة بالعربية العدنانية ولها ألفاظ مشتركة معها، لنلاحظ كلمة ألفاظ ما دام بحثنا عن اللفظ(١٤).

٦ـ الثابت السادس والهام أيضاً في موضوع اللفظ ما جاء في قاموس لسان العرب لابن منظور في مادة كنع عن اللهجة الكنعانية:

[كان الكنعانيون يتكلمون بلغة تضارع العربية](١٥).

وعود على ذي بدء: كيف لنا أن نلفظ هذه النقوش وهذه الكلمات لفظاً هو أقرب للحقيقة ما دامت أكثرها لا تحوي أحرفاً صوتية*.

الوسائل البادية لنا:

لدينا من اللهجات الحيّة مايلي:

١ـ العبرية ٢ـ السريانية.

٣ـ آرامية معلولا وبخعه وجب عدين (وهي خلاف السريانية).

٤ـ العدنانية ٥ـ اللهجات العامية على امتداد الوطن العربي.

٦ـ الوزن الشعري أو السجع إن وجد كالامثال.

وأخيراً والهام:

٧ـ اسماء المدن والقرى والاماكن القديمة.

ولا أظن انه بعد هذه الوسائل السبعة شيئاً يمكن ان يعتد به من ناحية اللفظ الذي يعتمد على المسموع تحديداً.

* ـ عندما نجد الالف والواو والياء في الكتابات القديمة، فهي تمثل احرفا ساكنة (صامتة) لا احرف مد، فالياء في كلمة بيت مثلا حرف ساكن وليست حرف مد لعدم تأثيرها على حركة ما قبلها، وكذلك الواو في كلة (موت) ايضا، والياء والواو في كلمة (يوم) أيضا.

١ـ العبرية:

نفرق بين عبريتين: الاولى العبرية الحديثة التي وضعها اليعازر بن يهوذا بين عامي ١٩١١ ـ ١٩٢٢ (١٦)، والثانية التوراتية. فالحديثة المحكية في الاذاعات الآن لا يمكن الركون إليها حيث هي خليط من التوراتية ولغة اليدش والتي بدورها خليط من البولونية والالمانية والروسية (١٧). وهي حديثة العهد ترقى إلى بداية القرن الثامن عشر (١٨) وأنْ متكلم العبرية الحديثة لا يستطيع فهم التوراة. تماماً كالعربي الذي يقرأ الفارسية بأحرفها العربية اليوم.

أما التوراتية القديمة:

١ـ نعلم جميعاً أن التوراتية هي خليط من اللهجتين الكنعانية ثم الآرامية التي نجدها في سفر دانيال وأجزاء من سفر عزرا (١٩)

٢ـ لنرى ما يقوله الماسوريون بعد تحقيقهم وتشكيلهم للفظ التوراة بأحرفه الصوتية وتنقيطه (التشكيل) في القرن العاشر الميلادي، فقد جاء في قاموس الكتاب المقدس ـ ص٧٦٣ ـ ما نصه:

[وقد دوّن الماسوريون الاصطلاحات التي ارتأوها على النص وجعلوها في الحاشية، تاركين للعلماء الخيار في قبولها او رفضها بعد البحث والتدقيق](٢٠).

اذن، ان لفظ التوراة المحقق الآن، يرجع إلى القرن العاشر الميلادي، وهو لا يسمح لنا ان نلفظ الكلمات القديمة، التي يرجع بعض نقوشها إلى اكثر من اربعة آلاف سنة قبل هذا التاريخ.

بل على العكس، ما دامت العبرية التوراتية القديمة مؤلفة من لهجات اقدم وهي الكنعانية والآرامية، فما دمنا نبحث بالأصل ،فباستطاعتنا ايضاً تعديل ألفاظ التوراة (شكلاً) دون المساس بأحرفها الساكنة الاصلية وستفهم فهماً آخر.

واود ان اذكر الأخوة يهود الشرق للكارثة التي اتي بها اللاهوتي بوستيل عام ١٥٣٨ في باريس في [أن العبرية هي ذاك الأصل العتيق مرفوعاً بالمؤثرات الدينية. وأخطر ماألفه بوستيل ذاك الكتاب الذي زعم فيه انه يبحث في الأصول وفي قدم اللغة العبرية والشعب العبراني وفي تفرّع سائر اللغات عنها] (٢١).

وهذا ما دحضته النقوش والكتابات القديمة، بل على العكس فإن العبرية القديمة (عبرية التوراة) هي خليط من اللهجات الكنعانية والآرامية كما بينّا. إن كارثة بوستيل سنة ١٥٣٨ كانت في تضليل فقهاء اللغة العالمين بالاضافة، إلى تضليل اليهود في العالم وخاصة العرب يهودا ومسيحيين ومسلمين، حيث يعتبر بوستيل ان العبرية أقدم اللغات والشعب العبري أقدمها(٢٢).

يقول فِرْدِننْ دوسوسر رائد فقه اللغة الحديث حاسماً هذا النقاش:

(إن اللغة الأقدم هي التي تحوي على كم أكبر من المفردات) مع محافظتها على جذرها

الثنائي أو الثلاثي.

٢ـ السريانية:

لقد دونت السريانية بإشاراتها (تشكيلها) في القرن الثاني أو الثالث الميلادي على أبعد حد (٢٣). كما كثرت المداليـل (مداليل الكلمات) في اللهجـة السريانيـة. فمثلاً: كلمة فِنقِيُـو: تعني متحضر وكلمة طعونو تعني كيس حيث يطعن الكيس بأداة السبر.

ومع أن مدلـول الكلمة ليس موضوع بحثنا ،إلا ان السريـانية كذلك حديثـة العهد نسبياً في اللفظ إلى ثلاثـة آلاف سنة قبل الميلاد. إلا انها تبقـى أحياناً وسيلة لجذر معـاني الكلمات مثل ترين في التدمرية فهي تعني إثنين. ولا ننســى ان السريانية الشرقية (النسطورية) ابقت إلى حد ما بعض ملامح الآرامية وهي الالف آخر الكلمة. بينما احتفظت السريانية الغربية (اليعقوبية) باللاحقة الواو والتي نعتبرها ترخيم التمويم الاكادية الوسيطة وليست ابدالاً لصوت الالف.

٣ـ آرامية معلولا وبخعة وجبعدين (جب عدين):

المشكلة الكبيرة بهذه اللهجة أنها غير مكتوبـة لكننا نركن إلى لهجة بخعة وجـب عدين أكثر من معلولا إلى حد ما، وذلك كون الاولتان نـائيتين من الدخيل لما للأخيرة أي معلولا من إتصال دائم مع الغرباء والسياح لقدسيتها. هذا إذا علمنا ان فقهاء العـدنانية لم يأخذوا عن أهل مدينة الطائف خوفاً من الدخيل.

٤ـ اللهجة العدنانية:

كذلك فإن العدنانية نقطت وشكلت في القـرنين السابع والثامن الميلاديين اي بعد السريانية وقبل العبرية.

لكننا نحترم اولئـك الذين حافظـوا عليها من الدخيـل، فلم يأخذوا إلا مـن منطقة محدودة جغرافيـاً: الخط الشمالي من شـط العرب وحتـى خليج العقبـة والخط الجنوبي، جنـوبي مكة بمسافة لا تتجاوز المائة كم. حتى انهم كما ذكرنا لم يـأخذوا من أهل الطائف التي لا تبعد عن مكة أكثر من ٤٠ كم.

لقد حرمونا كثيراً من الكلمات خارج هذا النطاق شمالاً وجنوباً سواء من ناحية بلاد الشام أو العراق وكذلك مصر وشمال افريقية وحتى اليمن.

ومع ذلك، اعطونا هذا الكم الهائل من الكلمات التي حافظت على جذورهاالثنائية والثلاثية.

علماً اننا لن نأخذها أساساً في اللفظ أيضا كي لا نتهم بالشوفانية (من شوفان) رغم رأي دوبون سومر عالم الآراميات ،أن للعدنانيـة والآرامية مصطلحات لغوية وألفاظاً مشتركة وأن الآرامية هي أقرب للعدنانية منها للعبرية.

إلا انه مهما تجاهلنا العدنانية من ناحية اللفظ (رغم تأكيد دوبون سومر عليها) لكننا لا نستطيع تجاهلها من حيث معاني الكلمات التي حوتها معاجمها ولا سيما معجم لسان العرب لابن منظور.

٥ ـ اللهجات على امتداد الوطن العربي:

نستطيع الاعتماد عليها من حيث المعاني للكلمات واللفظ إلى درجة معقولة حيث لهجاتنا العربيات العامية هي بقايا الأكادية والعمورية / الكنعانية والآرامية وخلافها وليست تطورا للعدنانية فقط كما كان يدعى / ومع ذلك فقد تطورت هذه العاميات أيضاً على مر السنين.

٦ ـ الوزن الشعري أو السجع إن وجد:

نذكر من ذلك ما جاء في الامثال الاجاريتية ما نصه:

إم يصدق بيرشيني تم ! أني ويّا عقشيني

ونذكر المثل العامي المتواتر إلى الآن:

دن° دن° يا دنه° كل مِين° ياخذ من دنٌه°

سنأتي إلى تفصيل ذلك فيما بَعد

٧ـ أسماء المدن والقرى والانهار والاماكن:

ففي بلاد الشام آلاف الاسماء للمدن والقرى والانهار والجبال والبقاع والاماكن .في (سورية) فقط ١٠٠٠٠ اسم لمدن وقرى ومزارع (٢٤) عدا الجبال والانهار، منها ٥٠ ٪ تقريباً أسماء قديمة، جرى التواتر على لفظها منذ بداية العصر التاريخي جيلاً بعد جيل على مر السنين والأيام. فكلمة دمشق مثلاً قد سميت بـ دِمَشْق منذ نشوئها ولم تكن في يوم من الايام دماسك أو دمسك أو خلاف ذلك بل هي دمشق، وهكذا إسم قاسيون وقلمون وكفرون وحرمون وتدمر ودمر ودميرة وبيروت ومصر وعرب صاليم ومكا وحرستا وقرحتا وبردى ويبرود وجيرود ومزة وأرزة وبرزة وراقودا وكفر بطما والكفر. ويعفور وصبرا وصبورة وشقوقا فهو تواتر دائم يمكن ان نركن اليه ونحترمه. وبهذا ، وفيما إذا وصلنا إلى معاني هذه الكلمات فيمكننا ان نؤلف معجماً عمورياً كنعانياً آرامياً ممتازاً.

وسائل اللفظ المقترحة:

ذكرنا ان اللفظ السليم لا بد من قراءته على معلم لتشترك ثلاث حواس مع بعضها: سماعاً بالاذن ونظراً بالعين ونطقاً باللسان، وكما قلنا، ولتصحيح عمليات النطق واللفظ للوصول إلى طريقة تتصف بالعلمية المنهجية قدر الامكان، فيجب ان نتبع ما تيسر لنا من الآثار اللغوية التالية:

١ـ اسماء المدن والقرى والاماكن الجغرافية.
٢ـ الوزن الشعري او السجع إن وجد
٣ـ اللهجات العامية وبتحفظ كبير.

التفصيل:

وسيلة اللفظ الاولى:

فبأسماء المدن والقرى والاماكن الجغرافية على امتداد الوطن العربي وفي جغرافية [الآرامية الامبراطورية] الممتدة من السند إلى الاطلسي شرقاً وغرباً، ومن الممالك الآرامية وحتى أسوان شمالاً وجنوباً، نستطيع الحصول على لفظ سليم بهذه اللهجات بشرط أن نعرف معاني هذه الاسماء الجغرافية.

لقد ثبت لدينا، في الخبرة لا الخبر، ان اسماء هذه المدن والقرى والاماكن تحمل دلالات ثلاث لا رابع لها.

١ـ أسماء ذات دلالات طبيعية مثل: قاسيون ـ ميسلون ـ قلمون ـ كفرون ـ حرمون ـ جسرين ـ بردى ـ يبرود ـ صوبا ـ شقوقا ـ دمشق.

٢ـ أسماء ذات دلالات عسكرية: حرستا ـ قرحتا ـ بقرحا ـ ماري ـ دمر ـ دامور ـ دميرة.

٣ـ أسماء ذات دلالات دينية مثل: بابل ـ ببيلا ـ سرجلا ـ بليرمون ـ قدسيا ـ هابيلا .

المنهج:

قبل البدء بتجريب تفسير هذه الاسماء لابد من الاشارة إلى قانون علمي هام للمنهج التجريبي:

يقول ابن حزم:

[والتجارب لا تكون إلا بتكرير الحال مراراً كثيرة جداً على صفة واحدة لا تستحيل ابداً، تكريراً موثوقاً بدوامه تضطر النفوس إلى الاقرار به].

ويقول ابن البيطار المالقي:

[فما صح عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لي بالخبرة لا الخبر، إدخرته كنزاً سرياً وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه، سوى الله غنياً (اي انه بهذه الحالة لن يستعين بأحد سوى الله). وماكان مخالفاً في القوى والبيئية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق، وان ناقله او قائله عَدَلَ فيه عن سواء الطريق، نبذته ظهرياً، وهجرته مليا وقلت لناقله أو قائله لقد جئت شيئاً فريا] (٢٥)

قبل البدء ايضاً لابد من التذكير بالقواعد التالية:

١ـ ان جذر الكلمة يجب ان يكون ثنائياً او ثلاثياً. وإن كان رباعياً او خماسياً فقطعاً تكون

الكلمة مركبة، قد ننجح بمعرفتها او لا ننجح.

٢ـ من اشهر اللواحق الكنعانية هي الواو والنون مثل : صيد = صيدون ـ خالد = خلدون ـ قاسي = قاسيون ـ حرم = حرمون.

٣ـ من اشهر اللواحق الآرامية اداة التعريف الالف بآخر الكلمة مثل:

البرد =بردا (بردى) ـ الحارسة =حرستا ـ الشقوق = شقوقا

٤ـ اللاحقة الآرامية (ين) أداة جمع في حالة النكرة مثل: شمسين ـ جملين ـ جسرين ـ ماردين.

٥ـ اللاحقة الآرامية (يا) أداة جمع في حالة التعريف حيث الالف تأكل النون وتخفيها مثل: قدسي = قدسين جمع تعريفها قدسيا أي القدسيين.

٦ـ السوابق: ذا ـ ذو ـ ذي / دَ ـ دُ ـ دِ / زَ ـ زُ ـ زِ / تا ـ تو ـ تي/ وشا وشو وشي*.

٧ـ السابقة (الباء) وهي ترخيم لكلمة بيت مثل: بملكة = بيت ملكة.

٨ ـ عرفت بعض الاسماء بصيغة الفعل فأقول: زاد تزيد يزيد ـ غلب يغلب تغلب ـ ناخ ينوخ تنوخ.

التفسير:

الاسماء ذات الدلالات ا لطبيعية:

ـ قاسيون: قاسي + ون = قاسيون وهو بالفعل جبل قاس ليس فيه نبع أو عين ماء» ونحن نعلم بأن الجبال هي خزانات مياه وقاسيون هو جبل دمشق، اي لاسم قاسيون مدلول طبيعي.

ـ ميسلون: بدون (ون) تكون ميسل وهي تصغير مسيل وهي منطقة دائمة السيلان بالمياه ٣٠كم غرب دمشق (وبهذا المسيل وروابيه جرت معركة ميسلون الشهيرة) أي للاسم مدلول طبيعي.

ـ قلمون: قلم ـ قلمون ـ هي ثلاثة اقلام من الجبال تتجه شمال جنوب وفي القلم الغربي منها قرى معلولا وبخعة وجبعدين (جب عدين) وكلمة قلم ليست يونانية كما كان يظن بل وردت في قاموس AKKADIAN DICTIONARY بمعنى أداة للنقش وتعني عملية تقليم الاشجار ايضا. اذن الاسم ذو مدلول طبيعي.

ـ كفرون: كفر ـ كفرون ـ كفر في اللغة تعني غطّى ولها مدلول دينِي بمعنى غطّى الحقيقة. والكفر هو المنطقة الجرداء التي زرعت فغطيت بالاشجار ومنها الكفّار بمعنى الزرَّاع جاء في القرآن الكريم سورة الحديد[٢٠](٢٦).

[كغيث يعجب الكفّار نباته] أي مطر يعجب الزراّع نباته كما جاء في سورة آل عمران[١٩٣](٢٧).

* ـ شا في الاكادية بقيت لتعني (ذا، ذو، ذي)، أما شي و شو، فقد اخذت مدلول هي وهو (شي=هي، شو=هو)

﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا﴾ (أي غطي عنا سيئاتنا).

وإن انتشرت الاسماء والكفور في مصر فلا ننسى الآرامية الامبراطورية في القرن السادس ق.م على أدنى حد والتأثير العموري الهيك سوسي في القرن ١٨ق.م.

وفي عملية اللفظ في كفر فلدينا الألفاظ التالية : كفر العواميد ــ كفير الزيت ـ كفر بطنا (بطما) وجميعها قرى حول دمشق. والكفرة في ليبيا. أي أسماء كفر ـ كفرون ذات مداليل طبيعية أيضا.

ـ جسرين: اسم قرية بغوطة دمشق جذرها جسر والياء والنون صيغة جمع النكرة في الآرامية فيصبح معناها جسور وفعلا نجد في هذه القرية خمسة جسور لنهر بردى وأفرعه وهي:

من الجنوب إلى الشمال: جسر بردى ـ جسر الملك ــ جسر الزابون ـ جسر جعيطة ـ جسر الداعياني.

ـ بردا (بردى): الألف أداة التعريف الآرامية فيصبح معناه البرد من البرودة. مدلول طبيعي.

ـ يبرود: جذرها برد اسم بصيغة الفعل مصغر وهي بلدة بجبال القلمون الغربية، باردة الطقس ذات مدلول مناخي طبيعي.

ـ جيرود: بلدة تبعد عن يبرود حوالي ٣٠كم وهي تقع في بادية الشام، أراضيها ذات طبيعة جرداء من الناحية الزراعية، فهي ذات مدلول طبيعي. وكم من المفيد ان نلاحظ الطباق بين يبرود وجيرود تماما كما في مزة وبرزة قرى حول دمشق.

ـ صوبا: ذات مدلول طبيعي ايضا ،سميت بهذا الاسم منطقتان الاولى غرب دمشق تبدأ من هابيلا (سوق وادي بردى) وحتى سهل البقاع ويقال أن مكان عاصمتها هي عنجر اللبنانية. جذرها (صب) والالف اداة تعريف وهي منطقة ذات خطوط مطرية تصل حتى ٨٠٠مم في السنة علما ان دمشق مطريا تصل إلى ٢٥٠مم. والثانية ،منطقة صوبا غرب حمص، والسوريون يعرفون كمية هطول الامطار في المنطقة مابين تل كلخ وصافيتا وطرطوس فيصبح معناها الصوب /صوب/ صيب/ من فعل صبّ (أي سكب)، صبّ الماء سكب الماء في الكأس، جاء في القرآن الكريم: ﴿أو كَصَيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ منطقتان مشهورتان بكميات امطارهما وتعتبران منَ المناطق الاكثر هطلا في كافة انحاء سورية.

ـ شقوقا: منطقة في صوبا بأراضي ميسلون ومعناها الشقوق، ان ميكانيكية التربة في تلك المنطقة مختلفة كما انها ذات انفلاقات جيولوجية كبيرة، وعلى سبيل المثال فانك تجد بئرين الاول: في قمة الجبل ١٢٦٣ متر عن سطح البحر، ومستوى مياهه عن السطح الطبيعي لاتتجاوز ٥٠ مترا، ويبتعد بئر اخر عن مكان البئر الاول و لمنطقة منخفضة وتبعد ١٠٠ متر

عنه فإن مستـوى المياه الجوفية فيه تبلغها على عمـق ١٣٠ مترا .فهي ذات مدلول جيـولوجي طبيعي.

ـ دمشق: جذرها رباعي [د م ش ق] إذن هي كلمة مركبة فإذا حذفنا السابقة د(من ذا و ذو و ذي/ودَ ودُ ودِ) نحصل على جـذر الكلمة مشـق. نبحث عـن معنى مشـق فنجده يحمـل معنى أنتـج /نما/ فهي أرض النمو والإنتـاج و(د) واضحة المعنى (ذي) مشـق مستعملة في العامية الزراعية بـدمشق فتقول النسوة مشقت أغصان الملوخية أي أنتجـت ما في الغصن من أوراق. ومع ذلـك، هذا لايكفـي فلدينـا الآن دليل لغوي فقـط، لكن إذا نظـرنا إلى ميـاه دمشق الجوفية من خـانق الربوة وحتـى المصب في بحيرة العتيبة نجدهـا بين الـ٨أمتار والـ ١٨ مترا فقط.

كذلك نجد أن في «السـابقة الدال(د)» في كل من الاسماء التالية: دمشق ـــ دمياط ـ دِسوق (وليس دُسوق) هكذا يلفظهـا أهلها ودمشقين وهي قرية جانب الفيوم يصفهـا ياقوت أن فيها بصل كـالبطيخ (مـن خصوبـة الارض)(٢٨) ودمقش(٢٩) في دلتـا النيل وهـي قلب مكـاني لدمشق ودِ روما ودجرجا (ياقوت الأولى ص ٢١٥ والثانية ص٣١٨).

سبعة بدايـات توافر فيها التكرار لهذه السابقـة (د) أما اسم مشق كما ذكرنا فـاننا نجده ايضا في كل من:

دمشق ـ دمشقين (وهي صيغة جمع آرامية لدمشق) ودمقش ـ مقش كما قلنا قلب مكاني لـ مشق.

وأخيرا هناك قـرية في محافظة الـلاذقية ذات خصب ونمو وإنتـاج اسمها مشقيتا جـذرها أيضا مشق وتطورهـا اللغوي: مشقة= مشقيت (يت لاحقة كنعانية قـديمة) مشقيتا . وهناك شجر يسمى جَرْ مَشـق وهو شجر ينتج من مائه السكر(٣٠). وهنا حسـب المنهج التجريبي نجد التكرار في جذر مشق ٥ مرات أيضا فاسم دمشق ذو مدلول طبيعي أيضا.

ولنأتي الآن إلى الاسماء ذات الدلالات العسكرية:

حرستـا: جذرها حرس والتـاء للتأنيث والالف أداة تعـريف آرامية إذن معناهـا الحارسة. وهي عبارة عـن نقطة مراقبة أولية لمدينـة دمشق من الجهة الشرقية الشماليـة يقول (محمود محفوض) في تاريخ حـرستا ان حرستا لم تنج يوما مـن الحروب(٣١) حيث أنها على الطريق الشمالية الشرقية وهي ذات ممر اجباري استراتيجي وحـرستا المنظرة أي للمراقبة بدأت فيها حروب احتلال دمشق أكثر من مرة.

وهناك حرستـا اخرى من قرى حلب فيها حصـن عظيم ومياه غزيرة(٣٢) فاسـم حرستا ذو مدلول عسكري.

قرحتا: بمعنى القرحة، الذبحة ذات مدلول عسكري.

بقرحا: بمعنى بيت القرح أي بيت الذبح، وهـي قرية من قرى محافظة ادلب شمال سورية

في جبل باريشـا فهي قرية مبنية داخل اضراس صخـرية ترتفع بين ٣٠ـ٧٠سم وهـي موانع عسكرية طبيعية ضد الافراد والفرسان.

ماري: جذرها (مر) ،ومعنى المر القوة، جـاء في القرآن الكريم [ذو مرة فاستوى](٣٣) أي ذو قوة فـاستوى، ومعنى ماري هنـا بمعنى القوي ـــ الماري. وقد سمي المرّ مراً لقـوة طعمه وسمي الممـر ممرا للقوة التـي عملت به ليصبح ممـرا وسمي السيد بـالسريانية مـار لان من صفـات السيد القـوة أي الماري بمعنـى القوي، اسـم ذو مـدلـول عسكري. ولاننسـى أن في الامارات العربية بلد اسمها ماري.

تدمر: جذرها دَمَر، ومعنى دمر في لسان العرب دمّر حيث التشديد (التكرار) يفيد التأكيد. وقلنا ان العربيات عرفت الاسماء بصيغة الفعل:

فأقـول زاد تزيد يـزيد الخ... وهنـا دمر يدمر تـدمر فهي المدينـة التي تدمـر. لم لا حيث لايصلها لوعورة طرقها وانقطاع الماء بطرقهـا الشرقية والشمالية والغربية والجنوبية، علما أن طول المسافـة لاقرب مدينة منها ينـوف عن الـ ٢٠٠كم، فهـي المدينة التي تدمر عـدوها، وقد بقيت عـاصمة البادية بعـد دمار ابلا لفترة طـويلة. وقد ذهـب الى هذا التفسير أيضا شاعـرنا المتنبي (٣٤).

دَمَرْ: الاسـم القـديم لمدينة دورا اوروبوس. وقـد اعتبر البعض أن اسم دمر فيـه إبدال بين الواو والميم وبـذلك أصبح اسمها السابـق (دور) دَمَرْ، ولا أظن ذلك: حيـث لم أجد مثيلا لهذا الابدال في العربيات من الاكادية وحتى السبئية.

دُمَّرْ: تقع غرب دمشق، في خانق جبلي، يقطعهـا نهر بردى وهي مركز استراتيجي عسكري دفاعي هام لدمشق، وهي الممر الاجباري لدمشـق غربا لعشرين سنة خلت. جذرها دمَرَ أيضا وتحمل معنى التدمير. ذات المدلول العسكري.

دامور: جذرهـا دمر وهي على وزن فاعول وفـاروق وحاسوب وطاروق (مدلـول لساقية الماء عند السقايـة) وناقور* تقع في لبنان على السـاحل الكنعاني. زرتها سابقا لكنـي لا أتذكر موقعهـا تفصيلا وأظن أنها الآن مـوقعا حصينا لقـوات الجبهة الشعبية الفلسطينيـة ومنطقة الناعمة تابعة لها.

أما الاسماء ذات الدلالات الدينية فاظنها معروفة لدى الكثيرين لكن لابد من التذكير بها:

بابـل: كلمة مركبة مـن باب بالاضـافة الى ئيل (رب الاربـاب) فهي تعني باب اللـه. ئيل في القواميس العدنانية هو الله.

ببيلا: كلمة مركبـة من باب بالاضافة إلى اللـه فبالادغام اصبحت ببيلا وهي قـرية جنوب دمشق. وفي عاميتنا نقول(بابْلّلا).

* ـ هذا الوزن فاعول موجود بالقرآن الكريم في سورة المدثر بكلمة ناقور، ﴿فاذا نقر في الناقور﴾ ٨. ٧٤

سرجلا: قريــة في محـافظة ادلب، مركبة مــن سراج بالاضـافة الى اللــه فهي سراج الله*. ذات مدلول ديني.

بليرمون: جذرها [ب ل ر م ن]خماسية إذن هي كلمة مركبة، يذهب محمد محفل ليفك هذا التركيب فيجد انها مـؤلفة من: بـ (ئيل رم ون) أربع مقـاطع فالباء ترخيم بيـت كما في بقرحا وئيل هو الله ورم بمعنى العالي والواو والنون لاحقة كنعانية فيصبح المعنى بيت الله العالي.

[بـ ئيل رمون] ثم اصبحت بالادغام بليرمون وهي منطقة من مناطق حلب.

وبعد، لقد رفضت المدرسة التوراتية تفسير اسماء العلم لخطورتها على لسان بول قال: درايفر في مقدمة قاموس HEBREW AND ENGLISH LEXICON OF THE OLD TEST-MENT الذي أشرنا اليه سابقا. أي قاموس جيزنيوس.

يذكر درايفر: [ولاسبــاب مماثلة لم يرغبوا في اتباع طـريقة بُوْل BUHL بالنسبة لاستبعاد وحـذف تفاسير اسماء العلـم رغـم خطورة مثـل هـذه التفـاسير](٣٥) أي أن بول نصـح في استبعاد تفاسير اسماء العلم كاسماء المدن والقرى لكن مجمـوعة درايفر لم ترغب في ذلك رغم خطورة مثل هذه التفـاسير. (ومع ذلك لم نجد شيئا على الساحة اللغويـة الجغرافية حتى الآن على مانعلم). هناك البعض لكنه واهٍ.

نعم، هناك خطـورة لدى التوراتيين في تفاسير الاسماء لان قـواميسهم والفاظهم لـن تلبي الحاجة ولانهم بحاجـة لاستعمال القواميس العدنــانية والتي تكمن فيهـا الخطورة والاعتراف بالعدنانية.

إن ٩٥٪ من تفاسيرنا لاسماء القرى والاماكن العموريـة الكنعانية الآرامية التي اتينا عليها كان من القواميس العـدنانية ولاسيما قاموس لسان العرب لابن منظور رغـم رجوعنا إلى كافة القواميس الاخرى من عبرية وسريانية ويونانية .

وعود على ذي بدء مرة اخرى، فالاسماء الانانية للمدن لم تعرفها العربيات، لهجات المنطقة ك بحيرة فكتوريـا والاحمدية مثلا، انما وجـدت هذه الاسماء الشـخصية الانـانية مع بـدايات الفتح المقدوني وسياســة تغيير الاسماء، فأطلقوا اسم انطاكية على دفنـا واللاذقية على راميتا وطرطوس على قـرنا والاسكندرية على راقـودا وبروا على حلب وابيفانيـا على حماة وفيلادلفيا على عمان وبالميرا على تدمر ودوماسكوس على دمشق وهكذا.

وعند الفتح العربي العدناني الاسلامي أعاد أهالي البلاد (وليس العرب العدنانيون) اسماء هذه المدن إلى سابق تسميتها بعد استعمار دام زهاء الالف عام.

وفي ختام بحث اسماء المدن والقرى وتطبيقا للمنهج التجريبـي ولزيادة الحيطة، فلا بدلنا لتحقيق هذه الاسماء بمعانيها والفاظها من شرطين:

---

* ـ لفظ الجلالة اللا (الله) موجود بالارامية في الاسم الارامي لمدينة رام الله في فلسطين، وهي ذات مدلول ديني بمعنى علوة الله (ارتفاع الله) من كلمة عالي، ونستعملها بعاميتنا بلفظ (اللا).

١ـ اتمام الـزيارة الميدانيـة من المحقق لهذه الامـاكن للتأكـد من المعنى ان كـان طبيعيا ام عسكريا ام دينيا.

٢ـ ومن شروط معنـى الكلمة وتحديدها، انها إذا وضـعت في الـجملة يجب ان تعطــي اتساقا في النص والجملة، لتعطي جملة مفيدة.

أما الجملة لتفسـير اسماء المدن فهي أن تتسق وتنسق ضمن قانون اسماء المدن والاماكن، طبيعيا أو عسكريا او دينيا بمـدلولاتها الثلاثة وإن خرجت عن هذه المداليـل الثلاثة فالتفسير يكون مرفوضـا..

وسيلة اللفظ الثانية:

إن الوزن الشعري كثيرا مـايساعد على تسكين ماكنا نظنــه متحركا أو تحريك مـاكنا نظنه ساكنا وتشديد (تكرير) ماكنا نعتبره عاديا أو مد ماكنا نعتبره حركة بسيطة او العكس.

لقد ورد في تراث الامثال الاجاريتية:

ʾim ʾeṣdaq pi yaršī ʿeni

tām ʾāni wayya ʿq ʿšeni

إم　ي ص د ق　ب ي　ي ا ر ش ي　إ ن ي

ت ا م　أ ن ي　و ا ي ي ا　ع ق ش ي ن ي

نقرأها: إم يصدق برشيئني تم! أني ويّا عقشيني [عقش تعني جمع]

اللفظ لايستقيـم شعريـا في كل من يـرشيئني وفي أني بل يجب ان تـدغم همزة يـرشيئني لتصبح يرشينـي مثل عقشيني. و[أني] يجب أن تشدد بها النون لتصبح انّي وبـذلك يستقيم اللفظ: ام يصدق بيرشيني تـم أنيّ ويّا عقشيني، تم في المصريات هو فعل إثبـات يراد به النفي (فعل استـهزاء) (تريأه) وبذلك يصبح المعنى إم بمعنى إن.

إن يصدق بيرشينـي، تمام (تم) أني وإياه اجمعني (لاحـراجه)، مثال آخر في لفـظ السجع لكنه متوارث سمعا ونظرا ولفظا عن السبئية في الحديث الشريف وأنا سمعته من مفتي سورية الشيخ أحمد كفتارو. أي أن اللفظ وصلني سماعا وليس قراءة فقط.

جاء رجل من اليمن وسأل النبي (ص) قال:

هم منم برم　صيامن فيم سفر

فأجابه النبي (ص):

ليس منم برم　صيامن فيم سفر

أي: هل من البر صيامٌ في السفر

كان الجواب: ليس من البر صيام في السفر

جاء في كتاب مختارات مـن النقوش السبئية لبافقيه وزملائه، أن اداة التعـريف في السبئية هي النون كلاحقة ، وأن أداة التنكير هي الميم كلاحقة ايضا.

لنرجع إلى النص ،فمن ملاحظة بسيطـة، يتبين أن الميم وصلت في نهايات الكلمات كلواحق إنما في واقع اللفظ هي سوابق للكلمات التي تليها فتصبح كتابتها:

هم من مبر مصيامن في مسفر

ليس من مبر مصيامن في مسفر -

يقابلها اللفظ بالعدنانية بكتابة عروضية.:

هل من لبر لصيامن في السفر (اللام في السفر شمسية لا تلفظ)

ليس من لبر لصيامن في السفر (اللام شمسية لا تلفظ)

هذا فعلا ماننطقه بحالة الوصل أثناء التعريف بالعدنانية.

فأقـرأ :قرأت في لكتـاب. لكن نكتبها حسـب (اصطلاحنا) العـدناني الامـلائي (في الكتاب) لكننا لانلفظ الالف والتي هي في المدرسة البصرية الـ : الالف للتنبيه واللام للتعريف.

إذن، نلاحـظ نقض نظرية بـافقيه (الا ان كانت مـوجودة في السبئيات الاقدم كـالحميرية. ومما يؤيـد ماذهبنا اليه في ان الميـم هي سابقة للتعريـف وليست لاحقة، هو مـاجاء في آرامية معلولا فنقول:

زنبل خلبا أو زنب لخلبا

بمعنى ذنب الكلب وتلفظ بدون الف ذنب لكلب، وإذا اسقطنا السبئية عليها تصبح زنب مخلبا او زمبم خلبا.

وبهذا تكون الميم السبئية ابدال لـ لام التعريف (حسب المدرسة البصرية كما ذكرنا).

من ذلـك نلاحـظ أن سلامـة اللفظ التـي وصلتنا نستطيـع أن نفسر اشياء كثيرة وبـدون سماعها ولفظها لغاب عنا الكثير في فقه اللغة.

وما نريد من هذا المثال أيضا، أن قراءاتنا وقراءات المستشرقين للنصوص لا تستوفي ماكان عليه السلف، أصحاب الاكـادية والكنعانية والعمورية والآرامية والمصريـة والسبئية، وبالتالي غاب عنا لفظها حيث فقدنا السمع.

وسيلة اللفظ الثالثة:

اللهجات العاميـة على امتداد الوطن العـربي: في هذه اللهجات وهذه الطـريقة يجب التحفظ بصورة كبيرة.

ورد في المثل العامي مانصه:

دن دن يادنه كل مين يأخذ من دنّه

نعرف أن أكثر معنى شائع في الآرامية لكلمة دنّه هو (الذي) ذا إنه لكن من سياق هذا المثل

نجد أن دنه الاخيرة تعني مثيله

اللذي اللذي يا الذي كل مين يأخذ من دنّه (أي مثيله)

وهنا نرى أن جذر دنـه هو دن، ودن هي قلب مكاني لكلمة ند التي تعنـي مثيل، لذا أصبح لدينا معنى آخر لدنه والتي وردت في الكتابات القديمة (زنه) بمعنى (زا إنه).

ودنه بمعنى (د انـه) بالنبطي وتعني (ذا إنه) أمـا دنه الاخيرة فهي من نـده مثيله فتصبح بالقلب دنه.

هذا المعنى الجديد واللفظ الذي حصلنا عليه من العامية ساعدنا في قراءة التعرفة الجمركية التدمرية فقد جاء مانصه:

ي ف ر ع ل ك ل م د ا م ن ن م و س ا د ن ه   سطر ٧١

يفــــرع لكـــل مــــدا مــن نـامــوســا دنـــه

أي : يفـــرع لكــــل مــــدا مــن النـامـــوس مثلـــه

و سطر اخر

ل ك ل م ي ا د ن ه   سطر ٨٤

لكــــل ميـــا دنـــه

أي : لكــــل مئــــة مثيـــه

ونقول في اللهجـة العربيـة العاميـة الحلبية [أنا ، كـه] كتبت في الكتـابات القـديمة (أن ك) ولفظوها (أناكو) بمعنى أنا، لكن تواتر اللفظ وسماعه فسر لنا معناها وصحة لفظها.

ومن تراثنا الغنائي العامي نجد أغنية:

عل يادي الـ يادي الـ يادي (ويادي تعني وادي)

منها نقول في إبدال الواو ياء:

يهب بمعنى وهب، ويتر بمعنى وتـر ، ياقوصة بـ واقوصه وكـذلك يادي بمعنى وادي وهي أغنية مـن أقدم الاغاني إذا ماعـرفنا ان مملكة يادي الآراميـة التي عاصمتها شمـأل تقع فيما يسمى اليوم لواء اسكندرون وفيها الوادي اللاخ الوادي العميق، وادي العمق.

بذلك نكون قد حددنا لفظ يادي من التراث الغنائي والمصنف تحت اسم اللهجات العربيات العامية.

بالاضـافة إلى إكتشــاف أقدم أغنية تاريخية عرفناها حيـة الاستعمال إلى الآن (كأغنية عبد

الوهاب ياجارة الوادي).

فيكون اللفظ يادي وليس ياؤودي حيث العبرة في اثبات الحرف بالنطق لا بالخط كما يقول ابن جني(٨).

ومن لهجاتنا العامية كلمة:

هيك بمعنى هكذا في بلاد الشام

وهاك بمعنـى هكذا في اللهجة العـربية البربرية الشلحيـة في المغرب العربي. جـاء في نقش البرازيل ١٢٥ ق.م: في النص:

هـ ح ن ا ب ن ك ن ع ن م ف ر ن م

هـا حنـا بنـي كنعـان م فـرنـم

ح ق ر هـ ح م ن ا ش ح ر ح ص ل هـ ك

حـق قاريـه حمـل أوش حـر حصـل هـاك

هيـك

في اللسـان لابن منظور: ١٥/ ١٧٨

أهل القارية للحاضرة وأهل البادية لاهل البدو

وجاءني من كل قار وباد أي كل متحضر وبدوي

قاريه: حضارة مدلول من قريت او قرتا بمعنى المدينة

فيصبح المعنـى: ها نحن بنـي كنعان من مـدينة فرنيـم حملنا الحضـارة، أليـس حرام أن يحصل بنا هكذا .

والامر الادهى مانقابله في مدرسة الكتابات المصرية القديمة، فقد ذهبت مدارس الاستشراق اللغوية للمصريـات باستعمالهم عمليات الكسر (الخفض) لاغلب الاحـرف الساكنة، متبعين في ذلك المذهب السنسكريتي اللغوي (حيث السنسكريتية من اللغات الهندو - اوروبية)، فمثلا كلمـة وَبَان بمعنـى أشرق تكتب وِبـِن، ولو فـرضنا أن كلمـة مَروْان مـدونة في الهيروغليفيـة ( )بـدون أحَـرف صـوتيـة م ر ن فسيلفظـونها حسـب المدرسـة السنسكريتية مِرنْ بدل مروان فذهب اللفظ والمعنى(٣٦).

ومن نافلة الأَمثلـة ماقرأه أحد المستشرقين الفرنسيين بحلب ١٩٩٢ بمـدرج جامعة حلب، لكلمة خبط وم، فقـد قرأها خباتوم، مـاذا نفهم من هذا اللفظ وهـذا النطق، قطعا لاشيء، إلا أن

حس المؤتمرين العرب في الندوة جعل أكثرهم ينــادون أن خباتوم هي خبط أي خبطوم، بمعنى الضرب، وهي كلمة تحمل معنــى العنف والقوة والضرب. وهي كلمة موجــودة لدى ابن منظور خبط ـ يخبط ـ خبطا أي ضرب ـ يضرب ـ ضربا شديدا(٣٧)، وهي فصيحة لكنها من الكلمات المهجورة في العدنانية (الفصحى). وظننا جميعنا في حينهــا أنها من العاميات المتوارثة التواتر. ومما يجعل تفسير خبط (وم) أنها تحمل معنى القــوة والعنف والضرب هي أنها كانت مسمى لفئة مقاتلة مرتزقة في منطقة الخابور.

ثانيا: مشكلة الاعتماد على ٢٢ حرفا لتمثل ٢٩ صوتا:

في هذه الحالــة، يغيب لدينــا شكل ٧ أصوات، انما، ومــن المرجح، أن هذه الاصــوات ممثلة بأحد الاحــراف السابقة. وبذلك تمثل بعــض أشكال الاحرف الــ٢٢ صوتين أو ثــلاثة أصوات كما هو جلي لــدينا في حرف الجزم (بشكــل حرف الحاء) فهــو يمثل (ج، ح، خ). وكذلــك الدال والراء في الآرامية .

والدليــل الثاني على وجود أكثــر من ٢٢ صوت، ماورد في الابجــدية المسمارية الاجــاريتية والتي مثلت كل صوت بشكل حرف مستقل تقريبــا. ففي الابجدية الآرامية، نرى غياب سبعة أصوات:

الغين	الخاء	والضاد	الذال	الظاء	الثاء	الهمزة
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧

وقد يتبادر للــذهن أن الاحرف التي ندعــي غيابها أوجدتها عبرية الماسوريين الــذين أخذوا بعضــها من السريانية مثل:

عبري ماسوري (القرن ١٠ ميلادي)				سرياني غربي (القرن ٢ / ٣ ميلادي)			
בּ	= ب	ב	= ف v	ܒ	= ب	ܒ݂	= v = ف
גּ	= ج مصرية	ג	= غ	ܓ	= ج مصرية	ܓ݂	= غ
דּ	= د	ד	= ذ	ܕ	= د	ܕ݂	= ذ
כּ	= ك	כ	= خ	ܟ	= ك	٢٠	= خ
פּ	= ف	פ	= بي p	ܦ	= ف	ܦ݁	= بي p
תּ	= ت	ת	= ث(٣٨)	ܬ	= ت	ܬ݂	= ث

هذا الامر نشــك في صحته (بالعمق التــاريخي) لهذه الابدالات، ولو أوجدت العبريــة بعض القواعد للفظ الكاف خاء على سبيل المثال حيــث طبقت القاعدة المستحدثة على اللفظ ولم يطبق اللفظ ليصبح القــاعدة، ونجد ما يخالف ذلك في التعــرفة الجمركية التدميريــة على سبيل المثال فقد جاء في السطر ٤٦+٤٧ في عملية جباية الرسوم على بنات الهوى مايلي:

ا ف   ي ج ب ا   م ك س ا   م ن   ز ن ي ت ا   م ن

أوف   يجبى   مكسا   من   زانيتا   مِنْ

م ن   د ي   ش ق ل ا   د ي ن ر   (أو)   ي ت ي ر

مَنْ   دي   شقلا   دينر   أو   يتير

د ي ن ر ا   ح د   م ن   ا ت ت ا

دينارا   حد   من   آتيتا (٣٩)

الكلمات العربية الميتة الاستعمال في هذا النقش:

١ ـ أوف بمعنى ايضا. نجدها باقية فقط في تراثنا الغنائي.

٢ ـ شقلا: شغلها.

٣ ـ يتير: يزيد: جاء في سورة محمد الآية[٣٥](٤٠) ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم ولم يتركم اعمالكم﴾. يتركم اعمالكم أي: ينقصكم اعمالكم.، وهي من التضاد مثل ما جاء في الارامية: عسر = يسر، عشق= ظلم، بغض، وشب = وثب = جلس(٤١).

يصبح المعنى: [ايضا يجبى المكس من الزانية مِنْ مَنْ التي شغلها دينار أو يزيد دينارا حد من الآتية (هذا العمل)].

هنا نقف قليلا لنرى، هل شقلا من (الثقل والشقل) بمعنى الاجر ام شقلا من الشغل. أم لا هذي ولاتلك ،وأن أصل كلمة شغل هي الشقل أم العكس. وان كانت الاخيرة فهل صورة القاف في التدمرية تمثل ايضا صوت الغين.

= ق = غ مثل: = د = ر

أمور تحتاج إلى دراسة وتمحيص من قبل الباحثين العرب:

ومن التصحيحات في اللفظ التي نرى فيها مجال القرار والقطع هي:

حَرَمون وليس حرُمْون

مثل قاسيون وكفرون وميسلون وعجلون وكلها مثل خلدون هكذا لتواتر لفظها جيلا بعد جيل وهكذا ينطقها سكانها.

كذلك كلمة جبيل وليس جبلا

ومملكة يادي وليس ياؤودي، لانزال نستعملها في تراثنا الغنائي عل يادي. . . بمعنى وادي

وهي مثيل: وهب ويهب، وتر ويتر ، واقوصة وياقوصة، وكذلك كلمة [أنا، كه] أنوك أو خلافها

أي توكيد لانا (أنا أكهني) أنا اقشعني ـ أنا انظرني امامك انا هنا، أتت في الاكادية [أنا، كو] وهو لفظ قريب من المقترح.

ومن نافلة القول، أن نذكر بأن صوت الضاد لمسناه في الكنعانية في نقش [بيض ملك] والمعروف بنقش بيحيميليك ،علما ان صوت الضاد أصبح وجوده في الابلائية أكيد بكلمات وضائم(٤٢)وحامضوم(٤٣) بمعنى وضوء وحامض.

ومع ذلك:

ولكأني استنهض اولئك العروبيين من قبورهم: أكاديين وعموريين وكنعانيين وآراميين وسبيئيين على اختلاف لهجاتهم، استنهضهم من قبورهم ليرنوا ويسمعوا كيف نتكلم ونلفظ لهجاتهم. وكأني أراهم يبتسمون استظرافا بلكنتنا في لهجاتهم. لكنهم سيغشى عليهم ضحكا حين يسمعون المستشرقين (علماء الساميات) كيف ينطقون لغتهم بلكنتهم (الجرمانية أو اللاتينية) ولعلي أرى فريقا آخر، ممن بعث من القبور، يقف مشدوها فاغر الفم، وكأن الامر لايعنيه، حسبانا منهم انهم يتكلمون لغة غير لغتهم.

وشكرا

المصادر والمراجع

١ ـ إذاعة الشرق وإذاعة مونت كارلو.
٢ ـ W. GESINIUS - Hebrew and Englih lexicon of
the Old Testment Oxford, the Clarendon Press 1962.
٣ ـ عبد الملك: بطرس ورفاقه ـ قاموس الكتاب المقدس بلا تاريخ ص٧٦٣ .
٤ ـ أبو عساف ـ الآراميون طرطوس ١٩٨٨ ص١٥٥ .
٥ ـ اللسان لابن منظور ٧/١٢ أرض محروصة: أي أرض مرعية.
٦ ـ H.DONNER - W. RÖLLIC Kannaanäische und Aramäische inschriften.
Band1 TEXT Wiesbaden 1971 P.P 1-2.
٧ ـ أبو عساف ، الآراميون ، ص٤٠ .
٨ ـ د. عبد المنعم عبد العال: معجم الالفاظ العامية ، مصر ، مكتبة الخانجي . الطبعة الثانية ص١٧ .
٩ ـ ابن حجر ، الاصابة في تمييز الصحابة ج٣ ، ص٥٩٧ عن د. محمد سعيد رمضان البوطي ، هذه مشكلاتهم ، دار الفكر ، دمشق ص١٨٤ .
١٠ ـ محمد علي مادون ، خط الجزم ابن الخط المسند ، دمشق ، دار طلاس الطبعة الاولى ١٩٨٩ ص ٢١٠+ ٥١ + ٥٣ شكل رقم ١١ .
١١ ـ المجلة البطريركية، العدد ١٠٣، آذار ١٩٩١ السنة ٢٩ ، دمشق ، غريغوريوس بولس بهنام العلاقات الجوهرية بين العربية والآرامية ص١٢١ .
١٢ ـ مادون الشكل ٢٣ ص١٠٧ .
١٣ ـ روسي بيير ،تاريخ العرب الحقيقي ، وزارة التعليم العالي ، دمشق ص١٨٥ .
١٤ ـ دوبون سومر ، الآراميون ، تعريب ناظم الجندي . راجعه د. توفيق سليمان، دار الاماني طرطوس ، طبعة اولى ١٩٨٨ ص١٣١ .
١٥ـ مادة كنع.
١٦ ـ بيير روسي ، ص٢٣ .
١٧ ـ اليدش خليط من البولونية والالمانية والروسية مع عبرية حديثة.
١٨ ـ العبرية المحكية الحديثة ، بداية القرن العشرين ، بيير روسي ص٢٣ .
١٩ ـ التوراة بالحرف الآرامي المربع سفري دانيال ص١٢٥٥ وعزرا ص ١١٨٤ .
תורה נביאים וכתובים
ت و ر ه   ن ب ي ا ي م   و   ك ت و ب ي م

BIBLIA HEBRAICA STUTGART 1937 P.1255 P.1284

٢٠ ـ عبد الملك بطرس ورفاقه ، قاموس الكتاب المقدس بلاتاريخ ص ٧٦٣ .

٢١ ـ فايز الداية، علم الدلالة العربي ، دمشق طبعة اولى ١٩٨٥ ص٢٤٥ .

٢٢ ـ فايز الداية ، المرجع السابق ص ٢٤٥

٢٣ ـ مشكلتا السريانية ق ٣ .

٢٤ ـ وزارة التخطيط السورية، المكتب المركزي للاحصاء، الدليل الهجائي للمدن والقرى والمزارع في سورية، سلسلة الدراسات رقم ٥٦ لعام ١٩٧٢، دمشق.

٢٥ ـ د. محمد السوسي ، العلوم العربية بالاندلس ونقلها الى أوربة ودورها في تطور العلوم، محاضرة في الندوة الدولية للثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ ، محاضر من تونس ، دمشق ١٩٩٠ ص٢ .

٢٦ ـ القرآن الكريم، سورة الحديد ، آية ٢٠ .

٢٧ ـ القرآن الكريم، سورة آل عمران ، آية ١٩٣ .

٢٨ ـ بطرس البستاني ، كتاب دائرة المعارف المجلد ٨ ، دار المعرفة ، بيروت ص٢٩ .

٢٩ ـ المرجع السابق، ص٣٣ .

٣٠ ـ المرجع السابق، المجلد السادس ص٤٣٩ .

٣١ ـ محمود محفوض ، تاريخ حرستا ، دار قتيبة دمشق ، طبعة اولى ١٩٨٨ ص٢٤ .

٣٢ ـ المرجع السابق، ص١٠ .

٣٣ ـ القرآن الكريم، سورة النجم ، آية ٥٨ .

٣٤ ـ د. عدنان بني، خالد الاسعد، تدمر، ص١٥.

٣٥ـ S.R.Driver, Preface, Vi

٣٦ ـ جورج مونان ، علم اللغة في القرن العشرين، ترجمة د. نجيب غزاوي وزارة التعليم العالي ، دمشق . G - MOUNAN. La Linguistique du xxe Siecle P.U.F, 1972, P.7 ص٤٨ .

٣٧ ـ ابن منظور، مادة: خَبَطَ

٣٨ محمد محفل ، مدخل الى اللغة الآرامية ، دمشق ١٩٨٧ ، ص٣٨ .

٣٩ ـ . C.I.S., PII, T., III, P.P.35-37

٤٠ ـ القرآن الكريم ، سورة محمد ، آية ٣٥ .

٤١ ـ وشب بالآرامية تعني جلس، ووثب بالسبئية تعني جلس.

٤٢ ـ حميدو حمادة ، الصوت والتبدلات الصوتية في لغة ابلا ، ١٩٩٠ ، ادلب ص٢,

٤٣ ـ قاسم طوير ، أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام (تعريب) طبعة اولى ، دمشق ١٩٨٩ ، محاضرة عن بيليو فرانزا رولي ، ص٥٤ .

القضاء في المغرب والاندلس
منذ الفتح
وحتى نهاية القرن التاسع الهجري

القضاء في المغرب والاندلس
منذ الفتح وحتى نهاية القرن التاسع الهجري

الدكتور علي أحمد
جامعة دمشق ـ قسم التاريخ

مقدمـــة :

يمثل القضاء بصورة عامة ركنا من أهم الاركان ، التي يقوم عليها بناء المجتمعات والأمم في كل زمان ومكان . فاذا كان القانون هـو الذي يحدد المسار العام ، الذي يجب على الجميع إحترامه والسير بمقتضاه ، فـان القضاء هو الـذي يشرف بأمانة على تطبيـق القانون ، ويجعلـه دوما يسير على الطريق القويم دون محاباة لاحد مهما كانت ظروفه ومواقعه وأحواله .

وقد ثبت بـالتجربة والبرهان والواقع ، أن الأمـم التي نجحت وأصبحت عبر تاريـخ الانسانية الطويل ذات مكانة مرموقة تحت الشمس لها وزنها واعتبارها الدولي ، ثبت أن وراء ذلك قضاءً نقياً طاهراً ، ليس عند أصحابه غير تطبيق القانون والتشريع على جميع أفراد الدولة والمجتمع .

وثبت ايضا أن وراء انهيار بعض المجتمعات وتأخرها عبر التاريخ حتى يومنا هذا كان القضاء الفاسـد ، الذي لم يحترم القـانون ، فـرجح اصحـابه البـاطل على الحق ، والظلـم على العدل ، فانتشرت الفوضـى ، وسقطت كل القيم الانسانية العظيمة .

فالقضاء اذا منصب خطير وحساس ، يكاد يكون بمثابـة القلب من جسد الانسان ، متى تعطل القلب مات الجسد ، وانتهت الحياة الى الفناء والذبول . ومن هنا جعل الاسلام هذا المنصب من المناصب الهامـة في الدولة العربيـة الاسلامية ، وكثيرا ما ربـط نجاح الدولة وتطـورها بنجاح قضائها في تطبيق القانون وحسن استخدامه على طريق الحق والعدالة.

وعلى هذا فقد كان النبي العربي الكريم ، هو الـذي يفصل في معظم القضايا والمشاكل ، والتي كانت تحدث في عهده وكان يرسل الى الامصار البعيـدة خيرة رجاله وأتباعه ومثله فعل الخلفاء الراشدون الأربعة من بعده .

وعندما اتسعـت رقعة الدولة العربية الاسـلامية بعد شوط كبير من الفتوحـات ، استلزم الامر

دراسات تاريخية ، العددان٥٣ / ٥٤ ، تموز ـ كانون الاول ١٩٩٥

وجود قضاة متفرغين لكثرة المشاكل والقضايا ، التي كان من الواجب ايجاد حل لها لاهميتها القصوى في الحياة العامة .
وحتى يكون القضاء ناجحاً وعادلا ، وحتى يظل مستمرا على ذلك ، فان عملية اختيار القاضي، كانت تطول الى حد كبير من أجل أن يتسنى للحاكم الوقوف على الصفات الواجب توفرها في شخص القاضي المرشح للتعيين ، مثل حيازة العلم والمعرفة ، وتوفر الاخلاق والدين والسيرة الحميدة والسمعة الطيبة الى غيرها من أمور.
وقد طبقت جميع هذه المعايير خلال الفترة التي تشكل محور بحثنا ونجحت الى حد بعيد ، بحيث ان جيمع القضاة تقريبا تلمسوا خلال حياتهم القضائية روح العدالة والمساواة ، فأصابوا في أحكامهم في كثير من الاحيان ، ساعدهم على ذلك الخوف الشديد ، الذي كان ينتابهم عندما يولوا القضاء . حتى ان بعضهم كان يتهرب من القضاء بابدائه شتى الاعذار والحجج خشية ان لاتساعده الظروف في تحقيق العدالة وايصال المتخاصمين الى حقوقهم المشروعة ، الامر الذي ساعد في الحفاظ على تماسك الدولة العربية في الاندلس والمغرب في معظم الاوقات ، وأضفى عليها مسحة حضارية واضحة المعالم ، استفادت منها الامم المجاورة ، بينما انقلبت الصورة رأسا على عقب في بعض الفترات وفي امكنة اخرى ، كما حدث في مصر والشام خلال عصر المماليك فيها، حيث اتسم القضاء خلال هذه الفترة بالسعي وراء تحقيق مصالح فردية بحتة دون النظر الى ادنى حق يهّم الناس والمجتمع .
وقبل التفصيل في شأن القضاء الاندلسي والمغربي ، فلا بد من التنويه عن مفهوم القضاء وأهميته وصفات القاضي وما الى ذلك. تعني كلمة القضاء في اللغة ، الحكم وجمعها اقضية ، واستقضى الرجل اي اعتمد قاضيا يحكم ويقضي بين الناس . ويقال : قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ ، اذا حكم وفصل(١) .
قال الله تعالى : ﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ﴾ (٢) بمعنى لن يتم ايمان الانسان حتى يحكم الرسول (ص) في جميع القضايا والامور ، لان حكمه هو الحق (٣).
وقوله تعالى : ﴿ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها واذ ا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾(٤) وفي ذلك أمر الهي واضح الى القضاة بأن يقضوا بين الناس بالعدل والحق والانصاف.
هذا ما يجعل ولاية القضاء من الولايات الجليلة ذات القدر الرفيع والذكر العالي ، لأن القاضي هو محور ومصدر الاحكام ، واليه يعود النظر في كل وجوه القضاء وحقيقته وحكمه وشروطه وأركانه .

فأما حقيقته فهي الاخبار عن حكم شرعي على سبيل الالزام . وأما حكمه ففرض على الكفايةأ

بـالاجمال . وأمـا حكمته فهـي قمـع المظـالم ونصر ةالمظلـوم ، وقطـع الخصومـات والامـر بالمعروف والنهي عن المنكر (٥).
وللقاضي شروط لايتم القضاء الا بها، ولاتنعقد الولايـة ولا تدوم الا معها، وهي عشرة، الاسلام والبلوغ، والعقل، والذكورة، والعدالة، والعلم، وكونه واحدا، وسلامة حاسةالسمع، والبصرمن العمى والصمـم، وسلامـة اللسان مـن البكم، ويجب أن يكـون غير محدود في قذف او سرقـة اوزنا، وغير مطعون عليـه بولادة اللعان او الزنا، وأن يكون غنيـا غير هداف وغير مستضعف ، حليما بحق الخصم، مستثيراً لاهل العلم والرأي ، سالما مـن بطانة السوء، ولايبالي في الله لومة لائم، غير زائد في الدهاء ، لايصانـع ولايضارع،بعيد التهمة، ذا نزاهة عـن الطمع، كثير التحرز من الحيل، لايطلّع الناس منه على عورة، غير مخدوع لغفلـة ، متأنياً غير عجول. عبوساً من غير غضب، متـواضعا مـن غير ضعف، حاكماً بشهـادة العدول، عـالماً بالفقـه والسنة والشروط، عارفاً بما لابد منه من العربية ومعاني الكلام.(٦)
علق الامـام مالك على هـذه الشروط بالقول: (ولا أرى خصـال القضاء تجتمع اليـوم في أحد ، فاذا اجتمع منها خصلتان، العلم والورع، رأيت أن يولى، فـان لم يكن له علم فورع وعقل، فإنه بالعقل يسـأل وبالورع يعف، واذا طلـب العلم وجده، واذا طلب العقـل لم يجده، وعلم القضاء ليس كغيره من العلوم(٧).
ويحدّد اختصاص القـاضي في عدد مـن المسائل، مثل الـوصايـا والأحباس والاطـلاق والقسم والمواريـث والنظر لـلأيتام في أمـوال الغيـاب والانساب، والحدود والجراحـات والتوصيـات والتسجيل والاثبـات، وقبض الخراج، وقسم الغنائم، وتفـريق أموال بيت المال على المصـالح ، وتـرتيب الجيـوش، وقتـل البغاة، وتـوزيـع الاقطـاعات، واقطـاع المعـادن ونحوذلـك . وفي (الجزيرية) التـي تشكل كتابا في فقه المالكية، يجعـل صاحبها ابن القاسم نظـر القاضي يشتمل على عشرة احكام ، مثل قطع التشـاجر والخصام بين المتنازعين، اما بصلح عـن تراضٍ يراد به الجواز، وامـا بإجبـار بحكم ثـابت يعتبرفيـه الـوجوب ، وإلـزام الولايـة للسفهاء والمجـانين، والتحجير على المفلسين حفظا لـلأموال، والنظـر في الاحباس والتفقـد لاحوالها وأحـوال النظر فيها . وتنفيذ الـوصايا على شروط الموصي إذا وافقت الشرع. وتـزويج الايامى بـالاكفاء اذا عد من الاوليـاء ودعين الى النكاح. واقامـة الحدود، فان كانـت من حدود الله انفـرد باقامتهـا، إما باقرار يتصـل بإقامته الحل، إمّا بنيـة أو ظهور حمل من غير زوج. والنظر في المصالـح العامة من كـفّ التعدى في الطـرقات والافنيـة واخراج مـا لا يستحق مـن الاجنحة والابنيـة وتصفح الشهود وتفقـد الامناء و اختيار مـن يرتضيه لـذلك ووجـوب التسوية بين القـوي والضعيف وتوّخي العدل بين المشروف والشريف.(٨)
وبالجملة فقـد استوفت رسالـة عمر بن الخطاب في ماهيـة القضاء كل الواجبـات التي ينبغي للقـاضي ان يتقيد بها وينفـذها، حتـى من يتمكـن من إيصـال المتقاضين الى شـاطيء الامـان

والسلام والاطمئنان . يقـول في هذه الرسالة الى أبي مـوسى الاشعري:« أما بعـد، فان القضاء فريضة محكمة وسنــة متبعة، فافهم اذا أدلى اليك ، فانه لاينفع تكلـم بحق الانفاذ له، وآسي بين النـاس في وجهك وعـدلـك ، البينّـة على من ادعـى واليمين على مـن أنكـر، والصلح جـائز بين المسلمين الا صلحا احل حـراما أو حرم حلالا. ولا يمنعـك قضاء قضيته أمس فـراجعت اليوم فيـه عقلك وهـديت لـرشدك ، أن تـرجـع الى الحق فإن الـرجوع إلى الحق خير مـن التمادي في الباطل. الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتـاب الله تعالى ولاسنة نبيه ثم إعرف الامثال والاشباه وقـس الامور بنظائرهـا. واجعل لمن ادعى حقـا غائبا أو بينـة أمدا ينتهي اليـه ، فمن أجضر بينة أخذت لـه بحقه والا استحللت القضية عليـه ، فان ذلك أنفى للشـك وأجلى للعمى، والمسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حـدٍ أو مجرياً عليه شهادة زور، أوظنيناً في ولاء أو نسـب، فان الله عفـا عـن الايمان ودرأ بـالبينات. وإيـاك والقلـق والضجـر والتأفـف بالخصوم، فان الحق في مواطن يعظم الله به الاجر ، ويحسن به الذكر والسلام».(٩)

بدأ ظهور منصب القضاء في ولاية المغرب منذ السنين الاولى لعملية فتح المغرب (١٠) وقد كان القضاء في هذه الفترة صورة طبق الأصل لما كان عليه في كل الولايات الاموية الاخرى باستثناء بعض الامور، التـي سنأتى على ذكرها فيما بعـد. فقد ورث الامويون نظام العهـد الراشدي في القضاء ، حيث اعتمـدوا على المصادر القضائية نفسهـا، التي كانت عنـد الراشدين . فقـدبقي القرآن الكريم المصدر الرئيسي للتشريع، ثم بعـد ذلك تأتي السنة النبوية، ثم الإجماع والقياس في المسائل التي لا يوجد في شأنها نصوص تشريعية مكتـوبة. ولهذا فاننا نرى ان قضاة العهد الاموي، اعتمدوا على النظر في حكم المسألة في الكتاب العزيز، فاذا لم يجدوا دليلا فيه،لجأوا الى السنة النبـوية الشريفـة، فاذا لم يجدوا بـادروا الى تحكيم عقـولهم وبصائرهـم بالاعتماد على علومهـم وفهمهم، حتى يجدوا للمسائل المطـروحة أمامهـم حكما عادلا مستوحى بكليتـه من روح الاحكام في القرآن والسنة(١١).

وبسبـب ذلك عـرف عن القضـاة الامويين انهم مـن القضاة المجتهـدين، الـذين لايقلـدون في أحكامهم لان المذاهب الفقهية لم تكن قد عرفـت او دونت، ولم تكن هناك خطة أو قواعد شرعية ثابتة يتوجب العمل بمـوجبها، مما جعل الامر منوطاً بالقاضي نفسه أو بمـن يعادله من الفقهاء المتمكنين في العلم.(١٢)

وكانت عمليـة اختيار القاضي في هذا العهد، تخضـع لقـواعد صارمة من أجـل أن يبقى منصب القضاء محافظـاً على استقلالـه وهيبته وتقديـره وروعته، كما كان في العهـد الراشـدي، فكان الخليفـة الأموي هـو الـذي ينتقي القضـاة بنفسـه. وفي بعض الاحيـان كـان يخاطب الـولاة ويأمرهم بتعيين أشخاص معينين في أمصارهم. لكن المعروف بـالنسبة لولاية افريقية (تونس الحالية) فقد كـان الخليفة الأموي ، هو الذي يقـوم بتعيين القاضي، ذلك لان افريقيـة جزء من ولاية المغـرب ، والتي تتبع الى الدولـة الأموية وتخضـع لقوانينها . كـذلك كان الامر بـالنسبة

لولاية الاندلس.(١٣)
وقد استمر ذلك طيلة عصر الولاة في المغرب والاندلس، الذي انتهى سنة ١٣٨هـ / ٧٥٦ بوصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس وإعلانه الامارة الاموية فيها. وعلى الرغم من أن عصر الولاة تميز بالقلق والاضطراب وعدم الاستقرار، فقد ظل القضاء معروفا أكثر من غيره في ميدان الإدارة ، وبقي صورة صادقة لما كان يجرى في بقية الولايات العربية في ظل الحكم الاموي باستثناء التسمية التي أطلقت على القاضي. ففي حين كان يسمى في الولايات المشرقية بالقاضي، كان يسمى في المغرب والاندلس بقاضي الجند.(١٤)
وفي هذا العصركان يعين قاض لكل ناحية أو بلدة توجد فيها قوة عسكرية تعمل تحت راية الفتح. فقد عين حسان بن النعمان القضاة للنواحي. فكانوا يفضّون الخصومات ويحكمون بين الناس بكتاب الله وسنة نبيه.(١٥)
وما كان يجرى في المغرب ، كان يجرى مثيلا له في الأندلس ، التي فتحها العرب سنة ٩٢هـ / ٧٠٥ م . أما أساليب القضاة في مجالسهم القضائية ، فلم تكن جميعها على وتيرة واحدة، كأن نقول، أنه كانت لهم طريقة او قانون يسيرون بهديه ويطبقون مايحتويه انما اختار كل منهم اسلوبه الخاص المميز من حيث متابعة القضايا، أو من حيث المكان ، الذين كانوا يقضون به، أو من حيث الابهة أو المظهر العام للقاضي ، الذي كان له بالغ الاثر في نفوس المتقاضين والمتخاصمين، فقد كا ن القاضي مهاجر بن نوفل القرشي على سبيل المثال يتبع أسلوبا رائعا في مجلس قضائه . هو أنه كان يبدأ استجواب المتهمين بتخويفهم وترهيبهم ، ولا سيما الذين كانوا يدعون الباطل، بانهم سينالون عقوبات كبيرة في الدار الاخرة، ثم يقوم بعد ذلك بالبكاء المر ، فكانوا يتأثرون بذلك فيلجأون الى الصلح ومسامحة بعضهم بعضا.(١٦)
ويحكى عن القاضي أبي كريب المتوفى سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧م أنه كان يتوجه الى عمله راكبا حمارا، فاذا عرض له خصمان في الطريق نزل عن حماره، ونظر بينهما فيما اختصما فيه ، وعندما ينتهي من النظر في القضية ، كان يرفض أن يمسك برأس الحمار اثناء ركوبه ، ويروى أيضا عن القاضي غوث بن سليمان أنه نظرفي قضية في حانوت من حوانيت السراجين صادف وجوده فيها، حينما شكت اليه امرأة مظلمة حصلت لها.(١٧)
من ذلك نستنتج أن التواضع الزائد، كان هو السمة البارزة، التي اجتمع قضاة عصر الولاة تحت رايتها، وان كنا لا نعرف على وجه اليقين ، إن كان هذا التواضع حقيقيا صادقا، أو أنه متكلف مفتعل ، الهدف منه حب الظهور واضفاء صفة خاصة للقضاة ، تميزهم عن غيرهم من رجال الادارة في الدولة . كما يظهر من خلال تراجم قضاة هذا العصر ، أن القاضي لم يكن له مساعدون او نواب يحملون عنه بعض متاعب أشغاله البالغة الصعوبة والتعقيد.
أما الفترة التالية لعصر الولاة فيمكن تقسيمها من حيث تطور القضاء الى قسمين متميزين الأول وينتهي في سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢ م على يد المرابطين الذين قدموا من المغرب لنصرة

الاندلسيين على لاسبان بعد أن وصلت أحوالهم الى أعلى درجات السوء والمهانة والاضطراب.
وقد شهدت هذه الفترة الطويلة عدة أنواع من الحكم والدول، مثل دولة الامارة والخلافة الاموية ودول الطوائف بالاندلس وفي المغرب ظهرت دولة الاغالبة في تونس، ودول الخوارج في الجزائر والمغرب ودولة الادارسة في المغرب الاقصى .(١٨) وفي نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ظهرت دولة الفاطميين ، التي تمكنت بسهولة من ازالة كل دول المغرب سابقة الذكر.
وفي هذا العصر أصبحت خطة القضاء في الاندلس والمغرب من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بامور الدين، وكون السلطان يمثل أمام القاضي عند الضرورة.(١٩)
وأول ما يمكن الحديث عنه في بداية هذه الفترة هو المصادر التشريعية ، التي كان يعتمد عليها القضاة ويهتدون بهديها من أجل استنباط الاحكام الصحيحة. كان في مقدمة هذه المصادر القرآن الكريم ، ثم السنة النبوية الشريفة كما جاء في رسالة موجهة من عقبة بن الحجاج الى القاضي مهدي بن مسلم حين ولاه القضاء ونقلها الخشني في كتابه (قضاة قرطبة) والتي تقول: ((وأمره أن يتخذ كتاب الله وسنة نبيه محمد(ص) اماماًيهتدي بنورهم ، وعلما يعشو اليهما وسراجا يستضاء بهما ، فان فيهما هدى من كل ضلالة ، وكشفا لكل جهالة وتفصيلا لكل مشكل، وابانة لكل شبهة ، وبرهاناً . ساطعاً ودليلاً شافياً ومناراً عالياً ، وشفاء لما في القلوب وهدى ورحمة للمؤمنين)).(٢٠)
والتزم بذلك جميع قضاة الاغالبة والخوارج والفاطميين بدون استثناء . لكن الشيء الثابت أن مذهب الامام مالك هو الذي ساد في المغرب والاندلس منذ النصف الاول من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، وبقي هذا المذهب وحيداً، لم تقم لغيره قائمة خلال العصور الوسطى، فكان الاندلسيون يقولون:((لا نعرف الا كتاب الله وموطأ مالك وسائر المغرب الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي. وبنظرهم كان الائمة اثنين أبو حنيفة لاهل المشرق ومالك لاهل المغرب)) (٢١) وهذا ما جعل الخليفة العباسي هارون الرشيد يصر على أن يكون القاضي في القيروان من المالكية ، ذلك لان المالكية تمكنت من نفوس الناس ، وأنه لاقرار لادارة العباسيين ما لم يحظوا برضا المالكية، فأوصى عامله ابراهيم ابن الاغلب أن يتخذ قاضيه من الفقهاء أصحاب مالك، واحد كبار فقهاء القيروان.(٢٢)
وحرص الامام مالك في مذهبه على التمسك بالقرآن دون تأويل ، وسنة النبي العربي الكريم ، وأعمال الصحابة ، وبآراء وأعمال أهل المدينة المنورة، فكان يرى على سبيل المثال ، أنه من المتوجب الايمان بالقدر خيره وبان الانسان حر مختار وهو مسؤول عما يفعل ، ان خيرا وان شرا.
وأهم القضايا التي كان القضاة في المغرب والاندلس ، ينظرون فيها بصورة عامة هي عشر قضايا أو احكام ، أحدها قطع التشاجر والخصام بين المتنازعين أما بصلح عن تراضٍ يراد به

الجوان، واما باجبـار بحكم. والثاني استيفاء الحق لمن طلبـه وتوصيله الى يده ، امـا باقرار او بيّنة . والثـالث الزام الولايـة للسفهاء والمجانين والحجر على المفلـس حفظا للاموال والـرابع ، النظر في الاحباس والتفقد لاحـوالها وأحوال الناظر فيها، والخامس تنفيـذ الوصايا على شروط الموصى اذا وافقـت الشرع. والسادس تـزويج الايـامى مـن الاكفاء ، اذا عـدم الاولياء واردن التزوج، والسابع اقامة الحدود في حقوق الله. والثامن النظر في المصالح العامة من كف التعدى في الطرقات والأفنية واخراج ما لايستحق من الاجنحـة والافنية. والتاسـع تقفي الشـهود وتفقد الامناء ، واختيار مـن يرتضيه لذلك. العـاشر وجوب التسوية في الحكـم، بين القوي والضعيف وتوخـي العدل . ويقول النباهـي في عمل القاضي ، وخطـة القضـاء: ((خطة القضـاء مـن أعظم الخطط قدرا وأجلهـا خطرا ، ولاسيما إذا اجتمعت اليها الصلاة ، وعلى القـاضي اصدار الاحكام واليه النظر في جميع وجوه القضاء)) (٢٣)

أما عن صفات القاضي في هـذه الفترة ، فقد اتفقوا على اوصـاف معينة كانت شبه ثـابتة ، حدّدها في المغرب والانـدلس منـذ وقت مبكر الخليفـة عمر بـن عبد العـزيز ، الذي اشتهـر عنه قـوله بالشخـص المرشـح لتسلم القضـاء: ((لايصلح للقضـاء الا القوي على امر النـاس المستخف بسخطهم وملامتهم في حـق الله ، العالم بأنه مهما اقترب من سخط النـاس وملامتهم في الحق والعدل والقصد، استفاد بذلك ثمنا ربيحا من رضوان الله))(٢٤)

على هذا، كان اختيار القاضي صعباً ، يعتمد على أسـس قلما تبدلت في تاريخ النظام القضائي في المغرب والاندلس وكثيرا مـا كان القاضي يختار من الشخصيات العلميـة والاخلاقية المتميزة ، كما كـان يحدث على سبيل المثـال في حـاضرة الاغالبـة (القيروان) (٢٥) وكـذلـك الامر عنـد الخوارج في تاهرت ، والذين استمروا في المحافظة على تقـاليد اختيار القاضي ، فكانوا يمتحنون المرشـح فيما قد لا يعرفه من أمور الزراعة او الحيوان ، كأن يدسّوا له متخاصمين أو يبعثوا به الى امـرأة عجوز مجربـة، تختبر مـا يتحلى به مـن التواضـع أو الكبر، فـاذا سأل النـاس فيما لايعرفه ولوّه ، أما اذا تكبّر تركوه(٢٦)

ولأهمية هذا الامر عند حكام المغرب والاندلس ، قام الحكم بن هشام في عصر الامارة الاموية في الاندلـس ، باعتماد يحيـى بن يحيـى الليثي في مسألـة اختيار القضـاة ، وكان الحكـم مكينا موثـوقا مقبـول القول في القضـاة ، فكان لايعين قـاض في كل بلـدان الاندلـس الا بمشورتـه واختياره ، وكـان لاينوه الا بـأصحابـه ومن كـان على مذهبـه من المؤهلين لمنصـب القضاء . وتعززت ثقة الحكم فيه ، بعد أن رفض تسلم القضاء على أهميته وجلالته. (٢٧)

في مستهل حكم الامارة الأمـوية بالاندلس ، حصل تطور حضـاري مهم في ميدان تسمية كبير القضـاة ، ففي حين كان يسمى في عصر الولاة (قاضي الجنـد) فانه في هذا العصر أصبح يسمى (قاضي الجماعة) الذي يوازي قـاضي القضاة في المشرق في عصر العباسيين ، ويوازي في عصرنا وزير العدل أو مدير القضاء العسكري. وظهر ذلـك لاول مرة في بداية حكم الامير عبد الرحمن

الداخل، عندما عين على قضائه يحيى بن يزيد التجيبي، الذي كان قاضيا على الاندلس قبل وصول الداخل إلى الاندلس، الذي لم يعزله، وظل حتى كان الصراع بين الداخل والفهري(٢٨)، عندما طلب ليقضي بينهما. ومنذ ذلك الحين سمي قاضي الجماعة(٢٩) وينفرد ابن القوطية برواية أخرى، يحدد فيها ظهور تسمية قاضي الجماعة في زمن عبد الرحمن الثاني، وإن أول من تسمى بقاضي الجماعة في الاندلس هو سليمان بن أسود البلوطي خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي؛(٣٠) مهما كان عليه الامر، فان هذا النظام، هو نظام متقدم مثالي وعصري. لكن تسمية قاضي الجماعة اقتصرت على قاضي قرطبة، حتى جاءت دول الطوائف، التي ظهرت كل منها في مدينة كبيرة، تتبعها عدة ضواحٍ وبلدان مثل غرناطة واشبيلية وسرقسطة اضافة إلى قرطبة، فانتقلت هذه التسمية إلى كل منها، مثال ذلك أن المتوكل على الله ابو عبد الله محمد بن يوسف ابن هود، استقضى على سرقطة عبيد بن ناصر العتكي، فكان بها قاضي الجماعة(٣١). وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد التغلبي، الذي استقضاه المأمون يحيى ابن ذي النون بطليطلة بعد أبي عمر بن الحذاء(٣٢) ويونس بن عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصغار(٣٣).

شذ عن هذا النظام في عهد دول الطوائف، القاضي أبو العباس بن ذكوان بقرطبة، فأطلق على نفسه قاضي القضاة على عادة قضاة المشرق، وكان ذلك في زمن المظفر بن محمد بن أبي عامر. وعندما انقرضت الدولة العامرية بقيام المهدي بن عبد الجبار الأموي، أزال ابن ذكوان لقب قاضي القضاة واقتصر به على قاضي الجماعة، الأمر الذي يدل على أن قاضي القضاة كان أشمل من قاضي الجماعة(٣٤).

والجميل في القضاء المغربي والاندلسي، أن القاضي لم يكن الوحيد، الذي ينفرد في اصدار الاحكام على المتخاصمين، بل كان إلى جانبه هيئة شورى تتألف من عدد من الفقهاء يدعون (بالمشاورين) وهم مجموعة من الفقهاء المتمكنين من مسائل الشرع والفقه، ومهمتهم الرئيسة النظر في المسائل الصعبة، التي يتعذر على القاضي ايجاد حل لها، وبالتالي اصدار حكم بشأنها(٣٥)، وهي تشبه في أيامنا مايسمى بمحكمة النقض أو الاستئناف أو مجلس القضاء الاعلى. ولم يقتصر وجود هذه الهيئة على العاصمة قرطبة، بل وجدت في كل المدن والبلدان، التي كان يعين لها قاض(٣٦) وكانت هذه الهيئة تدقق في أحكام القضاة للتأكد من صحتها وعدالتها أو عدم ذلك. وأقدم اشارة عن وجود هذه الهيئة المتطورة، تعود إلى سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م عندما كلف أبو محمد عبد الله بن فروخ برئاستها، فهرب إلى المشرق لعدم رغبته في العمل في هذا الميدان(٣٧).

وخلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أسس الامويون في قرطبة دارا خاصة لشورى القضاء. وقد كانت تخالف الامام مالك في عدة أحكام، لكن أخبار هذه الدار لم تصل الينا على وجه بيّن(٣٨) وشكلت هذه الهيئة أحد أركان الدولة الاباضية الرستمية، وأطلقوا

عليها تسمية (مجلس الشورى) الذي لم يقتصر على مهمـة النظر في أحكام القضاة، بل شملت سلطته حـق مراقبة سيـاسـة وسلوك رئيـس الدولة (الامـام) فاذا وجد انـه حاد عن الطـريق المرسوم، أسرع إليـه فوعظه وانتقـده واحتج عليه، وإذا لم يـرتدع خلعه وبـايع غيره(٣٩) وفي بعض الاحيـان، كانت إذا ظهرت مشكلـة فقهية ينادي المنـادي في كل قرى جبل نفـوسه(٤٠) حتى تتم الشورى في المسألة. وفي بعض الاحيـان الاخرى، كان القاضي يبعث لاستشارة علماء جربة(٤١).

ولم يكن القضاة دومـا من العرب الاصليين، بل وجـد في هذه الفترة أمثلة عديـدة لشخصيات من غير العرب، استلـم أصحابها هذا المنصب الجليل. نـذكر منهم على سبيل التعـريف، قاضي الجماعة عمرو بـن عبد الله بن لبيب مـولى احدى بنات عبد الرحمن الـداخل، استقضاه الامير محمد مدة عـامين ثم عزله، وهـو أول من استقضي بقرطبة مـن الموالي. وقد كانت وفـاته سنة ١٧٣هـ/ ٧٩٠م وأثار تعيينـه في القضاء حفيظة العرب، فبلغ ذلك الامير محمـد فقال: (وجدت فيه مالم أجد فيهم. فقال العرب، اما القضاء فـإنا لانعترض فيه لانه من سلطانه، وأما الصلاة فإنا لانصلي وراءه، فـولى الامير رحمه الله الصلاة للنميري عبد الله بـن الفرج. .)(٤٢) وهذا يدل على علو مـرتبة من يتولى الصلاة في الانـدلس والمغرب، لان القاضي في هذيـن البلدين كثيرا ماكان يجمع بين القضاء والصلاة، كما كان القـاضي عبد الله بن خلف اللخمي الاشبيلي، الذي ولي القضاء والصلاة بمـدينة اشبيلية في ايام الامير عبـد الله المتوفى سنة ٣٠٠هـــ/٩١٢م، ثم عزل عن القضـــاء وأقام على الصلاة الى أن وافته المنية نحو سنـة ٣٣٠هـ/٩٤٢م(٤٣)، لكن اضافة الصلاة الى القضاء، لم تكن من الامور الثابتة في المغرب والاندلس.

لم يلتزم قضاة المغرب والانـدلس خلال هذه الفترة بالمهمات، التي حددهـا لهم قانون القضاء العام، بـل راحوا يتـدخلون في مسائل جـانبية وفـرعية متعددة، لانهم كـانوا يـرون انفسهم، مسؤولين عن حـل كل معضلة في مجتمعاتهم، التـي كثرت مشاكلها وتشعبـت بسبب التطور، الذي كان مستمرا بدون توقف، وبخاصة خلال فترة الانتعاش الاقتصادي والعلمي في القرن الثالث والرابـع الهجريين. فمثلا كان القضاة يكلفون بالاضافـة الى أعمالهم القضائية بأعمال حربية محضـة، كما حدث للقاضي الاندلسي الفـرج بن كنانه، عنـدما عقد له الامير الحكـم بن هشام على جند شذونه لمقاتلة الاعداء. واخـرجه مرة اخرى الى الثغر الاقصى (سرقسطة) فقام مقام قادة وصـدور الغزاة. وكذلك جرى مـع أسد بن الفرات، الذي ولاه زيـادة بن الأغلب على القضاء بـافريقية، وقـدمه على غزو صقليـة، فكان أمير الجيـش وقاضيه في وقـت واحد(٤٤) ومثلهما كان القاضي منذر بن سعيـد البلوطي، الذي أضاف له الناصر لديـن الله مهمة اخرى، هي قيادة الجند(٤٥).

كما كلفوا بمهام اخرى غير المهـام العسكرية، مثل ادارة الكور والمدن. فقد أنـاط الناصر لدين الله عدة مهام بالقاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، الذي عينه على قضاء البيرة، وبعد أمد

قصير قلده أمانـة كورة البيرة والنظر على عمالها، فكانـوا لايقدمون ولايؤخـرون الا عند أمره. وظل هكـذا حتى نقلـه الى قرطبـة لتكليفه بقضـاء الجماعة سنـة ٣٢٦هـ/٩٣٨م. ومنـذ ذلك الوقت صار الناصر لدين الله يستخـدمه على السفارات، فيرسله الى كبار الامراء في الدولة، كما كان يرسله في الامـانات الى الثغور والأطراف، للإشراف عليها، وللإعـلام بمصالحها، والبنيان لحصونها، وتـرتيب مغـازيها، وإدخال جيـوشها الى بلـد الحرب، وربما أقامـه في ذلك مقـام أصحـاب السيوف مـن قواد جيشـه(٤٦) لكن تسلـم أمـانة الكـور لم تكن حـالة طـارئة أو استثنائية تقتصر على بعض القضاة، بل كانت أمـرا معروفا مسلما به، حيث أن جميع القضاة خارج قرطبة وغيرها من الحواضر الاخرى كالقيروان كـانوا مسؤولين عن جميع المناطق، التي تتبع الكور المعينن على قضائها، فيكون لقاضي الكورة التصرف بشؤونها القضائية، اضافة الى تسلم أمـانة الكـورة. وكان بمقدور القـاضي أن يرفـض ذلك، ويقتصر على القضـاء، كما فعل القاضي محمـد بن الحسن النباهـي، عندما عين لقضاء سرقسطـة على عهد بني هود، فـاكتفى بالقضاء والنظر في الأحباس(٤٧).

امتاز قضاة الاندلس والمغرب في هذه الفترة بصلاحياتهم الواسعة، التي شملت عددا مهما من قضايـا المجتمع والـدولة. فعلى أثـر نجاح الفـاطميين في السيطرة على المغـرب في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، قام القاضي الفـاطمي محمد بن عمر المروزي قاضي افريقية بتغيير بعض جمل الأذان وأخذ أموال الاحباس والأموال الموقـوفة على عمارة الحصون وكتابة اسم المهـدي الفاطمي وأشيـاء من هذا القبيـل(٤٨)، وكان باستطـاعة القاضي بقـرطبة تعيين صاحب الصلاة في أي مسجـد كان من هذه المدينة(٤٩) كما كان يرى نفسـه، معنيا بملاحقة الفلاسفـة والضرب على أيديهم. وهذا ما حـدث منذ بدايـة الحكم العربي في الاندلـس، فخلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قام القاضي محمد بن يبقى بن زوب بملاحقة أصحاب الفيلسوف ابن ميسرة، والكشـف عنهم، واستتابة من علـم أنه يعتقد مذهبهم، وأحـرق ماوجد عندهم من كتب ابن ميسرة(٥٠).

وكان مـن صلاحيـات القضـاة أيضـا، منع بعـض الناس مـن الحج بعد المرة الاولى. فقـد منع القاضي زيد بن الحشا، خلال فترة قضـائه في طليطلة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، عبد الله بن مـوسى الانصاري المعروف بالشارقي من الحج للمـرة الثانية.. وقال في رسالة له: (قد قمت بالفرض ـ فهذه المرة الثانيـة هي نافلة، والذي أنت فيه الان آكد. فمنعه من الخروج حرصا على وجوده في طليطلة معلما مهذبا للناس)(٥١).

وفي ميدان التحقيق مع المتخاصمين، اتبع القضـاة في المغـرب والاندلس أسـاليب مختلفة، فسار كل قـاضٍ على طريقة معينـة، كان يراهـا ناجعة في هـذا المجال المهم. ففـي البداية، كـان الامر يتطلب الفصل بين المتخاصمين عند اجراء التحقيـق معهم، ليتضح وجه الاتفاق والاختلاف في أقوالهم، وتدوين مايقـولونه بشأن الاشياء المتنازع عليها، اذا كان التخـاصم متعلقا بسلعة ما

أو وديعة. بعد ذلك يؤتى بالشهود، وهؤلاء يجب ان يكونوا من أهل العدالة والرضا. لكن قضاة بعض المناطق المغربيـة، كانوا يتساهلون في مسألة عدالـة الشهود، كما كان يحدث في عاصمة الاباضيين تـاهرت، فقد سمح القـاضي عمروس بن فتـح من جَعَل جميع أهـل شروس في جبل نفوسه شهودا عدولا بمجرد انه سمع من بعض مستشاريه أن أهل شروس لايكذبون(٥٢).

كان بعض القضاة يكتفـون بشاهد واحد، كما كان يفعل صاعد بـن أحمد التغلبي المتوفى سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م؛ لكنـه كان يدعم ذلـك باليمين «٥٣» وبصورة عـامة فقد كان القـاضي هو الذي يقـرُّ صلاحيـة العدول أو الشهـود لتأديـة مهمتهم فيقـر بأنهم جـاهزون وصـالحون لذلك«٥٤» وبعد الشهادة تأتي البينة و أخيراً يكون اليمين أو القسم في حالة افتقاد البينة وهو على المدعى عليـه وفي بعض الحالات المعينة كان يمكـن للقاضي الأخذ بشهادة غير العـدول من الشـهود مثل العبيد والنساء كما حـدث عندما قبل مشايخ جبل نفوسـة شـهادة العبد الذي نجا وحده من القافلة التي ماتت عطشاً في طريق القبلة فحكموا بموتهم وكل حكم متعلق إليهم انما حكموا بـالاشتهار لأن الاشتهـار أعظم مـن الشهادة كما قبلوا شهـادة الاجراء الـذين كـانوا يعملون في بعض المزارع...

وسمح كثير مـن القضاة للمتهمين بالـدفاع عـن أنفسهم في الجرائم، التي تستـوجب الحدود، كالقتل والسرقـة والزنا وشرب الخمر. فاذا ثبتت جـريمته، حكموا عليه بما حكم اللـه به، فينفذ الامام والولاة على النواحـي حكم القضاء، لايتهاونون في اقامة حـدود الله(٥٦) وبعضـهم كان يلجأ الى وسـائل الترهيب المختلفة مـن أجل اصـلاح ذات البين بين الخصوم. فقد كـان محمد يحيى قـاضي سرقسطة، يلجأ إلى هذا الاسلـوب فيوهم الخصـوم، بأن المحراب الذي يتـم عليه حلف اليمين، هـو من بناء التـابعين إلى غير ذلك، مما كـان يؤثـر بأكثريـة المتهمين، ويجعلهم يقولون الصدق(٥٧) وحتـى لايحتج المتخاصمون على مسألة تقديـم بعضهم على بعض. فقد كان بعـض القضاة، يلجأ إلى كتابـة، أسماء المتقاضـين على رقاع صغيرة، فيخلطها القـاضي مع بعضها بعضا، ويعيد ترتيبهـا من جديد، ويضعها امامه ويبدأ بقـراءة الاسماء المكتوبة واحدا تلو الآخـر دون تدخـل من أحـد، أي بما يشبه القـرعة، التـي لايظلم فيهـا أحد، ويـرضى بها الجميع(٥٨).

وبصورة عامة فقد كـانت العقوبات الصادرة عن قضاة المغرب والانـدلس قاسية. لكنها كثيرا ماكـانت تعتمـد على حكم الشرع، ففـي السرقة كان حكـم (قطع اليـد) معمولا بـه في كثير من المناطـق الاندلسية المغربيـة، وغير معمول في مناطـق اخرى، كما كان الحال في بعض منـاطق الاباضيين، الذين كانـوا يراعون رجال الدولة الرستميين، والرجال الاقـوياء الآخرين، فحكموا للرجل القوي على الضعيف. وأمثـال هذه الامور هي التي شكا منها محمد بـن تومرت، وهو في رحلة العودة الى بلاده من المشرق(٥٩).

ولم يكن حكم قطع اليـد مقتصرا على الذين يسرقون، بل طبّقة بعـض القضاة على بعض كتاب

الوثائق، كما فعل القاضي محمد بن بشير في قرطبة، عندما اكتشف ان احد الكُتاب كان يدلّس في كتابة الوثـائق، فاستجوبه وثبت عنده أنـه عقد وثيقة باطلة على رجل مـن التجار، فحكم عليه بقطع اليد(٦٠).

إلى جانب عقوبـة السرقة، كانت هناك عقوبـات أخرى متعددة كالحبس والقتل، وهـي عقوبات عرفـت في ميادين القضـاء الاندلسي والمغربي، مـاعدا بعض الاستثنـاءات التي حدثـت في عهد الاباضيين، الـذين لم يكـونوا متشدديـن في عقوباتهم، لان قضـاتهم كانـوا يجارون الظروف ومقتضى الاحوال، فكانوا لايرضـون عـن احلال دم المسلمين. وهذا ماحدا ببعضـهم لان يحكم بالدّية على مسائل القتل إلى غير ذلك(٦١).

ولم يكن القاضي وحيدا في عملـه، بل كانت تساعده هيئـة ادارية اخرى، كانت تتألـف من نواب القاضي وكتابـه. فبالنسبة لنواب القـاضي كان يعين لكل قاض عـدة نواب يساعدونـه في انجاز أعماله الكثيرة. فعلى سبيـل المثال، كـان يساعـده نائب في الاحكـام والشروط والانكحة، التـي تشمل مســائل الزواج وعقوده، بما يشبه قـاضي الشرع في وقتنا الحاضر(٦٢) أما الكتـاب فقد انحصرت مهمتهم تحديدا في كتـابة ما يمليه عليهـم قضـاتهم أثناء اجراء المحـاكمات، وان كان بعض الكتاب قد نـاب عن القضاة كما حدث للكاتب البطيطي الاشبيلي، الـذي جعله أحد قضاة قرطبة كاتبـه ونائبه في وقت واحد(٦٣). وكان في دائرة كل قاضٍ ديـوان فيه عدد من الموظفين، يعتمدون سجلات خاصة لتدوين القضايا المثارة أمكام القاضي، وتسجيل كل مايتعلق بها من حيثيات وأحكام، كما هو حال قضاء هذه الايام(٦٤).

وقد شهـد القضاء في المغرب والانـدلس بعض التطورات المهمـة خلال هذه الفترة الأمـر الذي يجب التوقـف عنده لضرورتـه وأثره في نتائج القضـاء بشكل عام. لكـن هذا التطـور، لم يكن شاملا لجميع القضاة بقدر ماكان فرديـا، ظهر من خلال تصرفات بعض القضاة. ففي أواخر القرن الثـاني الهجري/ الثامـن الميلادي، اشتهـر على هذا الصعيد القـاضي القيرواني في عهد الاغالبة، محمد بن عبد الله الكناني أبـو محرز، الذي ساوره الشك مرة في أهلية الشهود، فقال لاحد رجـاله ان يـأتيه بجملين ليحمـل الشهود عليهما ويطـوف بهما، ولما سمع الشهـود ذلك النداء، هربـوا وكان عددهم اثنين فقال لصـاحب الشكوى: (ياعدو اللـه تجترىء علينا بشهود الـزور وهم بضربـه) وحدث ذلـك بعد استجـوابهما في الجلسة الاولى، حيـث جاء الى القـاضي الشخص المدعى عليه، وأبلغه بعدم صحة الحكم، فما كان من القاضي، الا ان قام باستدعائهما مرة ثـانية، بحجة أنـه يريد سـؤالهما عن شيء فـاته، نسي أن يسألهما عنـه في الجلسة الاولى. وأساس هذا التطور هنـا، يكمن في أن القاضي على المذهب المالكي لايجوز له فعـل ذلك ويكتفي بالحلـف كما إن هذا القاضي أبـاح شرب النبيذ ، وأنه كـان يخصص يومـا في الاسبوع ليقضي خلاله بين النساء عند باب داره(٦٥).

والحق، فلـم تكن جميـع الاحكام القضـائية، التـي كانـت تصدر عـن دوائر القضاء المغـربي

والاندلسي، تعتمد على نصوص شرعية واضحة ومحددة، كالقرآن والحديث وغيره. فكانت قناعة القاضي، التي كانت دوما متوافقة مع الحق والعدل والمنطق، هي المصدر المعول عليه، مثال ذلك ماحدث في زمن الاغالبة بالقيروان، عندما اختلف الفقهاء في مسألة رجل اشترى حوتا، فوجد في بطنه حوتا آخر، فاختلفوا هل هو للبائع أو للمشتري؟ فرفعها الحاكم إلى القاضي موسى بن عبد الرحمن الذي قال: «وإن كان الشر اء على الوزن فهو للمشتري وان كان على الجزاف فهو للبائع)(٦٦).

هذا التطور الذي حدث في دوائر القضاء المغربي والاندلسي، لم يأت من قبل السلطات الحاكمة، بقدر ماكان يأتي من قبل القاضي نفسه، كما فعل القاضي سحنون، عندما عين على قضاء الاغالبة في مدينة القيروان. فعلى الرغم من أنه تولى القضاء مرغما، فانه أدخل عدة مهمات اضافية الى عمل القاضي، وأمر بتغيير بعض الامور، التي كانت في نظره غير شرعية. فهو أول من فرق حلق البدع من الجامع، وشرد أهل الاهواء منه، وهو أول من جعل الودائع عند الامناء، وكانت قبله في بيوت القضاة. وكان أمر الحسبة من اختصاص الامراء والحكام، وفي عهد سحنون، أصبح الحكم فيها من اختصاص القاضي، الذي كان يعين لها بعض الامناء، وهو أول من نظر فيها من القضاة المغاربة، وهو أول من جعل في الجامع اماما يصلي بالناس، اذ كان ذلك للامراء، وكان يحكم في مكان بالمسجد ولايحضر عنده غير الخصمين، ومن يشهد بينهما(٦٧) وهو أول من اتخذ صاحب المظالم، وهي محكمة مستقلة تشبه المحاكم الاستعجالية، تنتصب في الاسواق، وتحكم في دائرة محددة. وهي غير الحسبة على المصالح العامة، مما يدل على وجود نظام محكم ودرجات للقضاء في ذلك العصر. وكان أول قاض هو حبيب بن نصر بن سهل التميمي صاحب مظالم سحنون(٦٨).

وكان بعض القضاة لايرى باليمين، مع أن الامام مالك كان يرى صحة ذلك. ومن هؤلاء القضاة محمد بن بشير المعافري، الذي أجاز أيضا كراء الارض بجزء مما يخرج منها إلى غير ذلك من الامور، التي لم تكن لاحد قبله في المغرب والاندلس(٦٩).

واعتاد قضاة القيروان على كتابة شرط في كتاب الصداق، وأخذوا به وطبقوه في أحكامهم، هو أن للزوجة حق الطلاق من زوجها، ان تسرّى عليها الزوج بغيرها. وهو من أروع ماستجد في ميدان القضاء المغربي والاندلسي، لكنه لم يدم طويلا، حيث ألغاه الفاطميون، عندما وصلوا إلى حكم المغرب، أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي(٧٠).

ولجأ بعضهم وبخاصة في المغرب الى الحكم بواسطة الفراسة، عندما كانوا لايجدون أو يهتدون إلى البينة أو ايضاح الحجة، فكانوا يعتمدون على بعض الدلائل والامور، التي كانت تظهر من خلال عملية استجواب الخصوم، مثال هذا ماكان يفعله القاضي القيرواني سليمان بن عمران الذي كان يقول: (لو شئت أن أقضي بين الخصمين بلا بينة لفعلت. والله ما يعقد بين يدي الخصمان، ويتناظران الا وأنا أعرف من له الحق منهما)(٧١).

وبلغ تطور القضــاء في المغرب حدا، يمكن الوقـوف تجاهه باحترام واعجاب، عنـدما لجأ بعض القضاة الى مناظـرة ومناقشة المتخاصمين، ومحاولة إقنـاعهم بالحجة والعقـل والبيان، وبعد ذلك حـل مشاكلهـم ومصالحتهـم. هذا مـاكان يفعلـه ويطبقه القـاضي القيرواني حماس ابن مروان الهمداني، الذي ولي القضاء في القيروان خلال العقد الاخير من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي(٧٢).
أما بعض القضاة، فكـانوا يعمدون إلى التطويل في اجراءات القضاء، أمـلا منهم في الوقوف على حقيقة الامور من جهـة، وافساح المجال للتصالح والتراضي بين الخصوم مـن جهة اخرى، كما كان يفعـل القاضي أحمد بـن بقي بن مخلـد، خلال الـربع الاول من القـرن الرابـع الهجري/ العاشر الميلادي. وكان يقول في ذلك: (صاحب البـاطل اذا طول عليه ترك طلبه ورضي باليسير فيه. وقد كثر الآن شهود الزور، والتبست الأمور فرأيت هذا المطل أخلص لي)(٧٣).
وبعضهم الآخـر كان يغض الطرف عـن كثير من المخالفات، التـي كان يعاقب عليهـا في معظم الاوقات. وقام بتطبيق ذلك القاضي محمد بن عبـد الله بن أبي عيسى خلال مدة عمله القضائي بالبيرة، عندمـا التقى مصادفة برجل أخـذه السكر في أحد أزقة المدينة، فحـاول الرجل الهرب، ولكنه لم يقو على ذلك فقال شعرا:

ألا أيها القاضي الذي عمّ عدله
فأضحى به في العالمين فريدا
قرأت كتاب الله الف مرة
فلم أر فيه للـشراب حـدودا
فان شئت ان تجلد فدونك منكبا
صبوراً على ريب الخطوب جليدا
وان شئت أن تعفو تكن لك منّة
تروح بها في العالمين حميدا

فما سمع القاضي هذه الابيات، أعرض عنه ومضى لشأنه(٧٤).
كما تأثر القضــاء بالجو الفاسد الذي ساد عصر دول الطـوائف بالاندلس، لكن هـذا التأثر لم يكن أكثـر من حـالات فرديـة عابـرة، لايعول عليهـا في هذا المضمار. وقـد زالت بـزوال حكم أصحابها. ففـي مدينة طليطلـة وجد قاضيان في وقـت واحد، هما أحمد بن سعيـد الأنصاري، ويعيش ابـن محمد بـن يعيش الاسـدي. وكلاهما مـن أسرة عريقـة في الجاه والمكانـة والعلم، ويعود هذا الى المنافسة، التي كانت محتـدمة بين العائلات الكبيرة والمشهورة في مدينة طليطلة، وكثيرا ما وقع التناحر والاختلاف بين هذيـن القاضيين، واستطاع يعيش بن محمد الأسدي ان ينفي أحمد بن سعيد الانصاري خارج المدينة، ليتفرد هو بالاحكام وشؤون القضاء(٧٥).

بعد كل الذي ذكرناه من ايجابيات القضاء في المغرب والاندلس، فاننا نسأل السؤال التالي: هل كان جميع القضاة على سوية واحدة من الناحية العلمية. والتأهيلية والاخلاقية؟ للجواب عن هذا نقول: إن الكمال في أي عمل مهما كان سهلا، لايمكن أن يتحقق ابدا. وهذا ماينطبق على قضاة المغرب والاندلس، الذين وصل عدد منهم الى القضاء، على الرغم من عدم اهليتهم من حيث العلم والمعرفة. نقرّب على ذلك مثلا القاضي يحيى بن محمد بن زرب، الذي يفتقر إلى أدنى المعارف الضرورية للقاضي. وقد قلده هذا المنصب المهم، أبو الوليد محمد بن جهور في مدينة قرطبه، وظل على رأس عمله حتى وافته المنية سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٦م(٧٦). وقد خلفه رجل أجهل منه، هو حسن بن محمد بن ذكوان، استقضاه أبو الوليد محمد بن جهور ورّقاه الى القضاء، وكان قبل ذلك يعمل في أحكام الشرطة والسوق، لكنه صرفه لاشياء ظهرت منه، ومنعه من الخروج من بيته الا للمسجد، حتى مات سنة ٤٥٠هـ/١٠٦٠م(٧٧).

ويمكن تعليل هذه الظاهرة الشاذة في تاريخ القضاء المغربي والاندلسي، بأنها ربما كانت ترجع إلى وجود علاقة مودة بين الحكام وبين الذين وصلوا إلى القضاء. ولم تظهر هذه الظاهرة الا في عصر دول الطوائف، الذي شذ الحكام فيه عن كل الثوابت والضوابط والقواعد والاعراف، حتى أصبح كل شيء رهينا بارادتهم ورغبتهم الخاصة، هذا بالاضافة الى وجود اعتبارات اخرى، كان منها على سبيل المثال، أن أصل القاضي كان يمت الى عائلة معروفة بعراقتها وجاهها ومكانتها، الامر الذي ساعد بعض الاشخاص للوصول إلى القضاء كمحمد بن يحيى بن عبد الله بن قاسم العيسمي العرضبي الذي ذكر عنه ابن بشكوال، إنه تولى القضاء في عدد من المناطق، وكان نبيه البيت، قليل العلم، ومات سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م(٧٨). وكانت الفوضى قد بدأت تنتشر في المجتمع الاندلسي، منذ أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكانت تتفاقم مع مرور الايام، حتى وصل الامر الى تعطيل هيئة القضاء بالاندلس من سنة ٤٠١-٤٠٤هـ/ ١٠١١-١٠١٤م ،حتى جاء علي بن حمود، فأعاد رسم القضاء، وأحياه بأن ولّاه الفقيه المشاور عبد الرحمن بن بشير، وكان آخر قضاة الخلفاء(٧٩).

إلى جانب دائرة القضاء، كانت هناك دائرة اخرى مستقلة، هي خطة المظالم. وهي هيئة قضائية تعالج كل المسائل، التي يعجز عن البت فيها القاضي، فينظر فيها من هو أقوى يدا منه، وذلك أن التنازع اذا كان بين ضعفين قوى أحدهما القاضي وإذا كان قوياً وضعيفاً أو قويين قوة أحدهما في الولاية كظلم الامراء للعمال، القاضي عن البت فيها، وأول من جلس اليه عبد الملك بن مروان(٨٠).

وقد ظهرت خطة المظالم في الاندلس لاول مرة في عهد الامير الأموي الثاني خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، هشام الرضا، الذي اتخذ مكانا للمظالم بالقرب من القصر الحكومي بقرطبة على الرصيف المشرف على النهر الكبير، في أحد المساجد، وكان الامير هشام الرضا، هو الذي ينظر في المظالم ابتغاء وجه الله كما قال المقري في نفح

الطيب(٨١). أمـا في المغرب فقد ظهـرت خطة القضـاء لاول مرة في القيروان، حيث استحـدثها القاضي سحنـون. إذ أن أول مرة يرد ذكـر الخطة في سنة ٢٣٧هــ/ ٨٥١م حينما ولي الخطة حبيب بـن نصر التميمي. لان تعيين قـاضي المظالم كان مـن اختصاص قـاضي الجماعة(٨٢). وبعد ذلك يـرد ذكر صاحب المظالم مقرونـا بعبارة مؤداها، أن القاضي الفـلاني، هو الذي ولاه المنصب، فابـراهيم الخشاب ولي من قبـل عيسى بن مسكين(٨٣) وجعفر بـن أحمد بن وهب وأحمد بن بحـر، ولي كلاهما من قبـل اسحق بن أبي المنهال(٨٤) ومـع ذلك فقد كـان الحكام يمارسون أعمال هذه الخطة.

إضافة إلى خطة المظالم، كانت خطة المناكـح، التي كانت تتبع أيضا الى القاضي، الذي كان يعين من يـراه صالحا لها، كما كان الحال في شـأن المظالم والاحكام، وهـي تشبه اليوم مـايسمى بدائرة القضاء الشرعي في مسائل الزواج والطلاق وما الى ذلك(٨٥).

وخلال حكم الامويين في الاندلس، استحدثت خطـة قضائية اخرى، لم يسمع بمثلها في المغرب ولا في المشرق، هـي خطة (قضـاء قريـش) ،التـي اقتصرت أعمالها على الامويين الانـدلسيين، الذين كانـوا يعتزون بانتمائهم الى قبيلة قريـش. وعرفت هذه الخطة بصورة خـاصة في مدينة قرطبـة، حاضرة الحكـم الاموي، ومجمـع رجاله وأتبـاعه، وكـانت مـن مهام قـاضي الجماعة بقرطبـة. وممن تسلمها على سبيـل المثال، محمد بـن عبد اللـه بن هرثمـة بن ذكوان مـن أهل قرطبة، وهو الذي اشتهر بعفته وحسن سيرته في القضاء(٨٦).

هذا ،وقد كـان حكام المغرب والاندلس، يسـاعدون ويشاركون في عملية انجـاح مهمة القضاء، ولاسيما في الحوادث التي كـانت تجري مـع العاملين في قصـورهم. نـذكر مـن هؤلاء الحكـام محمد بن أبي عامر(٨٧). الذي كان يرفض حماية حرّاسه أو العاملين في قصره. فقد حدث أن بعض أهـل قرطبة اشتكى أحـد حراسه المقـربين، لانه رفض وفـاء دين مستحق عليه، فـأمر محمد بن أبي عامر صاحب المظالم، ليأخذ منه حق المدعي(٨٨).

وبالمقـابل كان القضـاة يرفضون بعـض طلبات الحكـام، عندما كـانوا يرونها تتعـارض مع القوانين الشرعية. نضرب على ذلك مثـلا ان القاضي ابا بكر محمد قاضي قـرطبة، رفض الموافقة على أخذ مال الاوقاف للانفاق على المصالح العامة، وعندما اشتد الالحاح عليه، رفض البحث في الموضوع، فاستبعدت الفكرة من أصلها. وكان ذلك في عهد أبي الوليد محمد بن جهور في عصر دول الطوائف(٨٩).

أما بشأن أمكنة ومواضع القضاء في المغرب والاندلس خلال هذه الفترة، فقد ظهر واضحا، أنه لم تكن هناك أماكـن ثابتة خاصة لجلوس القـاضي من أجل مباشرة أعماله القضائيـة، بل كان القاضي يمارس عمله في مسجد المدينة أو المحلة، التي عين لقضائها، وبعضـهم الآخر كان يتخذ من داره مكانا للقضاء(٩٠).

ومن ناحيـة الارزاق والرواتب، التي كـانت تخصص للقضاة، فـانها كانت عاليـة بشكل عام،

لكننا لانعرف عن مقدارها المحدد شيئا يمكن الاعتماد عليه. وكان بعض القضاة يرفضون رفضا قاطعا تقاضي أية أجور مقابل قيامهم بعمل القضاء، والامثلة في هذا الشأن كثيرة، نذكر منها القاضي سحنون، الذي رفض أن يأخذ رزقا على قضائه، أو صلة من السلطان، وعبد الرحمن بن سوار قاضي الجماعة بقرطبة على عهد المعتمد ابن عباد. ويبدو أن هؤلاء القضاة، كانوا يعيشون بحبوحة اقتصادية مكنتهم من عدم الاعتماد على أرزاق منصب القضاء(٩١).

أما الغالبية العظمى من القضاة في المغرب والاندلس، فقد قبلوا أخذ أجر على القضاء، لانهم كانوا بحاجة لهذا الاجر على مايبدو، بسبب قلة ما في يدهم من جهة، وتشجيع الشرع الاسلامي الذي يقر أحقية هذا الاجر من جهةأخرى. وزاد بعضهم على ذلك، بأن لجأوا الى أساليب ملتوية فقبلوا بالرشوة علانية وسرا، دون ان يجدوا فيها أدنى حرج أو عمل مشين، كما فعل قاضي القيروان مانع بن عبد الرحمن الرعيني، فكان من عادته اذا سجل قضية، وختم في أسفلها، أن يكتب تحت الختم (بقي شيء) يعني الرشوة(٩٢).

أما الفترة الثانية فتبدأ من الربع الاخير من القرن الخامس الهجري/ وتنتهي في أواخر القرن التاسع الهجري. وكان السبب الهام، الذي جعلنا نبحث قضاء هذه الفترة بشكل منفصل عن الفترة السابقة، وهو أن القضاء في عهد المرابطين والموحدين، تأثر منذ البداية بالجو العام المتشدد، الذي اتخذه المرابطون بشكل خاص، مما أعطى فقهاء هذه الفترة سلطات واسعة جدا، وبخاصة في عهد المرابطين وطبقوا مالكية من نوع صارم للغاية. فكان علي بن يوسف بن تاشفين، لايقطع امرا في جميع ممتلكاته دون مشاورة الفقهاء، فاذا ولى احدا من قضائه كان فيما يعهد اليه، الا يقطع امرا ولايبت حكما في صغير من الامور، ولاكبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء(٩٣).

يضاف الى كل هذا، أن القضاء الموحدي لم يكن واضح المعالم، بسبب تحيز القضاة الموحدين لمذهبهم. فقد جاء الموحدون الى الحكم بعد سحقهم لنظام حكم مالكي صارم. ولذلك اتهموا بعدائهم للمالكية، وشملت التهمة موظفيهم ايضا، على الرغم من أنهم جميعا كانوا على المذهب المالكي.

بقيت مصادر القضاء في هذه الفترة، هي نفسها التي كانت معتمدة في الفترة السابقة وهي القرآن والسنة. يقول ابن صاحب الصلاة في هذا الصدد: (وكانت الوجوه التي تقضي الى الحق في فصل قضايا العباد متنقبة، والطرق المؤدية الى معنى الصدق ملتبسة متشعبة، فخرج فيها بنيات تخطى الصراط المستقيم، وتضل الضلال البعيد، فصار امضاؤها عن غير استثناء إلى هذا الهدى المتبوع، والعلم المرفوع خطرا على ممضيها، وانفاذها على غير هذه السنن غرقاً على منفذيها. ولما كان الامر كذلك تعين ووجب وثبت وترتب، وان نخاطب جميع عمال بلاد الموحدين أعزهم الله شرقا وغربا وبعدا وقربا خطابا يتساوي فيه جميعهم، ويتوازي في العمل فيه كافتهم بألا يحكموا في الدماء حكما من تلقائهم، وبرأي من آرائهم، ولايقدموا على سفكها

بما يظهر اليهم، أو يتقرر فيما يـرونه لديهم، الا بعد أن ترفع الينا النـازلة على وجهها، وتؤدي على كنهها، وتشرح حسب مـاوقعت عليه، وتنتهى بالتـوثيق والبيان على ما انتهـت اليه، وتقيد بالشهـود والعدول المعروفين في مـواضعهم بالعدل والـرضا الموجبين للقبول. وتكتـب أقوال المظلـومين وحججهم واقـرارهـم واعترافهم وحجـج الطـالبين في مقـالاتهم، واستظهارهـم في بيناتهم)(٩٤).

وقد تشدد الموحـدون فيما بعد بتطبيق هذه الامـور، فما رأى الخليفة الموحدي يوسـف بن عبد المؤمـن المتوفى سنـة ٦١٩هــ/ ١٢٢٣م كثـرة الخلاف بين الفقهاء، ومـا نشـأ عـن ذلك مـن التعصب للمذاهــب، أمر برفض فروع الفقــه، وأن لايفتي الفقهاء الا بالكتاب العـزيز أو السنة النبوية، ولايقلدون أحدا وأن تكون أحكام القضــاة بما يؤدي إليه اجتهادهم في الكتاب والسنة والإجماع والقياس. ولكن ذلك لم يـدم طويلا، بل عاد الحال كما كان بعد وفـاة الخليفة، سابق الذكر(٩٥).

خلال هذه الفترة، أضيفت الى بعض القضاة مهـام أخرى ادارية كبيرة، مثل الحسبة والشرطة، والتي قام بـأعبائهما على سبيل المثال القـاضي عبد المنعم بن الفـرس في غرناطة خـلال القرن السـادس الهجـري/ الثـاني عشر الميلادي، وتمكـن مـن القيـام بهذه الاعمال مجتمعـة خير قيام(٩٦) وكما كـان الحال في الفترة السابقة، فقد شـارك القضاة في أعمال القتال والـذود عن حياض الـوطن، نذكـر منهم قاضي القضــاة أحمد بن رميلة القـرطبي، الذي قضـى شهيدا في واحـدة من المعـارك بين العـرب والاسبـان. وكانـوا يقـومـون بأعمال مختلفـة على الصعيـد السياسي، مثال ذلك أن حكام الاندلس قاموا بارسال وفد من قضاة قرطبة واشبيلية وغيرها الى حاضرة المرابطين في المغرب، فالتقـوا ابن تاشفين، وتمكنوا من الحصول على مـوافقته بارسال قوات مرابطية لنجدة الاندلس ضد الخطر الاسباني(٩٧).

وفي هذه الفترة أيضـاً، استمرت تسمية كبير القضاة، التـي كانت كما رأينا (قـاضي الجماعة) وظلت حكـرا على الحواضر الكبرى، مثل مدينـة مراكش، التـي بقيت عاصمـة الدولة العـربية الاسلامية في الجناح الغربي من ديار العرب والاسـلام في عهد المرابطين والموحدين. وعند زوال دولة الموحدين في النصف الثاني من القرن السـابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ظهر على المسرح السياسي في المغرب ثلاث دول هي: الدولة المرينية في المغرب الاقصى وعاصمتها فاس، والدولة الـزيانية أو دولة بني عبـد الواد في الجزائر وحاضرتها تلمسان، والـدولة الحفصية في افـريقية ومـالقـة ووادي آشي في الزاويـة الجنوبيـة الشرقيـة من الانـدلـس. وفي جميع هـذه الحواضر، كان يوجد قاضٍ يحمل لقب قاضي الجماعة أو قاضي الحضرة. فقد سمي القاضي أبو عبد اللـه محمد القرشي المعـروف بالمقري، قاضي فـاس بقاضي الحضرة المرينية(٩٨) وكـذلك القاضي محمد بن احمد التميمي بقاضي الجماعة. وكذلك قضاة حضرة تونس(٩٩).

وكان القاضي في مـدينة سبتة في الفترة المتأخرة مـن العصور الوسطى، يلقـب بقاضي القضاة،

خلال فترة حكـم أسرة بني العزمـي، التي ظهرت على مسرح الحكم في مـدينة سبتة منـذ سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م وظلت حتى احتلها صاحب مالقة من بني الاحمر وضمها الى دولته(١٠٠).
وبقيت خطة الشـورى من الخطـط المهمة الملحقـة بـالقضاء. وظـل يطلق على مـن يتقلدهـا (المشاور) حتى نهايـة القرن التاسع الهجـري موضوع هذا البحـث، وظل اختصاصها ثـابتا حول الافتـاء وابداء الـرأي في المسائل الشرعيـة البحتة(١٠١) وتطـور الامر بـأصحاب هـذه الخطة إلى الافضل بعد نهايـة القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. فقـد كانوا قبل ذلك دون مرتبة قاضي الجماعة، مع أنه كان يستشيرهم في بعض المسائل والاحكام، وكان رأيه هو المعول عليه في اصدار الاحكام. أمـا في الفترة التي تلت نهاية القرن السادس الهجري، فقد انقلبت الصورة تمامـاً، حيث أن قاضي الجماعة مهما كـانت مرتبته العلميـة وخبرته العملية في القضاء، فان أحكامه كانت تظل رهن مـواقفه المفتي المشاور ولاقيمة لها بدون موافقته. وكان ابن الدبـاغ صاحب كتاب(معالم الايمان في معـرفة أهل القيروان) خير من ألمح إلى ذلـك الواقع بـوضوح تـام. ومـع ذلك فقـد نسي، أن يحدد لنا على وجـه الـدقة، متـى كـان هذا التحـول. يقول:«....ان القاضي ،قاضي الجماعة كان عندهم أرجح من الفتيا، وليس كذلك في زماننا. وذلك أن القاضي ولـو كان من أدين خلـق الله، لابد أن يشتكي منه بعـض المحكوم عليهم، فلابـد من ناظـر فوقه ينظـر في أموره، وذلك المفتـي هو الذي يـرتهن في قاضي الجماعة، ولايقـدم قاضي الجماعة قاضيا في بلده من عمالته أو شـاهداً أو حكيماً معتبراً الا بعد مطالعته. فهو القاضي في الحقيقة، وقاضي الجماعة انما هو كالنائب عنـه. ولايختل هذا النظام الا اذا قاضي الجماعة قدر المفتي في العلم ويكون السلطان قدمه لنفسه..»(١٠٢)
وفي ظل حكـم الحفصيين بتونـس، كان بعض الفقهـاء يقومـون بالاشراف المبـاشر على جميع القضاة، وتفقد أعمالهم والـوقوف على حسن سيرها، مثـال ذلك أحمد بن محمد الهنتـاني أبو العباس، الذي عين ناظراً على جميع الكور وعدولها.(١٠٣)
وحـافظ القضـاة على المسيرة العامـة لأسلوب وأصـول المحاكمات، لان المذهـب المالكي بقـي الوحيد في المغرب والاندلـس، كما كان من قبل. وهذا ماجعل العقوبـات، هي نفسها التي ينص عليها هذا المذهب. لكن ذلك لم يكن بصورة مطلقة، بل وجد من القضاة من شذ عن ذلك، وكان عقوباتهم تصـل الى حد من الشناعـة والبشاعة، بشكل لايليـق بالانسان، مما كـان يؤدي الى تحريك غيرة الحكـام وحرصهـم على حياة الناس، فيقـومون بعزل مثـل هؤلاء القضـاة. فقد استغل القـاضي ابن دحية مسألـة كراهية الموحـدين للموسيقـى والغناء، فحكم خلال الـربع الاخير من القرن السـادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، على شخص ضبـط وهو يستعمل زمراً بأن قام بشق فمه وتشويه وجهه، واستئصـال مذاكير شخص آخر، مع أنه لايوجد نص قرآني أو حـديث نبوي، يخوله فعـل هذه الجرائم البشعة. ولما سمع المنصـور الموحدي بهذا الحكم البشع، قام بخلع القاضي ابن دحية، وكان اذ ذاك على قضاء دانية في شرق الاندلس.

وقد جاء هذا الحكم في وقت كان الحكام الموحدون، قد بدأوا يتسامحون مع المغنين والموسيقيين بعد ملاحقة قاسية لهم منذ بداية حكم الموحدين.(١٠٤) والشيء اللافت للانتباه في قضاء هذه الفترة من تاريخ المغرب والاندلس، تلك التطورات والمسائل الجديدة، التي كانت تظهر بين الفينة والاخرى على مسرح القضاء. فلم نعد نسمع ونقرأ عن قاضٍ كان يقوم بمهمة الصلاة إلى جانب القضاء، كما كان الحال في القرون الخالية، بل أصبح يقال، أن فلانا القاضي عين للقضاء والخطابة، كما حدث مع القاضي محمد بن محمد السلمي، الذي ولي القضاء والخطابة بغرناطة سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٨م(١٠٥).

لكن هذه التطورات لم تكن عامة أو ملزمة، بقدر ماكانت فردية اقتصرت على بعض القضاة المتفقهين، الذين يقرنون تطورالاساليب القضائية بتطور العادات والأزمان، كالقاضي أبي المطرف بن عبد الرحمن المالكي، الذي ولي القضاء في مدينة مالقة وضواحيها في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وكانت له في الاقضية مذاهب من الاجتهاد، لم تكن لغيره من رجال طبقته، مثال ذلك أنه كان يقول في اللصوص المحاربين، اذا اخذوا ومعهم أموال، فجاء قوم يدعون ملك الاموال وليست لهم بينة، ان القول قولهم في أن الما ل لهم بعد الاستئناء قليلا، وروجع في ذلك فقال، المروي عن مالك أنه قال، يقبل قولهم على اللصوص ودعواهم بغير بينة، وما أعطاهم مالك ذلك الا بسيئة الحال، التي عليهم من أنفسهم بالفساد، فكانت حالهم السيئة من السعي في الارض بغير الحق بينة عليهم.

كذلك كان يقول في الظالم المعروف بأخذ أموال الناس واستباحتها بغير حق، ويردد قول عمر بن عبد العزيز: (تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور ولافجور أعظم من الظلم والتسلط على أموال الناس وأشيائهم بغير الحق. وقد جعل الله عليهم بذلك السبيل، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير حق)(١٠٦). فاذا كان للمظلوم سبيل فالقول قوله وعلى المدعى عليه البينة، فان البينة في لسان العرب مشتقة من البيان، فكيفما تبين الامر فهو بينة كله(١٠٧) فظلم الظالم بينة عليه.

وكان باستطاعة القاضي في هذه الفترة اسقاط أية شهادة، يراها كاذبة أو مشكوك بصحتها، وهذا مافعله القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن فرتون في سرقسطة، عندما حضر عنده مجموعة من الرجال بلغ عددها خمسة عشر رجلا، شهدوا على أبي عمر الطلمنكي، بأنه حروري سفاك للدماء، فأسقط شهاداتهم على الرغم من أنهم كانوا جميعا من النبهاء والعلماء المرموقين في مدينة سرقسطة، لانه شعر بأن دوافعهم شخصية بحتة، لاتمت الى جذور الحق والعدل(١٠٨).

ووجد من بين القضاة في الاندلس، من كان لايتقيد بالمتواتر عن الصحابة من أحكام وثوابت قانونية شرعية. نذكر من هؤلاء قاضي المرية في عهد المرابطين محمد بن يحيى المعروف بابن البراء، الذي رفض أمر الحاكم المرابطي، بأن يفرض معونة على أهل المرية ويرسلها إليه

لاستخدامها في تمويل عمليات الجهاد والمناضلة، فرفض ذلك على الرغم من تذكير الحاكم له، بأن الخليفة عمر بن الخطاب صاحب رسول الله (ص)، وافق على ذلك وما يحق له لايحق لغيره(١٠٩).

ويشمل جزء من هذه التطورات قضية الشهود أثناء المحاكمات. فقد كان القاضي أبو محمد عبد الله الوحيدي، الذي ولي قضاء مدينة رية خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، هو الذي ينتقي الشهود، وكان يساوي بين الشريف والمشروف في القضاء، وهو الذي بدأ تجديد ماكان قد درس من رسم الاحباس(١١٠).

أما قاضي بجاية محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الانصاري الشاطي، فكان يرى أن لايقدم الشهود الا عند الحاجة، ويرى كثرة الشهود مفسدة وطلب منه الحاكم ان يقدم رجلا من أهل بجاية، فقال له مشافهة، ان شئتم قدمتموه وأخرتموني، وكان يرى أن جنايات الشاهد انما هي في صحيفة من يقدمه من باب قوله عليه الصلاة والسلام (من سن سنة حسنة ومن سن سنة سيئة)(١١١).

وقدرأى بعض القضاة عدم صحة أي عقد من العقود، مالم يشهد بصحته أربعة من الشهود العدول، على الرغم من أن القاضي ابن رشد خلال القرن السادس الهجري، كان يقول، إنه يكفي اثنان من الشهود العدول، ويرفض أن يشهد أكثر من ذلك عملا بما جاء في الذكر الحكيم (واستشهدوا بشهيدين من رجالكم)(١١٢) هذا القاضي هو يحيى بن مسعود المحاربي قاضي غرناطة(١١٣).

وبقي القضاء محافظا على قدره واحترامه ومكانته حتى نهاية عصر الموحدين أو قبل ذلك بقليل. ودليل ذلك أن عظماء وكبار الحكام، كانوا يقفون بخشوع واحترام أمام ارادة القضاة من خلال أحكامهم الرائدة، مثال هؤلاء الحكام، الخليفة المنصور الموحدي، الذي كان قد زوج أخته لابي محمد عبد الواحد الحفصي. وفي وقت من الأوقات جرت بينهما منافرة جاءت على أثرها الى بيت الخليفة الموحدي المذكور، وبعد أمد قصير لجأ زوجها الى القاضي، الذي قام بدوره بابلاغ الخليفة ضرورة أن يعيدها إلى زوجها، وتكرّر ذلك للمرة الثالثة، التي قال خلالها القاضي للخليفة: (يامولانا ان الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله، فاما ان يسير اليه أهله، وأما ان تعزلني عن القضاء فضحك المنصور وأمر أحد غلمانه سرا بإيصال أخته الى زوجها)(١١٤).

لكن الامر لم يكن كذلك في الفترة، التي أعقبت حكم الموحدين، والتي تبدأ منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وتنتهي في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وخلال هذه الفترة لم يبق القضاة يسيرون على الدرب، التي كان يسير عليها أسلافهم والتي تجسدت بالاستقامة والصلابة والجرأة في مسألة اتخاذ الاحكام دون خوف من أحد، هذا بالاضافة الى المعرفة العلمية المكينة، التي كانت من أهم شروط المرشحين

للقضاء، أصابها هي الاخرى بعض الإهمال. فقد ذكر ابن الدباغ الذي عاش معظم سني القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أن القضاة في عصره، لم يكونوا بالسوية أو المرتبة، التي كان عليها من سبقهم من القضاة. وكان يقارن بين معاصريه منهم وبين الذين سبقوهم مثل القاضي ابن غانم ، الذي اشتهر أمره في عهد الاغالبة بتونس، الذي يقول فيه: (واعجباه! هكذا كان القضاة في تواضعهم وتعظيمهم لاصحابهم، واليوم صار يتقدم على الناس قاضيا من لايستحقه، فكما غلط فيه من قدمه، فأخذ هو في نفسه بالتكبر عمن هو مثل من قدمه. وما عاينته من قضاة الوقت أعظم مما استتر فيهم، فالله يجبر كسر المسلمين، حتى لايتقدم على الناس الا أعلمهم وأتقاهم، بحيث يكون القاضي لاتأخذه في الله لومة لائم في سائر البلاد شرقا وغربا)(١١٥).

وصار بعض القضاة ألعوبة في أيدي الحكام وبعض الوزراء المتنفيذين، الامر الذي جعلهم ينفذون كل مايطلب منهم، مهما كان قبيحا وخطيرا. وفي هذا الصدد، يقول صاحب كتاب (التاج المكلل) في ترجمة الوزير الاندلسي لسان الدين بن الخطيب، بعد ان ذكر مقتله سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م: (أن قتله كان من المجازفات التي صار يرتكبها قضاة المالكية ويريقون بها دماء المسلمين بلا قران ولابرهان)(١١٦).

ومن كان يتصلب أمام هذا الواقع المخزي من القضاة، وفي سبيل أن تظل راية الحق خفاقة ترتفع فوق كل الرايات، كان يواجه بتهديدات قاسية، كثيرا ماكانت تتوج بانهاء الحياة والموت، مما كان يجعل بعض القضاة غير قادر على الخروج ليلا من بيته(١١٧).

وتمتاز هذه الفترة عن سابقتها بظهور تسمية جديدة، أطلقت على بعض فروع القضاء، وهي تسمية (قاضي العسكر)، الذي كان يرافق القوات العسكرية في حلها وترحالها، ومهمته حل كل مايحدث في صفوف العسكريين من مشاحنات وخصومات، وهو نفسه الذي كان يسمى في الفترة السابقة (قاضي الجند)، عندما لم تكن الحياة المدنية قد استقرت وتشعبت مصالح الناس، بعد أن كثرت جموعهم، وبالتالي تعقدت مشاكلهم العامة والخاصة. نضرب على ذلك مثلا القاضي عبد الرحيم بن اسماعيل، الذي عينه المرابطون قاضيا لعسكرهم الموجود في مدينة سلا المغربية(١١٨). وكان قاضي العسكر هذا يسمى في بعض الاحيان والاماكن (قاضي المحلة) الذي لايستبعد أن تكون هذه التسمية اقتصرت بشكل خاص على حواضر وعواصم الدول المنفصلة، التي أُبْتُلِي بها المغرب العربي بعد زوال الدولة الموحدية، مثل القاضي محمد بن أحمد بن ابراهيم التريكي المتوفي سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م الذي عين كقاضٍ للمحلة أو العسكر في تونس حاضرة الحفصيين(١١٩). ومثله قضاة كثيرون تعاقبوا على قضاء العسكر في مدينة فاس وتلمسان حاضرتي الدولة الزيانية والمرينية(١٢٠).

إضافة إلى قاضي العسكر، فقد وجد قاض موسمي، هو القاضي الذي كان يعين على قضاء قافلة الحج، التي تفرقت الى عدة قوافل تبعا لتفريق الدول وتشتتها. ففي حين كانت قافلة واحدة في

عصر المرابطين والموحدين، صارت نحو ثلاث أو أكثر بعد سقوط دولة الموحدين. فقد كان المرنييون الذين حكموا المغرب الاقصى، يرسلون قاضيا مع ركب الحاج الذاهب الى الاراضي المقدسة بالحجاز لتأدية فريضة الحج. وكان هذا القاضي يدعى (قاضي ركب الحجيج المريني) مثال ذلك القاضي محمد بن زغبوش، الذي عين لهذه المهمة في موسم سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م في عهد السلطان أبي يعقوب المريني(١٢١). وكذلك كان الامر عند الحفصيين في تونس والزيانيين في الجزائر.

وكان لكل قاض مساعد أو نائب، كثيرا ماسمي في هذه الفترة بصاحب الأحكام، وهي تسمية أطلقت أحيانا على القاضي نفسه. وكان القضاة يريدون من نوابهم ومساعديهم أن يكونوا مثالا للاستقامة والصرامة، وعدم التهاون في احقاق حقوق الناس على أساس تعاليم الشرع وأحكامه، ويظهر ذلك بجلاء من خلال أمر تعيين أحد القضاة نائبا عنه في بعض جهات مرسية بالاندلس. يقول: (قلدت فلانا وفقه الله النظر في أحكام فلانة وتخيرته لها بعد ما خبرته، واستحلفته عليها وقد عرفته وقلدته واثقا بدينه راجيا لتحصينه، لانه احتاط فعلم وان أضاع أثم. فليقم الحق على أركانه وليصنع العدل في ميزانه، وليساو بين خصومه، وليأخذ من الظالم لمظلومه. فقف في الحكم عند استشباهه، ونفذه عند اتجاهه، ولاتقبل غير المرضي في شهادته، ومن لاتعرف سوى الاستقامة من عادته، ولتعلم ان الله مطّلع على خفياته وسائله يوم ملاقاته)(١٢٢).

إلى جانب ذلك نرى قاضي الانكحة، الذي ظل معروفا في هذا العصر، كما كان في سابق عهده، وان كانت مهمته قد تحددت بدقة أكبر. ففي تونس وغيرها من بلاد المغرب والاندلس الاخرى، جرى العرف بأن نظر قاضي الجماعة هو نظر عام يشمل قاضي الانكحة، الذي يعد في أحسن حالاته نائبا عن قاضي الجماعة(١٢٣).

ومن ناحية اخرى فقد انقسم القضاة الى فريقين خلال هذه الفترة، فريق قبل أصحابه تناول الاجر، الذي كان مقرراً للقاضي، وكان أجرا محترما، وفريق رفض تناول هذا الاجر، اما أن يكون من أجل مضاعفة الاجر والثواب عند الله. أو أن حالته المادية تساعده على عدم اللجوء إلى ذلك(١٢٤).

وبقي المكان الذي يقضي فيه القاضي بين الناس غير مستقر أو محدَد في جهة معينة. فكان بعض القضاة كما في السابق يقضي بين الناس في المسجد، حيث تعين فيه زاوية خاصة لهذا الامر. وبعضهم الآخر كان يمارس عمله في منزله أو في مكان آخر(١٢٥). ولايعرف السبب الذي جعل الحكومات العربية الإسلامية في العصور الوسطى موضوع هذا البحث، تهمل هذا الامر، على الرغم من جلالة وعظمة منصب القضاء في تلك العصور السالفة. ومهما كانت حقيقة الواقع، فان ذلك يعد هفوة كبيرة وقع بها هؤلاء الحكام، وشاركهم فيها القضاة، الذين لم ينبهوا لمثل هذا الامر، الذي كان من غير الممكن رفضه من قبل أي حاكم.

وكان لـوجود القضاء في البيوت على الـرغم من ذلك حسنـات عديدة، فبـالاضافة الى أنه يـوفر للقاضي جـوا مريحا على مختلف الـوجوه، فقد حـدث أن شاركـت بعض من زوجـات القضاة بانجـاز كثير من الاحكام والنوازل، فقـد حكي أن بعض قضـاة لوشة، كـانت له زوجة فـاقت العلماء في معرفة الاحكام والنوازل، وكان في محل قضائه تنزل به النوازل، فيقوم اليها، فتشير عليه بما يحكم به(١٢٦).

بقي أن ننوه بفـرع آخر من فروع القضاء في المغـرب والاندلس خلال العصور الـوسطى، هو قضاء أهل الذمـة. فنقول في البداية، أن العرب المسلمين في الاندلـس والمغرب، برهنوا على أنهم خير من تمثل روح الاسلام النقية الصافيـة في ميدان التعامل مع غير المسلمين من المسيحيين واليهود على جميـع الصعد، ولاسيما على صعيد القضاء؛ فـالذي حدث في المغرب والانـدلس في هذا الميدان، لم يحدث مايماثله في منطقة عربية اسلامية اخرى خلال العصور الوسطى، وهذا مايقودنا لتـأكيد فكرة مهمة، هي أن عرب المغـرب والاندلس، استطاعوا أن يتفوقـوا في مسـألة تطبيق التعاليم الاسـلامية الصحيحة، التي تؤكد على التعايش الانسـاني والحضاري مع كل شعوب الارض.

فمن هم أهـل الذمة، الذي تشملهـم هذه التسمية؟ كل القواميـس اللغوية تقول، أن الـذمة هي العهد والكفالـة، وتجمع على ذمام، وفلان له ذمـة أي حق. وهم الذين يـؤدون الجزية من غير المسلمين. ورجل ذمي في معناه رجل له عهد، وسمي أهـل الذمة ذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم(١٢٧). وجاء في الكتاب العزيز (لايرقبون في مؤمن ولا ذمة)(١٢٨).

وبصورة عامة فان اصطلاح أهل الذمة، يعنـي الجماعة من الناس، التي تؤدي الجزية من أهل الكتاب، الذيـن عاهدوا المسلمين على أن يجري عليهم حكـم الله ورسوله، طـالما هم مقيمون في ديار المسلمين، وعلى المسلمين اقـرار غيرهم على دينهم، وحمايتهم حمايـة كاملة بشرط تـأدية الجزية، والتزامهم بـالمسيرة الاسلامية العامة، باستثناء الشـؤون الدينية البحتة(١٢٩). وفي مقابل ذلك كان على المسلمين رفع الظلم والعدوان عن أهل الذمة في أموالهم وممتلكاتهم العامة، ولهم الحق في العيش مع المسلمين عيشة هانئة لانهم رعية الدولة ومواطنيها(١٣٠).

وقد طبق العـرب المسلمون في المغرب والاندلـس جميع الشروط التي أقرهـا الشرع الاسلامي، وزادوا على ذلك باعطاء أهل الذمة، الذين كـانوا بصورة خاصة من اليهود والمسيحيين حريات واسعـة جدا، تـوجـت بـالسماح لهم بممارسة القضـاء على مـذاهبهـم الدينيـة والحكـم بين المتخاصمين بمقتضـى قانـون هذه الاديـان وتشريعاتها، وهـذا لم يحصل لـه نظير في منطقة أخرى غير الاندلس. وظلّ ذلك مرعيا راسخ الجزور طوال فترة الحكم العربي هناك تقريبا.

وقد حكم النصارى في دوائر قضائهـم بموجب القانون القوطي، وكان قـاضيهم يسمى قاضي النصـارى وقـاضي العجـم. وكـذلـك كـان لليهـود تنظيـم قضـائي واداري كما كـان للمسيحيين(١٣١) وكانـوا يعينون لهم حكاما مـن أبناء جنسهم عهدوا اليهـم بسن الضرائب

المطلوبة والاشراف على النظام والامن في المنطقة(١٣٢). ولم يكـونوا يلجأون للقاضي المسلم الا في مسائل القتل، فكانـوا يقدمون اليه ويعرضـون ادلتهـم. وكانت المحاكم الذميـة تقبل شـهادة المسلم على الذمي(١٣٣).
أما في الحالات التي كـان الذميون، يقدمون على شتـم الرسـول العربي الكريـم، أو التقليل من قدر الديـن الاسلامي، فكانـوا يحالون الى القاضي المسلم، مثـال ذلك ماحدث سنـة ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م في عهد الامـارة الامويـة، عندمـا قام المستعربـون(١٣٤) في حركتهـم المعاديـة للعرب المسلمين في الاندلس، واستهلوها بشتم الرسول العربي الكـريم، والقول بأن الدين الاسـلامي دين يقوم على الوهـم والخيال. فأحيل عدد كبير منهم الى قاضي المسلمين. لكـن وعلى الرغم من بشاعـة جرمهـم في ذلك الوقـت، فقد أمـر الامير الاموي عبد الـرحمن الثاني بـاعطاء المتهمين فرصة كبيرة للدفاع عـن أنفسـهم بتوكيل من يدافع عنهم، وإخضـاع الأحكام الى درجات، حتى لايظلم أحد منهـم. فكان لذلك أثـره الايجابي الرائع في نفوس المستعربين، الامـر الذي جعلهم يخففون من غلواء ثورتهم، ويعتبرون ان من مات في هذه الحركة ليس من الشـهداء(١٣٤).
وإذا كان أحد أطـراف القضية رجلا مسلما وهو المعتـدى، فقد كانت القضيـة تحال الى قاضي المسلمين للفصل فيهـا، بحسب معطيات الشرع الاســلامي، الذي لايفـرق بين المتخاصمين الا بالحق. ففــي بدايـة القرن الثـالث الهجري/ التـاسع الميـلادي، وخلال فترة قضـاء القاضي سليمان بن الاسود الغافقي. ففي مدينة مـاردة حدث ان أمير المدينة حجز امرأة مملوكة تعود ملكيتها الى رجل يهودي، فشكـى اليهودي أمره الى القاضي سـابق الذكر واستشـهـد بمن حول دار الامارة، بأنها مـوجودة عند الامير. وبعد تحقيق طـويل كان من ضمنه انحـاء اللائمة على الامير، وأنه اذا لم يُعِدْ الجاريـة الى اليهودي فانه أي القـاضي سيترك عمله ويذهب الى قـرطبة. وبالفعل فقـد غادر القاضي مدينة ماردة متـوجها الى قرطبة، وبينما كان على مسافـة ميل منها جاءه أحد فتيان دار الامـارة، وأخبره بأن الجارية موجودة عند أحـد فتيان الامير، ولم يكن له علـم بذلـك، فأصر القـاضي على أن تحضر(١٣٦) الجارية الى حيـث هو مـوجود ليسلمهـا الى اليهودي، فجيء بالجارية وسلمت إلى صاحبها.
وقد عرفت في عصر الخلافة الاموية بالاندلس بعض أسماء القضاة المسيحيين الذين كانوا على علاقة طيبة مع بعض خلفاء هذه الفترة. نذكر منهـم القاضي اصبغ بن عبد الله ببن نبيل قاضي النصارى على عهد الخليفة الحكم المستنصر، واصبغ بن سلمة، وهو الذي استعان به المنصور محمد بـن أبي عامـر حاكـم الاندلس سنــة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م لحل خـلاف وقع بين الفـونسو وبعض المتنفذين من المسيحيين في جليقية، وقـد حل الخلاف من قبل القاضي المذكور(١٣٧).
ووليد بن حيزون الذي شغل دور المترجم بين الحكم المستنصر وبعض الوفود الاوروبية التي حضرت الى قـرطبة(١٣٨) وقـد عـاصر الاول كمسـؤول عن قسـامـة قـومه اليهـود في بلـدة (اليسـانة) القريبة من قرطبة، الحجاج بن متوكل اليهودي سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٤م(١٣٩).

وسلك القضـاة المسلمون مع المتهمين الـذميين بالاستهتار بجـوهر الـدين الاسلامـي مسلكا طيبا، فكان القاضي المسلـم. يطرح على المتهم مسألة اعتناق الاسلام، فـان قبل بها نجا وبرئت ساحتـه، وان رفض طبقت بحقه العقـوبة المنصوصة على جـرمه، وهي الموت في حالـه شتمه للرسول العربي الكريم(١٤٠).

وكان القضاة العرب المسلمون، يقفون امام مقدسات المسيحيين باحترام بالغ، ولاسيما عندما كانوا يلجأون لاخذ اليمين منهم، فقد كانوا يبحثون عن أهم المقدسات المسيحية في البلدان التي كانوا يعملون فيها من أجل ان يحلف المسيحيـون في قضية معينة فكانوا يخيرون بالذهاب الى أقدس مـركز دينـي ومعهم نـائب عن القـاضي المسلم، يـرافقه أحـد الشهود، فيحلـف اليمين وتنقضي المشكلة(١٤١).

وهناك حالة أخرى كانت تستوجب احالـة المتهم الى القاضي المسلم، وهي التعامل مع الاسبان في الشمال، فقد واجـه القاضي أبو الـوليد بن رشـد واحدة مـن هذه الحالات، عندمـا أحيلت الى دائرته القضائية مجموعة من المعاهدين الاسبان، فحكم على جميع افراد هذه المجموعة بالنفي الى المغرب وتفريقهم في نواحيه، وهو أحق ما يؤخـذ به في عقابهم. وكان أفراد هذه المجموعة قد اتصلـوا مـع اسبـان الشمال، وشجعـوهـم على غـزو ا العـرب المسلمين سنـة ٥١٩هـ/ ١١٢٦م(١٤٢).

وتدخل بعـض الحكام لدى القضاة للتخفيف من وطـأة الاحكام على أهل الذمة، على الـرغم من شناعـة الجرائم، التي كانـوا يقترفونها. فقد توسـط يوسف بـن تاشفين لدى قـاضي الجماعة بقرطبة محمد بـن علي التغلبي، وأمره بالاكتفاء بتغريم يهود اليسانـة بشيء يراه مناسبا لانهم يزعمون ان الرسول الكريم كان منهم(١٤٣).

وفي حال عدم وجود قاضي ذمي في أية مدينة، كان قاضيها المسلم يكلف بالنظر في شؤون أهل الـذمة، كما فعـل القاضي منـذر بن سعيـد البلوطـي، عندمـا كان قـاضيا للجـزر الاندلسيـة الشرقية(١٤٤). أي قبـل ان يصبح قـاضيا للجماعـة في مدينـة قرطبـة خلال القـرن الرابـع الهجري/ العاشر الميلادي(١٤٥). وبـالجملة فقد تمثل القضاة المغاربـة والاندلسيون خلال العصور الـوسطى كـل الصفات الطيبـة والانسانيـة الخالصة، واقتنعـوا في أحكامهـم المثل الصالح في عهـد النبوة والراشديـة وكأنهم كانوا يـرون ويعلمون بدقة، انـه لاصلاح لمجتمعٍ، مهما كانت امكاناته المادية والعلمية بدون قضاء محايد يأخذ الحق للضعيف من القوي.

الحواشي

١ـ ابن منظور ، لسان العرب ،مادة قضى.
٢ـ سورة النساء الاية ٦٤.
٣ـ ابن كثير (اسماعيل بن عمر) تفسير القرآن ج— طبعة ثانية بيروت دار المعرفة ١٩٨٨.
٤ـ سورة النساء الآية ١٠٥.
٥ـ الونشريسي ، كتاب الولايات، تحقيق محمد الامين بلغيث، دون ذكر لمكان وتاريخ الطبعة ص ٣٨ وما بعدها.
٦ـ الماوردي (علي بن محمد)، الاحكام السلطانية، طبعة بيروت، دار الكتب العلمية بدون تاريخ ص ٦٧ـ٦٨ الونشريسي، المصدر السابق ص٤٢.
٧ـ الونشريسي ـ المصدر السابق ص٤٢.
٨ـ الماوردي ـ المصدر السابق ص٧٠ـ٧١ الونشريسي ـ المصدر السابق ص٥٦ـ٥٧.
٩ـ الماوردي ـ المصدر السابق ٧١ـ٨٧.
١٠ـ استمرت عملية فتح المغرب من سنة ٢١ـ٨٧ هـ ـ تقريباً.
١١ـ محمود عرنوس ـ تاريخ القضاء في الاسلام، نشر مكتبات الكليات الازهرية بمصر بدون تا ص٢١.
١٢ـ ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر)، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج١ تحقيق محي الدين عبد الحميد بدون تا ولامكان الطبعة، ص٢١ وما بعدها.
١٣ـ حسن حسني عبد الوهاب ـ كتاب العمر ـ مراجعة واكمال محمد العروسي المطوي وبشير البكوشي، طبعة اولى بيروت، دار الغرب الاسلامي ص٢٢٠ النباهي ـ المرقبة العليا.
نشر ليفي بروفنسال، دار الكتاب المصري القاهرة ١٩٤٨ ص٤٣.
١٤ـ خير الله طلفاق ، حضارة العرب في الاندلس، طبعة دار الحرية، بغداد ١٩٧٧ ص١١٢.
١٦ـ الخشني ـ قضاة قرطبة ـ طبعة الدار المصرية للتاليف والترجمة ١٩٦٦ ص١٢ـ١٣ وقد ذكر النباهي في المرقبة العليا ان هذا القاضي هو يحيى بن زيد التجيبيي ص٤٣.
١٧ـ المالكي ، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، ج١ طبعة دار الغرب الاسلامي، بيروت ١٩٨٣ ص١٠٩.
١٨ـ في العصور الوسطى كان المغرب الاقصى يمتد من وادي ملوية إلى آسفي على المحيط الاطلسي، وسمي كذلك لانه ابعد ولايات الدولة الاموية عن العاصمة دمشق.
١٩ـ شكيب ارسلان ، الحلل السندسية، ج١ طبعة اولى، فاس المكتبة التجارية الكبرى ،١٩٦٣ ص٢٥٢
٢٠ـ الخشني ، قضاة قرطبة ص٦.
٢١ـ شكيب ارسلان ، المرجع السابق ص١٢.
٢٢ـ القاضي عياض (اليحصبي) ترتيب وتقريب المسالك ،ج١ تحقيق احمد بكير محمد.
دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٧ ص١٠.
٢٣ـ النباهي ـ المصدر السابق ص٦.
٢٤ـ النباهي ـ المصدر السابق ص٣.
٢٥ـ شارل جوليان ،تاريخ شمال افريقيا، ترجمة محمد مزال والبشير بن سلامة، المطبعة التونسية

للنشر تونس ،١٩٧٨، ص٦٩ سعد زغلول عبد الحميد ـ هامش على مصادر الاباضية في المغرب، دراسة لكتاب السير في مجلة اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب العربي وحضارته ج١ المطبعة العصرية تونس ١٩٨٩ ص٧٥.

٢٦ـ سعد زغلول عبد الحميد ،المرجع السابق ص٧٥.

٢٧ـ محمود عرنوس ،المرجع السابق ص٤٤ ـ٤٥.

٢٨ـ هو يوسف الفهري ،آخر حكام عصر الولاة في الاندلس.

٢٩ـ الخشني، المصدر السابق ص٢٤ ،النباهي ،المصدر السابق ص٢١، محمود عرنوس المرجع السابق ص٩٩.

٣٠ـ ابن القوطية (محمد بن عمر القرطبي) ،تاريخ افتتاح الاندلس، تحقيق عبد الله انيس الطباع، طبعة بيروت ١٩٥٧ ص٩٣ـ ٩٤.

٣١ـ المراكشي (ابن عبد الله الملك)، الذيل والتكلمة، السفر الخامس القسم الاول، تحقيق احسان عباس، بيروت دار الثقافة ١٩٦٥ ص١١٤.

٣٢ـ ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة ج١ الدار المصرية للتاليف والترجمة ١٩٦٦ ص٥٦.

٣٣ـ الذهبي (محمد بن احمد شمس الدين)، العبر في خبر من غبر، ج٥ تحقيق ابو هاجر محمد زغلول، طبعة اولى بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٥ ص٢٦١.

٣٤ـ النباهي ،المصدر السابق ص٤٧ ـ٤٨.

٣٥ـ ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق ص١٠٠.

٣٦ــ ابن بشكوال ، المصدر السابق، ج٢ ص٤٧٦ و٥٠٧ و٥٤٧ و٥٧١

٣٧ـ المالكي ، رياض النفوس ،ج١ ص١٧٦ـ ١٧٧.

٣٨ـ محمود عرنوس المرجع السابق ص١٣٦.

٣٩ـ محمد علي دبوز ، المغرب الكبير ،ج٢ طبعة القاهرة، دار احياء الكتب العربية ١٩٦٣ ص٣٢١.

٤٠ـ يقع هذا الجبل إلى الجنوب من طرابلس عاصمة ليبية على بعد يتراوح بين ٨٠ إلى ١٨٠ كم ويسمى اليوم محافظة الجبل الغربي، وفيه بلدان غريان وزنتان ويفرق.

٤١ـ سعد زغلول عبد الحميد ،المرجع السابق ص٧٥.

٤٢ـ ابن الغرضي (عبد الله بن محمد)، تاريخ علماء الاندلس، ج١ علماء الاندلس ج١، الدار المصرية للتاليف والنشر والترجمة، القاهرة ١٩٦٦ ص٣٨٩ الخشني المصدر السابق ص٦٧.

٢٤٣ ابن الغرضي، المصدر السابق ص٢٢٦ ٢٢٧٢.

٤٤ـ النباهي ،المصدر السابق ص٥٣ ـ ٥٤.

٤٥ـ محمود عرنوس ،المرجع السابق ص٢٧.

٤٦ـ النباهي ،المصدر السابق ص٦٠.

٤٧ـ النباهي ،المصدر السابق ص١١٣.

٤٨ـ ابن الدباغ ،معالم الايمان في معرفة اهل القيروان، ج٢ تحقيق مصطفى عوض الحكيم، طبعة اولى الخرطوم ١٩٥٤ ص٢٩١ ـ٢٩٢.

٤٩ـ ابن عبد الملك المراكشي ،المصدر السابق ص٤٢ ـ٤٣.

٥٠ـ النباهي ،المصدر السابق ص٧٨،

٥١ـ شكيب ارسلان ،المصدر السابق ج١ ص١٤ـ١٥.

٥٢ـ سعد زغلول عبد الحميد ،المرجع السابق ص٧٥ـ ٧٦.

٥٣ـ ابن بشكوال ،المصدر السابق ص٢٣٦ ـ٢٣٧.
٥٤ـ ابن الخطيب (محمد بن عبد الملك السلماني)، الاحاطة في اخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة ثانية القاهرة ١٩٧٣، ص١٨٧
٥٥ـ سعد زغلول عبدالحميد ،المرجع السابق ص٧٦.
٥٦ـ محمد علي دبوز ،المرجع السابق ص٧٦.
٥٧ـ الضبي (احمد بن يحيى) ،بغية الملتمس، دار الكاتب العربي ١٩٦٧ ص١٤٤
٥٨ـ الخشني ،المصدر السابق ص٦٧ وما بعدها.
٥٩ـ سعد زغلول عبد الحميد ،المرجع السابق ص٧٧.
٦٠ـ النباهي، المصدر السابق ص٤٨.
٦١ـ سعد زغلول عبد الحميد ،المرجع السابق ص٧٨.
٦٢ـ الغبريني (أحمد بن احمد)، عنوان الدارية تحقيق عادل نويهض منشورات لجنة التاليف والترجمة والنشر، بيروت طبعة اولى ١٩٦٩ ،ص٦٣ عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ص٤٢٨.
٦٣ـ ابن عبد الملك المراكشي ،المصدر السابق ص٤٢٨ـ٤٢٩ ؛ابن الفرضي ،المصدر السابق ص٦٠ ـ ٦١.
٦٤ـ المالكي ،رياض النفوس ،ج٢ ص ٣٩٧.
٦٥ـ ابن الدباغ ،المصدر السابق ج٢ ص٣٥ ـ ٣٦.
٦٦ـ ابن الدباغ ،المصدر السابق ج٢ ص٣٣٧.
٦٧ـ النباهي ،المصدر السابق ص٢٨ ـ ٢٩ ؛ابن الدباغ المصدر السابق ص٦٠ـ ٦١.
٦٨ـ ابن الدباغ ،المصدر السابق ج٢ ص١٩٨ ١٩٩٢؛ القاضي عياض ، المصدر السابق ج٢ ص٥٩٥ وما بعدها.
٦٩ـ النباهي ،المصدر السابق ص٥٠ـ٥١.
٧٠ـ حسن حسني عبد الوهاب ،المرجع السابق ج٢ ص١١٦.
٧١ـ ابن الدباغ، المصدر السابق ج٢ ص١٥٢.
٧٢ـ ابن الدباغ ـ المصدر السابق ج٢ ص٣٢٧.
٧٣ـ النباهي ،المصدر السابق ج٢ ص٦٤ ـ٦٥.
٧٤ـ النباهي ، المصدر السابق ص٦١.
٧٥ـ القاضي عياض ، المصدر السابق ج٣٢ ص٧٧٥ ـ ٧٥٦ ؛ابن بشكوال، المصدر السابق ص٦٥٠.
٧٦ـ ابن بشكوال ،المصدر السابق ج٢ ص ٦٦٨ ـ٦٦٩.
٧٧ـ ابن بشكوال ،المصدر السابق ج١ ص١٣٧ ـ١٣٨.
٧٨ـ ابن بشكوال ،المصدر السابق ج٢ ص٥٠٥.
٧٩ـ النباهي ، المصدر السابق ص٨٩.
٨٠ـ الخزاعي (علي بن محمد)، تخريج الدلالات السمعية ، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت دار الغرب الاسلامي بدون تا ص٢٨٣.
٨١ـ المقري (احمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب ج١، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت ١٩٦٨ ص٦٥ و٤٨٢.
٨٢ـ الخشني ، المصدر السابق ص١٤١.
٨٣ـ ابن الدباغ ، المصدر السابق ج٢ ص٢٤٢.
٨٤ـ ابو العرب ،طبقات علماء افريقية، تحقيق علي الشاوي ونعيم الباقي، طبعة الدار التونسية للنشر

١٩٦٨ ص١٨٠؛ابن عذاري ـ البيان المغرب ج١ ص١٩٥.
٨٥ـ ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ص٢٤٩.
٨٦ـ ابن بشكوال ، المصدر السابق ص٥٠٤.
٨٧ـ حكم الاندلس خلال عصر الخلافة من سنة ٣٦٧ إلى سنة ٣٩٢.
٨٨ـ المقري ، نفح الطيب ج١ ص٤٠٩ ـ ٤١٠.
٨٩ـ القاضي عياض ،المصدر السابق ج٣ ـ٤ ص٧٨٤ ـ ٧٨٥، احمد بدر ،تاريخ الاندلس، طبعة دمشق ١٩٨٢ ص٥١.
٩٠ـ انظر مثالاً عن ذلك، الدرجيني ـ طبقات المشايخ با لمغرب ،ج٢ تحقيق ابراهيم طلاي، طبعة قسطينة الجزائر ص٣٣١ـ٣٣٧ المالكي ، رياض النفوس ،ج٢ ص٣٩٧ و٤٧٦.
٩١ـ ابن بشكوال، المصدر السابق ج٢ ص٣٣٦ ـ ٣٣٧ ،محمد عرنوس، المرجع السابق ص١٨٨.
٩٢ـ ابو العرب ـ المصدر السابق ص٨٤ المالكي رياض النفوس ص١٨٥.
٩٣ـ الحميري (محمد بن عبد المنعمو)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس طبعة بيروت ١٩٧٥،ص٨٥، مؤسسة الرسالة ١٩٧٦ ص٧٠.
٩٩ـ ابن الاحمر الغرناطي، المصدر السابق ص٢٢٦ـ٢٢٧.
١٠٠ـ ابن الاحمر الغرناطي، المصدر السابق ص١١٩ و٢٢٤.
١٠١ـ ابن الخطيب ،ا لاحاطة في اخبا ر غرناطة ،ج٢ ص٣٨٧.
١٠٢ـ ابن الدباغ، معالم الايمان ،ج٢ ص٣٣٢ ـ ٣٣٣.
١٠٣ـ شجرة النور الزكية ص٢٤٤.
١٠٤ـ ابن دحية (عمر بن الحسن) ،المطرب من اشعار أهل المغرب ،تحقيق مصطفى عوض الكريم، طبعة اولى الخرطوم ١٩٥٤ ص (و).
١٠٥ـ ابن الاحمر الغرناطي المصدر السابق ص١٥٦ـ ،ذـ
١٠٦ ـ سورة الشورى ،الاية ٤٢.
١٠٧ـ النباهي ،المصدر السابق، ص١٠٧.
١٠٨ـ شكيب ارسلان ،المرجع السابق، ج٢ ص١٤٥.
١٠٩ـ الناصري ،الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى، ج٤، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء، دار الكتاب ١٩٥٤ ص٥٩.
١١٠ـ النباهي ، المصدر السابق، ص ١٠٤.
١١١ـ المقري ،نفح الطيب ج٢ ص٦١٦ ـ ٦١٧.
١١٢ـ سورة البقرة ،الاية ٢٨٢.
١١٣ـ النباهي ،المصدر السابق ،ص١٣٩ـ ١٤٠.
١١٤ـ الناصري ،المصدر السابق ،ص١٩٩ ـ ٢٠٠.
١١٥ـ ابن الدباغ ،المصدر السابق ج١ ص٣٠٧ ـ٣٠٨.
١١٦ ـ القنوجي (صديق بن حسن)، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والاول، تصحيح عبد الحكيم شرف الدين ،الطبعة الهندية العربية. بومباي ،١٩٦٣ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١.
١١٧ـ المقري ،نفح الطيب ج٥ ص٣٨٦.
١١٨ـ ابن الغرضي ، المعجم في اصحاب القاضي ابن علي الصدقي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧ ،ص ٢٥٧.

١١٩ــ حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع السابق ص٤١٥.
١٢٠ـ ابن خلدون (عبد الرحمن)، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، منشورات دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣ ص٤٦٨.
١٢١ـ ابن خلدون ، العبر، ج١٣ ص٤٦٨.
١٢٢ـ ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ص٥٩٣.
١٢٣ـ ابن القاضي (أحمد بن محمد المكناسي)، ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال، ج٣ ،تحقيق محمد الاحمدي ابو النور، طبعة القاهرة وتونس ١٩٧١، ص١٤٢.
١٢٤ـ انظر امثلة عن هؤلاء القضاة ، النباهي، المصدر السابق ص٣٢.
١٢٥ـ ابن الاحمر الغرناطي ، اعلام المغرب والاندلس ص١٦٧.
١٢٦ـ المقري ، نفح الطيب ،ج٤ ص٢٩٤ـ ٢٩٥.
١٢٧ـ ابن منظور ، لسان العرب مادة (ذمم).
١٢٨ـ سورة التوبة ،الاية ١٠.
١٢٩ـ الكاساني (علاء الدين ابو بكر بن مسعود)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ج٥، الطبعة الثانية بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٦ ص٢٨١.
١٣٠ـ ابن قيم الجوزية ، احكام اهل الذمة، ج١، تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، طبعة ثانية بيروت ١٩٨١ ص٢٦.
١٣١ـ عمر فروخ ، العرب والاسلام في الحوض الغربي للبحر المتوسط، طبعة ثانية، بيروت دار الكتاب العربي ١٩٨١ ص١٨٤.
١٣٢ـ خالد الصوفي ـ تاريخ العرب في اسبانية طبعة مكتبة دار الشرق بدون تا ص٩١.
١٣٣ـ ادم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة، طبعة رابعة بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ ص٩٥.
١٣٤ــ المستعربون مجموعة من السكان الاسبان بقوا على دينهم، واصطبغوا بالتدريج بصبغة الحضارة العربية.
١٣٥ـ خير الله طلفاق، المرجع السابق ص١٦٩.
١٣٦ـ النباهي ، المصدر السابق ص٥٦ـ٥٧.
١٣٧ـ ابن خلدون ،العبر، ج٢ ص٣٩٠.
١٣٨ـ المقري ، نفح الطيب ج١ ص٣٩٠ ـ ٣٩١.
١٣٩ـ ابن حيان (أبو مروان)، المقتبس في اخبار اهل الاندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، طبعة بيروت، دار الثقافة ١٩٦٥ ص١٤٦ و١٤٩.
١٤٠ـ انظر مثالاً عن رجل يهودي حدث له مثل ذلك ، المالكي ، رياض النفوس، ج٢ ص٣٥٩.
١٤١ـ شجرة النور الزكية ص١٧٧ .
١٤٢ـ مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في الأخبار الاندلسية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩ ص٩٠.
١٤٣ـ مؤلف مجهول ، المصدر السابق ص٨٠ ـ ٨١.
١٤٤ـ هي جزر ميورقة ومنورقة ويابسة في شرق الاندلس.
١٤٥ـ ابن الابار (محمد بن عبد الله)، التكملة لكتاب الصلة، ج١، عني بنشره عزة العطار الحسيني، طبعة القاهرة ١٩٥٦ ص٢٩٣.

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ ابن الابار (محمد بن عبد الله) ،التكملة لكتاب الصلة، طبعة القاهرة ١٩٥٦ عني بنشره عزت العطار الحسيني.
٢ ـ ابن الاحمر الغرناطي (اسماعيل)، اعلام المغرب والاندلس في القرن الثامن، وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان ،تحقيق محمد رضوان الدايه ،الطبعة الاولى بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٧٦.
٣ ـ ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦.
٤ ـ ابن حيان (أبو مروان)، المقتبس في أخبار أهل الاندلس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، طبعة بيروت دار الثقافة ١٩٦٥.
٥ ـ ابن الخطيب (محمد بن عبد الله)، الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٤.
٦ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن)، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا منشورات، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٤.
٧ ـ ابن الدباغ ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق مصطفى عوض الحكيم،طبعة اولى الخرطوم ١٩٥٤.
٨ ـ ابن دحية (عمر بن الحسن)، المطرب من اشعار اهل المغرب، تحقيق مصطفى عوض الكريم، طبعة اولى الخرطوم ١٩٥٤.
٩ ـ ابن صاحب الصلاة، المن بالاقامة، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الاندلس للطباعة والنشر ،بيروت طبعة اولى ١٩٦٤.
١٠ ـ ابو العرب ، طبقات علماء افريقية تحقيق، علي الشاوي ونعيم الباقي، طبعة الدار التونسية للنشر ١٩٨٠.
١١ ـ ابن الفرضي (عبد الله بن محمد)، تاريخ علماء الاندلس، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ ؛ المعجم في اصحاب القاضي ابي علي الصدفي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧.
١٢ ـ ابن القاضي (احمد بن محمد المكناسي)، ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال، تحقيق محمد الاحمدي ابو النور، طبعة القاهرة وتونس ١٩٧١.
١٣ ـ ابن القوطية (محمد بن عمر القرطبي)، تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق عبد الله انيس الطباع، طبعة بيروت ١٩٥٧.
١٤ ـ ابن قيم الجوزية (محمد بن ابي بكر)، اعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محي الدين عبد الحميد، بدون تا. احكام اهل الذمة تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، طبعة ثانية بيروت ١٩٨١.
١٥ ـ ابن كثير (اسماعيل بن عمر)، تفسير القرآن، طبعة ثانية بيروت، دار المعرفة ١٩٨٨.
١٦ ـ آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة، طبعة رابعة بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٦٧.
١٧ ـ حسن حسني عبد الوهاب ، كتاب العمر ، مراجعة واكمال محمد العروسي المطوي وبشير البكوشي ، طبعة اولى بيروت، دار الغرب الاسلامي ـ بدون تا.
١٨ ـ الحميري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت ١٩٧٥.

١٩ ـ خالد الصوفي ، تاريخ العرب في اسبانية طبعة مكتبة دار الشرق، حلب بدون تا؛ الخزاعي (علي بن محمد)، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت، دار الغرب الاسلامي بدون تا.
٢٠ ـ الخشني ، قضاة قرطبة ، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦.
٢١ ـ الدرجيني ، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاي ، قسنطينة الجزائر بدون تا.
٢٢ ـ دوزي ، ملوك الطوائف ، ترجمة كامل كيلاني، طبعة اولى القاهرة ١٩٢٣.
٢٣ ـ الذهبي (محمد بن احمد)، العبر في خبر من غبر ج٥ تحقيق ابو هاجر محمد زغلول، طبعة اولى بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٨٥.
٢٤ ـ سعد زغلول عبد الحميد، هامش على مصادر الاباضية في المغرب ، دراسة لكتاب السير في مجلة اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، المطبعة المصرية بتونس ١٩٧٩
٢٥ ـ شارل جوليان ، تاريخ شمال افريقية، ترجمة محمد مزال والبشيرين، المطبعة التونسية للنشر، تونس ١٩٧٨.
٢٦ ـ شكيب ارسلان ، الحلل السندسية طبعة اولى، فاس المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٦.
٢٧ ـ الضبي (احمد بن يحيى)، بغية الملتمس، دار الكاتب العربي ١٩٦٧.
٢٨ ـ عمر فروخ ، العرب والاسلام في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط، طبعة ثانية بيروت ، دار الكتاب العربي ١٩٨١.
٢٩ ـ الغبريني (احمد بن احمد) ،عنوان الدراية، تحقيق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بيروت، طبعة اولى ١٩٦٩.
٣٠ ـ القاضي عياض (اليحصبي)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق احمد بكير محمد، دارمكتبة الحياة بيروت ١٩٦٧.
٣١ ـ القنوجي (صديق بن حسن) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الاخر والاول، تصحيح عبد الحكم شرف الدين، المطبعة الهندية العربية بومباي ١٩٦٣.
٣٢ ـ الكاساني (علاء الدين ابو بكر بن مسعود)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الطبعة الثانية، بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٧.
٣٣ ـ المالكي ، رياض النفوس ، تحقيق بشير البكوشي، طبعة دار الغرب الاسلامي بيروت ١٩٨٣.
٣٤ ـ الماوردي (علي بن محمد)، الاحكام السلطانية، طبعة بيروت دار الكتب العلمية بدون تا.
٣٥ ـ محمد علي ديوز، المغرب الكبير، القاهرة دار احياء الكتب العربية ١٩٦٢.
٣٦ ـ محمود عرنوس، تاريخ القضاء في الاسلام، نشر مكتبة الكليات الازهرية بمصر دون تا.
٣٧ ـ المراكشي (ابن عبد الملك)، الذيل والتكملة، السفر الخامس، تحقيق احسان عباس بيروت دار الثقافة ١٩٦٥.
٣٨ ـ المقري (احمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت ١٩٦٨.
٣٩ ـ مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في الاخبار الاندلسية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩
٤٠ ـ الناصري ـ الاستقصاء لاخبار دول الغرب الاقصى تحقيق، جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء، دار الكتاب ١٩٥٤.
٤١ ـ الونشريسي ، كتاب الولايات، تحقيق محمد الامين بلغيث، بدون تا.